تاريخ الاسلام

الخلفاء الراشدون

تأليف
عبد الوهاب النجار

القاهرة - ١٣٤٨

عنيت بنشره
المطبعة السلفية - ومكتبتها

تاريخ الإسلام

الخلفاء الراشدون

تأليف

عبد الوهاب النجار

القاهرة - ١٣٤٨

عنيت بنشره

المطبعة السلفية - ومكتبتها

بسم الله الرحمن الرحيم

الخلافة فى الاسلام

يقول علماء الاجتماع العمراني انه ما اجتمع عدد من الاحياء، سواء كان هذا العدد من الحيوان أو من بني الانسان، الا اتخذ له من بين افراده رئيساً يذعن الجمع لارادته ويهتدي بهديه ويبذل كل فرد نفسه في الدفاع عنه والمكافحة دونه. واتخاذُ الكائنات الحية رئيساً منها أمرٌ طبيعي تنساق اليه بمقتضى الفطرة

قائد الجماعة من بني الانسان اذا كان قد تمكن له الأمر وتوطدت سلطته على الجماعة وأوتي من النفوذ ما يحقق له السيادة عليهم، فنفذ أمره فيهم بمقتضى القهر والغلبة اللذين هما من آثار القوة الغضبية كان ملكاً مستبداً وغلب على أحكامه الجور والاجحاف بمن تحت يده في أحوال دنياهم، لما يستتبعه شأن القهر والغلبة من حمل القبيل على ما ليس في طوقهم من أغراضه ومشتهياته. ومن البين أن نَشْوَةَ الملك وسورة التسلط تحملان صاحبهما على الاشر في أغلب الاحوال

فاذا كان الملك يرجع في أحكامه الى قواعد يضعها العقلاء ويلزمون الكافة انتهاجها والسير على مقتضاها كان ذلك أرجى لاستقامة الأمر واجتماع الالفة في الجملة، وان كان الجورُ ليس بمأمون واستقامة الأحوال ليست بمستيقنة

أما اذا قام قائد الجماعة على أثر نبوة وفي عقيب رسالة وعلى نهج شريعة فقد خص في عرف أهل الاسلام باسم الخليفة، والمنصب باسم الخلافة أو الامامة تمييزاً لها عن الملك الذي تجر اليه طبيعة القهر وتغلب عليه سمة الجور

كان للرسول ﷺ مهمتان يؤديهما الى الأمة : احداها - أن يبلغ عن الله ما أمره بتبليغه الى الناس من الأحكام المتعلقة بدينهم ودنياهم وما قصه عليهم من الأخبار والعظات ويبين للناس ما نزل اليهم ، فهو بذلك مشرع عن الله تعالى . الثانية - كونه اماماً للمسلمين يضم قصية الأمة ويجمع كلمتها ويوجهها الى الخير ويبعدها عن مزَالِّ الأقدام ومواطن الشرور ، يرجعون اليه في اقضيتهم وحل مشكلاتهم طبق ما أوحى اليه من ربه جل ذكره وما يؤديه اليه اجتهاده فيما ليس عنده فيه وحي ، ثم انه يقوم بتنفيذ تلك الأحكام

ولما كان الله تعالى لم يجعل الخلد لبشر ، وكان الموت خاتمة مطاف كل انسان في هذه الحياة الدنيا ، وقد قبض الله تعالى رسوله محمدا ﷺ الى جواره ، كان من الحكمة أن لا يترك الناس فوضى لاسراة لهم (كأغنام ذئب نام عنها رعاؤها) - بل لابد للشرع من حارس يخلُف المبلِّغ له في اقامته بين الأمة وتنفيذ أحكامه فيهم وهو الخليفة

والخلافة هي النيابة عن صاحب الشريعة في حفظ الدين وتنفيذ أحكامه وسياسة الدنيا به . والسر في ذلك استحالة حياة أفراد النوع الانساني منفردين ولان من طبيعة الاجتماع التنافس المفضي الى التنازع لازدحام الأغراض المتباينة فيحتاج الى الوازع وهو الشرع . فقد جعل الله تعالى كمال النظام البشري بالشرائع الالهية يذعن لها الخاصة والعامة ويراها نافذو البصائر في شؤون الاجتماع العمراني حاجة من حاجات العقول البشرية بها يكون تقويم الملكات وتعديل مزاجها وحملها على القصد من الأمور بلا تفريط في شيء ولا افراط يدعو الى تجاوز الحدود وتخطي المعالم

هذه الشرائع يصطفي الله تعالى من خيرة خلقه رسلا يتلقونها بالوحي عن الملك أو عن الله تعالى ثم يبلغونها للناس (الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن

الناس) ويضعون للدائنين بشرائعهم (بأمره) حدوداً عامة لا ترهق الناس مشقة في رد أعمالهم اليها - كتقويم الملكات والاخلاق و العقائد ، وتحريم الدماء والأموال و الأعراض الا بحقها - على وجه يحمل كل واحد من الناس على أن يبتغي فيما آتاه الله الدار الآخرة وأن لا ينسى نصيبه من الدنيا ، وان يرغب فيما عند الله مستشعراً الرهبة من عقابه (اذا حاد عن النهج القويم) في يوم تشخص فيه القلوب والأبصار

انساق المسلمون بمقتضى الفطرة التى لكل جماعة من الأحياء الى اقامة من يخلف رسول الله في سياسة أمرهم . فأقاموا عليهم خليفة ، ولم يوجد عند الامة الاسلامية أمر من أمورها اختلفت فيه الكلمة وتشعبت بشأنه الآراء بمقدار ما كان منها في شأن الخلافة . وأظهر مظاهر الاختلاف أمران :

أولهما - البيت الذي يكون منه الخليفة

ثانيهما - شكل الانتخاب أو الطريقة التى يكون بها انتخاب الخليفة

﴿ بيت الخلافة ﴾ ان الكتاب الكريم لم يعين بيتاً للخلافة ينتخب الخلفاء من أهله ولا شعباً من شعوبهم ولا قبيلة من قبائلهم . وانما كان يوجه الكلام الى عموم المسلمين فيما يقرره من الاحكام ويطالبهم بتنفيذها في مثل قوله « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا » وقوله « واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » وقوله « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » ومن غير المعقول ان كل واحد من المسلمين يقطع يد السارق أو يقتص من القاتل ، بل المعقول أن ينوب عن جميعهم واحد منهم يتولى ذلك

أما رسول الله ﷺ فقد روى البخارى حديثاً يُسنِدُه الى معاوية رضى الله عنه يقول فيه : اني سمعت رسول الله ﷺ يقول « ان هذا الأمر في قريش

لا يعاديهم أحد الا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين » . وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « لا يزال هذا الامر في قريش ما بقي منهم اثنان » . وفي مقابلة ذلك روي عنه أنس بن مالك قوله ﷺ « اسمعوا وأطيعوا وان استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » وهي أدلة متعادلة

لم ينته الناس من تجهيز النبي ﷺ ودفنه حتى كان في الناس فريقان لكل منهما رأي في شأن الخلافة : فريق يرى عدم تخصيص الخلافة ببيت من البيوت ، والفريق الثاني يرى تخصيصها

أما رأي أهل التخصيص فقد انشعب الى شعبتين : (أولاهما) تخصيص الخلافة بقريش بلا فرق بين بطونها . (ثانيهما) تخصيصها بالقرابة القريبة لرسول الله ﷺ

وأهل القرابة القريبة في ذلك الحين ، هم العباس بن عبد المطلب من أعمامه وعلي وعقيل ابنا عمه أبي طالب

أما العباس فلم تتطلع نفسه الى الخلافة ولم يطلبها . وأما علي عليه السلام فقد امتاز على أخيه عقيل بأنه كان من السابقين الاولين وليس لعقيل ماله من الهجرة والبلاء في اعزاز الدين والذود عن حوزته والمقامات المحمودة في جهاد عدوه والصهر الى رسول الله في البضعة الطاهرة وهي زوجه فاطمة . وكانت وجهة من يخصون أمر الخلافة بالقرابة القريبة الا لقاء بمقاليد الامر الى علي رضي الله عنه دون غيره من بقية قرابة رسول الله الا قربين . أما الذين يرون انها حق قريش فحسبُ فكانوا جمهور أصحاب رسول الله من المهاجرين وبعض الانصار

وكان رأى عدم التخصيص في الخلافة لجمهور الانصار . فكانوا متطلعين الى أن يكون الخليفة منهم لأنهم أصحاب دار الهجرة وقد آووا ونصروا وآثروا المهاجرين بأموالهم وواسوهم في الضراء وقاموا يرمون وراء رسول الله ويوالون من

والاه ويعادون من عاداه لا يرغبون بأنفسهم عن نفسه وكانوا عيبته التي آوى اليها اذ اخرجه قومه ثاني اثنين ولرسول الله المقامات المحمودة في الثناء عليهم . وقد تلقف هذا الرأي من بعد الأنصار جميع الخوارج الذين كانوا يشقون عصا الطاعة على الخلفاء في آونة مختلفة ويفارقون الجماعات لأسباب يستمسكون بها ويتخذونها ذريعة لخلع ربقة الأئمة . وفي بعض الأحيان يقيمون عليهم خليفة وينادون به أميراً للمؤمنين كقطَرى بن الفُجاءة وهو رجل من بني تميم . وقد كانت تُكأة أولئك القوم فيما أتوه ان القصد من امامة المسلمين انما هو توجيه الأمة الى الخير والسير بهم في سبيل الصلاح والعدول بهم عن الشر واقامة الدين فيهم واستقرار العدل في الاحكام ، وهذا أمر يحصل بتولية من فيه المقدِرَة على ذلك والاضطلاع به بقطع النظر عن قومه وقبيلته ، وحجتهم في ذلك قوله تعالى «ان أكرمكم عند الله أتقاكم»

والذي أراه ان أصحاب هذا الرأي قد يكونون على صواب اذا كان من يختار لهذا المنصب منفرداً بعصبية تؤيده وتقوم بنصره بحيث تكون غالبة لكل قوة سواها ، لان الانسان في أموره لابد أن يلاحظ الفواعل الطبيعية وما جبل عليه الناس من الانقياد للغالب ذي النفوذ القوي والكلمة المسموعة والعصبية القاهرة فان هذه هي الأمور التي تبهر عقول الجماعات وتقسر بقية الطوائف على الاذعان . وأما التقي الذي لاحول له ولا قوة ، فان الناس تَنْفَضُّ من حوله ولا يمكن أن يظاهر على أمره

أما رأي تخصيص هذا الامر بقريش فانه الرأي الطبيعي المناسب لذلك الحين لما وَقَرَ في طبيعة العرب من الاقرار لقريش بالفضل والاذعان لها بالسؤدد لاينازعها في ذلك منازع بخلاف غيرها من العرب فان قبيلة منها لاترضى أن تطأ عقب قبيلة أخرى وتنقاد لها بازمتها ، حاشا قريشاً . وقد أبان ذلك أبو بكر يوم

السقيفة بقوله « ان هذا الامر ان تولته الاوس نفِستهُ عليهم الخزرج ، وان تولته الخزرج نفسته عليهم الاوس . ولا تدين العرب لغير هذا الحي من قريش »

ومن هنا استفتج العلامة ابن خلدون السر في تخصيص قريش بالخلافة وهو ما كان لهم من العصبية والنفوذ الساري في جميع قبائل العرب وبطونها يعترفون لهم بالتقدم ولا ينكرون عليهم الرياسة فيهم ويستثنونهم اذا افتخروا

فأما الناس ما حاشا قريشا فانا نحن أفضلهم فعالا

فاذا كان الخليفة منهم القت اليه العرب المقاليد وتقطعت أسباب المعاذير في الخلاف عليه والتصّبِ له . وقد بَنَى على هذا الاصل انه ليس يمتنع ان تكون الخلافة في غير قريش اذا ذهبت ريحها وعجزت عن حماية بيضة الاسلام وكانت المنعة والقوة لسواها . لان الشريعة مبنية أحكامها على العلل والحكم في كل زمن بحسبه

اما رأي التخصيص بالقرابة القريبة لرسول الله ﷺ فكان رأي علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وفاطمة بنت رسول الله ﷺ ومن تابع عليا على ذلك فيما بعد لمكانه من قرابة رسول الله ﷺ . غير انه التفت يمنة ويسرة فلم يجد من يظاهره على أمره ممن يقول ويفعل فحدا به ذلك الى الانضواء الى رأي الجمهور والدخول فيما دخل فيه الناس وذلك بعد وفاة فاطمة رضي الله عنها لستة أشهر من وفاة رسول الله ﷺ في بعض الروايات

والذي أراه واعتقده هو ما روى من انه بايعه بعد أيام ، بدليل انه جعله قائدا على بعض المسلمين حين بيت الكفار أهل المدينة وذلك لشهرين من بيعة أبي بكر

تولى الخلافة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر وهو تيمي قرشي ثم تلاه عمر وهو عدوي قرشي ثم جاء بعدهما عثمان بن عفان وهو اُموي من بنى عبد مناف واذعنت الكافة للرأى القائل بأن الخلافة لا تكون الا في قريش واجمع على ذلك أصحاب رسول الله والمسلمون كافة وبقي الرأي الاخير (وهو القائل بتخصيص الخلافة بأهل القرابة

القريبة) مهملا الى أواخر أيام عثمان بن عفان . فطاف على الحواضر الاسلامية طائف من التفريق وانساب اليها دعاة الفتنة يندبون الناس الى هذا الرأي ويقبحون من خالفه صارخين صاخبين : « كيف يُحرَم خلافة الرسول قرابتهُ ! »

يقول غوستاف لوبون : « لبعض الالفاظ والجمل سلطان لا يضعفه العقل ولا يؤثر فيه الدليل ، الفاظ وجمل ينطقها المتكلم خاشعا امام الجماعات فلا تكاد تخرج من فيه حتى تعلو الهيبة وجوه السامعين وتعنو الوجوه لها احتراما . وكثير يعتقدون ان فيها قوة آلهية . الفاظ وجمل تثير في النفوس صورا لا كيف لها ولا انحصار محفوفة بالاكبار والاعظام ابهامها يزيد في قوتها الخفية فهي آلهة لا تمس كما الابصار قد احتجبت خلف (المظلة) التي ترتعد لهيبتها فرائص العابد اذا تقدم نحوها » .

وعلى هذا النمط كانت كلمات المفرقين وعلى هذا النحو سار دعاة الرأي الاخير فهاجموا مكان الاحساس من الامة وملكوا على الناس مشاعرهم واسمعوا الناس صوتا ملذوذا في المسامع فأطربوهم بما كانوا يرددون من الجمل ويصوغون من العبارات . وربما تخطى بعضهم حدود الدين ونحل عليا مالا يتحلى به بشر لينال بذلك فتنة الامة وينجح في الكيد للاسلام

كأني بالناس في اطراف بلاد الاسلام وقد تلجلج هذا الامر في خواطرهم وان لم تلكه ألسنتهم وقد اختمر في نفوسهم واشعرهم التشوق اليه ما ارهقهم به عمال الخلافة في تلك الاطراف المنتبذة في زعمهم فما هي الا ان وجدت مسّ الدعوة الى هذا الرأي حتى هبت لتحقيقه وانتدب له افواج من الاطراف المختلفة غير حاسبين لعقبى عملهم حسابا . وهذا شأن الجماعات في كل زمان ومكان تندفع بسهولة الى الشرّ وتنكمش في افرادها الذات الشاعرة وتتسلط الذات اللا شاعرة . وتتجه المشاعر والافكار بعامل التأثر والعدوى نحو غرض واحد وتنقاد الى فعل ما يخالف منافعها الحقيقية . هذا هو شأن الجماعات في كل زمان

كان تنبه الناس لهذا الرأي وهبوبهم الى تحقيقه بالفعل سببا لخطوب جسام ومصائب عظام ، فقد سال سيل الجماعات على المدينة فاجترف في سبيله الخليفة الثالث عثمان بن عفان . وبذلك انبثق على المسلمين سيل من الخطوب لم يمكنهم سده

ذلك ان دعاة الرأي الاخير والنافخين في هذا البوق رأوا جانبا من أرض الاسلام لايثمر فيه هذا الغرس الذي غرسوه . بل تيقنوا ان تخطيهم الى تلك البلاد انما هو تخط الى الآخرة فبقي أهلها غير متأثرين بهذا الرأي ولا راضين عن أهله فهبوا لاخماد أنفاسه والايقاع بالقائمين به بلا شفقة ولا رحمة

كان عصارة ذلك ان تصادم أهل الرأيين وفزع كل فريق الى سيفه وما احتقب من رأي ومكيدة وحسن سياسة فظفر معاوية بن أبي سفيان بالخلافة وهو من بني أمية وليس من ذوي القرابة القريبة . وبهذا عاد الامر كما بدأ واستقر الامر على الرأي الاوسط بعد خطوب واهوال يشيب لها فود الزمان

اختنق هذا الرأى قبل ان يبلغ اشده وكمنت حياته كون النار في الحجر كلما وجدت قادحا ورت واذا سكنت توارت ، وأهل هذا الرأى قد استكانوا لحكم السيف ولكن على أمل أن ينتهزوا الفرصة اذا رأوها سانحة وان يشيموا بروق الامل اذا رأوها لائحة

ظل أبناء علي رضي الله عنه يرون الخلافة ارثاً لهم عن رسول الله لاينازعهم فيه الا ظالم جائر وشيعتهم من ورائهم تحفزهم عليهم وتدفعهم الى المطالبة . فيخرج الواحد منهم بعد الآخر يتهافتون عليه تهافت الفراش على السراج لايبالون برؤوسهم تطاح ودمائهم تستباح وأجسامهم تذروها الرياح . وكأن ما كان يحل بهم من القتل الوحيّ والتمثيل الذريع والتحريق بالنيران والتصليب على الاعواد لايزيد النار الا استعاراً ويغري اللاحق باتباع آثار السابق . وكان شيعتهم يجدون بتلك الحوادث مكان القول ذا سعة فيطلقون العنان لالسنتهم وقرائحهم في تمثيل

أهل البيت بين مضرج بدمائه وهارب بذمائه وحريب وسليب ومأسور ومقهور وعقائل بيت الرسول تساق الواحدة منهن سوق السبية الاخيذة . فمن شاء فلينظر الى شعر الكميت بن زيد ومن حذا حذوه ففيه بلاغ ومقنع

والذي اعتقده أن أهل البيت لو خفضوا من عنانهم في سبيل المطالبة ولم ينصبوا أنفسهم هدفاً للولاة والخلفاء لاتتهم الخلافة منقادة بخطامها لان في طبيعة الرعية حب الجديد والاستشراف الى تغيير الحكام متى طال العهد بهم، فلا يجدون بعد بني أمية سوى أندادهم من بني هاشم وهم على حال سلامة ووفرة عدد وفي حرز امنة ، ولكنهم كانوا يخاطرون بأنفسهم ومن معهم ويلقون بأنفسهم الى التهلكة ، وكان ذلك يزيد خصومهم قوة الى قوتهم ويحدث تراتٍ وذحولا عندهم للقبائل المختلفة ويزيدهم ضعفاً ويرهقهم وهنا بقلة عديدهم وفناء الفريق الاكبر منهم

لم يكن للعباس مطمع في الخلافة كما قدمنا ، ولم يكن لشيعة أهل البيت نظر يتوجه الى ابنائه ، وكان قصارى بني العباس أن يكونوا مؤازرين لعلي مظاهرين لابنائه في طي الخفاء على خوف من بني أمية ومن أن يعتروهم بسوء . غير انه لما توفي أبو هاشم بن محمد بن علي عن غير عقب ، وكان قبلة أنظار الشيعة أكثر من بقية العلويين ، زعم العباسيون حينئذ انه القى بمقاليد أمر الدعوة الى محمد بن علي بن عبد الله بن عباس فهبوا للعمل على انماء الدعوة لآل البيت في ظاهر أمرهم ويبطنون أن تكون الدعوة الى خلافتهم ويحتجزونها دون أهل البيت اذا حق العمل فكانوا يدعون الناس الى مبايعة الرضا من أهل بيت رسول الله ولا يبوحون لاحد باسمه زاعمين أن ذلك يوجه نظر بني أمية اليه ويعرضه للقتل والتشريد لمن تابعه . وقد واتتهم المقادير على حين فترة من الهمم في بني أمية وانحلال العزائم في خلفائهم وانشغالهم بالعيش الناعم وملذات الحياة واستهانتهم بالاطراف القاصية من مملكتهم واستصغارهم لما يحدث فيها وكانت الدعوة التي أخذت صبغة هاشمية بعد أن كانت علوية قد فشت في نواحي فارس وخراسان فشواً زائداً واشتغل بنو

العباس فيها بعبارة زائدة وأوردوا ذكر العباس عم رسول الله ﷺ واشاعة فضله وفضل ابنه عبد الله وما له من الذكر النابه عند أولى العلم والتقوى وما للعباس من الحق في ارث رسول الله بالعصوبة دون سائر ذوي قرباه ، الى غير ذلك من الامور التي لقحت بها الدعوة العلوية

وقد وفق العباسيون الى دعاة مهرة ذوي مقدرة فائقة وجرأة واقدام وعمدتهم أبو مسلم الخراساني ، فأدار الامر بحكمة وباشروا انتقاص الاطراف على عمال بني أمية الذين كانوا قد وهن أمرهم فأدالهم الله منهم حتى اذا حق الامر أعلن أبو مسلم اسم عبد الله السفاح بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس خليفة للمسلمين

ان وجهة الناس كانت الى العلويين . ولكن لما كان العلويون قدضعف أمرهم كما قدمنا وكفوا أيديهم في الجملة عن مباشرة الدعوة وكان الذي يدير أمر الدعاة انما هم بنو العباس وهم من قرابة رسول الله القريبة لم يجد الناس غضاضة في المضي على أمرهم بالجد في نقض بناء دولة بني أمية حتى هوى شامخه وانهار باذخه

غفل الزمان برهة عن العلويين فجم ذلك الدم الذي كان مطلولا وقوى الضعيف وكبر الصغير وفي أنفسهم من أمر الخلافة ما فيها واشتد وجدهم على تراث لم يخرج من يد ذاهب إلا ليحصل في يد غاصب أشد قوة واعصل نابا . فلما آنسوا من أنفسهم بعض القوة وأحسوا بشيء من القدرة على المطالبة لم يلبثوا أن نصبوا أنفسهم حرباً لبني العباس يُشادُّونهم حبل الخلافة . فعادت الحرب العوان الى حالها الاولى وشبت بين الفريقين نار العداوة والبغضاء واستحر القتل في العلويين ومزقوا كل ممزق لاتعطف بني العباس عليهم أواصرُ القربى ولا تثنيهم عن الفتك بهم لحمة النسب . وكان للمنصور والرشيد والمتوكل أيدٍ قاسية في أخذ العلويين بالعنف وتناولهم بالعسف حتى كان مجرد اتهام أي رجل من الناس بالميل الى العلويين كافياً لاستباحة دمه واستلال روحه من بين جنبيه لايشفع له في ذلك نباهة قدر ولا ارتفاع ذكر . وقد كان استواء أحد العلويين في بلد قصي على عرش الخلافة مغرياً لبني العباس باستلال نفسه واخماد أنفاسه

فر بعض العلويين الى إفريقية لما رأوا ان السيف يجتاحهم ، وشيعتهم تضعف عن حمايتهم وحقن دمائهم ، وبعض آخر الى المغرب الاقصى قبل ذلك . لانتباذ هذين القطرين عن مركز صولة العباسيين وسهولة العمل فيهما لبعدهما عن النجدة والاغاثة وظاهرهم على ذلك في الخفاء اتباعهم وشيعتهم بتلك الاقطار . فاطمأنت بهم الحال وأخذوا الامر على هينته وما زالوا دائبين على العمل حتى أسسوا الدولة الفاطمية في إفريقية والدولة الادريسية بالمغرب الاقصى قبلها . ثم كان لهم دولة أخرى من ملوك الطوائف بالاندلس ببطليوس

وقد امتدت الدولة الفاطمية من افريقية الى مصر والشام وقد قويت شوكتها واشتد بأسها ، أيام ضعف الدولة العباسية وانقسامها الى ممالك بايدي الترك والديلم وغيرهم . الى أن انتهى أمر الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين يوسف ابن ايوب سنة ٥٥٦

بقى أمر الدولة العباسية يضؤل الى ان ازيلت من بغداد في خلافة المستعصم العباسى سنة ٦٥٤ على يد هلاكو خان حين اجتاح في طريقه ممالك الاسلام بنواحي تركستان وفارس وبغداد

كانت مصر من الممالك التابعة للدولة العباسية التي لم يمسها المغول في اغارتهم فلما دالت دولة بنى العباس ببغداد وصل الى مصر أحد العباسيين فارا من وجه التاتار واسمه احمد ابن الخليفة الناصر لدين الله بن المستنصر العباسي في سنة ٦٥٩ ايام سلطنة ركن الدين بيبرس . فاثبت نسبه وبايعه السلطان وأهل الحل والعقد بالخلافة ، ثم خرج الخليفة لمقاتلة التاتار والعودة الى بغداد فقتل ولم ينل ما أراد

وفي سنة ستين وصل الى مصر الامام احمد بن علي بن ابي بكر ابن الخليفة المسترشد العباسي وأثبت نسبه فبايعه السلطان والقضاة وأهل الحل والعقد بالخلافة وهو جد الخلفاء بمصر الى ان جاءت سنة ٩٢٣ هجرية دخل السلطان سليم شاه

العثماني مصر وأزال دولة المماليك . وكان الخليفة العباسي بمصر هو الامام المتوكل على الله محمد بن المستمسك بالله يعقوب فاخذه معه إلى الاستانة هو وولدي ابن عمه خليل وهما أبو بكر وأحمد ، وبذلك انتهى أمر الخلافة العباسية بمصر

جاء البيت العثماني التركي واستولى على ممالك كثيرة من ممالك الاسلام ودان لقائم من العثمانيين بالطاعة أهل تلك الممالك وخفت صوت الخلافة ، وادعى ملوكهم على طول الزمان أنهم خلفاء المسلمين ويدعي لهم الناس أن آخر الخلفاء العباسيين نزل للسلطان سليم عن الخلافة وبايعه بها ، وهو كلام لم يثبت . ولكن القوم نفذت كلمتهم فيما تحت أيديهم من الاقطار الاسلامية وشهروا بأنهم الخلفاء وعرف أكثر أهل بلاد الاسلام هذه السمة واذعنوا لها فهي خلافة بالفعل عقدت البيعة بها الشوكة والقوة اذ كانوا أقدر أهل الاسلام على حماية البيضة وتنفيذ الاحكام . وهذا هو العلة التي استحقت بها قريش الخلافة في أول الامر

بقي أن أقول ان ما يدعيه أهل البيت من استحقاقهم الخلافة بالارث دعوى غير صحيحة لا مؤيد لها من عقل ولا شرع . أما العقل فان هذا الأمر مناطه رعاية أمر المسلمين على شؤونهم العامة على نحو ما بينا فيما سبق يتولاه من يصلح له ويضطلع بأمره . والله لم يجعل أمر المسلمين ومصالحهم إرثاً لأحد . وهذا الكتاب بين أيدينا خال من دعواهم ، وهذا علي لم يدَّع الوصاية من رسول الله على المسلمين طول حياته ولم يحتج بعهد رسول الله اليه بالامر . وأما الشرع فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه لم يقبل من هوذة بن علي أن يكون له الامر من بعده بل قال : الأمر لله يضعه حيث يشاء . ولو كان الامر لذوي قرابته لجاء به قرآن ، أو لنص عليه رسول الله ، أو احتج به علي رضي الله عنه

وما كان أبو بكر ليتمادى على اغتصاب الامر من أهله ويطرح قول رسول الله ﷺ ظهريا بعد ثبوته لديه وتحققه عنده

﴿ شكل الانتخاب ﴾

لم يرد في الكتاب أمر صريح يستبين به الشكل الذي يجب على المسلمين عمله اذا انتخبوا خليفة لرسول الله ﷺ سوى الأوامر العامة التى تتناول أمر الخلافة وسواه مثل وصف المسلمين بقوله « وأمرهم شورى بينهم » ولم يرد عن رسول الله ﷺ بيان نظام خاص يتبعه المسلمون في انتخاب من يلي أمورهم

والذي يلوح لي أن رسول الله ﷺ أراد أن لا يضع للمسلمين شيئاً ان وافقهم اليوم ولاءم حالهم فقد لا يوافقهم اذا تبدلت الاحوال وتغير مزاج الامة . فلم يشأ أن يرهقهم بأمر يشرعه لهم تكون فيه مظنة المشقة عليهم في يوم من الايام فوكل ذلك الى فطنتهم وما لهم من عقل يحلونه في كل آن بالحل الذي يناسبه زمانهم ومكانهم

أما طرقهم التي ساروا عليها فهي :

(١) الطريقة الاولى * طريقة الانتخاب الاستشارية : وهي التى اتخذت في انتخاب الخليفة الاول أبي بكر الصديق رضي الله عنه . ذلك أن الانصار اجتمعوا في سقيفة بنى ساعدة يجيلون الرأي في تولية خليفة بعد رسول الله في اليوم الثاني من وفاته . وعلم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح من المهاجرين بأمر أصحاب السقيفة وخافوا أن يبت القوم أمراً فيما بينهم يكون فيه تفريق الجماعة أو ما لا يحب المهاجرون ، فأسرعوا اليهم وبعد حوار بينهم والمراجعة على مشهد من الملأ تم انتخاب أبي بكر . ولم يحضر هذا الامر من المهاجرين سوى الثلاثة الذين ذكرنا لان القوم كانوا بين واجم لوفاة رسول الله ﷺ غير مفكر في شيء آخر وبين مشتغل بتجهيزه ودفنه كعلي وبنى هاشم . وانما تم الامر على هذا الوجه خشية اتساع الخرق بين المهاجرين والانصار وتنازعهم في استحقاقه ، فأراد أبو بكر وعمر عدم انتشار الامر والعمل بالحزم قبل خروجه من أيديهم

وقد نظر المجتمعون في السقيفة فلم يجدوا من السابقين الاولين من المهاجرين الحاضرين بالسقيفة من هو أحق بها وأهل لها سوى أبي بكر لانه رفيق رسول الله ﷺ في الغار وصديقه وقد قدمه رسول الله للصلاة بأصحابه وهي من أهم المناصب وأغلاها قيمة، وكان عمر حريصاً على الاسراع في جمع الكلمة فمد يده لمبايعة أبي بكر ثم تبعه الناس بعد ذلك ولم يخالف عليه سوى علي وفاطمة كما قلنا فيما تقدم وسعد بن عبادة الانصاري

يرى المطلع على الشكل الذي حصلت به بيعة أبي بكر أن الاستشارة في أمرها كانت ناقصة نقصاً ظاهراً لان المعقول في مثل هذه الحال أن يتخذ المسلمون مكاناً يجتمعون فيه وأن يؤذن الناس به من قبل. غير أن حرص عمر بن الخطاب على الاسراع في الامر والمبادرة الى لم شعث المسلمين جعله يتم على هذا الوجه. وقد اثر عنه أنه قال: ان بيعة أبي بكر كانت فلتة ولكن وقى الله شرها

(٢) الطريقة الثانية * طريقة العهد من الخليفة الى آخر في الامر من بعده: وهذه هي الطريقة التى سار عليها أبو بكر رضى الله تعالى عنه في انتخاب عمر بن الخطاب للخلافة من بعده بعد أن آمر الناس فوافقوه على الرضا بمن عهد اليه واختاره لولاية أمرهم وقد أعلمهم من هو الذي اختاره

هذه الطريقة صادفت أن وقع الاختيار من أبي بكر على خير من يكون خليفة المسلمين وأشدهم صرامة في الدين وأكثرهم تحرياً للعدل. غير أنها طريقة خطرة اذ لا ثقة لاحد بأن يكون كل خليفة محسناً للاختيار كأبي بكر رضى الله تعالى عنه فلا يمكن أن يأمن الناس مغبتها لما فيها من احتمال الخطأ في الاختيار

(٣) الطريقة الثالثة * طريقة الاختيار الشورى: بان يعين الخليفة في حياته أفرادا لينتخبوا من بينهم خليفة. وهذه الطريقة التي جرى عليها انتخاب عثمان ابن عفان للخلافة. وذلك ان عمر رأى بعين بصيرته ان سادة الناس وقادتهم

الذين يتطلعون الى الخلافة ولا يؤمن انتقاض باقيهم اذا عهد الى أحدهم على طريقة ابي بكر معه هم القوم الذين عينهم ليختاروا واحدا منهم ويخشى على المسلمين أن تفترق كلمتهم اذا افترقت بهؤلاء القوم لان المسلمين لهم تبع . فاراد أن يعفي الامة من تشتيت الآراء ورد الامر الى هؤلاء النفر الذين يخاف على المسلمين منهم ولا يخاف عليهم من المسلمين . وكانوا ستة ووضع لهم نظاما يسيرون عليه في اختيار الخليفة من بينهم . وذلك ان يجتمعوا بعد وفاته في حجرة عائشة رضى الله تعالى عنها ويختاروا الخليفة في مدة لا تزيد على ثلاثة ايام وحتم عليهم الاخذ برأى الاغلبية وان على الاقل الانصياع الى ما رأوه ومن ابى وخالف استحق القتل واذا تساوت الاصوات اخذوا رأي عبد الله بن عمر على ان لا يكون له من الامر شيء فلا يصح أن يكون مُنتَخَباً . فاذا لم يرضوا برأي عبد الله بن عمر كان الراجح رأى الجماعة الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف

وهذه الطريقة مبدأ نظام صالح لو تناولها المسلمون بالتحسين ، وان لم تكن وافية بكل غرض . وما سنه من بقاء القوم ثلاثة أيام لانتخاب واحد منهم يشبه بعض الشبه ما يفعل اليوم في اختيار خليفة للبابا اذا مات . فانهم يجمعون الكرادلة في مكان واحد يمنعونهم الاكل والشرب الى أن ينتخبوا منهم البابا الجديد

ومن نظر الى هذه الطرق الثلاث التى جرى عليها انتخاب الثلاثة الخلفاء لم يجد ما يمكن أن يكون نظاما مستوفى . ولم تلزم الامة بشيء من ذلك اذ لم يعرف في القاعدة الاولى من لهم حق انتخاب الخليفة : أهم الامة باسرها ، ام هم أشخاص مخصوصون . واذا كانوا أشخاصا مخصوصين فمن هم ، وما هي الصفات التى يلزم توفرها فيهم ؟

يقول شراح قاعدة الانتخاب الاولى : ان الذين لهم حق الانتخاب هم أهل الحل والعقد . وهو أمر غير مدرك الحدود ، لان سامع هذه الكلمة لا يدري من

أهل الحل والعقد ؟ هل هم قواد الجيوش أو ولاة الامصار أو أعيان الامة ، أو غير هؤلاء من العلماء والقضاة وغيرهم، وذلك لم يبين . وعلى ذلك فمن في نفسه بقية من التطلع الى الخلافة يجد مجالا للطعن على خلافة من يعين بها كما حصل من معاوية عند ما ولى على الخلافة

اما الطريقة الثانية فقد بينا ما فيها من الخطر وما قد يعتري العامل بها من الخطأ

وأما الطريقة الثالثة فهى عبارة عن أن يعهد الخليفة الى واحد لا يعينه من أناس محصورين يختارهم الامام . وهى مساوية للطريقة الثانية وليس كل عصر عصر عمر ولا كل خليفة ينظر للامة نظر عمر

بويع بعد ذلك لعلى بن أبي طالب بالمدينة حين قدم عليها الثوار وأهل الشغب من أطراف بلاد الاسلام فقتلوا عثمان وبايعوا علياً وبايعه حاضرو المدينة من أصحاب رسول الله والتابعين . فوجد بعض أهل البلاد الاخرى مطعناً على خلافة على ولم يرضوا بما رضي به الناس ورأوا أنفسهم في حل من منابذته اذ لا بيعة له في أعناقهم وان البيعة لم تلزمهم بفعل أهل المدينة . والامة لم يسبق لها ان سمعت احتجاجاً كهذا ، بل كان الخليفة يولى بالمدينة فيطيعه أهل الامصار فكان هذا حجته عليهم وقد يقال ان في هذا المذهب اهداراً لاصوات أهل الامصار وغيرهم النائين عن المدينة وهم بلا شبهة من أهل الحل والعقد وقد يكونون عدد الناس والامر لم يوضع له نظام . وهذه الجمل تجد لها مساغاً الى الاسماع ومنفذاً الى النفوس

نبت هذا الرأي في الشام ووجد تربة صالحة فنما وأثمر وقام على رضي الله عنه لتأييد رأيه وتثبيت بيعته والتقى الجمعان بصفين وعلى يحمل على يده قرابته من رسول الله ﷺ وما يستمسك به من بيعة وفود الامصار وحاضري المدينة فلما لفحتهم الحرب بسمومها لجأوا الى التحكيم فيما شجر بينهم من الامر . فانتخب كل فريق رجلا لينظر الرجلان فيما شجر بين المسلمين

والذي أراه ان القوم كانوا حديثي عهد بالتوثيقات ووضع الانظمة فلم يحدد موضع النزاع تحديداً كافيا شافياً، ولم يبين مرجع الحكم بياناً يرفع النزاع . بل وضعوا عقد التحكيم بالفاظ عامة يجد من يريد المخالفة ألف سبيل وسبيل لتأويلها ، فكان هذا التحكيم أشبه باللهو واللعب

تجاوز الحكمان ما عينا لأجله من الحكم في الأمر الذي دهم فريق المسلمين وتكلما في خلع كل واحد من الحكمين صاحبه ، وكان للخداع والدهاء أكبر حظ من النجاح اذ انفرط عقد جند علي ونشز عليه أصحابه ولم يزل معاوية جميع الأمر

أما أصحاب معاوية فقد رضوا بهذه النتيجة التي آلت الى تثبيت صاحبهم في مركزه وخلع علي من الخلافة

وأما أصحاب علي ففريق تثاقل عن نصرته وفريق خالف عليه وعلى معاوية ورأوا ان التحكيم الذي كانوا يرونه واجباً من قبل انما هو ضلالة ومروق من الدين، أولئك القوم هم الخوارج . فقد نصبوا أنفسهم لعداوة علي ومعاوية معاً واتخذوا لهم شعاراً هو قولهم : لاحكم الا لله . وصاروا يبنون عذرهم في مفاوقة علي ومجاهرته بالعداوة على مقدمات يزينونها ويخلصون منها الى تكفيره وتضليله ووجوب التوبة عليه حتى يعودوا الى متابعته على أمره

فيقولون ان الخليفة المختار معين من الله تعالى، فلا ينبغي له أن يشك في أمره ولما كان علي هو الخليفة الحق وقد حكّم الناس في أمره فقد شك ومن شك فقد ضل ومن ضل لايصلح للخلافة . وبعضهم يوجب استتابته وتجديد اسلامه . وأما معاوية فلما تعرض لما ليس له بحق فقد ضل فلا يصلح للخلافة

انتبذ هؤلاء القوم ناحية وروجوا مقالتهم بين الناس فنما عددهم وكونوا لهم جماعة أعطوها الحق في انتخاب الخليفة . وأذاعوا فيمن ضوى الى رأيهم ان مخالفيهم في الرأي كفار، واستباحوا دماء الناس وأموالهم ، واندفعوا يقتلون بلا

رحمة ولا شفقة . ولم يكن لدعوتهم حدود معينة ولا معالم ينتهون اليها ولا غاية يبغون الوصول اليها ، فانتشر أمرهم واختلفت كلمتهم وجدّ الخلفاء في استئصالهم وتتبعوهم بين سمع الارض وبصرها وانهالوا عليهم بما عندهم من حول وطول حتى قطعوا دابرهم وأبادوهم بعد حروب حاصدة ووقائع تشيب لهولها الولدان . ولم يعد على الاسلام من عملهم منفعة ، ولم تجن الامة سوى الويلات والحرَب . ولم تزل لهم بقية الى اليوم بالمغرب وجزيرة العرب وسواحل المحيط الهندي

وعلى كل حال فقد انتهى الأمر باستقرار معاوية في الخلافة ومضى علي الى ربه وكان الفوز للسياسة والدهاء . وهنا نقول : لو كان للخلافة قانون متبع أو قاعدة يجب السير عليها في انتخاب الخلفاء لوقي المسلمون التهور في هذه المزالّ الخطرة ولساروا على الجادة

وليس للمؤرخ من حيث هو مؤرخ أن يرجح احدى البيعتين على الأخرى لان كلا من الرجلين قد بايعه جمع من المسلمين ولم يتخطّ في عمله حدودا مرسومة يعد متجاوزها ظالما . أما كون أحد الرجلين أولى من الآخر لميزات خاصة أو صفات جليلة لاتوجد في الآخر فهذا أمر آخر مناطه التقدير ، وينبغي لمن يبتّ فيه أن يرجع الى الاوصاف التي تشترط في الخليفة ليرى أي الرجلين أكثر جمعا لتلك الصفات . ولما لم يكن في الشرع بيان لشيء من هذا رجع الامر الى تكافؤهما في القوة وكثرة الاعوان والانصار ، وهي الامور الطبيعية التي لاينبغي غض النظر عنها كما قدمنا

استتبّ الامر لمعاوية وهو أول خلفاء بني أمية . وكان حريصاً على أن يكون الامر في بيته فأخذ للامر عدته وأوفد ولاة الامصار في حياته واستشارهم في انتخاب خليفة يلي أمر الناس بعده ، معللا احتياطه هذا بخوفه على المسلمين أن تفشو فيهم الفتن . وقد كان بعض الولاة يعلم ما يرمي اليه فبادر الى قصده وحسن له أمر

تولية ابنه يزيد ولاية العهد واصفق بقية الولاة ومن معهم على هذا الامر وكتب له بذلك العهد. وقد اتخذ هذا السبيل غيره من بني أمية يعهدون بالامر من بعدهم لابنائهم أو اخوتهم أو ابناء عمومتهم. وقد كان معاوية يحاذى في فعله ما كان من أبي بكر في تولية عمر من بعده، غير انه لامناسبة بين الفعلين فان معاوية انما آثر ولده وحاباه، لمكانه من الاتصال به. وأما أبو بكر فانه لم ينظر في عمله الا لمصلحة المسلمين ولم يؤثر بالامر نسيباً أو قريبا لنسبه أو قرابته. ناهيك أن معاوية - بايثاره ولده يزيد وتخطيه في عمله رقاب جلة الصحابة والتابعين وأصحاب السابقة والفضل من الامة - أوجد في عمله مغمزاً للطاعنين وافسح الكلام لاهل الاقاويل فنبه بعمله هذا المطامع النائمة فهبت ريح الثورات بعد موته وقام الطامعون في الخلافة ينازعون يزيد حبلها الى أن مات والامر على حاله وقد عهد الى ابنه معاوية الثاني بالامر بعده وكان رجلا ضعيف النحيزة مشتغلا بالعبادة فألقى الامر الى المسلمين يختارون من شاءوا الى أن استقرت في مروان وبنيه وقد ساروا في أمر الخلافة سيرة معاوية: ربما عهد الواحد منهم بأمر الخلافة الى واحد من أولاده أو اثنين منهم أو واحد منهم وآخر من بني عمومته وقد جرت سنة الله تعالى أن لايلي ولاية العهد اثنان الا جر ذلك نزاعاً وشقاقا. فان أولهما كان يميل الى نزع الامر من ثانيهما لاعتقاده انه يحدث نفسه في تعجل الامر لنفسه، أو لان الاول يؤثر ابنه على أخيه فهو يريد ازالته وتنحيته عن ولاية العهد بكل سبيل، أو بغير ذلك من الاعتبارات. فقد جهد عبد الملك في تأخير أخيه عبد العزيز والافضاء بالامر من بعده الى ابنه الوليد. وولى سليمان بن عبد الملك عمر بن عبد العزيز ثم أخاه يزيد ولاية عهده، فكان عمر يتألم من أن يلي يزيد أمر المسلمين من بعده. ولولا ان عاجلته المنية لاخرجه من ولاية العهد وعهد بها الى رجل من غير بني أمية. والامثلة سوى هذه كثيرة

ذهبت بعد ذلك الدولة الاموية لطيّتها وجاءت الدولة العباسية، فترسم العباسيون في ولاية العهد خطوات بني أمية حقبة من الدهر، الى أن ذهب شبابها ووافاها دور الضعف والهرم وصار الخليفة ليس له من الخلافة سوى الاسم والامر في كل شيء في أيدي المتغلبين من الوزراء والقواد والملوك الذين انتقصوا الدولة من أطرافها وأقاموا لهم منها ممالك قبضوا بأيديهم على اعنتها فكان أمر الخلافة في أيدي هؤلاء المتغلبين وليس للخليفة معهم صرف ولا عدل

لم يحفظ الخلافة الاسمية في ذلك الزمان في البيت العباسي الا ما وقر في نفوس الناس أن حكم الحاكم لايكون الا بعهد من الخليفة ليكون عمله وحكمه جاريا على مقتضى الشرع الشريف . فكان الخليفة يولى في مكانه ليعطى الحكام والملوك العهود التي تكسب عملهم الصفة الشرعية . ولم يكن بين المسلمين في ناحية بغداد بيت يسامي البيت العباسي في نباهة الشأن لما كان له من قديم الملك ونفوذ الكلمة والسطوة ، فهذا النفوذ يمتد سلطانه لكل شيء قديم، والروعة التي لهذا البيت بحكم الاستمرار ، وعدم حاجة الملوك الى تغيير هذا الطراز من الخلفاء الذين يرضون بالاسم من الخلافة ولا يعارضون في شيء من أمور الملك . أقول : لولا هذه الاعتبارات لزالت الخلافة في تلك الايام ولم يبق لها اسم ولا رسم

جاء الملوك من أهل البيت العثماني التركي وانتحلوا اسم الخلافة بعد فتح مصر سنة ٩٢٢ بزمن طويل والقوم قد رتبوا أمر الملك وجعلوه لأكبر موجود من أهل ذلك البيت ، فصار هذا النظام متبعاً في شأن الخليفة منهم الى أن جاء مصطفى كمال باشا والغى الخلافة من البلاد في شعبان سنة ١٢٤٢ (١) وقد أدى هذا الترتيب الى منازعات كثيرة سفكت بسببه دماء غزيرة من أهل ذلك البيت ، فان بعض ملوكهم كان يعمد بعد توليته الى استئصال اخوته وذوي قرابته ليخلص الملك ابنيه . ولكن

(١) مارس ١٩٢٤

لما كان لهم نظام يسيرون عليه في شأن من يلي الامر ، فقد حفظ أمر الخلافة والملك في هذا البيت الى العهد الاخير

أما الذين يقولون بأن الخلافة حق من حقوق أهل البيت العلوي فانهم كانوا يجرون عليها حكم الوراثة فيجعلون الخليفة أحد أبناء الخليفة المتوفى ويخصون بذلك أكبرهم .وقد ساقت الفرقة الاثنى عشرية (وعلى مذهبهم جمهور أهل فارس اليوم) الخلافة في بني الحسين بن علي ، وسموا علياً ومن يليه الأئمة ، وكانوا اثنى عشر آخرهم المهدي المنتظر الذي تغيب بسرداب بدارهم بالحلة وانه يجيء آخر الزمان ويملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً

ولغير الاثنى عشرية طرق أخرى في سوق الخلافة . وعند الشيعة في تفصيلاتها اختلاف كبير يخرجنا تتبع الكلام فيه عن القصد

للاستاذ الخضري كلمة جليلة في احدى محاضراته ساقها في أمر الخلافة ، وما كان بين علماء الاسلام من البحوث المختلفة في شأنها نسوقها مع بعض تغيير كما رأينا لزوماً لذلك من زيادة ايضاح أو نحوه ، قال :

لم يكن يحَلُّ الخلاف في زمن من الازمان الا بالقوة فهي التى تجعل صاحبها صاحب الحق . والناس في كل زمان يؤلهون القوة ويجعلون باطلها حقاً ويحقرون الضعف ويجعلون حقه باطلا

تناول العلماء في الدولة العباسية مسألة الخلاف وأدخلوها ضمن مباحث العقائد الدينية . ويخيل الينا ان أول من وضعها هذا الموضع كان يرى رأي الشيعة فان الخلافة عندهم من أمور الدين ثم جر اليها المتكلمين وصار أمرها موضوعاً جدلياً كغيره من المسائل الدينية ، وكان النزاع يدور بينهم على ستة أمور :

(١) وجوب نصب الامام : أهو واجب على الأمة من طريق السمع كما هو رأي الجمهور ? أو من طريق العقل كما هو رأي المعتزلة والزيدية ? أو من طريقها

معاً كما هو رأى بعض المعتزلة (وأراني الى هذا أميل) (١) أو على الله لحفظ قوانين الشرع كما هو رأي الامامية ؟ أو على الله ليكون معرفا لله وصفاته كما هو رأي الاسماعيلية ؟ أو لا يجب كما هو رأي بعض الخوارج ؟ أو يجب عند الامن لا عند الفتنة كما هو رأي هشام الفُوَطي واتباعه ؟ أو يجب عند الفتنة دون الامن كما هو رأي الاصمّ ومن شايعه من المعتزلة !

(٢) شروط الامام : وقد ذكروا شروطا لا خلاف فيها وهي - أن يكون شجاعا ليغزو بنفسه ويعالج الجيوش ويقوى على فتح البلاد ويحمي البيضة . وأن يكون أهلا للقضاء : بأن يكون مسلماً مكلفاً حرا ، عدلا ، ذكرا ، مجتهداً ، ذا رأي وسمع وبصر ونطق . ومنها شروط فيها خلاف : كالقرشية عند الجمهور . والهاشمية عند الشيعة ، والعلم بجميع مسائل الدين وظهور معجزة على يده عند بعض الشيعة

ولما رأى القاضي أبو بكر الباقلاني ما عليه عصبية قريش من الاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء أسقط شرط القرشية ، وان كان رأيه هذا موافقا لرأي الخوارج . وقد بقي الجمهور على اشتراطها وصحة امامة القرشي ولو كان عاجزاً عن القيام بأمور المسلمين

وكأني بأهل هذا الرأي يرون ان الخلافة التي أوجب الشرع اقامتها يكفي في سقوط الاثم باتخاذها على السبيل الذي تتخذ عليه الآثار القديمة والعاديات في المتاحف ، ولا أخفي عليكم ان هذا ليس معجباً لي ولا تميل اليه نفسي

(٣) ما تثبت به الامامة : وهو النص من رسول الله ﷺ أو من الامام الموجود وبيعة أهل الحل والعقد ، خلافا للشيعة . ثم قالوا لا يحتاج الامر الى اجماع أهل الحل والعقد بل يكفي الواحد والاثنان ، وقال بعضهم لا بد أن يكون ذلك امام بينة عادلة . وهل يجوز تعدد الأئمة أو لا يجوز ؟ وهل يجوز خلعه ولاي شيء يكون ؟

---

(١) كلام المؤلف

ولا يخفى ان وجوب الاخذ ببيعة واحد أو اثنين فيه خطر وافتيات على أهل الحل والعقد ، والمعقول أن يكون ذلك باصفاق أكثر من حضر منهم على البيعة . وأما جواز تعدد الأئمة ففى النفس منه شيء ، مهما احتج المجيزون له بترامي الاطرف واحتياج البلاد النائية الى قوة تضبط نواحيها وتؤمن فجاجها ونحو ذلك من الحجج لان هذا يحصل باختيار الكفاة من الولاة

أما الامام اذا بويع فانه لايجوز خلعه لنحو فسق لما في مفارقة الجماعة بالخروج على الامام من الخطر وسفك الدماء والمفاسد . ولكنه اذا كفر فلا رخصة في الابقاء عليه بل لابد من خلعه . ومثل ذلك اذا جُن

ولا يذهبن عليكم أن القول بعدم خلع الامام بالفسق قول لكثير من أصحاب رسول الله عليه السلام فقد كان جمهور المسلمين على هذا الرأى في خلافة يزيد وكثير من الصحابة يساكنونه في بلده ولم يحركوا ساكناً بعزله حتى بعد أن قتل الحسين وهو سبط رسول الله ﷺ

وفريق يرى خلاف هذا الرأى كالحسين بن علي ومن تابعه وذلك اجتهاد منهم

(٤) من هو الامام الحق بعد رسول الله ﷺ : اهو أبو بكر ، أم على ؟ ومعلوم أن الجمهور من المسلمين يقولون انه أبو بكر . وأما الشيعة فيقولون ان علياً معين من قبل رسول الله ﷺ قبل وفاته . ويدعون لذلك حديثاً هو ان النبي ﷺ قال لعلى « أنت أخى ووصيي وخليفتى من بعدي » وأنا لا أذهب بكم بعيداً ، بل أقول ان رسول الله لو كان قد قال هذا القول لاحتج به علي يوم بويع أبوبكر واستشهد على ذلك بالمسلمين ، واني لاربأ بعلى رضي الله عنه ان يكون قد عمل على خلاف أمر رسول الله ﷺ فبايع أبا بكر وهو ليس بالامام الحق ثم بايع بعد ذلك عمر ثم عثمان

(٥) من هو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ : ومعلوم ان جمهور المسلمين

على انه أبو بكر الصديق . والشيعة على انه علي بن أبي طالب . وأما نحن فنقول علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم وبيده تقليب قلوبهم له الحكم في ذلك وهو على كل شيء شهيد

(٦) ما حكم امامة المفضول مع وجود الفاضل ؟ ولا شك أن الجمهور يقولون بأن الامامة تكون حينئذ صحيحة وحجتهم رضا الصحابة رضوان الله عليهم وسكوتهم على بيعة يزيد بن معاوية مع وجود من يفضله منهم ومن التابعين . وأما الشيعة فيقولون بعدم صحة بيعته

وعلى الجملة كانت هذه المناقشات مع حدتها وغوصها على معان جميلة شريفة في بعض الاحيان ، عديمة الجدوى من الوجهة العملية ، لان هؤلاء يتجادلون بأسنة الاقلام في مدارسهم وعلى صفحات كتبهم ، وأولئك يُحَكِّمُون حد الحسام ولا يلقون بالا لتلك المناقشات كأن شأنها لايهمهم

و (السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب)

والخلاصة ان مسألة الخلافة الاسلامية والاستخلاف لم تسر مع الزمن في طريق يؤمن فيها العثار . بل كان تركها على ما هي عليه من غير حل يبّين الحدود ترضاه الامة وتدافع عنه سبباً لاكثر الحوادث التي أضنت المسلمين وأوجدت ما سيرد امام أعيننا من أنواع الشقاق والحروب المتواصلة التى قلما خلا منها زمن سواء كان ذلك بين بيتين أو بين شخصين اه . من محاضرات الخضري بزيادة وتغيير

نوع الحكم فى الخلافة الاسلامية

اذا نحينا جانبي الافراط والتفريط في شأن الخلافة الاسلامية واتخذنا رأي الجمهور نظاماً للحكم في الخلافة ظهر لنا بذلك نوع غريب من أنواع الحكم

ان الحكومات التى عرفت الى اليوم أنواع :

(١) حكومة يكون الملك فيها مستبدا ، أمره قانون متبع وشرع مطاع لا يراجعه أحد ولا يستشير أحدا . وهذه هى الحكومة الاستبدادية ويسمونها حكومة (أوتوقراطية) أى حكومة ذاتية

(٢) حكومة ينتخب الملك فيها من بيت خاص سواء كان ذلك على نظام متبع أولا . والملك فيها ليس مقيدا باتباع مجلس من المجالس ، مع وجود مجالس للتشريع وسن الانظمة وابداء الرأى في مهام أمور المملكة . وأعضاء هذه المجالس تنتخبها الامة على قاعدة متبعة ، كانت الحكومة (ارستوقراطية) أو حكومة الاعيان

(٣) اذا كان الملك ينتخب من بيت خاص ، ولكنه لاشأن له بامور المملكة سوى امضاء المعاهدات والاوامر ، وأما شؤون المملكة فالذي ينظر فيها مجالس تنتخبها الامة ، ولا يتأتي للملك أن يبت في أمر الا بعد عرضه على تلك المجالس وابداء الرأى فيه وما يستقر عليه رأى المجلس يمضيه الملك ، كانت حكومة شعب ويعبر عنها بقولهم (حكومة ديموقراطية) وتارة يعبرون عنها بحكومة شورية

(٤) حكومة يكون فيها الرئيس منتخباً من بين الشعب دون بيت خاص ، ويكون انتخابه بواسطة مندوبين من الامة على نظام خاص لمدة معينة - كثلاث سنين أو خمس سنين - ومعه مجالس تنوب عن الامة ينتخب أعضاؤها بواسطة الأمة تنظر هذه المجالس في كل شيء والرئيس مقيد بأمرها لا يبت شيئاً دونها ،

وليس له الا امضاء القوانين والاوامر التى استقر عليها رأى المجالس بمقتضى الدستور المتبع وبمضى المعاهدات الدولية ونحوها ، وليس له تصرف في مالية الأمة أو نظامها ، فهذه تسمى حكومة جمهورية

***

أما الخلافة الاسلامية وان اختص الخليفة بأن يكون من قريش ، ولكن قريشا بيوت كثيرة جدا ، فهى أشبه بأمة ولا يختص بالخلافة بيت من بيوتها دون بقيتهم ، وأيضا فان الذي ينتخبه رجال الحل والعقد وهم جمهور ذوى الرأى فهى من هاتين الجهتين تأخذ شبها من الحكومة الجمهورية

ومن حيث ان الخليفة يُلحَظُ في انتخابه الدوام دون أن يكون ذلك الحزمن معين يكون معزولا عن الخلافة بانقضائه ، تأخذ شبها من الحكومة الملوكية

ومن حيث أن الخليفة مقيد في اتباع احكام نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية وأن يقاس النظير على نظيره في الحوادث وما أجمع عليه أهل الحل والعقد مما ليس في كتاب ولا سنة ولم يوجد له نظير يأخذ حكمه ، وليس له أن يضع شرائع من تلقاء نفسه ، تأخذ شبها من الحكومة الدستورية أو الشورية أو (الديموقراطية)

وحينئذ يمكننا أن نقول في تقريب وصفها مع شيء من التجوز والتساهل في التعبير : انها (حكومة ملوكية موحدة النظام لها بعض الشبه بالجمهورية)

انتخاب أبي بكر

لايجهل أحد أن الانصار اعمام الأوس والخزرج . وهما شعبتان كان بينهما في الجاهلية مايندر أن يكون مثله بين بنى أب . وكان الخزرج اكثر عددا ، وكانت الرياسة لسعد بن عبادة من بنى ساعدة وهو أحد النقباء . وكانت دار سعد مما يلى سوق المدينة وعندها سقيفة كانت بالقرب من داره

لم يلبث الانصار بعد وفاة النبي ﷺ أن توافوا الى سقيفة بنى ساعدة ليدبروا رأيهم في شأن من يكون خليفة بعد رسول الله ﷺ يريدون أن يلى هذا الأمر رجل منهم ويزووه عن المهاجرين . وكان سعد بن عبادة مريضا فأخرجوه معهم وهو لايقدر أن يُسمع الناس مايقول فكان يبلغ عنه بعض ذوى قرابته مايقول في خطبته يرفع به صوته ليسمع الناس . فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه « يامعشر الانصار لكم سابقة في الدين وفضيلة في الاسلام ليست لقبيلة من العرب . ان محمدا عليه السلام لبث بضع عشرة سنة في قومه يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الانداد والاوثان ، فما آمن به من قومه الا القليل وما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسول الله ولا أن يعزوا دينه ولا أن يدفعوا عن أنفسهم ضيما عُمُّوا به . حتى اذا أراد بكم الفضيلة ساق اليكم الكرامة وخصكم بالنعمة فرزقكم الله الايمان به وبرسوله والمنع له ولاصحابه والاعزاز له ولدينه والجهاد لاعدائه . فكنتم أشد الناس على عدوه منكم وأثقله على عدوه من غيركم . حتى استقامت العرب لامر الله طوعا وكرها وأعطى البعيدُ المقادة صاغرا داخرا ، حتى أثخن الله عز وجل لرسوله بكم الارض ودانت بأسيافكم له العرب وتوفاه الله وهو عنكم راض وبكم قرير عين ، استبدوا بهذا الامر دون سائر الناس فانه لكم دون الناس »

فأجابوه بأجمعهم ان قد وفقت في الرأي وأصبت في القول ولن نعدو مارأيت نوليك هذا الامر فانك فينا مقنع ولصالح المؤمنين رضى

ثم انهم ترادوا في الكلام بينهم ، فقالوا : فان أبت مهاجرة قريش فقالوا نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الاولون ونحن عشيرته وأولياؤه فعلام تنازعوننا هذا الامر بعد ؟ فقالت طائفة منهم : فانا نقول اذا « منا أمير ومنكم أمير » ولن نرضى بدون هذا الامر ابدا . فقال سعد بن عبادة حين سمعها « هذا أول الوهن »

بينما الانصار يديرون الرأى على وجوهه ويترادون الكلام فيما يجاوبون به المهاجرين ، نبيء عمر بن الخطاب بأمرهم وماهم عليه من الاستشراف لهذا الامر والتحفز للبيعة ، فأقبل الى منزل رسول الله ﷺ وأرسل الى أبي بكر (وكان مع على رضى الله عنه في جهاز رسول الله عليه السلام) أن اخرج الى . فراجعه قائلا انى مشتغل بجهاز رسول الله ، فرد عليه عمر بان قد حدث أمر لابد لك من حضوره . فخرج اليه ، فقال : اما علمت ان الانصار قداجتمعت في سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يولوا هذا الامر سعد بن عبادة . وأحسنهم مقالة من يقول منا أمير ومن قريش أمير ؟ فضيا مسرعين نحوهم . فلقيا أبا عبيدة بن الجراح ، فتماشوا اليهم ثلاثتهم . فلقيهم عاصم بن عدى ، وعويم بن ساعدة . فقالا لهم : ارجعوا فانه لا يكون ما تريدون . فلم يصغوا الى قولهما حتى وافوهم مجتمعين بالسقيفة وقد هيأ عمر في نفسه كلاما يريد أن يقوم به فيهم. فلما اندفع اليهم يريد ابتداء كلامه قال له أبو بكر رويدا حتى أتكلم ثم انطق بعد بما أحببت . ثم تكلم أبو بكر فلم يدع شيئا مما في نفس عمر الا قاله أو زاد عليه . فكان كلامه بعد حمد الله والثناء عليه أن قال :

ان الله بعث محمدا رسولا الى خلقه وشهيدا على أمته ليعبدوا الله ويوحدوه وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ويزعمون انها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، وانما هى من حجر منحوت . ثم قرأ « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله ـ وقالوا ـ مانعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » . فعظم

علي العرب أن يتركوا دين آبائهم. فخص الله المهاجرين الاولين من قومه بتصديقه والايمان به والمؤاساة له والصبر معه على شدة أذى قومهم لهم وتكذيبهم اياهم وكل الناس لهم مخالف زار عليهم فلم يستوحشوا لقلة عددهم وشنْف(١) الناس لهم واجماع قومهم عليهم ؛ فهم أول من عبد الله في الارض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهـذا الامر من بعده ولا ينازعهم ذلك الا ظالم. وأنتم يامعشر الانصار من لاينكر فضلهم في الدين ولا سابقتهم العظيمة في الاسلام. رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله وجعل اليكم هجرته وفيكم جلة أزواجه وأصحابه. فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا بمنزلتكم. فنحن الامراء وأنتم الوزراء لاتفتاتون بمشورة ولا تقضى دونكم الامور

فقام الحباب بن المنذر بن الجموح فقال: يامعشر الانصار. املكوا عليكم أمركم فان الناس في فيئكم وفي ظلكم ، ولن يجترئ مجترئ على خلافكم ولن يصدرَ الناس الا عن رأيكم. انتم أهل العز والثروة وأولو العدد والمنعة والتجربة وذوو البأس والنجدة. وانما ينظر الناس الى ماتصنعون. ولا تختلفوا فيفسد عليكم رأيكم وينتقض عليكم أمركم. أبى هؤلاء الا ماسمعتم فمنا أمير ومنهم أمير

فقال عمر: هيهات لا يجتمع اثنان في قَرن. والله لاترضى العرب أن يؤمروكم ونبيها من غيركم ولـكن العرب لاتمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى امورهم منهم ولنا بذلك على من أبى من العرب الحجة الظاهرة. من ذا يقارعنا سلطان محمد وامارته ـ ونحن أولياؤه وعشيرته ـ إلامدل بباطل ومتجانف لاثم أو متورط في هلَكة

فقام الحباب بن المنذر فقـال: يامعشر الانصار أملكوا على أيديكم ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فان أبوا عليكم ماسألتموه فاجلوه من هذه البلاد وتولوا عليهم هذه الامور. فانتم والله أحق بهذا الامر منهم فانه بأسيافكم دان لهذا الدين من دان ممن لم يكن يدين ، انا جُذَيلها المحكك ، وعُذَيقها المرجب. اما والله لئن شئتم لنعيدنها جَذَعَة

(١) شنف كفرح نظر الى الشيء كالمعترض

فقال عمر: اذن يقتلك الله . قال . بل اياك يقتل

فقال أبو عبيدة : يامعشر الانصار انكم أول من نصر وآزر . فلا تكونوا أول من بدّل وغير

فقام بشير بن سعد أبو النعمان بن بشير فقال : يامعشر الانصار ، انا والله لئن كنا أولي فضيلة في جهاد المشركين وسابقة في هذا الدين ما أردنا به الا رضا ربنا وطاعة نبينا في الكدح لانفسنا . فما ينبغي لنا أن نستطيل على الناس بذلك ولا نبتغي به من الدنيا عرضا ،فان الله ولى المنة علينا بذلك . ألا ان محمدا ﷺ من قريش وقومه أحق به وأولى . وايْمُ الله لايراني الله أُنازعهم هذا الامر أبدا . فاتقوا الله ولا تخالفوهم ولا تنازعوهم

فقال أبو بكر : هذا عمر وهذا أبو عبيدة ، فأيّهما شئتم فبايعوا . فقالا : لا والله لانتولى هذا الامر عليك ، فانك أفضل المهاجرين وثانى اثنين اذ هما في الغار وخليفة رسول الله على الصلاة والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغي له أن يتقدمك أو يتولى هذا الامر عليك . أبسط يدك نبايعك . فسبقهما بشير ابن سعد فبايعه

ولما رأت الأوس ما صنع بشير بن سعد ، وما تدعو اليه قريش وما تطلب الخزرج من تأمير سعد بن عبادة ، قال بعضهم لبعض وفيهم أسَيْد بن حضير أحد النقباء : والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لازالت لهم عليكم بذلك الفضيلة ولاجعلوا لكم معهم نصيباً أبداً ، فقوموا فبايعوا أبا بكر . فقاموا اليه فبايعوه . فانكسر على سعد بن عبادة وعلى الخزرج ما كانوا أجمعوا له من أمرهم . وأقبل الناس يبايعون أبا بكر حتى كادوا يطأون سعد بن عبادة وهو مريض لايستطيع النهوض . وتخلف عن البيعة علي بن أبي طالب ومن معه من بني هاشم ، اذ كانوا مشتغلين بتجهيز رسول الله فلم يحضروا أمر السقيفة ولما سنورده . وأبى سعد بن عبادة المبايعة فتركوه لابى بكر

لم يكن المانع لعلي عدم حضور السقيفة فحسبُ أو اشتغاله بتجهيز رسول الله ﷺ، ولكنه كان يرى انه أحق بهذا الامر من سواه لما له من صهر رسول الله وقرابته وسابقته وحسن بلائه في الاسلام وان القوم قد غصبوه حقه وغلبوه على تراث رسول الله. ويريد أن يبقى على ابائه حتى لايكون للناس عليه حجة بأنه نزل عن حقه لغيره ثم يترقب فرصة يعيد فيها الحق الى نصابه

غير ان الاحوال التي تلت بيعة أبي بكر من ارتداد العرب ونأيهم بجانبهم عن الاسلام، كانت أكبر من شأن الخلافة، والشدائد تذهب الأحقاد وتؤلف بين جميع من مسهم أذاها. لذلك اطرح علي جانب الكلام في الخلافة ووضع يده في يد أبي بكر لدفع الاعراب عن المدينة وتثبيت كلمة الاسلام وتقليم أظافر الشرك الذي طما على الامة

﴿أول خطبة لابي بكر﴾

ان قيام الرؤساء من ملوك وأمراء ووزراء بالخطابة بعد تمام الامر لهم يعربون عن خططهم التي يتبعونها في سياسة أممهم ووجهتهم التي يولون وجوههم شطرها في حكم شعوبهم ليس بالامر الحديث. فقد قام أبو بكر بعد توليته الخلافة. فخطب الناس خطبة أبان فيها ما اعتزم على سلوكه في سياسة الامة بياناً لا ابهام فيه فقال:

أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخير منكم. فان أحسنت فأعينوني، وان صدفت فقوموني. الصدق أمانة والكذب خيانة والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ان شاء الله. لايدع أحد منكم الجهاد فانه لايدعه قوم الا ضربهم الله بالذل، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فاذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم، قوموا الى صلاتكم يرحمكم الله

وهذه الكلمة مجمل الطريقة التي اتبعها في خلافته أخبرهم بواجب عليهم وهو اعانته، وحق لهم وهو تقويمه اذا صدف عن الحق وفيه ضمان لحريتهم في القول.

اعطاهم عهداً أن يعدل فيهم فلا تمنعه قوة الظالم أن ينصف منه المظلوم ولا يمنعه ضعف المظلوم أن ينصفه من ظالمه . حثهم على الجهاد الذي كان لابد منه . أخبرهم انه خليفة لينفذ الشريعة فاذا عدل عنها فلا طاعة له عليهم

﴿ ترجمة أبي بكر ﴾

هو أبو بكر بن أبي قحافة عثمان من بني تيم بن مرة . يجتمع نسبه مع رسول الله في مرة بن كعب بن لؤي . وأمه أم الخير بنت سلمى بنت صخر بن عامر من تيم بن مرة . ولد لسنتين من عام الفيل ، وشب على الاخلاق الفاضلة حميد السيرة . بغضت اليه الخمر في الجاهلية وكان ذا ثراء و بسطة في الرزق وقد ساعدته سعة حاله وما يكسبه من التجارة على الافضال على أهل الحاجة . وكان قريباً من قلوب قريش محبباً فيهم . واليه في الجاهلية الاشناق وهي الديات و المغارم فاذا احتمل دية أو غرِمَ مغرماً واخبر قريشاً صدقوه وأعانوه عليه . وكان أبو بكر نسابة في العرب عامة وفي قريش خاصة راوية لاخبارهم حافظاً لأنسابهم عالما بمفاخر كل قوم ومثالبهم وكان يعرف من انساب قريش وأخبارها مالا يعرفه غيره . وكان بزازا يعتمد على الكسب من تجارته في الجاهلية والاسلام فبلغ رأس ماله أربعين ألف درهم أنفق منها خمسة وثلاثين ألفاً في الله ومعاونة رسوله . وكان يشتري المعذبين من الارقاء بمكة ، إذ كان يريد سادتهم فتنتهم عن الاسلام ويعتقهم . وكان أول من أجاب رسول الله ﷺ الى الاسلام من الرجال فآمن به وصدقه وتابعه على دينه . وكان حفيا أثيراً لديه واحتمل أشد الايذاء من قريش حتى لقد هم بالهجرة الى الحبشة . فلقيه ابن الدُغُنَّة سيد القارة فأجاره على قريش . وقال له : مثلك لايهاجر انك تصل الرحم وتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتُعين على نوائب الدهر . وقد أجازت قريش جواره على أن لايستعلن بصلاته

لهم . فاتخذ بفناء داره مسجداً يصلي فيه ويقرأ القرآن، وكان رقيق القلب بكاء من خشية الله فكان النساء والصبيان من المشركين يسقطون اليه ويعجبون من قراءته وصلاته . وشكاه رجال قريش الى ابن الدغنة فرد عليه أبو بكر جواره راضياً بحماية الله تعالى له ممن يؤذونه . وقد هاجر مع رسول الله ﷺ الى المدينة وكان ثاني اثنين اذ هما في الغار وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ

واني ليعجبني قول صديقي الفاضل رفيق بك العظم رحمه الله في كتابه أشهر مشاهير الاسلام :

« تجسم أبو بكر رضي الله عنه من الفضيلة ، وخلص جوهره من الدَّغَل، وانفطر على سلامة النفس من شوائب العناد وطهارتها من عمى البصيرة عن ادراك الصواب والمماراة في الحق، فقامت لديه الحجة على الشرك وظهرت له محجة الرشد لأول وهلة من دعوة الرسول ﷺ الذي تفرس فيه الاستعداد الكامل للايمان فبادره بالدعوة فلم يتردد ، وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد . ولهذا قال ﷺ ما دعوت أحداً الى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبي بكر »

﴿أخلاق أبي بكر﴾

ليس من همنا أن نستقصي ما كان عليه أبو بكر رضي الله عنه من أخلاق كريمة وسجايا جميلة ، ولكننا نعمد الى اظهر أخلاقه أثراً في أعماله التى استقبلها بعد أن ولي خلافة المسلمين ، وفي معاملتهم وسياستهم . فان لكل أمير أو رئيس اخلاقا تملكه ويشتهر بها ، وأظهر أخلاق أبي بكر خلقان : الرقة ، وصدق العزيمة

أما رقته فقد كان هذا الخلق غالباً عليه من أيام جاهليته واستمر معه في الاسلام، فقد كان كثير البكاء من خشية الله تعالى ، وكم من مرة قام يدافع قريشا عن رسول ﷺ وهو يبكي وقد لببوه برداثه قائلين : أنت الذي تريد أن تجعل الآلهة إلها

واحدا ، وهو يردهم عنه باكيا ويقول : أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ؟ ولما استشار رسولُ الله ﷺ أصحابه في اسرى بدر ، كان رأيه أن يقبل منهم الفداء لانهم قومه وأهله وقد أظهره الله عليهم وعسى الله أن يهديهم به . وقد مثله رسول الله بابراهيم عليه السلام اذ قال « فمن تبعني فانه مني ، ومن عصاني فانك غفور رحيم »

وسيمر بنا في كتبه وعهوده مبالغته في الاستيثاق لاهل العافية والنساء والصبيان ومن ليس لهم شأن في الحرب ووصيته فيهم بالخير والرفق بهم

وأما صدق عزيمته فانه يتجلى واضحا فيما يرد علينا من ضبطه للأمور وجدِّه في حفظ البيضة ومجاهدة المشاقين وتسيير دفة الاسلام وسط الخطوب المظلمة وأمواج الفتن المتلاطمة حتى أرساها الى مرفأ السلامة والامن . ولم يلحق بربه حتى أعاد الاسلام أقوى ما كان شوكة ، وأمنع ما كان جانبا ، وأثبت ما كان أساسا . وكل ذلك بثباته امام الاخطار واستصغاره الخطوب وتصميم عزيمته ومَضائه على الحق

وأول مواقف أبي بكر انفاذه جيش اسامة ، وقبل الافاضة في الكلام على جيش اسامة أريد أن أعجل بالكلام على ردَّة العرب بعد الاسلام

الردَّة

ان كثيراً من الاعراب المنبثين في جزيرة العرب كانوا حين وفاة رسول الله ﷺ لم يتفق لهم من صحبته ما يصفي جواهر نفوسهم مما مازجها من شوائب الشرك ، ولم ينفذ الى بصائرهم نور الحِكَمِ الباهرة المنطوية في أوامر الاسلام ونَواهيه . فزاغت بصائرهم عن انَّ الزكاة صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، لايكلفها الا من آتاهم الله بسطة في الرزق . وعدوها اتاوة أو ضريبة يسامون

اداءها كما يسوم الجبابرةُ من الملوك رعاياهم اداء الاتاوات وحمل المغارم. وذهلوا عن بون مابين الخطتين. فتناجوا بالاثم والعدوان في منع الزكاة وفشت هذه المقالة في كثير منهم - وآخرون من دونهم فشت فيهم فاشية سوء وهم الذين قام فيهم متنبئون يُضلونهم بغير علم: كطليحة الاسدي، والأسود العنسي، ومسليمة الكذاب، وسجاح التميمية. ومع ان المانعين للزكاة لم يرفضوا جميع أحكام الاسلام ولكنهم سموا مرتدين لجحدهم ركناً من أركانه

ثبت على الاسلام أهل المدينة ومكة والطائف ومهاجرة الاعراب وبعض الدائنين بالاسلام في قليل من الاطراف كعبد القيس

فلم يكد خبر وفاة رسول الله ﷺ ينتشر في الآفاق حتى نجم النفاق والشقاق وتطاولت أعناق كثير من قبائل العرب الى البطش بالمسلمين وطمعوا في جانبهم وغرتهم الاماني، والله غالب على أمرهم

﴿ انفاذ أبي بكر جيش أُسامة ﴾

بين هذه الفتنة الحالكة وفي معترك هذه الحوادث، والانباء بارتداد العرب يتلو بعضها بعضاً، قام أبو بكر بانفاذ جيش اسامة

ذلك ان رسول الله ﷺ كان جهز جيشاً لمعاقبة قبائل قضاعة الضاربين في جهات الشام مما يلي مؤتة لمظاهرتهم الرومَ على جيش المسلمين في غزوة مؤتة وقد كان أميرَ الجيش زيدُ بن حارثة وقد استشهد في تلك الغزوة فجهز جيشاً آخر لغزوهم. وقد جعل رسول الله ﷺ أميرهذا الجيش اسامةبن زيد وكانت سنه ١٨ سنة وكان تحت لوائه عدد من جلة الصحابة منهم أبو بكر وعمر. وقد حث رسول الله ﷺ على خروج جيش اسامة. ولم يقبل فيه مقالة من أراد أن يستبدل به من هو أسن منه، وقد توفى رسول الله قبل أن يزايل الجيش المدينة فبقي بظاهرها

خشي المسلمون أن يطمع العرب وأهل النفاق في مسلمي المدينة اذا فصل جيش اسامة وبقى المسلمون بدون حامية قوية ترد عادية الطامعين فكلموا أبا بكر في استبقاء جيش اسامة ليكون للمسلمين ردءاً . وقالوا ان هؤلاء جند المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك . فقال : والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تتخطفني لانفذت جيش اسامة كما أمر رسول الله ﷺ

وأرسل اسامة عمرَ بن الخطاب يعرض على أبي بكر تخلف الجيش عن وجهه وعهد بعض المسلمين الى عمر أن يخاطب أبا بكر في أن يولى أمر الجيش من هو أسن من اسامة . فلما أفضى عمر الى الخليفة بما حمل من رسالة زيد وجنده أبى الا المضاء فيما أمر به رسول الله واشتد على عمر حتى أخذ بلحيته وقال له : عدمتك أمك وثكلتك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله ﷺ وتأمرني أن أنزعه !

تصورَ أبو بكر ما خامر قلوبَ رجال الجيش وما هو لاصق بنفوسهم من لُوثة الجاهلية والانفة من تأمير من لم تُقدمه السن والاستمساك بعرى التفاضل بالانساب والامور التي وضعها الاسلام . فرأى أن لا يجيبهم الى طلبهم وأن يمحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء والتفاضل الا بالتقوى وصالح العمل وأن ينوه بقدر زيد حتى يكون للقوم بخليفتهم اسوة حسنة . ولو انه أطاع القوم لسنَّ للناس مخالفة أمر رسول الله ﷺ ، ولاطمعهم في أن يطلبوا ماليس لهم بحق ، وفي ذلك من المضرة ما لا يجهل

خرج أبو بكر حتى وافى الجيش وشيعهم ماشيا واسامة راكب واستأذنه في أن يسمح لعمر بالبقاء معه بالمدينة يستعين برأيه فسمح له بذلك . وقال له اسامة : ياخليفة رسول الله لتركبن أو لانزلن ؟ فقال : والله لا نزلتَ ولا أركب ، وما علي ان أغبر قدمي ساعة في سبيل الله ؟

كان في عمل أبي بكر ماحدا القوم على الرضا بإمرة اُسامة اذ رأوه ماشيا في

ركابه غير مفتات عليه في استبقاء عمر دون اذنه ، فكان عمله خير هاد لهم

ومن جهة أخرى رأى أبو بكر أن التوقف عن انفاذ الجيش الى الوجه الذي أعد له يشعر قلوب العرب ضعف المسلمين عن حماية أنفسهم ، فيطمع الذى في قلبه مرض ، وان انفاذه امضاء لامر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتصوير المسلمين في النفوس بصورة القوي الجريء الذي لم يختلج قلبه خوف ولم يستشعر الوجل

زوّد أبو بكر جيش أسامة نصيحة هذا نصها : « لاتخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولاتقتلوا طفلا ولاشيخا كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعو شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا للأكل . وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا انفسهم له . وسوف تقدمون على قوم فحصوا اوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقا » ثم قال : اندفعوا باسم الله

نصيحة تُخجل ادعياء المدنية الذين يظهرون بمظهر خدام الانسانيـة وهم اضرى العوادى عليها ، ويرمون الاسلام بأنه دين الهمجية والوحشية والعسف وعدم احترام الانسانية وهم في كل يوم يُصْلُون الانسانيةَ من نار الهمجية ضروباً ويذيقونها من الوحشية افانينَ

يجدر بالامم المتمدنة ان تجعل هذه النصيحة أول مايتزود به الجندي وان تكون القاعدة التى تبنى عليها حقوق الدول والملل

سار اسامة وشن الغارة على بلاد قضاعة واحلافهم وغنم منهم واستمر في بعثه أربعين يوماً ثم عاد . وكان انفاذ جيش اسامة نهاية الحزم ، فقد فت في اعضاد المرتدين حين تسامعوا به . وقالوا : لولم يكن للقوم قوة لم يقذفوا بجيوشهم يرمون بها من بعد عنهم من القبائل ذات الشوكة . غير ان ذلك لم يثن كثيراً من المرتدين عن الانحدار في مهواة الردة التى زلت فيها أقدامهم

﴿قتال أبي بكر لاهل الردة﴾

ان الدين الاسلامي يُعْتَبَرُ أهلهُ والداخلون فيه بمثابة جند على تعبية لمنازلة العدو العادي . فمن نكل عن العدو وخام عن اللقاء وولى العدوَّ ظهره الا متحرفا لقتال أو متحيزاً الى فئة ، فقد باء بغضب من الله واستحق جزاء الجندي الفار من صفوف الجيش أو المنحاز الى الأعداء المظاهر لهم . لهذا كان قتال المرتدين الى أن يفيئوا الى دينهم أوجبَ من قتال المخالفين ، ولان اعطاء الموادة في أمرهم يكون مَدرجة لمشاقة سواهم حتى تتفرق الكلمة و تنشق العصا و تنفض البيضة و تكون فتنة في الأرض و فساد كبير

الدين الاسلامي لايفرض على متبعيه اتاوة ولا يفرض عليهم خرجا . ولا يخلو حال الأمة من اقامة ولاة و أمراء و بعث بعوث واطفاء فتن والانفاق على مصالح عامة و مواساة ضعيف و اعانة ذي حاجة ونحو ذلك من الوجوه التي بينها الكتاب وجعلها مصارف للصدقات ، ولا مادة لكل هذه الوجوه سوى الزكاة التي هي ركن لايتحقق الاسلام من امريء الا بالاقرار به والعمل بمقتضاه

لهذا كله كان المانعون للزكاة مساوين في الحكم للجاحدين للدين بعد انضوائهم اليه و انتظامهم في صفوف جنده

رأى فريق من الصحابة ـ بعد تواتر الاخبار بارتداد العرب ومنع فريق منهم الزكاة ـ أن يقبل أبو بكر منهم ما بذلوه وهو الصلاة ليكون ذلك تأليفاً لقلوبهم حتى يرجع جيش اسامة ويشتد ساعد المسلمين ثم يرمى المدبر بالمقبل ، فلم يقبل أبو بكر هذا الرأي لانه مؤذن بالضعف و ثلمة لايلبث القوم أن يوسعوها بالمطالب حتى يعودوا الى وثنيتهم الأولى وما كان له أن يبدد ذلك الارث الذي خلفه رسول الله ﷺ بمجرد تناوله فقال : «والله لومنعوني عناقا كانوا يؤدونها الى رسول الله ﷺ

لقاتلتهم على منعها»

اذا صدقت العزائم واتحدت الوجهة وخَلُصَتِ النيات في عصابة تحاول مروما . فهناك يكون النصر القريب والفتح المبين . ناهيك بعصابة قوامها المهاجرون والانصار ، وهم قوم قد تأدبوا بآداب الدين وغلبتْ على نفوس كثير منهم اخلاق القرآن ، وقد تبوأ مكان الرئاسة فيهم أبو بكر الصديق يحف به ويؤازره على سياسة أمره أمثال علي وعمر وخالد بن الوليـد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص وخالد بن سعيد والمهـاجر بن أبي أمية وأبى عبيدة بن الجراح ويزيد ومعاوية ابنى أبي سفيان وعياض بن غنم وحبيب بن سَلَمَة الفهري وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم « وكل اذا عُد الرجالُ مقدمُ »

كانت حامية المدينة قليلة بعد ارتحال جيش أسامة . فأخـذ أبو بكر بالحزم ولم يشأ أن يعاجل العرب بما اعتزم عليـه من اعضاض السيف رقابهم حتى تستقيم له قناتهم ويعودوا الى الدين الذي مرقوا منه حتى يعود جيش اسامة. فأخذ يطاول في الامر - غير ان عبسا وذبيـان وَغطَفان واسدا وطيئا قد اعجلوه . وكان بعضهم نازلا بذى القَصَّة وبعضهم بالابرق بالقرب من المدينة ، وارسلوا اليه وفداً يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أن يجيبهم الى تفريق ما جمع الله - والظاهر ان الوفد كانت له مهمة أخرى وهى تجسس أحوال المسلمين والعلم بماهم عليـه من قوة أو ضعف

عاد الوفد بعد ذلك الى القوم بجواب أبي بكر وافضوا اليهم بما رأوه من قلة عدد المسلمين وضعف جانبهم وأطمعوهم في منازلتهم . غير ان الوفد كان على خطأ فيما انبأ به القوم ، فقد كان للقوم مدد لايبصر بالعيون ، وهو قوة الايمان وصدق اليقين وثبات ارادة القادة ومضاؤهم . يؤازر هذا المددَ مددٌ آخر وهو طول

التجربة والتمرس بالحرب والاكتواء بنارها في مختلف الوقائع التي لم ينفضوا عنهم غبارها، وان مساعير الحرب من أمثال علي وطلحة والزبير وغيرهم من صناديد قريش لاتلين لهم قناة ولا يفلّ لهم حد

لم ينم أبو بكر بعد أن رد وفد القوم بالخيبة . بل أخذ يستجيش من تيسر له من المسلمين خشية أن يبيت القومُ المدينة، فجعل على أنصار المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود، وجعلهم على انقاب المدينة . وأخذ أهل المدينة بحضور المسجد خوف البيات، ليكون منهم المدد لمن على الانقاب اذا داهمهم العدو في ليل أو نهار

لم يكن الا ثلاث ليال من عود الوفد حتى طرق القومُ المدينة غارة مع الليل . وقد خلفوا بعضهم بذى حِسى ليكونوا لهم فئة ورداً . وكان الذين على الانقاب قد بثوا نفراً منهم يدرجون بعيدا عنهم، فلما أحسوا القوم نبهوهم، وعلم أبو بكر فخرج في أهل المسجد على النواضح فانهزم أهل الردة وتبعهم المسلمون على الابل حتى بلغوا ذا حِسَى خرج عليهم الرده بالانحاء قد نفخوها[1] وجعلوا فيها حبالا ودهدهوها (دَحْرَجُوها) في وجوه ابل المسلمين فنفرت عائدة الى المدينة لايملك راكبٌ رأس بعيره، ولم يصب أحد من المسلمين . ولكن أبا بكر بات على تعبية وهيأ جنده وخرج في عقب ليلته يريد الاعداء

أما المرتدون فلما رأوا نفار الابل غرهم ذلك وبعثوا الى أهل ذي القصة، وما طلع الفجر الا وقد وافاهم أبو بكر بجنده وما سمعوا للمسلمين همساً ولا حسا حتى وضعوا السيف في رقابهم . وما ذر قرن الشمس حتى منح الله المسلمين اكتافهم وغنموا ابلهم وكان نصر المسلمين في هذه الموقعة كنصرهم في وقعة بدر أول الاسلام فقد عز بها المسلمون وذل المشركون

(١) الانحاء : جمع نحي (بكسر النون وسكون الحاء) الزق

جزعت عبس من هذه الوقعة أي جزع فطاشت أحلامهم ولم يجدوا الى نكاية المسلمين سبيلا سوى أن يقتلوا من كان مسلما فيهم كل قتلة . ومعلوم انهم بذلك انما يقتلون أنفسهم ويوهنون جماعتهم ولا يضير ذلك جماعة أبي بكر فحلف ابو بكر ليقتلن في كل قبيلة بمن قتلوا من المسلمين وزيادة

بينما أبو بكر يعد للقوم ما استطاع من قوة وافاه جيش اسامة فأمرهم بالاقامة بالمدينة ليأخذوا راحتهم ويريحوا ظهورهم وخلف أسامة على المدينة حين خروجه لاهل ذي القصة

وحين أراد أبو بكر الخروج مع الجند للقتال قالوا له : ننشدك الله يا خليفة رسول الله أن تعرّض نفسك فانك ان تصَب لم يكن للناس نظام ومقامك أشد على العدو، فابعث رجلا فان أصيب بعثت آخر . فقال لا والله لا أفعل ولا واسينكم بنفسي

سار أبو بكر بجنوده كما سار اولا الى ذي حسَى وذي القصة حتى نزل على أهل الربذة بالأبرق فانهزمت بنو عبس وبنو بكر وأقام بالابرق أياماً وقد غلب بني ذبيان على بلادهم وحماها لخيل المسلمين وارعى سائر الناس الربذة ثم عاد الى المدينة

﴿ عقد الالوية للقتال ﴾

ولما استراح جيش اسامة خرج بهم أبو بكر الى ذي القصة على بريد من المدينة تلقاء نجد وقطّع الجند وعقد أحد عشر لواء لاحد عشر أميراً وأمر كل أمير أن يستفز مسلمي القبائل التي يمر بها ليكون بعضهم في جنده ويتخلف بعضهم لحماية قومهم . وقد حضرت في تلك الايام صدقات فكانت عونا

وهؤلاء هم الامراء الذين رمى بهم أبو بكر المرتدين :

(١) خالد بن الوليد : وجهه الى قتال طليحة بن خويلد الاسدي بِبُزَاخَةَ ، فاذا فرغ من أمره قصد مالك بن نويرة بالبُطاح

(٢) عكرمة بن أبي جهل : وجه به الى مسيلمة الكذاب باليمامة

(٣)شُرَحْبيل بن حسنة وجهه في أثر عكرمة بن أبي جهل ، فاذا فرغ من أمر مسيلمة قصد قضاعة

(٤) المهاجر بن أبي امية : وجه به الى جنود الاسود العنسي بصنعاء اليمن ومعاونة الابناء على قتالهم . والابناء هم مولدة الفرس باليمن آمنوا وثبتوا على ايمانهم وذريتهم بها الى اليوم

(٥) حذيفة بن مِحْصَن : وجهه الى اهل دَبَا بعمان

(٦) عرفجة بن هرثمة : وجهته اهل مَهَرة . وأمره هو وحذيفة أن يجتمعا وكل واحد منهما امير على صاحبه فيما وجه اليه

(٧) — سويد بن مُقَرِّن الى تهامة اليمن

(٨) — العلاء بن الحضرمي ووجهه الى البحرين

(٩) — طريفة بن حاجز ووجهه الى بني سليم ومن معهم من هوازن

(١٠) — عمرو بن العاص ووجهه الى قضاعة

(١١) — خالد بن سعيد ووجهه الى مشارف الشام

وقد فصلت الامراء بجيوشها من ذي القصة بعد أن كتب الى المرتدين من العرب كتاباً واحداً أرسله اليهم ليكون لهم نذيراً بين يدي جيوشه ليكون قد أعذر اليهم قبل الايقاع بهم . فكان أول منشور عام يقرأ في مجامع الناس وأنديتهم . ولما كان هذا المنشور مطولا فنحن نجتزيء بأن نقتطف بعضه وهو ما يتعلق بالمرتدين

﴿ كتب أبي بكر الى أهل الردة ﴾

بعد ان ذكر الله تعالى بما هو أهله وذكر رسول الله ووفاته قال : « وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد ان أقر بالاسلام وعمل به اغتراراً بالله وجهالة بأمره واجابة للشيطان . قال الله تعالى (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا) . وقال : (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) . واني قد بعثت اليكم فلانا في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وأمرته ان لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله فمن استجاب له وأقر وكف وعمل صالحا قبل منه وأعانه عليه ، ومن أبى أمرت ان يقاتله على ذلك ثم لا يبقى على أحد منهم قدَر عليه وان يحرقهم بالنار ويقتلهم كل قتلة وان يسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد إلا الاسلام . فمن اتبعه فهو خير له ومن تركه فلن يعجز الله . وقد أمرت رسولي ان يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الاذان . فاذا أذّن المسلمون فأذّنوا كف عنهم وان أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي »

ونفذ الكتب مع الرسل امام الجنود

﴿ عهد أبي بكر الى القواد ﴾

وكتب الى قواده عهداً صورته واحدة وهي :

هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله ﷺ لفلان حين بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليه ان يتقي الله ما استطاع في أمره كله سرّه وعلانيته وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام الى أماني الشيطان

بعد ان يعذر اليهم فيدعوهم بداعية الاسلام فان أجابوه أمسك عنهم وان لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذى عليهم والذي لهم فيأخذ ماعليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم . فمن أجاب الى أمر الله عز وجل وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف . وانما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله فاذا أجاب الى الدعوة لم يكن عليه سبيل، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به . ومن لم يجب داعية الله قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الاسلام فمن أجابه وأقر قبل منه وعلمه . ومن أبى قاتله فان أظهره الله عليه قتل منهم كل قتلة بالسلاح والنيران ثم قسم ما أفاء الله عليه الا الخمس فانه يبلغناه وان يمنع أصحابه العجلة والفساد وان لا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ماهم لا يكونوا عيونا ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم. وان يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين في حسن الصحبة ولين القول

﴿ طليحة ﴾

هو طليحة بن خويلد الاسدي ، علم بمرض رسول الله ﷺ بعد حجة الوداع فسوّلت له نفسه ان يدعى النبوة في قومه ومن يليهم ليكون له مثل مالنبي قريش. فتابعه قومه من بني أسد وأرزت اليهم عبس وذبيان وبعض من جديلة والغوث وطيء لما لها من الحلف في بنى أسد

كان عدي بن حاتم الطائى مقيما بالمدينة وقد خشي على قومه ان يجتاحهم خالد وقد أمر ان يبدأ بهم،فاستأذن أبا بكر في اللحاق بقومه ليرد من رجع منهم الى الاسلام وليعين بهم خالدا. فأذن له ، ففارق المدينة الى قومه وصار يفتلهم في الذروة

والقارب حتى وافقوه على الاسلام ومفارقة طليحة وأرسلوا قومهم الذين مع طليحة ببزاخة وجاء عدي الى خالد ليتلبث ثلاثا حتى يعود رجال طيء لئلا يعتريهم طليحة بسوء، ففعل، ولحق من كان ببزاخة من طيء بجيش خالد ومعهم من خف من طيء. وأراد خالد ان يقصد جديلة، فشق ذلك على عدي ونَهْنَهَهُ عن قصده وأشار عليه بالتلبث حتى يأتي جديلة لعل الله ينقذهم به كما أنقذ بني الغوث قوم عدي، ففعل خالد ولم يزل عدي بالقوم حتى جاء الى خالد باسلامهم، وانضم منهم الى جيش المسلمين الف راكب، فكان عدي خير مولود ولد في أرض طيء وأعظمه بركة عليهم

يمم خالد بجيشه ومن انضم اليهم من طيء بزاخة لقتال طليحة ومن لف لفه. وكان طليحة يسمّي المَلَك الذي يزعم أنه يأتيه بالوحي « ذا النون » وسن لهم الصلاة من قيام وقال: ما يصنع الله بتعفير وجوهكم، ان الرغوة فوق الصريح...

التقى خالد مع جيوش طليحة واستحر القتل بين الفريقين وعضت الحرب بني فَزارة وقائدُها وسيدها عيينة بن حصن يكرّ على طليحة كلما ضرسته الحرب يقول له: هل جاءك ذو النون؟ فيقول: لا. وطليحة ملتف بكسائه بفِناء بيت له من شعر. فلما استعر أوار الحرب جاء وقال له: هل جاءك ذو النون؟ قال: نعم جاءني وقال « ان لك يوما ستلقاه ليس لك أوله ولكن لك أخراه ورحا كرحاه وحديثا لا تنساه » فقال عيينة: أرى والله ان لك حديثا لا تنساه. يا بني فَزارة هذا كذاب. وولى من عسكره ومنح الله المسلمين أكتافهم. وعمد طليحة – اذ رأى الهزيمة – الى فرس كان قد أعده فركبه وأردف زوجته خلفه وقال من استطاع ان يفعل كما أفعل فليفعل: وولى وجهه شطر الشام. ثم عاد مسلما وحسن اسلامه وكان ذا بلاء في قتال فارس في أيام عمر

كان بنو عامر بن صعصعة قريباً من ساحة القتال ببزاخة على قادتهم وسادتهم

ينظرون الى القتال فلما رأوا ما حل بطليحة وجموعه أقبلوا يقولون : ندخل فيما خرجنا منه ونؤمن بالله ورسوله ونسلم لحكمه في أموالنا وأنفسنا

وقد كان الذي أعظم أمر طليحة بعد صغره ما سنقصه . وهو أن الرجل ادعى النبوة في حياة رسول الله فأرسل الرسول ضراراً الى بني أسد وأمرهم بالقيام على كل من ارتد ، فأشجوا طليحة وأخافوه ، ونزل المسلمون بواردات والمرتدون بسميراء وأمرُ المسلمين في نماء وأمر طليحة في انعكاس ، وهمّ ضرار أن يأخذ طليحة سلماً وضرب طليحة بالسيف فنبا عنه فشاع أن السيف لا يحيك في جسده وجاء الخبر بموت رسول الله ﷺ والناس على ذلك فانفض من كان مع ضرار عنه وعظم أمر طليحة الى أن كان ما أوردنا

﴿ بنو تميم ومالك بن نويرة ﴾

كان رسول الله قد أمّر على بطون تميم أمراء ، منهم الزّبرقان بن بدر وقيس ابن عاصم ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما شاع موت رسول الله ﷺ كان منهم من بقي على الوفاء بما عاهد عليه الرسول فبعث بالصدقة الى أبي بكر ، ومنهم من منعها ، ومنهم من تردد . وكان المانع مالك بن نويرة ، وكان اختلاف القوم داعياً لاشتغال بعضهم ببعض

وبينما القوم على هذه الحال اذ أقبلت عليهم سجاح بنت الحارث وكانت نازلة مع أبيها في بني تغلب بالجزيرة وأبوها من بني يربوع من تميم

كانت هذه المرأة قد ادعت النبوة وتابعها على أمرها جموع من نصارى تغلب فهبطت بهم تريد قتال جند أبي بكر فلما أشرفت على بني تميم أرسلت الى مالك ابن نويرة سيد بني يربوع فوادعها وثناها عن قتال أبي بكر وأغراها بمخالفيه من احياء بني تميم وتابعها على أمرها وكيع بن مالك وقومه فسجعت لهم قائلة « أعدوا

الركاب ، واستعدوا للنهاب ، ثم أغيروا على الرِّباب ، فليس دونهم حجاب »
فاستعرت نار الحرب في بني تميم

ولما رأت أمرها لم يتم في بني تميم قالت لجندها من ربيعة واياد وسواهم : « عليكم باليمامة ، ودفوا دفيف الحمامة ، فانها غزوة صرامة ، لا تلحقكم فيها ملامة » فنهدت بمن معها الى بني حنيفة وهابها مسيلمة وخاف ان هو شغل نفسه وقومه بأمرها أن يدهمه من جيوش أبي بكر داهم ، وتتخطفه القبائل من حوله . فأهدى اليها الهدايا واستأمنها على نفسه حتى يكلمها . فأمنته وأمها في أربعين وافداً من قومه فقال لها مسيلمة : لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لو عدلتْ ، وقد رد الله عليك النصف الذي ردت قريش فحباك به ، وكان لها لو قبلت . فقالت : لا يرد النصفَ من الاجنف فاحمل النِّصْف ، الى خيل تراها كالسَّهْف . فقال مسيلمة : سمع الله لمن سمع وأطمعه بالخير اذا طمع ، ولا زال أمره فيما سر نفسه يجتمع . رآكم ربكم فحياكم ، ومن وحشة خلاكم ، ويوم دينه أنجاكم . فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار ، لا أشقياء ولا فجار يقومون الليل ويصومون النهار لربكم الكُبَّار رب الغيوم والأمطار . الى غير ذلك من الأسجاع . وكان قد شرع لهم الامتناع عن النساء اذا ولد للرجل ولد ذكر الى أن يموت ذلك الولد فيطلب أبوه غيره

وقال مسيلمة لسجاح : هل اتزوجك وآكل بقومي وقومك العرب؟ قالت : نعم فتزوجها وأقامت معه ثلاثة أيام ولما رجعت الى قومها سألوها عن أمرها فقالت : اني وجدته على الحق فاتبعته وتزوجني . فسألوها عن صداقها فقالت : لم يعطني صداقاً . فردوها اليه لأنه قبيح بمثلها أن يزوج بلا صداق . فلما سألته الصداق دعا مؤذنها شَبَث بن رِبْعي الرياحي فأمره أن يؤذن في الناس أنه حط عن الناس صلاتين مما أتى به محمد : صلاة العشاء الآخرة وصلاة الفجر . وكان من أصحابها الزِّبرِقان بن بدر وعُطارد بن حاجب وعمرو بن الأهتم وغيلان بن خَرَشة وشَبَث

ابن ربعي

انتهى الأمر بين سجاح ومسيلمة على أن يحمل اليها النصف من غلات اليمامة فطلبت أن يسلفها السنة المقبلة فعجلها بنصف السنة وخلفت على السلف من يجمعه لها وانصرفت الى الجزيرة

لما عادت سجاح الى الجزيرة ندم مالك بن نويرة على ما فعل وحار لا يدري ما يأتي وما يدع وكذلك بقية مرتدة بني تميم ورؤساؤهم ندموا ندما ظاهراً وأرسلوا الزكاة الى خالد . وأما مالك فمنع الزكاة ورأى أن لا طاقة لقومه بني يربوع بخالد وجنوده ، فأمرهم أن يتفرقوا . فلما ورد خالد البُطاح لم يجد أحداً فبث سراياه مغيرة على من لقيها منهم فجاءته السرايا بمالك في نفر من بني يربوع فحبسهم خالد ثم أمر بقتلهم فقتلوا ، ويروى في قتله روايات أخرى

كان بعض رجال من جيش خالد قد شهدوا أن القوم أذنوا حين سمعوا أذان المسلمين وانهم بذلك قد حقنوا دماءهم وان قتلهم لا يحل ، ومن أولئك القوم أبو قتادة صاحب رسول الله ﷺ . فأكبر الأمر وزاد ذلك عنده أنه رأى خالد ابن الوليد قد تزوج امرأة مالك بن نويرة ففارق أبو قتادة خالداً وقدم على أبي بكر ليشكو اليه خالداً فيما خالف فيه . فرأى أبو بكر أن فراق أبي قتادة لخالد خطأ لا ينبغي أن يرخص فيه له ولا لغيره لأنه يكون سبباً للفشل والجيش في أرض العدو فاشتد على أبي قتادة ورده الى خالد . وعمل أبي بكر من أحكم السياسات الحربية

كثر كلام المسلمين في شأن خالد وما صنع وجاء متمم بن نويرة شاكياً ما صنع خالد بأخيه واشتد عمر في شأن خالد عند أبي بكر وأراده على أن يُقيدَ منه بمالك وأصحابه فأبى أبو بكر عليه ذلك . وقال له « هيه يا عمر ، قد تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد » ولما عاد خالد الى أبي بكر اعتذر مما كان منه في شأن مالك

وساق أبو بكر دية مالك بن نويرة . وبانكسار بني يربوع عاودت تميم كلها الاسلام ورضيت ان تؤدي الى أبي بكر الزكاة كما كانت تؤديها الى رسول الله ﷺ

وقد كان من سياسة أبي بكر المبنية على الحكمة ان لا يقيد من عماله وقواده ووزعته اذا حصل منهم أمر في وجههم لقتال العدو . لان مفاجأة القائد وهو في جهاد عدوه بالعقاب تخبث نفوس بقية القواد وتطمع فيهم الجند وتطلق ألسنة العيابين وتفسد الامر

وهذه السياسة الحكيمة هي التي نراها من الأمم العريقة في الاستعمار: لا تعجل بمحاسبة عمالها على خطأ كان منهم ولا تخذلهم في أثناء قيامهم باعمالهم في خدمتها . وانما تتريث في الامر حتى اذا سكنت الزوابع وكفت ألسن الشكاية وكان الامر ثابتاً لاشبهة فيه ، عمدت الى نقل عاملها الى مكان آخر وربما زادت في مرتبته حتى لا يتوهم الشاكون أن نقله كان بسعيهم أو اجابة لمطالبهم ، وفي ذلك قطع لمطامع الشاكين . وهي سياسة الانكليز في هذا العصر

﴿ بنو حنيفة ومسيلمة ﴾

قدمنا أن بني حنيفة كانوا قد وفدوا على النبي ﷺ وأسلم الوفد وكان فيهم مسيلمة في رحالهم بحفظ ظهرهم فلما أعطاهم رسول الله العطايا ذكروا له مكان مسيلمة فاعطاه كما أعطى واحداً منهم وقال : أما والله انه ليس بشركم مكاناً بحفظ ضيعة أصحابه . ولما عاد الوفد الى قومهم ادعى مسيلمة انه أشرك مع رسول الله في الرسالة الى آخر ما بينا

لما فصل عكرمة بن أبي جهل بجيشه الى اليمامة لقتال مسيلمة ، أرسل أبو بكر في أثره شرحبيل ليجتمعا على قتال مسيلمة . فاراد عكرمة أن يذهب بفخر القتال فتعجل وواقعه بنو حنيفة ونكبوه ووقف شرحبيل حيث بلغه الخبر وكتب عكرمة الى أبي بكر بما أصابه فقال أبو بكر لعكرمة في كتاب بعث به اليه : « لا أرينك

ولا تراني ، لا ترجع فتوهن الناس ، أمض على وجهك حتى تساند حذيفة وعرفجة فقاتل معهما أهل عُمان ومهرة ثم تسير أنت وجندك تستبرؤن الناس حتى تلتقوا أنتم والمهاجر بن أبي امية باليمن وحضرموت » وكتب الى شرحبيل بالتوقف حتى يأتيه أمره

كان خالد بن الوليد قد فرغ من أمر بنى يربوع كما قدمنا فوجهه أبو بكر الى اليمامة بمن معه وضم اليه جنوداً أخري لان أمر مسيلمة كان قد استفحل باليمامة وانضم اليه جنود تبلغ أربعين الفاً على ما يرويه الطبري اتبعوه عصبية وحفاظاً لقوميتهم مع اقرارهم بكذبه ، حتى ان بعضهم كان يقول : أشهد أن مسيلمة كذاب ولكن كذابَ ربيعة أحب الينا من صادق مضر

سار خالد بجنده بعد أن ألحق به من أوعبهم أبو بكر من المقاتلة وكان شرحبيل قد فعل فَعْلة عكرمة فاصابه ما أصابه فلامه خالد ثم ان خالداً قدم الى اليمامة وواقع القوم وحاربهم أشد حرب واستمات بنو حنيفة في القتال حتى انكشف المسلمون وكادت الدبْرة تكون عليهم لو لا أن الله ألهم رجالا من المؤمنين أن صرخوا في القوم وصدقوا الحملة على بنى حنيفة ، وتبعتهم فئة باعوا أنفسهم لله ، حتى خالطوا مسيلمة فقتلوه . وقد تولى قتله وحْشِي قاتل حمزة ورجل من الانصار . فلما رأى بنو حنيفة ذلك داخلهم الوهن فلجأوا الى حصونهم واعتصموا بها وكانت النصرة لخالد وجيشه في النهاية

بعد ان تم الامر على هذا الوجه جاء الى خالد مُجّاعة بن مرارة فصالحه على ان يحقن دم المقاتلة ، وان يأخذ ما عندهم من نقود الذهب والفضة والسلاح وربع السبي . وبعد ان تم الاتفاق على الصلح ورد على خالد كتاب من ابي بكر يأمره بقتل مقاتلتهم وقد كتبت شروط الصلح فوفى خالد للقوم بما عاهدهم عليه

بعد ان انتهى الصلح على هذا الوجه رجعت بنو حنيفة الى الاسلام . فارسل خالد وفداً منهم الى ابي بكر . فقال لهم حين قدموا عليه : ويحكم ما هذا الذي استنزل منكم ما استنزل ؟ قالوا يا خليفة رسول الله قد كان الذي بلغك مما اصابنا

كان امرءاً لم يبارك الله عز وجل له ولا لعشيرته فيه . ثم سألهم عن بعض أسجاع مسيلمة ، فتلوا عليه شيئاً منها ، فقال : سبحان الله والله ما خرج هذا من إلٍ ولا بَرٍّ فاين يذهب بكم ؟

وبهذا انتهى أمر بنى حنيفة بعد أن عضت المسلمين حربهم وقتل فيها كثير من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان . وأقام خالد بواد من اودية اليمامة يقال له الوَبَرُ . وقد قتل في هذا الحرب كثير من حفاظ القرآن

﴿ اليمن والاسود العنسى ﴾

كان باذان عاملا للفرس على اليمن فلما اسلم واسلمت اليمن اقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما كان في يده حتى مات . وبعد وفاته جعل رسول الله ابنه شهراً والياً على صنعاء وولى على بقية اليمن عمالا آخرين ، وجعل مُعاذ بن جبل معلما ينتقل في كل ولاية من هذه الولايات

حدث قبل وفاة رسول الله ان قام رجل من عنس احدى قبائل قحطان اسمه الاسود العنسي كان كاهناً فتنبأ ، وتابعه على امره قوم من اعراب اليمن ، فاشتد بهم ساعده واقتحم بهم بلاد نجران فلم تلبث ان دانت له ودخل في امره عَوَامُّ مَذْحِج فكثر سواده وأمِرَ أَمْرُه

وكانَ الرجل رأى أن التريث يفسد عليه أمره فرأى أن يبادر الفرصة قبل ان يجتمع امر المسلمين وتتدبر القبائل في شأنها . فقصد صنعاء وهي اكبر حواضر اليمن واكثرها حاضراً واوسعها ثروة ، فنازل عاملها شهراً وقتله وهزم الابناء ، وهم مولدة الفرس باليمن . ولم يكن بين خروجه لهذا الامر واستيلائه على صنعاء سوى خمس وعشرين ليلة ثم تزوج بامرأة شهر بن باذان . وصار الرجل لا يميل الى قوم الا دخلوا في امره اوصانعوه تقية وابقاء على انفسهم وذريتهم وجعل امره يستطير

استطارة الحريق ، وقد كتب عمال رسول الله اليه بشأن الاسود وما يصنع ، فارسل عليه السلام كتاباً على يد وَبَر بن يُحَنِّس الى من بصنعاء من الابناء يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض الى العمل في امر الاسود وقتله بكل ما يمكن من الوسائل مصادمة أو غيلة ، وأن يبلغوا من رأوا عنده نجدة وديناً

عمل القوم على أمر رسول الله ﷺ فرأوا امر الرجل مُستَصعباً عليهم . وبينما هم على هذه الحال اذ علموا بتغير الاسود على قيس بن عبد يغوث المرادي ، وكان رئيس جنده وقد خبثت نية الاسود عليه واضمر له الشر ، واعلمه ان الوحي أتاه وقال له : ان الملك يقولُ عَمَدْتَ الى قيس فاكرمته حتى اذا دخل منك كل مُدْخَل وصار في العز مثلك ، مال ميل عدوك وحاول ملكك وأضمر على الغدر . انه يقول : يا أسود يا أسود يا سوأة يا سوأة . اقطف قُنَّته وخذ من قيس اعلاه والا سلبك أوقطف قنتك . فقال قيس ، واقسم به : كذب وذي الخمار . لانت اعظم في نفسي وأجل عندي من أن أحدّث بك نفسي . فقال الاسود : اتكذّب الملك ، قد صدق الملك وعرفت الآن انك تائب ؟

انتهز الابناء هذه الفرصة ودعوا قيسا الى ما يرون من الفتك به ، فلبى ثم أفضوا الى آزاد امرأة الاسود التي تزوجها بعد شهر بن باذان بأمرهم وقال من لقيها منهم : يا ابنة العم قد عرفتِ بلاء هذا الرجل عند قومك قتل زوجك وطأطأ في قومك القتل وسفل بمن بقي منهم وفضح النساء : فهل عندك من ممالأة عليه ، اخراجه أو قتله ؟ قالت : نعم والله ما خلق الله شخصاً ابغض الي منه ، ما يقوم لله على حقّ ولا ينتهي عن حرمة . فاذا عزمتم فآذنوني

وفي هذه الاثناء جاء كتاب رسول الله ﷺ الى الابناء عامر بن شهر وغيره ووصل كتاب رسول الله ﷺ الى أهل نجران عربهم وسواهم فانحازوا الى ناحية يريدون قتال الاسود وكاتبوا من بصنعاء من الابناء ليعينوا عليه

غير ان المؤتمرين بقتله عاجلوا الاسود بممالأة آزاد زوجته وقتلوه في قصره

وهم فيروز وداذويه وقيس . ولما طلع الفجر أعلن قاتلو الاسود بشعارهم من فوق القصر ، وفر أصحابه وجعلوا يترددون بين صنعاء ونجران . وكاتب القوم رسول الله بمقتل الاسود فوافى رسولهم المدينة عقب وفاة رسول الله ﷺ

كان الاسود قد استغلظ ملكه ونبت أمره ودان له بالطاعة ما بين صنعاء، وسواحل اليمن الى عمل الطائف الى الاحسية وعليب . وبموته ظن المسلمون في صنعاء وما وليها أن جو البلاد قد صفا ، ولكن لما داهمهم خبر وفاة رسول الله ﷺ عاد الامر الى أشد مما كان عليه وارتدت العرب وعادوا الى الخلاف تابعين لبعض الرؤساء ، فبعث أبو بكر الى من بقي على اسلامه من سادة اليمن ورؤسائهم يأمرهم بالثبات على أمرهم والوقوف حيال المرتدين حتى توافيهم النجدات

وذلك ان قيس بن عبد يغوث وهو رئيس جند الاسود والعامل في قتله بادر الى الردة حين علم بوفاة رسول الله ﷺ وكاتب المنهزمين من جند الاسود فاجتمعوا اليه . وأراد ان يقتل رؤساء الابناء فصنع وليمة دعاهم اليها فلم يظفر بأحد منهم سوى داذويه وامتنع فيروز وخُشْنَش بقبيلة خَوْلان واستتب الامر لقيس بصنعاء . وغرب عيالات الابناء فاستخلصهم فيروز بمعونة بني عقيل وعَكّ . واجتمع لفيروز جموع من عرب اليمن كعقيل وعك وغيرهم فنازل قيسا دون صنعاء فهزم قيس ومن معه من فل جنود الاسود ومن خف اليه من سواهم وخرجوا الى مجالاتهم التي كانوا فيها بعد مقتل العنسي يُصعِدون ويصوبون

في أثناء هذا القتال وافى جيش الاسلام الذي يقوده المهاجر بن أبي أمية وكان أبو بكر قد بعثه لقتال جنود الاسود العنسي ومعاونة الابناء . ثم جاء على أثر ذلك عكرمة بن أبي جهل بجنوده بعد ان انتهى من عمان ومهرة وبتعاون هذه الجيوش هزم الله المرتدين ومنح جنود الاسلام أقفيتهم وأسر قيس وعمرو بن معد يكرب الزَّبيدي وكان قد ارتد وتابع الاسود ثم وازر قيسا على قتال المسلمين .

ولما جاء عمرو وقيس أسيرين الى أبي بكر أنب قيسا على عمله وحقن دمه ووبخ عمرا على ما كان منه وقال له أما تستحي انك كل يوم مهزوم أو مأسور؟ لو نصرت هذا الدين لرفعك الله . فقال لا جرم لأقبلنَّ ولا أعود . فأطلقهما ورجعا الى قومهما مؤمنين . وكان لعمرو بن معديكرب البلاء الحسن في فتوح نهاوند ، وقد كان عمرو قد انهزم في أول ردته من خالد بن سعيد بن العاص وغنم منه خالد سيفه الصمصامة ، وقد بقي الى عهد الواثق فدفعه الى صيقل ليسقنه فتغير

﴿ ردة كندة ﴾

سبب ردة كندة اختلاف شجر بين زياد بن لبيد الانصاري عامل صدقات كندة و بين شيطان بن حجر وأخيه العداء في ناقة وضع عليها ميسم الصدقة غلطا وأبى زياد ان يردها واستصرخ شيطان وأخوه قومهما بني عمرو بن معاوية من كندة فقاموا عصبية لهما و تبعهم غيرهم وتعصبت حضرموت والسكون لزياد وكانت الحرب بين الفريقين ومال شرحبيل بن السمط وابنه وامرؤ القيس بن عابس الى زياد فقتل من القوم وسبى . وقام الاشعث بن قيس يفك السبي وأدركت زيادا جنود المهاجر بن أبي أمية فنازل الاشعث وحصره وقومه ثم نزلوا على حكمه عدا تسعة منهم وقتل المقاتلة وسبي النساء والذرية وأتى بالاشعث فعفا عنه أبو بكر ورد عليه زوجته وهي أخت أبي بكر و بقي بالمدينة الى فتح العراق

﴿ ردة أهل البحرين ﴾

واذا يسر الاله سعيدا لاناس فانهم سعداء

ليس بين الشقاء والسعادة سوى عقبة لا يقطعها الا المخفون من الشهوات ،

الغالبون على هوى النفس ، المالكون للادارة المطلقة من سلطان التقليد والشهوة

وكما مُني الاسلام في أول أمره بقوم قد رانت على قلوبهم أهواؤهم وضعفت نفوسهم عن اطراح سلطان الشهوات والعادات فلما لاح لعيونهم فجر كاذب من الآمال مالوا الى ما ألفوه القديم وأرّثوا نار الفتنة وشبوا ضرامها وأبوا الا الاسترسال في الرجوع الى ما كان عليه آباؤهم ؛ فقد رزق اناساً قد استنارت بصائرهم بنور الهدى فكانوا للحق أنصاراً وللاسلام أعوانا : كالجارود بن المعلى العبدي ، وصفوان بن صفوان التميمي ، وعدي بن حاتم الطائي وأمثالهم ممن أراد الله ان يضرب بهم وجوه المرتدين حتى تعلو كلمة الدين ـ «أشهر مشاهير الاسلام ببعض تصرف »

كان أهل البحرين وهم قبائل من ربيعة قد وفدوا على رسول الله ﷺ في حياته فأمر عليهم المنذر بن ساوى . فلما توفي رسول الله كان المنذر مريضا فتوفى عقبه وارتد أهل البحرين كما ارتد غيرهم من العرب

تمت بكر على ردتها . وأما عبد القيس فكان فيهم الجارود بن المعلى وكان له صحبة برسول الله وفقه في الدين وصحة عقل ويقين . فجمع قومه وقال لهم : يامعشر عبد القيس اني سائلكم عن أمر فاخبروني ان علمتم ولاتجيبوني ان لم تعلموا . قالوا : سل عما بدا لك . فقال : أتعلمون انه كان لله انبياء فيما مضى ؟ قالوا نعم . قال تعلمونه او ترونه . قالوا لا بل نعلمه . قال فما فعلوا ؟ قالوا ماتوا . قال : فان محمدا ﷺ مات كما ماتوا . وأنا أشهد ان لا إله إلا الله ، وان محمداً عبده ورسوله . قالوا : ونحن نشهد ان لا إله الا الله وان محمداً عبده ورسوله وانك سيدنا وأفضلنا . وثبتوا على اسلامهم

اجتمعت قبائل ربيعة بالبحرين على الردة ، عدا الجارود ومن تبعه . وقد اجتمع رأيهم على أن يلقوا بمقاليد الملك الى المنذر بن النعمان بن المنذر الملقب بالغرور

قام الحُطَم بن ضبيعة من بني بكر بن وائل في جمع عظيم من المشركين والمرتدين ليستبيحوا حمى الجارود ومن معه من عبد القيس والمسلمين . ونزل القطيف وهَجَر وبعث بعثاً الى دارِين وبعثا الى جُوَاثى وشدد الحصر على المسلمين حتى بلغ منهم الجهد

بينما كان الحُطم يفعل ذلك بمسلمة ناحيته كان العلاء بن الحضرمى يسير اليهم في الجند الذين معه . فلما كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن أثال الحنفي في مسلمة بني حنيفة وقيس بن عاصم المِنقَرِي في قومه . وأتاه كثير من أهل اليمن فسلك بهم الدهناء حتى اذا كان في بحبوحتها نزل وأمر الناس بالنزول في الليل . فما كادت أرجل القوم تنال الارض حتى نفرت الابل باحمالها فما بقي عندهم بعير ولا زاد ولا ماء وأيقن القوم بالهلاك وقد دهمهم من الامر مالم يكن لهم في حساب

جزع القوم لما أصابهم وحق لهم أن يجزعوا لنفوسٍ تهلك ضيعة في غير غناء . اذ المكان قفر لانبات فيه ولا ظل ولا ماء وقد انبتّ ما كان موصولا بأيديهم من أسباب الحياة . غير ان العلاء أمير الجيوش أظهر من رباطة الجأش والثقة بالله تعالى والرجاء في غوث هذه العصابة ما أثاب للقوم بعض الرشد . فلما أصبح دعا العلاء ربه ودعوا معه ولم يمض قليل من الزمن حتى رأوا لمع الماء فمشوا اليه وشربوا واغتسلوا ، وما تعالى النهار حتى اقبلت الابل تجتمع من كل وجه فاناخت اليهم فسقوها . والذي يخيل الى ان الابل كان الجوع قد أخذ منها فلما نزل القوم ظنت ان بالمكان شيئا من الكلأ فتفرقت تطلب المرعى ، فلما لم تجد شيئا بقية ليلها وصدر نهارها ثابت الى مجتمع القوم لعهدها ان الناس لا ينزلون الا حيث يكون الاكل والماء . وقد كتب العلاء بما لقى من عجيب الامر ووجدان الماء بمفازة الدهناء وما صنع الله لهم من اللطف في سفرهم

نزل العلاء حين خلص من الدهناء الى هجَر وامر الجارود ان ينزل على الحطم مما يليه واجتمع أهل البحرين الى الحطم سوى أهل دارين وانحاز المسلمون الى العلاء وخندق كل على عسكره وكانوا يغدون الى القتال ويروحون . واستمر الامر على

ذلك شهراً ـ وبينما هم على هذه الحال اذ سمع المسلمون ضوضاء في معسكر أعدائهم فأرسل العلاء العيون فاخبر بان القوم قد شربوا الخمر من النهار فلما أخذت من رؤوسهم أحدثوا ما سمع من الضجيج ، فرأى العلاء الفرصة سانحة للايقاع بهم فخرج بالمسلمين حتى خالط القوم وهم على حالهم وأعملوا السيف في رقابهم كيف شاءوا وهرب الكفار بين متردٍّ وناج ومقتول ومأسور . ولم يفلت رجل الا بما عليه ، واسر المنذر بن النعمان وقتل الحطم ، وأرسل العلاء الى من ثبت على اسلامه من أهل تلك النواحي أن يقعدوا للمنهزمين بكل طريق ، ففعلوا ، وغنم ما كان بمعسكر أعدائه واتبع الفلالَ واجتاز الخليج عند دارين بحيث لا يغمر الماء سوى اخفاف الابل والتقوا بمن كان قد ركب السفن من فل ذلك العسكر فقتلوهم ولم يبق منهم مخبر وضرب الاسلام بجرانه في تلك الناحية . وكان مع المسلمين راهب من أهل هجر فاسلم وقال : خشيت أن يمسخني الله بعدها ، فيض في الرمال ، وتمهيد أثباج البحر ، ودعاء سمعته في عسكرهم في الهواء سحرا « اللهم أنت الرحمن الرحيم لا اله غيرك ، والبديع فليس قبلك شيء ، والدائم غير الغافل الحي الذي لا يموت وخالق ما يرى وما لا يرى وكل يوم أنت فيه في شأن علمت كل شيء بغير تعلم » فعلمت ان القوم لم يعانوا بالملائكة الا وهم على حق . وبذلك انتهى قتال المرتدين في هذه الناحية

﴿ ردة أهل عُمان ومهرة ﴾

كان أهل عمان قد اسلموا في حياة رسول الله وولى عليهم جيفرا وعبدا ابني جُلندا وكان قد نبغ في عمان ذو التاج لقيط بن مالك الازدي وادعى بمثل ما ادعى غيره من المتنبئين ـ وقد خافه ابنا الجُلندا فعاذا بالجبال وكاتبا ابا بكر بشأنه . فبعث الى هذا الوجه حذيفة بن مُحْصَن واتبعه بعَرْفجة بن هرثمة على الوجه الذي قدمنا . وأرسل في أثرهما عكرمة بن ابي جهل بعد نكبته باليمامة فلحقهما دون عمان

أما لقيط فقد جمع جموعه بدَبّى ووافته جيوش المسلمين فلما التقى الجمعان كان بينهما من القتال اشده واستعلى المشركون على المسلمين وكادت الدبرة تكون عليهم ، وبينا هم على هذه الحال اذ منّ الله على جيوش الاسلام بمدد اشتدت به سواعدهم ، فوافاهم جيش من بني ناجية يقودهم الخِرّيت بن راشد وآخر من عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان ففت ذلك في أعضاد المشركين ولم يلبثوا أن ولوا الادبار والمسلمون يأخذونهم بالسيف في كل سبيل فقتلوا منهم مقتلة قل ان سمع العرب بمثلها في ماضي حروبهم

ولما فرغ عكرمة من أمر عمان سار بجيشه ومن انضم اليه من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد واقتحم بهم بلاد مهرة فوجد القوم في جمعين من مهرة مختلفين : احدهما تحت امرة سِخْرِيت رجل منهم ، والثاني تحت امرة المُصَبّح احد بني محارب

عمد عكرمة الى اعمال حيلته فكاتب سخريتا ودعاه الى الاسلام فاجاب بمن معه . وأما المصبّح فلم يقبل فشد عكرمة عليه بمن معه وصدق الحملة في قتال المرتدين رجاء أن يمحو مالحقه من غضب أبي بكر في قتال أهل اليمامة ، فهزم جموع المرتدين وغنم المسلمون ما شاءوا وأقام بعد ذلك يسكن الناس وعاد القوم الى الاسلام

كانت حروب سوى ما ذكرنا بين المسلمين وأهل الردة وفي جميعها كان النصر حليف المسلمين

نرى مما قدمنا أن أبا بكر قام في شأن الردة وأهلها قياما محمودا وأخذ الامر بحكمة سامية وهمة نادرة المثال لا توجد الا في الابطال الذين لا يجود بهم الزمان الا نادرا

نار تأججت في كل ناحية وصُقع وعصا قد انشقت وكلمة تفرقت وأمة قد

صار أهلها عباديد وركب كل حي هواه . فشمر لها أبو بكر وضرب المدبر بالمقبل ورمى كل نابح بحجره وسد كل ثغر ولقي كل كارثة بامثال عدتها (كالسيل يقذف جلمودا بجلمود) ، فلم تنقض سنة من ولايته حتى اختنق وليد الفتنة وقد شب عن الطوق ، واخمد تلك النيران المستعرة كانما قد قال لها كوني بردا وسلاما فكانت ، واجتث الفتنة من أصولها وأدال بطن الارض ممن على ظهرها من أهل الشقاق واتبعهم بين سمع الارض وبصرها فجعلهم كاعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية

عزيمة صادقة وحسن نظام في تزجية الجيوش وسرعة في تلقي الاخبار والقاء الاوامر ، وقواد قد خرجتهم الحروب وصقلتهم الوقائع ، وجنود باعوا أنفسهم في سبيل الله . كل ذلك عوامل نصر قل ان تجتمع لقائد الا بمعجزة أو توفيق من الله

من نظر نظرة صادقة في التاريخ لا يتردد في أن ابا بكر مجدد دين الاسلام وممسك رمقه باذن الله في ذلك الوقت الذي عم فيه الذهول وغلبت الدهشة على العقول . وعلى الجملة فان انتصار جيوش المسلمين على سائر العرب المرتدين قد استأصل من النفوس الطامعة في الارتداد واستأصل البقية الباقية في أعماق القلوب من الشرك ووحد وجهة العرب وايأسهم من كل دين سوى الاسلام وجمعهم على الطاعة لولي أمر المسلمين . وكانت ردة العرب وما استتبعت من الحروب بمثابة تمحيص نفى من الأمة الزيغ وأخرج الخَبَث وصفى حساب الاسلام مع الشرك حتى صار الدين خالصاً لله

ظهور الأمة العربية

لم تظهر الأمة العربية بين الامم المتحضرة ذات الفتوح والمطامع في الاستعمار منذ عرفها التاريخ الى أن انتهى أبو بكر من أصحاب الردة. نعم ان المؤرخين يذكرون عن بعض ملوك اليمن أخباراً غريبة في الغزو في بلاد بعيدة ولكن ذلك لم يحرز من الثقة ما يحقق لهم ذلك الظهور ولئن كان ذلك ففي ازمان طال عليها القدم وعفى كر الغداة ومر العشى على تلك الآثار

لم يكد أبو بكر يخلّصُ يده من أهل الردة حتى امسك بكلتا يديه بدوانى فارس والروم يريد أن يلقى القومُ بأيديهم اليه بالطاعة وأن يدخلوا فيما دخل فيه أهل الجزيرة العربية. والفرس والروم هُما مَا هُمَا ضخامة ثروة وسمو مدنية واستبحار عمران وشموخ عز وانفساح رُقعة وقوة بطش وخصوبه أرض واستحكام ملك وما شئت من موجبات السلطان والرفعة والعز

بعيشك حدثني. ماذا حدث في الاكوان فقلب الوضع وجعل الاصل مُقْلَباً للفرع وصير المأكول آكلا وأعاد النبيه خاملا والغالب مغلوبا والسالب مسلوبا؟ وبأي سلطان استنسر البغاث واستأسدت الأوعال وجرَّت بيضَ الافيال النمّال؟ اجتُاحَ دولتا الشرق والغرب وتزلزل عروش القياصرة والاكاسرة وتُفَضّ بيضة العالم القديم وتفل جيوش أوربا وآسيا وافريقية بأيدي العرب وهم في ذلك الحين فل حرب داخلية قد حصدتهم حصداً وأكلت عددهم على ما هم عليه من قلة وذلة وسذاجة في العيش وعدم دربة في فنون الحرب النظامية وضعف عدة وضيق ذات يد وقلة عدد بالقياس (في كل ذلك) على ما عند الدولتين؟ انه لمرتقى عال يصعب تسنمه، ومرام وعر يعز على من رامه ويطول

كيف تسنى للعرب أن يستبيحوا عرين الآساد ويدوسوا الحصون الشداد والمعاقل ذات العتاد بعدد لا يزيد عن حامية مدينة من المدن أو حرس ناحية من النواحي مع رقة أحوالهم وخشونة عيشهم وقلة مددهم ونقصهم عن المدافعين في جميع مواد الحياة وكل الوسائل والعوامل المادية التي يحرز بها النصر وينال بها الظفر ؟

قد كان العرب في جميع أطوار حياتهم بحيال فارس لا يهجس في نفوسهم هاجس بالاستطالة عليها أو مساماتها في الملك ومطاولتها في السلطان ، بل كان قصارى من سمت به همته الى الملك وتعلق بأن يكون له ولقومه ما يشبه أحوال الناس أن يكون لهم تابعاً ولا وامر ملوكهم خاضعا ، ليس به منعة منهم ولا يد له بمدافعتهم عن مراد يريدونه ، وقد كان الروم في شمال بلادهم ومن صاقبهم من العرب عمالهم على من يليهم من عرب نواحيهم يدينون للرومان بالطاعة ويبذلون في مرضاتهم غاية الاستطاعة . لا يحدث أحد ملوكهم نفسه بالاستبداد بأمره ولا يطمع في اقتطاع أمور من يليه دونهم . ومن كان يحلم ببعض ما كان منهم في عهد أبي بكر وعمر ، سكت وبكت ، واحتسب ذلك منه بعض الاوهام أو اضغاث أحلام .

فبأي لقاح لقح دم هذه الامة فوثبت الى ما وثبت ، وأتت من ضروب خوارق العادات ما أتت ؟

كأني بصائح يصيح : ان تضعضع حال الدولتين بسبب الحروب وانتشار المظالم والانقسامات الدينية في بعضها دفع العرب الى اجتياحهما والاتيان على ملكهما بالفتح والاستيلاء (ومن لا يسوس الملك يخلعه)

واني أجيبه بأن ذلك قد يكون بعض الاسباب وليس يمكن أن يكون كلها اذ العرب لم ترتق حالهم الى أن يكونوا أكثر من أحد الفريقين عدداً ولا أقوى عدة . ليس العرب فيما أتوا بأولى من ملوك الهياطلة في شرق فارس وخاقان

الترك في شمالهم وهم أمم لهم ملك متسق وأمر مجتمع وعدد وافر وعدة قوية ومدد متصل وثروة عريضة ومطامع في الفتح وسابقة صول في فارس ونكاية في جنودهم وايغال في حدودهم، وليس للعرب من هذه الشؤون والبواعث ما لهؤلاء القوم، فما الذي أهاب بالعرب الى أن يأتوا ما أتوا، وأحجم هؤلاء وهم أعلم بحال جيرانهم من العرب وأقوم على شؤونهم ؟ فلا بد أن يكون شيء وراء ذلك . وأيضاً فليس العرب بأولى من احدى الدولتين بالاستيلاء على اخراهما وكل جندهم لا يبلغ عدده ما يمكن أن يجتمع من احدى الولايات فكان الاجدر باحداهما أن تستولى على الاخرى بطريقة أسهل من استيلاء العرب وهم أضعف من أهل أية ولاية من الولايات وكل منهما تعلم من حال الاخرى ما لا يعلم العرب

أريد أن أذكر الدافع الذي حدا بالعرب الى الفتح ثم أتبعه ببيان الاسباب التي ساعدتهم على ذلك وسهلت عليهم نيل ما نالوا بسرعة لم يعرفها التاريخ لامة فاتحة قبلهم ولا بعدهم، ولا لامة في مثل حالهم أو خير منها

جرأة العرب على الفتح

ان العرب في أيام باديتهم وفي جميع أطوارهم قبل الاسلام كانوا ينظرون الى الروم والفرس نظر الهيبة والاحترام يضربون الامثال بعزهما وسطوتهما وضخامة ملكيهما، لما ينظرون في أهلها من حسن الحال وقوة السطوة وضخامة العمران وما عليه حال العرب من الرقة وخشونة العيش وقلة الريف وضعف عدة الحرب، اذ لا يعرفون منها سوى القوس والرماح مشدودة بالعصب والسيوف يتقلدونها معلقة بالميسور من قِدّ أو خرقة . والقوم لم يهجس فى خواطرهم ولم يمر في خيالهم قبل الاسلام أن يخرجوا من جزيرتهم غازين لجيرانهم ولا أن ينازعوهم الملك

لا شك أن الاسلام قد بدل أحوال العرب وأنشأهم خلقاً جديداً ، وغير ما كانوا عليه من الاخلاق وبدلهم منها أخلاقاً لا تلتئم مع الانكماش والانزواء . كانوا قبائل متنافرة وبطونا متدابرة يضرب بعضهم رقاب بعض لا يبيت أحدهم الا على حذر ممن بعدت به العصبية من بني عمه وذوي قرابته . فازال الاسلام تلك الاضغان التي رانت على القلوب واستخرج تلك الاحقاد والف بين قلوبهم فاصبحوا بنعمة الله اخواناً اشداء على اعدائهم رحماء بينهم . وجعلوا عوامل التفريق دبر آذانهم وصاروا على قلب رجل واحد

ومن المعلوم في طبيعة الجماعات أن اجتماعهم يحدث فيهم قوة تشجع الجبان وتغري الناكل بالاقدام . فما قولك في أمة عظيمة اذا اجتمعت وكانت الشجاعة أخص أوصاف أفرادها لاشك في انها تقدم على العظائم وتستهين بالاخطار ولاشك في انها تقوم بما لا تقوم به عصبة أوفر منها عدداً وأوفى عدداً

لا يرجى غير ذلك من عصبة تغلغل في مكان الاعتقاد منها صدق الداعي الذي يدعوها الى سعادة الدنيا والآخرة وجرى من كل فرد مجرى دمه في مفاصله أن الآخرة خير وأبقى ، وأن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وأن الذين يقتلون في سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم وقد أوقر في نفوسهم انهم سيفتحون المدن والامصار ويحوزون الممالك والاقطار ويأكلون كنوز كسرى وقيصر . ووعد بعض أولئك الاعراب – البوالين على أعقابهم – انه سيتحلى بحلى شاهنشاه كسرى . وكرر وعد الله لهم بالنصر على الملوك والاستعلاء على الممالك في غير موقف حتى لم يبق في نفس أحد مجالا للشك ولا محلا للريب . وفوق ذلك قد ذوقهم حلاوة النصر في مواطن كثيرة أدركوا فيها فوزاً لم يكونوا يؤملون بعضه وقادهم الى فتوح باهرة

فارتهم على يده الايام ما لم يُرهم المنام وقد استقر في مكان اليقين من نفوسهم انهم اذا صدقت منهم النيات في لقاء عدوهم فاز المقتول منهم بسعادة الآخرة واحرز الباقي سعادة الدنيا (قل هل تربصون بنا الا احدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) هذان هما العاملان اللذان جرآ العرب على المغامرة بحرب اقوى الدول شوكة وأشمخها بنياناً

أما الاتحاد فأجلى مظاهره أن دين الاسلام عنوان التوحيد وقدنزلت الآيات الكثيرة حاثة على الاتحاد واجتماع الكلمة منفرة من التفرق محذرة منه سواء كان التفرق في الدين أو في الكلمة والرأي . وقد جاء في الدين أمور هي رمز ابدي للوحدة كاتحاد جميع المسلمين في استقبال مكان واحد يولون وجوههم شطره اينما كان الواحد منهم وحيث وجد وهو الكعبة . وأوجب على المستطيع منهم حج هذا المكان وقضاء النسك عنده تأكيداً لمعنى الوحدة مع فوائد أخرى . وأوجب (على سبيل الكفاية) اجتماع أهل المحلة خمس مرات لاداء الصلوات المكتوبة جماعة وذلك في كل يوم وليلة وأوجب اجتماع أهل البلد الواحد في كل أسبوع مرة لصلاة الجمعة . هذا فضلا عن اجتماعهم عند الامور المهمة في سرور أوغيره للصلاة كصلاة العيدين والاستسقاء والكسوف والخسوف وغير ذلك . وانك لاتكاد تقرأ خطبة من خطب الخلفاء الراشدين الا وتجد فيها ذكر الاتحاد والاتفاق وما نالت الامة ببركة الاتحاد بعد الاختلاف وانه منة من منن الله تعالى على الامة اعتقهم الدين بها من الاهواء المختلفة والآراء المتباينة . أما ما جاء في الاحاديث فشيء كثير جداً لايكاد يستقصيه مستقص

وأما تحققهم صدق رسول الله ﷺ فيما جاءهم به من وعد الله لهم باحدى السعادتين ان قتلوا أو فازوا فيما أخبرهم به من الاستعلاء والتمكن في الأرض وغلبتهم على دولتي كسرى وقيصر فظاهر من أقوال أصحاب رسول الله ﷺ وما فاهوا به في حضرة الملوك وقواد الاجناد ، كقول المغيرة بن شعبة لرستم حين

قال له « انكم ستموتون فيما تطلبون » اذ قال له المغيرة « يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ، ويظهر من بقي منا على من بقي منكم . » وهذا عبادة بن الصامت قد خوّنه المقوقس جموع الروم وان العرب في قلة عددهم لايقدرون عليهم ، فقال عبادة « ياهذا لا تغرّنّ نفسك ولا أصحابك أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لانقوى عليهم ، فلعمري ما هذا الذي تخوفنا بالذي يكسرنا عما نحن فيه وان كان ما قلتم حقاً فذلك والله أرغب مايكون في قتالهم وأشد لحرصنا عليهم ،لان ذلك أعذر لنا عند ربنا اذا قدمنا عليه . إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته ، وما شيء أقر لاعيننا ولا أحب لنا من ذلك . وانا منكم حينئذ لعلى احدى الحسنيين : اما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا ان ظفرنا بكم أو غنيمة الآخرة ان ظفرتم بنا وانها لاحب الخصلتين الينا » الخ

الامور التي ساعدت العرب على الفتح

قد اختص المسلمون في أول الفتح بأمور ساعدتهم على قصدهم وكانت عواملَ باجتماعها كان فوزهم ولم يكن لاعدائهم مثل ما لهم ، فكانت لهم بها الميزة على خصومهم . نذكر منها :

١ نشاط العرب وخفة اثقالهم لالفهم خشونة العيش وتجافيهم عن الترف ومذاهبه بما ألفوه من سكنى البادية وتعودهم الجوع والعطش واجتزاؤهم بالقليل عما يمسك الرمق فلا يتكلف أحدهم ما يثقل كاهله أو يشق على راحلته حمله كما يفعل الجند في الامم المتحضرة فانهم يحتاجون الى أصناف متنوعة متعددة من المأكول والمشروب وأدوات صحية وعقاقير طبية وعلوفات للماشية وأواني للمياه وكل ذلك مشغلة للجند عائق لهم عن سرعة السير .

ولا تنس ان العرب معهم الابل التي تصبر عن الطعام والشراب أياماً عديدة

فلا تعوقها الصحارى ولا يتهيبون القفار وهي معهم

ان الجند المتمدن لا يستطيع السير في بلاد غير متمدنة الا اذا كان معه الأحمال من البقسماط واللحوم المحفوظة والسكر والشاي والبن والشمع وفناطيس [1] الماء والخيام والأمتعة وعلف الماشية . وقد كانت حملة المتمة سنة ١٨٩٧ – ١٨٩٨ عددها ١٥٠٠ جندي وجمالها أربعة آلاف ومعها الجمالة والخدم . أما الرجل من أهل السودان (وهم عرب) فكان الواحد منهم في غنى عن ذلك كله بجراب فيه شيء من الذرة الجافة أو الدخن يتأبطه وربما كان ذلك مؤنة شهر أو شهرين . وهو في ذلك يكاد يكون نسخة مطابقة للاصل من المجاهد العربي في عصر الفتح

٢ اعتقاد المسلمين بالقضاء والقدر ، وقد رسخ ذلك في نفوسهم أعظم رسوخ بما جاء في الكتاب العزيز من مثل قوله « ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها » وقوله « قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل الى مضاجعهم » وقوله « اذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » وقوله « قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا » فكان هذا الاعتقاد يحدو بهم الى الاستهانة بالاخطار لانها لا تقرّب أجلا ولا تدني حيناً . ولهذا أبدوا من البسالة ضروباً ومن الشجاعة والاقدام فنوناً ، ولم يكن اعتقادهم ذلك على النحو الذي يتخيله الأوربي فيمن اعتقد هذه العقيدة من انه تكلة مستسلم لا يهم بعمل ولا ينشط لنافع اعتماداً على القضاء والقدر

٣ ان العرب وان كانوا حديثي عهد بالقتال بالزحف ، ولكن القتال لذلك العهد كان يبدأ بالمبارزة غالباً فيبدأ الفارس يطلب قِرْناً ينازله . وخيل العرب أنجب من خيل الفرس والروم ، فهي تدرك الخصم اذا كرت وتفوته اذا فرت . وكانوا أقدر على تصريف الاعنة من سواهم ، ففرس الواحد منهم طوع يده وكانوا اسدّ بالنبال رمياً ، وكان لذلك يغلب أن يفوز العربي بالغلب على مبارزه فيكسر

(١) يطلق هذا اللفظ على أوعية توضع فيها المياه لاستعمالها عند الحاجة

ذلك من قلوب مقاتليهم ويوقع الرعب في نفوسهم من أول الامر ، وخاصة اذا كان المغلوب رئيس الجند أو ممن شهر بالشجاعة فيهم

٤ ما كان للمسلمين من الثروة الواسعة في عظماء الرجال من القواد ذوي الحنكة والدربة قد خرّجتهم الحروب وثقفتهم الوقائع فبرزوا كما يبرز السيف من الصقال . فان ما كان في طبيعة العرب من حب الغزو والاغارات والتلبب للصيال والحفاظ للجار كل ذلك ارث نار الحرب بينهم . وقد كانت وقائع الاسلام من غزوات وسرايا مدرسة عليا زادتهم تبصرة بالحروب ومكائدها وعودتهم احراز الفوز

وقد جاءت حرب الردة فزادتهم في الحرب بصيرة وفي مكايدها حذقا ومهارة فاذا ذهبنا نعد أمثال خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وأبي عبيدة بن الجراح وسعد بن أبي وقاص ويزيد بن أبي سفيان وعلي بن أبي طالب ممن تتجلى فيهم البسالة والحذق في قيادة الجنود وجدنا عدداً جما ، واذا أردنا أن نعد أمثال عمرو ابن العاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة ممن يغلب عليهم الدهاء وحسن السياسة وجدنا عدداً فوق الكفاية وعلى رأس هؤلاء ، وأولئك أبو بكر وناهيك بالرجل في الحزم والتقوى وصدق العزيمة والعدل

ان أمة تضم حاشيتاها أمثال من ذكرنا جديرة بأن تتبوأ أعلى مراتب العظمة وتحوز أقصى غايات الفخار

٥ نجدة العرب واستمساك كثير منهم بأسباب العصبية . ذلك ان العرب المنبثين في نواحي الشام الخاضعين للروم ، وكذلك العرب الذين يناوحون الفرس ، لم يبدُ منهم كبير عناد في مقاومة المسلمين ومقاتلتهم وان كانوا على غير دينهم . فان الرُّبَط التي كانت تربط العرب في تلك الاصقاع بفارس والروم لم تكن مريرة مُحكَمة والقوم لم تزل أنفسهم تشعر بأن العرب قومهم وفئتهم التي يرجعون اليها فلم

يكونوا يحتاجون الى كبير علاج في دخولهم في الاسلام أو الدخول في طاعته وكان ذلك من الاسباب التى سهلت فتح بعض البقاع وفتت في اعضاد أعدائه

٦ حفظ خط الرجعة . فلا يوغلون في البلاد قبل أن تدين لهم بالطاعة ويثقوا بأن العدو قد انقطع طمعه من مفاجأتهم من خلف ظهورهم . وكان ذلك في مبدأ الامر هيناً عليهم في جهات الشام . فان الصحراء من خلفهم تكون لهم ملجأ اذا خافوا أن يلحق بهم عدوهم ولا يتقدمون خطوة في أرض عدوهم الا اذا كانوا قد استولوا على ما على يمينهم وشمالهم من المدن والبلاد ودان لهم بالطاعة وسدوا كل ثغر بالمقاتلة

وقد كانت تلك القاعدة مرعية عندهم يحرصون عليها كل الحرص

وقد قال المثنى بن حارثة الشيباني « قاتلوا الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب ، ولا تقاتلوهم بعقر دارهم ، فان يظهر الله المسلمين فلهم ما وراءهم وان ت الاخرى رجعوا الى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم الى أن يرد الله الكرة عليهم » وقد أقام سعد بن أبي وقاص بمدائن كسرى بعد افتتاحها وكذلك عمرو بن العاص أقام بالاسكندرية — فقال عمر بن الخطاب « لاتجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحلتي حتى أقدم عليكم قدمت » فتحول سعد الى الكوفة وتحول عمرو الى الفسطاط

٧ ما كانت عليه أحوال الدولتين الفارسية والرومانية من الاعتلال والاختلال وقد أتيت على شرح تلك الأحوال في المحاضرات الماضية بما يترك صورة مصغرة للدولتين في نفس القاريء

ذلك ان حال كل من الدولتين كان في انحطاط وتدهور فقد فسدت الاخلاق وانحطت الهيأة الاجتماعية وبدا التحاسد والتباغض في بيت الملك وخبثت النيات وكثرت الدسائس بين الاب وابنه والاخ وأخيه ، ونزا على عروش الملك ابناء

السوقة والغاصبون . هذا فضلاً عن الاختلال في الاحوال الدينية ودوام المنازعة بين أهل الدولتين واستعار نار الحرب فما تكاد الدولة منهما تُغمد السيف من حرب في الخارج حتى تستله على الرعية في الداخل وكل ذلك دعا الى تضعضع حال الدولتين وأوجب اختلالها

هذا فضلاً عن استحكام الشحناء بين أهل البلاد الداخلة في حكم الدولة الرومانية وبين الرومانيين وبخاصة في مصر والشام : لاختلاف القوم في المذهب الذي يدينون به ومباينتهم للرومان في ذلك واستعلائهم على أهل البلاد بعاملهم من السلطة وأخذهم بالعسف . فلاقباط في مصر قد عانوا حكم الاجانب من فرس فيونان فرومان أجيالاً متطاولة وقاسوا من ذلك أهوالا ويئسوا من قيام الملك في أحد منهم وأيقنوا انهم ماكولون على كل حال فهان عليهم الانتقال من سلطة الى سلطة رجاء أن يجدوا فترة يجدون فيها راحة من الضغط والظلم . وكذلك أهل الشام وهم خليط من الآراميين والسريان والانباط واليهود وغيرهم فقد نالهم ما نال المصريين ، فلا يهم أحداً من هؤلاء أن يكون الحاكم عربياً أو رومانياً وانما يهمهم أن يجدوا مس الراحة . ومما لاخلاف فيه أن المرء يميل بطبعه الى البعيد عنه ويرجو أن ينال النفع منه ويتوسم الخير في القادم المجهول أكثر مما يظنه في الحاصل المعلوم ، وبخاصة اذا كان الفرق بينهما ظاهراً كما كانت الحال ظاهرة الفرق بين الروم والعرب : فقد كانت الرومان يومئذ في ادبار دولتهم وانحطاطهم وقد فسدت آدابهم وأحكامهم ، والعرب في ابان اقبال دولتهم ودور نهضتهم وقد جعلوا العدل شعارهم والمساواة أساس أحكامهم فكان ذلك من العوامل المساعدة للعرب على افتتاح ما فتحوا في تلك الجهات

٨ كان الرومان مع انقسامهم الى طوائف وأحزاب في الدين قد اجتمعوا على

اضطهاد اليهود ومضايقتهم مضايقة شديدة وقد بلغت البغضاء بين الفريقين أقصى نهايتها واليهود يودون بجدع الانف أن يصيبوا رغم الرومان فكانوا عوناً للعرب يدلونهم على عورات القوم ويرشدونهم الى مقاتلهم

وهذه مدينة السامرة افتتحها أبو عبيدة بن الجراح صلحاً على أن يكون أهلها عيونا للمسلمين على أعدائهم واطعمهم أرضهم ووضع عنهم جزية رءوسهم

٩ ان المسلمين كانوا يفشون العدل في البلاد التي تدين بطاعتهم، ويرفقون بالرعية ويعفّون عما في أيدي المحكومين، وهذا شيء لم يألفوه في حكامهم. فكان شيوع هذه الخلال عنهم يسبقهم ويفتح لهم القلوب قبل فتح المدن والحصون

١٠ ان العرب كانوا اذا دخلوا قرية أقرّوا أهلها على ماهم عليه من دين ومعاملات ولا يتقاضون منهم سوى الجزية ثمناً لحمايتهم والدفاع عن حوزتهم وتأمين سُبُلهم وهي بالطبع ليست الا جزأ من الاتاوة التي كانوا يؤدونها الى حكامهم من الرومان، فكان في ذلك تخفيف لاصرهم وما عليهم من الاغلال. ويرى ذلك واضحاً في قول عبادة بن الصامت للمقوقس والقبط لما دعاهم الى الاسلام «وان أبيتم الا الجزية فأدوها الينا عن يد وأنتم صاغرون وأن نعاملكم على شيء نرضى به نحن وأنتم في كل عام أبدا ما بقينا وبقيتم ونقاتل عنكم من ناوأكم وعرض لكم في شيء من أرضكم ودمائكم وأموالكم ونقوم بذلك عنكم» الخ

ولما دخلت حمص في ذمة المسلمين وأدّوا الجزية واحتاج المسلمون بعد ذلك الى الاجتماع في اليرموك ردوا الى أهل حمص ما أخذوا من جزيتهم وقالوا «قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فانتم على أمركم» فقال أهل حمص «لوِلايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والضيم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم»

وعلى الجملة ان المسلمين لم يجرّئهم على الفتح سوى الدين وصحة الاعتقاد

بالنصر مع ما كان فيهم من الميزات كالمهارة والفروسية وقوة أبدانهم ونشاطهم وما كانوا عليه من التقشف ومجافاة الترف ومذاهبه ، ونبوغ كثير من القواد وذوي الرأي ، مع العدل والقسط والرفق ، واختلال أحوال دولتي الروم والفرس وملل المحكومين من حكامهم . فلم يمض عليهم بضع عشرة سنة حتى اجتاحوا فلسطين والشام ومصر والعراق وفارس وأخذوا ينتقصون الارض التي على الساحل الجنوبي للبحر الابيض المتوسط بخطوات ثابتة ، وهو أمر لم يعرفه التاريخ لغير العرب

غزو الفرس

لو أن أبا بكر حين فرغ من أمر أهل الردة أعاد الجيوش الى بلادها وأقر السيوف في اغمادها لما استقام له الامر طويلا ، ولعاد بعد قليل الى نشر ما طوى ولاحتاج الى انتزاف ما انتهى منه وافتقر الى اطفاء فتن تشب في الاطراف وحروب تستعر نارها في أرجاء البلاد . لان قوما شبوا وشابوا في الجلاد والصدام لا يمكن ان يهدأ ثائر نفوسهم ، بل هم يحرصون على خَلق الاعداء في الداخل ان لم يجدوهم من خارج بلادهم : ولكن الله تعالى خلق لهم الاشتباك مع الفرس ثم الروم ليكون ذلك أدعى الى توافق القوم وتوازُرهم وتناصرهم فانقطعت الحروب فيما بينهم واتصلت بينهم وبين مجاوريهم

كان ابتداء أمر فارس مع المسلمين أن الملك في فارس كان قد أفضى الى بوران بنت كسرى لفقدان من يصلح من بيت الملك لان شيرويه كان قد قتل جميع اخوته سوى جوان شير فانه كان طفلا . فلما مات جوان شير وَلِيَتْ هي الملك بعده فشاع في أطراف الارضين ان فارس لا ملك لها وانما يلوذون بباب امرأة ، وكان أمر فارس في اضطراب واختلال مُطمِع للجيران

خرج في تلك الايام رجلان من بني بكر بن وائل . أحدهما المُثنى بن حارثة الشيباني ، وثانيهما سويد بن قطبة العجلي ونزلا فيمن جمعا من العرب بتخوم أرض العجم فكانا يُغيران على الدّهاقين (١) فيأخذان ما قدرا عليه ، فاذا طُلبا أمعنا في البر فلا يتبعهما أحد - وكان المثنى يغير من جهة الحيرة وسويد من جهة الأُبُلّة وذلك في خلافة أبي بكر - فكتب المثنى الى الخليفة يعلمه ضَراوته بفارس وينبئه بوهن القوم ويسأله ان يمده بجيش ليؤثر في فارس

كان خالد بن الوليد قد انتهى من أمر بني حنيفة حين ورد كتاب المثنى على أبي بكر فندبه لغزو بلاد فارس وأمره ان يبدأ بثغر الهند وهو يومئذ الأبلة وندب عِياض بن غنم ليغزو فارس من الشمال ويبدأ بالمُضيّح في شمال العراق وأمرهما ان لا يستكرها أحداً ممن معهما اذا عزما فانفض عنهما جموع ممن معهما وأمرهما ان يستنفرا من قاتل أهل الردة وان لا يستعينا بمرتد . ولما استمده خالد وعياض أمد الاول بالقعقاع بن عمرو التيمي وقال لمن راجعه بقوله أتمده برجل واحد : « لا يُغلب جيش فيه مثل هذا » وأمد الثاني بعبد يغوث الحميري

ولما وافى خالداً كتاب أبي بكر وهو باليمامة كتب الى صاحب الثغر وهو هُرمُز كتاب انذار يقول فيه « أما بعد فأسلم تسلم أو اعتقد لنفسك وقومك الذمة واقرر بالجزية والا فلا تلومن الا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة » ولم يحمل خالد عسكره في طريق واحد . بل جعلهم ثلاث فرق فسرح المثنى بن حارثة (وكان قد وافاه فيمن معه) قبله بيومين . ثم عدي بن حاتم وعاصم ابن عمرو : أحدهما قبل صاحبه بيوم . وخرج خالد وقد واعدهم الحفير ليجتمعوا به ليصدعوا عدوهم مجتمعين

لما قدم كتاب خالد على هُرمُز كتب بالخبر الى اردشير الملك وجمع جموعه ثم تعجل يريد الكواظم وهي من جدّة اليمامة فلم يجدها طريق خالد ونبيء ان

(١) الدهقان (بضم الدال وكسرها) زعيم فلاحي العجم ورئيس الاقليم

جوع المسلمين تواعدوا الحفير فيممه يبادرهم اليه وعبى به جيشه

ولما علم خالد بأمره عدل عنه الى كاظمة ، نخف هُرمز اليها ، وكان من أخبث الناس وأشدهم دهاء وأعظمهم نكاية تضرب العرب به المثل في الكفر والخبث لما كان منه من سوء الجوار لهم ، وكلهم عدوله حاقد عليه . وكان هرمز قد بقي في عسكره وقد قيدوا أنفسهم في السلاسل آية استبسالهم في القتال وعدم البراح، وكان الماء في أيديهم . ولما وافى خالد نزل على غير ماء ، فقيل له في ذلك فقال : حطوا أثقالكم ثم جالدوهم على الماء فلعمري ليصيرن الماء لأصبر الفريقين وأكرم الجندين ثم تبارز هُرمُز وخالد ، وكان هُرمُز قد اتفق مع أصحابه على الغدر بخالد اذا بارزه فلما تلاقيا صرعه خالد وخرج أصحاب هرمز لاستلحام خالد فلم يثنه ذلك عن قتله وخف القعقاع في جماعة الى أصحاب هرمز فأناموهم وشدوا على القوم فانهزموا

ثم رحل خالد بجيشه حتى نزل قريباً من موضع البصرة وكانت لم تبنَ في ذلك الوقت

كان كسرى قد أمد هرمز بجيش تحت قيادة قارن بن قرياناس ففصل عن المدائن حتى انتهى الى المذار (على أربعة أيام من البصرة الى شمالها قرب واسط) فأدركه فلال جيش هُرمُز من الاهواز والسواد والجبل ، وضوى جميعهم الى جيش قارن وعسكر جمعهم حيث انتهى واستعمل قارن على مُجنَبتَيه قُباذ وانوشجان ، وكانا من قواد هُرمُز . وخف المثنى وأخوه المُعَنَّى الى خالد بالخبر فقسم الفيء على من أفاء الله عليه ونفل من الخمس ما شاء الله وبعث ببقيته وبالفتح الى أبي بكر مع الوليد بن عقبة ، وبعث معه بالخبر عن اجتماع القوم ـ مغيثهم ومغاثهم ـ بالثنى . وخرج خالد بجيشه حتى الثنى وهو على تعبية بجيش قارن فاقتتلوا على حَنَق وحفيظة وبدأت الحرب بالمبارزة فكان أول صريع وقتل الاخوان أنوشجان وقباذ وهما

من ذرية أردشير الأكبر وقتلت الفرس مقتلة عظيمة وانهزموا وأعطى خالد الاسلاب لسالبيها بالغة ما بلغت وقسم الغنيمة وبعث بالخمس والفتح الى أبي بكر مع سعيد بن النعمان من بني عدي

انتهى خبر الهزيمة الى كسرى بالمدائن فجهز جيشاً كثيفاً بقيادة الاندَرْزَغَر فسار حتى أتى كسكر ثم الى الولجة وهي في شمال المذار . ثم حجز بهمن جاذويه فسلك وسط السواد وحشر الى الاندَرْزَغَر من بين الحيرة وكسكر من عرب الضاحية والدهاقين وعسكروا الى جنب جيش اندرزغر

أما خالد فلما علم بأمرهم أذن بالرحيل على تعبية بعد ان خلف على القرى حامية تحمي ظهر جيشه وتحفظ عليه خط الرجعة ورتب الهجوم على عدوه من ثلاث جهات جعل جهتين منهما كميناً وصادمهم بمن معه فقاتلهم قتالا شديداً حتى ظن الفريقان أن الصبر قد نفد . واستبطأ خالد كمينه . ثم لم يشعر القوم الا بالكمين قد اكتنف العدو من جانبيه فانهزمت صفوف الاعاجم وأخذهم الكمين من خلفهم وخالد بمن معه من بين أيديهم وانهزم اندرزغر ومات عطشاً . وأصيب في هذه الوقعة كثير من نصارى بكر بن وائل فغضبوا حمية لقومهم وكاتبوا الفرس ليكونوا لهم عوناً على العرب المسلمين واجتمعوا بأليس وعلى العرب رؤساؤهم وعلى الفرس جابان . وقد أمره جاذويه أن لا ينازل العرب حتى يصل اليه الا ان يعجلوه

ولما علم خالد باحتشاد القوم تعجل اليهم وهو لا يظن ان يلقى الا متنصرة العرب من عجل وتيم اللات وضبيعة وعرب الضاحية ولا يظن ان جابان معهم . فلما أطل عليهم كان الفرس قد هيأوا الطعام وتنادوا له ولم يظهروا الا اكتراث لامر خالد ومن معه . وكان خالد على تعبية فاجهضهم عن طعامهم وقاتلهم قتالا شديداً وكانت جموع المشركين تزيد كَلَبًا وشدة ، ثقة منهم بأن بهمن جاذويه لاحق بهم في مدد عظيم . وحرب المسلمون عليهم فكشف المشركون وكانت عليهم الدبرة

وأفحش خالد في قتلهم وغنم المسلمون طعامهم الذي كان مهيأ لهم وكان فيه الرقاق فلم يعرف كثير من المسلمين ما هو وقالوا ما هذه الرقاع البيض. فكان العارفون منهم يمزحون قائلين هذا رقيق العيش • وكانت هذه الوقائع في صفر من السنة الثانية عشرة الا وقعة الا ُبلة فكانت في المحرم وكان جيش خالد قد بلغ ثمانية عشر ألفا وكان لا تمر به واقعة الا كانت التي تليها أعظم منها نصراً وغنيمة. وكان يوصي بالفلاحين وأهل الاعمال ولا يظلمهم بل يترهم في عملهم ولا يتصدى الا للمقاتلة وأهليهم وكل ذلك عملا بوصية أبي بكر له. وكان من أمر خالد انه بعد وقعة الوَلَجة خطب في جنده يرغبهم في بلاد العجم ويزهدهم في بلاد العرب. وقال:

« ألا ترون الى الطعام كرفغ التراب وبالله لو لم يلزمنا الجهاد في الله والدعاء الى الله عزوجل ولم يكن الا المعاش ، لكان الرأي أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به ، ونولي الجوع والاقلال من تولاه ممن اثاقل عما أنتم عليه »

ولما فرغ خالد من وقعة اَلَيس نهض فأتى مغيشيا وقد جلا أهلها عنها وتفرقوا في السواد وكانت مصراً كالحيرة وكان فرات بَادَقْلي ينتهي اليها وكانت اَلَيس من مسالحها فأصاب المسلمون بها مالم يصيبوا مثله فقد بلغ سهم الفارس ألفاً وخمسمائة درهم سوى النفل الذي نفله خالد أهل البلاء ثم أمر بهدمها وكل شيء كان في حيزها • ولما جاء خمس الغنيمة الى أبي بكر وبلغه ماصنع خالد أخبر قريشاً الخبر فقال « يا معشر قريش ، عدا أسدكم على الاسد فغلبه على خراذيله • أعجزت النساء ان ينشئن مثل خالد ؟ »

لما علم الازاذبه مرزبان الحيرة بما صنع خالد بامغيشيا أيقن انه غير تاركه فتهيأ للحرب وقدم ابنه أمامه ثم خرج في أثره على عسكر خارجاً من الحيرة وأمر ابنه بسد الفرات. وكان خالد قد حمل الرجل في السفن مع الانفال والاثقال. فلم يفجأ الا والسفن جوانح • فارتاع المسلمون لهذا الامر. وقال لهم الملاحون ان الفرس قد

فجروا الانهار فسلك الماء غير طريقه ولايجري الماء الينا الا بسد الانهار . فنهض خالد في خيل نحو ابن الازاذبة . فلقي خيلا من خيله فجئهم وهم آمنون لغارة خالد في تلك الساعة فانامهم بالمَقْر ثم نهض من فوره وسبق الاخبار حتى لقي بجنه من جند ابن الازاذبة على فم فرات بادقلى فقاتلهم وهزمهم وسد الانهار وسلك الماء سبيله . ثم استلحق خالد عسكره ويمم الحيرة حتى نزل بين الخورنق والنجف

أما الازاذبة فقد طرقه مصاب ابنه وخبر موت اردشير في وقت واحد فهاله الامر وكان معسكراً بين الغريين والقصر الابيض فاستخفه الفزع فعبر الفرات هارباً من غير قتال قبل ان تتام أصحاب خالد . فلما لحق بخالد عسكره صار حتى عسكر بهم مكان الازاذبة وجنوده . وأهل الحيرة متحصنون . فادخل الحيرة الخيل من عسكره وأمر ضرار بن الأزور بمحاصرة أهل القصر الابيض وفيه أياس بن قبيصة الطائي وضرار بن الخطاب بحصار قصر العدسيين وفيه عدي بن عدي العبادي . وكان ضرار بن مقرن المزني عاشر عشرة اخوة له محاصراً قصر بني مازن وفيه ابن أكال والمثنى بن حارثة كان محاصراً قصر ابن بقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح وقد عهد خالد الى أمرائه ان يدعوا القوم الى الاسلام فان أجابوا قبلوا منهم وان أبوا ان يؤجلوهم يوماً وقال لاتمكنوا عدوكم من اذانكم فيتربصوا بكم الدوائر ولكن ناجزوهم ولاتردوا المسلمين عن قتال عدوهم . ففعلوا فاختار القوم المنابذة وعمدوا لرمي المسلمين بالخزف فرشقهم المسلمون بالنبل وبثوا غارتهم ففتحوا الدور والديارات فنادى القسيسون يا أهل القصور ما يقتلنا غيركم . فنادى أهل القصور يامعشر العرب قبلنا واحدة من ثلاث فكفوا عنا . وخرج رؤساء أهل القصور الى خالد فخلا بأهل كل قصر على حدة ولامهم وكان مما قاله ويحكم ما أنتم ؟ أعرب فما تنقمون من العرب ؟ أو عجم فما تنقمون من الانصاف والعدل ؟ ثم قال اختاروا واحدة من ثلاث ان تدخلوا في ديننا فلكم مالنا وعليكم ما علينا ان نهضتم وهاجرتم وان أقمتم في دياركم .

أو الجزية أو المنابذة والمناجزة فقد والله أتيتكم بقوم هم على الموت أحرص منكم على الحياة. فقالوا بل نعطيك الجزية . وصالحوه على مائة وتسعين الفا وبعث خالد بالفتح والهدايا الى أبي بكر . وكانوا اهدوا الى خالد هدايا ، فقبل أبو بكر الهدايا على ان تكون من الجزية ، وكتب الى خالد ان احسب لهم هديتهم من الجزاء وخذ بقية ماعليهم فقو بها أصحابك - وقد كتب خالد لاهل الحيرة كتاباً هذا نصه :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمرا ابني عدي وعمرو بن عبد المسيح واياس بن قبيصة وحيرى بن اكال وهم نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به. عاهدهم على مائة وتسعين الف درهم تقبل في كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم الا من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركا لها، وعلى المنعة وان لم يمنعهم فلاشيء عليهم حتى يمنعهم وان غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة . وكانت كتابة هذا العهد في شهر ربيع الاول سنة ١٢ هـ »

ومن طريف ما يحكى في فتح الحيرة ان رجلا من متنصرة العرب اسمه شويل كان قد اسلم على يد رسول الله ﷺ فسمع رسول الله يبشر المسلمين بأن قصور الحيرة ستفتح عليهم . فسأله أن يعطيه كرامة بنت عبد المسيح من سبي الحيرة حين تفتح . فقال النبي عليه السلام : هي لك . فلما أراد خالد صلح أهل الحيرة جاء شويل يستنجز خالداً عدة رسول الله ﷺ فشرط خالد عليهم ان يسلموا كرامة فشق ذلك على القوم وعلمت كرامة فقالت لهم لايشق عليكم ذلك فانه رجل أحمق رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم فاسلموني فاني سأفتدي منه . فلما حصلت عند الرجل قالت ما أربك من عجوز كما

ترى ؟ فادني . قال لا الا على حكمي . قالت فلك حكمك . قال فلست لام شويل ان نقصتك عن الف درهم . فأظهرت انها تستكثر ذلك لتخدعه ثم أتته بالالف ورجعت الى قومها . وتسامع الناس بما كان من شويل فعنفوه على ان لم يطلب أكثر من ذلك . فقال : ما كنت أرى ان عدداً يزيد على الف ! وخاصم القوم الى خالد فقال كانت نيتي نهاية العدد وقد ذكروا ان العدد يزيد على الف . فقال خالد أردت امراً وأراد الله غيره نأخذ منك بما يظهر وندعك ونيتك

ولما صالح خالد أهل الحيرة . جاء اليه صلوبا بن نسطونا وهو صاحب قس الناطف فصالحه على بانقيا وباروسما وضمن له ما عليهما وعلي أرضيهما من شاطىء الفرات على عشرة آلاف دينار ، وكتب لهم خالد كتاباً نصه :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

«هذا كتاب من خالد بن الوليد لصلوبا بن نسطونا وقومه ، اني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد بانقيا وباروسما جميعاً على عشرة آلاف دينار سوى الخرزة (١) القوى على قوته والمقل على قدر اقلاله في كل سنة وانك نقبت على قومك وان قومك قد رضوا بك وقد قبلت ومن معي من المسلمين ورضيت ورضي قومك فلك الذمة والمنعة فان منعناكم فلنا الجزية والا فلا حتى نمنعكم»

كان الدهاقين يتربصون بخالد وينظرون ما يصنع بأهل الحيرة فلما استقام ما بينه وبين الحيريين ، أتته دهاقين البلاد فصالحوه على ما بين الفلاليج الى هرمز جرد على ألفي ألف درهم وكتب لهم بذلك كتاباً فيه :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

«هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ بهيش وصلوبا بن نسطونا . ان لكم الذمة وعليكم الجزية وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الاسفل والاوسط

(١) كذا في ابن جرير وفي معجم الادباء لياقوت (مادة بانقيا) كتاب بغير هذه الصورة

على ألفى ألف تقبل في كل سنة عن كل ذي يد سوى ما على بانقيا وباروسما وانكم قد رضيتموني والمسلمين وانا قد رضينا كم وأهل البهقباذ الاسفل ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الاوسط على أموالكم ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم »

بعد ذلك بعث خالد مسالحه وعليها ضرار بن الازور وضرار بن الخطاب والمثنى بن حارثة وضرار بن مقرن والقعقاع بن عمرو وبُسْر بن أبي رُهم وعتيبة ابن النهاس . وأمرهم بالغارة والالحاح في الوجوه التي وجهوا اليها وكان قد أغزاهم

ولما استقر خالد على أحد جانبي السواد . دعا برَجُل حيرى وآخر نَبطى وكتب معهما كتابين احدهما الى ملك الفرس مع مرّة الحيرى وقال اذهب اليهم لعل الله يُمر عيشهم أو يسلموا أو ينيبوا . وأعطى النبطي حزقيل كتاباً وقال : اللهم ازهق نفوسهم - وكان الى المرازبة - فأما كتاب الملك فهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من خالد بن الوليد الى ملوك فارس . أما بعد فالحمد لله الذي حل نظامكم ، ووهن كيدكم وفرق كلمكم ولولم يفعل ذلك بكم كان شراً لكم فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجوزكم الى غيركم والا كان ذلك وأنتم كارهون على غلب على أيدى قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة . وصورة الثاني :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« من خالد بن الوليد الى مرازبة فارس . أما بعد فاسلموا تسلموا . والا فاعتقدوا مني الذمة وأدوا الجزية . وإلا فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر »

وكان أهل فارس في ذلك الحين عقب موت أردشير مختلفين في الملك مجتمعين على قتال خالد متساندين ، وكانوا بذلك سنة والمسلمون يمخرون مادون

دجلة وليس لاهل فارس فيما بين الحيرة ودجلة أمر، وليست لاحد منهم ذمة الا الذين كاتبوه واكتتبوا منه وسائر أهل السواد جلاء ومتحصنون ومحاربون. وكان الفرس ليس منهم سوى المدافعة عن بَهُرَسير وهي احدى المدائن التي سميت بها مدائن كسرى واقعة في الجانب الغربي من دجلة امام الايوان الذي كان في الجهة الشرقية منها . فلما وردت كتب خالد أحبوا أن يفرغوا من اختلافهم فوقع اختيارهم على رجل من غير بيت الملك يولونه الى أن يوجد من آل كسرى من يصلح للملك. وكان الذى ولوه هو الفرُّخزاذ خسرَوْ ولم يستقر له الملك فولوا يزْدَجِرْد بن شَهْرِيار وكان في ملكه من الاحداث ما سيأتي

لما استقام لخالد الامر في الناحية التي أثخن فيها اجمع السير لاغاثة عياض بن غَنم الذي أرسله أبو بكر ليفتح العراق من شماليه ويلتقي بخالد فاستخلف على الحيرة القعقاع بن عمرو وسار بجنده حتى وافى الانبار فوجد القوم قد امتنعوا بحصونهم وخندقوا على أنفسهم واشرفوا من أعالي الحصون فأمر جنوده أن يرشقوهم بالنبل فأصابوا في عدوهم . وكان خالد رجلا لايصبر عن الحرب اذا رآها ، فقال لمن معه : اني أرى قوماً لاعلم لهم بالحرب فارشقوا فى عيونهم ولاتحرّوا سواها. فأصيب فى ذلك اليوم ألف عين

ولم يكتف خالد بما صنع بل عمد الى أضيق مكان في الخندق وعمد الى الضعاف من الابل في جيشه فنحرها وأفعم الخندق بجثثها واقتحم المسلمون الخندق وجسرهم عليه جثث الابل وصاروا مع أعدائهم داخل الخندق فالتجأ المشركون الى الحصن

وكان رئيسَ القوم رجل يقال له شيرزاذ صاحب ساباط وكان أعقل أعجمي يومئذ وأسوده واقنعه في الناس العرب والعجم . فراسل خالداً في الصلح على ما أراد فقبل خالد منه على أن يخليه ويلحقه بمأمنه في جريدة من الخيل ليس معهم من المتاع والاموال شيء ، ووفى له خالد بما صالح عليه

ولما انتهى أمر الصلح مع القوم صالح من حولهم واستخلف الزبرقان بن بدر وسار الى عين التمر وبها يومئذ مهران بن بهرام جوبين في جمع عظيم من الفرس والعرب وعقة بن أبى عقة في جمع عظيم من النمر وتغلب وإياد ومن لف لفهم . فلما سمعوا بقدوم خالد قال عقة لمهران : ان العرب أعلم بقتال العرب فدعنا وخالداً . قال : صدقت لعمري لانتم أعلم بقتال العرب وانكم لَمِثلنا في قتال العجم - وقد كان العجم ينظرون الى العرب بعين الاحتقار والمهانة - فقال من مع مِهران من العجم : كيف تقول ما قلت لهذا الكلب ؟ فقال : دعوني فاني لم أرد الا ما هو خير لكم وشر لهم . انه قد جاءكم من قتل ملوككم وفل حدكم فاتقيته بهم . فان كانت لهم على خالد فهى لكم ، وان كانت الاخرى لم يبلغوكم حتى يهنوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون. فحمدوا له رأيه . فلزم مهران العين ونزل عقة لخالد على الطريق وعلى ميمنته بجير أحد بني عبيد بن سعد بن زهير وعلى ميسرته الهذيل ابن عمران وبين عقة ومِهران غدوة أو روحة ومهران في الحصن في جند فارس وعقة كالخفير له بجنده . فقدم خالد في تعبيته ، وقال لِجُنْبَتَيْه : اكفونا ما معه فاني حامل ووكل بنفسه حوامى ثم حمل وعقة يقيم صفوفه فاحتضنه فأخذه أسيراً فانهزم جنده قبل القتال ، وأمعن المسلمون فيهم الاسر ، وامعن كثير من المشركين في الهرب

لم يكد الخبر يصل الى مهران حتى وهنت قوته فترك الحصن ونجا فيمن معه من الفرس . وجاء فلال جيش عقة الى الحصن فاقتحموه واعتصموا به وكانما كان اعتصامهم به انما هو اعتقال وسجن ضرب عليهم حتى يتسلمهم خالد . فانه لما قدم الى الحصن ومعه عقة وعمرو بن الصعق في الاسر نزل عليهم وكان القوم يظنون ان خالداً كغيرة العرب لايلبث أن يعود ادراجه اذا أصاب مغنما فلما رأوه غير تاركهم يئسوا من النجاة ونزلوا على حكمه . فأمر بعقة وعمرو بن الصعق فضربت أعناقهما

واجزر السيف بقية من كان معها وغنم ما حواه حصنهم وسبى السبي . وقد وجد في بيعتهم أربعين غلاماً يتعلمون الانجيل عليهم باب مغلق فكسره عنهم وقال : ما أنتم ؟ قالوا : رُهُن . فقسمهم في أهل البلاء . منهم أبو زياد مولى ثقيف . ومنهم نصير أبو موسى بن نصير . ومنهم أبو عمرة جد عبد الله بن عبد الاعلى الشاعر وسيرين أبو محمد بن سيرين . وحمران مولى عثمان بن عفان وغيرهم

وكان خالد أرسل الوليد بن عقبة بالاخماس الى أبي بكر . فوجه به أبو بكر الى عياض بن غنم في جند مدداً له

وبينما كان خالد يفتح الفتوح ويحرز النصر كان عياض لم يعمل شيئاً ولم يدرك غرضاً مما وجه اليه . فقد كان أبو بكر وجهه ليفتح شمال العراق ويكون اجتماعه مع خالد بالحيرة وأيهما سبق اليها كان أميراً على صاحبه فأتم خالد ما نيط به وشرع يعمل في عمل عياض . ولما قدم الوليد على عياض بدومة الجندل وجده قد حاصر القوم وحاصروه وأخذوا عليه الطريق . فقال له : الرأي في بعض الحالات خير من جند كثيف ، ابعث الى خالد فاستمده . ففعل ، وقدم رسول عياض على خالد مستغيثاً في اعقاب واقعة العين . فكتب اليه : « من خالد الى عياض — اياك أريد »

لَبِّثْ قليلا تأتك الجلائب
يحملن آساداً عليها القاشب
كتائب يتبعها كتائب »

خبر دومة الجندل

خلف خالد على عين التمر — عويم بن الكاهل الاسلمي . وخرج في تعبيته التي دخل بها العين ويمم دومة الجندل ، فلما علم أهل دومة بمسير خالد اليهم استنفروا أحلافهم من بهراء وكلب وغسان وتنوخ والضجاعم . ومن قبل وافاهم

وديعة في كلب وبهراء ومسانده ابن وَبَرَة بن رومانس . و أتاهم ابن الحِدْرجان في الضجاعم وابن الايهم في طوائف من غسان وتنوخ فاشجوا عياضاً وشجُوا به

وقد كان للقوم رئيسان : احدهما أكيدر بن عبد الملك والجودي بن ربيعة ، فقال اكيدر : أنا أعلم الناس بخالد ، لا أحد أيمن طائراً منه ولا احدٌ في حرب ، ولا يرى وجه خالد قوم أبدا قلوا أو كثروا الا انهزموا عنه ؛ فأطيعوني وصالحوا القوم . فأبوا عليه . فقال : لن أمالئكم على حرب خالد . وتركهم وذهب لِطيَّته

قد كان في رأي اكيدر كل الحزم وفي مخالفته الخطل والطيش والغرور

لا يذهب من ذاكرتنا أن اكيدرا هذا كان قد صالح رسول الله ﷺ على الجزية ليلة أن أرسل خالداً اليه فجاء به في رجال من قومه اذ كانوا يصيدون البقر في ليلة قمراء . وقتل في تلك الليلة أخا اكيدر . فلما مات رسول الله ﷺ كان فيمن غدر وخاس بالعقد ، فلما علم خالد بخروج اكيدر أرسل اليه من عارضه في الطريق وأتى به فضرب عنقه جزاء غدره

مضى خالد حتى نزل على دومة وعلى المشركين يومئذ الجودي بن ربيعة ووديعة الكلبي وابن رومانس وابن الايهم وابن الحِدْرجان فجعل خالد دومة بين عسكره وعسكر عياض ، وكان مدده من متنصرة العرب محيطاً بالحصن لانه لم يحملهم . وخرج الجودي ووديعة لخالد وابن الايهم وابن الحدرجان لعياض ، فأظفر الله المسلمين بالفريقين وأثخن كل فيمن يليه من المشركين ، وأخذ خالد الجودي أسيراً وأخذ عيينة ابن حصن وديعة أسيراً كذلك . وطلب المنهزمة الحصن للالتجاء اليه فلم يحتملهم وأغلق أهل الحصن أبوابه وبقي المغيثون بالعراء بادية مقاتلهم فأجار عاصم بن عمرو ومن معه من تميم حلفاءهم من كلب فنجوا . وقتل خالد من كان خارج الحصن واقتلع بابه وقتل من كان فيه

أقام خالد بدومة فظن الاعاجم به الظنون وكاتبهم عرب الجزيرة غضبا

لعقة فخرج زَرْمِهْر من بغداد ومعه رُوزبه يريدان الانبار واتعدا حُصيدا والخنافس . فكتب الزبرقان وهو على الانبار الى القعقاع خليفة خالد على الحيرة بما علمه من أمر العجم والعرب . فبعث القعقاع اعْبَد بن فَدَكى وأمره بالحُصَيد . وبعث عروة بن الجعد وأمره بالخنافس. وقال لهما : ان رأيتما مقدما فاقدما . فخرجا فحالا بين زرمهر وروزبه وبين مقصديهما فلما قدم خالد الحيرة علم بالامر فعجل القعقاع وأبا ليلى بن فدكى الى روزبه وزرمهر فسبقاه الى عين التمر وقدم على خالد كتاب من امريء القيس الكلبي يعلمه ان الهذيل بن عمران قد عسكر بالمُصَيَّخ ونزل ربيعة ابن بجير بالثِّني وبالبشر في عسكر غضبا لعقة يريدان روزبه وزرمهر . فخرج خالد واستخلف على الحيرة عياض بن غَنم وأخذ طريق القعقاع وأبى ليلى حتى قدم عليهما بالعين فبعث القعقاع الى الحصيد وأبا ليلى الى الخنافس . وكان من همه أن يزجيا القوم ليجتمعوا حتى ينازلهم بجمع كثيف هم ومن هب لمعاونتهم من العرب . ولكن القوم لم يجتمعوا ولعلهم فطنوا لنية خالد فأرادوا أن لا ينيلوه مراده

﴿ حُصيد ﴾

لما رأى القعقاع أن زرمهر وروزبه لا يتحركان قصد الحصيد وعلى من به من العجم والعرب روزبه . فاستغاث بزرمهر فخف اليه بنفسه وخلف على جيشه المهبوذان ، والتقى المسلمون بأعدائهم فقتل من العجم مقتلة عظيمة وقتل زرمهر وروزبه وغنم المسلمون غنائم كثيرة وانحاز فلال جيش حصيد الى الخنافس

﴿ الخنافس ﴾

ولما قصد أبو ليلى بن فدكى الخنافس ـ وبها المهبوذان وجنده ومن ضوى اليهم من فلّ جيش الحصيد ـ وعلم به المهبوذان ، انهزموا دون قتال وانضموا الى المُصَيَّخ وبه الهذيل بن عمران ومن معه (مُضَيَّخ بني البرشاء) . ولما انتهى الى خالد

ما كان بالحصيد والخنافس كتب الى قواده وواعد القعقاع ، وأبا ليلى ، واعبد ، وعروة ليلةً وساعةً يجتمعون فيها الى المضيح وهي بين حوران والقلت . فتوافوا اليها في موعدهم فاتفقوا على أمرهم وبيتوا الهذيل ومن معه من ثلاثة أوجه وهم نائمون فأتوا عليهم وامتلأ الفضاء برمم القتلى فما شبهوا الا بغنم مصرعة ولم ينج سوى الهذيل في نفر قليل . وقد أصاب جرير بن عبد الله يوم المضيح عبد العزى ابن أبي رُهم ولبيد بن جرير ، وكان معهما كتاب من أبي بكر باسلامهما فوداهما أبو بكر ، وكان عمر رضي الله عنه يعتد على خالد بقتلهما وقتل مالك بن نويرة . وقد سمع عبد العزى في تلك الليلة يقول :

أقول اذ طرق الصباح بغارة سبحانك اللهم رب محمد

سبحان ربي لا اله غيره رب البلاد ورب من يتوردِ

فكان أبو بكر يقول : كذلك يلقى مَن ساكن أهل الحرب في دارهم

وقد كان للرجلين متسع من الارض يأمنان فيه وليس بهما من ضرورة تضطرهما الى المقام في مستنقع الموت وفي صف أعداء دينهم والمشاقين لاهل الاسلام . ومن ظن أنه يصنع صنيعهما ولا يكون موطنا نفسه على أن يكون طعاما للسيوف فقد ظن عجزا ، وليس لعمر حق في الاعتداد بهما على خالد

﴿ الثنيّ والزميل ﴾

لما أصاب خالد أهل المضَيّح بما أصابهم به تقدم الى القعقاع وأبي ليلى أن يرتحلا أمامه وواعدهما الليلة ليفترقوا فيها للغارة على من بالثنى من ثلاثة أوجه ، كما فعل بأهل المضيح ، ففعلوا وأعملوا السيوف في أهله بياتا وهم نائمون فلم يفلت من الجيش مخبر ، ثم عطف بمثلها على من بالزميل وهو البشر وقد سبق الخبر اليهم ثم عطف من بالبشر الى الرضاب وكان هناك هلال بن عقة فانقشع عنها ولم يلق خالد كيدا

﴿ الفِراض ﴾

وهى تخوم العراق والشام والجزيرة . قصدها خالد بعد الرضاب ليكون على بينة من أنه لم يترك وراء جيشه عورة ينالهم العدو منها . وقد أفطر في تلك السَّفْرَة في رمضان لما كان من تتابع الغزوات واتصالها والايام والوقائع قد نظمن فيها نظما وقد اكثر الرُّجَّاز في هذه الغزوات

فلما اجتمعت المسلمون بالفِراض حميت الروم واغتاظت واستجاشوا من يليهم من مسالح الفرس يستعينون بهم واستمدوا تغلب وايادا والنمر فامدوهم وناهدوا خالدا حتى صار الفرات بينهم وبين المسلمين وأجل الرومان الرأى فقال بعضهم لبعض: هذا رجل يقاتل على دين وله عقل وعلم والله لينصرن ولنخذلن . ثم لم ينتفعوا بذلك وعبروا أسفل من خالد وامتازوا ليعلموا من يأتي بحسن ومن يأتي بقبيح . وناجزوا خالدا الحرب واقتتلوا قتالا شديدا طويلا ثم انهزمت جموع الروم ومن معهم من العرب . فقال خالد: الحوا عليهم ولا تُرَفِّهُوا عنهم وقد أثخن فيهم القتل . وكانت هذه الواقعة آخر حروب خالد بالعراق

*
* *

يحق لنا أن ننظر نظرة متأمل الى ماصنعه خالد في سنته فاننا نجده قد فعل في هذه المدة القصيرة مالم يفعله قائد من القواد في مثل عدة جنده مع كثرة عديد أعدائه ومحاربيه وقوة عُدَدهم . فقد اقتطع من بلاد العجم حوض نهرى الفرات من شمالى الأبلة الى الفراض وهى تخوم الشام والعراق والجزيرة شرقي الفرات وأثخن في جيوش الفرس والعرب والروم في مواقع كثيرة لم تهزم له فيها راية ولم ينثن سيفه عن ضريبته وكان الرعب يسبقه الى كل قوم ويسير أمامه في كل موقعة أجمع عليها حتى ان اسمه كان بمثابة مدد للجيوش . وكان في كل أعماله فاتحا موطدا لاركان الملك والاستعمار ، لامغيرا ناهبا . فلم تدن له بلد بالطاعة الا خلف عليها حامية لحفظ

نظامها ، وأميرا لاقامة العدل فيها ، وآخر يجبي خراجها من الذمة على مقتضى كتاب صلحهم

ومن أحسن مايؤثر لخالد من المحاسن الغراء انه لم يكن يتعرض للفلاحين بسوء ولا يمسهم بأذى . بل كان يشملهم برأفته ويعمهم برعايته ويمنعهم ممن يريدهم بسوء لاعتقاده انهم مادة الامة وبهم قوام الدولة . ولهذا صاروا يفضلون حكمه على حكم الفرس لما كانوا يجدونه في عظائهم من الغلظة عليهم والاعنات لهم ويستعبدونهم ويذلونهم

وكما كان خالد رؤوفا بهؤلاء كان شديد الاخذ للمقاتلة وأهل الحرب لايصبر على الميدان اذا رآه ولا يدع الجنود ينظر بعضهم الى بعض دون أن يشنها غارة شعواء ـ بل سُرعان مايخرج طالبا كبش الكتيبة في بحبوحة الميدان ويدعوه الى المبارزة ثم ينقض عليه انقضاض البازى على العصفور وفي ذلك بواره فكان عمله هذا يشرد من خلفه من عدوه ويوقع الرعب في قلوبهم ويكون سبباً للفشل ثم الهزيمة

قال الاستاذ الخضري : وعلى الجملة فهذه السنة كانت لخالد غرة في جبين تاريخه . ومما يبين عظيم عمله ما قاله الهيثم البكائي قال : كان أهل الأيام من أهل الكوفة يوعدون معاوية عند بعض الذي كان يبلغهم ويقولون : ما شاء معاوية ، نحن أصحاب ذات السلاسل (وهي أول واقعة بين خالد والفرس) ويسمون ما بينها وبين الفراض ما يذكرون ما كان بعدُ احتقاراً لما كان بعد فيما كان قبل

واني ما عجبت من شيء لايبلغ ذلك عجبي من أمر أولئك القوم الذين كانوا يتهافتون على حرب خالد تهافت الفراش على النار . قد يكون وجه العذر واضحاً في أهل ذات السلاسل وما بعدها بواقعتين أو ثلاث ، ولكن ما عذر أولئك الذين كانوا يعرفون أثره في غيرهم وميسمه في آناف القبائل ثم لايكون منهم الا أن

يهجموا عليه هجوم الحمار على الأسد ؟ ان البهائم تعرف ريح الليث بما قدرت عليه ولكن هؤلاء القوم قد جهلوا ما عرفته البهائم فلم يكتفوا من الليث بريحه دون أن يذوقوه

أينكر ريح الليث حتى يذوقه وقد عرفت ريح الليوث البهائم

كان لخالد في العراق من الوقائع (١) ذات السلاسل (٢) والمذار (٣) والولجة (٤) واليس وامغشيا (٥) والمقر وفم فرات بادَقْلَى (٦) وقصور الحيرة (٧) وذات العيون بالانبار وكلواذى (٨) وعين التمر (٩) ودومة الجندل وحُصيد (١٠) (١١) والخنافس (١٢) ومضيّح بني البرشاء (١٣ ، ١٤) الثَّنِيُّ والزميل (١٥) الفراض. وقد انتظم جميعها في سمط لاقل من سنة من خروجه للقتال. أفما كان في الناس رجل رشيد يحثهم على المسالمة وبذل ما يريده يحقن على الناس هذا الدم المار ؟ ان الابتعاد عن طريق خالد نهاية الحزم ولا يمكن ان يهجس في خاطري ان الذين اتقوه بالفرار من الفرس كانوا جبناء أو ضعفاء لان الاقدام الذي لانفع منه القاء بالنفس الى التهلكة

على ان القوم الذين كانوا يجمعون له ويرصدونه أو ينهدون اليه كان يكون لهم شبه عذر لوان الذي يقع في يده محاربا يجد منفذاً الى النجاة أو طريقاً الى السلامة فيكون القوم قد أقدموا على طمع في الفوز أو أمل في النجاة ، ان خانهم الظفر فلم يخنهم عفو المنتصر . ولكن الرجل ما كان يقبل لمخذول عثرة بعد ما أشرع الرمح وفوّق النبل ، بل كان كما قال عمر بن الخطاب لابي بكر : ان في سيف خالد رهقا. ولو انني كنت القائل لقلت : ان في سيفه قَرَماً الى لحوم مخالفيه وزهداً في موافقيه

***

نعود الى خالد في الفراض فنقول انه أقام بها بعد الموقعة عشرة أيام ثم أذن

في الناس بالرحيل الى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة وأمر عاصم بن عمرو ان يسير بالناس وأمر شَجَرَة بن الاعز أن يسوقهم واظهر أنه في الساقة . ثم خالف من معه الى مكة حاجاً يعتسف البلاد حتى أتى مكة على السَّمْتِ في عدة من أصحابه فتأتى له من ذلك ما لم يتأت لدليل خريت ولا رئبال . وقد سلك بأصحابه طريقاً من طرق أهل الجزيرة لم ير طريق أعجب ولا أشد صعوبة منه . فلما قضى نسكه خف مسرعاً الى جنده . فما توافى الجند بالحيرة الا وقد طلع عليهم في أصحابه مع ساقة الجند فقدما معاً ولا يعلم الجند بحج خالد ومن معه الا بعد أن رأوهم محلقين رؤوسهم الا ما كان ممن أفضى اليهم بذلك من أهل الساقة

وقد انتهى الى أبي بكر ما كان من خالد من ترك الجند ومخالفتهم الى الحج فأكبر ذلك واعتده اعجاباً منه بنفسه وبما أتيح له من الظفر واغتراراً بمن يجاوره من عدوه واستضعافاً لشأنهم . وصادف في ذلك الحين ان أبا بكر احتاج الى أن يرمى الروم بمثل ما رمى فارس ، وقد استمده أمراؤه فأحب أن يرمى غرضين بحجر ، فأمر خالدا بالانصراف الى الشام مدداً لمن هناك من الامراء بنصف الجند وان يخلف المثنى بن حارثة على من معه من الجنود بالعراق . فأرسل الى خالد كتاباً يعاتبه فيه على ما كان منه ويعظه ويأمره بالانصراف الى الشام وكان في هذا الكتاب :

سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شُجُوا واشجَوا . وإياك أن تعود لمثل ما فعلت فانه لم يشج الجموع بعون الله من الناس شجيك ولم ينزع الشجى من الناس نزعك فَلْيَهْنِئْكَ أبا سليمان النية والحظوة فاتمم يتم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل ، وإياك ان تدِل بعمل فان الله عز وجل له المن وهو ولي الجزاء

وكان انصراف خالد في صفر سنة ١٣ هـ

ابتداء حرب الروم بالشام

كان ابتداء حرب الروم متأخراً عن حرب الفرس . وأول ما كان من ذلك ان أبا بكر رضي الله عنه كان عقد لخالد بن سعيد على جيش حين بعث البعوث الى أهل الردة . وقد جهد عمر بن الخطاب بأبي بكر أن يصرف خالداً عن العمل له وقال له انه لضعيف التروئة مخذول فلا تستنصر به . فأطاعه أبو بكر في بعض أمره وخالفه في بعض ، ذلك انه أمر خالد بن سعيد ان ينزل بتيماء وأن يدعو من حوله للانضمام اليه ، وأن لايقبل مرتداً ولا يقاتل الا من قاتله ، وأن لا يبرح مكانه حتى يأتيه أمره

وكان سبب حنق عمر على خالد بن سعيد ان خالدا كان عاملا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على اليمن فقدم بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهر والقوم في مصابرة أهل الردة . وكان لابساً جبة ديباج ، فقال عمر لمن يليه : مزقوا عليه جبته . أيلبس الحرير وهو في رجالنا في السلم مهجور ؟ فوجدها خالد في نفسه ولقى علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان فقال : يابني عبد مناف لقد طبتم نفساً عن أمركم يليه غيركم . وتربص ببيعة أبي بكر مدة يقول قد امّرني رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم يعزلني حتى قبضه الله . فكان عمر يضطغن ذلك عليه وأبو بكر ولم يحفلها ولم يحتمل عليه

فصل خالد بن سعيد وجنده وسار حتى نزل على تيماء فاجتمع اليه جند كثير وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فرأوا أن يقذفوا جلوداً بجلود ويفلوا ذلك الجيش قبل أن يعظم بجموع من عرب الضاحية والحديد بالحديد يفلح

علم خالد بن سعيد بما صنعت الروم فكتب الى أبي بكر بهذا الشأن وبنزول من استنفرت الروم ونفر اليهم من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان . فكتب اليه أبو بكر أن أقدم ولا تحجم واستنصر الله . فنهد اليهم خالد

في جموعه فلما دناهم تفرقوا واعروا منزلهم فنزله ودخل عامة من تجمع له في الاسلام وكتب الى أبي بكر بما كان ، فكتب اليه : أقدم ولا تقتحمن حتى لايؤتى من خلفك ، فسار فيمن كان خرج معه من تيماء ومن لحق به حتى نزلوا فيما بين آيل وزيزاء والقسطل . فسيرت الروم اليه عسكراً بقيادة بطريق منهم يدعى باهان فهزمه خالد وفض جموعه . وكأن خالدا رأى أن توالي نكايته في الروم يذهبهم الى شأنه والجد في أمره فكتب الى أبي بكر يستمده حتى لايفاجئه العدو بجيش لا قبل له به

وافق كتاب خالد بن سعيد الى أبي بكر ان قدم الى المدينة المستنفرون من اليمن ومن بين مكة واليمن وفيهم ذو الكلاع وقدم على أبي بكر أيضاً عكرمة قافلا وغازياً فيمن كان معه من تهامة وعمان والبحرين والسرو فكتب أبو بكر الى أمراء الصدقات ان يبدلوا من استبدل فكلهم استبدل فسمي جيش البدال . وكتب أبو بكر الى عمرو بن العاص يخيره بين عمله الذي هو فيه أو يوجهه الى عمل آخر يراه خيراً لدنياه وآخرته . فكتب اليه عمرو : اني سهم من سهام الاسلام وأنت بعد الله الرامي بها والجامع لها فانظر أشدها وأخشاها وأفضلها فارم بها شيئاً ان جاء من ناحية من النواحي . وكتب الى الوليد بن عقبه فأجابه بايثاره الجهاد. فاوعب أبو بكر الى خالد بن سعيد جيشاً فيه الوليد بن عقبة وعكرمة بن أبي جهل وذو الكلاع وغيرهم فوافوا خالد بن سعيد . وعند ذلك اهتاج أبو بكر الى الشام واعتزم على الجد في أمر الروم وأرسل الامراء والجنود لافتتاح الشام

في أواخر سنة ١٢ هـ اختار أبو بكر أربعة من خيرة قواد المسلمين لهم جد وهمة وغناء وهم (١) عمرو بن العاص (٢) ويزيد بن أبي سفيان (٣) وأبو عبيدة بن الجراح وهم قرشيون (٤) وشرحبيل بن حسنة وهو قحطاني

وقد تخير لكل واحد منهم جنده وأمر كل واحد أن يسير في الطريق التي

سماها له وعين لكل واحد منهم الولاية التي يتولاها بعد الفتح فجعل لعمرو بن العاص فلسطين وليزيد بن أبي سفيان دمشق ولابي عبيدة حمص ولشرحبيل الاردن وكان عدد الجنود التي سيرت الى الشام سبعاً وعشرين الفاً على ما رواه الطبري

رأى خالد بن سعيد انه قد عزبن أمده بهم أبو بكر وان جنود المسلمين وقوادهم قد فصلوا لفتح الشام فأراد أن يدرك الفوز قبل مقدمهم ويحرز الفخار دونهم فبادر الامراء بقتال الروم واستطرد له باهان وقصد فيمن معه قصد دمشق واقتحم خالد فى الجيش ومعه ذو الكلاع وعكرمة والوليد حتى نزل مرج الصفر بين الواقوصة ودمشق فانطوت عليه مسالح باهان وأخذوا عليه الطرق وهو لايشعر وزحف له باهان وأصاب سعيد بن خالد فقتله ومن معه . وعلم خالد بالخبر فخرج هارباً في جريدة وأفلت من أصحابه من افلت على ظهور الخيل والابل وقدأجهضوا عن عسكرهم ولم تنته بخالد وأصحابه الهزيمة عن ذي المروة وأقام عكرمة رداءا للناس يرد عنهم باهان وجنوده . وقد علم ابو بكر بما نكب به خالد بن سعيد فكتب اليه وهو بذي المروة أن أقم مكانك فلعمري انك مقدام محجام نجاء من الغمرات لاتخوضها الى حق ولا تصبر عليه

ولما علم الروم بقدوم امراء جيوش المسلمين كاتبوا هرقل فقدم حمص وأراد أن يشغل قواد المسلمين عن بعضهم بما عنده من الجنود الكثيرة . وأرسل الي كل قائد أمثال ماعنده ، فهابهم المسلمون ورأوا التريث حزما وكاتبوا أبا بكر وعمرو ابن العاص فيما نزل بهم . فأرسل اليهم عمرو ان الرأى الاجتماع وذلك ان مثلنا اذا اجتمع لم يغلب من قلة واذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا في عدد يقرن فيه لاحد ممن استقبلنا وأعدلنا فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به وهو واد يصب في الاردن وقد طلع عليهم كتاب أبي بكر ان اجتمعوا فتكونوا عسكرا واحدا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين فانكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من

كفره ولن يؤتى مثلكم من قلة وانما يؤتى العشرة آلاف والزيادة على العشرة آلاف اذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصلّ كل رجل منكم بأصحابه

لما علم هرقل باجتماع المسلمين باليرموك كتب الى قواده ان اجتمعوا لهم وانزلوا بالروم منزلا واسع العطن واسع المضرب ضيق المهرب . وبين لكل قائد مكانه من الجيش من يكون على المقدمة والميمنة والميسرة ومن يكون قائدا عاما فصدعوا بأمره ونزلوا الواقوصة وهي على ضفة اليرموك وصار الوادي خندقا لهم وهو لهْبٌ لايدرك غوره ـ وقد أراد قواد الرومان أن يستفيق الروم ويأنسوا بالمسلمين حين يرون قلتهم وكثرة جند الروم وترجع اليهم أفئدتهم عن طيرتها . ولما نزل الروم منزلهم هذا انتقل المسلمون ونزلوا بحذائهم على طريقهم وليس لهم طريق غيره . فقال عمرو بن العاص : أيها الناس أبشروا حصرت والله الروم وقلما جاء محصور بخير . فأقام المسلمون على حالهم هذا صفرا وشهري ربيع سنة ١٣ لايقدرون من الروم على شيء ولا يخلصون اليهم اللهب وهو الواقوصة من ورائهم والخندق من أمامهم

كان المسلمون في مبدأ اجتماعهم كتبوا الى أبي بكر واستمدوه فقال أبو بكر : والله لأُنسِيَنَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد . وكتب الى خالد الكتاب الذي قدمنا فوافاه الى الحيرة منصرفه من حجه وأمره أن يسير الى الشام بشطر الناس وأن يخلف على الشطر الباقي المثنى بن حارثة . وقال لاتأخذنّ نجدا الا تركت له نجدا فاذا فتح الله عليكم فارددهم الى العراق وأنت معهم ثم ائت على عملك

ولما أراد خالد أن يفصل بنصف الناس استأثر بأصحاب رسول الله فأبي المثنى الا أن يكون الامر على ما كتب أبو بكر فلم يزل به خالد حتى أرضاه . وكان خالد يعتقد ان صرفه عن العراق وفارس الى الشام انما كان بسعي عمر حسدا له أن يكون فاتح العراق وفارس . وقد كان ارسال خالد الى الشام توفيقا من الله تعالى لابي بكر لانه كان صاحب اليوم الذي حصلت فيه الصدمة الأولى وتتابعت الفتوح بعده

سار خالد بمن معه من الجنود من الحيرة حتى نزل على عين التمر فأغار على أهلها فأصاب منهم ثم أغار على جموع من تغلب وكلب على ماء يسمى قراقر . ثم أراد السير مُفَوِّزاً من قراقر الى سُوَى وهو ماء لبهراء من ناحية السماوة . وقراقر ماء لبني كلب وبينهما خمسة أيام للراكب المفرد المخِف وانما أراد خالد هذا الطريق لانه اذا مر في العمران ودار حول المفازة وجد جموع الروم في طريقه وذلك يدعوه الى منازلتهم وفي ذلك مايؤخره عن الموعد الذي يريده وهو اغاثة المسلمين باليرموك فالتمس دليلا يسلك به المفازة فدل على رافع بن عميرة الطائي ، فأراده خالد على الانطلاق بالناس فقال رافع : انك لن تطيق ذلك بالخيل والاثقال والله ان الراكب المفرد ليخافها على نفسه وما يسلكها الا مغررا . انها لخمس ليال جياد ولا يصاب فيها ماء مع مضلتها . فقال خالد : ويحك انه والله إنْ لِيَ بُدٌّ من ذلك انه قد أتتني من الامير عزمة بذلك فمر بأمرك . قال: استكثروا من الماء ، من استطاع منكم أن يصر اذن ناقته على ماء فليفعل فانها المهالك الا مادفع الله ـ أبغني عشرين جزورا عظاما سمانا مَسَان . فأتاه خالد بهن فظمّأهُن ، حتى اذا أجهدهن عطشا أوردهن فشربن حتى اذا امتلأْن عمد اليهن فكممهن لئلا يجتررن ثم أخلى أدبارهن ثم قال لخالد سر فسار بالناس مغذا بالخيول والاثقال فكلما نزل منزلا افتظ أربعا من تلك الشوارف فأخذ مافي اكراشها فخلطه بما كان من لبن ثم سقى الخيل وسقى الناس مما حملوا معهم من الماء . فلما كان آخر يوم خشي خالد على أصحابه فقال لرافع : ماعندك ؟ قال أدركتَ الرى ان شاء الله ليطمئنَّ الناس . فلما دنا من العلمين قال للناس: انظروا هل ترون شجيرة من عوسج كقعدة الرجل؟ فوجدوا جذمها بعد جهد فأشار عليهم بأن يحفروا في أصلها فحفروا فخرجت لهم أوشال فشربوا وسقوا ظهرهم واتصلت بعد ذلك لخالد المنازل وقد قال بعض القوم في ذلك :

لله عينا رافع انى اهتدى فوّز من قُراقِرٍ الى سُوى
خمسا اذا ماسارها الجيش بكى ماسارها قبلك أنسي يُرى

ولم يكد خالد يصل الى سُوى حتى صبح بَهراء بالقتال وهم لايظنون ان أحدا يأتيهم من هـذه المفازة المهلكة فدهمهم وبعضهم في صبوحه . ثم أتى ارك فصالحوه ثم أتى تدمُرُ فتحصن أهلها ثم صالحوه ثم أتى القريتين على مرحلتين من تدمر فقاتلهم فظفر بهم وغنم وأتى نُصَم فصالحه بنو شجعة من قضاعة وسار فوصل الى ثنية العقاب عند دمشق ناشرا راية سوداء كانت لرسول الله ﷺ تسمى العقاب ثم أتى مرج راهط فصبح غسان في يوم فصحهم فقتل وسبى ، ثم سار الى بصرى فقاتل من بها فظفر بهم وصالحهم فهى أول مدينة فتحت صلحا بالشام على يد خالد وجند العراق ثم بعث بالخمس الى أبى بكر ثم سار فاطل على المسلمين في ربيع الآخر وطلع باهان على الروم ومعه القسوس والشمامسة فكان كل حزب مستبشرا فرحا بماجاءه من المدد

واقعة اليرموك

كان المسلمون في قلة من العدد بالنسبة الى عدد الروم فالمقل من المؤرخين يجعلهم أربعين ألفاً والمكثر يجعلهم ستة وأربعين الفا وأما الروم فعددهم أربعون ومائتا ألف على رواية الطبري. وأقل ماقيل فيهم ما قاله ابن الاثير في احدى روايتيه انهم كانوا مائة الف . وكان قتال المسلمين على تساند ، كل أمير على جيشه . وقد مكث القسيسون شهراً يحرضون على القتال ويرغبون الروم فيه وينعون لهم النصرانية حتى أحسوهم . فخرج الروم في تعبية لم ير مثلها للقتال الذي ليس بعده قتال . فلما رأى خالد هذا الامر مع تفرق المسلمين على عدة أمراء وان القوة مجزأة بتعدد الامراء خشي أن يدخل على جيش الاسلام الوَهَن والضعف ، لانهم انما يقاتلون عدواً كثير العدد قوي العدة موحد الرأي والكلمة ، ولا بد لنيل الظفر من حزامة الرأي واجتماع الكلمة . فقام خالد في الامراء ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: هذا يوم من أيام الله لاينبغي فيه الفخر ولاالبغي، اخلصوا جهادكم وأرْضُوا الله بعملكم فان هذا اليوم له مابعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون فان ذلك

لايحل ولاينبغي. وان مَنْ وَرَاءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا في مالم تؤمروا به بالذي ترون انه رأي من واليكم ومحبته. قالوا: هات فما الرأي؟ قال ان أبا بكر لم يبعثنا إلا وهو يرى أننا سنتياسر ولو علم بالذي كان ويكون لما جمعكم. ان الذي أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم وانفع للمشركين من أمدادهم ولقد علمت ان الدنيا فَرّقَتْ بينكم، فالله الله فقد أُفرِدَ كلُّ رجل منكم ببلد لاينقصه منه ان دان لاحد من أمراء الجنود ولايزيده عليه ان دانوا له. ان تأمير بعضكم لاينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ. هلموا فان هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له مابعده ان رددناهم الى خندقهم اليوم لم نزل نَرُدهم وان هزمونا لم نُفلح بعدها. فهلموا فلنتعاور الامارة فليكن عليها بعضنا اليوم والآخر غداً والآخر بعد بعد غد حتى يتأمر كلكم ودعوني ا ِليكمُ اليوم. فأمّروه وهم يرونها كخرجاتهم وان الامر اطول مما صاروا اليه

صار خالد أمير المسلمين في ذلك اليوم. وقد قدمنا ان الروم خرجوا في تعبية لم ير الراؤن أحسن منها ولا أهيب في العين، فخرج اليهم خالد في تعبية لم تعبها العرب قبلها: فخرج في ستة وثلاثين كردوسا الى الاربعين. والكردوس هو الجماعة من العسكر وظاهر ان كردوس المسلمين في هذه الوقعة لايزيد على الف مقاتل الا قليلا. وقد قسم الجيش فجعل على كراديس الميمنة عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة، وجعل على كراديس الميسرة يزيد بن أبي سفيان، وجعل على كراديس القلب أبا عبيدة. وأقام على كل كردوس قائداً من شجعانهم. وكان القاضي في ذلك الجيش أبو هريرة. والقاصّ الذي يعظ الناس ويحرضهم على القتال أبوسفيان ابن حرب. فكان يقف على كل كردوس ويقول: «الله الله انكم ذادة العرب وانصار الاسلام، وانهم ذادة الروم وانصار الشرك. اللهم ان هذا يوم من أيامك اللهم أنزل نصرك علي عبادك». وكان المسلمون يقرأون على الجنود وهم في الصفوف سورة القتال

وفيما المسلمون في المصاف قبل أن ينشب القتال خرج قائد القلب من جيش الروم طالبا خالد بن الوليد فجاء اليه وكلمه في بعض الشأن

ذلك انه لابد في كل زمان ومكان من أناس يتزيدون في الاخبار ويهرفون بما لا يعرفون ويؤولون الكلام على ما يخطر على قلوبهم بدون تدبر ولا تحقيق. ولعل بعض القوم أشاعوا في بلاد الشام أن خالدا في يده سيف نزل من السماء يهزم به أعداءه أعطاه له رسول الله وأخذوا ذلك مما اشتهر به بين المسلمين أنه سيف الله. ويظهر أن ذلك القائد (ويسميه الطبري جَرَجَة بن توذر ، ولعله جورج بن ثيودور) كان يعرف العربية لانه كلم خالدا بدون ترجمان

وقف ذلك القائد فقال : ياخالد لاتكذبني فان الحر لايكذب ، ولا تخدعني فان الكريم لايخادع المسترسل . هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسلّهُ على قوم الا هزمتهم ؟ قال لا . قال : فبم سميت سيف الله ؟ قال ان الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ فدعانا فنفرنا عنه ونأينا عنه جميعاً ثم ان بعضنا صدقه وتابعه وبعضنا كذبه فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله . ثم ان الله أخذ بقلوبنا ونواصينا فهدانا به فتابعناه ، فقال « أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين » ودعا لي بالنصر فسميت سيف الله بذلك فأنا من أشد المسلمين على المشركين . قال : صدقتني . ثم اعاد عليه يسأله عن الاسلام وما يأمر به ، وما للداخل فيه من الحقوق وما عليه من الواجبات ، وخالد يجيبه عن كل ما سأل عنه ، فمال الرجل مع خالد الى صفوف المسلمين ودخل خيمة خالد فاغتسل وتشهد وصلى ركعتين وخرج يقاتل مع المسلمين الى أن قتل عصر ذلك اليوم ماصلى سوى الركعتين

نعود الى شأن القتال فنقول : لما مال ذلك القائد مع خالد ظن الروم انها من قائدهم حملة فحملوا فأزلوا المسلمين عن مواقفهم الى المُحامية وعليهم عكرمة

وعمه الحارث بن هشام ، فقال عكرمة : قاتلت رسول الله في كل موطن وافرُّ اليوم ؟ ثم نادى : من يبايع على الموت ؟ فبايعه الحارث بن هشام وضرار بن الازور في اربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا بين يدي فسطاط خالد حتى أُثبتوا جراحةً فمنهم من برأ ومنهم من قتل . وقد اشتد القتال بين الفريقين النهار كله الى جنوح الشمس للغروب . فنهد خالد بالقلب حتى تصافح القوم بالسيوف وصار خالد بمن معه بين خيل الروم ورَجْلهم وكان المكان واسع المُطَّرَدِ ضيق المهرب وتضايقت خيل الروم فلما وجدت مذهبا ذهبت تشتد في الصحراء وأفرج لهـا المسلمون وترك فرسانهم الرجالة في مصافهم وتفرقوا في كل مذهب لايلوون على شيء واقبل خالد والمسلمون على الرجل ففضوهم فكانما هدم بهم حائط فاقتحموا في خندقهم فاقتحمه عليهم فعمدوا الى الواقوصة فهووا فيها . وقد زاد خسارتهم انه كان فيهم كثير من المقيدين وآخرون مسلسلين للموت فكان الجماعة من المسلسلين أو المقيدين اذا هوى واحد منهم في الواقوصة هوى بقيتهم بِهُوِيِّه فكان ذلك نكالا لهم ووبالا عليهم اذ تهافت في الواقوصة أكثر القتلى

وقد ذكر الطبري انه قد هوى فيها من الروم عشرون ومائة ألف وهؤلاء سوى من قتلوا بالمعركة وقد استمر القتال طول النهار ومعظم الليل وأصبح خالد وهو في رواق رئيس جند الروم . واني لأشك في عددهم ، ولـكن لاشك في نصر المسلمين

وقد شق على كثير من عظماء جنود الروم وشجعانهم وقوادهم أن يروا هزيمة جيشهم بأعينهم ففضلوا الموت على الحياة فتزملوا وجلسوا ينتظرون الموت حتى لايروا اليوم البئيس فقتلوا على حالهم تلك ـ وهذه العادة لم تزل الى اليوم في بعض القبائل العربية : اذا غلب الجيش على أمره وحقت عليه الهزيمة عمد الرؤساء الى التزمل والجلوس حتى يأتي من يقتلهم ليريحوا أنفسهم من عار الهزيمة وتجرع غصص الذل وقد أبلى المسلمون بلاء حسناً وقتل منهم نحو ثلاثة آلاف فيهم كثير من اجلاء أصحاب رسول الله ﷺ وقد شهد اليوم منهم ألف ـ وفي ذلك اليوم عمم

خالد رجلا يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ! فقال خالد : ما أقل الروم وأكثر المسلمين . ان الجيوش انما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان ، ولوددت أن الاشقر بريء مما به من الوجى وقد أضعف الروم جيوشهم

وفي أول هذا اليوم ورد كتاب عمر بن الخطاب بوفاة أبي بكر رضي الله عنه وبتولي عمر الخلافة وفيه عزل خالد عن امارة جيشه وتولية أبي عبيدة بن الجراح . فلما جاء الرسول سئل عما وراءه فأخبر بالمدد وبسلامة الامة وأعطى الكتاب لخالد وأسرّ اليه بما وراءه فأحمد خالد رأيه ولم يشأ أن يظهر الامر للناس وهم على حالهم تلك حتى اذا ما انتهت الوقعة سلم الكتاب الى أبي عبيدة وسلم عليه بالامارة وفي الصبح بعد انتهاء الموقعة أتى خالد بعكرمة وابنه عمر فوضع رأس عكرمة على فخذه ورأس عمر على ساقه وصار يقطر في حلقيهما ويمسح وجهيهما ويقول : زعم ابن حنتمة أن لا نستشهد ـ يريد عمر رضي الله عنه ـ وقد قاتل النساء في ذلك اليوم قتالا شديدا في بعض الجولات وكن يقمن بسقي الجند الماء ومداواة الجرحى وتمريضهم

ومكان العبرة بعد هذه الموقعة هو ان جيشاً عدته أربعون ألفاً قد غلب جيشاً فيه خمسة أمثاله ، يفتش الناس عن الاسباب التي دعت الى ذلك

أنا لا أبعد بكم الى شيء ناء ، وانما أُحيلكم على ما قدمنا من الاسباب . وأزيدكم ان جيش المسلمين كان فيه العدد المدرب على الحرب وهم قريبو عهد بالانتصار على الجنود الفارسية فاورثهم ذلك ضراوة عليهم وقد أحبوا أن ينتظموا الروم مع فارس في سلك ليكون لهم فخر الأثخان في الدولتين

قد كان في حكم المقبول ان يقال ان الانتصار في كل من الناحيتين (العراق والشام) سببه ارتباك الدولتين ، غير ان هذا الارتباك لم يمنع الطائفتين عن حشد الجنود التي تفوق المسلمين أضعافاً مضاعفة ورمى كل ثغر بما يسده من المقاتلة وذوي النجدة . فالامر الذي ساعد المسلمين كما قدمنا وراء العدد وهو ان الجندي المسلم انما كان يخوض المعامع وقلبه متأثر بأمرين :

أولهما ـ ثقته بأن العاقبة له لما قرأه في الكتاب من عدة النصر وما سمعه من الرسول من التبشير بهذه الفتوح . وهذه الثقة في قلبه بمنزلة مدد من الله تعالى يؤيده

ثانيهما ـ انه واثق بالعاقبة في الأخرى فهو ان قتل شهيداً فائزٌ بالحسنى وزيادة ، واذا عاش ظافراً فذلك خير عجّله الله له ، والآخرة خير وأبقى

ولا تنس براعة القواد وحسن تدبيرهم . فان أولئك القواد الذين قاموا بهذه الفتوح قد اعجزوا من بعدهم أن يقدم اقدامهم في مثل حالهم وان أمثالهم في تاريخ الشرق قليل

أما خالد فكان واسطة عقد هؤلاء القواد وزينة تاريخ أبي بكر وبانتهاء وقعة اليرموك تمت الأعمال الكبرى التي قامت بين دولة الاسلام في مقابلة دولتي الفرس والروم في عهد أبي بكر . وانما عددنا اليرموك من الاعمال في عهد أبي بكر لانها بدأت وتهيأت فى زمنه وبعمله وان كان تمامها في عهد عمر . وان الأعمال الكُبَر التي تمت في هذا التاريخ القصير الذي لم يمتد الى أكثر من سنتين وأربعة أشهر ـ وهي مدة خلافة أبي بكر ـ تشهد بأن الرجل كان صادق العزيمة قوي الارادة كبير الهمة . لانه لا يحمل العظيم من الأمور ويستقل به الا العظيم

ادارة البلاد فى عهد أبي بكر

لم يكن للمسلمين بلاد في عهد أبي بكر سوى شبه جزيرة العرب وهي التي كانت تابعة للادارة الاسلامية نهائيا . وقد كان أبو بكر جزأها الى ولايات وجعل على كل ولاية أميراً من قبله . وكان الأمير يقيم الصلاة ويقضي في القضايا ويقيم الحدود . فكان أميراً وقاضياً ومنفذاً يقوم بعمل الشرطة ، ولم يول أبو بكر قضاة يتولون القضاء دون الامراء . وهذه ولايات الجزيرة وولاتها لعهده :

(١) مكة : وأميرها عتاب بن أسيد وهو الذي ولاه رسول الله ﷺ واستمر مدة أبي بكر

(٢) الطائف : وأميرها عثمان بن أبي العاص ولاه رسول الله ﷺ وأقره أبو بكر

(٣) صنعاء : وأميرها المهاجر بن أبي أمية وهو الذي فتحها ووليها بعد انتهاء أمر الردة

(٤) حضرموت : وواليها زياد بن لبيد

(٥) خولان : وواليها يعلَى بن أمية

(٦) زُبَيْد وَرِمَع : وواليها أبو موسى الأشعري

(٧) الجَنَد : وأميرها معاذ بن جبل ، وبها مسجد من بناء معاذ ، وقد كانت العرب تحج بمسجد الجَنَد قبل الاسلام

(٨) نجران : وواليها جرير بن عبد الله

(٩) جَرَش : وواليها عبد الله بن ثور

(١٠) البحرين : وواليها العلاء بن الحضرمى

أما العراق والشام فكان أمراء الجند هم ولاة الامر فيها ، ولم يكن أمر التولية في نواحيها راجعاً الى أبي بكر بل كان كل أمير يولى واحداً من قبله على الناحية التي فتحها ليكون نائباً عنه فيها ، ولم يكن الامر قد استقر في تلك النواحي استقراراً نهائياً

ولم يتخذ أبو بكر وزيراً وانما كان عمر يلي له القضاء بالمدينة ولم يكن قاضياً وكان أبو عبيدة أميناً على بيت المال قبل أن يسير الى الشام

ولم يتخذ أبو بكر كاتباً بعينه ، بل كان يكتب له زيد بن ثابت ، وكان يكتب له الاخبار عثمان بن عفان ، وكان يكتب له من حضر كعلي وغيره

جمع القرآن

وفي عهد أبي بكر جمع القرآن . وذلك ان القتل قد استحر في القراء في حروب اليمامة وأهل الردة فرأى عمر أن يجمع القرآن في مصحف خشية أن يهلك الحفاظ فيضيع القرآن فلم يزل بأبي بكر حتى رضى بذلك فدعا زيد بن ثابت فلم يزل به أبو بكر حتى رضي وهو الذي قام بجمع القرآن . أخرج البخاري عن زيد بن ثابت قال « ارسل اليّ أبو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال أبو بكر : ان عمر أتاني فقال : ان القتل قد استحرّ يوم اليمامة بالناس ، واني لاخشى أن يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن الا أن يجمعوه واني لارى أن يجمع القرآن »

قال أبو بكر : فقلت لعمر كيف افعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ . فقال عمر : هو والله خير ! فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك فرأيت الذي رأى عمر . قال زيد : وعمر عنده جالس لايتكلم ، فقال أبو بكر : انك شاب عاقل ولا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفني نقل جبل ما كان اثقل علي مما كلفني به من جمع القرآن ، فقلت : كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي ﷺ ؟ فقال أبو بكر : هو والله خير . فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري للذي شرح الله صدر أبي بكر وعمر فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع والاكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين عند خزيمة بن ثابت لم اجدهما مع غيره « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » الى آخرها فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها » .

وسنذكر عند الكلام على عثمان انه هو الذي استنسخ المصاحف وفرقها في الامصار وكان القرآن قبل ذلك محفوظاً مرتبا في الصدور مكتوباً آيات وسوراً ليست مجتمعة

رزق الخليفة

كان أبو بكر يرتزق من استغلال ملكه وعمل يده . وقد ظل مدة ستة أشهر بعد خلافته وهو على حاله تلك ، لا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً ، فأصبح ذات يوم وعلى ساعده ابراد وهو ذاهب الى السوق . فلقيه عمر فقال: اين تريد؟ قال: الى السوق . قال : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ قال: فمن اين أطعم عيالي ؟ فقال انطلق يفرض لك أبو عبيدة (أمين بيت المال) فلما ذهب اليه قال افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بأفضلهم ولا أوكسهم وكسوة الشتاء والصيف اذا أخلقت شيئاً رددته وأخذت غيره . ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن . أخرجه ابن سعد عن عطاء بن السائب

وقال الطبري : قالت عائشة : كان منزل أبي بالسُّنْح عند زوجته حبيبة ابنة خارجة وكان قد حجَّر عليه حُجْرَة من سَعَفٍ فما زاد على ذلك حتى تحول الى منزله بالمدينة فأقام هناك بالسُّنْح بعد ما بويع له ستة أشهر يغدو على رجليه الى المدينة وربما ركب على فرس له وعليه ازار ورداء ممشق فيوافي المدينة فيصلي الصلوات بالناس فاذا صلى العشاء رجع الى أهله بالسُّنْح . فكان اذا حضر صلى بالناس واذا لم يحضر صلى بهم عمر بن الخطاب . فكان يقيم يوم الجمعة صدر النهار بالسُّنْح يصبغ رأسه ولحيته ثم يروح لقدر الجمعة فيُجَمِّعُ بالناس وكان رجلا تاجراً . فكان يغدو كل يوم الى السوق فيبيع ويبتاع . وكانت له قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها وربما كفيها فرعيت له . وكان يحلب للحي أغنامهم فلما

بويع له بالخلافة قالت جارية من الحي اليوم لا تُحلب لنا منائح دارنا فسمعها أبو بكر فقال: بلى ، لعمري لاحلبنها لكم واني لارجو ان لا يغيرني ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه. فكان يحلب لهم فربما قال للجارية من الحي ياجارية أتحبين ان أرْغِ لك او أُصرِحَ؟ فربما قالت ارْغ وربما قالت صرح ، فأي ذلك قالته فعل. فمكث كذلك بالسنح ستة اشهر ثم نزل الى المدينة فأقام بها. ونظر في أمره فقال: لا والله لاتصلح أمور الناس على التجارة وما يصلحهم الا التفرغ لهم والنظر في شأنهم ولابد لعيالي مما يصلحهم. فترك التجارة واستنفق من مال المسلمين ما يصلحه ويصلح عياله يوماً بيوم ويحج ويعتمر وكان الذي فرضوا له في كل سنة ستة آلاف درهم فلما حضرته الوفاة قال: ردوا ما عندنا من مال المسلمين فاني لا أصيب من هذا المال شيئاً. وإنْ أرضي التي بمكان كذا وكذا للمسلمين بما أصبت من أموالهم. فدفع ذلك الى عمر ولقوحا وعبدا صيقلا وقطيفة ما تساوي خمسة دراهم. فقال عمر: لقد اتعب من بعده

وروى عن عائشة انها دخلت على أبيها في مرضه الذي توفى فيه وطلبت اليه أن يعهد بالامر وهي حزينة كئيبة. فرفع رأسه وقال « اي امَه هذا يوم يُجلى لي عن غطائي وأشاهد جزائي: ان فرحاً فدائم وان ترحاً فمقيم. انى اضطلعت بامامة هؤلاء القوم حين كان النكوص اضاعة ، والخذل تفريطا. فشهيدي الله ما كان يقيلني اياه فتبلغت بصحفتهم وتعللت بدِرَّة لِقْحَتِهم. فأقمت صلاتي معهم لامختالا أشرا ، ولامتكاثرا بطرا. لم أعْدُ سد الجُوعة ووَرْيَ العورة وقُوَاتُ القِوام (١). حاضري الله من طوى مُمْعِضٍ تهفو منه الاحشاء وتجِبُ له الامعاء ، فاضطررت الى ذلك اضطرار المريض الى المَعِيف الآجن. فاذا أنا مت فردي اليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ورحاهم ودثارة مافوقي اتقيت بها البرد ودثارة ما تحتي اتقيت بها نز الارض

(١) القوام ما يعاش به

كان حشوها قطع السعف اه

وكأن أبا بكر يرى انه ليس له حق في أن يأخذ من بيت مال المسلمين شيئاً ، فلهذا أوصى بأرضه للمسلمين في نظير ما أخذه من أموالهم

ومناقب أبي بكر كثيرة . منها قول النبي ﷺ « مادعوت أحداً الى الاسلام الا كانت له عنه كبوة غير أبي بكر » وقد شهد له بالجنة و بعتقه من النار . وأخبر بخلافته تعريضا لا نصا بقوله لامرأة « ان لم تجديني فأتي أبا بكر » . وشهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ واعتق سبعة نفر كلهم كانوا يعذبون في الله : بلال ، وعامر بن فهيره ، وز نّيرة ، والنهدية، وابنها ، وجارية بنى مؤمل ، وام عبيس . وكان بيت المال معه في داره . ولما فتح بيت المال بعد وفاته لم يجدوا فيه درهما ولا ديناراً الا ديناراً واحداً سقط من غرارة

وقال أبو صالح الغفاري : كان عمر يتعهد امرأة عمياء بالمدينة بالليل فيقوم بأمرها فكان اذا جاء وجد غيره قد سبقه ، فرصده فاذا هو أبو بكر وهو خليفة

وقيل ان زوجته اشتهت حلوا ، فقال لها : ليس لنا ما نشتري به . فقالت : أنا استفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري به . قال : افعلي . ففعلت ذلك فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير فلما عرفته ذلك ليشتري به حلوا أخذه فرده الى بيت المال وقال : هذا يفضل عن قوتنا واسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه من بيت المال من ملك كان له

وهو أول من سمى ما كتب فيه القرآن مصحفاً ، وأول من فرض له رعيته نفقة ، وأول من سمى خليفة ، وأول خليفة ولى وأبوه حي

كان يسوى في قسمته بين السابقين الاولين والمتأخرين في الاسلام و بين الحر والعبد والذكر والانثى * من ابن الاثير

﴿ أرزاق الجند ﴾

كان جند المسلمين في عهد أبي بكر متطوعين لايكلفون الخليفة ولا بيت المال شيئا وانما ينفقون من أموالهم ابتداء ثم مما يصيبون من الغنائم فان المقاتلة لهم أربعة اخماس الغنيمة سوى ما يناله القاتل من سلب القتيل . وكان الامير ينفل أهل البلاء الممتازين بالغناء في الحرب والضراوة على العدو . ولقد كانت الغنائم في العراق والروم مما يغري المخلفين باللحاق باخوانهم لانها كانت شيئا كثيراً لاعهد لهم به . وحسبنا من ذلك خطبة خالد التي أغراهم فيها على العراق وافتتاحه وحيازته دون فارس وان الامر لولم يكن دينا ولم يكن الا المعاش لكان في الحق أن يجالدوهم على مافي أيديهم . وقد كان أبو بكر يسوى في العطاء بين الناس ولا يميز أحداً عن أحد ، فقيل له كيف تسوى بالسابقين الاولين غيرهم فقال أولئك قوم عملوا لانفسهم وسبقوا الى الدخول في الدين ابتغاء مرضاة الله فوقع أجرهم على الله . أما أنا فلا أفضل أحداً على أحد . وعذره في ذلك ان رسول الله ﷺ انما كان يفاضل بين الناس في العطاء لانه كان أعلم بوجوه المصلحة وأمر العطاء مردود اليه يصنع فيه ما شاء والناس يرضون منه بكل ما يجيء به فاذا حرم أحداً من أهل البلاء رجع وهو راض مكتفيا برضى الله ورسوله عنه وليس لابي بكر ما لرسول الله ﷺ

﴿ أرزاق العمال ﴾

كان يرد لبيت المال خمس الغنائم وصدقات المسلمين وجزية أهل الذمة وذلك كله مادة الخلافة يرزق الخليفة منها العمال و يعين منها المجاهدين في سبيل الله و يفض ما بقى على أهلها المعينين في كتاب الله تعالى

﴿ وفاة أبي بكر ﴾

مرض أبو بكر بالحمى لسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ . ومكث محموما ١٥ يوما وتوفي في مساء ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣ هـ (٢٢ أغسطس سنة ٦٣٤ م) فكانت مدته سنتين وثلاثة أشهر وعشر ليال ودفن في حجرة عائشة بجوار رسول الله ﷺ بعيد عنه قليلا الى الجهة الشرقية

انتخاب عمر للخلافة

لما اشتدّ على أبي بكر مرضه وأحس بدنو أجله خاف على المسلمين ان ينتشر أمرهم وتنحلّ عقدة اجتماعهم بتنازعهم حبل الخلافة . وقد رأى الناس يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد انقسموا فئتين كل منهما يجذب الخلافة الى حيزه فكان ذلك حاديا له على النظر للمسلمين والاحتياط لاجتماع كلمتهم ولم يشغله ما هو فيه عن النظر في مصلحتهم من بعده وجمع كلمتهم ، ولو ان ابا بكر ترك مركز الخلافة شاغراً لكان للتصاول عليها مجال ولشغل المسلمون عن أعدائهم بأنفسهم ولكان وجه التاريخ تغير عما هو عليه اليوم ، ولكانت فتنة القوم بالخلافة أنكى واشد من فتنة الردة ولعادت فتنة الردة جذعة واتسع الفتق على الراتق

ادار ابو بكر عينه في أصحابه يتخير منهم لهذا المنصب رجلا يكون شديداً في غير عنف ، ليناً في غير ضعف ، فوجد كثيراً من اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما يحب غير ان عمر كان افضلهم في نفسه واقربهم الى الصفة التي يجب ان يكون عليها خليفة المسلمين . وكذلك كان عمر في نفوس من استشارهم ابو بكر في امر الخلافة ومن يليها

يقول صاحب أشهر مشاهير الاسلام رحمه الله « وممن توفرت فيهم هذه الصفة من الصحابة الكرام عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ، الا أن الأول كان ربما يريد الامر فيرى في طريقه عقبة فيدور اليه ، والثاني يرى الاستقامة فلا يبالى بالعقبة تقوم بين يديه ، فهو الى الشدة أميل منه الى اللين »

أقول ان ما ذكره حضرة الفاضل في وصف الرجلين صحيح ، غير أن عدول أبي بكر عن علي الى عمر لم يكن سببه ما ذكر فحسب . والذي اعتقد أن تريث علي في بيعة أبي بكر واحتجاجه على أحقيته للامر بقرابته من رسول الله

صلى الله عليه وسلم هو الذي حدا بأبي بكر الى العدول عنه الى غيره لأنه خشي أن يجعلها ميراثاً للأعقاب على نظام الارستقراطية ، في حين أن أبا بكر كان يراها غير خاصة ببني هاشم كما يرى علي . بل قد صرح بأنه كان يود أن لو كان سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الأنصار هل لهم في هذا الأمر شيء حتى لا يكون قد غلبهم يوم السقيفة بان كان ألحن منهم بحجته فهو يود أن لو كان استبرأ لنفسه . ومن كانت هذه حاله كان أحرص على إبعادها عمن يراها تراثاً وطعمة لأهله خاصة. هذا هو الذي أظنه سبباً لما ذكر

عزم أبو بكر على اختيار عمر وأحب أن يستوثق للأمر ويوطن أصحاب رسول الله وأهل السابقة على هذا الأمر حتى لا يكون في نفس أحد منهم حفيظة ولئلا يكون قد استخلف عليهم من لا يرضونه . فسأل عبد الرحمن بن عوف فقال أخبرني عن عمر بن الخطاب فقال : ما تسألني عن أمر إلا وأنت أعلم به مني . فقال وان . فقال عبدالرحمن: هو أفضل من رأيك فيه من رجل، ولكن فيه غلظة . قال أبو بكر ذلك لأنه يراني رقيقا ،ولو أفضى الأمر اليه لترك كثيراً مما هو فيه .ثم دعا عثمان بن عفان فقال : أخبرني عن عمر. فقال أنت أخبرنا به . فقال علي ذلك يا أبا عبد الله ، أخبرني عن عمر .فقال: اللهم علمي به أن سريرته خير من علانيته وأنه ليس فينا مثله . فقال أبو بكر رحمك الله يا أباعبدالله . لا تذكرمما ذكرت لك شيئا. قال أفعلُ . فقال له بكر لو تركته ما عدوتك وما أدري لعله تاركه ، والخيرة له ألا يلي من أموركم شيئا ، ولوددت أني كنت خلوا من أموركم وأني كنت فيمن مضى من سلفكم . وسأل أسيد بن حضير فقال أسيد : اللهم أعلمه الخير بعدك يرضى للرضى ويسخط للسخط الذي يسر خير من الذي يعلن ولن يلي هذا الأمر أحد أقوى عليه منه . واستشار غير هؤلاء سعيد بن زيد وجماعة من المهاجرين والأنصار فكلهم قال خيراً وأثنى عليه

ولما تهيأ لأبي بكر ما أراد دعا عثمان بن عفان فأملى عليه :

«بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافه الى المسلمين أما بعد » ثم أغمى عليه فكتب عثمان« فاني استخلفت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيرا » ثم أفاق أبو بكر فقال اقرأ علي. فقرأ عليه فكبر أبو بكر وقال أراك خفت أن يختلف الناس ان افتلِتُّ في غشيتي. قال نعم . قال جزاك الله خيرا عن الاسلام وأهله . وأقرّها أبو بكر من هذا الموضع

قال الطبري ثم أشرف على الناس وزوجه اسماء بنت عميس ممسكته فقال لهم: أترضون بمن استخلف عليكم؟ فاني والله ما الوت من جهد الرأي ولا وليت ذا قرابة . واني قد وليت عليكم عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . فقالوا: سمعنا وأطعنا

ثم دعا أبو بكر بعمر خاليا فقال : اني مستخلفك من بعدي وموصيك بتقوى الله . ان لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل ، وانه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة فانما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم . وحُق لميزان لا يوضع فيه الا الحق أن يكون ثقيلا . وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل أن يكون خفيفا . ان الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فاذا ذكرتهم قلت اني أخاف أن لا أكون من هؤلاء. وذكر أهل النار فذكرهم بأسوأ حالهم ولم يذكر حسناتهم فاذا ذكرتهم قلت اني لأرجو أن لا أكون من هؤلاء، وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده الى التهلكة فاذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب أحب اليك من الموت وهو آتيك وان ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض اليك من الموت ولست بمعجزه

ولما خرج عمر من عنده رفع يديه وقال : اللهم اني لم أرد بذلك إلا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت أعلم به واجتهدت لهم رأيا فوليت عليهم

خيرهم واقواهم عليهم وأحرصهم على ما أرشدهم وقد حضرني من أمرك ما حضر فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك ، اصلح اللهم لهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين وأصلح له رعيته

وكان بدء خلافة عمر بن الخطاب يوم الثلاثاء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣هـ (٢٣ أغسطس سنة ٦٣٤ م)

ترجمة عمر بن الخطاب

هو عمر بن الخطاب بن نفيل من بني عدي بن كعب من بنى لؤي . وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة من بني مخزوم بن يقظة بن مرة . ولد لثلاث عشرة سنة من ميلاد رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان عمر ذا شهامة ونجدة وجرأة وشجاعة . وكانت الشجاعة الأدبية أخص أوصافه لا يخاف في الحق لومة لائم ولا يقر على كتمانه ولا يعطي هوادة في باطل يعتقد بطلانه

كان عمر في صغره يرعى على أبيه غنمه ويضم اليهن غنيمات لخالات له وقد روى ابن عساكر بسنده أن عمر مر بضجنان (اسم مكان) فقال كنت أرعى للخطاب بهذا المكان فكان فظا غليظا فكنت أرعى أحيانا وأحطب أحيانا فأصبحت أضرب الناس ليس فوقي أحد إلا رب العالمين . ثم قال :

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الاله ويودي المال والولد

ولما كبر عمر اشتغل بالتجارة في ماله وكان يذهب أحيانا الى الشام متجرا . وقد روى ابن عساكر أن بطريقا أسره بالشام واستعمله في بعض عمله فتغفله عمر وقتله وخرج هاربا من الشام . ولم يكن لعمر وفر من المال بل كان مقلا من ذلك وحرفته التجارة في الجاهلية والاسلام الى أن ولي الخلافة

كان عمر عزيز الجانب في قومه مشهوراً بالشدة وصدق العزيمة وقوة الشكيمة ، وكانت سنه حين البعثة سبعا وعشرين سنة . ولم يكن قد أشرق نور الايمان على قلبه فكان ينال المسلمين بالاذى

كان رسول الله في مبدأ أمره يتمنى أن يكون له بين المسلمين رجل له عز وشرف وصدق عزيمة يكفكف عنهم المشركين ويكون للمسلمين ردءاً من الاذى ويرى أن قريع هذه الصفات انما هو عمر بن الخطاب وعمرو بن هشام فكان يدعو الله أن يعز الاسلام بأحدهما فاستجاب الله له في عمر

ذكر في أسد الغابة بسنده قال : قال لنا عمر بن الخطاب اتحبون ان اعلمكم كيف كان بدء اسلامي؟ قلنا نعم . قال كنت من اشد الناس على رسول الله ﷺ فبينا أنا يوما في يوم حار شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة اذ لقيني رجل من قريش فقال : أين تذهب يا ابن الخطاب ؟ أنت تزعم أنك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك . قلت وما ذاك ؟ قال أختك قد صبأت . قال فرجعت مغضباً وقد كان رسول الله يجمع الرجل والرجلين اذا اسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه . وكان قد ضم الى زوج أختي رجلين . قال : فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا ؟ قلت ابن الخطاب . قال : وكان القوم جلوسا يقرأون القرآن في صحيفة معهم فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا وتركوا أو نسوا الصحيفة من أيديهم فقامت المرأة ففتحت لي فقلت يا عدوة نفسها قد بلغني أنك صبوت . قال فأرفع شيئا في يدي فاضربها به فسال الدم . فلما رأت المرأة الدم بكت ثم قالت يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد اسلمتُ . قال فدخلت وأنا مُغْضَب فجلست على السرير فنظرت فاذا بكتاب في ناحية البيت فقلت ما هذا الكتاب أعطينيه فقالت لا أعطيك لست من أهله أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تَطهَّرُ وهذا لا يمسه الا المطهرون . قال : فلم أزل بها حتى أعطتنيه فاذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم) فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورَميت بالصحيفة من يدى ثم رجعت الى نفسي فاذا فيها (سبح لله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) قال فكلما مررت باسم من اسماء الله عز وجل ذعرت ثم تراجعت الى نفسي حتى اذا بلغت (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه)

حتى بلغت الى قوله « إن كنتم مؤمنين » قال : فقلت اشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني وحمدوا الله عز وجل ، ثم قالوا : يا ابن الخطاب ابشر فان رسول الله دعا يوم الاثنين فقال « اللهم اعز الاسلام بأحد الرجلين : اما عمرو بن هشام ، واما عمر بن الخطاب . وانا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك الخ . وقد قدمنا فيما سبق نحو هذا مع اختلاف يسير

ولما أعلن عمر اسلامه في قريش اشتد الامر على القوم وكادوا يقتلونه لولا أن أجاره منهم العاص بن وائل السهمي وناله ما كان يناله المسلمون من الاذى غير انهم لم يبلغوا به مبلغهم

ولما كانت الهجرة كان الناس يخرجون متسللين لا يعلم بخروجهم أحد حتى لا تمنعهم قريش . أما عمر فأعلن انه مهاجر وقال « من أراد أن تثكله أمه وتتيم عرسه فليلقني خلف هذا الوادي » ثم خرج مهاجراً فلم يتبعه أحد

وقد شهد مع رسول الله ﷺ المشاهد كلها . وكان موفق الرأي ملهما بالصواب وكثيراً ما كان يشير على رسول الله ﷺ بالامر ثم ينزل القرآن موافقاً لما أشار به وكان هو وأبو بكر بمنزلة وزيرين لرسول الله ﷺ وقد تزوج رسول الله ﷺ بابنته حفصة وله مقامات حسان في الحدب على رسول الله ﷺ والذب عنه والشدة على من ناوأه . وقد قال رسول الله ﷺ « لقد كان فيما قبلكم من الأمم محدَّثون فان يكن في أمتي أحد فهو عمر »

ومن مقاماته المحمودة في الاسلام يوم السقيفة حين اختلفت الآراء وخشي أن يتفرق أمر المسلمين وتشب نار الفتن فأخمدها بالمبادرة الى مبايعة أبي بكر فكان عمله هذا سبباً لنجاة المسلمين من أكبر كارثة كانت تحل بهم لولا يمن نقيبته وصحة نظره بعد معونة الله تعالى . وقد كان لأبي بكر بمنزلة الوزير الاول يؤازره ويعينه ويشير عليه وكان أبو بكر يحيل عليه النظر فيما يرفع اليه من القضايا بالمدينة ،

فكان قاضياً له وان لم يتسمَّ باسم قاضٍ

﴿ أول خطبة لعمر ﴾

بعد أن بويع عمر بالخلافة بعد وفاة أبي بكر صعد المنبر فقال كلمة قصيرة اشتملت على سياسته التي اعتزم أن يسوس بها الناس فقال بعد حمد الله والثناء عليه بما هو أهله :

« انما مثل العرب كمثل جمل آنفَ اتبع قائده فلينظر قائدُه اين يقوده . أما أنا فوربِّ الكعبة لاحملنكم على الطريق »

والجمل الآنف هو الجمل الذلول المواتي الذي يأنف من الزجر والضرب ويعطي ما عنده من السير عفوا سهلا . وهذا تشخيص حسن للأمة الاسلامية لعهده فانها كانت سامعة مطواعة اذا أمرت ائتمرت ، واذا نهيت انتهت . ويتبع ذلك المسئولية الكبرى على قائدها فانه يجب عليه أن يرتاد لها ويصدر في شأنها بعقل ويورد بتمييز حتى لايورطها في خطر ولا يُقحمها في مهلكة ولايهمل شأنها اهمالا يكون من ورائه البطر . وقد أراد بالطريق الطريق الاقوم الذي لاعوج فيه . وقد برَّ بما اقسم به

فتح فارس وما كان بعد خالد

رحل خالد عن العراق كما أمره أبو بكر وشيعه المثنى ثم قال له خالد : ارجع الى سلطانك غير مقصر ولا وانٍ . وقد استقام أمر فارس على رأس سنة من مقدم خالد على شهر براز بن أردشير بن شهريار فوجه الى المثنى جنداً كثيفاً بقيادة هرمز جاذويه ومعهم فيل . وكتبت المسالح الى المثنى باقبال ذلك الجيش فخرج المثنى من الحيرة للقاء الجيش وضم اليه مسالحه وجعل على مُجَنَّبَتَيه اخويه المعَنَّى ومسعوداً وأقام ببابل . وأقبل هرمز وعلى مجنبتيه الكوكبذ والخوكبذ . وقد كتب شهر براز الى المثنى

كتاباً يقول فيه : « اني قد بعثت اليك جنداً من وخش أهل فارس . انما هم رعاة الدجاج والخنازير ولست أقاتلك الا بهم » فأجابه المثنى : انما أنت أحد رجلين إما باغ فذلك شر لك . وإما كاذب فأعظم الكذابين عقوبة وفضيحة عند الله وفي الناس الملوك . وأما الذي يدلنا عليه الرأي فانكم انما اضطررتم اليهم فالحمد لله الذي رد كيدكم الى رعاة الدجاج والخنازير » فجزع الفرس لذلك وقالوا لملكهم : جرأت علينا عدونا بالذي كتبت به اليهم ، فاذا كاتبت أحداً فاستشر

التقت جموع الفرس وجموع المسلمين ببابل بعدوة الصَّراة الدنيا وتقاتلوا قتالا شديداً . ثم ان المثنى قصد الفيل في جمع من المسلمين وكان يفرّق بين الصفوف والكراديس فأصابوا مقتلة فانهزم الفرس وتبع المسلمون فلّهم حتى جازوا بهم مسالحهم وهم يقتلون ويأسرون فيهم حتى انتهوا الى المدائن

وقد رأى المثنى ان الفرس غير تاركيه ولا بد لهم من مناجزته بجنود لاقبل له بهم نخف الى المدينة ليخبر أبا بكر بالمسلمين وما تم لهم وما يتوقعون ويستأذنه في الاستعانة بأهل الردة ممن قد ظهرت توبته وندمه ، وكان المثنى قد خلف على من كان معه بشير بن الخصاصية ، ووافق انصراف المثنى الى المدينة اضطراب الفرس في شأن ملكهم فشغلهم ذلك عن المثنى وجيشه الى أن عاد من وجهه ذاك

ولما قدم المثنى على أبي بكر وجده قد اشتد به المرض فلما أخبره الخبر قال علي بعمر فلما حضره قال اني لارجو أن أموت في يومي هذا فان أنا مت فلا تمسينّ حتى تندب الناس مع المثنى ولا تشغلنكم مصيبة وان عظمت عن أمر دينكم ووصية ربكم وقد رأيتني متوفى رسول الله ﷺ وما صنعت ولم يصب الخلق بمثله ووالله لو اني أني عن أمر الله ورسوله لخذلنا ولعاقبنا فاضطرمت المدينة ناراً . وان فتح الله على أمراء الشام فأردد أصحاب خالد الى العراق فانهم أهله وولاة أمره وحده وأهل

الضراوة بهم والجرأة عليهم

فلما فرغ عمر من أبي بكر ندب الناس مع المثنى قبل صلاة الفجر من الليلة التي مات فيها أبو بكر ، ثم أصبح فبايع الناس . ولما فرغ من أمر البيعة عاد فندب الناس الى فارس

كان الناس قد وقر في نفوسهم عظم ملك الفرس وقوة شوكتهم وظفرهم في الحروب في الجاهلية فكان حرب الفرس أثقل شيء على نفوسهم فتثاقلوا فلم ينتدب أحد لذلك الوجه وما زال عمر يندب الناس الى اليوم الرابع فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي وسعد بن عبيد الانصاري ، ثم تتابع الناس بعد ذلك وتكلم المثنى بن حارثة فقال : أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شقي السواد وشاطرناهم و نلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها إن شاء الله ما بعدها . وقام عمر فقال : ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة ولا يقوى عليه أهله الا بذلك . أين الطراء المهاجرون عن موعود الله ! سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها ، فانه قال « ليظهره على الدين كله » والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولى أهله مواريث الأمم . أين عباد الله الصالحون ؟

فكان بعد ذلك انتداب أبي عبيد . ثم ثنى سعد بن عبيد أو سليط بن قيس لما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر أمّر عليهم رجلا من السابقين من المهاجرين أو الانصار فقال : والله لا أفعل ان الله انما رفعكم بسبقكم وسرعتكم الى العدو فاذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرياسة منكم من سبق الى الدفع وأجاب الى الدعاء ، والله لا أؤمّر عليهم الا أولهم انتدابا . ثم دعا أبا عبيد وسليطا وسعدا فقال : أما انكما لو سبقتماه لوليتكما ولأدركتما بها الى مالكما من القدمة . فأمّر أبا عبيد على الجيش وقال له : اسمع من أصحاب النبي ﷺ واشركهم في الأمر ولا تجتهد مسرعا حتى تتبين ، فانها الحرب ، والحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث الذي يعرف

الفرصة والكف

عجل المثنى الى عسكره وأبو عبيد بمن معه وكانوا خمسة آلاف في اثره وصار أبو عبيد يستنفر من يمر به من العرب لقتال الفرس فأجابه بشر كثير وقد وَصَل المثنى الى الحيرة في عشر ليال وجاء أبو عبيد بعده بشهر

النمارق

كانت الفرس مشغولة عن المسلمين بموت شهر براز وصارت تولى وتعزل الى أن عاد المثنى من المدينة الى الحيرة ، وكان الفرس قد ولوا رُستم أمر حرب المسلمين فكتب الى دهاقين السواد أن يثوروا بالمسلمين ودس في كل رُستاق رجلا ليثور بأهله فبعث جابان الى البهقباذ الاسفل وبعث نَرْسى فنزل زَنْدَوَرْد وثار أهل الرساتيق من أعلى الفرات الى أسفله ـ فضم المثنى اليه مسالحه وحذر . وعجل جابان فنزل النمارق ونزل المثنى بخفَّان حتى لا يقطع عليه خط الرجعة الى أن قدم عليه أبو عبيد ونزل حتى جم الناس وماءهم من الظهر ثم تعبى ونزل على جيش جابان بالنمارق فاقتتلوا قتالا شديدا ثم انهزمت الفرس وأسر جابان ومردان شاه ـ فأما آسر مردان شاه فقتله ، وأما آسر جابان فقد خدعه جابان فقال له : انكم معاشر العرب أهل وفاء ، فهل لك أن تؤمنني وأعطيك كذا ؟ قال نعم . قال فادخلني على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه . ففعل . واجاز أبو عبيد أمانه . ولما علم بنو تميم انه الرئيس قالوا لابى عبيد اقتله . قال ماترونى فاعلا معاشر ربيعة [1] ؟ أيؤمنه صاحبكم وأقتله انا ؟ معاذ الله مالزم بعض المسلمين فقد لزمهم كلهم . وكان آسره مطَر بن فضة التميمي

(١) كذا في ابن الاثير ولعل صحتها مضر لان آسره تميمي وهم من مضر لامن ربيعة

قسم أبو عبيد الغنائم وبعث بالخمس الى عمر ثم نادى بالرحيل الى كسكر حيث ينزل نَرْسِي وهو ابن خالة كسرى . وكسكر قطيعة له وقد ضوى اليه فل جيش جابان وقد وجه اليه رستم وبوران بجيش على رأسه الجالنوس حين بلغهما هزيمة جيش جابان فرجا نرسى ومن معه أن يدركه المدد قبل منازلة المسلمين له . ولكن أبا عبيد عاجلهم وكان المثنى على تعبيته التى لقي بها جابان فاقتتلوا أسفل من كسكر بمكان يقال له السقاطية قتالا شديدا فانهزمت الفرس وفر نرسى وغلب على عسكره وأرضه وأخرب أبو عبيد ماكان حول عسكرهم من كسكر وجمع الغنائم فوجد من الاطعمة شيئا كثيرا واخذت خزائن نرسى فلم يكونوا بشيء مما في خزائنه أفرح منهم بالنرسيان لانه كان يحميه لايأكله بشر ولا يغرسه سواه وأهل بيته أو ملك الفرس فاقتسموه وجعلوا يطعمونه الفلاحين وبعثوا بخمسه الى عمر وكتبوا ان الله أطعمنا مطاعم الاكاسرة يحمونها وأحببنا أن تروها لتذكروا أنعام الله وأفضاله

وأقام أبو عبيد بكسكر وسرح المثنى وغيره من القواد يغيرون على النواحي ويفلون عصائب الجنود التى كانت متفرقة هناك وصالحه أهل بعض تلك النواحي وجاء فروخ وفرَاوِنداذ من أهل الصلح الى أبي عبيد بآنية فيها أطعمة فارس من الالوان والاخبصة وغيرها فقالوا هذه كرامة أكرمناك قرى لك . قال : أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله ؟ قالوا : لم يتيسر ونحن فاعلون . قال لاحاجة لنا في مالايسع الجند وقدم اليه آخرون مثل ذلك فأبى وقال : بئس المرء أبو عبيد ان صحب قوما من بلادهم اهرافوا دمهم دونه أو لم يهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم الا مثل مايأكل أوساطهم

وقعة الجسر

جاء خبر الهزيمة الى رستم فجهز جيشا آخر عظيما وعليه بَهْمَن جاذويه وأعطاه الراية الكبرى لفارس وهي المسماة دِرَفْش كابيان وعرضها ثمانية أذرع وطولها اثنا عشر ذراعا من جلود النمر. وأقبل أبو عبيد ونزل المِرْوَحة، موضع البرج والعاقول، فبعث اليه بهمن اما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور واما تخلوا بيننا وبين العبور - فقال من مع أبي عبيد دعهم يعبرون الينا فأبى ولج وقال لايكونون أجرأ على الموت منا. فعبروا على جسر نصبوه في مكان ضيق المطرد والمذهب فاقتتلوا يوما حتى اذا كان آخر النهار واستبطأ رجل من ثقيف الفتح أَلَّفَ بين الناس فتصالحوا بالسيوف وقصد أبو عبيد الفيل وضربه فخبط الفيل أبا عبيد وقد أسرعت السيوف في أهل فارس وأصيب منهم ستة آلاف. فلما خُبط أبو عبيد انهزم المسلمون وتموا على هزيمتهم وعمد رجل من ثقيف الى الجسر فقطعه. فانتهى الناس الى الجسر والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا في الفرات فاصيب من المسلمين أربعة آلاف من بين غريق وقتيل. وقام المثنى من خلف الناس في أهل النجدة يحمون ظهورهم ويدافعون عنهم حتى أصلح الجسر وعبر الناس ثم عبر بمن معه الى المروحة وهو جريح ومعه عدد من حماة الناس جرحى وهذه عاقبة اللجاج والمجازفة في الحرب

كان المثنى قد نصح لأبي عبيد وقال له: انك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية، تقدم على قوم قد جرؤا على الشر فعلموه و تناسوا الخير فجهلوه، فانظر كيف تكون واخزن لسانك ولا تفشين سرك فان صاحب السر ما ضبطه متحصن لا يؤتى من وجه يكرهه واذا ضيعه كان بمضيعة

هرب من الناس بشر كثير على وجوههم وافتضحوا في أنفسهم واستحيوا

مما نزل بهم وبلغ عمر من بعض من آوى الى المدينة فلم يعنف الفارين وخفف عنهم مصابهم وقال: عباد الله اللهم ان كل مسلم في حل مني انا فِئَةُ كل مسلم. يرحم الله أبا عبيد. لو كان عبر فاعتصم أو تحيز الينا ولم يستقتل لكنا له فئة

أراد أهل فارس العبور للمسلمين لما رأوا من قلتهم وضعفهم بمن قتل منهم أوشرد وأحبوا أن يستأصلوهم. فدهمهم خبر أدهمهم وصرفهم عن نيتهم. وهو أن الناس بالمدائن قد ثاروا برستم ونقضوا الذي بينهم وبينه فصاروا فرقتين: الفهلوج على رستم، وأهل فارس على الفيرزان. وقد كان بين وقعة اليرموك ووقعة الجسر أربعون يوماً

وقد أخطأ أبو عبيد رحمه الله في عبور النهر ومخالفته أصحابه وقد أمره عمر بأن يستشيرهم وينتهي الى رأيهم وهم أصحاب رسول الله وبخاصة سليط بن عمرو، ولم يسمع نصيحة المثنى وهو رجل قد خرجته الوقائع وزاده علما ما رآه من خالد اذ كان معه. وخطأ ثان ما صنعه مَرثد الثقفي من قطع الجسر على الناس فان العدو لم يحدث بهم من النكاية ما أحدثه فيهم بعمله. فكان الصديقَ الجاهل ولا ينفعه اعتذاره بأنه أراد أن يقاتل الناس على ما قاتل عليه امراؤهم فان لكل مقام مقالا. ومثل هذا القول لا يصلح في وقت الجولة. وانما يقال للقوم وصفوفهم ثابتة وآذانهم مصغية وهم في سعة من التدبر واجالة الرأي، فأما وقت الهزيمة فلا كلام

البويب

ان وقعة الجسر قد أكلت جيش المسلمين وعلم عمر أن ليس بالقوم امتناع ولا قوة اذا نازلهم العدو فشرع يبعث الامداد الى المثنى منهم جرير بن عبد الله البَجلي في بجيله وعصمة بن الحارث فيمن تبعه من قومه بني ضبة. وكتب الى أهل الردة

ولم يوافه في شعبان أحد الا رمى به المثنى فتوافى المنجدون اليه في جمع عظيم . وبلغ رستم والفيرزان ما عليه المثنى وما ينتظر من المدد . فاجتمعا على أن يبعثا مهران الهمذاني الى الحيرة . وعلم المثنى نخف الى البويب لموعد من كان بالحيرة من المسلمين وخرجوا منها حين علموا بجند مهران وقد توافت جنود المثنى ومددهم الى ذلك المكان مما يلي موضع الكوفة وبينه وبين مهران النهر . فكاتبه مهران يخيره في العبور ولكن المثنى رأى العبرة في أبي عبيد وجيشه فلم يرض أن يكون هو الذي يعبر . فعبر مهران بجنوده وكان ذلك في رمضان . فنادى المثنى انهدوا لعدوكم . وكان قد عبى جيشه تعبية خالدية . وخطب المثنى في المسلمين فقال : انكم قوم صوام والصوم مَرَقَّة مَضْعَفة ، وإني أرى من الرأي أن تفطروا ثم تقوّوا بالطعام على قتال عدوكم فافطروا . ورأى رجلا يستوفز ويستقتل من كردوسه فقال : ماشأنه ؟ قالوا قد فر يوم الجسر ويريد أن يستقتل ، فقرعه بالرمح وقال: لا أبالك الزم موقفك فاذا أتاك قِرْنك فأغنه عن صاحبك ولا تستقتل . قال اني بذلك لجدير . واستقر ولزم الصف . وسار المثنى على الرايات يقف بها راية راية يحضهم ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن مافيهم ويقول لكل قوم : اني لأرجو أن لا تؤتى العرب اليوم من قبلكم ، والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء الا وهو يسرني لعامتكم . فيجيبونه بمثل ذلك . وأنصفهم المثنى في القول والفعل وخلط الناس في المكروه والمحبوب فلم يستطع أحد أن يعيب له قولا أو عملا . وقال اذا كبرت الرابعة فاحملوا فأعجلهم أهل فارس عند التكبيرة الأولى وحمي القتال بين الفريقين واشتد فعمد المثنى الى أنس بن هلال وقال له: انك امرؤ عربي وان لم تكن على ديني فاذا رايتني حملت على مهران فاحمل معي . وذمر قوما معه وأوصى القواد بأمره وبان لايزايلوا أمكنتهم لئلا ينكشف الجيش وحمل المثنى وخالط القوم وأوغل في صفوفهم وصبر المسلمون صبرا جميلا . ولم يزل المثنى يعمل ومن معه في قلب الفرس حتى

افناه فقويت مجنبات المسلمين على من يليهم وصار المثنى يذمرهم ويحضهم حتى هزم الفرس وسبقهم المثنى الى جسرهم فقطعه لئلا يعبره أحد منهم

كان عمل المثنى هذا خطأ ، لان القوم وان كانت الهزيمة قد حقت عليهم فانهم في عدد كبير وقوة عظيمة اذا تمّ فَلُّهم في مكان ووجدوا من يقودهم وهم واجدون لامحالة ، عادت لهم قوتهم وثاب اليهم نشاطهم الى القتال ويصيرون بعد ذلك كالشوكة في جنب جيش المسلمين

قتل في هذه الوقعة مهران ، قتله بعض فتيان تغلب وكانوا مع المسلمين ، وتمت الهزيمة على الفرس بقتله ، وأخذ فل المنهزمين يصعد ويصوب اذ حلاهم المثنى عن الجسر وخيل المسلمين تتبعهم ويقتلون منهم فلم تكن وقعة من الوقائع أبقى رمة منها . وقد أصيب من حماة المسلمين عدد كبير بين قتيل وجريح . ومما يؤثر عن المثنى حكمه على نفسه في قطعه الجسر واحراجه العدو - قال : لقد عجزت عجزة وقى الله شرها بمسابقتي اياهم الى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فاني غير عائد فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس فانها كانت مني زلة . لا ينبغي احراج أحد الا من لا يقوى على الامتناع

ثم أرسل في أثر المنهزمين من اتبعهم حتى وصلوا الى السيب - كورة من سواد الكوفة - بعد أن عقد لهم جسراً . وكانت هذه الوقعة من الوقائع الكبرى التي أوقعت الرعب في قلوب أهل فارس ، واستمكن المسلمون من الغارة في السواد وانتقضت مسالح الفرس وتشتت أمرهم في تلك الناحية واجترأ المسلمون عليهم وشنوا الغارة عليهم فيما بين سورا وكسكر والصراة والفلاليج والاستانات . وقد قال عروة ابن زيد الخيل في هذه الوقعة والطبري ينسبها الى الاعور الشني :

هاجت لعروة دار الحي احزانا واستبدلت بعد عبد القيس همدانا
وقد أرانا بها والشمل مجتمع اذ بالنخيلة قتلى جند مهرانا
أيام سار المثنى بالجنود لهم فقتل القوم من رَجْلٍ وركبانا
سما لأجناد مهران وشيعته حتى أبادهم مثنى ووحدانا

ما أن رأينا أميراً بالعراق مضى مثل المثنى الذي من آل شيبانا
ان المثنى الامير القرمَ لا كذبٌ في الحرب أشجع من ليث بخفانا

وقد كان عمر من أول أمره حريصاً على تعرف حال المسلمين والوقوف على ما عليه الجند من الشؤون . فكان يعهد الى قوم من المسلمين بالكتاب اليه بكل شؤونهم وأحوالهم حتى اذا رأى خللا أو خطلا بادرهم بما يصلحهم لا تأخذه في ذلك هوادة — لان الجند والرعية انما يؤتون من قبل الاهمال والاستهانة بالخلل حتى يقوى ضعيفه ويعظم صغيره

من ذلك ان المثنى أرسل رجلين من بكر بن وائل في جند للاغارة على صفين وبها النمر وتغلب على تساند . فأغار جند المسلمين على القوم حتى اقحموا طائفة منهم في الماء فناشدوهم أن يكفوا عنهم وينادونهم الغرق الغرق . وأخذ عتيبة وفرات البكريان وهما قائدا الجند يذمران الناس ويناديانهم : تغريق بتحريق يذكر انهم بما كان من النمر وتغلب في أيام الجاهلية اذ حرقوا قوماً من بكر بن وائل في احدى الغياض . وبعد أن فرغوا من أمر القوم رجعوا الى المثنى ، وقد كانت لعمر عيون في كل جيش ، فكتب اليه العين بما قال عتبة وفرات يوم بني تغلب والنمر على صفين . فاستقدمها أمير المؤمنين وأخبراه بأنهما قالا ذلك على وجه انه مثَل وأنهما لم يقولا ذلك على وجه طلب ذَحل الجاهلية فاستحلفهما على ذلك فحلفا أنهما ما أرادا بذلك الا المثل واعزاز الاسلام فقبل منهما وصدقهما وردهما الى المثنى . فهكذا يكون حرص الامراء على صيانة أخلاق الرعية وحياطتها من تسرب الفساد اليها

كان المثنى اتخذ دليلين احدهما انبارى والآخر حيري فدله الانباري على الخنافس وكانت هذه السوق عظيمة يؤمها تجار فارس والسواد فانتهبها المثنى . ثم قدم على سوق بغداد ، أسرى اليه من ليلته ثم صبح السوق فملأ أصحابه أيديهم من الذهب والفضة وحر المتاع وتفرق الناس عن بضائعهم وقتل من كانوا يخفرون

السوق من ربيعة وقضاعة ، ثم عاد الى معسكره وكانت عسكره تصوّب وتصعد ولا حامي للبلاد منهم

ولما بلغ سويد بن قطبة العجلي ما اتيح للمثني بن حارثة من الظفر يوم مهران أحب أن يكون له من الفخر ما للمثني فكتب الى عمر يخبره بوهن الناحية التى هو فيها ويسأله أن يمده بجيش يغزو به الفرس في ذلك الوجه . فندب عمر لذلك الوجه عتبة ابن غزوان المازني من أصحاب رسول الله ﷺ وأمره على جيش فيه الفا مقاتل من المسلمين وكتب الى سويد بن قطبة يأمره بأن ينضم الى عتبة . وقد خرج عمر لتشييع الجيش واوصى عتبة فقال « ياعتبة ان اخوانك من المسلمين قد غلبوا على الحيرة وما يليها وعبرت خيلهم الفرات حتى وطئت بابل مدينة هاروت وماروت ومنازل الجبارين وان خيلهم اليوم لتُغير حتى تشارف المدائن وقد بعثتك في هذا الجيش . فاقصد قصد أهل الاهواز فاشغل أهل تلك الناحية أن يمدوا أصحابهم بناحية السواد على اخوانكم الذين هناك وقاتلهم مما يلي الاُبلة » فسار عتبة حتى أتى مكان البصرة . ولم تكن هناك يومئذ الا الخُرَيْبَة . وكانت منازل خربة وبها مسالح الفرس تمنع الأعراب من العيث في تلك الناحية . وموضع البصرة اذ ذاك حجارة سود وحصى . ثم سار حتى نزل على الاُبلة وافتتحها عنوة بعد قتال شديد وكتب الى عمر رضي الله عنه « أما بعد فان الله وله الحمد فتح علينا الاُبلة وهي مرفق سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين . واغنمنا ذهبهم وفضتهم وذراريهم . وانا كاتب اليك ببيان ذلك ان شاء الله »

ثم ان عتبة سار حتى أتى المذار واظهره الله على أهله ووقع مَرْزُبانه في يده فضرب عنقه وأخذ بِزته وفي منطقته الزمرد والياقوت وارسل بذلك الى عمر . وقد تباشر المسلمون بذلك وا كبوا على رسول عتبة يسألونه عن أهل البصرة (وكان

ذلك ابتداء اختطاطها ونزول المسلمين بها) فقال انهم يهيلون الذهب بها هيلا فرغبهم ذلك في القدوم اليها وكان ذلك قبل تمصير البصرة

ثم خرج عتبة الى فرات البصرة فافتتحها ثم الى دست ميسان فافتتحها بعد ان قاتل مرزبانها وقتله وهزم من بها من العجم ثم الى ابرقباذ فافتتحها كذلك ثم عاد الى مكانه من البصرة . وكاتب عمر يستأذنه في العود الى المدينة فاذن له . ثم أرسل بعده المغيرة بن شعبة بالبصرة مدة ثم استبدل به أبا موسى الاشعري

امر القادسية

نظر الفرس فيما دهمهم من أمر العرب الذين يجوسون خلال ديارهم ويفضون مسالحهم ويغيرون على أسواقهم ويحتوون متاجرهم وامتعتهم وضيقوا على فارس السبل في الوجه الذي هم فيه . فقالوا لرستم والفيرزان ما تنتظرون والله الا أن يَنْزَل بنا ونهلك ، والله ما جر هذا الوهن علينا غيركم يامعاشر القواد : لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم ، والله لولا ان في قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم بالقتل الساعة ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم وانه لم يبلغ من خطر كما ان تعزكما فارس على ما أنتم عليه وان تعرضاها للهلكة . ما بعد بغداد وساباط وتكريت الا المدائن ، والله لتجتمعان أو لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت

تفاوض الرجلان ومن معهما من وجوه فارس في الامر وعلموا أن كلام أهل فارس الذين كلوهم حق وقالوا انما أتينا من تمليك النساء علينا فقالا لبوران بنت كسرى (وكانت عدلا في فارس تلي ملكهم مدة الاختلاف الى أن يتفقوا) اكتبي لنا نساء كسرى وسراريه ونساء آل كسرى وسراريهم ففعلت وأرسلت اليهن فلم يبق منهن امرأة الا أتوا بها فأخذوهن بالرجال ووضعوا عليهن العذاب يستدلونهن

على رجل من آل كسرى . فقالن لم يبق الا ولد يدعى يزدجرد من ولد شهريار بن كسرى وأمه من أهل بَادُورَيَا . فأتوا بها فدلتهم عليه وكان ابن احدى وعشرين سنة فاطمأنت فارس واستوثقوا وملكوه عليهم وتبارى الرؤساء في طاعته ومعونته . فأخذ أمر القوم بعزيمة وهمة وجيش الجيوش وكتب الكتائب وسمى الجنود لكل مسلحة من المسالح التى كانت لكسرى وسد الثغور وسير جندا الى الحيرة والانبار

علم المثنى علم القوم فكاتب عمر بشأنهم وما ينتظر من انتقاض من دان له بالطاعة ممن بين ظهرانيهم . فلم يصل الكتاب الى عمر حتى انتقض أهل السواد وكفروا من لم يكن في يده عهد ومن كان له عهد فخرج المثنى على حاميته حتى نزل بذي قار وتنزل الناس باللطف حتى جاءهم كتاب عمر وفيه « أما بعد فاخرجوا من بين ظهري الاعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الاعاجم على حدود أرضكم وأرضهم ولا تدعوا في ربيعة احدا من أهل النجدات ولا فارسا الا اجتلبتموه فان أتى طائعا والا حشرتموه احملوا العرب على الجد اذ جد العجم فلتلقوا جدهم بجدكم. فاقام المثنى بمن معه بذي قار ونزل الناس بالجل وشراف الى غضي : جبال البصرة ، فكانوا في أمواه العراق من أولها الى آخرها مسالح بعضهم ينظر الى بعض ويغيث بعضهم بعضا ان كان كون وذلك في ذي القعدة سنة ١٣ ﻫ وكتب عمر – الى عماله على الكور والقبائل – أن لاتدعوا أحدا له سلاح أو فرس أو نجدة أو رأي الا انتخبتموه ثم وجهتموه الى والعجل العجل. وكان ذلك في ذي الحجة سنة ١٣ فلم يقفل من حجه حتى وافته الجنود من كل وجه وناحية . فأما القبائل التي طرقها على مكة والمدينة فقد اجتمعوا عليه بالمدينة وأما من كان على أكثر من نصف الطريق من المدينة فقد لحق بالمثنى

والذين وافوا عمر أخبروه فيمن وراءهم بالحث وترادف ورود الجنود الى ان جاء المحرم سنة ١٤ ﻫ فخرج عمر بن اجتمع اليه الى ماء يدعى صرار على ثلاثة أميال

من المدينة فعسكر به ولا يدري الناس ما يصنع عمر: يسير بهم أم يرجع الى المدينة ويؤمر عليهم رجلا آخر ، وقد رغب الناس في الوقوف على نيته

كان الناس اذا أرادوا علم شيء من عمر فهابوه أن يسألوه رموه بعبد الرحمن بن عوف أو بعثمان بن عفان . وكانوا يدعون عثمان رديفاً ـ والعرب تقول ذلك للرجل يرجونه بعد رئيسهم . فاذا أعيا عليهما ذلك الأمر فزعوا الى العباس بن عبد المطلب . فلما أرادوا معرفة نيته كلموا عثمان . فقال لعمر ما الذي تريد ؟ فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس اليه . فأخبرهم الخبر وانتظر ما يشيرون به . فقال العامة : سر وسر بنا معك

رأى عمر ذلك منهم والصواب في خلافه غير انه لم يرد أن يخالفهم لأول أمرهم بل دخل في أمرهم الى أن يخرجهم من ذلك الرأي برفق . فقال : استعدوا واعدوا فاني سائر الا أن يجيء رأى هو أمثل من ذلك . ثم بعث الى أهل الرأي فاجتمع اليه وجوه أصحاب النبي ﷺ وأعلام العرب فقال : احضروني الرأي فاني سائر . فأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلا من أصحاب رسول الله ﷺ ويقيم عمر ويرميه بالجنود فان كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون والا أعاد رجلا وندب جنداً آخر وفي ذلك ما يغيظ العدو ويقرعون المسلمون ويجيء نصر الله بانجاز موعوده ، فنادى عمر : الصلاة جامعة . فاجتمع الناس اليه وأرسل الى علي كرم الله وجهه وكان قد استخلفه على المدينة . فأتاه والى طلحة وقد بعثه على المقدمة فرجع اليه وعلى المجنبتين الزبير وعبد الرحمن بن عوف ، فقام في الناس فقال : ان الله عز وجل قد جمع على الاسلام أهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه اخواناً ، والمسلمون فيما بينهم كالجسد لايخلو منه شيء من شيء أصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين أن يكونوا وأمرهم شورى بينهم بين ذوي الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعاً لهم ومن أقام

بهذا الامر تبع لأولى رأيهم ماراأوا لهم ورضوا به لهم من مكيدة فى حرب كانوا فيه تبعاً لهم . يا أيها الناس أنى انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج . فقد رأيت أن أقيم وأبعث رجلا . وقد أحضرت هذا الامر من قدمت ومن خلفت (يريد علياً وطلحة)

أخذ عمر في اجالة الرأي في شأن من يتولى امارة الجيش وقال : أشيروا على برجل . وكان سعد بن أبي وقاص على صدقات هوازن وقد كتب اليه عمر قبل ذلك بانتخاب ذوي النجدة والرأى والسلاح فجاء كتاب سعد الى عمر وهو يستشير الناس فيمن يبعثه يقول فيه : قد انتخبت لك ألف فارس كلهم له نجدة ورأى وصاحب حيطة يحوط حريم قومه ، اليهم انتهت احساب قومهم ورأيهم . فلما قرأ عمر الكتاب قال القوم : قد وجدته . قال من هو ؟ قالوا : الأسد عادياً ، سعد ابن مالك . فانتهى عمر الى قولهم واحضره وأمره على حرب العراق . ووصاه فقال : لا يغرنك من الله ان قيل خال رسول الله ﷺ وصاحب رسول الله ، فان الله لايمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن وليس بين الله وبين أحد نسب الا طاعته ، فالناس في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الأمر الذى رأيت رسول الله ﷺ يلزمه. ووصاه بالصبر ، وسرحه فيمن اجتمع اليه وهم أربعة آلاف . وكان في ذلك الجيش حد الأمة العربية وجدها ونجدتها ورأيها . فان عمر لم يدع رئيساً ولا ذا رأي ولا ذا سلطة ولا ذا نجدة ولا خطيباً ولا شاعراً الا رماهم به ، فكانت حاشيتا الجيش تضان وجوه الناس وغررهم

وقد أمر سعداً بالمسير وقال له : اذا انتهيت الى زرود فانزل بها. وهي رمال بين الثعلبية والخزيمية على طريق الحاج الى الكوفة . فلما نزل بها تفرق الجند فيما حولها من امواه تميم وأسد . وانتظر اجتماع الناس وامر عمر . وفي ذلك الوقت توفى المثنى ابن حارثة من جراحة كانت اصابته قبل ذلك

وقد كان المثنى البادىء بأمر فارس من تلقاء نفسه وكان فارساً مغواراً صاحب مكيدة وغناء في الحرب بصيراً بقيادة الجند شديد الحذر نافذ الرأي قوي الارادة موفقاً في الحرب مظفراً على العدو حريصاً على نصرة الاسلام وظهور المسلمين على الفرس. فلما أحس بدنو أجله كتب وصيته الى سعد بن أبي وقاص يبصره فيها بأمر العجم ويلقي اليه بزبدة الوقائع التي مخضها ونتيجة خبرته وتجاربه قبله. فأوصاه أن يقاتل الفرس على حدود أرضهم على أدنى حجر من أرض العرب وأدنى مدر من أرض العجم فان يظهر الله المسلمين عليهم فلهم ما وراءهم وان تكن الأخرى فاءوا الى فئة ثم يكونون أعلم بسبيلهم وأجرأ على أرضهم الى أن يرد الله الكرة لهم. وهي وصية انضجتها الخبرة وسبكتها التجربة

سار سعد من زرود حتى نزل بشراف وأرسل المغيرة بن شعبة الى ناحية الابلة من أرض العرب وكتب الى عمر بمنزله وبمنازل الناس، فكتب اليه عمر: اذا جاءك كتابي هذا فعشر الناس (اجعلهم عشرة عشرة) وعرّف عليهم وأمر على أجنادهم وعبّهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدّرهم وهم شهود، ثم وجههم الى أصحابهم وواعدهم القادسية واضمم اليك المغيرة بن شعبة في خيله واكتب الي بالذي يستقر عليه أمرهم. فأرسل سعد الى المغيرة فانضم اليه ودعا برؤساء القبائل فأتوه. فقدر الناس وعباهم بشراف وعرف العرفاء فعرف على كل عشرة رجلا كما كانت العرافات أيام رسول الله ﷺ وأمر الامراء. وأمر على الرايات رجالا من أهل السابقة. وعشر الناس وأمر على الأعشار رجالا من الناس لهم وسائل في الاسلام وولى الحروب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها

فكان أمراء التعبية يلون الأمير. ويليهم أمراء الاعشار ثم أصحاب الرايات ثم القواد رءوس القبائل، ولم يفصل سعد من شراف الا على تعبية وباذن من عمر. وقد بعث عمر اليهم الاطباء وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن بن ربيعة

الباهلي وجعل اليه الاقباض وقسمة الفيء وجعل داعيتهم ورائدهم سلمان الفارسي

فلما فرغ سعد من تعبيته وأعد لكل شيء من أمره جمّاعا ورأسا كتب الى عمر بذلك. وكان في تلك الاثناء ـ قبل اذن عمر في الارتحال الى القادسيه ـ قدوم المعنى بن حارثة وسلمى بنت خصفة الى سعد بوصية المثنى. وكان السبب في ابطائهما مع أمر المثنى لهما بالتعجل الى سعد ان الازاد مرد بعث قابوس بن قابوس بن المنذر الى القادسية وقال: ادعُ العرب وانت ملك على من أجابك كما كان آباؤك. فلما علم المعنى به أسرى اليه حتى بيته ومن معه فأنامهم فشغله ذلك عن الاسراع الى سعد بزرود فلما وقف سعد على الوصية ترحم عليه وولى المعنى على عمله وأوصى بأهل بيته خيراً. وتزوج سلمى بعد انقضاء عدتها. وكان في جيش سعد بضعة وسبعون بدْرياً وثلاثمائة وبضعة عشر ممن كانت له صحبة فيما بين بيعة الرضوان فما فوق وثلاثمائة ممن شهد الفتح وسبعمائة من ابناء الصحابة من جميع أحياء العرب

وكان كتاب عمر الى سعد وهو بشراف «أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله. واعلم فيما لديك انك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة وبأسهم شديد، وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤود لبحوره وفيوضه ودآدئه الا أن توافقوا غيضاً من فيض. واذا لقيتم القوم أو أحداً منهم فابدؤهم الشد والضرب وإياكم والمناظرة بجموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم الا أن تجادّوهم. واذا انتهيت الى القادسية والقادسيةُ باب فارس في الجاهلية، وهي أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يردونه من تلك الاصول وهو منزل رغيب خصيب حصين دونه قناطر وانهار مقنعة. فتكون مسالحك على انقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما. ثم الزم مكانك فلا تبرحه فانهم اذا أحسوك انفضهم ورموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدّهم وجدهم فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله

ونويتم الامانة رجوت أن تنصروا عليهم ثم لايجتمع لكم مثلهم أبداً الا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم . وان تكن الأخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها اجرأ وبها أعلم وكانوا عنها أجبن وبها أجهل حتى يأتي الله بالفتح عليهم ويرد لكم الكرة

وكتب اليه أيضاً باليوم الذي يرتحل فيه من شراف ـ وكانت الكتب متواصلة مترادفة بين سعد وعمر رضي الله عنهما

وقد جاء الى سعد كتاب عمر يقول له فيه « وا كتب الي اين بلغ جمعهم ، ومن رأسهم الذي يلي مصادمتكم . فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر أمركم عليه . فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم وبين المدائن صفة كأني أنظر اليها . واجعلني من أمركم على الجلية »

فكتب اليه سعد بصفة البلدان يقول : القادسية بين الخندق والعقيق (١) وان ما عن يسار القادسية بحر أخضر في جوف لاحٍ (٢) الى الحيرة بين طريقين فأما أحدهما فعلى الظهر ، وأما الآخر فعلى شاطيء النهر يدعى الحَضُوض (٣) يطلع بمن سلكه على ما بين الخورنق (٤) والحيرة . وان ما على يمين القادسية الى الوَلَجَة فيض من فيوض مياههم . وان جميع من صالح المسلمين من اهل السواد قِبَلي إلبٌ لاهل فارس . قد خفوا لهم واستعدوا لنا وان الذي أعدوا لمصادمتنا رُستم في أمثال له منهم . فهم يحاولون انغاضنا وإقحامنا ونحن نحاول انغاضهم وابرازهم وأمر الله بعدُ ماضٍ وقضاؤه مسلم الى ماقدّر لنا وعلينا ، فنسأل الله خير القضاء وخير القدر في عافية

(١) الخندق حفير لسابور الملك ببرية الكوفة ، والعقيق نهر

(٢) ضيق (٣) كصبور نهر كان بين القادسية والحيرة

(٤) كفدوكس قصر للنعمان الاكبر ، معرب خورنگاه ، اي موضع الاكل

فكتب اليه عمر « قد جاءني كتابك وفهمته . فاقم بمكانك حتى يُنفِض الله لك عدوك و اعلم ان لها مابعدها ، فن منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فانه خرابها ان شاء الله » ثم كتب الى سعد « اني قد ألقي في روعي انكم اذا لقيتم العدو وهزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب أحد منكم أحداً من العجم بامان أو قرّفه باشارة أو بلسان كان لا يدري الاعجمي ما كلمه به وكان عندهم أمانا فأجروا ذلك له مجرى الامان واياكم والضحك والوفاء الوفاء ، فان الخطأ بالوفاء بقية وان الخطأ بالغدر الهلكة وفيها وَهْنُكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم واقبال ريحهم . واعلموا أني أحذركم ان تكونوا شيناً على المسلمين وسببا لتوهينهم

ولما نزل سعد عذيب الهجانات بث الغارات وكان من ذلك سرية فيها الشماخ الشاعر القيسي في ثلاثين معروفين بالنجدة والباس وأميرهم بُكَيْر بن عبد الله الليثي وسرحهم في جوف الليل وأمرهم بالغارة على الحيرة فسروا حتى جاوزوا السليحين وقطعوا جسرها يريدون الحيرة فسمعوا جلبة فأحجموا عن الاقدام وأقاموا كميناً فمرت بهم خيل تقدم تلك الغوغاء فتركوها فنفذت الطريق . واذا أخت أزاذ مَرْدَبن أزاذبه مرزبان الحيرة تزف الى صاحب الصِّنِّين وكان من أشراف العجم . فلما انقطعت الخيل عن الزواف والمسلمون كمين في النخل وجازت بهم الاثقال حمل بُكَيْر على شير زاد بن أزاذبة فقصم صلبه وطارت الخيل على وجوهها . واحتوى المسلمون الاثقال وابنة الازاذبه وثلاثين امرأة من نساء الدهاقين ومائة امرأة من التوابع ومما لايدرى قيمته ثم عاجوا فصبحوا سعدا بعذيب الهجانات بما أفاء الله على المسلمين فكبر المسلمون تكبيرة شديدة . فقال سعد أقسم بالله لقد كبرتم تكبيرة قوم عرفت فيهم العز . ثم فض الغنيمة في المجاهدين بعد ان نفل الخمس وأعطاهم بقيته ، فوقع ذلك منهم موقعاً

كان كثير من المسلمين يرحلون الى الغزو بحريمهم وعيالاتهم وذراريهم فانزل سعد حريمهم في حامية وأمّر عليهم غالب بن عبد الله الليثي ونزل سعد بالقادسية

كانت الفرس تنظر الى رستم نظر المستغيث الى مغيثه وكانت العرب من حين نزولهم الى القادسية يبثون السرايا فتغير على النعم والدواب وكانوا في قرم الى اللحم أما الشعير والحنطة وما ينفع من الحب فقد كان عندهم من ذلك مايغنيهم أياما طويلة لولم يأتهم منه شيء . وكانوا يسمون الايام بأسماء مايأتيهم من اللحمان كيوم الأباقر ويوم الحيتان . فلما تواترت منهم الاغارات في السواد على دواب الفرس ومن معهم واغتنام مواشيهم ، كتب أهل السواد وعظماء فارس ممن كان له ملك بنواحيهم الى يزدجرد وعجوا اليه بالشكوى من العرب وما يعترونهم به من النكبات قائلين : ان العرب قد نزلوا القادسية بأمر ليس يشبه الا الحرب وان فعلَ العربِ مذ نزلوها لايبقى على شيء وقد أخربوا ما بينهم وبين الفرات وليس فيما هنالك أنيس الا في الحصون وقد ذهب الدواب وكل شيء لم تحتمله الحصون من الاطعمة ولم يبق الا أن يستنزلونا ، فان أبطأ عنا الغياث أعطيناهم بأيدينا

وكتب اليه بذلك الملوك الذين لهم ضياع بالطف وهيجوه على بعثة رُستَم

أرسل يزدجرد الى رستم فلما جاء قال له : اني اريد أن أوجهك في هذا الوجه وانما يعد للامور على قدرها وأنت رجلُ أهل فارس اليوم وقد ترى ماجاء أهل فارس من أمر لم يأتهم مثله منذ ولي آل أردشير . فأراه ان قد قبل منه وأثنى عليه

ان اشتراك الملوك مع القواد في شؤنهم اذا كانوا غير مضطلعين بالحرب عارفين بكل مايلزم لها لايعود الا بالخيبة والخسار . وهذه العادة الرديئة قد خذلت قوادا من أحسن القواد خبرة وأغزرهم علما بالحرب وفنونها ومكايدها . فكانت وبالا على الدول . ونحن لم نزل نسمع ما يقوله الخبراء عن ادارة الحرب الروسية العثمانية سنة ١٢٩٤ـ١٢٩٥هـ انما كان أكبر أسباب الخذلان فيها أن القواد لم يكونوا أحرارا

في عملهم من تقدم أو تأخر بحسب مايستلزم الميدان وتقتضيه الاحوال . بل كانت الاوامر تصدر الى القواد من الاستانة

من ذلك أن يزدجرد قال لرستم : صف لى العرب وفعلهم منذ نزلوا القادسية وصف لى العجم وما يلقون منهم . فقال رستم : صفة ذئاب صادفت غرة من رعاء فأفسدت . فقال: ليس كذلك اني انما سألتك رجاء أن تعرب صفتهم فأقويك لتعمل على قدر ذلك فلم تصب . فافهم عنى . انما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوي اليه الطير بالليل فتبيت في سفحه في أوكارها . فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها فان شذ منها شيء اختطفه فلما أبصرته الطير لم تنهض من مخافته . وجعلت كلما شذ منها طائر اختطفه . فلو نهضت نهضة واحدة ردته . وأشد شيء يكون في ذلك أن تنجو كلها الا واحدا وان اختلفت لم تنهض فرقة الا هلكت . فهذا مثلهم ومثل الاعاجم ، فاعمل على قدر ذلك ـ فقال له رستم : أيها الملك دعنى فان العرب لاتزال تهاب العجم مالم تُضْرِهِم بى ولعل الدولة أن تثبت بى فيكون الله قد كفى ونكون قد أصبنا المكيدة ورأى الحرب . فان الرأى فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر . فأبى عليه وقال: أى شيء بقى ؟ فقال رستم : ان الاناة في الحرب خير من العجلة وللاناة اليوم موضع . وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا . فلج وأبى فخرج حتى انزل عسكره بساباط

رأى رستم انه يسير في الحرب برأي غيره ويعمل فيها بمشورة سواه الغائب عنها الجاهل بها فأراد ان يستعفى يزدجر من قيادة الجيش في هذا الوجه واختلفت منه الى الملك الرسل ليرى موضعا لاعفائه وبعثة غيره فلم يُنله الملك أماربه

قد يقال ان عمر كان يوافى سعدا بالنصائح والاوامر ولا ينتقل من موضعه الذي يكون فيه الا بأمر منه ، فلماذا لم يكن هذا توهينا لامر سعد ؟ والجواب على هذا أن عمر كان من أهل المكيدة في الحرب والرأي الراجح والبصر النافذ فيها . وهويخشى

أن يتورط سعد فيما تورط فيه أبو عبيد يوم الجسر . فكان يحذره مثل ذلك . ولما صار سعد مع العجم وجهاً لوجه . لم يكن ليأمره بشيء من أمر الحرب لانه أعلم بها من الغائب عنها . والدليل على ان عمر كان ضليعا بالحرب ذا كفاءة للقيادة ان أبا بكر رضي الله عنه كان يندم على انه حين صرف خالد بن الوليد عن العراق الى الشام لم يكن قد ولى عمر مكانه فجعله بحيال فارس . وكانت كل أوامر عمر تصدر الى القائد بأخذ الحيطة والاحتراس والتأني والحث على الصبر والعدل والزهد في الدنيا ونحو ذلك مما هو بمنزلة المدد للجيش ، والفرق بين الفرضين واضح

خرج رستم حتى نزل بساباط واجتمع اليه الجند . وجاء العيون الى سعد بذلك من قبل الحيرة وبني صلوبا . فاعلم عمر بذلك . وكثرت الاستغاثة على يزدجرد من أهل السواد وعليهم الا زاذمرد بن الازاذ به الذي جشمت نفسه وكان ضيقا لجوجا فاستحث رستم فقال له : أيها الملك لقد اضطرني تضييع الرأي الى اعظام نفسي وتزكيتها ولو أجد من ذلك بدا لم اتكلم به فأنشدك الله في أهلك ونفسك وملكك. دعني اقم بعسكري واسرح الجالينوس : فان تكن لنا فذلك ، والا فأنا على رجل وأبعث غيره حتى اذا لم نجد بداً ولا حيلة صبرنا لهم وقد وهناهم وحسرناهم ونحن جامُّون . فأبى الا أن يسير . فكتب الى فارس وعظمائها أن يرمّوا حصونهم وان يعدوا ويستعدوا ، وقال في كتابه فكأنكم بالعرب قد وردوا بلادكم ، وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم

ولما بلغ عمر ان كسرى ولى رستم بن الفَرُّخْزَاذ حرب المسلمين وفصول رستم بالجند الى ساباط كتب الى سعد : لايكرُبَنَّك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل عليه وابعث اليه رجالا من أهل المنظرة والرأي يدعونه فان الله جاعل دعاءهم توهينا لهم وفلَجا عليهم . وا كتب الي في كل يوم

ولما جاء أمر عمر الى سعد اختار من جنده قوما عليهم نِجار و آخرين لهم آراء .

فأما الاولون فالنعمان بن مقَرّن . و بُسْر بن أبي رُهم ، وَحَمَلَة بن جُوَيّة الكِناني ، وحنظلة بن الربيع التميمي ، وفُرات بن حيان العجلي ، وعدى بن سهيل ، والمغيرة بن زرارة ، وأما الآخرون ، فعطارد بن حاجب ، والاشعث بن قيس ، والحارث بن حسان ، وعاصم ابن عمرو . وعمرو بن معديكرب ، والمغيره بن شعبة ، والمُعَنّى بن حارثة فبعثهم دعاة الى الملك كسرى يزدجرد فسار القوم حتى وصلوا الى المدائن واستأذنوا فحبسوا ، وبعث يزدجرد الى وزرائه ووجوه أرضه يستشيرهم فيما يصنع بهم ويقوله لهم . وسمع بهم الناس فحضروهم ينظرون اليهم وعليهم المقطعات والبرود وفي أيديهم سياط دقاق وفي أرجلهم النعال وبعد ان اجلسهم قال للترجمان : سلهم ماجاء بكم وما دعاكم الى غزونا والولوع بيلادنا ؟ امن اجل انا أجممنا كم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا ؟ فرد عليه النعمان بن مقرّن وكان رئيس الوفد : ان شئتم أجبت عنكم ومن شاء آثرته . فقالوا بل تكلم . وقالوا الملك : كلام هذا الرجل كلامنا . فقال النعمان : ان الله رحمنا فارسل الينا رسولا يدلنا على الخير ويأمرنا به ويعرفنا الشر وينهانا عنه ووعدنا على اجابته خير الدنيا والآخرة فلم يَدْعُ الى ذلك قبيلة الا صاروا فرقتين فرقة تقاربه وفرقة تباعده ولا يدخل معه في دينه الا الخواص ، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث ثم أمر ان ينبذ الى من خالفه من العرب وبدأ بهم وفعل فدخلوا معه جميعاً على وجهين مكره عليه فاغتبط وطائع أتاه فازداد ، فعرفنا جميعا فضل ماجاء به على الذي كنا عليه من العداوة والضيق . ثم أمرنا بأن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم الى الانصاف فنحن ندعوكم الى ديننا وهو دين حسَّن الحسن وقبّح القبيح كله فان أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شرٍّ منه الجزاء فان أبيتم فالمناجزة فان أجبتم الى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله واقمنا كم عليه على ان تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم وان اتقيتمونا بالجِزاء قبلنا ومنعنا كم والا قاتلنا كم . فقال يزدجرد : اني لا أعلم في الارض أمة كانت اشقى ولا أقل عددا ولا اسوأ ذات بين منكم . قد كنا نوكل

بكم قرى الضواحي فيكفوننا اياكم لا نغزوكم فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فان كان عدد لحق فلا يغرنكم منا وان كان الجهد قد دعاكم فرضنا لكم قوتاً الى خصبكم واكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم. فسكت القوم

فقام المغيرة بن زرارة الاسيدى فقال: أيها الملك ان هؤلاء رؤوس العرب ووجوههم وهم أشراف يستحيون من الاشراف، وانما يكرم الاشراف الاشراف ويعظم حقوق الاشراف الاشراف، ويفخم الاشراف الاشراف. وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك. ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه. وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم الا ذلك، فجاوبني لاكون الذى ابلغك ويشهدون على ذلك. أما ماذكرت من سوء الحال فما كان أحد أسوأ حالا منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات فنرى ذلك طعامنا. وأما المنازل فانما هي ظهر الارض ولا نلبس الا ماغزلنا من أوبار الابل وأشعار الغنم. ديننا أن يقتل بعضنا بعضا ويغير بعضنا على بعض وان كان أحدنا ليدفن ابنته حية كراهية أن تأكل من طعامنا فكانت حالنا قبل اليوم على ماذكرت فبعث الله الينا رجلا معروفا نعرف نسبه ونعرف وجهه ومولده. فأرضه خير من أرضنا وحسبه خير من حسبنا وبيته أعظم بيوتنا وقبيلته خير قبائلنا وهو بنفسه كان خيرنا في الحال التي كان فيها أصدقنا وأحلمنا. فدعانا الى أمر فلم يجبه أحد أول من ترب كان له وكان الخليفة من بعده فقال وقلنا وصدق وكذبنا وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئا الا كان. فقذف الله في قلوبنا التصديق له واتباعه. فصار فيما بيننا وبين رب العالمين فما قال لنا فهو قول الله وما أمرنا فهو أمر الله فقال لنا ان ربكم يقول: انى أنا الله وحدى لاشريك لى كنت اذ لم يكن شيء. وكل شيء هالك الا وجهى وأنا خلقت كل شيء. والىّ يصير كل شيء وان رحمتي أدركتكم فبعثت اليكم هذا الرجل لادلكم على السبيل التى بها انجيكم بعد الموت من عذابى ولاحلكم دارى. دار

السلام فنشهد عليه انه جاء بالحق من عند الحق . وقال من تابعكم على هـذا فله مالكم وعليه ماعليكم . ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه انفسكم ومن أبى فقاتلوه فانا الحكم بينكم فمن قتل منكم ادخلته جنتي ومن بقي منكم اعقبته النصر على من ناوأه * فاختر ان شئت الجزية عن يد وأنت صاغر ، وان شئت فالسيف ، أو تسلم فتنجي نفسك

أصابت الكلمات مكان العزة من نفس كسرى يزدجرد ورأى كبيراً عليه ان ينابذ اليه بالقتال ـ وهو شاهانشاه الواسع الملك العزيز الجانب المهيب السطوة ـ من قوم ظلوا مستضعفين لا آبائه طول حياتهم لايأبه لامتلاك أرضهم طامع . ولا ترغب نفس أحد الملوك في التغلب عليهم لقحولة أرضهم وقلة ريفها وسوء عيشهم فيها وقلتهم وذلتهم . وأقل عبد من عبيده أبهى منهم رواء وأحسن منظراً وهو أقوى منهم ناصراً وأكثر عددا ـ وهاجه منهم أن يستقبلوه بطلب الجزية يؤديها صاغراً فعل الذليل المستضعف ، والحقير المستضام . فقال محنقاً : أتستقبلني بمثل هذا ؟ فقال : ما استقبلت الا من كلمني ولو كلمني غيرك لم استقبلك به . فقال كسري : لولا ان الرسل لاتقتل لقتلتكم ، لاشيء لكم عندي . ثم قال : ائتوني بوقر من تراب فاحملوه على أشرف هؤلاء ، ثم سوقوه حتى يخرج من المدائن . ارجعوا الى صاحبكم فاعلموه اني مرسل اليه رستم حتى يدفنكم ويدفنه في خندق القادسية وينكل بكم وبه من بعد ثم أوردكم بلادكم حتى اشغلكم في انفسكم بأشد مما نالكم . ثم قال : من اشرفكم ؟ فقال عاصم بن عمرو : أنا . فحملوه وقر التراب على عنقه فحمله حتى أتى راحلته فحمله عليها ثم سار هو وأصحابه حتى أتى الى سعد بالتراب متفائلين بالظفر متأولين ان كسرى اعطاهم أرضه . وانما قصد كسرى أن يعطيهم التراب من الجزية ولا ينالون منه الا المذلة التي تكون بحمل التراب

وقد جهد رستم حين بلغه ما صنع كسرى أن يلحق عسكراً بحامل التراب ليأخذوه منه فأخبر بأنه فاتهم الى المسلمين فاهمه ذلك ورآه فألَ سوء عليهم . وكان

يتعاطى العيافة والتنجيم واعتدّها من سوء فعل الملك

وفي الوقت الذي قرب فيه جيش رستم كان سعد قد بث الطلائع لاستطلاع أحوال الفرس وتقدم اليهم أن يأتوه برجل من الفرس يعلمه علمهم وكان فيمن ذهب الى هذا الوجه عمرو بن معد يكرب الزُّبَيْدي وطليحة بن خويلد الاسدي ـ الذي كان متنبئاً في بني أسد أيام الردة ـ فلما رأوا عسكر الفرس وكانوا لايعلمون بمقدمهم لم يشأ طليحة أن يعود الى معسكر المسلمين . فقال له أصحابه ماتريد ؟ قال أريد أن أخاطر القوم أو أهلك . فقالوا : أنت رجل في نفسك غدر ولن تُفلح بعد قتلك عكاشة بن مِحصن . فارجع بنا . فأبى ومضى حتى دخل عسكر رستم وبات فيه يجوسه وينظر ويتوسم . فلما أدبر الليل أتى في ناحية العسكر فاذا فرس لم ير في خيل القوم مثله فانتضى سيفه فقطع مقود الفرس ثم ضمه الى مقود فرسه ثم حرك فرسه فخرج يعدو به . ونُذر به عسكر الفرس فتنادوا وركبوا الصعبة والذلول في طلبه ، وأصبح وقد لحقه فارس من الجند فبعد مصاولة قليلة قتله طليحة ثم لحق به آخر فسقاه بكأس الاول ثم لحق به ثالث فما زال يصاول حتى استأسر الفارسي فسار حتى غشي عسكر المسلمين فجاء الى سعد . فلما انتهى اليه قال له : ماوراءك ؟ قال دخلت عساكرهم وجُستُها منذ الليلة وقد أخذت أفضلهم توسماً وما أدري أصبت أم أخطأت ؟ وها هو ذا . فاستخبره وأمنه على دمه ان صدقه فأصحح له بذلك . فقال أخبركم عن صاحبكم قبل أن أخبركم عمن قبلي . باشرت الحروب وغشيتها وسمعت بالابطال ولقيتها منذ أنا غلام الى أن بلغت ما ترى . ولم أر ولم أسمع بمثل هذا . ان رجلا قطع عسكرين لايجتريء عليهما الأبطال (وكان طليحة قد جاز عسكر الجالينوس وعسكر ذي الحاجب الى عسكر رستم) الى عسكر فيه سبعون ألفاً يخدم الواحد منهم الخمسة الى العشرة فما دون ، فلم يرض أن يخرج كما دخل حتى سلب فارس الجند وهتك أطناب بيته فأنذره فأنذرنا به فطلبناه فأدركه الاول وهو فارس الناس يعدل ألف فارس فقتله فأدركه الثاني وهو نظيره فقتله ثم أدركته لا أظنُّني

خلفت بعدي من يعدلني وأنا الثائر بالقتيلين وهما ابنا عمي فرأيت الموت فاستأمرت. ثم اخبره عن أهل فارس بأن الجند عشرون ومائة ألف وبان الاتباع مثلهم خدام لهم ، وأسلم الرجل وسمى مسلما وكان من أهل البلاء

كان بين خروج رستم من المدائن الى أن لقي سعداً أربعة أشهر لايقدم ولا يقاتل رجاء أن يضجر المسلمون بمكانهم وأن يجهدوا فينصرفوا وكره قتالهم مخافة أن يلقى ما لقى من قبله وطاولهم . وجعل الملك يستحثه و ينهضه ويقدمه حتى أقحمه

كان على مقدمة سعد زهرة بن الحَوِيَّة وعلى مجنبتيه عبد الله بن المُعْتَم وشرحبيل بن السمط الكندي وعلى مجردته عاصم بن عمرو وعلى المرامية والرجل قائدان من أهل النجدة وعلى الطلائع سواد بن مالك . وعلى مقدمة رستم الجالينوس وعلى مجنبتيه الهرمُزان ومهران وعلى المجردة ذو الحاجب وعلى الطلائع الفيرُزان وعلى الرجالة زاذ بن بهيش . فلما انتهى رستم الى العقيق نزل عليه بحيال عسكر سعد وتلاحق به العسكر حتى تكاملوا وأخذوا منازلهم والمسلمون ممسكون عنهم ، وكان مع رستم ثلاثة وثلاثون فيلا مُضَرَّاةً بالحرب

ولما أصبح رستمساير العقيق ليَحْزُرَ المسلمين ويعرف مقدار عددهم حتى انتهى الى منقطع العسكر . وأرسل الى زهرة قائد مقدمة المسلمين فخرج اليه حتى وافقه . فاراده على الصلح ويجعل له جعلا على أن ينصرفوا عنه وجعل يقول : أنتم جيراننا وقد كانت طائفة منكم في سلطاننا فكنا نحسن جوارهم ونكف الاذى عنهم ونوليهم المرافق الكثيرة ونحفظهم في أهل باديتهم . فنرعيهم مراعينا ونَميرهم من بلادنا ولا نمنعهم من التجارة في شيء من أرضنا وقد كان لهم في ذلك معاش . يُعَرِّض لهم بالصلح ولا يصرح . فقال له زهرة : صدقت قد كان ماتذكر وليس أمرنا أمر أولئك ولا طلبتنا طلبتهم . اننا لم نأتكم لطلب الدنيا انما طلبتنا وهمتنا

الآخرة كنا كما ذكرت يدين لكم من ورد عليكم منا ونضرع اليكم بطلب ما في ايديكم . ثم بعث الله تبارك وتعالى الينا رسولا فدعانا الى ربه فأجبناه فقال الله لنبيه ﷺ اني قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بديني فانا منتقم بهم منهم واجعل لهم الغلبة عليهم ما داموا مقرين به وهو دين الحق لا يرغب عنه أحد الا ذل ولا يعتصم به أحد الا عز . فقال رستم : وما هو قال أما عموده الذي لا يصلح منه شيء الا به فشهادة ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله والاقرار بما جاء من عند الله تعالى. قال: ما أحسن هذا ? وأي شيء أيضاً ? قال واخراج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله . قال حسن وأي شيء أيضا ? قال والناس بنو آدم وحواء اخوة لاب وأم . قال ما أحسن هذا . ثم قال له رستم : أرأيت لو أني رضيت بهذا الامر وأجبتكم اليه ومعي قومي ، كيف يكون أمركم ، أترجعون ? قال أي والله ثم لا نقرب بلادكم أبداً الا في تجارة أو حاجة . قال صدقتني

لم يكن استرسال رستم معه في الكلام هذا الاسترسال عن اقتناع أو رضى بما يقول وانما كان خديعة ليأتي زهرة بآخر ماعنده ويعرض عليه منتهى أمانيه وأماني القوم الذين هو منهم ، ويدل على ذلك قول رستم له بعد ذلك : والله ان أهل فارس منذ ولي أردشير لم يدعوا أحداً يخرج من عمله من السفْلة · كانوا يقولون اذا خرجوا من أعمالهم تعدوا طورهم وعادوا الى أشرافهم . فقال له زهرة نحن خير الناس للناس فلا نستطيع ان نكون كما تقولون . نطيع الله في السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا

ان الكلام الحق لابد ان يترك في النفس اثراً ، مهما حاول الانسان مقاومته ، فلما انصرف رستم الى قومه دعا رجال فارس فذاكرهم مادار بينه وبين زهرة فحَمَوْا من ذلك وانفوا ونالوا منه ونال منهم

أرسل سعد الى المغيرة بن شعبة وبسر بن أبي رهم وعرفجه بن هرثمة وحذيفة ابن مُحصَن وربعيّ بن عامر . وقرفة بن زاهر الوائلي . ومذعور بن عدي العجلي .

ومعبد بن مرة العجلي . والمضارب بن يزيد العجلي . وكان معبد من دهاة العرب فقال اني مرسلكم الى هؤلاء القوم فما عندكم ، قالوا جميعاً نتبع ماتأمرنا به وننتهي اليه فاذا جاءنا أمر لم يكن منك فيه شيء نظرنا أمثَلَ ما ينبغي وانفعه للناس فكلمناهم به ، فقال سعد : هذا فعل الحزَمَة . اذهبوا فتهيأوا . فقال ربعيّ بن عامر : ان الاعاجم لهم آراء وآداب ومتى جئناهم جميعاً يروا انا قد احتفلنا بهم فلا تزدهم على رجل فما لؤوه على ذلك ، فقال : سرحوني ، فسرحه حتى دخل على عسكر رستم فحبسه العسكر حتى جاء اذن رستم فيه وقد أظهر رستم الزينة و بسط البسط والنمارق وجلس رستم على سرير الذهب ولبس زينته . وأقبل ربعي على فرس له زباء قصيرة ومعه سيف مشوفٌ وغمده لفافة ثوب خلَق ورمحه معلوب . ومعه حَجَفة من جلود البقر على وجهها قرص جلد أحمر مثل الرغيف ومعه قوسه ونبله ورمحه وعليه درع له كانها اضاة ويلمَمَةٌ . عباءة بعيره قدجابها وتدرعها وشدها على وسطه بسَلَب وقد شد رأسه بمِعْجَرَته وهي نِسعْة بعيره ولرأسه أربع ضفائر كانها قرون الوعلة . ولم ينزل عن فرسه الا على البساط : ثم أرادوه على وضع سلاحه فأبى أن يأتيهم الا كما يريد والا رجع ـ وأراد أن يستحرجهم فاقبل يمشي وهو يتوكأ على رمحه وزُجُّه نصل قارب الخطو وزُجُّ الرمح يهتك النمارق والبسط

ولما دنا من رستم تعلق به الحرس وجلس على الأرض . وركز رمحه بالبساط فقالوا له : ماحملك على هذا ؟ فقال : لا نستحب الجلوس على زينتكم هذه ، فقال له رستم : ما جاء بكم ؟ فقال الله ابتعثنا والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام . فأرسلنا بدينه الى خلقه لِندْعوهم اليه . فمن قبل ذلك قبلنا ذلك منه ورجعنا عنه وتركناه وأرضه يليها دوننا ، ومن أبى قاتلناه أبدا حتى نفضي الى موعود الله . قال وما موعود الله ؟ قال : الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي . فقال رستم قد سمعت مقالتكم . فهل لكم أن تؤخروا هذا الامر حتى ننظر فيه وتنظروا

قال نعم ، كم أَحَبُّ اليك ؟ أيوماً أم يومين ؟ قال : لا بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا . وأراد مقاربته ومدافعته . فقال : مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا أن لا نمكن الاعداء من آذاننا ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث فنحن مترددون عنكم ثلاثا فانظر في أمرك وأمرهم واختر واحدة من ثلاث بعد الاجل . اختر الاسلام وندعك وأرضك أو الجزاء فنقبل ونكف عنك وان كنت عن نصرنا غنياً تركناك منه . وان كنت اليه محتاجاً منعناك أو المنابذة في اليوم الرابع ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع الأن تبدأنا أنا كفيل لك بذلك على أصحابي ، وعلى من ترى . وكأن رستم عد غريباً ان يضمن له هذا الرجلُ الزري الهيئة سكون الجيش الى اليوم الرابع ، فقال له : أسيدهم أنت ؟ قال : لا ، ولكن المسلمين كالجسد بعضهم من بعض يجير أدناهم على اعلاهم

كان رستم قد قارن بين ما قال زهرة وما قاله ربعيّ بن عامر . فرأى اتحادا في الكلمة وصدقا في اللهجة . وفي اعتقادي انه أراد أن يصرف القوم عن بلاده بأي الوسائل وفي نيته أن يخدعهم بقبول دينهم ويصرفهم عن وجههم بكلمة ينطقها ثم يكون على ما عليه قومه . ولو وجد من فارس من يعينه على رأيه لفعل . ولكنه خلص الى أهل فارس ورؤسائهم فقال ما ترون ؟ هل رأيتم كلاما قط أ. ‍لا أعز من كلام هذا الرجل ؟ قالوا معاذ الله لك أن تميل الى شيءٍ من هذا دع دينك لهذا الكلب . أما ترى الى ثيابه ؟ ثم أخذوا يعيبون رثاثته وتناولوا سلاحه واداة حربه فعمدوا الى تجربتها فاستبان فضل ذلك على سلاحهم . فلما رأى منهم ربعيّ ذلك قال يا أهل فارس انكم عظمتم اللباس والطعام والشراب وانا صغرناهن ثم رجع الى ان ينظروا الى الأجل

فلما كان اليوم الثاني طلب رستم أن يرسل اليه المسلمون الرجل الذي كان عنده بالامس (ربعيّ) فأرسل اليه سعد حذيفة بن مُحْصَن وكان منه ما كان من ربعيّ لا يكاد أمرهما يختلف ثم في اليوم الثالث طلب رستم أن يرسل اليه سعد رجلا له عقل ورأى يكلمه ، فارسل اليه المغيرة بن شعبة

جاء المغيرة الى رستم ومعه وجوه قومه عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة من مجلس رستم . وأقبل المغيرة وله أربع ضفائر يمشي حتى جلس معه على سريره ووسادته فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه . فقال : كانت تبلغنا عنكم الاحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم . إنا معشر العرب سواء لايستعبد بعضنا بعضاً الا أن يكون محاربا لصاحبه فظننت انكم تتواسون بينكم كما نتواسى - وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني ان بعضكم أرباب بعض. وان هذا الامر لايستقيم فيكم فلا نصنعه . ولم آتكم ولكن دعوتموني . اليوم علمت ان أمركم مضمحل وانكم مغلوبون . وان مُلكا لايقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول . فقال السفلة : صدق والله هذا العربي ، وقالت الدهاقين : والله لقد رمى بكلام لايزال عبيدنا ينزعون اليه . قاتل الله اولينا ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الامة . وقد رأى رستم أن يأسو ما صنعت حاشيته وأن يطيب خاطره ليستخرج ما عنده فمازحه ليمحو ما صنع . فقال له : يا أعرابي ان الحاشية قد تصنع ما لايوافق الملك فيتراخى عنها مخافة أن يكسرها عما ينبغي من ذلك ، فالامر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق ، ما هذه المغازل التي معك ؟ (يريد السهام) قال ما ضر الجمرة أن لاتكون طويلة ، ثم راماهم . قال : ما بال سيفك ؟ قال رث الكسوة حديد المضربة ثم عاطاه سيفه

بعد ذلك أراد رستم أن يكلمه فيما استقدمه لاجله . فقال له : تكلم أو أتكلم ؟ فقال المغيرة أنت الذي بعثت الينا فتكلم . فأقام الترجمان بينهما وتكلم رستم فحمد قومه وعظم أمرهم وطوّله وقال : لم نزل متمكنين في البلاد ظاهرين على الاعداء أشرافاً في الامم فليس لاحد من الملوك مثل عزنا وشرفنا وسلطاننا ،ننصر على الناس ولا ينصرون علينا الا اليوم و اليومين أو الشهر والشهرين للذنوب ، فاذا انتقم الله فرضى رد علينا عزنا وجمعنا لعدونا ثم لم يكن في الناس أمة أصغر عندنا

أمرا منكم كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة لا نراكم شيئا ولا نعدكم وكنتم اذا قحطت أرضكم وأصابتكم السنة استغثتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ثم نردكم وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم الا ما أصابكم من الجهد في بلادكم وأنا آمر لاميركم بكسوة وبغل والف درهم وآمر لكل رجل منكم بوقر تمر وبثوبين وتنصرفون عنا فاني لست أشتهي ان أقتلكم ولا آسركم . فتكلم المغيرة بن شعبة فحمد الله وأثنى عليه وقال : ان الله خالق كل شيء ورازقه فمن صنع شيئا فانما هو يصنعه والذي له وأما الذي ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الاعداء والتمكن في البلاد وعظم السلطان في الدنيا فنحن نعرفه ولسنا ننكره فالله صنعه بكم ووضعه فيكم وهو له دونكم

وأما الذي ذكرت فينا من سوء الحال وضيق المعيشة واختلاف القلوب فنحن نعرفه ولسنا ننكره والله ابتلانا بذلك فصيرنا اليه ، والدنيا دول ، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا اليه ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم ويصيروا اليها ولو كنتم فيما آتاكم الله ذوي شكر كان شكركم يقصر عما أوتيتم وأسلمكم ضعف الشكر الى تغير الحال . ولو كنا فيما ابتلينا به أهل كفر كان عظيم ما تتابع علينا مستجلبا من الله رحمة يرفه بها عنا . ولكن الشأن غير ما تذهبون اليه أو كنتم تعرفوننا به . ان الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولا (ثم ذكر ما ذكره سابقه حتى انتهى الى قوله) وان احتجت الينا ان نمنعك منعناك فكن لنا عبدا تؤدي الجزية عن يد وأنت صاغر والا السيف ان أبيت .

فاستشاط رستم غضبا ، وحلف بالشمس : لا يرتفع لكم الصبح غداً حتى أقتلكم أجمعين . فانصرف المغيرة

ثم بعد ذلك أرسل سعد بقية ذوي الرأي الى رستم وحبس الثلاثة الذين ذهبوا اليه فكلمهم بمثل ما تكلم به وكلموه بمثل ما تكلم به سابقوهم وضرب لهم الامثال

وضربوا له الامثال كذلك ثم تهيأ الفريقان للحرب

وقد سأل رستم ذلك الوفد : أتعبرون الينا أم نعبر اليكم ؟ فقالوا بل اعبروا الينا . وأخذ سعد في الاستعداد ـ ولما أرادوا عبور العقيق على القنطرة وكانت في يد المسلمين أبوا عليهم ذلك وقالوا شيء غلبنا كم عليه لا نعيده اليكم أبدا بل انظروا لكم معبرا آخر فباتوا ليلتهم يسكرون العقيق ثم أصبحوا فعبروه على ما سكروا به من قصب وبراذع وتراب

عبن رستم جيشه ورتب الفيلة في مواقفها وعليها الرجال في الصناديق وكان يزدجرد قد رتب الرجال بينه وبين رستم بين كل رجلين مقدار ما يسمع أحدهما صوت الآخر فكلما نزل أو ارتحل أو حدث أمر قاله فقاله الذي يليه حتى يقوله الذي يلي باب الايوان وفيه الملك . وهكذا اذا أراد الملك اصدار أمر وصل الي رستم على هذا النمط . فكانت الاخبار تعلم ساعة حدوثها لا يغيب عنه شيء حدث في ليل أو نهار

كان بسعد عِرق النَّسا وحُبون قامت له ، لا يستطيع معها الركوب ولا الجلوس. فخلف على الناس خالد بن عُرفُطة . فشغب عليه بعض وجوه الجند . فقال سعد احملوني واشرفوا بي على الناس . فارتقوا به فأكب مطلعا عليهم وتحت صدره وسادة . وأتى بمن شغب على خالد فهمَّ بهم وشتمهم وقال : أما والله لولا ان عدوكم بحضرتكم لجعلتكم نكالا لغيركم ولا يعود أحد بعدها يحبس المسلمين عن عدوهم ويشاغلهم وهم بازائه الا سُنَّت به سنة يؤخذ بها من بعدي ـ ثم كتب الي الرايات اني قد استخلفت عليكم خالد بن عرفطة وليس يمنعني ان أكون مكانه الا وجعي الذي يعودني وما بي من الحبون فاني مكب على وجهي وشخصي لكم باد فاسمعوا له وأطيعوا فانه انما يأمركم بأمري ويعمل برأيي . فقرىء أمره على الناس فانتهوا الى رأيه وقبلوا منه وتحاثوا على السمع والطاعة والرضا بما صنع سعد . فكان سعد يرمى بالرقاع فيها أمره ونهيه الى خالد بن عرفطة وخالد يبلغها من قصد بها اينفذها

(فـكان أركان حرب لسعد ذلك اليوم)

وقبل أن تنشب الحرب بين الفريقين أرسل سعد الى الذين انتهى اليهم رأي الناس والذين انتهت اليهم نجدتهم ومن أحرزوا أصناف الفضل ، فكان منهم ذو والرأي النافذ الذين أتوا رستم : المغيرة بن شعبة ، وحذيفة بن مُحْصَن ، وعاصم بن عمرو ، وبسر بن أبي رهم ، وعرفجة ابن هرثمة ، وربعي بن عامر ، وقرفة بن زاهر ومذعور بن عدي ، ومعبد بن مرة ، والمضارب بن يزيد ، وطليحة وقيس الأسديان وغالب بن عبـد الله الاسدي ، وعمرو بن معد يكرب وأمثالهم ، ومن الشعراء : الشماخ والحطيئة وأوس بن مَغْراء وعبدة بن الطيب وأمثالهم . وقال انطلقوا فقوموا في الناس بما يحق عليكم و يحق عليهم عند مواطن البأس فانكم من العرب بالمكان الذي أنتم به وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا في الناس فذكروهم وحرضوهم ـ فما شئت في ذلك اليوم من خُطَب حشوها الحث على الحرب والحض على الطعان والاستبسال بكلام تستأسد منه الاوعال ويستنسر به البغاث ويغلي به دم القلوب وتتوتر له الاعصاب . ومن شعر يؤرث الشر ويوغر الصدور ويهون الموت ولو تتبعنا ذلك لامتد بنا القول واتسع مجال الـكلام وخرجنا عن عهدة ما نحن بصدده

اتَّفَقَ سعد مع جنده أن يكبر لهم ثلاث تكبيرات ، والثالثة علامة بدء الحرب والرابعة علامة الزحف العام وان ذلك يكون بعد صلاة الظهر . فلما أذن المؤذن بصلاة الظهر وأدوا المـكتوبة كبر سعد ثلاث تكبيرات ، فلما كبر الثالثة برز أهل النجدات فانشبوا القتال . وبرز غالب بن عبد الله الاسدي وهو يقول :

قد علمت واردة المسائح ذات اللَّبَان والبنـان الواضح
أني سمام البطل المشايح وفارج الامر المهم الفادح

وبرز عاصم بن عمرو وهو يقول :

قد علمت بيضاء صفراء اللبب مثل اللجين اذ تغشاه الذهب
أني امرؤ لا من يعينه السبب مثل على مثلك يغريه العتب

ثم كبر سعد التكبيرة الرابعة وهي علامة الهجوم العام فزحفت الجنود واصطدموا صدمة من أشد صدمات الحروب هولا . وكان أشد شيء لقى منه المسلمون عناء لايطاق الفيلة : فانها لما حمل أصحابها خافتها الخيل فتفرقت عن الرجالة وكان مبدأ أمرها في بجيلة فكادت بجيلة تؤكل حين فرت عنها خيلها فرقاً من الفيلة . فلما رأى سعد ما حل بهم أعانهم ببني أسد فصمدوا لها وكانت حلبـة الفرس تدور على بني أسد قبل الهجوم العام . فلما رأى سعد ما حل ببني أسد من الفيلة أرسل الى عاصم ابن عمرو التميمي وقال : يامعشر بنى تميم ، أما عندكم لهذه الفيلة من حيلة ؟ قالوا : بلى ثم نادى برجال من قومه رماة وآخرين لهم ثقافة فقال للرماة ذبوا ركبان الفيلة عنهم بالنبل وقال لاهل الثقافه استدبروا الفيلة وقطعوا وُضُنها ، ففعل كل فريق ما أمر به ووقعت الصناديق عن ظهور الفيلة فلم يبق من ركبان الفيلة راكب الا قتل . ولما أعريت الفيلة من ركبانها عادت الى مواقفهـا و نفس ذلك العمل الـكرْبَ عن بني أسد بعـد ما قتل منهم في ذلك اليوم خمسمائة مقاتل وكانوا ردءاً للناس . واستحر القتال حتى غربت الشمس ثم حتى ذهبت هدأة من الليل . وقد كان الظفر ظاهراً ذلك اليوم في صفوف الفرس وهذا اليوم يسمى يوم ارماث ـ وكان فيه عاصم عادية الناس وحاميتهم . وكان ذلك اليوم في المحرم سنة ١٤ هـ يوم الاثنين

﴿ يوم أغواث ﴾

ولما أصبح القوم من الغد أصبحوا على تعبية ووكل سعد قوماً بنقل القتلى الى مُشَرِّف وهو واد بين العذيب وبين عين الشمس ، ووكل آخرين بحمل الجرحى الى العذيب ليقوم النساء بتمريضهم ومداواتهم وبينما القوم على هذا الحال ولم ينشب

القتال اذ طلعت نواصي خيل الاسلام قادمة من الشام . وذلك أن عمر أرسل الى أبي عبيدة بن الجراح بعد فتح دمشق أن يرد الجند الذين جاءوا من العراق الى الشام مع خالد بن الوليد ليكونوا عونا لجنود سعد على قتال الفرس . فكان وصولهم الى جيش المسلمين ذلك اليوم قبل انتشاب القتال وكانوا ستة آلاف . منهم خمسة آلاف من ربيعة ومضر وألف من افناء اليمن . وكان خالد قد فصَل بهم وهم تسعة آلاف قبل اليرموك - وكان الامير على هذا الجيش عتبة بن أبي وقاص وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو وعلى مجنبتيه قيس بن هبيرة و الهزهاز بن عمرو العجلي. وقد عجل القعقاع فطوى حتى قدم على المسلمين بالقادسية صبيحة ذلك اليوم

وقد أراد القعقاع أن يوقع الرعب في قلوب الفرس فقسم جيشه عشرة أقسام ليردوا على المسلمين قسما بعد قسم ليعلم الفرس أن المدد متواصل على المسلمين فيكون ذلك أدعى الى انكسار نفوسهم - ثم قدم هو في القسم الاول ولم يلبث أن باشر القتال ذلك اليوم . وكان قدومه سببا لتنشط المسلمين واستبشارهم حتى كأن لم تكن فيهم مصيبة بالامس . وقد كان القعقاع فارس يوم اغواث . فانه حين ورد ساحة الحرب طلب البراز فبرز اليه ذو الحاجب بَهْمَن جاذويه وهو صاحب يوم الجسر الذي قتل فيه أبو عبيد فقتله القعقاع ثم برز اليه البيرزان والبِنْدَوان . فقتل القعقاع أولهما ، وقتل الحارث بن ظبيان ثانيهما وباشر المسلمون العجم بالسيوف فاجتلدوا الى المساء، وأكثر المسلمون فيهم القتل ولم ير أهل فارس في قتال هذا اليوم ما يعجبهم ولم تباشر فيلتهم الحرب لان صناديقها كانت قد تكسرت فلم تصلح حتى أمسى المساء . وفي هذا اليوم قدم رسول عمر بأربعة أسياف وأربعة أفراس لتقسم على أهل البلاء ان كان سعد لقي حربا ففضها سعد في أهل البلاء وفي ذلك يقول الدبيل بن عمرو :

لقد علم الاقوام أنا احقّهم — اذا حصلوا بالمرهفات البواتر

وما فتئت خيلى عشية ارمثوا — يذودون رهواً عن جموع العشائر

لدن غدوة حتى أتى الليل دونهم　　وقد أفلحت أخرى الليالي الغوابر

وقال القعقاع :

لم تعرف الخيل العراب سواءنا　　عشية اغواث بجنب القوادس

عشية رحنا بالرماح كأنها　　على القوم ألوان الطيور الرسارس

ومما صنعه المسلمون في ذلك اليوم أن بنى عم القعقاع حملوا عشرة عشرة من الرحال على ابل قد البسوها الجلال والبراقع وطافت بهم الخيل تحميها في حمتها على خيول العجم بين الصفين يتشبهون بالفيلة فجعلت تلك الابل لا تَصْمُدُ لقليل ولا كثير الا نفرت بهم خيلهم وركبتهم خيول المسلمين وقد امتن بهم الناس في عملهم فلقى الفرس منها مالقيت خيل المسلمين من الفيلة في اليوم الأول وقد استحر القتال الى نصف الليل وكان الظفر للمسلمين واضح الغرَّة ذلك اليوم

وفي ذلك ابلى أبو محجن الثقفي بلاء حسنا . وذلك انه كان محبوسا في منزل سعد بن أبي وقاص لشغبه على خالد بن عرفطة ، فلما كان يوم اغواث قال لسلمى زوج سعد هل لك أن تخليني وتعيريني البلقاء ، فلله ان سلمنى الله أن أرجع اليك حتى أضع رجلى في قيدى : فابت ، فقال :

كفى حزَنا أن ترتدى الخيل بالقنا　　وأترَك مشدودا على وثاقيا

اذا قمت عنانى الحديد واغلقت　　مصاريع دونى قد تصم المناديا

وقد كنت ذا مال كثير واخوة　　فقد تركونى واحدا لا أخا ليا

ولله عهد لا أخيس بعهده　　لئن فُرجت أن لا ازور الحوانيا

فرقت له سلمى وأطلقته وأعطته البلقاء فرس سعد فركبها فحمل على الفرس وكان يقصف الناس قصفا منكرا . وتعجب المسلمون منه وهم لا يعرفونه وكان سعد يقول : لولا محبس أبي محجن لقلت أبو محجن وهذه البلقاء . حتى اذا انتصف الليل أقبل وأعاد رجليه في القيد وقال أبياتا منها :

وليلة قادس لم يشعروا بى ولم أشعر بمُخرِجىَ الزَّحوفا
فان أحبس فذلكم بلائى وان اترك اذيقهم الحتوفا

وآخر أبياته الأولى يدل على انه انما حبس في الخمر كما هو المشهور وبدليل قوله لزوجة سعد وقد سألته عن سبب حبسه: انى كنت صاحب شراب في الجاهلية وأنا امرؤ شاعر يدب الشعر على لسانى ، فقلت :

اذا مت فادفنى الى جنب كرمة تروّى عظامى حين تسقى عروقها
ولا تَدْفِنَنّى في الفلاة فاننى أخاف اذا ما مت أن لا أذوقها

ولعله كان قد اجتمع عليه الامران . ولما علم سعد بأمره أطلقه وقال : اذهب فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله . فقال لاجرم لا أجيب لسانى الى صفة قبيح أبدا

﴿يوم عماس﴾

وفي اليوم الثالث أصبح القوم وهم على مواقفهم وقد أصيب من المسلمين ألفان مابين قتيل وجريح وأحرز المسلمون قتلاهم خلف ظهورهم ووكلوا بهم من يدفنهم وبالجرحى من يبلغهم مكان النساء لتمريضهم وكان النساء والصبيان يحفرون القبور في يومى اغواث وأرماث

وقد بات القعقاع يسرب أصحابه وأمرهم أن يعودوا من النهار مائة مائة ليجدد نشاط المسلمين وكان قتلى فارس بين الصفين لم يوارهم أحد فكان ذلك مما أشجى الفرس وفت في عضدهم . وزاد ذلك ماصنعه القعقاع بجنوده وطلوعهم مددا للمسلمين واقتدى به عاصم بن عمرو ووصل هاشم بن عتبة في سبعمائة من جند عتبة بن أبى وقاص فصنع صنع القعقاع وكلما جاء جماعة كبر المسلمون

أما الفرس فقد أصبحوا على مواقفهم وقد أصلحوا توابيت الفيلة فاقبلت

ومعها رجال يحمونها أن تقطع وُضُنها ومن خلفهم رجال تحميهم اذا أرادوا كتيبة دَلَفُوا لها بفيل وأتباعه لينفروا بهم خيلهم . وقد ظن الفرس أن ذلك يكون كما حصل في يوم ارماث ولكن خيل المسلمين لم تنفر من الفيلة فعلها في ذلك اليوم. لان الفيلة فيه كانت وحدها فلما كانت في هذا اليوم والفيلة معها الرجال أنست الخيل ولم تنفر . واستمر القتال شديدا بين العرب والعجم كل فريق منها صابر على شدة القتال والنجدات تصل الى الفرس ويزدجرد يزْجيها ويمدهم بأهل النجدة والبأس من قومه والامداد تصل على البُرُد وهم يقوون بها كما قوى المسلمون بهاشم ابن عتبة ومن معه ، وكان البلاء فيه من الجانبين على السواء

رأي سعدان الفيلة قد عادت الى فعلها في اليوم الأول فارسل الى جماعة من مسلمة الفرس أسلموا قبيل الحرب فسألهم هل للفيلة مَقاتل ؟ قالوا نعم مشافرها وعيونها فأرسل الى القعقاع وعاصم ابنى عمرو وقال لهما اكفيانى الفيل ، الابيض وارسل الى الربيل وحمال الاسديين وقال لهما اكفياني الفيل الاجرب ، وكانت الفيلة كلها آلفة لاثنيها . فحمل القعقاع وأخوه على الفيل الذى وجه له ففقأ عينه ونفحه بالسيف فرمى بمشفره فلم يكن من الفيل الا أن يُقْعى على من خلفه ثم ينقلب بمن على ظهره فيقتلهم المسلمون ، وأما الآخران فعورا الاجرب ورميا بمشفره ففر ووثب في العقيق فتبعته الفيلة وخرقت صفوف الفرس وألقت من عليها وعبرت العقيق فى أثر الاجرب حتى أتت المدائن بتوابيتها

ولما ذهبت الفيلة وخلص المسلمون بأهل فارس ومال الظل تزاحف المسلمون وحماهم فرسانهم الذين قاتلوا أول النهار فاجتلدوا على حَرَد بالسيوف ، وهم في ذلك على السواء

ولما جاء الليل خرج القعقاع بن عمرو التميمى في جند وزاحف الفرس بغير

اذن سعد ثم تبعه كثير من القبائل حتى زحف الجيش كله واشتد القتال وخشعت الاصوات فلم يكن يسمع في تلك الليلة سوى صليل السيوف كانه صوت مطارق الحداد على الحديد ورأى العرب والعجم امرا لم يروا مثله قط وانقطعت الاخبار والاصوات عن سعد ورستم وبات سعد بليلة لم يبت مثلها وأقبل على الدعاء للمسلمين بالنصر . فلما أصبح الصبح انتسب الناس فعلم انهم الأعلون وأصبح الناس وهم حسرى لم تغمض عيونهم ليلتهم كلها

ولما أصبح القوم أخذ القعقاع يحرض الناس ويقول : ان الدائرة بعد ساعة لمن بدأ القوم فاصبروا ساعة واحملوا عليهم فان النصر مع الصبر فاجتمع اليه جماعة من الرؤساء وتحاضوا على الموت وحملوا في من يليهم . فاقتتلوا أشد قتال الى أن جاء الظهر ، وحينئذ بدأ الخلل في صفوف الفرس فتأخروا وثارت عاصفة فالقت طيارة رستم في العقيق وانتهى القعقاع اليها فلم يجده لانه قام عن مكانه حين قلعت طيارته الى بغال كانت مهيأة فاستظل بحمل بغل منها وضرب هلال بن عُلَّفَة الحمل الذي تحته رستم وهو لايدرى به فسقط عليه العِدْل وضربه هلالُ فلم يقتله فرمى بنفسه في العقيق فأخذ هلال برجله فأخرجه وقتله ثم نادى : قتلتُ رستم ورب الكعبة . فأطاف به الناس وكبروا وانهزم قلب الفرس وتتابعت الهزيمة وغنم المسلمون راية الفرس وهى (درفش كابيان) ثم تتبع المسلمون المنهزمين حتى أجلوهم الى ماوراء القنطرة . وليلة الهرير لم يمر بالمسلمين ليلة أشد منها هولا مع الفرس ولا غيرهم وقتل فيها من المسلمين نحو ثمانية آلاف ومن الفرس ثلاثون الفا

قال الطبرى فأما المقترنون فانهم جشعوا فتهافتوا في العقيق فوخزهم المسلمون برماحهم فما أفلت منهم مخبر وهم ثلاثون الفا وكان الذى أخذ (درفش كابيان) ضرار بن الخطاب فعوض منها ثلاثين الف درهم وكانت قيمتها الف الف ومائتى

الف . وقد قتل في اليوم الذي تلا ليلة الهرير عشرة آلاف سوى من قتل في الايام قبله

أما الاسلاب والغنائم في تلك الوقعة فلم يأخذ المسلمون غنيمة مثلها قبلها ولا بعدها . وقد كان سَلَب رستم قيمته سبعين الف درهم . ولو وجدت قلنسوته لكان ثمنها مائة الف درهم . وقد تعقب المسلمون المنهزمين فلم يكن بهم منعة ولا مدافعة ولا نجاء . وقد صمد للقتال بعد الهزيمة بضع وثلاثون كتيبة استحيوا من الفرار فعمد لكل كتيبة رئيس من رؤساء المسلمين في جنده فمن هذه الكتائب ما استؤصل ومنها ماهرب

ما بعد الموقعة

بعد أن انتهت الموقعة كتب سعد الى عمر « أما بعد فان الله نصرنا على أهل فارس ومنحهم سنن من قبلهم من أهل دينهم بعد قتال طويل وزلزال شديد وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراؤن مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سَلَبهموه ونقله عنهم الى المسلمين ، واتبعهم المسلمون على الانهار ، وعلى طفوف الآجام ، وفي الفجاج . واصيب من المسلمين سعد بن عبيد القارىء وفلان وفلان ورجال من المسلمين لانعلمهم ، الله أعلم بهم ، كانوا يدوون بالقرآن اذا جن عليهم الليل دويّ النحل وهم آساد الناس لايشبههم الاسود . ولم يفضل من مضى منهم من بقي الا بفضل الشهادة اذ لم تكتب له »

كان عمر حريصا على تعرف أجناد المسلمين في القادسية وكان كل الناس في شبه جزيرة العرب يرونها الحد الفاصل بين العرب والفرس.ولا يرون ان الاسلام تقوم له قائمة وينتظم للامة العربية حال الا بالظفر فيها ، يشترك في هذا الاعتقاد كل اهل الجزيرة من عدن أبيَن الى ايلة الى البحرين الى حدود الشام . حتى ان الرجل منهم اذا كان له عمل أحجم عنه حتى يرى مايكون من شأن حرب القادسية. فلاغرو

اذا كان عمر مشغول القلب والبال بها

كان يخرج كل يوم يتنسم الاخبار من حين يصبح الى انتصاف النهار ثم يرجع الى منزله. وبينما هو بسبيل ذلك ذات يوم لقي البشير عمر، فسأله من أين فأخبره. قال ياعبدالله حدثني. قال: هزم الله العدو وعمر يخب معه ويستخبره والبشير يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة. فاذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين. فقال الرجل هلا أخبرتني رحمك الله أنك أمير المؤمنين وجعل عمر يقول لاعليك يا أخي. فهكذا يكون امراء المؤمنين والخلفاء الراشدون

قرأ عمر الكتاب على الناس وقال: اني حريص على أن لا أدع حاجة الا سددتها ما اتسع بعضنا لبعض فاذا عجز ذلك عنا تآسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف. ولو ددت أنكم علمتم من نفسي مثل الذي وقع فيها لكم. ولست معلمكم الا بالعمل، اني والله ما أنا بملك فاستعبدكم، وانما أنا عبد الله عرض علي الامانة فان أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا في بيوتكم وترووا سعدت وان أنا حملتها واستتبعتها الى بيتي شقيت ففرحت قليلا وحزنت طويلا وبقيت لا أقال ولا أرد فاستعتب

وكتب سعد الى عمر يقول «ان أقواماً من أهل السواد ادّعوا ولم يقم على عهد أهل الايام لنا ولم يف به أحد علمناه الا أهل بانقيا وبارسما وأهل أليس الآخرة وادّعى أهل السواد أن فارسا أكرهوهم وحشروهم فلم يخالفوا الينا ولم يذهبوا في الارض» ثم كتب كتاباً آخر يقول فيه «ان أهل السواد جلوا فجاءنا من أمسك بعهده ولم يجلب علينا فتممنا لهم ما كان بين المسلمين قبلنا وبينهم. وزعموا أن أهل السواد قد لحقوا بالمدائن فاحدث الينا فيمن تم وفيمن جلا وفيمن ادعى انه استكره وحشر فهرب ولم يقاتل، أو استسلم. فانا في أرض رغيبة والارض خلاء من أهلها وعددنا قليل وقد كثر أهل صلحنا وانّ أعمر لها وأوهن لعدونا تألفهم»

فقام عمر في الناس واستشارهم فيما طلبه سعد. فأجمعوا على أن الوفاء لمن أقام

وكف ولم يزده كفه الا خيرا . وان من ادعى فصدق أو وفى فبمنزلتهم وان من كذب نبذ اليهم وأعادوا صلحهم وأن يجعل أمر من جلا اليهم فان شاءوا دعوهم وكانوا لهم ذمة وان شاءوا تموا على منعهم من أرضهم ولم يعطوهم الا القتال . وأن يخيروا من أقام واستسلم الجزاء أو الجلاء . وكذلك الفلاح . فكتب عمر جواب الكتاب الاول يقول : « أما بعد – فان الله جل وعلا أنزل في كل شيء رخصة في بعض الحالات الا في أمرين : العدل في السيرة ، والذكر . فأما الذكر فلا رخصة فيه في حالة ولم يرض منه الا بالكثير . وأما الثاني العدل فلا رخصة فيه لقريب ولا بعيد ولا في شدة ولا رخاء وان رؤي ليناً فهو أقوى وأطفأ للجور وأقمع للباطل من الجور وان رؤى شديداً فهو انكش للكفر . فمن تم على عهده من أهل السواد ولم يعن عليكم بشيء فلهم الذمة وعليهم الجزية . وأما من ادعى انه استكره ممن لم يخالفهم اليكم أو يذهب في الارض فلا تصدقوهم بما ادعوا من ذلك الا أن تشاءوا فانبذ اليهم وابلغوهم مأمنهم » !

وكتب اليه جواب الكتاب الثاني :

« أما من أقام ولم يجل وليس لهم عهد فلهم ما لاهل العهد بمقامهم لكم وكفهم عنكم اجابة عدوكم . وكذلك الفلاحون اذا فعلوا ذلك . وكل من ادعى ذلك وصدق فلهم الذمة وان كذبوا نبذ اليهم . وأما من أعان وجَلا فذلك أمر جعله الله لكم فان شئتم فادعوهم الى أن يقيموا لكم في أرضهم ولهم الذمة وعليهم الجزية وان كرهوا ذلك فاقسموا ما افاء الله عليكم منهم »

وهنا أقول لسنا في حاجة الى بيان ماتضمنته الكتب وأجوبتها من الامور الادارية والنظام البديع وطرق الاستعمار . وانما العجب أن يصدر عن قوم لاعهد لهم بهذه الامور وانما يصل اليها الناس بعد الدرس والبحث والتجارب الطويلة

فلما عادت كتب عمر عرضوا على من يليهم ممن جلا وتنحى عن السواد ان يتراجعوا ولهم الذمة وعليهم الجزية فتراجعوا وصاروا ذمة كمن تم ولزم عهده الا أن

خراجهم اثقل . وانزلوا من ادعى الاستكراه وهرب منزلتهم وعقدوا لهم . وانزلوا من أقام منزلة ذى العهد . وكذلك الفلاحون . ولم يدخلوا في الصلح ما كان لآل كسرى ولا ما كان لمن خرج معهم ولم يجبهم الى واحدة من اثنتين : الاسلام أو الجزاء فصارت فيئاً لمن أفاء الله عليه فهي والصوافى الأولى ملك لمن أفاء الله عليه وسائر السواد ذمة . وأخذوهم بخراج كسرى . وكان على رؤوس الرجال على ما في أيديهم من الحصة والاموال

ولم تتأت قسمة ما كان لآل كسرى ومن أقام معهم لانه كان متفرقا في السواد فكان يليه لاهل الفيء من وثقوا به وتراضوا عليه

مابعد القادسية

أقام سعد بالقادسية شهرين بعد انتهاء الموقعة . وذلك أمر طبيعي بعد موقعة قاسى فيها الجيش شدائد عظاما وأهوالا جساما واصطلى بنارها جميع الجيش فكانوا بعد ذلك كله في حاجة الى الجمام والراحة . ولو كان عند سعد جيوش احتياطية لم تشهد الحرب ولم تكتو بنارها لكان في حكم الحزم أن يرمي الفرس بها قبل أن يأخذوا راحتهم ويدبروا أمرهم . لان المعاجلة في مثل هذه الحال حزامة ـ ولكن القوم كانوا على ماعلمنا من قلة عدد وقد قاتلوا عدوا يفوقهم اضعافاً وقد نالوا منه ونال منهم . فلابد أن يكونوا في حاجة الى الراحة والمدد ـ ومع هذا فما كان احتياج القوم الى الراحة ليحبسهم شهرين في القادسية . بل كان اكثر مالبثهم تطهير النواحي التى غلبوا عليها من الاعداء حتى لايتركوا وراءهم عورة يخافونها وان ينتهوا مع من دانوا لهم بالطاعة على حال وان يستأمروا عمر في شأنهم وفي الوجه الذى يريد أن يرميهم به والعمل بما ينبغى

أمر عمر رضي الله عنه سعدا ان يؤم المدائن وعهد اليه ان يخلف النساء والعيال بالعقيق ويجعل معهم كثفا من الجند وان يشركهم في كل مغنم ما داموا يخلفون

المسلمين في عيالاتهم ـ فقدم زهرة بن الحوية الى اللسان الذي أدلعه البر في الريف وعليه الكوفة اليوم والحيرة قبل اليوم وكان النخيرجان معسكرا به فارفض ولم يثبت فلحق بأصحابه

بُرس

وبعد تقديم زهرة الى اللسان اتبعه بعبد الله بن المعتم ، ثم شرحبيل بن السمط ثم هاشم بن عتبة وقد ولاه عمل خالد بن عرفطة وجعل خالدا على الساقة ثم اتبعهم وكل المسلمين فارس مؤدٍ [1] قد نقل الله اليهم ما كان في عسكر فارس من سلاح وكراع ومال وكان ارتحاله لايام بقين من شوال فلما وصلت مقدمة المسلمين (بُرس) لقيهم جمع من الفرس عليهم بُصبُهْرَى . فلم يكن بين الفريقين كبير قتال حتى انهزموا الى بابل ، وبها فل القادسية وجميع رؤساء الفرس كالنخيرجان ومهران الرازي والهرمزان واشباههم وعليهم الفيرزان . ولما رأى بسطام دهقان بُرس ان المسلمين قادمون على بلاده وقد هزموا من بازاء بلده من الفرس بعد ان هزموا عسكرهم الاكبر بالقادسية وقتلوا قائدهم الاعظم وعلم ان بلده حاصل في قبضتهم وخاف معرة دخولهم عليه عنوة وخشي أن يعتريه أحد منهم بسوء بادر الى زهرة فاعتقد منه ذمة وعقد له الجسور وأتاه بخبر الذين اجتمعوا ببابل لموافقة المسلمين

(١) المؤدى هو التام عدة الحرب القوي

يوم بابل - وكوثى

فلما علم زهرة بما أنبأه به بسطام كتب الى سعد يعلمه بما أجمع عليه الفرس وما أعدوا له . وقد قال الفرس فيما بينهم : نقاتلهم دستا (طابقا) قبل ان نتفرق . وذلك ليبلوا عذرا امام الامة حتى لا يقال انهم تفرقوا وتشتت جمعهم وهم في عدة تفوق المسلمين تمكنهم من ان يوافقوهم فخلوا بينهم وبين البلاد جبنا وهلعا - ومعلوم ان جيشا يقاتل على مثل هذه النية لا يكون مآله سوى الهزيمة ولا تغنيه كثرة العدد شيئا لان توطيد الجند العزيمة على النصر وانفساح الآمال بالفوز أمامهم وعظم الثقة بالنصر مدد لا يعادله مدد . وأما ضد ذلك اذا جال في رؤوس القواد والجنود فهو هزيمة معجلة وخذلان تسلفوه

التقى الجمعان ببابل بعد ان زجى سعد الجيوش اليها .وفي رؤوس الفرس ما بيّنا والمسلمون كما قد علمنا وأفكارهم ما بينوه ليزدجرد ورستم ورؤساء فارس . فلم يكن الا كلفت الرداء حتى انهزم الفرس ثم لم يكن لهم هم سوى الافتراق . فخرج الهرمُزان الى ناحية الاهواز فأخذها وأكلها ومهرجان قذق . وخرج الفيرزان حتى نزل على نهاوند وبها كنوز كسري فاحتواها وأكل الماهين . وولى النخيرجان ومهران الرازي وجهيهما شطر المدائن حتى عبرا (بهُرَسير) الى جانب دجلة الآخر ثم قطعا الجسر

أقام سعد أياما ببابل وبلغه أن النخيرجان ومهران قد خلفا شهريار دهقان كُوثى لقتال المسلمين فى جمع من الجنود . فقدم سعد اليه الجيوش . فالتقى أوائل جموع المسلمين بجنود شهريار فلم يُلبثهم ان طلب البراز وقال « ألا رجل ، الا فارس منكم شديد عظيم يخرج اليّ حتى أنكل به . فأخرج له زهرة أبا نُبَاتة بن نائل بن جُعْشُم الاعرجي فخرج اليه وكلاهما وثيق الخلق الا أن شهريار مثل الجمل فلما

تلاقيا تجالدا ثم تعانقا . فصرع شهريار ابا نباتة وأراد أن يحتز رأسه بخنجره فوقعت ابهام الفارسي في شدق أبي نباتة فلاكها فاسترخى الفارسي وفتر فانقلب عليه واحتز رأسه واستلبه وأخذ برذونه . وكان يلبس ملابسه ويتحلى بحلاه و يلبس أساوره عند الحرب ، وهو أول مسلم تزيا بذلك الزي بأمر من سعد بن أبي وقاص

بهرسير

بهرسير احدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن وهي في عُدْوة دجلة الغربية تجاه ايوان كسرى ولم يبق من المدائن سواها الى عهد صاحب معجم البلدان

قدّم سعد زهرة من كُوثى الى بهرسير . فتلقاه شيرزاد بساباط بالصلح وتأدية الجزاء فأرسله الى سعد حتى قدم معه . ثم سار زهرة حتى أتى الى المُظْلِم وكان به كتيبة لكسرى تسمى بُوران ولعلها بمنزلة ما يسمونه الحرس الملوكي — وكان أهل هذه الكتيبة مدلين بأنفسهم ويقسمون بأن مُلْك فارس لايزول ماعشنا ، يفعلون ذلك كل يوم — فلقيهم زهرة بجنوده ففلهم . ثم جاء هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الى المظلم ووقف حتى لحق به سعد ووافق ذلك رجوع (المُقَرَّط) وهو أسد كان لكسرى قد ألفه وتخيره من أسود مظلم ساباط فبادر المقرط الناس حتى انتهى فخرج اليه هاشم فقتله بسيفه . وقبل سعد رأس هاشم . فقبل هاشم قدم عمه سعد ولما جاء سعد الى المظلم قرأ « أولم تكونوا اقسمتم من قبل مالكم من زوال » وقدم سعد على بهرسير — وكلما قدمت خيل من خيول الاسلام اليها كبروا الى أن تتامّ الجند وكان ذلك في السنة الخامسة عشرة

أقام سعد على بهرسير شهرين يحاصرها ويرميها بالمجانيق ويدب اليها بالدّبابات ويقاتلونهم بكل عدة . وكان الفرس البادئين بالرمى بالمجانيق والعرادات

فاستصنعها سعد وأقام عليها عشرين منجنيقاً فشغلهم بها ـ ولما طال الامد على الفرس خرجوا في رجالة وناشبة وتجردوا للعرب وتبايعوا على الصبر فقاتلهم المسلمون فلم يثبتوا لهم

ولما رأى الفرس ان البقاء في هذه المدينة لايستقيم تركوها ودخلها المسلمون فلم يجدوا فيها غير نفر قليل وقعوا أسرى في أيديهم ـ وفي مقام سعد على بهرسير . أرسل سراياه فأغارت في سواد الفرات فأتت بناس من الفلاحين لاعهد لهم ولا ذمة . فكانوا مائة ألف فقال شيرزاذ : ان هؤلاء عُلُوج لأهل فارس لم يُحرضُوا عليكم فاتركوهم حتى يفرق لكم الرأي . فتركهم سعد بعد أن كتب عليه اسماءهم ثم كتب الى عمر يقول « انا وردنا بهرسير بعد الذي لقينا فيما بين القادسية وبهرسير فلم يأتنا أحد لقتال فبثثت الخيول فجمعت الفلاحين من القرى والآجام فرَ رأيك » فأجابه « ان من أتاكم من الفلاحين اذا كانوا مقيمين لم يعينوا عليكم فهو امانهم . ومن هرب فادركتموه فشأنكم به » فلما ورد كتاب عمر خلى سعد عن أولئك الفلاحين فلم يطلبهم ، ودعاهم الى الاسلام والرجوع أو الجزاء ولهم الذمة والمنعة فتراجعوا على الجزية والمنعة فلم يبق في غربي دجلة الى أرض العرب سوادى الا آمن واغتبط بملك الاسلام واستقبلوا الخراج

المدائن القصوى

ولما دخل سعد بهرسير وكان ذلك في شهر صفر سنة ١٦ طلب السفن ليعبر عليها الى عدوة دجلة الشرقية فلم يجد سفيناً يجيز الناس عليهن فبقي على ذلك أياماً من صفر . فجاء بعض أهل فارس ودلهم على مخاضة فخشى سعد ذلك ثم بدا له أن يجيز بهم في دجلة وقد جاء المدد . فقام في الناس فقال « ان عدوكم قد اعتصم منكم

بهذا البحر فلا تخلصون اليهم معه وهم يخلصون اليكم اذا شاءوا فيناوشونكم في سفنهم وليس وراءكم شيء تخافون أن تؤتوا منه فقد كفاكم أهل الايام وعطلوا ثغورهم وافنوا ذادتهم . وقد رأيت من الرأي أن تبادروا جهاد العدو بنياتكم قبل أن تحصركم الدنيا . الا اني قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم . فقالوا جميعاً : عزم الله لنا ولك على الرشد . ثم انتدب الناس ليحموا الفِراض حتى يعبر الناس ويتلاحقوا حتى لايمنعهم الفرس العبور فانتدب انجاد الناس وأولهم عاصم بن عمرو ذو البأس وانتدب معه ستمائة من أهل النجدات فجعل عاصما عليهم فسار بهم عاصم وانتدب منهم ستون ليكونوا أولين . فاقتحموا دجلة بخيلهم ورآهم الفرس فاقحموا خيلهم دجلة ليلاقوهم ويمنعوهم فلقوا عاصما في السرعان فصاح عاصم: الرماح الرماح ، اشرعوها وتوخوا العيون . فطعنوهم في أعينهم فمن لم يقتل منهم صاروا عورانا فساحلوا بخيلهم فلم تصل الى الشاطيء حتى ولت مدبرة وملك الستون الفِراض وتلاحق سائر الستمائة ثم اقتحم المسلمون دجلة حتى صاروا بالعدوة الشرقية مع الفرس . والذي يظهر ان الفرس باحتوائهم السفن كانوا آمنين أن يعبر اليهم المسلمون في زمن قريب ، وأن ذلك لايكون الا بعد أن يحصلوا على سفن يجيزون فيها اليهم ، فلم يكن بالقوم استعداد للقائهم في ذلك الحين ولا على تلك الحال . فاجهضهم المسلمون واعجلوهم عن جهور أموالهم واقتحموا عليهم مدينتهم على هذا الوجه واستولوا على كل ما بقي في بيوت كسرى من الأموال

وقد قال الطبري : فيما هيج سعدا على دعاء الناس لعبور دجلة ـ ان علجا فارسيا أتى سعدا فقال : ما يقيمك ؟ لايأتي عليك ثالثة حتى يذهب يزدجرد بكل شيء في المدائن

والذي يفهم من ذلك أن سعدا كان على ثقة من أن القوم قد يئسوا من المقام في المدائن وان حاميتهم لاتصلح للمقاومة ، والا كان عمله مخاطرة لاتصح من قائد

حريص ولا تلتئم مع تحذير عمر له ذلك التحذير الذي علمناه

كان يزجرد قد احس سوء الحال فرحل عياله الى حلوان حين فتحت بهرسير . ولما علم بعبور المسلمين خف حتى لحق بعياله وخلف مهران الرازي والنخيرجان وخرجوا معهم بما قدروا عليه من حر متاعهم وخفيفه وما قدروا على استخلاصه من بيت المال والنساء والذراري وتركوا في الخزائن من الثياب والمتاع والآنية والفضول والألطاف والادهان شيئاً لا تعلم قيمته لكثرته وغادروا ما أعدوا للحصار من البقر والغنم والاطعمة والاشربة . وكانت كتيبة الاهوال أول داخل المدينة وهي كتيبة عاصم بن عمرو ثم الخرساء ، وهي كتيبة القعقاع بن عمرو وحمّال ابن مالك والربيل بن عمرو - فأخذوا في سككها لايجدون أحداً الا من كان بالقصر الابيض . وقد استجابوا على الذمة وقد نزل سعد القصر الابيض . وصلى فيه صلاة الفتح وجعله مسجداً ودخله وهو يقول « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين ، فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين »

في مثل هذا الدخول الفجائي الذي دخل به المسلمون مدائن كسرى ، وبخاصة اذا كان بحالة غريبة ، يستولى الفزع على الافئدة وتجيش النفوس الى الفرار ومفارقة الديار . ولكن كثيراً ممن يستولى على نفوسهم الهلع ويجلون عن أوطانهم لايذهبون بعيداً عنه حتى تضيق الدنيا في وجوههم وتحرج صدورهم وتعمى عليهم السبل ثم تنازعهم نفوسهم الى مألفهم القديم ثم لايلبثون أن يعودوا ، ولا سيما اذا عرفوا أن من ملأ الخوف قلوبهم منه وظنوه فتاكا سفاكا لا يأخذ الناس بعنف ولا يسوسهم بعسف ، بل يبسط المعدلة ويتوخى حسن السيرة . فانهم حينئذ يعودون الى وطنهم ويثوب اليهم رشدهم . كذلك كان حال أهل المدائن فانهم تراجعوا الى مدينتهم ودخلوا في ذمة المسلمين الا من كان من آل كسرى ومن معهم

ثم جمع سعد ما وجد في خزائن كسرى من الأموال والغنائم فكان شيئاً كثيراً فخمسه وقسم أربعة الاخماس على المقاتلين ، فكان نصيب الفارس اثنى عشر ألف درهم. وهو شيء لم يكن أحد من العرب يظن أن يراه في منامه. وكان كل المسلمين فرساناً و بعضهم معه الجنائب . ثم قسم سعد دور المدائن على الناس وأنزلهم بها . ثم جمع الخمس وادخل فيه كل شيء أراد أن يعجب منه عمر من ثياب كسرى وحليه وسيفه وما كان يعجب العرب أن يقع اليهم وكان في ما أرسله الى عمر أيضاً بساط ذرعه ستون ذراعاً في مثلها فيه طرق كالصور وفصوص كالانهار وخلال ذلك كالدير وفي حافاته كالارض المزروعة والارض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب . وقواره بالذهب والفضة واشباه ذلك - فلما قسم سعد الفيء في العسكر فضل هذا البساط عنهم ولم تستقم قسمته. فجمع سعد المسلمين فقال : « ان الله قد ملأ أيديكم وقد عسر قسم هذا البساط ولا يقوى أحد على شرائه ، فأرى أن تطيبوا به نفساً لامير المؤمنين يضعه حيث شاء . ففعلوا . فلما قدم البساط على عمر بالمدينة جمع الناس واستشارهم . فمن مشير بقبضه وآخر مفوض اليه وآخر مرفق . فقام علي حين رأى عمر يأبى حتى انتهى اليه فقال : لم تجعل علمك جهلا ويقينك شكا ؟ انه ليس لك من الدنيا الا ما أعطيت فأمضيت أو لبست فأبليت أو أكلت فأفنيت . قال : صدقتني ، فقطعه وفرقه في الناس - وفي رواية أخرى انه قال له : يا أمير المؤمنين الامر كما قالوا ولم يبق الا التروية . انك ان تقبله على هذا اليوم لم نعدم في غد من يستحق به ماليس له . فقال : صدقتني . وقطعه وقد أصاب عليا قطعة منه فباعها بعشرين ألفا وما هي بأجود تلك القطع[1]

ونوى سعد الاقامة بالمدائن وصلى فيها صلاة المقيم وأول جمعة صليت في العراق كانت بالمدائن في صفر سنة ١٦هـ . ثم بث السرايا تغير فيما حول المدائن في الوجوه

(١) لم يكن من شان العرب الاحتفاظ بمثل هذه الذخائر . ولو انهم من اهل هذا العصر المقدرين للآثار والنفائس قدرها لا حتفظوا به على الدهر

كلها . وصدر الامر من عمر بولاية سعد بن أبي وقاص صلاة ما غلب عليه وحَرْبَه وولى النعمان وسويد بن عمرو الخراج أولهما على ما سقت دجلة وثانيهما على ما سقى الفرات .ولما جيء الى عمر بتلك الاخماس من الغنيمة وفيها زينة كسرى وتاجه وحلاه وأزياؤه التي كان يلبسها للمباهاة وبساطه ، أكثر الناس الكلام في فضل أهل القادسية وحق لهم أن يكثروا ، فقال عمر : أولئك أعيان العرب وغررها اجتمع لهم مع الاخطار الدين . هم أهل الايام وأهل القوادس

يقول ابن الاثير : كان في بيت المال ثلاثة آلاف ألف ألف ثلاث مرات أخذ منها رستم عند سيره الى القادسية النصف وبقي النصف

والذي أراه ان هذا المقدار يزيد على عشرات المقدار الذي كان موجوداً لانه يقتضي أن يكون في خزائن كسرى ثلاثة آلاف بليون وهو مقدار لايمكن أن يتفق مثله لدولة في ذلك العهد مهما كان عمرانها مستبحراً وخراجها وافرا

وما لنا وللكلام ؟ لابد أن نرجع الى الارقام فانها لاتكذب

قال ابن الاثير نفسه : ان سهم الفارس بلغ في المدائن اثنى عشر ألف درهم وكان المسلمون جميعاً فرسانا ، فاذا فرضنا أن المسلمين كان عددهم في ذلك اليوم هو عددهم يوم القادسية بزيادة الربع كان عدد المسلمين الذين كان لهم حظ من غنيمة المدائن ستين ألفاً

فعلى ذلك يكون عدد النقود التي قسمت على الغانمين ٧٢٠ مليونا

فاذا أضيف الى ذلك الخمس (١٨٠ مليونا) كان مجموع ذلك ٩٠٠ مليون

واذا كان رستم أخذ مقداراً مساوياً له كان ما في الخزائن من قبل ١٨٠٠ مليون . وبعبارة أخرى بليونا واحداً وثمانمائة مليون. فأين هذا من ثلاثة تريليونات وهو يزيد عما أدى اليه الحساب مع التساهل تريليونان وثمانية وتسعون بليونا ومئتا مليون

«ما جمع من غنائم أهل المدائن وقسمتها»

كان سعد قد جعل على الاقباض عمرو بن عمرو بن مقرن وعلى القسمة سلمان ابن ربيعة الباهلي فجمع ما في القصر والايوان والدور وأحصى ما يأتيه به الطلب وكان أهل المدائن قد نهبوها عند الهزيمة وهربوا في كل وجه ، فما أفلت منهم أحد بشيء الا أدركهم الطلب فأخذوا ما معهم . ورأوا بالمدائن قبابا تركية مملوءة سلالا مختومة برصاص فحسبوه طعاماً فاذا فيها آنية الذهب والفضة وكان الرجل يطوف ليبيع الذهب بالفضة متماثلين ورأوا كافوراً كثيراً فحسبوه ملحا فعجنوا به فوجدوه مراً وأدرك الطلب مع زهرة جماعة من الفرس على جسر النهروان فازدحموا عليه فوقع منهم بغل في الماء فعجلوا وأكبوا عليه فقال بعض المسلمين : ان لهذا البغل لشأنا فجالدهم المسلمون عليه حتى أخذوه وفيه حلية كسرى : ثيابه وخرزاته ووشاحه ودرعه التي فيها الجوهر وكان يجلس فيها للمباهاة ولحق الكلخ ببغلين معهما فارسيان فقتلها وأخذ البغلين فأبلغهما صاحب الاقباض وهو يكتب ما يأتيه به الرجال فقال له : قف حتى ننظر ما معك فحط عنهما فاذا سفطان فيهما تاج كسرى مرصعا وكان لايحمله الا الاسطوانيان وفيه الجوهر وعلى البغل الآخر سفطان فيهما ثياب كسرى التي كان يلبس من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجوهر وغير الديباج منسوجا منظوما وأدرك القعقاع بن عمرو فارسياً فقتله وأخذ منه عيبتين في احداهما خمسة أسياف وفي الأخرى ستة أسياف وأدرع منها درع كسرى ومغافره ، ودرع هرقل ودرع خاقان ملك الترك ودرع داهر ملك الهند ودرع بهرام جوبين ودرع سياوخش ودرع النعمان استلبها الفرس أيام غزاهم خاقان وهرقل وداهر

وأما النعمان وجوبين فحين هربا من كسرى - والسيوف من سيوف كسرى وهرمز وقباذ وفيروز وهرقل وخاقان وداهر وبهرام وسياوخش والنعمان فأحضر

القعقاع الجميع عند سعد نخيره بين الاسياف فاختار سيف هرقل وأعطاه درع بهرام ونفل سائرها في الخرساء الا سيف كسرى والنعمان بعث بهما الى عمر بن الخطاب لتسمع العرب بذلك. حسبوها في الاخماس و بعثوا بتاج كسرى وحليته وثيابه الى عمر ليراه المسلمون وأدرك عصمة بن خالد الضبي رجلين معهما حماران فقتل احدهما وهرب الآخر فأخذ الحمارين فأتى بهما صاحب الاقباض فاذا على احدهما سفطان في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثفره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجام كذلك وفارس من فضة مكلل بالجوهر. وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب و بطان من ذهب ولها زمام من ذهب وكل ذلك منظوم بالياقوت ، وعليها رجل من ذهب مكلل بالجواهر. وكان كسرى يضعهما على اسطوانتي التاج

وأقبل رجل بحق الى صاحب الاقباض فقال هو والذي معه ما رأينا مثل هذا ما يعدله ما عندنا ولايقاربه. فقالوا : هل أخذت منه شيئاً؟ فقال : والله لولا الله ما أتيتكم به. فقالوا : من أنت ؟ فقال : والله لاأخبركم فتحمدوني ولكني أحمد الله وأرضى بثوابه فأتبعوه رجلا فسأل عنه فاذا هو عامر بن عبد قيس. وقال سعد : والله ان الجيش لذو أمانة ولولا ما سبق لاهل بدر لقلت انهم على فضل أهل بدر. لقد تبعت منهم هناة ما أحسبها من هؤلاء

وقال جابر بن عبد الله والذي لا إله إلا هو ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية انه يريد الدنيا مع الآخرة فلقد اتهمنا ثلاثة نفر فما رأينا كامانتهم وزهدهم وهم طليحة وعمرو بن معد يكرب وقيس بن المكشوح

وقال عمر لما قدم عليه بسيف كسرى ومنطقته و بزبرجده : ان قوما أدوا هذا لذوو أمانة. فقال علي : انك عففت فعفت الرعية. فلما جمعت الغنائم قسم سعد الفيء

بين الناس بعد ما قسمه وكانوا ستين ألفاً فأصاب الفارسُ اثنى عشر ألفاً وكلهم كان فارسا ليس فيهم راجل

وقعة جلولاء

قال ياقوت : طسُّوجٌ من طساسيج السواد في طريق خراسان بينها وبين خانقين سبعة فراسخ ، ثم حكاه بالقصر والمد في قول القعقاع :

ونحن قتلنا في جلولا أُثَابِراً   ومهران اذ عزت عليه المذاهب
ويوم جلولاء الوقيعة افنيت   بنو فارس لما حوتها الكتائب

وسبب هذه الوقعة أن الفرس لما انتهوا الى جلولاء في هربهم من المدائن الى هذا الموضع وافترقت الطرق بأهل أذربيجان والباب وأهل الجبال وفارس - ويظهر أن جمهور جيش الفرس كان مجتمعا من هذه الاقاليم - فقال رؤوس القوم : انا اذا افترقنا لم نجتمع أبداً وهذا مكان يفرق بيننا . فهلموا فلنجتمع للعرب ولنقاتلهم ، فان كان الظفر لنا فذاك الذي نحب ، وان كانت الاخرى نكون قد قضينا الذي علينا

ويظهر ان القوم في هذه المرة كانوا قد وطنوا أنفسهم على الاستماتة في القتال وصدق الحملة فاجتمعوا تحت امرة مهران الرازى واحتفروا خندقا حول حصنهم وأحاطوه بحسك الخشب أول أمرهم ثم استبدلوا به حسك الحديد الا طُرُقَهُمْ . وعلم سعد بأمرهم فاستأمر عمر فأمره أن يسرح اليهم هاشم بن عتبة في اثنى عشر ألفا وأن يجعل على مقدمته القعقاع بن عمرو . فسار هاشم في جيشه وفيه وجوه المهاجرين والانصار وأعلام العرب ممن كان ارتد وممن ثبتوا على اسلامهم الى أن نزل على الفرس بمكانهم هذا

كاتب الفرس كسرى يزجرد وهو بحلوان يعلمونه بأمرهم الذي أجمعوا عليه فأمدهم بالأموال والرجال وجعل يستنفر الفرس فيما يليه وكلما اجتمع اليه جند بعثهم اليهم مدداً. وقد عزم الفرس على المطاولة لايخرجون الى القتال الا اذا شاءوا والمسلمون محيطون بحصنهم. فزاحفهم المسلمون ثمانين زحفاً وهم في كل مرة ينالون من الفرس. وأمد سعد المسلمين فلما رأى الفرس أن الامداد متواصلة الى عدوهم خافوا أن يصير المسلمون الى حال قوة يضعف الفرس عن منازلتهم معها. وذلك أن الفرس كانوا أكثر من محاصريهم أضعافاً كثيرة وازدياد المدد على المسلمين يغير من تلك الحال فاعتزموا على القتال وتقاسموا بالنار على أن لا يفروا وجعلوا في الخندق من ناحيتهم طرقاً لخيلهم فأفسدوا بذلك حصنهم ثم خرجوا للقتال فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يقاتلوا المسلمين مثله في موطن من المواطن حتى أنفدوا ما معهم من نبل ونُشّاب واطعنوا بالرماح حتى تقصفت ثم صاروا الى السيوف والطَّبَرْزينات فكانوا على هذه الحال صدر نهارهم الى الظهر، وصلى المسلمون ايماء وقد كلَّ المسلمون وبلغ التعب بهم أشده. فجاء القعقاع بن عمرو الى الناس فقال: «اهالتكم هذه؟ قالوا: نعم، نحن كالون وهم مريحون والكال يخاف العجز الا أن يعقب. فقال إنا حاملون عليهم ومجادُّوهم وغير كافين عنهم حتى يفتح الله بيننا وبينهم. فاحملوا حملة رجل واحد حتى تخالطوهم ولا تكذبن. ثم حمل وحملوا معه فانفرجوا فما ذب أحد عن باب الخندق وألبسهم الليل سواده فأخذوا يمنة ويسرة وجاء الى المسلمين أمداد فيهم طليحة وقيس بن المكشوح وعمرو بن معد يكرب وحُجر بن عدي فوافقوا القوم وقد تحاجزوا لما أجنهم الليل، غير أن القعقاع لم يكف بل أمر مناديه أن يقول يا معشر المسلمين هذا أميركم قد دخل الخندق. وقصد أن يقويهم بذلك فحملوا لا يشكون أن هاشما في الخندق فاذا هم بالقعقاع قد أخذ به وانهزم الفرس يمنة ويسرة فوقعت خيلهم فيما أعدوا من الحسك فعقرت وصاروا رجالة. واتبعهم

المسلمون فلم يفلت منهم الا عدد يسير وذهب جمع الفرس طعمة للسيف وصاروا مصرعين في المجالات وتلك النواحي حتى تجللت الأرض بهم

وسار القعقاع في طلب الفالة حتى وصل الى خانقين وقتل بها مهران ثم أخذ ناحية حلوان في جيش من الافناء والحمراء . فوجد الملك يزدجرد قد اجفل منها الى الري عند ما بلغه خبر الهزيمة بجلولاء فنزل القعقاع بحلوان وكانت هذه الوقعة في ذي القعدة سنة ١٦ . ولم يلق القعقاع كبير قتال دون حلوان وبقي بها الى أن تحول سعد الى الكوفة أما غنائم جلولاء وما سباه المسلمون من النساء والذرية فكان شيئاً يخرج عن الوصف. فكانت سهام المقاتلة تسعة آلاف وتسع دواب وفي رواية اثنى عشر ألفاً . وأما السبي فكان شيئاً كثيراً من أحرار فارس، حتى أن عمر استعاذ بالله من ذرية سبي جلولاء

ولما ذهب الخمس الى عمر كان على حسابه زياد بن أبيه . فقص على عمر أخبار الوقعة وما كان فيها من الأهوال وما فتح الله على المسلمين . فقال له عمر : هل تستطيع أن تقوم في الناس بمثل ما كلمتني به ؟ فقال : والله ما على وجه الأرض شخص أهيب في صدري منك فكيف لا أقوى على هذا من غيرك . فقام زياد في الناس وقص عليهم ما فتح الله عليهم وما كان منهم في حربهم وما صنعوا وما يستأذنون فيه من الانسياح في بلاد عدوهم فأحسن في ذلك ما شاء الله أن يحسن . فقال عمر :هذا الخطيب المِصقَع . فقال زياد : « ان جندنا أطلقوا بالفعال لساننا » وكان زياد شاباً حدثاً في ذلك الوقت

ثم كتب عمر الى سعد باقرار الفلاحين على حالهم إلا من حارب أو هرب منك الى عدوك فأدركته وأجرِ لهم ما أجريت للفلاحين قبلهم واذا كتبت اليك في قوم فأجروا أمثالهم مُجراهم . ثم كتب اليه سعد في غير الفلاحين .

فكتب اليه « أما من سوى الفلاحين فذلك اليكم ما لم تغنموه - يعني قسمته - ومن ترك أرضه من أهل الحرب فخلاها فهي لكم فان دعوتموهم وقبلتم منهم الجزاء ورددتموهم قبل قسمتها فذمة ، وان لم تدعوهم ففيء لكم لمن أفاء الله ذلك عليه

فتح تكريت

علم سعد أن الفرس قد جمعوا جموعاً بتكريت اجتمعوا من الموصل . فسرح اليهم عبد الله بن المعتم في جيش قوامه خمسة آلاف . فسار أربعا حتى نزل على تكريت وفيها جموع الفرس ومعهم جموع من الروم واياد وتغلب والنمر وقد خندقوا بها فحصرهم بها أربعين يوماً وقد تزاحفوا أربعة وعشرين زحفاً وكانوا أهون شوكة وأخف أمراً من أهل جلولاء . ولما أحس الروم أنهم لا يخرجون مرة الا نالَ منهم المسلمون تركوا أمراءهم ونقلوا أمتعتهم الى السفن . ورأى العرب الذين معهم ذلك وعلموا أن القوم منفض جمعهم عنهم وانهم لا يقوون على المسلمين بعد ذلك ، فجاءت العيون من اياد والنمر وتغلب الى عبد الله بن المعتم بالخبر وسألوه السلم للعرب فدعاهم الى الاسلام فاستجابوا له سراً واتفق معهم على أن يأخذوا على القوم الأبواب من ناحية النهر اذا أخذها بجنده من ناحية البر . ففعلوا . ونهد المسلمون لما يليهم وكبروا علامة ما بينهم وبين مُسلمةِ ليلتهم فأخذ جنود الفرس والروم من كل ناحية ولم ينج الا من أسلم في تلك الليلة من العرب

ولم يلبث عبد الله بن المعتم ان أرسل الى الحصنين قوة ممن معه عليها الا فكل العنزى الى الحصنين وبهما جموع من فارس . وقال له اسبق الأخبار وسر

مادون القَبَل واَحْيِ الليل . وسرح معه من كان مع الفرس بتكريت من اياد والنمر وتغلب فقدمهم وعليهم عتبة بن الوعل وغيره من امرائهم فادعى عتبة بالظفر والنَّفَل والقَفَل ثم جاء من بعده من امرائه حتى أخذوا الابواب وأقبلت سرعان الخيل مع ربعى بن الافكل فاقتحموا الحصنين فأجاب من استجاب وهرب من لم يستجب ثم عاد القوم وتراجع الهراب واغتبط المقيم وصاروا جميعا ذمة ولهم المنعة

﴿ ماسبذان ﴾

ماسَبَذَان عن يمين حلوان الى هَمَذَان

وأرسل سعد بن أبى وقاص فصيلة أخرى من المدائن يقودها ضرار بن الخطاب لفتح ماسبذان . وذلك انه قد بلغ سعدا ان آذين بن الهرمزان قد جمع جمعا فخرج بهم الى السهل فأرسل اليه ذلك الجيش فالتقى ضرار بن الخطاب بمن معه بالفرس فأخذ آذين وضرب عنقه وشتت شمل جيشه وأثخن فيهم القتل ثم خرج في طلب الفالّة حتى انتهى الى سَيْرَوان فأخذت ماسبذان عنوة فتطاير أهلها في الجبال ثم عادوا وصاروا ذمة للمسلمين وعليهم الجزاء

﴿ قرقيسيا ﴾

بلدة على نهر الخابور وهو يصب في الفرات ، فهى بين الخابور والفرات

كان سبب هذه الغزوة انه لما رجع هاشم بن عتبة عن جلولاء اجتمعت جموع أهل الجزيرة فأمدوا هرقل بجند يساعدونه على أهل حمص وبعثوا جندا الى أهل هِيت . فوجه اليهم سعد عمر بن مالك بن عتبة بن نوفل بن عبد مناف في جند وعلى مقدمته الحارث بن يزيد العامرى في غيره من القواد فسار عمر حتى نزل على هِيت وقد خندق من بها عليهم خندقا واعتصموا به - فلما رأى عمر

امتناع القوم خشي أن يطول عليه الأمد . فخرج في نصف الجند وكتم خروجه عن الاعداء، وأمر أن لايقوضوا خيامهم حتى لايعلم الاعداء بقلة المسلمين المحاصرين لهم ثم خلف على من أقام الحارث بن يزيد وذهب هو بمن معه حتى نزل على قرقيسيا على حال غرة من القوم وهم لايشعرون به فأخذها عنوة . فطلب أهلها أن يقيموا على الجزاء فرضى منهم بذلك . فلما رأى من بهيت ذلك جزعوا . وكتب عمر الى الحارث يقول له : انهم ان استجابوا فخل عنهم فليخرجوا ، والا فخندق عليهم خندقا يحيط بخندقهم وأبوابه مما يليك حتى أرى رأيي . فسمحوا بالاجابة وانضم الجند الى عمر ، والاعاجم الى أهل بلادهم

بعد هذا صار السواد كله في يد المسلمين فمهدوا طريق ادارته وأقاموا الجنود مرابطة في الثغور بينهم وبين الجبال فكان الفلاحون للطرق والجسور والحرث والدلالة مع الجزاء عن أيديهم على قدر طاقتهم . وكانت الدهاقين للجزية عن أيديهم والعمارة ، وعلى كلهم الارشاد وضيافة ابن السبيل من المسلمين ، وأما من أفاء الله عليهم البلاد فالضيافة لهم خاصة كانت ميراثا . وكان في صلح عمر لهم انهم ان غشوا المسلمين لعدوهم برئت منهم الذمة وان سبّوا مسلما أن ينهكوا عقوبة وان قاتلوا مسلما أن يقتلوا وعلى عمر منعتهم وبرىء عمر الى كل ذي عهد من معرة الجيوش

تمصير الكوفة

لما فتح على المسلمين مافتح من العراق وفارس أوطن المسلمون بمختلف البلدان عنها ـ وكان كل أمير على ناحية يبعث بالوفود الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فكان عمر يرى في أوجه من يرد عليه تغيرا فقال لهم والله

ماهيئتكم بالهيئة التى أبدأتم بها ولقد قدمت وفود القادسية والمدائن وانهما لكما أبدؤا فما غيركم؟ فأجابه القوم بأن وخومة البلاد قد أثرت فيهم هذا الاثر وأراد عمر أن يتعرف الاسباب التى أثرت فيهم هـذا الاثر وأهمه ذلك فكتب الى سعد يسأله عن ذلك الذى غـير ألوان العرب ولحومهم، فكتب سعد اليه يقول : ان العرب خددهم وكفى ألوانهم وخومة المدائن ودجلة . فكتب اليه عمر ان العرب لا يوافقها الاماوافق ابلها من البلدان فابعث سلمان رائدا وحذيفة ـ وكانا رائدى الجيش ـ ولم يكن أمر في الجيش الا أسند الى من يقوم به ـ فليرتادوا منزلا بريا بحريا ليس بيني وبينكم فيـه بحر ولا جسر ـ فبعثهما سعد لذلك فسارا مرتادين غربى الفرات حتى أتيا موضع الكوفة وهو حصباء ورمل مختلطان فأعجبتهما وفيها أديار ثلاثة : دير حُرَّمة ـ دير أم عمرو ـ دير سلسلة . وبينها خصاص خلال ذلك . فنزلا فيها وصليا ودعوا ثم كتبا الى سعد بالخبر فابلغه عمر . فأمره ان يسير بالجنود . فطلب سعد الى أمراء الجنود بالثغور ان يستخلفوا عليها ويقفلوا اليه ففعلوا وارتحل سعد بالناس حتى عسكر بالكوفة في المحرم سنة ١٧ هـ (يناير سنة ٦٣٨) وكان بين وقعة المدائن ونزول المسلمين بالـكوفة سنة وشهران وقد ترك سعد من رضي بالاقامة بالمدائن ليكونوا مَسْلَحَة للمسلمين في نواحيهم

كان عمر يريد ممن نزلوا الكوفة ان يكونوا في خيامهم لان ذلك اسرع في انتقالهم اذا مست الحاجة الى ذلك وليكون ذلك اهيب في عين عدوهم وأدعى الى احجامه عن امريهم به ان كان في رأسه شيء من ذلك . ثم بعد ذلك استأذنوه في اتخاذ البيوت من القصب فاذن لهم في ذلك بعد ان عرفوه انه هو العكرش اذا رَوي

ثم أصاب الكوفة بعد ذلك حريق أتى على ثمانين بيتا فيها فاستأذنوا في البناء باللبن فاذن فيه وقال افعلوا ولا يزيدن أحدكم على ثلاثة ابيات (حجرات) ولا

تطاولوا في البنيان والزموا السنة تلزمكم الدولة . فرجع المستأذنون الى الكوفة بذلك وكتب الى أهل البصرة بمثله . وكان على تنزيل الكوفة أبو هيّاج بن مالك وعلى تنزيل البصرة عاصم بن دُلَفٍ أبو الجرباء · وقد قدر عمر لها المناهج أربعين ذراعا وما بين ذلك عشرين ذراعا والازقة سبع اذرع والقطائع ستين ذراعا . وأول شيء خطه فيها وبنى المسجدان مسجد الكوفة ومسجد البصرة وقام في وسطهما رجل شديد النزع فرمى في كل جهة بسهم وأمر ان يبنى فيما وراء ذلك وبنى ظُلَّة في مسجد الكوفة على أساطين رخام في مقدمته كانت في بعض ابنية الاكاسرة بالحيرة وبنوا لسعد دارا بحيال المسجد وهي قصر الكوفة بينها وبين المسجد طريق منتصب بناها رُوزبة من آجر بنيان الاكاسرة بالحيرة . وجعل الاسواق على شبه المساجد من سبق الى مقعد فهو له حتى يقوم منه الى بيته ويفرغ مما معه

بلغ عمر ان سعدا قال وقد سمع أصوات الناس من الأسواق سكّنوا عني الصويت وان الناس يسمونه قصر سعد فبعث محمد بن مَسلَمة الى الكوفة وأمره ان يحرق باب القصر ثم يرجع . فحرق باب القصر واستدعاه سعد فلم يفعل فخرج اليه وعرض عليه نفقة فأبى وبلغه كتاب عمر اليه وفيه « بلغني انك اتخذت قصرا جعلته حصنا ويسمى قصر سعد . بينك وبين الناس باب . فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال . انزل منه مما يلي بيوت الاموال واغلقه ولا تجعل على القصر بابا يمنع الناس دخوله » فحلف له سعد ما قال الذي قالوا فرجع محمد فأبلغ عمر وصدقه

كأني بصائحين يصيحون ما هذا الحرَدَ الذي استفز عمر الى أن يزعج محمد ابن مسلمة ويكلفه أن يذرع ما بين المدينة والكوفه لاحراق باب قصر أو باب بيت اتخذه أمير ليكون حجابا بينه وبين من لا يروق منظره ومن لا يحب مقابلته ؟ وهل يريد عمر أن يسكن الناس في القبور وهم أحياء ؟ ومن ذا الذى حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ وأى حرج على الناس اذا استطالوا

في البناء وجملوا دورهم بما تتسع له حالهم التي صاروا اليها ؟ ومن المعلوم عند علماء الاقتصاد انه اذا لم يوجد في الناس أهل الثراء الذين يروقهم تأثل القصور واتخاذ الشامخ من البنيان والرائع من الزينة والزخرف لايمكن أن يكون للامة رقي ولا يوجد فيها من يتعاطى الفنون الجميلة فضلا عن البراعة فيها . فكيف يضيق عمر على الناس واسعا ولا يأذن لهم في اتخاذ البنيان من اللبن الا بعد مؤامرة ثم هو بعد ذلك يأمرهم بعدم الاستطالة في البنيان وذلك تعطيل للفنون الجميلة ومعارضة لرقي الامم الذي هو الغاية من العمران

أما أنا فاعرض عن أولئك الصائحين - وانما أقول لكم - ان القوم على أثر من رسالة قد بهرتهم عجائبها وفي عقب نبوة قد أخذت بنواصيهم وعلى بينة من دين استغرق أفئدتهم وملك عليهم مشاعرهم وهم حديثو عهد بأخوة قد أحكمت عراها واستحصدت مِرّتها ولم تنجل عن قلوبهم تلك الروعات التي كانوا يسمعونها فى قوله تعالى « إنما المؤمنون اخوة » وفى قوله تعالى « فاصبحتم بنعمته اخوانا » وهذه يد عمر لم تغتسل من دماء الاعاجم والروم الذين كانوا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله وملوكهم يتخذون المصانع الشامخة والقصور المزخرفة فغرتهم الحياة الدنيا وسوغوا لأنفسهم استعباد الرعية وتسخير الكافة فى توفير لذاتهم وشهواتهم فأدال الله منهم هؤلاء القوم وهم على حال اخوة وتواس فيما بينهم لا مِيزة لاحد منهم على الآخر الا بحسن البلاء أكرمهم عند الله وفيما بينهم اتقاهم لم تبهرهم الدنيا بزخرفها ولم تختلب قلوبهم بنقشها ورقشها . فمثل عمر يخشى أن يغمس أمثال سعد ابن أبي وقاص ومن على شاكلته أيديهم فيما غمست فارس والروم أيديهم فيه فيديل الله من أهل الاسلام كما أدالهم من جيرانهم بالامس

واتخاذ الابواب دون الامير وصعوبة الوصول اليه أمر لم تجر به عادة العرب ولم يألفوه فيما بينهم إلى اليوم وعمر يخشى أن يكون مبدأ جبرية يقترفها سعد تحت ظل

عمر ويأخذ الناس بها باسمه سرت اليه من اهل فارس . اذا رخص له عمر في اخذ الناس بها كان شريكا له في اثمها ومساهما له في جزائها . وهم انما كانوا يعيرون العجم بالامس ويحجونهم بمثل مايتخوف عليهم عمر مغبته اليوم ولا يحسن في القالة أن يكونوا ممن يأمرون الناس بالبر وينسون انفسهم

ان الامر الذي اخذ به سعدا مما تطرب له قلوب اهل الاشتراكية المعتدلة وتصغي اليه مسامع الفئات التي تنشد المساواة وتخفيف ويلات الانسانية وتطهير المجتمع من ادران المدنية الجائرة القاسية وتعبس له وجوه اهل الاثرة وعباد الانانية ومن يؤلهون الابهة ويقدسون الخيلاء

اما تحجيره على اهل المصرين ان يبتنوا بيوتهم في اول الامر ثم تسويغهم ذلك على شرط القصد في البناء وعدم الاستطالة فسببه ان القوم هم جند الاسلام واعباء الجهاد وحماة تلك النواحي وذادة الملة وهم على اهبة النجمة وعلى اوفاز الاغاثة ان دعا داع في ناحية من النواحي . والجندي اذا تأثل العقار وتبحبح في اتخاذ الدور المنجدة بانواع الزخرف والزينة كان ذلك أدعى الى ثقل الجهاد على نفسه ورغبته عن مزايلة مستقر راحته واذا ازعج من مكانه هذا الى وجه من الوجوه او ناحية من النواحي كان قلبه دائم الالتفات الى ماخلف وراءه من نعيم وما فارق من مال هو عدل نفسه وشقيق رُوحه . واني اقتصر على هذا واترك لكم الحكم بالانصاف في منع امير المؤمنين واذا استطاع واحد منكم ان يُفهم الصائحين فليفعل وله الاجر

ومهما كان الشأن في ذلك . فان عمر وضع تخطيط المصرين على قاعدة صحيحة محكمة فقد وسع طرقها وجعلها على نظام جميل وهي في شكلها العام تشبه ان تكون كحلوان في نظامها واتساع طرقها اذا قارنا بين ارتفاع الحيطان فيها وسَعة المناهج والطرق لافي الرواء والزينة ـ فكانت الكوفة تجمع بين سكنى المدن وهواء البادية وتربتها . وذلك أدعى الى صحة الاجسام وجودة الهواء لان سعة الطرق

للبلاد بمثابة الرئة للجسم

ومن المدن التى خططت على نظام أتم مدينة الخرطوم الحالية وقد قسمت درجات فما يلى النيل الازرق الدرجة الاولى ووراءها الدرجة الثانية فالثالثة فالرابعة وهي فى سعة الشوارع على هذا الترتيب

وقد بنيت البصرة والكوفة في سنة واحدة وان كان أهل البصرة قد نزلوها قبل ذلك وبهذا يجمع بين الاقوال المختلفة في تحديد العام الذي اسست فيه البصرة فمن قال ان ذلك كان سنة ١٤ هـ فذلك مبدأ نزولها ومن قال سنة ١٧ هـ فذلك عام تمصيرها والبناء فيها على التخطيط الذي وصفنا

وكانت ثغور الكوفة في ذلك الزمن اربعة : حلوان وما سبذان وقرقيسيا والموصل وامبرها سعد بن ابي وقاص وكانت البصرة ثغرا له امير خاص يعينه امير المؤمنين . وقد صار كل من الكوفة والبصرة مركزا حربيا تنفصل منه الجنود لحرب العجم ، ولكل منهما جنود خاصة ترابط فيه لحين الحاجة

فتح الجزيرة

يراد بالجزيرة هنا مابين دجلة والفرات من جهة الشام ويسمى جزيرة أقور وهي تشتمل على ديار مضر وديار بكر ومن امهات مدنها حرّان والرُّها والرَّقة ورأس عين ونصيبين وسنجار والخابور وماردين وآمد وميَّافارقين والموصل وغير ذلك

وكان الذي أثار فتحها ان عرب الجزيرة قد امدوا الروم بجموع كثيرة يعاونونهم على المسلمين الذين كانوا يقاتلون الروم بناحية حمص ـ فاراد عمر أن يخالفهم الى ديارهم وبلادهم ليشغلهم في انفسهم وأهليهم عن نصرة الروم

وقد نقل ابن جرير الطبري خبر فتح الجزيرة فقال أول ما أذن عمر للجند

بالكوفة بالانسياح أن الروم خرجوا وقد تكاتبوا هم وأهل الجزيرة يريدون أبا عبيدة والمسلمين بحمص فضم أبوعبيدة اليه مسالحه وعسكروا بفناء مدينة حمص وأقبل خالد من قِنَّسْرين وانضم اليهم فيمن انضم من أمراء المسالح فاستشارهم أبو عبيدة في المناجزة أوالتحصن الى مجيء الغياث . فكان خالد يأمره أن يناجزهم وكان سائرهم يأمرونه بأن يتحصن ويكتب الى عمر فاطاعهم وعصى خالداً وكتب الى عمر بخروجهم عليه وشغلهم أجناد أهل الشام عنه وقد كان عمر اتخذ على كل مصر على قدره خيولا من فضول أموال المسلمين عُدة لِكَوْنٍ ان كان . فكان بالكوفة من ذلك أربعة آلاف فرس . فلما وقع الخبر لعمر كتب الى سعد ابن مالك أن اندب الناس مع القعقاع بن عمرو وسرحهم من يومك الذي يأتيك فيه كتابي الى حمص فان أبا عبيدة قد أحيط به . وتقدم اليهم بالجد والحث . وكتب اليه أيضا أن سرح سهيل بن عدي الى الجزيرة في الجند وليأت الرقة فان أهل الجزيرة هم الذين استثاروا الروم على أهل حمص وان أهل قرقيسيا لهم سلف وسرح عبد الله بن عِتبان الى نصيبين فان أهل قرقيسيا لهم سلف ثم لينفضا حران والرها . وسرح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتنوخ وسرح عياضا فان كان قتال فقد جعلت أمرهم جميعا الى عياض بن غنم . وكان عياض من أهل العراق الذين خرجوا مع خالد بن الوليد منجدين لاهل الشام وممن انصرف أيام انصراف أهل العراق ممدين لاهل القادسية وكان يرافد أباعبيدة فمضى القعقاع في أربعة آلاف من يومهم الذي أتاهم فيه الكتاب نحو حمص وخرج عياض بن غنم وأمراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة على الفراض وغير الفراض وتوجه كل أمير الى الكورة التي أمر عليها فأتى سهيل الرقة وخرج عمر من المدينة مغيثا لابي عبيدة يريد حمص حتى نزل الجابية . ولما بلغ أهل

الجزيرة الذين أعانوا الروم على أهل حمص واستثاروهم وهم معهم مقيمون عن حديث من بالجزيرة منهم بان الجنود قد ضربت من الكوفة ولم يدروا : الجزيرة يريدون أم حمص ؟ أجفلوا فتفرقوا الى بلدانهم وأخوانهم وخلوا الروم . ورأى أبو عبيدة أمراً لما انفضوا غير الاول فاستشار خالدا في الخروج فامره بالخروج ففتح الله عليهم . اه

وعلى هذا الوجه فتحت الجزيرة على الصلح وماجرى مجراه ولم تكن بلد أيسر منها أمراً ولا أسهل منها فتحاً

كان رسول الله ﷺ قد عاهد وفد تغلب على أن لا يُنَصِّرُوا وليداً فكان ذلك الشرط على الوفد وعلى من أوفدهم ولم يلتزمه غيرهم . فلما جاء عمر ووجه اليهم الوليد بن عقبه وأبى أن يقبل منهم الا الاسلام حاجوه بأنهم لاسبيل عليهم لانهم لم يعطوا عهدا بذلك ولا شأن له عليهم ، فكتب الوليد الى عمر في شأنهم فكتب اليه عمر : انما ذلك في جزيرة العرب لايقبل منهم فيها الا الاسلام فدعهم على أن لا يُنَصِّرُوا وليداً واقبل منهم اذا أسلموا . فقبل منهم على أن لاينصروا وليدا ولا يمنعوا أحدا منهم من الاسلام . فاعطى بعضهم ذلك فاخذوا به وأبى بعضهم الا الجزاء فرضي منهم بما رضى من العِبَاد وتنوخ . على أن رضى القوم بالجزاء انما كان باسم صدقة أنفة منهم أن يساموا جزية . وذلك أن الوليد أرسل رؤساهم وديانيهم الى عمر فقال لهم عمر : ادوا الجزية . فقالوا له ابلغنامأمننا والله ان وضعت علينا الجزاء لندخلن أرض الروم والله لتفضحنا من بين العرب . فقال انتم فضحتم أنفسكم وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية وتالله لتؤدن وأنتم صَغَرَة قماة . ولئن هربتم الى الروم لا كتبن فيكم ولاسبينكم . فقالوا خذ منا شيئاً لا تسميه جزاء . فقال اما نحن فنسميه جزاء وسموه أنتم ما شئتم فقال علي بن أبي طالب : يا أمير المؤمنين ألم يُضعِف عليهم سعد بن

مالك الصدقة . قال بلى واصغى اليه ورضي منهم بالجزاء على أن يسمى صدقة . وكان في بني تغلب عز وامتناع وكانوا ينازعون الوليد فهم بهم وقال :

اذا ما عصبت الرأس مني بمِشْوَذٍ   فَغيُّك مني تغلب ابنة وائل

فخاف عمر ان يحرجوه فيخرجوه الى أن يسطوا عليهم فعزله وولى عليهم سواه

فتح الاهواز (١)

الاهواز تتاخم حدود البصرة وكان بها الهرمزان وكان من آحد بيوتات فارس وامته بتلك الناحية فكان يغير على البلاد التي دانت لحكم المسلمين . فلما علم بذلك عتبة بن غزوان وهو بالبصرة استمد سعد بن أبي وقاص فأمده بنعيم بن مقرن ونعيم بن مسعود في عسكر وأمرهما أن يأتيا ميسان ودستميسان حتى يكونا بينهم وبين نهر تيرى وأرسل عتبة بن غزوان سلمى بن القَيْن وحرملة بن مريطة في جند وأمرهما أن يكونا بين ميسان ودستميسان وبين مناذر . وقد دعَوا بني العم بن مالك وكانوا من حاضري تلك الجهة فأجاب رؤساؤهم الى أن يكونوا عونا للمسلمين واتفقوا على احداث ثورة بمناذر ونهر تيرى والهرْمُزان يومئذ بين نهر تيرى وبين دلث . فلما التقت جيوش المسلمين بجيوش الهرمزان واشتد القتال بين الفريقين كان بنو العم قد أخذوا مناذر ونهر تيري . ففت ذلك في عضده وهزم جنده فقتل المسلمون منهم ماشاءوا وأسروا منهم عدة ثم عبر الهرمزان بمن بقي معه دُجَيْلا أمام سوق الاهواز وصار دُجيل بين المسلمين ومن معهم من بني العم وبينه ثم طلب الهرمزان الصلح فعقد معه الصلح على الاهواز كلها ومهرجان قذق

---

(١) الاهواز مجموع كور عدها ياقوت عشرا وهي سوق الاهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر وجندي سابور وسوس وسرق ونهر تيرى ومناذر . وهي مقابلة البصرة

ماعدا ما فتحه المسلمون عنوة . واتخذ المسلمون مناذر ونهر تيري مسلحتين للبصرة فيهما الجنود مرابطون

أقام بنو العم مسلحة للمسلمين بتلك الناحية . ثم شجر اختلاف بين بعض رؤساء بني العم غالب وكليب وبين الهرمزان على حدود الارضين ورؤساء بنى العم يومئذ سلمى وحرملة وغالب وكليب الوائليان . فقدم سلمى وحرملة لينظرا الخلاف فوجد الهرمزان ظالماً لغالب وكليب فحالا بينه وبينهما . فنقض الهرمزان صلحه ومنع ماقبله واستعان بالاكراد فكثُف جنده وانتهى الامر الى عتبة بن غزوان فكتب بذلك الى عمر فأمره أن يمدهم بجند من عنده عليهم حُرقوص بن زهير فالتقي بنو العم وهم على ساداتهم مع جند المسلمين بجنود الهرمزان على جسر سوق الاهواز فانهزم الهرمزان وجنده وفر الى رامَهرمُز وافتتح حرقوص سوق الاهواز ونزل الجبل واتسقت له بلاد سوق الاهواز الى تُستر ووضع الجزية على أهل البلاد التي افتتحها وجد في عمارتها ثم أرسل الهرمزان في الصلح فأجابوه الى الصلح على مالم يفتح عنوة وهو رامَهُرمز وتُستر والسوس وجنديسابور والبنيان ومهرجانقذق

كان عمر يخاف أن يكون نقض أهل الذمة ما بأيديهم من العهود عن غدر من المسلمين أو ظلم منهم لاهل الذمة فكتب الى عتبة أن يوفد عليه عشرة رجال من صلحاء جند البصرة . فأوفدهم وفيهم الاحنف بن قيس . فسأله عمر عن حال الجند وعن انتقاض من ينتقض بتلك الناحية أعن ظلم هو ؟ فقال لا بل لغير ظلم والناس على ما تحب فصدقه عمر فيما قال . وقال عمر وقد رأى في ثياب الاحنف فضولا خصوا وضعوا الفضول مواضعها تريحوا أنفسكم وأموالكم ولاتسرفوا فتخسروا أنفسكم وأموالكم . وكتب عمر الى عتبة : أعزب الناس عن الظلم واتقوا الله واحذروا ان يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم لكم فيما أخذ عليكم فاوفوا بعهد الله وقوموا على

أمره يكن لكم عونا وناصرا

غزو فارس من البحرين

كان المسلمون في ناحية البصرة والكوفة بازاء الفرس وقد استقامت الاحوال في الغالب والفرس في تلك الناحية يؤدون الخراج للمسلمين لايدخل عليهم ولهم الذمة والمنعة . وكان عميد الصلح في تلك الناحية من البصرة الهرمزان . وكان عمر يريد الاكتفاء بما في أيدي المسلمين ويقول : وددت لو أن بيننا وبين فارس جبلا من نار لايصلون الينا ولا نصل اليهم

وكان العلاء بن الحضرمي عاملا لعمر على البحرين وكان له ذكر وشهرة في أيام حرب أهل الردة ليست لسعد بن أبي وقاص . فلما فتح سعد العراق والفرس وظفر بالقادسية وأزاح الاكاسرة وورث المسلمين أرضهم وديارهم . عفى ذلك على ما كان للعلاء من شهرة وبلاء وكان العلاء يباريه . فسر العلاء أن يبلى بلاء يكون في وزان ما صنعه سعد لئلا يذهب عليه بالشهرة والصيت

ندب العلاء أهل البحرين الى فارس فاسرعوا في اجابته ونزلوا عند مايسره وفرقهم اجناداً على أحدها الجارود بن المعلى وعلى الآخر السوار بن همّام ، وعلى الثالث خُلَيْد بن المنذر بن ساوي وجعله قائداً عاماً وحملهم على السفن وأجازهم في البحر الى فارس دون أن يكون قد أذن له عمر في ذلك ولم يستأذنه في شيء من هذا الامر وكان عمر يكره أن يغرر بالمسلمين أو يجيزهم الى عدوهم في ماء قبل أن يثخنوا في ناحيته ويكسروا شوكته

عبرت تلك الجنود فخرجوا وبازائهم أهل فارس وعليهم الهِربِذ فاجتمعوا على الجند وحالوا بينهم وبين سفنهم . فقام خليد في الناس فخطبهم وحثهم وقال :

أما بعد فان الله اذا قضى أمرا جرت به المقادير حتى تصيبه ، وان هؤلاء القوم لم يزيدوا على أن دعوكم الى حربهم وانما جئتم لمحاربتهم والسفن والارض لمن غلب فاستعينوا بالصبر والصلاة وانها لكبيرة الا على الخاشعين - فلما صلوا الظهر شبوا القتال بينهم و بين الفرس فقتل من قواد المسلمين السوَّار والجارود . وجعل خليد يذمر القوم ويحرضهم واشتد القتال فقتل الفرس مقتلة لم يقتلوا مثلها قبلها ولم يجد المسلمون سبيلا الى الرجوع في البحر لأن الفرس أغرقوا سفنهم فخرجوا يريدون البصرة فوجدوا شهرك قد أخذ عليهم الطرق فعسكروا وامتنعوا

وصل الخبر الى عمر فتذكر ما قدم بما حدث وخشى أن يصيب هذا العسكر ما أصاب عسكر أبي عبيد فاشتد غضبه على العلاء فعزله وكتب يتوعده وأمره بأمر يشق عليه حمله وهو أن يلحق فيمن معه بجندسعد بن أبي وقاص . وكتب الى عتبة ابن غزوان : ان العلاء بن الحضرمى حمل جنداً من المسلمين فأقطعهم أهل فارس وعصاني وأظنه لم يرد وجه الله بذلك فخشيت عليهم أن لا ينصروا وأن يغلبوا وينشبوا فاندب الناس واضممهم اليك قبل أن يجتاحوا

انتدب له انجادا من الناس كعاصم بن عمرو وعرفجة بن هرثمة والاحنف ابن قيس وسواهم من انجاد أهل الاسلام في اثنى عشر ألفاً على البغال يجنبون الخيل وعليهم أبو سبْرَة بن رُهم والمسالح على حالها بالاهواز فسار لايلقاه معارض الى أن التقى بجيش خليد وقد كان أهل اصطخر وحدهم وشذاذ من غيرهم هم الذين أخذوا الطرق على جيش خليد . فلما أقام المسلمون بمكانهم طارت الاخبار الى أهل فارس فطاروا اليهم من كل فج و ناحية وتوافت الى الفرس امدادهم وتوافت الى المسلمين امدادهم كذلك فاقتتلوا قتالا شديدا حالف المسلمين فيه الظفر ونالوا من الفرس ما شاءوا قتلا واسرا . وكانت هذه الغزوة سبباً فيما طار بين الناس من شرف نابتة البصرة وكانوا أفضل نوابت الامصار وأفضل المصرين نابتة ثم انكفأوا بما أصابوا

وعاد المُنْقَذُون من أهل هجر والبحرين الى قبائلهم من البصرة

هنا نلفت نظركم الى خطأين . فأما أولهما : فمن العلاء بن الحضرمي لانه أجاز جنده البحر الى قوم لهم قوة وشوكة وليسوا بدون جنده عدداً وعدة دون أن يكون له بتلك العدوة وزر أو فئة . ولم يكن عند السفن من يمنعها من الاعداء أن يعتروها بسوء ـ فلو أن الهزيمة كانت على جنده لاستؤصلوا وكانت نكبة دونها نكبة جسر أبي عبيد

الخطأ الثاني : ما حصل من أهل فارس باحراج جند في قوة ومنعة وقد نال منهم . ولو أن القوم وجدوا سفنهم لاجازوا فيها وخَلَّوْا للقوم ديارهم . ولكن القوم وهم في قوة عمدوا الى المكاثرة وامتنعوا حتى جاءهم المدد وتنقذهم ولم يُجدِهم ما صنعوه من اغراق السفن ولا أخذ الطرق عليهم ، بل كانت خسارة أهل فارس مضاعفة

ولما أحرز عتبة الاهواز وذل الفرس في ناحيته استأذن عمر في الحج فأذن له . فلما قضى نسكه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه ليرجعن الى عمله فانصرف فمات ببطن نخلة فدفن به . و بلغ عمر خبره فمر به زائراً وقال : أنا قتلتك ، لولا انه أجل معلوم وكتاب مرقوم . وأثنى عليه بفضله وولى عمر بدله المغيرة بن شعبة مفتتح سنة ١٨ هـ

فتح رامهرمز والسوس وتستر

كان يزدجرد بمرو وفي يده ما بقي من بلاد فارس وهو رقعة فسيحة كان في ميسوره أن يدبر أمرها لو قنع والقوم وادعون راضون به ، وعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه مقتصر المسلمين من عنائهم لايرضى لهم بالانسياح فيما وراءهم من

فارس . غير أن الله تعالى اذا أراد أمراً يسره . فان يزدجرد لم يسغ الغصة التى رمى بها . فلم يقر له قرار عن استرجاع بلاده فأخذ يحمس أهل فارس ويستثير حميتهم ونخوتهم ويهزهم لاستنقاذ بلادهم ومسح العار اللاحق بهم . فتحركوا لذلك . وكاتب بعضهم بعضاً ودخل أهل الاهواز في أمر فارس وتعاقدوا وتعاهدوا وتواثقوا على النصر . وجاءت الاخبار الى عمر والى المسلمين بالبصره . فكتب الى سعد أن ابعث الى الاهواز بعثاً كثيفا مع النعمان بن مقرّن وعجل وابعث سويد بن مقرّن وعبد الله بن ذى السهمين وجرير بن عبد الله البجلي فلينزلوا بازاء الهرمزان حتى يفرغوا من أمره . وكتب الى أبي موسى أن ابعث الى الاهواز جنداً كثيفا، وأمر عليهم سهل بن عدي وابعث معه البراء بن مالك وعاصم بن عمرو ومجزأة بن ثور وكعب بن سور وعرفجة بن هرثمة وحُذيفة بن مُحْصن وعبد الرحمن بن سهل والحصين بن معبد ، وعلى أهل الكوفة وأهل البصرة جميعاً أبو سبرة بن أبي رهم وكل من أتاه ممداً له . فخف النعمان في أهل الكوفة على البغال يجنبون الخيل حتى انتهى الى تيري فجاوزها ثم جاوز مناذر وسوق الاهواز قاصداً رامهرمز . فلما سمع الهرمزان بقصده طمع في نصر أهل فارس وأراد أن يقتطع النعمان ومن معه وبادره القتال بأربك وقد وردت أوائل الفرس تستر فاقتتلوا قتالا شديداً فانهزم الهرمزان وأخلى رامهُرمز ولحق بتُستر وأخذ النعمان رامهرمز . ولما وصل أهل البصرة الى سوق الاهواز جاءهم خبر الوقعة وان الهرمزان لحق بتستر فمالوا نحوها وراغ النعمان اليها من رامهرمز وقصدتها المسالح التي تركوها خلفهم وكان عليها حرقوص وجزء ولحق بهم سلمى وحرملة من بني العم ونزل جميعهم على تستر وبها الهرمزان وجنوده من أهل فارس . ثم جاء أبو موسى الاشعري مدداً للمسلمين فحاصروا الفرس أشهراً وقتل كل من البراء بن مالك ومجزأة بن ثور وكعب بن ثور وأبو تميمة ونفر سواهم في براز الفرس مائة مقاتل سوى من قتل منهم في غير براز

وقد زاحف المسلمون الفرس في حرب تستر ثمانين زحفا يكون ذلك لهم مرة وعليهم أخرى . فلما كان آخر زحف قال المسلمون يا برآء أقسم على ربك ليهزمنهم لنا فقال اللهم أهزمهم واستشهدني فهزموهم واقتحموا عليهم خنادقهم ففزع الفرس الى المدينة وأحاط المسلمون بها وقد ضاقت بهم المدينة

وبينما المسلمون على ذلك اذ خرج الى النعمان رجل من المدينة فاستأمنه على أن يدله على مدخل المدينة

وقال أبو حنيفة الدينوري في الاخبار الطوال ان الرجل انما كلم أبا موسى الاشعري وكان اسم الرجل سمينة وكان من أشراف المدينة فقال تؤمنني على نفسي وأهلي وولدي ومالي وضياعي حتى أعمل في أخذك المدينة عنوة فجعل له ذلك فقال ابعث معي رجلا من أصحابك فندب أبو موسى الناس لذلك الوجه . فقال الاشرس بن عوف الشيباني أنا فمضى معه حتى خاض به دجيلا ثم أخرجه في سرب حتى انتهى به الى داره ثم أخرجه من داره وقد ألقى عليه طيلسانا وقال امش ورائي كانك من خدمي ففعل ومر به في أقطار المدينة طولا وعرضا حتى انتهى به الى أحراس أبواب المدينة ثم انطلق حتى مر به على الهرمزان وهو على باب قصره ومعه ناس من مرازبته وشمع امامه حتى نظر الرجل الى جميع ذلك ثم انصرف الى داره واخرجه من السرب وعاد الى ابي موسى فأخبره الاشرس بجميع مارأى وقال وجه معي مائتي رجل حتى اقتل الحرس وافتح الباب فانتدب مائتى رجل مع الاشرس وسيمينه حتى دخلوا من ذلك النقب وخرجوا في دار سمينه وتأهبوا للحرب ثم خرجوا والاشرس امامهم حتى اتوا الى باب المدينة واقبل ابو موسى في جميع الناس حتى وافوا الباب من خارج فوافى الاشرس بمن معه وقتلوا حرس الباب وضربوا القفل حتى كسروه ودخل المسلمون ووضعوا السيف فيهم وهرب الهرمزان في عظماء مرازبته حتى دخلوا الحصن الذي في جوف المدينة وامتنعوا

به ـ ولما أحرج الهرمزان طلب ان يسلم على حكم عمر يصنع به ما شاء فرضوا منه بذلك ثم ذهبت طلائع المسلمين في اتباع الفالة وأخذ ما أحاط بتستر من البلدان

أما الرجل الذي دل المسلمين على عورة بلده فلا أدري سبب فعلته وليس من شأن الفرس هذا فهل كان له ثأر قبل الهرمزان ؟ لم أقف على ذلك

وأرسل أبو سبرة الهرمزان الى عمر فلما قدموا به الى المدينة وكان في الوفد أنس بن مالك والاحنف بن قيس ، ألبسوه كسوته من الديباج الذي فيه الذهب ووضعوا على رأسه تاجا يسمى الازين وألبسوه حليته كيما يراه عمر

فلما دخلوا المدينة قصدوا بيت عمر فلم يجدوه فقيل لهم انه في المسجد مع وفد جاءوا اليه فقصدوا المسجد فلم يجدوه فذهبوا يسألون عنه فقال لهم ولدان المدينة ماتَلَدَّدُكم تريدون أمير المؤمنين انه نائم في ميمنة المسجد متوسد بُرْنُسه فذهبوا اليه فوجدوه كما وصفوا ودرته معلقة في ذراعه فجلسوا دونه وليس في المسجد نائم ولا يقظان غيره ـ فقال الهرمزان أين عمر ؟ فأشاروا اليه فقال وأين حرسه وحجابه عنه . فقالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا كاتب ولا ديوان فقال ينبغي ان يكون نبيا ـ قالوا لا . بل يعمل عمل الانبياء . وكثر الناس واستيقظ عمر على الجلبة فاستوى جالسا ثم قال الهرمزان ؟ قالوا نعم . فتأمله وتأمل ما عليه ثم قال أعوذ بالله من النار وأستعين الله . وقال الحمد لله الذي أذل بالاسلام هذا وأشباهه . يامعشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فانها غرارة ـ وقال الوفد هذا ملك الاهواز فكلمه . فقال لا حتى لا يبقى عليه من حليته شيء . فرمى بكل شيء عليه إلا شيئا يستره وألبس ثوبا صفيقا . فقال عمر هيه ياهرمزان . كيف رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله ؟ فقال ياعمر إنا كنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم إذ لم يكن معنا ولا معكم . فلما كان معكم غلبتمونا ـ فقال عمر انما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا ثم قال عمر ماحجتك

في انتقاضك مرة بعد مرة فقال أخاف ان تقتلني قبل ان أخبرك.قال لا تخف ذلك واستسقى ماء فأتى به في اناء غليظ . فقال لو مت عطشا ماشربت في هذا . فأتى به في اناء يرضاه فجعلت يده ترتجف وقال أخاف ان أقتل وأنا أشرب الماء.فقال عمر لا بأس عليك حتى تشربه فأكفأه . فقال عمر لاتجمعوا عليه بين القتل والعطش . فقال لاحاجة لى في الماء . فقال له عمر اني قاتلك . فقال آمنتنى . فقال عمر كذبت . فقال أنس بن مالك صدق ياأمير المؤمنين . فقال عمر ويحك منى ياأنس أنا أؤمن قاتل البراء ومجزأة بن ثور . والله لتأتيني بمخرج أو لاعاقبنك . قال قلت لا بأس عليك حتى تخبرني . وقلت لا بأس عليك حتى تشرب . وقال له من حوله مثل ذلك فأقبل عمر على الهرمزان وقال خدعتنى والله لا أنخدع إلا لمسلم فأسلم الهرمزان وفرض له عمر في العطاء على ألفين وأنزله المدينة

والذي اعتقده ان عمر انما أنزله المدينة ليكفي المسلمين عواقب غدر الرجل ومكره فانه كان واسع الحيلة خداعا كما يتبين من عمله هذا وما كان منه مع المسلمين في الاهواز . والرجل لم يترك دسائسه وهو بالمدينة حتى كان من أمره ما كان حين قتل أبو لؤلؤة المجوسي عمر . ولو انه اقام بعد عمر لتحيل حتى يرجع الى بلاده ثم يكون له مع المسلمين شأن آخر . فاسلامه كما اعتقد انما كان تقية ودسيسة على الاسلام والمسلمين . وقد بلغ من قوة مكيدة الرجل ان كان يتحبب الى عمر ويوهمه انه يخلص النصح له حتى يكسب ثقته

خلص عمر الى الوفد يسأل عن المسلمين وما يعاملون الناس به وخشي أن يكونوا قد اعتروا أحداً من أهل الذمة بسوء وان يكون الانتقاض له سبب من ذلك فقال للوفد لعل المسلمين يفضون الى أهل الذمة بأذى وبأمور لها ما ينتقضون بكم فقالوا ما نعلم الا وفاء وحسن ملكة . قال فكيف هذا ؟ فقال له الاحنف يا أمير المؤمنين اخبرك انك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا بالاقتصار على مافي أيدينا وان ملك الفرس حي بين أظهرهم وانهم لايزالون يساجلوننا مادام ملكهم فيهم ولم

يجتمع ملكان فاتفقا حتى يخرج أحدهما صاحبه . وقد رأيت أنا لم نأخذ شيئاً بعد شيء الا بانبعاثهم وان ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فَلْنَسِحْ في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعز أمته . فهنالك ينقطع رجاء أهل فارس . فقال عمر صدقتني والله وشرحت لي الامر عن حقه . ثم قدمت الكتب على عمر باجتماع أهل نهاوند على قتال المسلمين . فكان ذلك سبباً لاذن عمر للمسلمين بالانسياح في بلاد فارس

فتح نهاوند

كان الفرس قد اجتمعوا بنهاوند من بلاد الجبل جنوبي همذان واستشار عمر الهرمزان . فقال ان فارس اليوم رأس وجناحان فاقطع الجناحين من الرأس وذكر له أن الرأس بنهاوند وهو بُنْدار فان معه اساورة كسرى وأهل اصبهان . فقال عمر كذبت ياعدو الله بل أعمد الى الرأس أقطعه فاذا قطعه الله لم يعص عليه الجناحان وكتب الى أبي موسى ان سر بأهل البصرة . والى حذيفة بن اليمان ان سر بأهل الكوفة فاذا التقيتم فأميركم النعمان بن مقرن المزني . وكتب الى النعمان « بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى النعمان بن مقرن سلام عليك فاني أحمد الله اليك الذي لا إله إلا هو . أما بعد . فانه بلغني ان جموعا من الاعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند فاذا أتاك كتابي هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله بمن معك من المسلمين ولا توطئهم وعرا فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتكفرهم ولا تدخلنهم غيضة فان رجلا من المسلمين أحب الى من مائة الف دينار والسلام عليك » فسار النعمان في جند المسلمين وفيهم أعيان الصحابة ووجوه العرب وانجادهم . فلما انتهى الى نهاوند بث العيون ليتعرفوا له حال ناحيتها فاخبروه بأن القوم قد ألقوا حولهم الحسك وهم ممتنعون

حط المسلمون في تلك الناحية وانشبوا القتال مع الفرس أياماً ثم انجحروا في خنادقهم لايخرجون الا اذا شاءوا . وخاف المسلمون أن يطول بهم المقام عليهم فكلموا النعمان في الامر فجمع أهل الرأي والنجدة في الجند وأجال معهم الرأي فيما ينبغي أن يصنعه والقوم معتصمون أشد اعتصام بالحصون والخنادق والمدائن والمسلمون لايقدرون على انفاضهم وانبعاثهم وانه انما يريد أن يحمسهم ويستخرجهم الى المنابذة وترك التطويل . فقال عمرو بن ثُبَيّ وكان أكبر الناس سناً وكانوا يبدأون بذوي الاسنان . فقال : التحصن عليهم أشد من المطاولة عليكم فدعهم ولا تخرجهم وطاولهم وقاتل من أتاك منهم . فردوا عليه جميعاً رأيه وقال عمرو بن معد يكرب : ناهدهم وكاثرهم ولا تَخَفْهم . فردوا عليه رأيه وقالوا انما تناطح بنا الجدران والجدران لهم أعوان علينا . وقال طليحة الاسدي : قد قالا ولم يصيبا ما أرادا . واما أنا فأرى أن نبعث خيلا مؤدبة فيحدقوا بهم ثم يرموهم لينشبوا القتال ويحمسوهم فاذا استحمسوا واختلطوا بهم وأرادوا الخروج ارزوا الينا استطراداً فانا لم نستطرد لهم في طول ما قاتلناهم وانا اذا فعلنا ذلك ورأوا ذلك منا طمعوا فينا ولم يشكوا في هزيمتنا فخرجوا فجادونا وجاددناهم حتى يقضي الله فينا وفيهم ما أحب فرُضي منه هذا القول . وأمر القعقاع . ففعل وانشب القتال فانفضهم ثم نكص ونكص وظنها الاعاجم هزيمة فاغتنموها وخرجوا حتى لم يبق منهم سوى من يحرس الابواب وتقهقر القعقاع الى المسلمين حتى انقطع الفرس عن حصنهم وقد أمر النعمان الناس بأن يلزموا الارض ولا يقاتلوا حتى يأذن لهم وقد رماهم الفرس وفشت فيهم الجراحات وجعلوا يستأذنون في الهجوم وهو يلبثهم ثم أمر بالهجوم وصار يمشي في الرايات ويقول : قد علمتم ما أعزكم الله به من هذا الدين ، وما وعدكم من الظهور ، وقد أنجز لكم هوادى ما وعدكم وصدوره ، ولم يبق الا اَعجازه وأ كارعه والله منجز وعده ومتبع آخر ذلك أوله واذ كروا اذ كنتم أذلة

وما استقبلتم من هذا الامر وأنتم اعزة . فأنتم اليوم عباد الله حقا وأولياؤه . وقد علمتم انقطاعكم من اخوانكم من أهل الكوفة والذي لهم في ظفركم وعزكم والذى عليهم في هزيمتكم وذلكم . الى آخر ما كلمهم واطال به

بعثهم فانبعثوا الى الاعداء فاقتتل الناس بالسيوف اقتتالا شديدا لم يسمع الناس بوقعة يوم قط كانت أشد هولا منها . وقتل من الفرس فيما بين الزوال والعتمة ما طبق أرض الميدان وما يزلق الناس والدواب . وأصيب النعمان فأخذه أخوه سواد وسجاه بثوبه . وتناول الراية حذيفة بن اليمان ولا يعلم الناس بمصاب النعمان و كتم ذلك من علمه لئلا يهن الناس حتى اذا اقبل الليل انكشف الفرس ولزم المسلمون مجالدتهم فعمي السبيل على الفرس وهووا فى هاوية كانت هناك بعيدة الغور ولم ينج من جموع الفرس سوى الشريد ـ وكان فيهم الفيرزان فهرب من بين الصرعى وتبعه القعقاع وهو يتعقب الفلال حتى أخذه ووصل القعقاع الى همذان . وقد هال ذلك أهل البلاد القريبة من نهاوند فصالحوا ودخل المسلمون نهاوند واحتووا ما فيها من الاموال وكان شيئا كثيرا واقبل الهربذ صاحب بيت النار يطلب الامان لنفسه ولمن يريد على أن يؤدي اليهم ما وضع عنده النخيرجان من ذخائر كسرى وهي جوهر كان اعده لنوائب الزمان فاجمع رأي المسلمين على رفعه الى عمر مع الاخماس وخرج بذلك السائب بن الاقرع وأدى اليه ذلك . ولم يقبل عمر سفطى الدر بل ردهما على حذيفة ليقسم اثمانهما بين المسلمين ولم يرض بشيء مما خصوه به وهو كنوز كسرى

وقد بكى عمر لاستشهاد النعمان بكاء شديدا حتى سمع له نشيج . وبعد انتهاء الموقعة أذن عمر للمسلمين بالانسياح في بلاد الفرس لقطع مادة الشغب وليبأس الملك من عود ملكه اليه حتى لا يكون كالشوكة في جنب المسلمين . فعين رؤساء الجنود التى تذهب لافتتاح البلدان وأرسل اليهم بالالوية وهم :

(١) الاحنف بن قيس التميمي ووجهه الى خراسان

(٢) مجاشع بن مسعود السلمي ووجهه الى اردشير خره وسابور

(٣) عثمان بن أبي العاص الثقفي ووجهه الى اصطخر
(٤) سارية بن زنيم الكناني ووجهه الى فَسا ودار بُجِرْد
(٥) سهيل بن عدي ووجهه الى كرمان
(٦) عاصم بن عمرو ووجهه الى سجستان
(٧) الحكم بن عمير التغلبي ووجهه الى مكران
وقد استعدت هذه الجنود الى وجهها مفتتح سنة ١٨ ه

فتح اصبهان

اصبهان اقليم من نواحي الجبل تجمع بها جمع للفرس فسار اليهم عبد الله بن عبد الله بن عتبة في جند من المسلمين وصار يغلب على البلاد حولها ويصالح من طلب الصلح منهم حتى انتهى الى اصبهان وكان بينه وبين ملكها الفاذوسبان زحوف وكان ذلك بقاعدة هذا الاقليم وهي (جَي) ثم خرج الفاذوسبان وقال لعبد الله : لاتقتل أصحابي ولا أقتل أصحابك ولكن ابرز لي فان قتلتك رجع أصحابك وان قتلتني سالمك أصحابي وان كان أصحابي لايقع لهم نُشابة . فبرز له عبد الله وقال اما أن تحمل علي واما أن أحمل عليك . فقال أحمل عليك . فوقف له عبد الله وطعنه الفاذوسبان فاصاب قربوس سرجه فكسر وقطع السرج واللبب والحزام وأزال اللبد والسرج وعبد الله على الفرس فوقع قائماً واستوى على الفرس عُرْياً وقال له انبت ، فحاجزه وقال ما أحب أن أقاتلك قد رأيتك رجلا كاملا ولكن أرجع معك الى عسكرك فأصالحك وأدفع المدينة اليك على أن من شاء أقام ودفع الجزية وأقام على ماله وعلى أن تجري من أخذتم أرضه عنوة مجراهم ويتراجعون . ومن أبي أن يدخل فيما دخلنا فيه ذهب حيث شاء ولكم أرضه فان لكم ذلك

ودخل أهل جي في الذمة الا ثلاثين رجلا من أهل اصبهان خالفوا قومهم وتجمعوا فلحقوا بكرمان

قال الطبري وقدم أبو موسى الاشعري من ناحية الاهواز وقد صالح الفاذوسبان عبد الله ثم قال : ودخل أبو موسى وعبد الله جي وقد جاء كتاب عمر الى عبد الله أن سر حتى تقدم على سهيل بن عدي على قتال من بكرمان

وكان كتاب صالح اصبهان « بسم الله الرحمن الرحيم * كتاب من عبد الله للفاذوسبان وأهل اصبهان وحواليها . انكم آمنون ما أديتم الجزية وعليكم من الجزية بقدر طاقتكم في كل سنة تؤدونها الى الذي يلي بلادكم عن كل حالم ، ودلالة المسلم واصلاح طريقه وقراه يوما وليلة وحملان الراجل الى مرحلة ولا تسلطوا على مسلم وللمسلمين نصحكم وأداء ما عليكم ولكم الامان ما فعلتم فاذا غيرتم شيئاً أو غيره مغير منكم ولم تسلموه فلا أمان لكم ومن سب مسلما بلغ منه فان ضربه قتلناه . وكتب وشهد عبد الله بن قيس ، وعبد الله بن ورقاء ، وعصمة بن عبد الله »

فتح اذربيجان

صقع جليل ومملكة عظيمة الغالب عليها الجبال وحدها من برذعة مشرقا الى ارزنجان مغربا ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الجبل والديلم وقصبتها تبريز وكانت قبل مدينة المراغة.

وذلك أن نعيم بن مقرن كان في همذان بعد ان فتحها فبلغه أن الفرس تجمعوا بواج روذ بين همذان وقزوين . فخرج اليهم وأنشب القتال معهم في ملحمة كبرى كانت تعدل وقعة نهاوند وهزمهم هزيمة منكرة

فتح الرى

الري قصبة بلاد الجبال بينها وبين نيسابور ١٦٠ فرسخا والى قزوين ٢٧ فرسخا وكانت مدينة عظيمة جداً ويقال في النسبة اليها رازي

لما فرغ نعيم من أمر واج الروذ قصد الري فقهر المجتمعين في تلك الناحية ثم دانوا له بالصلح وكان الذي ولى الصلح عنهم رئيسهم الزينبي أبو الفرّخان وبعد ان تم صلحهم بعث أخاه سويد بن مقرن الى قومس ، فسار اليها وأخذها سلماً .

ومن هناك كاتبه ملك جرجان (وهي مدينة عظيمة بين طبرستان وخراسان) بالصلح فكتب له كتاب صلح وتابعهم على ذلك أهل طبرستان

فتح الباب

الباب مدينة عظيمة على بحر طبرستان (بحر قزوين) وهي ثغر عظيم

سار سراقة بن عمرو على رأس جيش الى الباب وعلى مقدمته عبد الرحمن ابن ربيعة . فلما أطل عبد الرحمن على الباب كاتبه ملكها شهربراز مستأمنا ليأتيه فأمنه عبد الرحمن فجاء الملك اليه وبظهر ان هذا الملك كان حكيما عاقلا رأى العبرة في غيره فلم يقبل أن يكون عبرة لسواه . وقد رأى المسلمين قد غلبوا فارس على العراقين والاهواز وغيرها وانه وان كان في بلد منيع وثيق الحصون وعنده من الحماة من يقدر على الامتناع مدة غير ان ذلك ينهك قوته ويضعفه عمن يتاخمون حدوده من الاعداء وليس وراءه بعد سوى التسليم لحكم قاهريه وليس وراء ذلك سوى القتل وسبي الذرية فأحب أن يبقي على نفسه ومن معه من الرجال والذرية والنساء وان يتركوا على حال عافية ليكون ذلك أبقى لهم عاقبة وأعونَ على مصاولة من وراءهم من الاعداء.

قال الملك لعبد الرحمن : اني بازاء عدو كلب وامم مختلفة لاينسبون الى احساب ، ولا ينبغي لذي الحسب والعقل ان يعين امثال هؤلاء ولا يستعين بهم على ذوي الاحساب والاصول ، وذو الحسب قريبُ ذي الحسب حيث كان ولست من القبج في شيء ولا من الارمن وانكم قد غلبتم على بلادي وامتي وانا اليوم منكم وصغوى معكم وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر لكم والقيام بما تحبون ، فلا تذلونا بالجزية فتوهنونا لعدوكم

كلام جميل وعبارة ناصعة تدل على عقل وبعد غور في السياسة . وما كان جواب عبد الرحمن الا ان قال له : فوقي رجل قد اظلك . وجوّزه . فسار الى سراقة فلما جاءه وكلمه بمثل ما كلم به عبد الرحمن وقع ذلك من سراقة موقعا فقال له : قد قبلت ذلك فيمن كان معك على هذا مادام عليه ، ولا بد من الجزاء ممن يقيم ولا ينهض . فقبل ذلك وصار سنة فيمن كان يحارب العدو من المشركين وفيمن لم يكن عنده الجزاء الا ان يستنفر فتوضع عنهم الجزاء تلك السنة . وكتب بذلك سراقة الى عمر فاجازه وحسنه . وكان في كتاب صلحهم الامان على انفسهم وأموالهم . وان ينفروا لكل غارة وينفذوا لكل أمر ناب أولم ينب رآه الوالي صلاحاً على أن توضع الجزاء عمن اجاب الى ذلك الا الحشر والحشر عوض عن جزائهم . ومن استغنى عنه منهم وقعد فعليه مثل ماعلى اهل اذربيجان من الجزاء والدلالة والنزل يوما كاملا فان حشروا وضع ذلك عنهم وان تركوا اخذوا به . وهذه سنة حسنَة في عهد عمر بن الخطاب ، فليست الاستعانة بالمخالفين ووضع جزية الحماية عنهم بدعة جديدة

ثم وجه سُراقة بعد ذلك فصائل الى الجبال المحيطة بارمينية موقان وتفليس وجبال اللان فلم ينجح أحد منهم في غزَاته سوى بكير بن عبد الله الذي توجه الى موقان من جبال القبج واعطاهم الامان على الجزاء عن كل حالم والدلالة والنزل

للمسلم يوماً وليلة ـ وكان غزو سراقة ومن معه على هذا الوجه لم يخطر لعمر ولا لغيره ببال. لان جيشا ليس بالضخم يخرج الى مثل هذا الوجه بغير زاد ولا مؤونة ثم يلاقي هذه السهولة في الفتح والنجاح أمر يتعجب منه، وبخاصة ان هذه الناحية ثغر عظيم حافل بالجند، والفرس كانوا يتوقعون ان تكون نكاية جند الاسلام في هذه الناحية، فجاء الامر على مالا يشتهون. وقد مات سراقة بعد ان استوثق اهل هذه الناحية واستحلوا الاسلام. وكان قد استخلف عبد الرحمن بن ربيعة فاقره عمر ـ وقد غزا عبد الرحمن فيما وراء الباب. فلما قطعه لوجهه ذاك قال له شهر براز ماتريد أن تصنع؟ قال اريد بلنجر. فقال انا نرضي منهم أن يدعونا. قال ولكنا لانرضى منهم بذلك حتى نأتيهم في ديارهم وتا لله ان معنا لاقواما لو يأذن لنا أميرنا في الامعان لبلغت بهم الردم. قال ومن هم. قال: أقوام صحبوا رسول الله ﷺ ودخلوا في هذا الامر بنية كانوا أصحاب حياء وتكرم فازداد حياؤهم وتكرمهم فلا يزال هذا الامر دائما لهم ولا يزال النصر معهم حتى يغيرهم من يغلبهم وحتى يلفتوا عن حالهم بمن غيرهم. ثم اخذ عبد الرحمن طريقه حتى غزا بلنجر غزاة لم تئم فيها أمرأة ولم ييتم فيها صبي. وبلغ بخيله البيضاء على مائتي فرسخ من بلنجر وذلك أن أهل البلاد لما رأوا هؤلاء القوم قد طلعوا عليهم حال الله بين الترك اهل تلك الناحية وبينه واوقع الرعب في قلوبهم فقالوا: لولا ان الملائكة تمنعهم من الموت لم يجترئوا علينا. فتحصنوا منهم ورجع عبد الرحمن بالغنم والظفر

فتح خراسان

(بلاد واسعة في شرق الفارسية وقصبتها مرو . وبها نيسابور وهراة وبلخ وطالقان ونسا وابيورد وسرخس وغير ذلك من المدن التي دون نهر جيحون)

سبب هذه الغزوة ان كسرى يزدجرد لما وقعت هزيمة جلولاء خرج يريد الري وقد جعل له محمل واحد يطبّق ظهر بعيره فاذا سار نام فيه ولم يعرس بالقوم . فلما انتهى الى الري وعليها أبان جاذويه وثب عليه فأخذه . فقال له أتغدر بي ؟ قال لا ولكن قد تركت ملكك وصار في يد غيرك فاحببت ان أكتتب على ما كان لي من شيء وما أردت غير ذلك . ووصل الادَمَ واكتتب الصكاك وسجل السجلات بكل ما أعجبه ثم ختم عليها ورد الخاتم . وكره يزدجرد المقام معه فخرج الى كرمان والنار معه . ثم عزم على خراسان فأتى مرو فنزلها وقد نقل النار فبنى لها بيتا واتخذ بستانا وبني أزجا فرسخين من مرو الى البستان واطمأن في نفسه وأمن أن يؤتى وكاتب الاعاجم فيما لم يفتحه المسلمون فدانوا له حتى أثار أهل فارس والهرمزان فنكثوا وثار أهل الجبال مع الفيرُزان فكان ذلك سببا لتغيير عمر رأيه في الانسياح في بلاد الفرس فانساح أهل البصرة والكوفة حتى أثخنوا في الارض وتوجه الاحنف بن قيس الى خراسان فأخذ على مهرجان قذق ثم الى اصبهان وأهل الكوفة محاصرو جي . فدخل خراسان من الطبسين فافتتح هراة عنوة واستخلف عليها صُحار العبدي ثم سار نحو مرو الشاهجان وأرسل مُطرّف بن عبد الله بن الشِّخِّير وليس دونها قتال وأرسل الحارث بن حسان الى سرخس . فلما دنا الاحنف من مرو الشاهجان خرج منها يزدجرد الى مرو الروذ حتى نزلها وحل الاحنف بمرو الشاهجان

كتب يزدجرد وهو بمرو الروذ الي خاقان ملك الترك يستمده جنداً يقاتل بهم العرب فأمده . وكتب الى ملك الصُّغد كذلك والى ملك الصين يستعينه

أما الأحنف بن قيس فاستخلف على مرو الشاهجان حارثة بن النعمان الباهلي بعد أن لحقت به امداد الكوفة على أربعة أمراء وهم: علقمة بن النضر النصري، وربعي بن عامر التميمي، وعبد الله بن أبي عقيل الثقفي، وابن أم غزال الهمْداني. ثم خرج الاحنف سائراً نحو مرو الروذ فخرج منها يزدجرد ومرَّ على وجهه الى بَلْخ فأقام الاحنف بمرو الروذ وقدم جنود اهل الكوفة الى بلخ ثم اتبعهم الاحنف فالتقت جنود أهل الكوفة بيزدجرد ومن معه فانهزم يزدجرد وتوجه بمن بقي معه من الفرس الى النهر فعبره ولحق الأحنف بأهل الكوفة وقد فتح الله عليهم وحصلت بلخ في أيديهم وتتابع أهل خراسان ممن شذ أو تحصن على الصلح فيما بين نيسابور الى طخارستان وعاد الاحنف الى مرو الروذ واستخلف على طخارستان ربعي بن عامر. ثم كتب الأحنف الى عمر بفتح خراسان، فقال: لوددت اني لم أكن بعثت اليها جنداً، ولوددت انه كان بيننا وبينها بحر من نار. وكتب عمر الى الأحنف: «أما بعد فلا تجاوزن النهر، واقتصر على ما دونه وقد عرفتم بأي شيء دخلتم خراسان فداوموا على الذي دخلتم به خراسان يدم لكم النصر وإياكم أن تعبُروا فتنفضوا»

كان عبور يزدجرد قبل أن يستنجد بخاقان وعوزك ملك الصغد انجاد يزدجرد والملوك ترى حقاً عليها انجاد الملوك. فأقبلت جيوش الترك وحشر أهل فرغانه والصُغْد وعاد بهم يزدجرد الى خراسان فلما عبر الى بلخ خف أهل الكوفة الذين بها الى مرو الروذ وجاء اليها المغيثون والاحنف بها. وكان الاحنف حين بلغه عبور القوم يخرج يتسمع ليلا فمر برجلين ينقيان علفا واحدهما يقول للآخر: لو أن الأمير جعل هذا الجبل خلف ظهورنا وتركنا نقاتل العدو من وجه واحد رجوت أن يكون النصر لنا. فأخذها الاحنف وعمل بها. وجاءت جموع الترك وسواهم فصاروا يقاتلون حتى اذا جاء الليل انشمرا الى مكان بعيد ـ ولم يهدأ للأحنف روع حتى علم أين يكونون.

ثم خرج ليلة وحده حتى اذا كان بمكان قريب منهم وقف فلما كان وجه الصبح خرج فارس منهم ومعه طبل فطبل به ثم أخذ مكاناً وقف فيه فجاء الاحنف فقتله . ثم خرج الثاني ففعل فعله ثم وقف فقتله الاحنف . ثم خرج الثالث ففعل فعلهما فالحقه بهما وانصرف لايشعر به أحد من المسلمين . فلما خرج الترك وجدوا فرسانهم قتلى فتطيروا ورجعوا عودهم على بدئهم يؤمون بلادهم وقالوا : لاخير لنا في قتال هؤلاء

وفي تلك الاثناء ذهب يزدجرد فيمن معه من الفرس الى مرو الشاهجان والاحنف لايعلم به فتحصن منه حارثة بن النعمان ومن معه فحصرهم واستخرج كنوزاً كانت له فاعجل عنها . وأراد أن يستقل فأراد أهل فارس صرفه عن قصده وقالوا له ان هذا رأي سوء منك انك انما تأتي قوماً في مملكتهم وتدع مملكتك وأرضك وقومك ولكن ارجع بنا الى هؤلاء القوم فنصالحهم فانهم أوفياء وأهل دين وهم يلون بلادنا . وان عدواً يلينا في بلادنا أحب الينا ملكة من عدو يلينا في بلاده ولا دين لهم ولا ندري ما وفاؤهم . فأبى عليهم وأبوا عليه وقاتلوه وهزموه وكاتبوا الاحنف بالخبر فاعترضهم المسلمون والفرس ينازعونه فاعجلوه عن الاثقال ومضى حتى قطع النهر الى فرغانة والترك فلم يزل مقيما هناك زمان عمر . وأقبل أهل خراسان على الاحنف يصالحونه ودفعوا اليه الخزائن وتراجعوا الى بلدانهم وأموالهم على أفضل ما كانوا في زمان الاكاسرة كانما هم في ملكهم الا أن المسلمين أوفى وأعدل عليهم فاغتبطوا وغبطوا

ولما عاد رسول يزدجرد الذي بعثه الى ملك الصين أخبره انه أهدى اليه هدايا وانه سأله عن القوم الذين غلبوهم على بلادهم وقال له انك تذكر قلة منهم وكثرة منكم ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم الا بخير عندهم وشر فيكم ، فقلت : سلني عما أحببت . فقال : أيفون بالعهد ؟ قلت : نعم . قال : وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم ؟ قلت يدعوننا الى واحدة من ثلاث : إما دينهم فان أجبناهم أجرونا مجراهم ، أو الجزية والمنعة ، أو المنابذة . قال : فكيف طاعتهم أمراءهم ؟ قلت : أطوع قوم لمرشدهم . قال : فما يحلون وما يحرمون ؟

فأخبرته فقال: أيحرمون ما يحلون أو يحلون ما يحرمون؟ قلت: لا. قال: فان هؤلاء لا يهلكون أبداً حتى يحلوا حرامهم ويحرموا حلالهم. ثم قال: أخبرني عن لباسهم فأخبرته. وعن مطاياهم فقلت الخيل العراب ووصفتها فقال: نعمت الحصون هذه. ووصفت له الابل وبروكها وانبعاثها بحملها فقال: هذه صفة دواب طوال الاعناق. وكتب مع الرسول الى يزدجرد انه لم يمنعني أن أبعث اليك بجيش أوله بمرو وآخره بالصين الجهالة بما يحق علي ولكن هؤلاء القوم الذين وصفهم لي رسولك لو يحاولون الجبال لهدوها. ولو خلا لهم سربهم ازالوني ماداموا على ما وصف فسالمهم وأرض منهم بالمساكنة ولا تهجهم مالم يهيجوك

فتوح أهل البصرة

كان مما فتحه أهل البصرة من البلاد الفارسية - توج - فتحها سارية بن زنيم الدؤلي - ثم فتح فسا و دار بجرد - وفتح عثمان بن أبي العاص اصطخر - وفتح سهل ابن عدي كرمان - وفتح عاصم بن عمرو سجستان - وفتح الحكم بن عمرو التغلبي مكران

قد نقل الاستاذ الخضري حديثاً طريفاً هو حديث قيس بن سلمة وكان عمر قد ولاه قيادة جيش لمقاتلة الأكراد، فسار اليهم وهزمهم. ولما قسم على الجند النفل رأى شيئاً من حلية. فقال: ان هذا لا يبلغ فيكم شيئاً فتطيب نفوسكم أن نبعث به الى أمير المؤمنين فان له برداً ومؤونة؟ قالوا نعم، قد طابت أنفسنا. فجعل تلك الحلية في سفط ثم بعث برجل من قومه يوصل ذلك الى عمر. قال الرسول: فأتيت الى المدينة فاذا عمر يغدي الناس متكئاً على عصا كما يصنع الراعي وهو يدور على القصاع. فلما دفعت اليه قال: اجلس. فجلست في أدنى الناس فاذا طعام فيه خشونة - طعامي الذي معي أطيب منه، فلما فرغ الناس، قال يايرفأ: ارفع قصاعك

ثم أدبر ، فاتبعته ، فدخل داراً ثم دخل حجرة ، فاستأذنتُ وسلمت ، فأذن لي فدخلت عليه فاذا هو جالس على مسح متكيء على وسادتين من ادم محشوتين ليفاً فنبذ الي باحداهما فجلست عليها . فاذا هو في صفة فيها بيت عليه سُتَيْر فقال : يا أم كلثوم غداءنا ، فأخرجت اليه خبزة بزيت في عرضها ملح لم يدق فقال : يا أم كلثوم ، ألا تخرجين الينا فتأكلين معنا من هذا ؟ فقالت : انى أسمع عندك حس رجل ، قال نعم . ولا أراه من أهل البلد . قالت : لو أردت أن أخرج الى الرجال لكسوتني كما كسا ابن جعفر امرأته ، وكما كسا الزبير امرأته ، وكما كسا طلحة امرأته . قال : أو ما يكفيك أن يقال أم كلثوم بنت على بن أبي طالب وامرأة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - ثم قال : كل فلو كانت راضية لأطعمتك أطيب من هذا - قال : فأكلت قليلا وطعامي الذي معي أطيب منه وأكل . فما رأيت أحداً أحسن أكلا منه . ما يتلبس طعامه بيده ولا فمه . ثم قال : اسقونا . فجاءوا بعُس من سُلت . فقال اعطِ الرجل قال : فشربت قليلا ثم أخذه فشرب حتى قرعَ القدح جبهته ، فقلت حاجتي يا أمير المؤمنين ، أنا رسول سلمة بن قيس . قال : مرحباً بسلمة بن قيس ورسوله حدثني عن المهاجرين كيف هم ؟ قلت هم كما تحب من السلامة والظفر على عدوهم . قال : كيف اسعارهم . قلت : أرخص أسعار ، قال : كيف اللحم فيهم فانها شجرة العرب ولا تصلح العرب الا بشجرتها ، قلت : البقرة بكذا والشاة بكذا . ثم أدى اليه رسالته وأخبره خبر الحلية التي اختصه بها سلمة . فلما نظر الى فصوصها وثب ثم جعل يده في خاصرته . ثم قال : لا أشبع الله اذن بطن عمر . ثم قال : كف ما جئت به ، أما والله لئن تفرق المسلمون في مشاتيهم قبل أن يقسم هذا فيهم لافعلن بك وبصاحبك الفاقرة . قال : فارتحلت حتى أتيت سلمة . فقلت : ما بارك الله لي فيما اختصصتني به . اقسم هذا في الناس قبل أن يصيبني وإياك فاقرة . فقسمه عليهم

هذه الحكاية لاتخبرنا بحديث لانعلمه عن عمر في زهده وتقشفه في منزله

وأخذه أهله بذلك ولكنها تنبيء عن زهد في الدنيا وقد عرضت عليه وخروجه منها وقد تلبست به وتشبثت باهدابه وذلك ينبيء عن قوة ارادة لاتبلغ الا بمعونة الله تعالى . فقد كانت الحلية حلاً بِلاً له جاءته عن طيب خاطر من أصحابها رضية بها نفوسهم . ولكنه يرى القوم جند الاسلام وعزه فهو يريد توفير السعادة لهم وايثارهم بالغنى ليزدادوا رغبة فيما هم بسبيله وهو لايريد تغيير حاله التي هو فيها لئلا تشغله الدنيا عنهم وتصدف به عن الالتفات الى أحوالهم - وفوق ذلك فانه يريد قطع مادة الطموح الى غنائم المسلمين ونفلهم لئلا يكون أخذ مثل هذه اليوم بحق مدرجة لامتداد يد غيره من بعده الى امثالها بغير حق متأولين في تناول ما يتناولون ما كان من عمر من أخذ بعض الغنائم ولا يبعد أن يتأولوا أن ذلك كان صفيا له . فيأخذوا بحقه ما هو باطل و يستحلوا ما هو محرم . فيكون ذلك مدرجة للفساد وفشو الطمع وحب الاثرة وفي ذلك هلاك الراعي والرعية

وبما تقدم من الفتوح التي سردناها سقطت مملكة فارس نهائياً بيد المسلمين وصار لهم قطعة من الأرض يحدها من الغرب نهر الفرات والخليج الفارسي ومن الشرق نهرا جيحون والسند ومن الجنوب المحيط الهندي ومن الشمال بلاد أرمينية . وكان افتتاح ذلك كله في زمن لم يتجاوز سبع سنين ، وكان النصر لهم رفيقاً في كل الوقائع التي واقعوا فيها الفرس الا قليلا . وكان للمسلمين اسم جميل عند عامة الفرس لما رأوا فيهم من العدل والوفاء وحسن الملكة . وكيف لايكون ذلك دأبهم وعمر يواليهم بالنصائح والعظات ولا يترك فرصة تمر دون تذكيرهم بالوفاء والعدل وحسن السيرة فيما بينهم وفي أهل ذمتهم

وقد كان شهر براز مع عبد الرحمن بن ربيعة وجاءت شهر براز ياقوتة ثمينة ، فناولها لعبد الرحمن فنظر فيها ثم ردها اليه . فقال شهر براز وهو صاحب الباب : لهذه خير من هذا البلد - يعني مدينة الباب - وأيم الله لانتم أحب الي ملكة من

آل كسرى ، ولو كنت في سلطانهم ثم بلغهم خبرها (الياقوتة) لانتزعوها منى وأيم الله لايقوم لكم شيء ماوفيتم ووفى ملككم الأكبر

والى هنا ننقل الكلام الى ما حصل في أرض الروم في عهد عمر رضي الله عنه

الفتوح فى بلاد الروم

لم يتفق المؤرخون على ترتيب الوقائع في مملكة الروم فبعضهم يقدم بعض الوقائع على بعض مع اتفاقهم على حصول تلك الوقائع ونتائجها . والسبب في هذا الاختلاف تلاحق الوقائع وتواليها فيما بين السنة ١٣ والسنة ١٤ . فربما كان حصول واقعتين في وقت واحد فيذكر الراوي احدى الواقعتين ثم يثنى بالأخرى فيتلقف الكاتب ذلك ويرتبهما على حسب ترتيبهما في الذكر ويقدم احداهما على الأخرى . فاذا جاء راو آخر وعكس الترتيب في الذكر تبعه مؤرخ آخر وصار على طريقته . وربما فتح البلد الواحد مرتين وفتح بلد آخر بينهما فيذكر الراوي الفتح الأول ثم يذكر فتح البلد الآخر - ثم يأتي راو آخر ويذكر فتح البلد الآخر ثم يذكر الفتح الثاني . وهكذا

قال صاحب أشهر مشاهير الاسلام : أما أمراء المسلمين فقد أوغلوا بجيوشهم في احشاء البلاد . فنزل أبو عبيدة الجابية ، ونزل شرحبيل الاردن ، ونزل عمرو ابن العاص العربة من فلسطين . وكان يزيد البلقاء . ومن ثم اختلف المؤرخون في كيفية ترتيب الوقائع . فمن قائل ان أول وقعة كانت بين المسلمين والروم وقعة اليرموك ، ومن قائل غير ذلك . والذي قال بالأول بنى قوله على أن المسلمين لما تفرقوا في البلاد وراعهم ماجمعه لهم هرقل من الجموع استشاروا عمرا فأشار عليهم

بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك وكتبوا الى أبي بكر فأمدّهم بخالد بن الوليد . ولما وصل اليهم وجد الامراء متساندين فتأمر عليهم . الى أن قال :

مع أن امعان الامراء بجيوش المسلمين في الجزء الجنوبي والجنوب الغربي من البلاد ووصول بعضهم الى الأردن قرب طبرية والبعض الآخر الى فلسطين . ثم اختلاف المؤرخين في عزل خالد بن الوليد هل كان وهم على دمشق أم في اليرموك .

كل هذا يؤيد أن واقعة اليرموك انما كانت بعد وقائع كثيرة كواقعة مرج الصفر وواقعة اجنادين التي بشر أبو بكر بظفر المسلمين فيها بآخر رمق وواقعة العربة من فلسطين وغيرها ، وأن المسلمين افتتحوا كثيراً من البلاد قبل اليرموك صلحاً أو حرباً . ويؤيد هذا ما ذكرناه سابقاً عن البلاذري من أن أهل حمص عاهدوا المسلمين على الوفاء لما أجلت حاميتهم عن حمص بقصد الاجتماع مع بقية الجيوش على اليرموك

ويدل على أن لجيوش المسلمين مع بعض مدن الشام وبلاده وقائع قبل اليرموك قول القعقاع بن عمرو وقد كان في جيش خالد الذي جاء من العراق :

بَدَأنا بجمع الصفّرين فلم ندع	لغسان انفاً فوق تلك المناخر
صبيحة صاح الحار ثان ومن به	سوى نفر نجتذّهم بالبواتر
وجئنا الى بُصرَى وبصرى مقيمة	فألقت الينـا بالحشى والمعاذر
فضضنا بها أبوابهـا ، ثم قابلت	بنا العيس في اليرموك جمع العشائر

فتح دمشق

قدمنا أن وقعة اليرموك كانت في أول خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وان الرسول جاء بموت أبي بكر وتولية عمر يوم الوقعة واسَرّ الى خالد بالامر وان خالدا كتم الامر الى تمام الوقعة وانتهائها بالفتح

فلما انتهى أمر اليرموك ، استخلف أبو عبيدة عليها بشير بن كعب الحميري وسار حتى نزل بالصفر ، فأتاه الخبر بأن فلة الروم نزلوا بفحل وان الروم قد توافى مددهم الى دمشق ، فكتب الى عمر بذلك ، فأمره عمر بأن يسير فيبدأ بدمشق فانها حصن الشام وبيت ملكهم وأن يشغل من بفحل بخيل تكون بازائهم حتى اذا فتح دمشق عاد الى فحل فنازل من بها . وقد كتبت في سنة ١٣٣٦ (١٩١٨م) ما يأتي :

البدء بالقوة الكبرى أمر تسير عليه قواد الجيوش وأهل الفنون الحربية في هذا الزمن . فقد كان من هم قواد الالمان في الحرب التى اثاروا عجاجها سنة ١٩١٤ والعالم لم يزل يصطلى بنارها الى اليوم ان يبدؤا بالقوة الفرنسية وهي القوة الحربية الحقيقية في ذلك اليوم ليسحقوها غير حاسبين للقوة الروسية التى كانت تتجمع في شرق مملكتهم حسابا لانها بطيئة الحشد لقلة المواصلات واحتياجها الى الزمن الفسيح لتستكمل عدتها وتتهيأ لخوض أهوال الحرب حاسبين انهم يفرغون من الجيش الفرنسي في زمن يسير ثم يتهيأون للجيوش الروسية على هينهم . فلما قامت الجيوش البلجيكية في سبيلهم وصدتهم عن مباغتة الجيش الفرنسي وعوقتهم نحو سبعة عشر يوماً فاستعد الجيش الفرنسي فيها استعداداً كاملا وصار اداة حرب صالحة ولم يدركوا اربتهم منه ، ورأوا روسيا جادة في مفاجأتهم على حالهم تلك بجيشها العامل ، كفوا عن الايغال وعمدوا الى حرب الخنادق ثم وجهوا الى الجيش الروسي الهائل جيوشا نازلته وقهرته ثم صارت الحرب الى الحال التى هي عليها الآن ونحن في يوم ٥ مارس سنة ١٩١٨ .

صدع أبو عبيدة بأمر عمر وهو أن يذهب الى الشام أولا فيبدأ بها فاذا فتحت سار الى فحل فاذا فرغ من أمرها سار هو وخالد الى حمص وترك شرحبيل بن حسنة وعمراً بالاردن وفلسطين . فنزل جيش من المسلمين على فحل وخشي الروم أن يصل المسلمون اليهم فبثقوا الماء حولهم فوحلت الارض وحصروا أنفسهم

بأيديهم وسهلوا للمسلمين المقام على حصارهم وكانوا أول محصور ... ر قام أبو عبيدة عسكرا بين حمص ودمشق لئلا يأتي المدد من حمص اليها وارسل جندا آخر ليكون بين دمشق وفلسطين ليصد المدد ان جاء منها . ونزل أبوعبيدة على ناحية من دمشق وخالد على ناحية وعمرو على ناحية وكان هرقل نازلا قريب حمص

حصر المسلمون دمشق على هذه الصورة وطمع أهلها في ان يمدهم هرقل بالجنود فصابروا المسلمين وصبروا على هذا الحصار الشديد سبعين ليلة والمسلمون يزاحفونهم ويرمون عليهم بالمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث . وارسل هرقل لأنجادهم خيلا فمنعتها خيول المسلمين التى عند حمص ويئس القوم من المعونة

كان خالد لاينام ولا ينيم ولا يبيت الا على تعبية ولا يخفى عليه من أمر الروم بدمشق شيء. وقد اتخذ حبالا كهيئة السلاليم وأوهاقا . وقد علم انه وُلد للبطريق الذي على دمشق مولود فصنع طعاما ودعا اليه حُماة المدينة فأكلوا وشربوا وزالوا عن مواقفهم امنة منهم وثقة بمنعة حصونهم . فانتهز خالد هذه الفرصة ونهض فيمن معه من جنده . وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عدى وأمثالهم وقالوا اذا سمعتم تكبيرا على السور فارقوا الينا واقصدوا الباب . فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه رموا الشُّرف بالحبال وعلى ظهورهم القربُ التي قطعوا بها الخندق . فلما ثبت لهم وَهقان تسلق القعقاع ومذعور واثبتا الاوهاق بالشرف فتسلق خالد وأصحابه . وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق وأشده مُدْخَلا . ولما استووا على السور حدر خالد عامة أصحابه وانحدر معهم وخلف من يحمي مرتقاهم وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على رأس السور فنهد المسلمون الى الباب ومال الى الحبال جند كثير فارتقوا فيها . وانتهى خالد فيمن معه الى أول من يليه فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة لايدرون ما دهمهم واشتغل أهل كل ناحية بمن يليهم خشية الاقتحام فلم ينجدوا

أهل الناحية التي بها خالد وأصحابه وكسر خالد ومن معه اغلاق الباب بسيو بهم وفتحوا للمسلمين واعملوا سيوفهم في المقاتلة الذين في ناحية خالد فلم يبق منهم أحد الاقتل لما شد خالد على من يليه وادرك منهم ما اراد عنوة اجتمع من أفلت منهم الى الابواب التي تلى غيره . وكانوا قبل ذلك قد أرسلوهم على المشاطرة فأبوا عليهم ذلك . فلم يدر أهل تلك الابواب من المسلمين الا بالروم قد ألقوا اليهم بأيديهم يبذلون ما امتنعوا من الاقرار به من قبل وهو الصلح على المقاسمة وهم لايدرون سببا لهذا الرضا بعد التأبي والامتناع . فلما قبلوا منهم قالوا لهم : ادخلوا فامنعوا عنا من بالجانب الآخر . فدخل أهل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة ، فالتقى القواد في وسط دمشق هذا استعراضا وانتهابا وهذا صلحا وتسكينا . واجروا ناحية خالد على صلح أهل الابواب الاخرى . وكان صلح دمشق على المقاسمة في الدينار والعقار ودينار عن كل رأس . هكذا ذكر كثير من المؤرخين والظاهر أن رواية المقاسمة على العقار ليست صحيحة بدليل قول عمر لابي عبيدة «وأما الحنطة والشعير التي وجدتموها فى دمشق وكثر مشاجرتكم فيها فهي للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس»

وبعد انتهاء فتح دمشق جاء أمر عمر لابي عبيدة بأمره بصرف جيش العراق الى العراق فصرفه مع هاشم بن عتبة وابقى خالد ضاية

غزوة فحل

لما فتح المسلمون دمشق كان وراءهم جنود الروم في فِحْل ولا يتسنى لهم الايغال في تلك البلاد ووراءهم في ذلك المكان قوة رومية لايستهان بها . فقد قالوا انهم كانوا ثمانين الفا قد حصرتهم المياه والوحول والمسلمون بإزائهم من ورائها .

ففصل أبو عبيدة بالجيوش وخلف يزيد بن أبي سفيان على دمشق وعلى الناس شرحبيل بن حسنة لانه ولى الحرب في الاردن . وجعل خالدا على المقدمة وأبا عبيدة وعمرا على المجنبتين ، وضرار بن الازور على الخيل ، وعياض بن غنم على الرجل . ولما انتهوا الى أبي الاعور السلمي وكان بين الاردن ودمشق ليصد المدد فقدموه الى طبرية فحاصرها ونزل سائر الجيش على فحل

ولما رأى المسلمون أن الروم في حرز حريز من الوحل الذي جعل الوصول اليهم مستحيلا كتبوا الى عمر ليأمرهم بأمره . والمسلمون ناعمون في ريف الأردن وخيراته والروم في حرزهم كأنهم دودة القز في برجها الحريري ، فهم محرومون من كل شيء فيه نعيم ولا يقدرون على الخروج الا على غرر

ضاقت على الروم المذاهب فرجوا أن يصيبوا من المسلمين غرة ويوقعوا بهم وظنوا بالمسلمين الغفلة فخرجوا بقيادة قائدهم سقلار . غير أن شرحبيل كان حازماً شديد اليقظة ، فكان لا يبيت الا على تعبية واستعداد للحرب . فلما هجم الروم على المسلمين خارج الوحل والماء لم ينظرهم المسلمون بل بادروهم بالشدة وقاتلوهم أشد قتال ليلتهم ويومهم الى الليل . فلما جن عليهم الليل حار الروم وأرادوا الرجوع الى مكانهم الاول فضلوا ولم يهتدوا الى الطريق الذي خرجوا منه فانهزموا حيارى وقتل قائدهم الاول (سقلار) وقائدهم الثاني فوقع فيهم الاختلاط وانهزموا فانتهوا في هزيمتهم الى الوحل الذي صنعوه بأيديهم ليتقوا به الموت فكان موتهم في ذلك الذي جعلوه وقاية لهم . فانهم لما تورطوا في الرداغ ركبهم المسلمون وهم لا يردون يد لامس وكان الوحل الذي كرهه المسلمون أكبر عون لهم على الفتك بأعدائهم

ومن هنا ومما كان باليرموك نعلم أن القيادة في جيوش الروم لم تكن من الحنكة والدربة على الحرب ومكائده في وزان القيادة في الجيوش العربية لان النزول بهم على الواقوصة كان أشد وبالا عليهم من سيوف أعدائهم

وكذلك بثق الماء حول الجيش في فحل كان حصاراً لهم في مقامهم وشركا لهم في حربهم . والله يحكم لا معقب لحكمه

الوقعة بمرج الروم

علم هرقل بما أصاب جنده في دمشق والاردن وما عزم عليه أبو عبيدة من قصد حمص فأراد أن يشغل المسلمين بجيش مع قائده ثيودور وآخر بقيادة القائد شنس . ويظهر أن القائدين كانا على اتفاق فيما يصنعان بأن يقف أحدهما لشغل جيش المسلمين في الوقت الذي يخالف الآخر الى دمشق وهي في قلة من الحامية ليأخذها وَيَنْقُضَ على المسلمين ما أبْرَموا

وقد التقى الجيشان بجيش المسلمين في مرج الروم غربي دمشق فنزل أبو عبيدة بازاء شنس ونزل خالد بازاء ثيودور . ولما أصبحوا نازلهم شنس ولم يجد خالد لثيودور أثراً، وعلم أنه قصد دمشق فأمر أبو عبيدة خالدا باقتفاء أثره

وعلم يزيد بن أبي سفيان بمقدم جيش الروم فخرج لقتالهم . ولم يشعر الروم بخالد ومن معه الا وقد أتوهم من ورائهم فأخذوا من بين أيديهم ومن خلفهم فلم ينج منهم الا الشريد . ونازل أبو عبيدة ثيودور فقتله وهزم جيشه وتبعهم المسلمون يقتلونهم ووصل فل ذلك الجيش الى حمص

تحقق هرقل أنهم بعد ذلك موافوه الى حمص فيئس من بقاء الشام في يده فودعها الوداع الأخير بقوله (Adeiu Siria) وأمر عامله على حمص بالتحصن وأن يطاول المسلمين حتى يأتي الشتاء وأن لا ينازلهم الا في يوم بارد فلا يمر الشتاء الا وقد أهلكهم البرد

فتح حمص

حمص مدينة بين دمشق وحلب

قصد أبو عبيدة حمص عن طريق بعلبك وقدم اليها السمط بن الاسود الكندي وقدم خالد الى البقاع فافتتح خالد بلاد البقاع . ونزل أهل بعلبك الى أبي عبيدة فصالحوه على أن يكون لهم الامان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم بذلك كتاباً ثم توجه الى حمص فنزل عليها وقاتلهم قتالا شديداً وكانوا يغادون المسلمين القتال ويراوحونهم في كل يوم شديد البرد ولقى المسلمون برداً شديدا وطال على الروم الحصار . ولما رأوا أن الشتاء قد انصرمت مدته ولم ينصرف المسلمون عنهم اشتد عليهم الامر ورجعوا الى ما كان يدعوهم اليه بعض مشايخهم وهم يأبون منه وهو الصلح فطلبوا من أبي عبيدة ذلك. فصالحهم على صلح أهل دمشق . ونزل بها السمط بن الاسود الكندي في بنى معاوية والاشعث بن ميناس فى السكون والمقداد فى بَلي ونزل بها غيرهم . وقد كان نزول المسلمين فى كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة

وقد بعث أبو عبيدة بالاخماس والفتح الى عمر مع عبد الله بن مسعود فكتب اليه عمر أن أقم في مدينتك وادع أهل القوة والجلد من عرب الشام فاني غير تارك البعث اليك بمن يكانفك ان شاء الله

وغرض عمر من ذلك أن يكون أبو عبيدة في قوة ومنعة تكف عادية الروم لان بلده أقرب الى بلادهم وهي مظنة لان تكون غرضا لهم ثم بعث أبو عبيدة خالدا الى الحاضر — حاضر حلب — وكان اصناف من العرب ينزلونه وكان جمع من الروم عليهم ميناس وهو أعظمهم بعد هرقل فلاقاهم خالد بالحاضر فهزمهم وقتل قائدهم ولم يفلت من هذا العسكر أحد

أما عرب الحاضر فاعتذروا الى خالد بأنهم حشروا كرها ولم يكن من نيتهم أن يقاتلوا فقبل منهم وتركهم . ولما بلغ عمر ذلك قال : أمَّرَ خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني . وقال فى حقه وفى حق المثنى بن حارثة : اني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت أن يوكلوا اليهما

ثم سار خالد حتى نزل على قنّسْرين فتحصن أهلها منه فقال لهم : لو كنتم فى السحاب لحملنا الله اليكم أو لأ نزلكم الينا . فنظر القوم في أمرهم وعلموا أنهم ليسوا بأقوى من أهل الامصار قبلهم ، فصالحوه على صلح أهل حمص

ثم فتحت قيسارية على يد معاوية بن أبي سفيان

ثم فتحت اجنادين على يد عمرو بن العاص وكان بها قائد يقال له ارطبون هو أدهى الروم وأبعد رجالهم غورا وانكاهم فعالا ـ ولما بلغ عمر بن الخطاب قال : قد رمينا ارطبون الروم بارطبون العرب فانظروا عم تنفرج . وكان الارطبون قد أراد تفريق جنود العرب فوضع بالرملة جندا عظيما ، وبايليا جندا عظيما . فكتب عمرو الى عمر بذلك ووجه جنودا الى كل ناحية فيها جند للروم وكتب عمر الى يزيد أن يوجه معاوية الى أهل قيسارية ليشغلهم عن عمرو بن العاص فافتتحها كما قدمنا . وتتابعت الامداد على عمرو فأرسل بعدمن أقامهم بازاء جنود الروم بالرملة وأيلة . ومكث مدة لا يقدر من الارطبون على سَقطة ولا تشفيه الرسل . فوليه بنفسه فدخل عليه كأنه رسول ، فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد

وقع في نفس الارطبون ان الرسول عمرو بن العاص ، أو الرجل الذي يستشيره عمر في أمر الحرب . فدعا برجل من جنده وأسرَّ اليه كلاما. وفطن عمرو للأمر .فقال له قد سمعت مني وسمعت منك فأما ما قلته فقد وقع مني موقعا وأنا واحد من عشرة بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكانفه ويشهدنا أموره

فارجع فآتيك بهم الآن فان رأوا في الذي عرضتَ مثل الذي أرى فقد رآه أهل العسكر والامير، وان لم يروه رددتهم الى مأمنهم وكنت على رأس أمرك . فقال نعم . ودعا رجلا فساره وقال اذهب الى فلان فرده فرجع اليه الرجل وقال لعمرو نطلق فجيء بأصحابك ، فخرج ورأى ان لا يعود الى مثلها . وبلغت عمر فقال غلبه عمرو ، لله عمرو - وقد استبعد الاستاذ الخضري ان يغرر رجل حذور كعمرو بنفسه ويترك جيش المسلمين وهو قائده وروحه ويجعله تحت الخطر ، واني أوافقه وأقول ما كان ليفعل هذا التغرير ووراءه رجل يقظ حذر كعمر

اقتتل الروم والمسلمون في اجنادين قتالا شديدا وكثرت بينهم القتلى حتى كان هذا القتال في شدته يشبه القتال في اليرموك ثم انهزم الارطبون بجنوده حتى آوى الى ايليا وأفرج له المسلمون الذين عليها حتى دخلها وأقام بها الى ان فتحت ونزل عمرو اجنادين

فتح بيت المقدس

لما انتهى عمرو من أمر اجنادين ترك أهل ايلياء وهي بيت المقدس في الحصار وأخذ يتمم فتح مدن فلسطين وقراها : ففتح غزة ، ولُدّ ، ونابلس ، وبيت جبرين ، ومرج عيون ، ويافا - فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس والارطبون ممتنع بها ، فأخذ يخاطبه في تسليم المدينة فأبى

وقد جاء في الطبري أن عَمْراً دعا برجل يعرف الرومية وأمره أن يأتي ارطبون بكتاب من عمرو فيه : جاءني كتابك وأنت نظيري ومثلي في قومك لو أخطأتك خصلة ، تجاهلت فضيلتي . وقد علمتَ أني صاحب فتح هذه البلاد وأستعدي عليك فلانا وفلانا وفلانا . لوزرائه • وأمر الرسول ان يقرب ويتنكر

وقال استمع ما يقول حتى تخبرني به اذا رجعت - فلما جمع ارطبون وزراءه وقرأ عليهم الكتاب أغربوا في الضحك . وقالوا له من أين علمت أنه ليس بصاحبها - فقال صاحبها رجل اسمه عمر ثلاثة أحرف . فكتب عمرو الى عمر يستمده ويقول اني أعالج حرباً كؤوداً صدوما وبلاداً قد ادّخرت لك فرأيك . في هذه الرواية غرابة ولا يمكن للمؤرخ ان يستند اليها لانها لم تبنَ على أساس متين . والذي أراه انصع رواية أخرى عن الطبري ، هي أن أبا عبيدة حصر أهل بيت المقدس فطلبوا منه ان يصالحهم على صلح أهل مدن الشام وان يكون المتولى للعقد عمر بن الخطاب فكتب اليه بذلك فسار عن المدينة ممدا لهم بعد ان استخلف عليا عليها وقد قال له علي أين تخرج بنفسك انك تريد عدوا كلبا . فقال اني أبادر بجهاد العدو موت العباس . انكم لو فقدتم العباس لانتقض بكم الشر كما ينتقض أول الحبل

وكان خروج عمر الى الشام في هذه المرة أول خرجة خرجها وكتب الى أمراء الشام ان يستخلفوا على ما بأيديهم ويوافوه بالجابية فلقوه بها . فكان أول من لقيه يزيد بن أبي سفيان ، وأبوعبيدة بن الجراح ، وخالد بن الوليد على الخيول عليهم الديباج والحرير ، فلما رأى عمر ذلك كبر عليه ان يرى القوم في زينة وزخرف وهم قريبو عهد برسول الله وخاف عليهم ان يكونوا قد افتتنوا بالدنيا وزينتها - فنزل عن دابته وأخذ الحجارة ورماهم بها لا يحجزه عنهم مالهم من مكانة شامخة وعز باذخ . وقال : سَرع مَاالفتُم عن رأيكم . اياي وتستقبلون بهذا الزي وانما شبعتم منذ سنتين . سَرعَ ما ندت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلتُ بكم غيركم . فلم يكن من القوم الا ان قالوا يا أمير المؤمنين انها يَلامِمة وان علينا السلاح - قال فنعم اذن وركب حتى نزل الجابية وبينما عمر بالجابية اذ فزع الناس الى السلاح فسأل عن شأنهم فقالوا ألا ترى الخيل والسيوف فنظر فاذا

كردوس يلمعون بالسيوف ، فقال : هذه مستأمنة فلا تراعوا و أمنوهم . فاذا هم أهل ايلياء قد جاءوا للصلح

ذلك أن أهل ايلياء قد اشتد عليهم الحصار وصاروا به في ضنك شديد وأيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها أنهم مأخوذون ولا مطمع لهم في انقاذ دولة الروم اياهم بعد أن دالت في هذه الناحية دولتهم وزالت عن البلاد سلطتهم وأشفقوا أن لا يعطيهم المسلمون ما أعطوا غيرهم من أهل المدن الأخرى من الأمان لما أسلفوا من شدة قتال وقوة مراس ، ولما بذله المسلمون في حربهم من الدماء . وربما كان القوم قد ظنوا ان المسلمين يَرَوْنَ أن مدينتهم بها البيت المقدس الذي يرى المسلمون تعظيمه . فخافوا أن يغلبوهم عليه ويزيلوا منه معالم الأديان الأخرى وينتزعوا منهم كنيستهم العظمى وقبلتهم المقدسة ويحرموهم ذلك بحق الفتح فرأوا توكيداً للأمان وزيادة في توثيق عرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

ولما ورد أهل ايلياء الى الجابية أخبروا انهم نواب الصلح وان أميرى الجند الرومى قد لحقا بمصر . فصالحهم عمر على ايلياء وحيزها والرملة وحيزها وكتب لهم بذلك كتبا . وكتب لاهل ايلياء كتاباً خاصا وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان أعطاهم أمانا لانفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها لاتسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود . وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت (وفي رواية الصوص ولعلها الصحيحة) فمن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مامنهم . ومن

أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ماعلى أهل ايلياء من الجزية ، ومن أحب من أهل ايلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فانهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وعلى صلبهم حتى يبلغوا مأمنهم . ومن كان بها من أهل الارض قبل مقتل فلان (هكذا في جميع مارأيت من التواريخ) فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ماعلى أهل ايلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه لايؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم . وعلى مافي هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا أعطوا الذي عليهم من الجزية ٠ شهد على ذلك خالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ ه

ولما بعث عمر بأمان بيت المقدس وسكنها الجند شخص الى بيت المقدس من الجابية وكان فرسه قد وجى فأتى ببرذون فركبه فلما سار جعل يتخلج به فنزل عنه وضرب وجهه بطرف ردائه وقال لاعلم الله من علمك هذا من الخيلاء ٠ ودعا بفرسه فركبه حتى جاء الى المسجد الاقصى ليلا فدخله وصلى في محراب داوود ولم يلبث أن طلع الفجر فأمر المؤذن بالاقامة وتقدم فصلى بالناس بسورة ص وصدر بني اسرائيل ثم انصرف فقال عليَّ بكعب (كعب الاحبار) فلما أتى به قال : أين ترى أن نجعل المصلى ؟ فقال الى الصخرة ـ فقال ضاهيت والله اليهودية يا كعب ، وقد رأيتك وخلعك نعليك . فقال : أحببت أن اباشره بقدمي . فقال : قد رأيتك بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله قبلة مساجدنا صدورها اذهب اليك فانا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة . ثم قام الى كناسة كانت قد كانت الروم دفنت فيها بيت المقدس وهو الهيكل في زمان بني اسرائيل وقال : يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا في أصلها وحثا في قبائه . وسمع تكبيرة من خلفه . فقالوا ماهذا : فقالوا كبر كعب فكبر الناس بتكبيره فقال : علي به . فأتى فسأله عن

سبب تكبيره . فقال : يا أمير المؤمنين انه قد تنبأ على ماصنعت نبي منذ خمسمائة سنة ، وسرد له خبرا ذكره الطبرى كله من الاسرائيليات التى ابتدعها هو وسواه ولا أصل لها

ان كعبا ـ ككل يهودي ـ فرح بدخول المسلمين الى بيت المقدس وافتتاحه لان ذلك يشفي بعض مافي صدورهم من الغلة والحقد على المسيحية والقائمين بها ، وقد كان بيت المقدس محرما عليهم دخوله والدنو منه . وهم بذلك الفتح ينالون حرية اداء العبادة فيه وهو معبدهم الاول وبلدهم العتيق فلا غرو ان كانوا أكثر الناس فرحا بهذا الفتح الذي ينيلهم الحرية الدينية

والعبرة من هذا الفتح تظهر جلية واضحة من كتاب عمر بالامان الذي حشوه الرفق والعدل والحرية وصيانة الدماء والحقوق فان بيت المقدس لم يدخل مدينته أحد من الفاتحين كما دخلها خليفة المسلمين أمير المؤمنين عمر بن الخطاب منذ خلقت الى ذلك العهد . بل كان الفاتح يدخلها مخربا مبيدا مدمرا عاتياً جباراً سفا كا لارحمة عنده ولا شفقة عليهم لديه . فهذا بختنصر في الخراب الاول . وطيطوس في الخراب الثاني على رأس سبعين سنة ميلادية قد فعلا الافاعيل وخربا المدينة والمسجد تخريبا ذريعا . وأما عمر فقد دخلها كما وصفنا وأعطى أهلها من الامان مابينا

ولما جاءها بعد ذلك (غودوفرُوَا دُوبيُّن) قائد الجيوش الصليبية استبى بأهلها سنة وثني بابل ووثنى رومة نخرب المسجد وأجزر السيف تسعين الفا من أهلها المسلمين

ولما جاء صلاح الدين الايوبي وأخذها من الصليبيين دخلها دخولا عمريا وأمن أهلها على نفوسهم وأولادهم ونسائهم وخرجوا منها على فداء طفيف يؤدونه . وقد تجاوز أخوه أبو بكر العادل عن ذلك المقدار لكثير من النساء ، وكان الثناء عليه عاماً في أوروبا وعلى أخيه صلاح الدين

وفي سنة ١٧ هـ أراد عمر رضي الله عنه أن يزور الشام للمرة الثانية فخرج اليها ومعه المهاجرون والانصار حتى اذا نزل بِسَرَغ على حدود الحجاز والشام لقيه امراء الاجناد فأخبروه أن الأرض سقيمة وكان الطاعون بالشام . فقال عمر لابن عباس : اجمع لي المهاجرين الاولين ، قال : فجمعتهم فاستشارهم فاختلفوا عليه ، فمنهم القائل خرجتَ لوجه تريد فيه الله وما عنده ، ولا نرى أن يصدك عنه بلاء عرض لك . ومنهم القائل : انه لبلاء وفناء ما نرى أن تقدم عليه . فلما اختلفوا عليه قال : قوموا عنى ، ثم قال لابن عباس اجمع لي مهاجرة الانصار . فجمعهم له ، فاستشارهم فسلكوا طريق المهاجرين فكأنما سمعوا ما قالوا فقالوا مثله . فلما اختلفوا عليه قال قوموا عني . ثم قال : اجمع لي مهاجرة الفتح من قريش ، فجمعهم له فاستشارهم فلم يختلف عليه منهم اثنان وقالوا ارجع بالناس فانه بلاء وفناء . فقال عمر يا ابن عباس اصرخ في الناس فقل ان أمير المؤمنين مصبح على ظهر ، وأصبحوا عليه فلما اجتمعوا قال : أيها الناس انى راجع فارجعوا . فقال أبو عبيدة بن الجراح : أفراراً من قدر الله ؟ قال : نعم فراراً من قدر الله الى قدر الله ، أرأيت لو أن رجلا هبط وادياً له عُدوتان احداهما خصبة والاخرى جدبة ، أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله ؟ لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة . ثم خلا به بناحية دون الناس ، فبينا الناس على ذلك اذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان متخلفاً عن الناس لم يشهدهم بالامس . فلما أخبر الخبر قال : عندي من هذا علم ، قال عمر : فأنت عندنا الأمين المصدق ، فماذا عندك ؟ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه لا يخرجنكم الا ذلك » فقال عمر : لله الحمد ، انصرفوا أيها الناس . فانصرفوا

ـ الطاعون فى ذلك الوقت بعد المجازر البشرية وكثرة القتلى وتعفن الجو ـ ه بتلك الجيف أمراً طبيعياً وبخاصة اذا عرفنا أن وسائل الوقاية الصحية

لم تكن معروفة في ذلك الزمن . على أن مجرد اجتماع الجيوش الكثيرة في مكان واحد داع الى فشو الامراض والاوبئة . وقد اجتمع في تلك البلاد كثير من الجنود بين روم وعرب فكان لا بد من حصول الاوبئة

وبعد انصراف عمر حصل الطاعون الجارف المعروف بطاعون عَمَوَاس وكانت شدته بالشام فهلك به خلق كثير منهم أبو عبيدة بن الجراح وهو أمير الناس، ومعاذ ابن جبل ، ويزيد بن أبي سفيان، والحارث بن هشام وقيل استشهد باليرموك . وسهيل بن عمر ، وعتبة بن سهيل واشراف الناس . ولم يرتفع عنهم الوباء الا بعد أن وليهم عمرو بن العاص فخطب الناس وقال لهم : أيها الناس ان هذا الوجع اذا وقع فانما يشتعل اشتعال النار فتجنبوا منه في الجبال . فخرج وخرج الناس فتفرقوا حتى رفعه الله عنهم فبلغ عمر ما فعله عمرو فما كرهه

أما السر في اشتداد الطاعون في دمشق دون سواها من بلدان سورية ، فهو ان أهل دمشق انما يشربون من النهر (نهر بَرَدَى) وهو عرضة للتلوث بجراثيم الوباء ونقل العدوى بواسطته سهل جداً وانتشارها مضمون . أما بقية البلاد فيغلب أن يكون شربهم من العيُون وهي أقل قابلية للتلوث ونشر المرض وتعميمه وهو السر أيضاً في أنهم لما ارتفعوا في الجبال كان ذلك سببا لزواله عنهم

وأهل دمشق الآن لايشربون من نهر بَرَدَى وانما يشربون من ماء عين الفيجة ساقوه في الانابيب الى بلدهم وماء نهر بَرَدَى يدخل في جميع بيوتهم ولا ينتفعون منه بالشرب وانما يستعملونه في غسل الملابس والاواني ونحوها

رأى عمر بعد ارتفاع الطاعون ان يسير الى الشام لينظر في أمور الناس بعد هذا المصاب الذي دهمهم . فسار حتى نزل الشام ونظر في أمور الناس وولى الولاة وورث الاحياء من الاموات . ثم خطبهم خطبة قال « الا واني قد وليت عليكم وقضيت الذي علي في الذي ولانى الله من أمركم . الى ان قال فمن علم شيء

ينبغي العمل به فبلغنا نعمل به ان شاء الله ، ولا قوة الا بالله » وحضرت الصلاة فقال الناس لو أمرتَ بلالا فاذن . فأمره فأذن فما بقي أحد كان أدرك رسول الله وبلال يؤذن له الا بكى حتى بلَّ لحيته وبكى من لم يدركه ببكائهم لذكره ﷺ

وفي عهد عمر رضي الله عنه فتحت حلب وقنسرين كما قدمنا وانطاكية وبلاد سواحل الشام كبيروت وطرابلس وغيرها ، ودانت كل هذه البلاد لحكم المسلمين

وفي عهده كان فتح مصر على يد عمرو بن العاص السهمي . وسنفردها بكلام خاص نستوفى الكلام على ذلك متى جاء وقت ذلك

هذا ما كان من الفتوح في عهد عمر بن الخطاب ـ ومدته لا تزيد عن عشر سنوات . ففتحت فارس كلها ووقف المسلمون من جهة الشرق على نهر السند ونهر جيحون فلم يتعدوهما في عصره . وفتحت بلاد الشام ومصر وأديرت هذه البلاد على مقتضى العدل الاسلامي فتقبل الناس حكمه مسرورين لانه قد أزال عنهم جبروت الملوك وعسف الجبابرة

ولما كانت حياة عمر ممتازة بكثير من الميزات التي جعلتها أساسا عظيما لكثير من المدنية الاسلامية ـ حسن بنا ان نورد جملا يتعرف منها مقدار هذا الرجل العظيم الذي ساس العرب سياسة لم تعرف لغيره من سائر الناس متأسياً في ذلك برسول الله ﷺ وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه

القضاء

قدمنا في الكلام على أبي بكر رضي الله تعالى عنه انه لم يتخذ قاضيا في أيام خلافته ، بل كان القضاء في يده . فكان الامير والقاضي والمنفذ . وبعبارة أوضح كانت في يده القوات الثلاث : وهي القوة التشريعية ، والقوة القضائية ، والقوة

التنفيذية . وليس معنى قولنا ان القوة التشريعية في يده ـ انه كان يأتي الناس بشرع جديد . وانما معنى ذلك انه الامير الذي ينظر في الكتاب والسنة ويجتهد في الوقائع التي ليس فيها شيء من النص . وهو الذي يحكم بمقتضى ذلك فهو بهذه المثابة قاض ، ثم انه يمضي ذلك الحكم فهو منفذ

وقد قدمنا أيضاً انه كان يفوض الى عمر النظر في الوقائع التي كان يدلى بها الخصوم اليه ـ غير انه لم يختصه بذلك ويفرغه له ، ولم يكن لعمر اسم قاض في زمنه

أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد كان له في مسائل الفتوح وتدبير أمور الخلافة التي تشعبت ونمت نمواً عظيما في عهده ، ما يشغله عن التفرغ للقضاء فرأى أن يفرغ نفسه وبعض امرائه لما هم بصدده فعين قضاة مختصين بفصل الخصومات بين الناس فولى أبا الدرداء معه بالمدينة ، وولى شريحاً قضاء الكوفة وولى أبا موسى الاشعرى بالبصرة وقيس بن أبي العاص السهمي قضاء مصر وهو أول قاض بها في الاسلام . أما بقية الامصار والولايات فكان القضاء فيها الى الامير الذي عليها وانما كان عمر حريصاً على تفريغ نفسه وبعض أولئك العمال والامراء لما قصده من تفريغ نفسه وذلك البعض للقيام بأعباء السياسة العامة وأشغالها الكثيرة من الجهاد والفتوح وسد الثغور وحماية البيضة

وقد كان شريح بن الحارث الكندى قاضي الكوفة من كبار التابعين ظل قاضياً بها خمساً وسبعين سنة لم يتوقف عن قضائه فيها سوى ثلاث سنين في فتنة ابن الزبير ولما ولي الحجاج استعفاه فأعفاه . ومن طُرف قضائه أن عدي بن ارطاة دخل عليه . فقال : اني رجل من أهل الشام . فقال : مكان سحيق . قال : تزوجت عندكم قال : بالرفاء والبنين . قال : وأردت أن أرحلها . قال : الرجل أحق بأهله . قال : وشرطت لها دارها . قال : الشرط أملك . قال : فاحكم بيننا . قال : قد حكمت

وقد ساق صاحب العقد الفريد حكاية تزوجه بزينب بنت جرير من بنى تميم كيف اضطرته لان يخطب ليلة زفافها عليه لما بدأته بالخطبة وانه ظل معها فى أهنأ عيش عشرين سنة لم يعتب عليها في شيء الا مرة واحدة ـ قال وكنت لها ظالماً : أخذ المؤذن في الاقامة بعد ما صليت ركعتى الفجر وكنت امام الحي فاذا بعقرب تدب فأخذت الاناء فأ كفأته عليها ثم قلت يا زينب لا تتحركى حتى آتى . فلو شهدتنى ياشعبي وقد صليت ورجعت فاذا أنا بالعقرب قد ضربتها فدعوت بالكُسْت والملح فجعلت امغث اصبعها وأقرأ بالحمد والمعوذتين . وكان لي جار من كندة يُفَزِّع امرأته ويضربها فقلت في ذلك :

رأيت رجالا يضربون نساءهم فشلت يمينى حين أضرب زينبا
أأضربها في غير ذنب أتت به فما العدل منى ضرب من ليس مذنبا
فزينب شمس والنساء كواكب اذا طلعت لم تبد منهن كوكبا

أما أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه فكان من أصحاب رسول الله ﷺ

ومن اعرف من ولاهم عمر القضاء أبو موسى الاشعري ، وكان مع ذلك ذا بلاء في الحروب وقيادة الجند وله أثر جميل في فتوح فارس . وقد كتب اليه عمر رضي الله عنه كتابه المشهور في القضاء يبين كثيراً من نظام القضاء وأصوله وهو يعتبر بمثابة لائحة داخلية يعمل القضاة بمقتضاها . وهذا نصه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله عمر أمير المؤمنين الى عبد الله بن قيس سلام عليك أما بعد فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة (١) فافهم اذا أدلى اليك (٢)

---

(١) يريد ان يبين له المادة التي يقضى بها وهي لاتعدو ما حده الله وهذا ما اشار اليه بالفريضة المحكمة وما بينه رسوله وهي ما اشار اليه بقوله وسنة متبعة

(٢) يريد ان من يدلى بحجة مهما كان مصيباً وقوله حقا واضحاً فان كلامه لا ينفعه اذا لم يكن لكلامه نفاذ الى قلب القاضى وذلك لا يكون الا بالتنبه لما يقوله الخصوم

فانه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له . آس بين الناس (١) في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لايطمع شريف في حيفك ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من انكر . والصلح جائز بين المسلمين الا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا (٢) . لايمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك وهديت فيه لرشدك ان ترجع الى الحق فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل (٣) الفهم الفهم فيما تلجلج في صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة (٤) . ثم أعرف الاشباه والامثال ، فقس الامور عند ذلك واعمد الى أقربها الى الله واشبهها واجعل لمن ادعى حقا غائبا أمدا ينتهي اليه فان أحضر بينته والا استحللت عليه القضية فانه انفى للشك واجلى للعمى (٥). المسلمون عدول بعضهم على بعض الا مجلودا في حد او مجربا عليه شهادة زور او ظنينا في ولاء أو نسب فان الله تولى منكم السرائر

---

(١) هذا اساس المساواة التي جاء بها الدين ولا احترام للقضاء بدونها فان القاضي اذا كان له ضلع مع أحد الخصمين فشت قالة السوء فيه وان نجا من عواقبها اليوم فليس بناج غداً

(٢) هذا امر يوافقه ما اتفقت عليه جميع القوانين من ان كل صلح يخالف فيه القانون العام فهو باطل لا قيمة له لان الخصم اذا ملك حق نفسه وساغ له التصرف بما شاء فانه لا يملك حق الشارع الذي راعى بتشريعه العام حق الجمهور

(٣) يريد بذلك ان القاضي لايتقيد بما فهمه من النصوص في قضية فحكم به . بل اذا ظهر له وجه الخطأ في حكمه الاول كان عليه ان يحكم بما ظهر له من الصواب فيما يكون لديه بما يشبه القضية التي حكم فيها خطأ اولا . لان الخطأ لا يكون قاعدة . ولان عمر حكم في قضية بحكم ثم بدا له الصواب في قضية تشبهها فلم يغير الحكم السابق . وحكم على مقتضى الصواب في اللاحق ، وقال : ذاك على ما قضينا وهذا ما نقضي

(٤) يريد بذلك بيان أصل ثالث للاحكام وهو القياس وهو ان يلحق ما لم يعلم حكمه بما علم حكمه لمشابهة بينهما في السبب الذي من اجله شرع الحكم . ولهذا يكون من أوجب الواجبات على القاضي ان يكون عارفا باسرار التشريع حتى يتسنى له هذا الالحاق ومن ذلك ينتج اشتراط ان يكون مجتهداً لا مقلداً غيره في تفسير أو تاويل

(٥) يشير بذلك الى جواز التاجيل اذا طلبه الخصم وكان لطلبه سبب معقول . والذي ذكره من الاسباب هو غيبة الشهود الذين يظهر بهم حقه ثم تقييده بامد ينتهي اليه انما كان دفعاً للمعنة التي تحصل لاحد الخصمين بطلب التاجيل من خصمه الآخر في كل جلسة ، فيظل ابد الدهر تحت رحمته - لهذا قيده بامد يستحل عليه القضية اذا لم يثبت حقه فيه

ودرأ بالبينات و الأيمان . وإياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم والتنكر عند الخصومات فان الحق في مواطن الحق يعظم به الله الاجر ويحسن به الذكر . فمن صحت نيته واقبل على نفسه كفاه الله ما بينه و بين الناس . و من تخلق للناس بما يعلم الله انه ليس من نفسه شانهُ الله ، فما ظنك بثواب غير الله في عاجل رزقه وخزائن رحمته . والسلام

وهذا الكتاب قد اتخذه جمهور من قضاة المسلمين أساساً لنظمهم القضائية ، وهو كتاب جليل خليق بذلك

لم يكن القضاء في زمن عمر الا سهلا بسيطا مجردا عن النظم الوضعية الكثيرة ولم يكن للقاضي كاتب ولا سجل ولم توضع للمرافعات أصول كالتي وضعت الآن . فلم تكن الدعاوي بصيغة خاصة وأركان معينة ولا بد من سبق اعلان في مدة خاصة الى آخر ما وضع من الناس ثم صار عمدة فى القضاء أكثر من الحكم الشرعي المقصود

سيرة عمر فى عماله

معلوم أن الخليفة فى الامة قائم بين الله وبين عباده فى اقامة العدل وتأييد الحق واقامة الدين وسياسة الدنيا به والزام كل انسان حد ماله وما عليه دون بغى عليه أو استطالة منه على سواه

ولما كان القائم بالخلافة يستحيل عليه ان يباشر كل شيء من ذلك فى البلدان المختلفة والاصقاع النائية فى ملك مترامى الاطراف كان لابد من تفويض ذلك منه الى عمال يقومون عنه بذلك الامر في نواحيهم ويكونون بينه وبين الرعية يطالعونه بأمورهم ويسوسونهم بسياسته

ولا يعزب عنا ان عمر كان حريصا على اتباع الكتاب الكريم فيما جاء به والاستنان

بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قول أو عمل يعلم انه قاله أو عمله سائرا بسيرته بين الناس سائسا لهم بسياسته ومتحريا لما أخذ به أبو بكر من ذلك - وقد كان حريصا كل الحرص على أن يأخذ عماله بسيرته ويؤدبهم بآدابه رعاية للرعية وتحقيقا لحسن ملكة الاسلام وسماحة الدين وعدله . ويعتد نفسه شريكا للعامل في كل هفوة يهفوها قسيما له في كل جريمة يقترفها ، لانه انما يأتي ذلك عماله من السلطان الذي يستمده منه ، ويرى نفسه مسؤولا أمام الله عن ذلك

قال الاستاذ الخضري : كان عمر ممن يشترون رضا العامة بمصلحة الامراء . فكان الوالي في نظره فردا من الافراد يجري حكمُ العدل عليه كما يجري على غيره من سائر الناس . فكان حب المساواة لا يعد له شيء من أخلاقه : اذا اشتكى العاملَ أصغرُ الرعية جره الى المحاكمة حيث يقف الشاكي والمشكو منه يسوى بينهما في الموقف حتى يظهر الحق فان توجه قبل العامل اقتص منه ان كان هناك داع الى القصاص أو عامله بما تقضي به الشريعة أو عزله . واني أقول : ان هذا الرأي الذي كان يراه عمر واستغرق وجدانه ومشاعره هو الرأي الذي يُنص عليه في قوانين أكثر الامم عدالة وأسماهم حرية وأحرصهم على المساواة بين أفراد الامة بعد ان أغرقوا في العلم والمدنية وساروا في الحضارة والفلسفة الاجتماعية شوطا بعيدا وأجروا في سبيل تلك الحرية والمساوة والعدالة انهارا من الدماء . وأزاروا المقابر عشرات الالوف بل مئات الالوف في سبيل تحقيق غرضهم وان القوانين التي أخذت أخذ هؤلاء الناس واقتبست من قواعدهم ، ثم استثنت بعض ذوي المقامات وأخرجتهم من حكم القانون العام ، تدل بأوضح دلالة على ان فيها عرقا ينبض الى الاستعباد والاستبداد ، ان لم نقل انها تميل الى الاستئثار بجعل فريق من الناس في نظر قليل منهم كأنواع النبات التي يتصرف فيها مالكها بما يشاء ويهوى - وليس عمر بدعاً فيما كان يصنع : فقد كان مظهرا لا مبتدئا

فقد تقرر ذلك بمقتضى قوله تعالى « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وبمقتضى قول رسوله ﷺ في حجة الوداع « لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى » وإنما جعل هذا الخلق ظاهراً في عمر أن الفتوحات قد كثرت والملك قد اتسع فكثرت العمال وطال زمن عمر وحدثت الأحداث وظهرت خطته في ذلك واضحة

ومعلوم أن سواس الامم يختلفون في شأن مؤاخذة العامل ذي السلطان بما يصدر منه من الهفوات ومجازاته بما يجترم من السيئات لأن فريقاً يرون أن التجاوز عن سيئاته وغض الطرف عن زلاته أهيب لمقامه في نظر الرعية . ومن هذا القبيل سياسة الدولة الانجليزية مع عمالها في المستعمرات لا تكسرهم أمام المحكومين ولا تؤاخذهم بما يصدر منهم من المخالفات لئلا يكون ذلك مدرجة لكثرة مطالب الرعية وكيدها للعمال وتجنيها عليهم . أما في بلاد الانكليز أنفسهم فان الحاكم اذا تعدى حد عمله وسام أحد الرعية بأذى فان القضاء له بالمرصاد والقانون يوفيه جزاءه العادل . وقد كان أبو بكر على هذا الضرب من السياسة مع قواده وعماله في أيام أهل الردة وقيام الاضطراب في كل ناحية . وهي حال خاصة يغتفر فيها ما لا يغتفر في غيرها . وكان عمر يخالفه في هذا النحو من السياسة ويشير عليه بالاقتصاص من كل مخالف . وان ما ذكرناه من احضار سعد بن أبي وقاص من الكوفة لشكوى رفعها بعض من ألبوا عليه في وقت كان المسلمون في أشد الحاجة اليه إذ كانت البعوث تضرب على الناس وهم في التهيؤ لمناهضة العجم الذين جمعوا الجموع لحرب المسلمين واخراجهم من فارس فلم يكرثه ذلك ولم يشغله عن النظر فى شكوى الشاكين وسعد من نفس عمر بالمنزلة التى دفعت به الى جعله من أصحاب الشورى الذين ينتخب الخليفة منهم من بعده . وقد قال المؤلبين : « ان الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الامر وقد استعد لكم من استعد – يعنى الفرس – وايم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وان نزلوا بكم » . وقد كانت

مصلحة العامة عنده فوق كل شيء [١]

كان عمر شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم يقيم عليهم العيون يوافونه بأخبارهم ولا يتركون خبر سوء يبلغه عن أحدهم دون تحقيقه والتثبت في شأنه تثبتاً لا يدع للشك مجالا ولا يغفل أن يرسل اليهم الاوامر تباعا أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغوا ولا يغدروا

ولما غدر الهرمزان بعد العهد خشي أن يكون ذلك من ظلم أصابه من المسلمين فاستقدم وفداً من البصرة فيهم الاحنف بن قيس وسأله عن غدره أعن ظلم؟ قال: لا. فكتب الى عتبة بن غزوان زيادة في الوصية ومبالغة في التوكيد: «اعزب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا أن يدال عليكم لغدر يكون منكم أو بغي فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدم اليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً»

وبلغه أن حرقوصاً عامله على الاهواز نزل جبلا كؤوداً يشق على من رامه والناس يختلفون اليه فكتب اليه «أما بعد، بلغني أنك نزلت منزلا كؤداً لا تؤتى فيه الا على مشقة. فأسهل ولا تشقّ على مسلم ولا معاهد وقم فى أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصفُ لك الدنيا. ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتَكَدِّرَ دنياك وتذهب آخرتك»

وخطب عمر فقال: «يا أيها الناس، انى والله ما ارسل عمالى اليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ولكنى أرسلهم اليكم ليُعلّموكم دينكم وسنتكم ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل فمن فُعِلَ به شيء سوى ذلك فليرفعه الي، فوالذي نفس عمر بيده لأُقِصنَّهُ منه» فوثب عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين، أرأيت ان كان رجل من امراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته

(١) ومن ذلك انه جلب ابا موسى من البصرة حين شكاه الرجل العنزى

انك لتقصه منه ؟ قال : أي والذي نفس عمر بيده اذن لاقصنه منه ، وكيف لا اقصه منه وقد رأيت رسول الله ﷺ يقتص من نفسه ؟ ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمّروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم

وروى الطبري أن عمر كان يقول في عماله : اللهم اني لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم . مَن ظلمه أميره فلا إمرة عليه دوني. وعن أبي رواحة قال : كتب عمر بن الخطاب الى العمال : «اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء ، قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم ، إياكم والرشا والحكم بالهوى وأن تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار »

وكان اذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم فيقول : اني لم أستعملكم على أمة محمد ﷺ على أشعارهم ولا على أبشارهم ولا تجلدوا العرب فتذلوها ولا تجمّروها فتفتنوها ولا تغفلوا عنها فتحرموها . جردوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد ﷺ وأنا شريككم

وكان عمر يأمر عماله في كل سنة ان يوافوه في الموسم ومن كانت له شكوى أو مظلمة وافاه الى موسم الحج ورفعها على العامل بحضرته . وهناك ترد الى المظلوم ظلامته ويُشكيه من خصمه . فكان العمال يخافون الافتضاح في موقف الحج على رؤوس الاشهاد ويحدوبهم ذلك الخوف الى الابتعاد عن الظلم

ولقد أحضر عمر كثيراً من عماله الذين لهم فضل عظيم في الفتوح وأثر كبير في نصرة الدين . فهذا سعد بن أبي وقاص من اخوال رسول الله ﷺ ، وهو فاتح القادسية والمدائن والعراق ومدوّخ الفرس وممصّر الكوفة ، اشتكى عليه بعض رعيته فارسل محمد بن مسلمة يحقق الشكاية علنا وجاء بسعد وخصومه الى عمر فوجده بريئا من كل ماقرف به ولكنه عزله احتياطا . واوصى عند وفاته أن يولى لانه لم يعزله

لجناية أو خيانة

والمغيرة بن شعبة ، كان أميرا على البصرة وهو ذو بلاء وغناء في نصرة الدين وفتوح فارس وغيرها . اتهمه بعض من كان معه بتهمة شنيعة فلم يلبث أن أرسل اليه كتابا عاتبه فيه واستحثه وعزله وأمر غيره . وهو : « أما بعد فقد بلغني نبأ عظيم فبعثت أبا موسى أميرا . فسلم مافي يدك والعجلَ العجل » . فقدم على عمر ومعه الشهود الذين شكوه فلم تثبت التهمة عليه واقام عمر الحد عليهم بما فرضه الله لمثلهم

وهذا عمار بن ياسر ، كان أميرا على الكوفة وهو من السابقين الاولين انهى الى عمر قوم من الكوفة انه لايحتمل ماهو فيه من الولاية عليهم وانه ليس بأمير يقدر على هذا العمل . فأمره عمر بأن يقدم عليه فى وفد من أهل الكوفة ، فسألهم عمر عما يشكون من عمار فقال قائلهم انه غير كاف ولا عالم بالسياسة . وقال قائل منهم انه لايدري علام استعمل . فاختبره عمر اختبارا يدل على سعة علمه بفارس ونواحي الكوفة وتصوره موقع كل بلد . فلم يحسن عمار الاجابة في بعض ما سئل عنه فعزله . ثم دعاه بعد ذلك : فقال له اساءك حين عزلتك ؟ فقال : والله ما فرحت حين بعثتني ولقد ساءني حين عزلتني . فقال لقد علمت ما انت بصاحب عمل ولكني تأولت قوله تعالى « ونريد ان نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين »

جاء في كنز العمال عن عاصم بن أبي النجود ان عمر بن الخطاب كان اذا بعث عماله شرط عليهم : ان لاتركبوا برذونا ولا تأكلوا نقيا ولا تلبسوا رقيقا ولا تغلقوا أبوابكم دون حوائج الناس ، ان فعلتم شيئاً من ذلك حلت بكم العقوبة

أما انتخابه للامراء وتحريه لان يكونوا ذوي عفة وقناعة فكان على أتمه وقد تيسر له من هذه الطائفة مالم يتيسر لغيره . وكان كثير من عماله ينهجون منهجه ويترسمون خطواته فمن عماله سلمان الفارسي على المدائن كان يلبس الصوف

ويركب الحمار ببرذعته بغير اكاف ويأكل خبز الشعير . ولما حضرته الوفاة بكى فقال له سعد بن أبي وقاص : يا أبا عبد الله ما يبكيك ؟ فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول : ان في الآخرة عقبة لايقطعها الا المخفون . وأرى هذه الاساودة حولي . فنظروا فلم يجدوا في البيت الا اداوة وركوة ومطهرة . وكان أبوعبيدة بن الجراح عامله على الشام يظهر للناس وعليه الصوف الجافي . فعذل في ذلك فقال ما كنت بالذي أترك ما كنت عليه في عصر رسول الله ﷺ

وكان عامله على حمص سعيد بن حِذيَم . فشكاه أهل حمص الى عمر وسألوه عزله . وكان عمر يعتقد انهم ظالمون له فقال اللهم لاتفل فراستي فيهم وجمع بينهم وبينه فقال ما تنقمون منه ؟ قالوا لايخرج الينا حتى يرتفع النهار . فقال ما تقول ياسعيد ؟ فقال يا أمير المؤمنين انه ليس لاهلي خادم . فاعجن عجيني ثم اجلس حتى يختمر ثم اخبز خبزي ثم اتوضأ واخرج اليهم : قال وماذا تنقمون منه ؟ قالوا لايجيب بليل . قال قد كنت أكره ان أذكر هذا . اني جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم . قال ماذا تنقمون منه؟ قالوا يوم في الشهر لايخرج الينا ؟ قال نعم . ليس لي خادم فاغسل ثوبي ثم اجففه فامسي . فقال عمر : الحمد لله لم يفل فراستي فيكم يا أهل حمص فاستوصوا بواليكم خيرا . وبعث اليه بالف دينار يستعين بها فابقى منها يسيرا او فرق سائرها في اليتامى والفقراء والمساكين ولم يغير من عادته

وكان عمر اذا بلغه عن عامل من عماله ريبة في معصية لم يمهله ان يعزله . لان استصلاح الرعية بضرره بالعزل خير من الابقاء عليه مع ضرر الرعية . من ذلك انه استعمل النعمان بن نضلة على ميسان من بلاد فارس وكان يقول الشعر فقال :

ألاهل أتى الحسناء ان حليلها بميسان يسقى في زجاج وحنتم
اذا شئتُ غنتني دهاقين قرية وصناجة تشدو على كل ميسم
فان كنت ندماني فبالا كبراسقني ولاتسقني بالا كبر المتثلم

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

فقال عمر أي والله انه ليسوءني ذلك . وعزله . فقدم على عمر وقال: والله ما أحب شيئا مما قلت ولكني كنت امرءا شاعرا وجدت فضلا من القول فقلت فيه الشعر . فقال عمر : والله لا تعمل لي على عمل ما بقيت . وقد أشار المعري الى هذه الحادثة بقوله :

أنعمان ماسر ابن حنتمة الذي سررت به من شرب مافي الحناتم

قال الاستاذ الخضري ولم يمض عامل زمن عمر موثوقا به في كل أيامه إلا القليلين ، وفي مقدمتهم أبو عبيدة عامر بن الجراح

كان عمر قد أقام محمد بن مسلمة مفتشا عاما يرسله الى كل بلد اشتكى على أميره وكان عمر يثق به ثقة تامة وكان أهلا لذلك منه . وقد كان من رأيه ان يحقق الامر تحقيقا علنيا على ملأ من الاشهاد اذ لا محل للتأثير في الشهود والخصوم لان يد عمر كانت قوية جدا وقد زاد في حرية الناس كثيراً ، فما كان أحد يخشى أميرا ولا عمرَ بن الخطاب . اللهم إلا المريب فان عقابه عليه كان صارما

ومما ساس عمر به عماله انه كان يحصي عليهم أموالهم قبل توليتهم . فاذا زاد لهم مال بعد ولايتهم صادرهم عليه كله أو بعضه ـ ذلك انه كان يرى ان لا يتناول العاملُ من مال الامة فوق كفايته . فاذا تأثل مالا كان بذلك إما مريبا أخذه من غير حله فبيتُ مال المسلمين أولى به وفيهم اليتيم والمسكين والضعيف وذو الحاجة . وإما ان يكون راتبه فوق كفايته والمسلمون أولى بما فضل عن كفاية العامل الذي يعمل بالاجر ـ فمن ذلك ان عمر استعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال : ما هذا ياعتبة ؟ قال : مال خرجت به معي وتجرت فيه . قال ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه . فصيره في بيت المال

ومن ذلك ان خالد بن الوليد أدرب هو وعياض بن غنم الى بلاد الروم ـ

ثم انتجع الاشعث بن قيس خالدا من العراق فوصله خالد بعشرة آلاف درهم وكان عمر كما نعلم لا يخفى عليه شيء في عمله ، فكتب اليه بخروج من خرج من العراق الى الشام وبجائزة من أجيز. فدعا البريد وكتب معه الى أبي عبيدة ان يقيم خالدا ويعقله بعمامته وينزع قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الاشعث أمن ماله أم من اصابة أصابها ؟ (يعني المغنم) فان زعم انه من اصابة أصابها فقد أقر بخيانة . وان زعم أنها من ماله فقد أسرف واعزله على كل حال واضمم اليك عمله . فكتب أبو عبيدة الى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر . فقام البريد فقال : أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من اصابة ؟ فلم يجبه حتى أكثر عليه وأبو عبيدة ساكت لا يقول شيئا . فقام بلال اليه فقال : ان أمير المؤمنين أمر فيك بكذا و كذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته فقال ما تقول ؟ أمن مالك أم من اصابة ؟ قال : لا . بل من مالي . فأطلقه وأعاد قلنسوته وعممه بعمامته بيده وقال « نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا » . وأقام خالد لا يدري أمعزول هو أم غير معزول ؟ وأبو عبيدة لا يخبره كرامة له وكان عمر لما أبطأ عليه علم بالذي كان . فكتب الى خالد بالقدوم عليه . فعتب خالد على أبي عبيدة لانه لم يعلمه بأمر عمر . ثم ان خالدا قدم الى المدينة على عمر فشكاه وقال لقد شكوتك للمسلمين وبالله انك في أمري غير مجمل ياعمر. فقال عمر : من أين هذا الثرى ؟ قال من الانفال والسهمان ما زاد على الستين الفا فهو لك . فقوّم عروضه فكانت ثمانين الفا أدخل منها بيت المال عشرين الفا . ثم قال : ياخالد والله انك علي لكريم وانك إلي لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء . وكتب عمر الى الامصار « اني لم أعزل خالدا عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت ان يوكلوا اليه وان يُبتلوا به فأحببت ان يعلموا أن الله هو الصانع وان لا يكونوا بعرض فتنة » ويدل على أنه عمل ما عمل لا عن خيانة أو ريبة ، ان عمر قام يوما خطيبا فقال

من خطبته « واني أعتذر اليكم من خالد بن الوليد فاني أمرته ان يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين ، فأعطاه ذا الباس وذا الشرف وذا اللسان ، فنزعته وأمرت أبا عبيدة » والذي أفهمه من قوله هذا أنه لو تحرى بالعطاء أهل الضعف والحاجة من المهاجرين ، ولم يضع عطاءه في الاشعث بن قيس ونحوه ، لم يجد عمر عليه سبيلا

ولقد سمع هذه الخطبة أبو عمرو بن حفص بن المغيرة — وهو ابن عم خالد — فقام فقال : والله ما اعتذرتَ ياعمر ولقد نزعت عاملا استعمله رسول الله ﷺ واغمدت سيفا سله رسول الله ﷺ ووضعت أمرا نصبه رسول الله ﷺ وقطعت رحما وحسدت ابن العم . فقال عمر انك قريب القرابة حديث السن مغضب في ابن عمك . ومن كلام عمر — وقد طُعن — « لو ادركت خالد بن الوليد لوليته فاذا قدمت على ربي فسألني من وليت على أمة محمد؟ قلت أي رب سمعت عبدك ونبيك يقول : خالد بن الوليد سيف من سيوف الله سله على المشركين » وما كان فاني أفهم ان عمر كان متحاملا على خالد

وقد ورد ان عمر قاسم سعد بن أبي وقاص ماله وكذلك عمرو بن العاص . قد يجد هذا العمل مجالا للانتقاد من الوجهة النظرية الدينية ، ولكن عمر (كما قال الاستاذ الخضري) كان يعرف مَن من عماله يستحق هذه العقوبة ان تقع عليه . اذ ماذا يعمل برجل ولاه وهو يعرف مقدار عطائه ورزقه ثم يراه بعد ذلك قد أثرى ثروة لو جمعت أُعطياته ما بلغتها ؟ لم ير عمر أمام ذلك إلا هذه المصادرة وقد اكتفى بأن يشاطر العامل ما يملك ، ولست أريد ان أحسن هذه الطريقة

معاملة عمر للرعية : كانت رأفة عمر ورقته على عامة الناس في وزان ما كان عليه من الشدة على عماله فكان عمر شديد الاهتمام بأمر الرعية دائم العناية بما يصلحهم وكان يحس من ذلك بمسؤولية عظمى . فكان يقول لو ان جملا هلك ضياعا بشط

الفرات لخشيت ان يسأل الله عنه آل الخطاب (يعني نفسه) وقد قال هشام الكعبي رأيت عمر يحمل ديوان خزاعة حتى ينزل قديدا فتأتيه بقديد، فلا يغيب عنه امرأة ولا بكر ولا ثيب فيعطيهن في أيديهن، ثم يروح فينزل عسفان فيفعل مثل ذلك أيضا حتى توفى . وقال الحسن البصري: قال عمر : لئن عشت لأسيرن في الرعية حولا فاني أعلم أن للناس حوائج تقطع دوني فأما عمالهم فلا يرفعونها الي، وأما هم فلا يصلون الي، فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين . ثم عدد الامصار الكبرى يقيم في كل منها شهرين (وقد حالت منيته دون هذه السياحة)

وروى أسلم : قال خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرة واقم، حتى اذا كنا بصرار اذا نار تؤرث فقال : يا أسلم أرى هؤلاء ركبا قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا . فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فاذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون . فقال عمر : السلام عليكم يا أصحاب الضوء (وكره ان يقول النار) قالت المرأة: وعليك السلام . فقال أأدنو ؟ قالت أدن بخير أودع . فقال ما بالكم ؟ قالت قصر بنا الليل والبرد . قال فما بال هؤلاء الصبية يتضاغون، قالت الجوع . قال وأي شيء في القدر قالت ماء أسكتهم به حتى يناموا، الله بيننا وبين عمر . فقال : أي رحمك الله مايدري عمر بكم . قالت يتولى أمورنا ويغفل عنا . فأقبل علي فقال انطلق بنا . فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فاخرج عدلا فيه كبة شحم فقال احمله علي . قلت أنا احمله عنك قال احمله علي (مرتين أو ثلاثا) كل ذلك أقول أنا احمله عنك فقال أخر ذلك . أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا ام لك، فحملته عليه . فانطلق وانطلقت معه نهرول حتى أتينا اليها فالقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئا وجعل يقول ذري علي وأنا أحرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر الى الدخان من خلال لحيته حتى أنضج ادم القدر . وقال ابغيني شيئا . فاتته بصحفة فأفرغها فيها وجعل يقول أطعميهم وأنا اسطح لك. فلم يزل حتى شبعوا ثم خلى

عندها فضل ذلك وقام وقمت معه . فجعلت تقول جزاك الله خيرا ، انت أولى بالامر من أمير المؤمنين . فيقول قولى خيرا ، انك اذا جئت أمير المؤمنين وجدتيني هناك ان شاء الله . ثم تنحى ناحية ثم استقبلها وربض مربض السبع . فجعلت أقول ان لك لشأنا غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا فقام وهو يحمد الله ، ثم أقبل علي فقال : ياأسلم ان الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت الا أنصرف حتى أرى ما رأيت فيهم

ومعلوم أن الحوادث الصغيرة كهذه الحادثة تدل على روح الرجل وأحواله النفسية وتنبيء عن شفقته وخوفه أن يكون مقصراً في حق من وليهم من الرعية . ونحن نخجل في عصرنا هذا ، لاننا لانجد أميراً أو كبيراً من الناس يهتم بمرؤوسه عُشر معشار هذا الاهتمام، ولو ان امرأة كهذه رآها مدير أو مأمور لكان أقرب شيء يعمله لها أن يكتب لها محضر تشرّد و يقدمها للقضاء ليحكم عليها

وخطب مرة فقال : أيها الناس اني قد وليت عليكم ولولا رجاء أن أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب من مهم أموركم ماتوليت ذلك منكم ولكفى عمرَ مهماً محزناً انتظار موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها، ووضعها أين أضعُها وبالسير فيكم كيف أسير . فربي المستعان فان عمر أصبح لايثق بقوة ولا حيلة ان لم يتداركه الله عز وجل برحمته وعونه وتأييده

وكان رحمه الله ذا سياسة حسنة في تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحجة الواضحة . جاء في كنز العمال من حديث عتبة بن مسعود قال سمعت عمر بن الخطاب يقول : ان ناسا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ وان الوحي قد انقطع وانما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً أمنّاه وقرّبناه وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته ، ومن أظهر لنا شرا لم نأمنه ولم نصدقه وان قال ان سريرته حسنة . فهو بهذه المثابة يهديهم امثل الطرق ويحذرهم

المزال ويواليهم بالنصائح ويرشدهم الى محجة الخير الواضحة ويبصرهم سنن السعادة ويأمرهم بالتقوى والعدل والتآلف ، وبخاصة قريش فانه كان لاينام لهم على أمر ولا يدعهم ساعة من نصيحة فانهم قدوة الناس وأئمة العرب

أخرج الطبري عن ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش : بلغني انكم تتخذون مجالس ، لايجلس اثنان معا حتى يقال : من صحابة فلان ، من جلساء فلان ؟ حتى تحوميت المجالس وأيم الله ان هذا لسريع في دينكم . سريع فى شرفكم . سريع فى ذات بينكم . ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول : هذا رأي فلان . قد قسموا الاسلام اقساما . افيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معا فانه ادوم لألفتكم وأهيب لكم فى الناس. اللهم ملوني وملأتهم وأحسست من نفسي وأحسوا مني ، ولا أدري باينا يكون الكون . وقد أعلم ان لهم قبيلا منهم فاقبضني اليك

ومن جميل سياسته أنه كان لا يرضى من عماله الشدة في استيفاء الحقوق والتزيد على ما أمر الله أن يؤخذ الناس به ، بل كان يوصيهم بالرفق والاناة والعدل وعدم الايغال في العقوبة

عن ابن عمر قال : كنت مع عمر في حج فاذا نحن براكب ، قال عمر : ر ى هـذا يطلبنا . فجاء الرجل فبكى . قال : ما شأنك ، ان كنت غارماً أعناك وان كنت خائفاً آمناك الا أن تكون قتلت نفساً فتقتل بها ، وان كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم ؟ قال : اني شربت الخمر وأنا أحد بنى تميم . وان أبا موسى جلدنى وحلقني وسود وجهي وطاف بي على الناس. وقال لا تجالسوه ولا تواكلوه فحدثت نفسي باحدى ثلاث : اما أن أتخذ سيفاً فأضرب به أبا موسى ، واما أن آتيك فتحولني الى الشام فانهم لا يعرفونني ، واما أن ألحق بالعدو فآكل معهم وأشرب . فبكى عمر وقال : ما يسرني أنك فعلت وان لعمر كذا وكذا . واني كنت لأشرب الناس لها في الجاهلية وانها ليست كالزنا . وكتب الى أبي موسى ما صورته :

سلام عليك . أما بعد ، فان فلان ابن فلان التيمي أخبرني بكذا وكذا وايم الله أني ان عدتَ لأسوِّدَنّ وجهك ولأطوّفنّ بك في الناس فان أردت أن تعلم حق ما أقول فعد ، فأمُرِ الناس أن يجالسوه ويؤا كلوه فان تاب فاقبلوا شهادته . وحمله عمر وأعطاه مائتي درهم

ومع أن عمر قد أرخى للناس طول الحرية وأجرهم رسن المساواة وفرش للعامة صدره ، فقد كان مهيباً فيهم حتى امتلأت صدورهم بهيبته . لم يجرد عليهم سيفا ولم يرفع عليهم سوطاً . وانما كانت له درة وهي عصا صغيرة كالمخصرة يستعملها في تأديب من استحق الادب منهم وكانت في يده على الدوام أنى سار . وكان الناس يهابونها أكثر مما تخيفهم السيوف

روى الطبري عن اياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر بن الخطاب في السوق ومعه الدرة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي . فقال : أمط الطريق . فلما كان في العام المقبل لقيني . فقال : يا سلمة تريد الحج ؟ فقلت : نعم . فأخذ بيدي فانطلق الى منزله فأعطاني ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك ، واعلم أنها بالخفقة التي خفقتك . قلت : يا أمير المؤمنين ما ذكرتها . قال : وأنا ما نسيتها . فكان عمر مؤدبا حكيما . قال الخضري : ولعل درته لم يسلم من خفقها الا القليل من كبار الصحابة

روى راشد بن سعد أن عمر بن الخطاب أتى بمال فجعل يقسمه بين الناس فازدحموا عليه فأقبل سعد بن أبي وقاص يزاحم الناس حتى خلص اليه . فعلاه عمر بالدرة . وقال : انك أقبلت لا تهاب سلطان الله في الارض فأحببت أن اعلمك أن سلطان الله لا يهابك . والذي حمل عمر على أن يأتي الى سعد ما أتى ، غضبه منه لمزاحمته الناس مدلا عليهم بفضله وسابقته وعمر يعشق المساواة ويكره الادلال على

الناس • وقد كانت الرعية كما قلنا تهابه مهابة شديدة • روى أسلم أن نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا كلم عمر بن الخطاب فانه قد أخشانا حتى والله ما نستطيع أن نديم اليه أبصارنا • فذكر ذلك عبد الرحمن بن عوف لعمر فقال أوقد قالوا ذلك ؟ والله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله في ذلك ، ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله وايم الله لانا أشد منهم فرَقا منهم مني

عفة عمر عن مال المسلمين

كان عمر قد أخذ نفسه وأهله بحال من التقشف وخشونة العيش حتى ساوى البائس الفقير الذي انما يعيش بما يتبلغ به مما يمسك الرمق ويدفع الجوع • لم تشره نفسه الى رقيق العيش ونعيم الحيـاة الدنيا • ولم يهم بمكاثرة الناس في المال ويرى مال المسلمين مرتعا وبيلا على من رعاه فقتر على نفسه تقتيرا جعله موضعا للانتقاد واعتراض المعترضين — وقد بلغ من شدة احترازه عن أخذ مال المسلمين ان عطاءه ربما قصر به عن بلوغ الكفاية من حاجاته وحاجات أهله . فلا يسمح لنفسه بأن يطلب من المسلمين ان يفرضوا له كفايته . بل كان يلجأ الى الاقتراض من أمين بيت المال فاذا حل ميعاد الوفاء ولم يجد عنده ما يسد منه احتال له حتى اذا أخذ عطاءه سدد منه

رأى بعض أصحاب رسول الله ما يعانيه أمير المؤمنين من جهد العيش فاجتمع نفر منهم فيهم عثمان وعلي وطلحة و الزبير . وقالوا : لو قلنا لعمر في زيادة نزيده اياها في رزقه . فقال عثمان هلم فلنعلم ما عنده من وراء وراء . فأتوا أم المؤمنين حفصة بنت عمر وحدثوها بما اعتزموا عليه وأوصوها ألا تخبر بهم عمر . فلقيته حفصة وقالت له في ذلك . فغضب وقال من هؤلاء لأسوءنهم . قالت لا سبيل الى علمهم . قال أنت بيني وبينهم . ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الملبس ؟ قالت ثوبين

ممشقين كان يلبسهما للوفد والجمع . قال فأي الطعام ناله عندك أرفع . قالت حرفا من شعير فصببنا عليه وهو حار أسفل عكة لنا فجعلتها دسمة حلوة فأ كل منها . قال : فأي مبسط بسط عندك كان أوطأ ؟ قالت كساء نخين نربعه في الصيف فاذا جاء الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه . قال يا حفصة فأبلغيهم أن رسول الله ﷺ قدر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية . وانما مثلي ومثل صاحبي كثلاثة سلكوا طريقا فمضى الاول لسبيله وقد تزود فبلغ المنزل ثم اتبعه الآخر فسلك سبيله فأفضى اليه ثم اتبعهما الثالث فان لزم طريقهما ورضي بزادهما لحق بهما وان سلك طريقا غير طريقهما لم يلقهما

كان عمر مع ذلك لا يسوغ أحداً من أهل بيته ان ينتفع بشيء ليس له فيه حق . روى مالك في الموطأ أن عبد الله وعبيد الله ابنا عمر خرجا في جيش الى العراق . فلما قفلا مرا على أبي موسى الاشعري وهو أمير البصرة . فرحب بهما وسهل . ثم قال : لو أقدر لكما على أمر أنفعكما به . ثم قال : بلى ، ههنا مال من مال الله أريد ان أبعث به الى أمير المؤمنين فأسلفكماه فتبتاعان به متاعا من متاع العراق ثم تبيعانه بالمدينة فتؤديان رأس المال الى أمير المؤمنين ويكون لكما الربح . فقالا وددنا ذلك . ففعل وكتب الى عمر بن الخطاب ان يأخذ منهما المال فلما قدما باعا فأربحا فلما دفعا ذلك الى عمر قال : أكل الجيش أسلفه ؟ قالا : لا . فقال عمر بن الخطاب : ابنا أمير المؤمنين فأسلفكما ، أديا المال وربحه . فأما عبد الله فسكت ، وأما عبيد الله فقال : ما ينبغي لك يا أمير المؤمنين هذا . لو نقص هذا المال أوهلك لضمناه . فقال عمر أديا . فسكت عبد الله وراجعه عبيد الله . فقال رجل من جلساء عمر : يا أمير المؤمنين لو جعلته قراضا . فأخذ عمر رأس المال ونصف ربحه وأخذ عبد الله وعبيد الله نصف ربح المال . قالوا وهو أول قراض في الاسلام

وقد ذكر الاستاذ الخضري في محاضراته أنه ـ لما ترك ملك الروم الغزو

وكاتب عمر وقاربه وسير اليه عمر الرسل مع البريد بعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب الى ملكة الروم بطيب ومشارب واحناش من احناش النساء ودسته الى البريد فأبلغه لها فأخذ منه وجاءت امرأة قيصر وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر . فلما انتهى به البريد اليه أمر بامساكه ودعا الصلاة جامعة . فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال : انه لاخير في أمر أبرم عن غير شورى من أموري . قولوا في هدية أهدتها أم كلثوم لامرأة ملك الروم فأهدت لها امرأة ملك الروم . فقال قائلون : هو لها بالذي لها وليست امرأة الملك بذمة فتصانع به ولاتحت يدك فتتقيك . وقال آخرون قد كنا نهدي الثياب لنستثيب ونبعث بها لتباع ولنصيب شيئاً ، فقال : ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم والمسلمون عظموها في صدرها فأمر . بردها الى بيت المال ورد عليها بقدر نفقتها . اه . ولو ان عمر أرخى العنان لنفسه أو لاهل بيته لرتعوا ولرتع من بعدهم وكان مال الله تعالى حبساً على أولياء الامور . ومن القواعد الطبيعية المؤيدة بالمشاهدة أن الحاكم اذا امتدت يده الى مال الدولة اتسع الفتق على الراتق واختل بيت المال أو مالية الحكومة وسرى الخلل في جميع فروع المصالح وجهر المستتر بالخيانة وانحل النظام

ومن المعلوم ان الانسان اذا كان ذا قناعة وعفة عن مال الناس زاهدا في حقوقهم دعاهم ذلك الى محبته والرغبة فيه . واذا كان حاكما حدبوا عليه واخلصوا في طاعته نياتهم وكان أكرم عليهم من أنفسهم

وقد كان عمر اذا نهى الناس عن أمر من الامور جمع أهله فقال اني نهيت الناس عن كذا وكذا وان الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم واقسم بالله لا أجد أحدا منكم فعله الا اضعفت عليه العقوبة

ما كان عمر مع ذلك بالذي يضيق على العامة أو يأخذ الرعية بمذهبه بل كان

يرى أن يحملهم على الجادة الوسطى وان يتنعموا بالطيبات وانما كان يأخذ عماله بمذهبه . فقد كتب أبو عبيدة الى عمر كتابا يخبره فيه بأنه لايريد الاقامة بانطاكية لطيب هوائها وخوف اخلاد الجند الى الراحة . فكان من كتاب عمر اليه : وأما قولك انك لم تقم بانطاكية لطيب هوائها فالله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات . فقال تعالى في كتابه العزيز « يأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا اني بما تعملون عليم » وكان يجب عليك ان تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون في مطعمهم ويريحون الابدان النصبة

ميل عمر للاستشارة وقبوله النصح . كان عمر لايستأثر بالامر دون المسلمين ولا يستبد عليهم في شأن من الشئون العامة . فاذا نزل به أمر لايبرمه حتى يجمع المسلمين ويجيل الرأي معهم فيه ويستشيرهم . ومن مأثور قوله لاخير في أمر ابرم من غير شورى . وكان مسلكه في الشورى جميلا . فانه كان يستشير العامة اول أمره فيسمع منهم ، ثم يجمع مشايخ أصحاب رسول الله وأصحاب الرأي منهم ثم يفضي اليهم بالامر ويسألهم أن يخلصوا فيه الى رأي محمود ، فما استقر عليه رأيهم امضاه : وعمله هذا يشبه النظامات الدستورية في كثير من الممالك النظامية اذ يعرض الامر على مجلس (النواب) مثلا ثم بعد ان يقرر بالاغلبية يعرض على مجلس آخر يسمى في بعضها مجلس الشيوخ وفي بعضها مجلس اللوردات فاذا انتهى المجلس من تقريره امضاه الملك . والفرق بين عمل عمر وعمل هذه الممالك ان هذا الامر كان اجتهادا منه وبغير نظام متبع ، أو قوانين مسنونة . وأما في الممالك المتمدنة اليوم فالامر يجرى على نظام وقوانين . ومن قوله في الشورى : يحق على المسلمين أن يكون أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم . فالناس تبع لمن قام بهذا الامر ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم الناس وكانوا فيه تبعا لهم ومن قام بهذا الامر تبع لأولي رأيهم ما رأوا لهم ورضوا به من مكيدة في حرب كانوا فيه تبعا لهم . فهو في قوله هذا قد

جعل أولي الامر منفذين لما رآه أولو الرأي والناس تبع للامام فيما أخذ به من رأي أولي الرأي

وكثيراً ما كان يجتهد في الشيء ويبدي رأيه فيه ثم يأتي أضعف الناس فيبين له وجه الصواب فيقبله ويرجع عن خطأ ما رأى الى صواب ما استبان له

رأى الناسَ بعد توالي الفتوح وكثرة الاموال لديهم قد غالوا في مهور النساء فلم يعجبه ذلك من أمرهم وعزم على ان يجعل للمهر حدا لا يتجاوزه الناس. فنادته امرأة من أُخريات المسجد قائلة كيف وقدقال الله تعالى « وان أردتم استبدال زوج مكان زوج و آتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً » فالله يعطينا بالقنطار وانت تمنعنا الدراهم ياعمر ؟ فقال : اصابت امرأة واخطأ عمر . وكان يطلب من الناس ان يفضوا اليه بنصائحهم ويبينوا له وجه الحق اذا رأوا منه انحرافا عن القصد. فقد ورد انه قال مرة في خطبة « أيها الناس ان احسنت فاعينوني وان صدفت فقوموني » فقال له رجل من آخريات المسجد : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيوفنا . وفي المناقب عن الحسن رضي الله عنه قال كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام في شيء فقال له الرجل اتق الله . فقال رجل من القوم اتقول لأمير المؤمنين اتق الله . فقال عمر دعه فليقلها لي. نعم ما قال. لاخير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نقبلها

وقد كان لعمر خاصة من علية الصحابة وذوي الرأي . منهم العباس بن عبد المطلب وابنه عبد الله وكان لا يكاد يفارقه في سفر او حضر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب ونظراؤهم . كان يستشيرهم ويرجع الى رأيهم

رأيُ عمر في الاجتماعات ـ كان عمر رضي الله عنه يرى ان ابتعاد الخاصة عن عامة الناس واختصاصهم بأفراد لا يغشى تلك المجالس سواهم أمر غير لائق . لانه كان يعتبر علية الناس وذوي فضلهم بمنزلة المربي للعامة يقتدون بهم ويترسمون

خطواتهم فاذا دفعت العامة عن غشيان مجالس أولى الفضل فاتت الفائدة المقصودة ، ووجدت هوة بعيدة الغور بين الفريقين . ثم يتبع ذلك ان المجالس يدور فيها الكلام على انحاء وفنون . فاذا نقل ما يدور فيها الى الناس نقل على غير وجهه وصرف عن منحاه وظنت بالمجالس وأهلها الظنون . وكان ذلك ادعى الى سقوط منزلتهم . وفوق هذا فان ذلك يدعو الى الاختلاف والتدابر والتناكر لان من يغشون مجلساً يُدلون بعميد ذلك المجلس وكبيره . وذلك مؤد الى النفاسة وقد نهى عمر عن ذلك ناسا من قريش فيما قدمنا عن ابن عباس . قال الاستاذ الخضري : والذي خافه عمر على الناس وعلى من يأتي قد وقع فكثرت الآراء المنقولة عن افراد ذلك العصر ودعا ذلك الى اختلاف الناس في الدين اختلافاً عظيما

تدوين الدواوين وفرض العطاء

اترك الاستاذ الخضري يتكلم على تدوين الدواوين قال :

من البديهي ان حاجات الدولة تترقى بترقي العمران وامتداد السلطان . وقد كانت دولة الاسلام في خلافة أبي بكر وصدرا من خلافة عمر في مبادىء الظهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان ولم يكن لها من الدخل والخرج الا الصدقة التى كانت تؤخذ من الاغنياء وترد على الفقراء وأما المغانم والفىء فكانت قليلة لم تحوج اخماسها التى يبعث بها للمدنية الى صرف العناية وترتيب الشؤون الادارية على أصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم ، وانما كانت العناية منصرفة الى الشؤون الحربية والفنون العسكرية

ولما توسع المسلمون بالفتح وانتشروا في الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت في مناحي العمران وأخذ يزداد الفىء من الخراج والجزية زيادة لاطاقة للخليفة وأمرائه بضبطها ، ولا قبل لهم باحصاء مستحقيها وتوزيع الاعطيات على أربابها

بالعدل الا بضبطها و ترتيبها على أصول ثابتة وقيدها في قيود خاصة دعا عمر رضي الله عنه الصحابة و استشارهم في كيفية تدوين الدوان فقال علي بن أبي طالب تقسم كل سنة ما اجتمع من مال ولا تمسك منه شيئاً وقال عثمان أرى مالا كثيراً يسع الناس و ان لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت ان ينتشر الامر وقال له الوليد بن هشام ابن المغيرة قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانا وجندوا جندا فدون ديوانا وجند جندا فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا والديوان هو الدفتر او مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما في القاموس وتوسعوا بمسماه بعد فاطلقوا على كل دفاتر الحكومة الادارية وغيرها ثم على المكان الذي يكون فيه الديوان ديوانا

ولما كتبت الدواوين كتب ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية واستمر الى عهد عبد الملك بن مروان بالشام والحجاج بن يوسف عامله على العراق ونقل عبد الملك في الشام الديوان الى العربية ونقله الحجاج في العراق الى العربية

الوصف على الجملة

كان عمر يحب رعيته حباً جماً ويحب ما يصلحها ويكره ما يفسدها ساسها بسياسة تقربه الى القلوب فكان عفيفاً عن أموالهم عادلا بينهم مسويا بين الناس لم يكن قويٌّ يطمع ان يأخذ أكثر مما له ولا ضعيف يخاف ان يضيع منه ماله كان حكيما يضع الشيء في موضعه يشتد حينا ويلين حينا حسبما توحي اليه الاحوال التي هو فيها. عرف العرب معرفة تامة وعرف ما يصلح أنفسها فسيرها في الطريق الذي لا تألم فيه فصيرها أمة حرة لا تستطيع ان تنظر الى خسف يلحقها من أي انسان ولذلك نقول ان عمر اتعب من بعده فان النفوس التي تحتمل للعرب ما احتمله عمر قليلة في الدنيا بأسرها والا فأين ذلك الرجل الذي يفنى في مصلحة رعيته ولا يرى لنفسه من الحقوق الا كما لأدناهم مع تحمله مشقات الحياة واتعابها. العربي تستدعى

سياسته حكمة عاليـة : فانك ان اشتددت معه أذللته فهلك ، وان لنت معه ليكون رجلا نافعاً لم يكن هناك حد لجفائه ولا لحريته فهو يحتاج الى عقل كبير يدبره حتى لا تهلكه الشدة ولا يطغيه اللين ، ولم يكن ذلك العقل الكبير إلا في رأس عمر ابن الخطاب بعد صاحبيه

نعم قد قام بعده خلفاء راشدون وأئمة مهتدون ولكنهم لم يجمعوا صفات عمر التي كان مجموعها كدواء مركب اذا سقط منه أحد العقاقير فربما أهلك صاحبه لذلك نصرح بأن العرب بعد عمر لم تجتمع على أي خليفة في أي زمن من الازمان حتى وقتنا هذا والسبب معقول

بيت عمر

تزوج عمر في الجاهلية زينب ابنة مظعون من بني جمح من قريش فولدت له عبد الله وعبد الرحمن الاكبر وحفصة أم المؤمنين وتزوج في الجاهلية مليكة ابنة جرول من خزاعة فأولدها عبيد الله وقد فارقها في هدنة الحديبية وتزوج قريبة ابنة أبي أمية من بني مخزوم وقد فارقها في الهدنة وتزوج أم حكيم بنت الحارث بن هشام من بنى مخزوم فولدت له فاطمة وتزوج جميلة بنت قيس من الانصار فولدت له عاصما وهذه طلقها وتزوج أم كلثوم بنت علي فولدت له زيداً ورقية ومات عنها وتزوج لهية وهي امرأة من اليمن فولدت له عبد الرحمن الاصغر وتزوج عاتكة بنت زيد بن عمرو

وخطب أم كلثوم بنت أبي بكر وهي صغيرة وأرسل فيها الى عائشة فقالت الامر اليك . فقالت أم كلثوم لا حاجة لى فيه . فقالت عائشة ترغبين عن أمير المؤمنين؟ فقالت نعم انه خشن العيش شديد على النساء فأرسلت عائشة الى عمرو بن العاص فأخبرته فقال أ كفيك فأتى عمر فقال يا أمير المؤمنين بلغني خبر . أعيذك بالله منه ؟ قال ماهو ؟ قال خطبت أم كلثوم بنت أبي بكر ؟ قال : نعم أفرغبت بي عنها أم رغبت بها عني ؟ قال لا واحدة . ولكنها حدثة نشأت تحت كنف أم المؤمنين في

لين ورفق وفيك غلظة ونحن نهابك وما نقدر ان نردك عن خلق من أخلاقك فكيف بها ان خالفتك في شيء فسطوت بها كنت قد خلفت أبا بكر في ولده بغير مايحق عليك قال فكيف بعائشة وقد كلمتها . قال أنالك بها وأدلك على خير منها أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب تعلق منها بنسب من رسول الله صلى الله عليه وسلم وخطب أم ابان بنت عتبة بن ربيعة فكرهته وقالت يغلق بابه ويمنع خيره ويدخل عابسا ويخرج عابسا

مقتل عمر

بينما المسلمون مغتبطون بما يفتح عليهم من الامصار والمدن والممالك شرقي بلاد العرب وغربيها وشمالها اذ فوجئوا بأمير المؤمنين مضرجاً بدمه في محرابه . فتبدل صفوهم كدراً وسرورهم حزناً على هذا الخليفة الراشد العادل التقي

انَّ رِضى الخلائق غاية لاتدرك . فعمر وان كان أرضى بعدله الخلاق سبحانه وتعالى وشمل عدله من قرب منه ومن نأى عنه من رعيته ، ولـكن قلوباً من غير أهل الاسلام كانت مشتملة على مطوية حقد له ، مفعمة بالسخط منه

كان بالمدينة ملك من ملوك الفرس قد أضاع ملـكه وتاجه وعرف المسلمون فيه نكث العهود والخيسَ بالمواثيق والحنث بالايمان . قد جمع الى ذلك الخبْ والدهاء وقد أقام بالمدينة واحداً من الجمهور لاميزة له على أحد من الناس بعد ذلك العز الباذخ والسلطان العظيم . وهو في كل يوم يسمع بالفتح في بلاده الفارسية يعقبه الفتح والنصر يحوزه المسلمون يتبعه النصر والغنائم يحوونها يمنة ويسرة فيودع ذلك قلبه حسرة . وكان المسلمون يسبُون من أبناء فارس ويتخذون منهم الموالي وقد دفت منهم دافة الى المدينة وأقاموا بها في أكناف ساداتهم وخدمة مواليهم وقد كان كثير منهم يختلفون الى ذلك الملك الذي كان فيهم وهو الهرمزان .

وقد كان من سبايا فارس رجل يقال له أبو لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة وكان حاقداً على المسلمين صنعهم ببلاده ويتمنى لو جعلهم الله في نفس واحدة ليشتفي منهم بالقتل دفعة واحدة . وكان لما ورد على المدينة سبايا جلولاء يمسح رؤوسهم ويقول : أكلَ كبدي عمر . ذلك ان عمر هو الذي يزجي الجيوش الى فارس ويصرفها في البلاد ، وأمرها اليه في الاصدار والايراد

وبينا عمر يطوف يوماً في السوق اذ جاءه فيروز الملقب بأبي لؤلؤة ، وكان نصرانيا ، فقال يا أمير المؤمنين أعدني على المغيرة بن شُعبة فان علي خراجا كثيرا. قال كم خراجك ؟ قال درهمان في كل يوم . قال وايش صناعتك قال نجار نقاش حداد . قال فما أرى خراجك بكثير على ماتصنع من الاعمال. قد بلغني انك تقول لو أردت ان أعمل رحى تطحن بالريح فعلتُ . قال نعم . قال فاعمل لي رحى . قال لئن سلمت لاعملن لك رحى يتحدث بها من بالمشرق والمغرب. ثم انصرف عنه فقال عمر : لقد توعدني العبد آنفاً . ثم انطلق عمر الى منزله . فلما كان من الغد جاءه كعب الاحبار فقال يا امير المؤمنين اعهد فانك ميت في ثلاثة أيام ؟ قال ومايدريك قال أجده في كتاب الله التوراة . فقال عمر : آلله انك لتجد عمر بن الخطاب في التوراة ؟ قال اللهم لا ولكن أجد صفتك وحليتك وانه قد فني أجلك . وعمر لايحس وجعا ولا ألما . فلما كان من الغد غدا عليه كعب فقال يا أمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان . ثم جاءه من غد الغد وقال ذهب يومان وبقي يوم وليلة وهي لك الى صبيحتها . ذلك ان كعبا رجل يهودي رأى الاسلام يعلو ويتزايد أمره ولم يقف في سبيل نموه شيء ولا دين في بلاد العرب وخارجها . فاسلم لشيئين أولها انه رأى اليهودية تضؤل وتضمحل امام الاسلام في بلاد العرب والنصرانية ضاغطة عليها في سورية وبقية المملكة الرومانية. والتظاهر بالاسلام يكسبه عزا لم يكن له في قومه ثانيهما ان الرجل من اليهود أهل الكتاب الاول والعلم أيام جاهلية العرب .

والتوراة بلسانه دون لسان العرب · وفي أسفارها من المعميات والالغاز ما لا يمكن ان يفقهه العرب ولو لقنوا العبرية فهي اذن مجال فسيح للكذب يلقيه الى المسلمين ليفسد عليهم أمرهم ويعمي عليهم سبيل الهدى . فهو بذلك اراد ان يضرب عصفورين بحجر . وكذلك كان . فان الرجل نال بين المسلمين مركزاً عظيما . وقد كان كثير يرون أن توراته فيها علم كل شيء وانه صادق فيما يخبر به ، وبخاصة بعد ان تحقق قوله في عمر . والرجل قد أفاض على المسلمين ثروة واسعة من الاسرائيليات التي ندري نحن حقيقتها وكان هو لا يدري من حقيقتها شيئاً سوى انه مبتدعها . وكان يسند كلامه الى التوراة والتوراة خالية مما كان يموه به على الناس . وهذه التوراة بين أيدينا نقرؤها وليس فيها شيء مما كان يقوله هذا الرجل لمعاصريه وهو بالاساطير أشبه

بعد ان تمهد هذا أقول : ان حكاية اخباره لعمر بمصرعه على هذا الوجه المروي لو كانت صحيحة ، لم يبق عند الواقف عليها شك في أن هذا الرجل كان واقفا على ما دبره فيروز أبو لؤلؤة من اغتيال عمر ، وان خطة السير للوصول الى قتله كان كعب الاحبار عارفاً بها واقفاً عليها وقوفا تاما . وإنما أراد باخبار عمر على هذا الوجه ، ان تزيد منزلته عند المسلمين وينال الحظوة فيهم وتكون رواياته وحكاياته أكثر قبولا . ولو وجد محقق ذكي وعرض عليه امر كعب الاحبار وما أخبر به عمر قبل القتل مانجا كعب من النكال ولعد شريكا للجاني ولكان حقيقا ان ينفذ فيه قانون الاتفاقات الجنائية الذي شرع فى مصر سنة ١٩١٠

كان بالمدينة رجل من نصارى الانبار أقدمه سعد بن أبي وقاص ليعلم أبناء المسلمين بالمدينه القراءة والكتابة اسمه جفينة . وناحية الانبار كانت تابعة للفرس وللرجل بهم إلف ، فكان يجتمع بالهرمزان وفيروز أبي لؤلؤة وقد روي ان عبد الرحمن بن أبي بكر مر بالهرمزان وأبي لؤلؤة وجفينة يتناجون

وهم جلوس فلما رأوا عبد الرحمن قاموا وقوفا فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه ، وهو الخنجر الذي قتل به عمر بعد ذلك

من اجتماع هذه الاحوال والمناسبات أرى انه لايكون بعيدا من الصواب من يعد قتل عمر نتيجة لمؤامرة واتفاق جنائي غمس يده فيه كل من (١) الهرمزان (٢) فيروز أبي لؤلؤة عبد المغيرة بن شعبة (٣) جفينة الانباري (٤) كعب الاحبار اليهودي . ولو كان المسلمون في شريعتهم إيجاب العقوبة بالقرائن ووجد من يحقق مع من بقي منهم بعد مقتل عمر لكان من المحتمل جداً ان يعاقب كل منهم على ذلك الاتفاق الاثيم . لانهم في ذلك الوقت يعتبرون من الرعية المسلمين لا الاعداء المحاربين فليس لهم عذر ولاشبهة عذر في تدبير ذلك الجرم الفظيع

﴿ كيف قتل عمر ؟ ﴾

قال الطبري : فلما كان الصبح خرج عمر الى الصلاة وكان يوكل بالصفوف رجالا فاذا استوت جاء فكبر ودخل أبو لؤلؤة في الناس في يده خنجر له رأسان نصابه في وسطه فضرب عمر ست ضربات احداهن تحت سرته وهي التى قتلته وقتل معه كليب بن أبي البكير الليثي وكان خلفه . فلما وجد عمر حر السلاح سقط وقال : أفي الناس عبد الرحمن بن عوف ؟ قالوا نعم هو ذا . قال تقدم فصل . فصلى عبد الرحمن بن عوف وعمر طريح . ثم احتمل فادخل داره فدعا عبد الرحمن بن عوف

ثم نادى عمر ابنه عبد الله وقال اخرج فانظر من قتلني فقال يا أمير المؤمنين قتلك أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة . فحمد الله تعالى أن لم يقتله رجل سجد لله سجدة ثم قال يا عبد الله ائذن للناس فجعل يدخل عليه المهاجرون والانصار فيسلمون عليه فيقول : عن ملأ منكم كان هذا ؟ فيقولون معاذ الله

وقد دخل في الناس كعب الاحبار فقال « الحق من ربك فلا تكونن من

الممترين » قد أنبأتك انك شهيد فقلت من أين لي الشهادة وأنا في جزيرة العرب

ويقال انه لما نظر عمر الى كعب قال :

فأوعدني كعب ثلاثا أعدها ولا شك ان القول ما قال لي كعب

ومابي حذار الموت، اني لميت ولكن حذار الذنب يتبعه الذنب

ثم دعى له الطبيب فقال أي الشراب أحب اليه فجيء له بنقيع التمر فسقاه فخرج على حاله من الجرح ثم سقاه اللبن فخرج على حاله فأيقن أنه ميت ولم يجد للقضاء حيلة . وقد توفى عمر ليلة الاربعاء لثلاث ليال بقين من ذي الحجة سنة ٢٣ ودفن بكرة يوم الاربعاء في حجرة عائشة مع صاحبيه بعد ان استأذن عائشة في ذلك عقيب ان طعن ـ ولما أدرج في كفنه ابتدر علي وعثمان الصلاة عليه . فقال عبد الرحمن بن عوف : انكما حريصان على الامارة . ليس لكما ذلك وانما هو لصهيب لانه قد أمره ان يصلي بالناس . فتقدم صهيب فصلى عليه ثم حمل الى حجرة عائشة فووري التراب . وكانت مدة خلافته عشر سنوات وستة أشهر وأربعة أيام من ابتداء ٢٢ جمادى الثانية سنة ١٣ إلى ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٣ وكانت سنه حين قتل ٦٣ سنة كصاحبيه في أشهر الاقوال

أما أبو لؤلؤة فقد جهد الناس ان يقبضوا عليه فأصاب منهم ثلاثة عشر رجلا بجراحات وأعياهم أمره فجاء رجل من بني تيم وألقى عليه رداء فلما علم أنه مأخوذ قتل نفسه

كيف انتخب عثمان

لما طعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل : له يا أمير المؤمنين لو استخلفت . قال من أستخلف ؟ لو كان أبو عبيدة بن الجراح حيا استخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الامة . ولو كان سالم مولى أبي

حذيفة حيا استخلفته. فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول ان سالما شديد الحب لله ـ فقال له رجل: أدلك عليه. عبد الله بن عمر. فقال: قاتلك الله. والله ما أردت الله بهذا. ويحك. كيف أستخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته. لا أرب لنا في أموركم. ما حمدتها فارغب فيها لأحد من أهل بيتي. ان كان خيرا فقد أصبنا منه وان كان شراً فشر عنا الى عمر. بحسب آل عمر ان يحاسب منهم رجل واحد ويُسأل عن أمر أمة محمد. أما لقد جهدت نفسي وحرمت أهلي وان أنج كفافا لا وزر ولا أجر اني لسعيد. وأنظر فان أستخلف فقد استخلف من هو خير مني (يعني أبا بكر) وان أترك فقد ترك من هو خير مني (يعني رسول الله ﷺ) ولن يضيع الله دينه. فخرجوا

وكأن أصحاب رسول الله ﷺ خافوا ان يقضي عمر نحبه بدون استخلاف فينتشر أمر المسلمين لتطلع كثير من الصحابة الى هذا الامر فتكون فتنة في الارض وفساد كبير، فراحوا الى عمر كرة أخرى، وقالوا: يا أمير المؤمنين لو عهدت عهدا. فقال كنت أجمعت بعد مقالتي لكم ان أنظر فأولى رجلا أمركم هو أحراكم ان يحملكم على الحق (وأشار الى علي) ودهمتني غشية فرأيت رجلا دخل جنة قد غرسها فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمه اليه ويصيره تحته فعلمت أن الله غالب أمره ومتوف عمر فما أريد ان أتحملها حيا وميتا، عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله ﷺ انهم من أهل الجنة، سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم ولست مدخله ولكن الستة: علي وعثمان ابنا عبد مناف وعبد الرحمن وسعد خالا رسول الله ﷺ والزبير بن العوام حواري رسول الله وابن عمته وطلحة الخير بن عبيد الله. فليختاروا منهم رجلا فاذا ولوا واليا فأحسنوا موازرته وأعينوه وان ائتمن أحدا منكم فليؤد اليه أمانته. وخرجوا. ولقي العباس عليا فقال له لا تدخل معهم. قال أكره الخلاف. قال: اذا ترى ما تكره

والذي أراه ان العباس غلب على ظنه ان القوم يفضلون اختيار غير علي . فاذا حدث ذلك وهو واحد منهم كان عليه في ذلك غضاضة ورأى ذلك غصة لا يسيغها على الاعلى ألم . ولكنه اذا نفض يده من الامر واختير واحد من جماعة ليس علي واحدا منهم لم يكن الايثار ظاهرا ولا غضاضة عليه في ذلك فأراد أن يحتاط لابن أخيه هذا الاحتياط

فلما أصبح عمر دعا عليا وعثمان وسعدا وعبدالرحمن بن عوف والزبير بن العوام. فقال : اني نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الامر الا فيكم وقد قبض رسول الله ﷺ وهو عنكم راض . اني لا أخاف الناس عليكم ان استقمتم ولكني أخاف عليكم اختلافكم فيما بينكم فيختلف الناس ، فانهضوا الى حجرة عائشة فتشاوروا واختاروا رجلا منكم . ثم قال : لا تدخلوا حجرة عائشة ولكن كونوا قريباً . ثم وضع رأسه وقد نزفه الدم . فدخلوا فتناجوا ، ثم ارتفعت أصواتهم . فقال عبد الله بن عمر : سبحان الله ، ان أمير المؤمنين لم يمت بعد ، فأسمعه فانتبه . فقال : ألا اعرضوا عن هذا أجمعون . فاذا مت فتشاوروا ثلاثة أيام وليصل بالناس صهيب . ولا يأتين اليوم الرابع الا وعليكم أمير منكم ويحضر عبد الله ابن عمر مشيراً ولا شيء له من الامر وطلحة شريككم في الامر . فان قدم في الايام الثلاثة فاحضروه أمركم وان مضت الايام الثلاثة قبل قدومه فاقضوا أمركم . ومن لي بطلحة . فقال سعد بن أبي وقاص : أنا لك به ولا يخالف ان شاء الله . فقال عمر : أرجو أن لا يخالف ان شاء الله ، وما أظن أن يلي الا أحد هذين الرجلين : علي وعثمان ، فان ولي عثمان فرجل فيه لين . وان ولي علي ففيه دعابة ، وأحر به أن يحملهم على طريق الحق . وان تولوا سعداً فأهلها هو والا فليستعن به الوالى . فاني لم أعزله عن خيانة ولا ضعف ونعم ذوي الرأي عبد الرحمن بن عوف مسدَّدٌ رشيد له من الله حافظ فاسمعوا منه . وقال لأبي طلحة الانصاري : يا أبا طلحة ، ان الله عز وجل طالما أعز الاسلام بكم فاختر خمسين رجلا من الانصار فاستحث هؤلاء

الرهط حتى يختاروا رجلا منهم . وقال للمقداد بن الأسود : اذا وضعتموني في حفرتي ، فاجمع هؤلاء الرهط في بيت حتى يختاروا رجلا منهم . وأدخل علياً وعثمان والزبير وسعدا وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ان قدم . واحضر عبد الله بن عمر وقم على رؤوسهم . فان اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه بالسيف وان اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما بالسيف . فان رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا منهم . فحكموا عبد الله بن عمر . فأي الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم . فان لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر . فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

﴿ انتخاب خليفة عمر ﴾

فلما دفن عمر جمع المقداد أهل الشورى في بيت المِسوَر بن مخرمة وهم خمسة ، معهم عبد الله بن عمر وطلحة غائب ، وأمروا أبا طلحة أن يحجبهم . وجاء عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة فجلسا بالباب . فأقامهما سعد وقال : تريدان أن تقولا حضرنا وكنا في الشورى . فلما أخذوا في اجالة الرأي بينهم تنافسوا في الخلافة وكثر بينهم الكلام . فقال أبو طلحة : انا كنت لان تدفعوها أخوف مني لان تنافسوها ، لا والذي ذهب بنفس عمر لا أزيدكم على الأيام الثلاثة التي أُمرتم ثم اجلس في بيتي فانظر ما تصنعون . فقال عبد الرحمن بن عوف : أيكم يُخرجُ منها نفسه ويتقلدها على أن يوليها أفضلكم . فقال عثمان : أنا أول من رضى فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول أمين في الأرض أمين في السماء . فقال القوم : قد رضينا وعلي ساكت . فقال : ما تقول يا أبا الحسن ؟ فقال . لتؤثرن الحق ولا تتبع الهوى ولا تخص ذا رحم ولا تألوا الامة . فقال عبد الرحمن : اعطوني مواثيقكم على أن تكونوا معي على من بدل وغير ؛ وأن ترضوا من اخترت لكم على ميثاق الله أن لا أخص ذا رحم رحمه ولا آلو المسلمين . فأخذ منهم ميثاقا وأعطاهم مثله

تقلد عبد الرحمن الامر على أن يختار افضل أهل الشورى . وخلا بعلي وقال له : انك تقول اني أحق من حضر بالامر لقرابتك وسابقتك وحسن أثرك في

الدين ولم تبعد . ولكن ، أرأيت لو صرف هذا الامر عنك فلم تحضر . من كنت ترى من هؤلاء الرهط أحق بالامر ؟ قال : عثمان ثم خلا بعثمان فقال له : تقول شيخ من بني عبد مناف وصهر رسول الله ﷺ وابن عمه لي سابقة وفضل ـ لم تبعد . فلم يصرف هذا الامر عني ؟ ولكن لولم تحضر فأي هؤلاء الرهط تراه أحق به ؟ قال : علي ثم خلا بالزبير فكلمه بمثل ما كلم به علياً فقال : عثمان ثم خلا بسعد وقال له مثل ذلك فقال : عثمان . فلقي علي سعداً فقال له « واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » أسألك برحم ابني هذا من رسول ﷺ وبرحم عمي حمزة منك أن لاتكون مع عبد الرحمن لعثمان على ظهيرا فاني أدلي بما لا يدلي به عثمان

لم يقتصر عبد الرحمن على ما قدمنا في الاستشارة في هذا الامر بل دار لياليه يلقى أصحاب رسول الله ﷺ ومن وافى المدينة من أمراء الاجناد وأشراف الناس يشاورهم ولا يخلو برجل الا أمره بعثمان . حتى اذا كانت الليلة التي ينتهي في صبيحتها الاجل أتى دار المسور بن مخرمة وهو ابن أخته فأيقظه عبد الرحمن وقال له : ألا أراك نائماً ولم أذق في هذه الليلة كثير غمض انطلق فادع الزبير وسعداً فدعاهما . فبدأ بالزبير في آخر المسجد في الصفة التي تلي دار مروان . فقال للزبير : خل ابني عبد مناف وهذا الامر . قال نصيبي لعلي . وقال لسعد : أنا وأنت كلالة : فاجعل نصيبك لي فأختار ، قال : ان اخترت نفسك فنعم ، وان اخترت عثمان فعلي أحب الى ، أيها الرجل بايع نفسك وأرحنا وارفع رؤوسنا ، فقال عبد الرحمن يا أبا اسحاق اني قد خلعت نفسي منها على أن أختار ولولم أفعل وجعل الخيار الى لم أردها ، ثم قال : لايقوم بعد أبي بكر وعمر أحد فيرضى الناس عنه ثم انصرف الزبير وسعد

ومن هذا نرى أن الزبير وسعداً حالا عن رأيهما الذي قالاه لعبد الرحمن أولا لانهما كانا قد أشارا عليه بعثمان لو لم يحضر كل منهما الامر ، واني لا أدري السبب

في هذا العدول وغاية ما يمكنني أن أقوله ان كلامنها راجع فكره ونظر الى مصلحة المسلمين ، فرأى أن عليا يكون في سيرته أقرب الى منهاج عمر من القوة على الحق والبعد عن الانغماس في الدنيا والاغترار بزينتها ، وان عثمان فيه رقة ورأفة وقد أخذت منه الشيخوخة مأخذها ومن كان كذلك كان أقرب الى استكفاء غيره والركون الى مشورة سواه وهم لايدرون من يكون ذلك الكافي ولايثقون بمنهج المشير - أو يكون على قد أثر كلام علي في سعد - ثم أرسل المِسْوَر الى علي فجاء فناجاه طويلا ، ثم أرسل الى عثمان فجاء فناجاه حتى فرق بينهما الصبح وكان علي لايشك في أن الامر له - فلما صلوا الصبح جمع رجال الشورى وبعث الى من حضره من المهاجرين وأهل السابقة والفضل من الانصار وأمراء الاجناد - فاجتمعوا حتى التج المسجد بأهله ، فقال : أيها الناس ، ان الناس قد أحبوا أن يلحق أهل الامصار بأمصارهم وقد علموا من أميرهم . فقال سعيد بن زيد : انا نراك لها أهلا . فقال : أشيروا علي بغير هذا . فقال عمار : ان أردت أن لايختلف المسلمون فبايع عليا فقال المقداد بن الاسود صدق عمار ان بايعت عليا قلنا سمعنا وأطعنا ، فقال عبد الله ابن أبي سرح : ان أردت أن لاتختلف قريش فبايع عثمان ، فقال عبد الله ابن أبي ربيعة صدق ، ان بايعت عثمان قلنا سمعنا وأطعنا ، فشتم عمار ابن أبي سرح ، وقال : متى كنت تنصح المسلمين ؟ فتكلم بنو هاشم وبنو أمية ، فقال عمار : أيها الناس ان الله عز وجل أكرمنا بنبيه وأعزنا بدينه ، فأنى تصرفون هذا الامر عن أهل بيت نبيكم ، فقال رجل من بني مخزوم : لقد عدوت طورك يا ابن سُمَيَّة وما أنت وتأمير قريش لانفسها ، فقال سعد بن أبي وقاص : ياعبد الرحمن افرُغ قبل أن يفتتن الناس ، فقال عبد الرحمن اني قد نظرت وشاورت فلا تجعلن أيها الرهط على أنفسكم سبيلا . ودعا عليا ، فقال : عليك عهد الله وميثاقه لتعملن بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده ؟ قال أرجو أن أفعل واعمل بمبلغ علمي وطاقتي ودعا عثمان . فقال له مثل ما قال لعلي ، قال : نعم . فبايعه . فقال : على

حبوته حبودهر ، ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ، والله ما وليت عثمان الا ليرد الامر اليك والله كل يوم هو في شأن ، فقال عبد الرحمن ياعلي لاتجعل على نفسك سبيلا ، فاني قد نظرت وشاورت الناس فاذا هم لايعدلون بعثمان . فخرج علي وهو يقول : سيبلغ الكتاب أجله . فقال المقداد : ياعبد الرحمن ، أما والله لقد تركته من الذين يقضون بالحق وبه يعدلون . فقال : يامقداد ، والله لقد اجتهدت للمسلمين

قدم بعد ذلك طلحة في اليوم الذي بويع فيه لعثمان ، فقيل له : بايع عثمان . فقال : أكل قريش راض به ؟ قالوا : نعم ، فأتى عثمان ، فقال له عثمان : أنت على أمرك أن أبيت رددتها قال : أتردها ؟ قال : نعم ، قال : أكل الناس بايعوك ؟ قال نعم ، قال رضيت لا أرغب عما قد أجمعوا عليه . وبايع . وقد ورد أن المغيرة بن شعبة قال لعبد الرحمن أصبت اذ بايعت عثمان ، وقال لعثمان لو بايع غيرك ما رضينا فقال له عبد الرحمن : كذبت يا أعور والله لو بايعت غيره لبايعته ولقلت هذه المقالة

وروى الطبري في خبر أن عليا تلكأ في بيعة عثمان فقال عبد الرحمن بن عوف ومن نكث فانما ينكث على نفسه ، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما فرجع علي يشق الناس حتى بايع وهو يقول : خدعة وايما خدعة

الحالة العامة فى عهد عمر

ان الحالة العامة للمسلمين على عهد عمر بن الخطاب تختلف عنها في عهد أبي بكر فقد تقوى في عهد عمر الدين وصارت كلمته العليا في جزيرة العرب وتوطد الملك للمسلمين وشيدت دعائم الدولة ونسى العرب ما كان بينهم في الجاهلية من الانقسام والتفرق ومحاربة بعضهم بعضا وزالت عن أعينهم غشاوة الجهل بأمور الدول وتجردوا عن كثير من تلك السذاجة التى كانت فيهم ، وصارت الامة الاسلامية

سائسة ملك وربة سطوة ومؤسسة دولة ومقننة قانون وصاحبة دين أهاب بها الى الجد وحملها على مزاحمة أمم التاريخ بالمناكب حتى وسمت بأنها أعظم الأمم

في عهد عمر كانت حياة الأمة نامية نمواً عجيباً يتدفق فيضها الحيوي فى جميع عناصرها وأعضائها تدفقاً ينعش كل جزء من أجزائها وينمي ذلك الجسم نمواً سريعاً يؤذن بانقلاب في العالم تهتز له أعصاب دول الأرض ويتناول أهل المشارق والمغارب ـ فاندفعت الأمة في عصره بما استحدثه فيها الدين من الاتحاد القومي وما رسخ في اعتقادهم من أنهم الأمة الوارثة للأمم ، وان الله تعالى سيمكن لها في الارض ويجعل أهلها أئمة ويجعلهم الوارثين . فسال سيلهم على أطراف الممالك المجاورة لهم وهم الفرس والروم ، فزلزلوا سلطان فارس وتغلغلوا في احشائها وطم سيلهم على بلادها وطغى على ما جاورها من البلدان النائية والأمصار المترامية ووطئت خيلهم بلاداً لم يمر اسمها على خاطرهم وشردوا حامل تاج ملك فارس وثلوا عرشه وازعجوا القواد والرؤساء حتى درس ذلك الملك وصيروا تلك الدولة الساسانية تاريخاً يُعتَبر كان لم تغن بملوكها البلاد ولم تَعنُ لهيبتهم وجوه العباد

وأما الدولة الرومانية فقد انتقصوا أطرافها وقلصوا ظلها عن الجزيرة وسورية وجزء من أرمينيا وجميع مصر وبرقة . وفي كل آن لهم غارات في قراهم وفتكات في جنودهم واحشاء بلادهم ويغزونهم في عقر دارهم وبمرأى ومسمع من عاصمة ملكهم ومستقر عزهم ، بجنود أقل من جنودهم عدداً وعدة ، وهم في كل مرّة يواتيهم الظفر ويسعفهم النصر

كانت الممالك المجاورة للعرب قد تأصلت فيها جذور الاستبداد ورئم أهلها الاستعباد وقد نسي الرومان مسمى الحرية التى جاهد آباؤهم في سبيل احرازها جهاد الأبطال وانتزعوا حريتهم من أيدي الاباطرة انتزاعاً ـ وقد بخع الفرس بنفوسهم للملوك والرؤساء واستُعبِدوا لِأشراف البلاد . وقد تساوى الفرس والروم في فقدان مبدأ الاعتماد على النفس وحب الاستقلال الذاتي في أصول حياتهم

وفروعها ـ ولكن العرب الذين جاسوا خلال ديارهم وألقوا رحالهم بينهم جاءوا اليهم حاملين للحرية التي امتزجت بدمائهم وخالطت جواهر نفوسهم. حتى بلغ من أمرهم انهم لايطيقون من أميرهم أن يتفوق عليهم في شيء من الاشياء. وقد شكا بعض العرب أبا موسى أميرَ البصرة لان له جارية يقل لها عقيلة يرفع لها جفنة لغدائها وجفنة لعشائها وهم لايقدرون على مثل ذلك ـ وقد كان من ورائهم عمر بن الخطاب يُقِيدُ العامة من الامراء ـ ويقول بملء فيه على المنبر: من ظلمه اميره فلا إمرة له عليه دوني

نفث العرب الفاتحون في روع أهل البلاد المفتتحة روحاً جديدة وذوّقوهم حلاوة الحرية الشخصية. وأشعروا نفوسهم انهم بشر لاينحطون في الحقوق العامة عن مرتبة الامراء، حتى بلغ من أمر أحد المصريين انه لما أهين من ابن عمرو بن العاص أمير مصر شخص الى مقر الخلافة يشكو ابن الامير. فأقاده عمر منه دون محاباة ولا مجاملة لابيه ولا مراعاة لمكانته وسابقته وحسن بلائه

عدل شامل ينعم به الموالي، ويغتبط به العدو ويفيضه عمر على الرعية مابين برقة ونهر جيحون غرباً وشرقاً، وما بين القوقاز والاناضول شمالا الى المحيط الهندي جنوباً، لايشعر أحد من الرعية بتميز أحد عليه الا بالتقوى وحسن البلاء

خالط العرب هذه الامم ودال اليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة فأشعرت قلوبهم لزوم الحياة المدنية للامم الغالبة كما هي سنة الوجود. وليس في أيديهم من أدوات تلك الحياة سوى الاستعداد الفطري لقبول الخير والشر. والشرع الالهي الذي أطلق عقولهم من أسر التقليد وأخرجهم من الظلمات الى النور. فأخذوا بحكم الطبيعة يقلدون مجاوريهم في العادات وبدأوا يبارونهم في مضمار الحياة. وكان أول شيء طمحت نفوسهم اليه تقليد مجاوريهم في فنون القتال ومحاذاة الروم وفارس في استصناع الآلات الحربية ليقابلوا القوة بمثلها ويمهدوا للفتوح عدتها ـ ثم تطرقوا الى الامور السياسية والادارية يحتذون مثالهم فيها

ويترسمون خطواتهم في العمل بها، فوضع عمر التاريخ ودوّن الدواوين على نحو ما كان موجوداً عند الدولتين: الفارسية والرومية. ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الاعمال وانتقاء العمال، وفرض العطاء، وقرر مصرف الفيء في غير سرف ولا تقتير، ونشر جناح الامن وأقام ميزان العدل وقرر أصول الجباية بلا اجحاف في حقوق الرعية ولا غبن على الدولة. فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران في أنحاء المملكة وانهال الغنى والثروة على الفاتحين وخطوْا خطى خفيفة الى الراحة والنعيم مع الاخذ على الشكائم والتخوشن بعض الشيء في المأكل والملبس، والتوسط في العيش، والقصد في الانفاق وعدم التبسط في البذل خوف الاخذ على أيديهم من عمر، كما يتبين ذلك من صنيعه مع خالد اذ أعطى الاشعث بن قيس عشرة آلاف. فكان ذلك سبباً لاعتقاله بفضل عمامته وتقريره عن الدراهم التى أجاز بها امن اصابة أم من ماله وعزله على كل حال. اذ أقامه عمر بين الخيانة والاسراف وكل لاخير فيه

ومن جهة أخرى فان عمر لم يدع للعرب في مدته فرصة تمكنهم من الاخلاد الى الراحة والايواء الى ظل النعم والسكون تحت كنف الامصار والتبسط فى نعيم الحياة وزخرف العيش. بل دفع بهم في معترك الحياة الحضرية وزج بهم في معترك الحروب في وقت واحد. وكانت الحروب أكبر همهم والتغلب على العدو آثر شيء لديهم فشغلهم عن النعيم والرفاهة بالفتوح وألهاهم بادخار الغنائم عن التمتع بها. وارجأوا ذلك ريثما يفلوا من غرب الدول المجاورة لهم ويأمنوا غائلة الامم المغلوبة وانتقاضها عليهم

استفاد العرب من هذه السياسة العمرية فى أحوالهم الاجتماعية فلم يسمع في زمنه ناعق بفرقة ولا صائح بانقسام ولا داع الى تنافر وتدابر ولا هاتف بعصبية. بل كان جزاء من يفعل ذلك الضرب بالسيف - ولكن اندفاع القوم الى الفتوح وتفرقهم في أنحاء الممالك وتعجلهم الظهور قبل تأصل الدين فيهم وتمكنه من نفوس

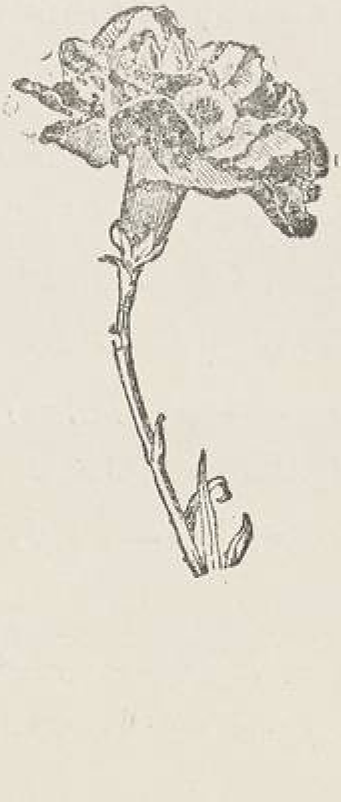
عامتهم . نشأ عنه بعد ذلك تشويش في الدين والملامح - ومن ذلك عدم الاجهاز على الوثنية ومحو أثرها من البلدان المفتتحة مع دخول كثير من أهلها فى الاسلام. فاختفت هذه الآثار حيناً ثم بدأت تظهر كرة ثانية مصطبغة بصبغة أخرى نتج عنها تفرق أهواء المسلمين وظهور البدع والمبتدعين وبخاصة بين الاعاجم من المسلمين أو الذين ظهروا بمظهر أهل الاسلام واتسموا بسمته

ومن المعلوم أن الاسلام طم على البلاد بسرعة مدهشة فائقة الوصف . والشيء اذا سار بسرعة لم يكن طروء الخطأ والفساد فيه مأموناً . كما لو ضاعفت النار بشيء تريد نضجه فانه وان نضج ظاهره فى وقت قريب فان باطنه لم يزل فجا لا أثر للنضج فيه . ولهذا كانت سرعة تأخر الأمة العربية في الحضارة والرقي بمقدار تقدمها في ذلك وسرعة فتحها للبلاد

والذي يمكن أن يكون عذراً لعمر أن سياسته في تعجل الفتح أول الامر كان لها فائدة جليلة في ذلك الحين . وذلك انه دفع بالقوم الى الفتح فى ابان الظهور واتقاد جمرة الحماسة في النفوس قبل أن تطفأ تلك الوقدة وتنحل عقدة الاخاء بين قبائل العرب وتتراخى أسباب الالفة فأراد أن يساجل القوم قبل أن يلتئم شملهم ويكاثروا العرب بما لا قبل لهم به - فلما نال القصد وأدرك الغاية عمد الى الارعاء عليهم وهم بان لا يرخى لهم طول الفتوح وأن يقنعوا بما أحرزوا ، ولكن القوم اخطروه بما كان يبدو منهم من الانتقاض ونكث العهود الى الاذن للمسلمين بقطع مادة الفساد

ومما يدل على أن عمر كان يسوق الامة الى المدنية سوقاً تدريجياً ، ولم يكن يريد بهم الاقتحام في تيارها ما كان منه حين ورد عليه الأحنف بن قيس في وفد من أهل البصرة فتكلم عنهم فقال : ولقد يعزب عنك مايحق علينا انهاؤه اليك مما فيه صلاح العامة . وانما ينظر الوالي فيما غاب عنه بأعين أهل الخبر ويسمع بآذانهم وأنا لم ننزل منزلا بعد منزل حتى أرزنا الى البر . وان اخواننا من أهل الكوفة

نزلوا في مثل حدقة البعير الغاسقة من العيون العذاب والجنان الخصاب فتأتيهم ثمارهم غضة ولم تخضد وانا معشر أهل البصرة نزلنا سبخة هشاشة زعقة نشاشة طرف لها في الفلاة وطرف لها في البحر الاجاج يجري اليها ماء جرى في مثل مرىء النعامة دارنا فخمة ووظيفتنا ضيقة وعددنا كثير واشرافنا قليل وأهل البلاء فينا كثير ودرهمنا كبير وقفيزنا صغير ، وقد وسع الله علينا وزادنا في أرضنا فوسع علينا يا أمير المؤمنين وزدنا وظيفة توظف علينا ونعيش بها . فقال عمر : هذا الغلام سيد أهل البصرة . وامسكه سنة لئلا يحمل الناس على أفضل عقله . فيطلب منهم مثل ماعنده فيورطهم . وكذلك فعل مع زياد حين أوفده عليه أبو موسى واحتبسه . فسأله زياد عن السبب . فقال : كرهت أن أحمل الناس على أفضل عقلك



ترجمة عثمان بن عفان

هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قُصي القرشي الاموي ، يجتمع مع رسول الله ﷺ في عبدمناف . يكنى أبا عبد الله وأبا عمرو ، وثانيهما أشهرهما ، ولد في السنة السادسة بعد عام الفيل . وأمه أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبد مناف . وأمها البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ

كان عثمان تاجراً وقد ذهب الى الشام مرة في تجارته . وقد أدرّ الله تعالى عليه أخلاف الخير فقد كان واسع الثروة كثير المال ـ وقد شبّ على كريم الشيم وحسن السيرة عفيفاً حيياً محبباً في قومه مأموناً عندهم أثيراً لديهم . أخرج ابن عساكر عن الشعبي قال : كان عثمان في قريش محبباً يوصون اليه ويعظمونه . وان كانت المرأة من العرب لترقص ولدها وهي تقول :

أحبك والرحمن حب قريش عثمان

أجاب عثمان الى الاسلام بدعوة من أبي بكر وكان اسلامه مع الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله . فهو من السابقين الاولين الذين أحرزوا فضل السبق وفخر القيام بنصرة الدين . وقد روى ابن الاثير في أسد الغابة عن ابن عباس ان قوله تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين) نزلت في عشرة : أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف وسعيد بن زيد وعبد الله بن مسعود

كان عثمان في صحبته محببا من رسول الله ﷺ كريما عليه وقد اصهر اليه رسول الله ﷺ بابنته رقية بعد اسلامه . ولما ناله الاذى من قريش فى الاسلام هاجر بها

الى الحبشة . وفي ذلك قال رسول الله « صحبهما الله ان عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط » يشير الى قوله تعالى « فآمن له لوط وقال اني مهاجر الى ربي » ثم رجع من الحبشة الى مكة . فلما كانت الهجرة الى المدينة هاجر اليها ـ وهي الهجرة الثانية ـ وقد بقيت رقية معه الى أن توفيت بالمدينة في اليوم الذي اظفر الله المسلمين على مشركي قريش ببدر . ولم يشهدها عثمان لانه كان قائما على تمريض زوجته . ولكن رسول الله أسهم له مع الغانمين فعد بدريا

شهد عثمان مع رسول الله جميع مشاهده الا بدرا كما قدمنا وقد زوجه رسول الله بابنته أم كلثوم . ولهذا كان يلقب بذي النورين لانه كان خَتَنَ رسول الله في ابنتيه رقية وأم كلثوم الى أن توفيت في السنة التاسعة من الهجرة . وقد قال رسول الله ﷺ لو أن لنا ثالثة لزوجناك . وهذا يدل على شدة حب رسول الله له وثقته به وسمو مكانته عنده

ولما كانت بيعة الحديبية كان عثمان سفير رسول الله الى قريش فلما شاع أن قريشا غدرت بعثمان بايع أصحابه تحت الشجرة بيعة الرضوان ثم علم حينذاك أن عثمان حي فقال النبي ﷺ « ان عثمان في حاجة الله وحاجة رسوله » ثم ضرب باحدى يديه على الاخرى وقال بيده اليمنى « هذه يد عثمان » فكانت يد رسول الله لعثمان خيراً من أيديهم لأنفسهم

كان عثمان كريم النفس جواداً بماله سخي اليد في طاعة الله عز وجل واعلاء دينه حتى أنه بذل في تجهيز جيش العسرة من ماله مالم يبذله أحد فقد جهز ذلك الجيش بألف بعير وخمسين فرساً ـ وقد أخرج الترمذي عن أنس والحاكم وصححه عن عبد الرحمن بن سمرة قال : جاء عثمان الى النبي ﷺ بالف دينار حين جهز جيش العسرة فنثرها في حجره فجعل رسول الله يقلبها ويقول « ما ضر عثمان ما صنع بعد اليوم » مرتين

ومن مسارعته الى البذل ابتغاء وجه الله تعالى ان بئر رومه كانت ركية ليهودي

يبيع المسلمين ماءها . فقال رسول الله ﷺ من يشتري بئر رومه فيجعلها المسلمين يضرب بدلوه في دلائهم وله بها مشرب فى الجنة . فأتى عثمان اليهودي فساومه بها فأبى أن يبيعها كلها . فاشترى نصفها باثنى عشر ألف درهم فجعله للمسلمين فقال له عثمان : ان شئت جعلت على نصيبي قرنين وان شئت فلي يوم ولك يوم . قال بل لك يوم ولي يوم . فجعل المسلمون اذا كان يوم عثمان استقوا ليومين . فلما رأى اليهودي ذلك قال: أفسدت عليّ ركيتي فاشتر النصف الآخر. فاشتراه منه بثمانية آلاف درهم وصارت كلها للمسلمين

ومن هذا القبيل أن رسول الله قال : من يزيد في مسجدنا ؟ فاشترى عثمان موضع خمس سوار فزاده فى المسجد

وكان عثمان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ وكان لأبي بكر ثم لعمر أمينا كاتبا يستشار في مهام الامور ويؤخذ رأيه في جلائل الاعمال . ولما قتل عمر رضي الله تعالى عنه كان أحد الستة الذين قال فيهم عمر : ان رسول الله مات وهو عنهم راض وانهم رؤساء الناس والناس لهم تبع . وكانت استشارة عبد الرحمن بن عوف للناس في شأن من يلي الخلافة تنجلي فى الغالب عن ان أكثر المشيرين يطلبون تولية عثمان وقد بويع بالخلافة بعد ذلك فاستقبل بخلافته السنة الرابعة والعشرين (٧ نوفمبر سنة ٦٤٤ م)

اول قضية نظر فيها عثمان

قدمنا أن أبا لؤلؤة فيروز الفارسي غلام المغيرة بن شعبة هو الذي قتل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين وقد قتله رجل من بنى تيم أو قتل نفسه لما أعيا القوم القبض عليه ، وقد قتل رجلا من المسلمين وجرح ثلاثة عشر رجلا - فلما كان ذلك جاء عبد الرحمن بن أبي بكر وأخبر أنه رأى أبا لؤلؤة قبل قتل عمر بيوم ومعه جفينة وهو رجل نصراني من أهل الانبار جاء به سعد بن أبي وقاص ليعلم أبناء المسلمين بالمدينة

الكتابة ومعهما الهرمزان ذلك الملك الفارسي - وحاله كما وصفنا - وهم نجيّ فلما رهقهم عبد الرحمن قاموا وسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه ثم قال فانظروا بأي شيء قتل فجاءوا بالخنجر الذي قتل به عمر فاذا هو بالصفة التي وصفه بها عبد الرحمن . سمع ذلك عبيد الله بن عمر فاعتقد أن أباه قتل بمالاة هؤلاء الثلاثة وأنهم شركاء في دمه فامسك حتى اذا مات عمر - اشتمل عبيد الله على سيفه فاتى الهرمزان فقتله فلما عضه السيف قال لا إله إلا الله . ثم مضى حتى أتى جفينة فعلاه بالسيف فصلب بين عينيه ثم قتل ابنة أبي لؤلؤة . ولما علم صهيب بذلك بعث اليه عمرو بن العاص فلم يزل به وعنه ويقول السيف : بأبي وأمي . حتى ناوله اياه وثاوره سعد ابن ابي وقاص وجذبه من شعره وأخذ به حتى جاء به الى صهيب فحبسه في دار سعد ابن أبي وقاص حتى اذا انتهى عثمان من البيعة دعا بعبيد الله بن عمر . وقال لجماعة المهاجرين والانصار وهو جالس في ناحية المسجد اشيروا علي في هذا الذي فتق في الاسلام ما فتق . فقال علي أرى ان تقتله . فقال بعض المهاجرين : قتل عمر أمس ويقتل ابنه اليوم ؟ فقال عمرو بن العاص يا أمير المؤمنين ان الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان . إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك . قال أنا وليهم وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي

ان عبيد الله يعتبر من الوجهة الشرعية قاتلا قتل عمداً ولا يمكن أن يعتبر عمله هذا قصاصاً لانه قتل غير القاتل . ومن قتلهم لم يثبت عليهم الاشتراك فى الجناية ثبوتاً شرعياً ولا يتولى القصاص الا بعد الحكم ولو ثبت اتهامهم على هذه الجناية لم يكن الحكم الشرعي مُبيحاً لقتل من قتل والشرع لا يأخذ في الحدود والعقوبات بالقرائن التى من هذا القبيل فكان عبيد الله مستوجبا للقصاص بلا شبهة - ولم يكن ما أشار به عمرو بن العاص من أن ذلك الامر حدث في غير سلطان عثمان كافيا في نجاته من العقاب ولو أن عمر كان حياً وقد صنع ابنه ما صنع لأمضى فيه حكم الله - غير أن عثمان رأى ماراه بعض المهاجرين من استفظاع قتله على أثر مقتل أبيه وان يكون بدمه

خلافته ادخال المصيبة على آل الخطاب خاصة من بين المسلمين فرأى الخروج من هذا المأزق أن يحملها دية في ماله وهو تخلص حسن ـ وكان رجل من الانصار يقال له زياد ابن لبيد البياضي اذا رأى عبيد الله يقول :

ألا ياعبيد الله مالك مهرب ... ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر
أصبت دما والله في غير حله ... حراما وقتل الهرمزان له خطر
على غير شيء غير أن قال قائل ... أتتهمون الهرمزان على عمر
فقال سفيه والحوادث جمة ... نعم اتهمه قد أشار وقد امر
وكان سلاح العبد في جوف بيته ... يقلبها ، والامر بالامر يعتبر

شكا عبيد الله زياد بن لبيد الى عثمان فنهاه فقال:

أبا عمرو عبيد الله رهن ... فلا تشكك بقتل الهرمزان
فانك إن غفرت الجرم عنه ... واسباب الخطا فرسا رهان
اتعفو اذ عفوت بغير حق ... فمالك بالذي تحكي يدان

فدعا عثمان زياد بن لبيد فنهاه وشذبه

ان الهرمزان وجفينة قتلا مظلومين شرعا ولكن الظروف التي وجد فيها الهرمزان وما يحتف بسيرته من الغدر المتكرر وما رواه عبد الرحمن بن أبي بكر لا توجد في القلب موضعا للاسف لما لقيه وعندي أنه لو وجد محقق ماهر لاثبت اشتراك الهرمزان وجفينة وأبي لؤلؤة وكعب الاحبار فى المؤامرة لاغتيال عمر

﴿ أول خطبة لعثمان ﴾

قال الطبري ـ لما بايع أهل الشورى عثمان خرج وهو أشدهم كآبة فاتى منبر رسول الله ﷺ فخطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ وقال « انكم في دار قلعة وفي بقية أعمار فبادروا آجالكم بخير ماتقدرون عليه . فقد اتيتم صبحتم أو مسيتم الا وان الدنيا طويت على الغرور فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور . واعتبروا بمن مضى ثم جدوا ولا تغفلوا فانه لا يغفل عنكم ،

أين أبناء الدنيا واخوانها الذين أثاروها وعمروها ومتعوا بهـا طويلا ؟ الم تلفظهم ؟ ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها . واطلبو الآخرة فان الله قد ضرب لها مثلا والذي هو خير فقال عز وجل « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فاصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير املا » ـ وذكر غير الطبري انه ارتج عليه

كتب عثمان الى الامراء والامصار

لما ولي عثمان الخلافة كتب الى أمراء الامصار كتابا عاما صورته :

« أما بعد . فان الله أمر الأئمة ان يكونوا رعاة ولم يتقدم اليهم ان يكونوا جباة ، وان صدر هذه الامة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة وليوشكن أئمتكم ان يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة . فاذا عادوا كذلك انقطع الحياء والامانة والوفاء . الا وان أعدل السيرة ان تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم ، ثم تعتنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم ، ثم العدو الذي تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء »

وكتب الى أمراء الاجناد بالثغور « أما بعد . فانكم حماة الاسلام وذادتهم وقد وضع لكم عمر مالم يغب عنا بل كان عن ملأ منا ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل فيغير الله بكم ويستبدل بكم غيركم . فانظروا كيف تكونون فاني أنظر فيما ألزمني الله النظر فيه والقيام عليه »

وكتب الى عمال الخراج (أما بعد فان الله خلق الخلق بالحق فلا يقبل الا الحق خذوا الحق واعطوا الحق به . والامانة الامانة ، قوموا عليها ولا تكونوا اول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم الى ما اكتسبتم . والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم

ولا المعاهد فان الله خصم لمن ظلمهم »

وكتب الى العامة من المسلمين بالامصار « أما بعد فانما بلغتم ما بلغتم بالاقتداء والاتباع فلا تلفتنكم الدنيا عن أمركم فان أمر هذه الامة صائر الى الابتداع بعد اجتماع ثلاث فيكم تكامل النعم وبلوغ أولادكم من السبايا وقراءة الاعراب والاعاجم القرآن ، فان رسول الله ﷺ قال : الكفر في العجمة فاذا استعجم عليهم أمر تكلفوا وابتدعوا »

الامصار والامراء لاول عهد عثمان

كانت الامصار الكبرى لآخر عهد عمر وأول عهد عثمان هذه :

(١) مكة ، وأميرها نافع بن عبد الحارث الخزاعي

(٢) الطائف ، وأميرها سفيان بن عبد الله الثقفى

(٣) صنعاء ، وأميرها يعلى بن مُنبه حليف بني نوفل بن عبد مناف

(٤) الجند ، وأميرها عبد الله بن أبي ربيعة

(٥) البحرين وما والاها ، وأميرها عثمان بن أبي العاص الثقفي — وهذه الخمس في جزيرة العرب

(٦) الكوفة ، وأميرها المغيرة بن شُعبة الثقفي

(٧) البصرة ، وأميرها أبو موسى عبد الله بن قيس الاشعري

وهاتان بالعراق

(٨) دمشق ، وأميرها معاوية بن أبي سفيان الاموي

(٩) حمص ، وأميرها عمير بن سعد

وهاتان بالشام

(١٠) مصر ، وأميرها عمرو بن العاص السهمي

الفتوح في زمن عثمان

ان جنود الاسلام كانت في زمن عمر قد فتحت المملكة الفارسية جميعها وبلاد سورية كذلك ومصر . غير ان بعض ما فتح لم يكن الامر فيه موطدا توطيدا تاما . بل كان أهله يجيبون كل داع الى شق العصا وخلع اليد من الطاعة فكانت الجنود الاسلامية تقوم بردهم الى الطاعة في زمن عثمان وتثبت حكم الاسلام فيها - ولهذا يكون ارجاع تلك البلاد الى الطاعة فتحا على التحقيق . وللمسلمين في عهد عثمان فتوح في بلاد لم تطأها أقدام جنود الاسلام من قبل وسنذكر ذلك ان شاء الله

ان صديقنا الفاضل رفيق بك العظم لم يمر (في كتابه أشهر مشاهير الاسلام) بروايات المؤرخين في الفتح الاسلامي مرورا بسيطا بل وقف وقفة المدقق الباحث وقد تسنى له الوقوف على تواريخ الامم التي كان الفتح الاسلامي في زمن عثمان موجها اليها . وقد أتيح له تحقيق واف شاف في فتوح بلاد أرمينيا أحببت ان ألم به وأجعله عمدة كلامي في هذا الباب سواء كان ذلك بأخذ العبارات بنصها أو تلخيصها بحسب ما أراه

فتح ارمينيا والقوقاز في عهد عثمان

تحد أرمينيا شمالا بالبحر الاسود وكُرْجستان . ومن الشرق بكرجستان أيضا وجزء من بلاد فارس . ومن الجنوب بكردستان والجزيرة . ومن الغرب بآسيا الصغري . هذه حدود أرمينيا الآن - والعرب كانوا يتوسعون في هذا الاسم . فربما أدخلوا في أرمينيا قسما من بلاد القوقاز من جهة الشمال وهو - أران - المشتمل على مقاطعة اريوان وتفليس. وكانوا يسمون هذا القسم باسم الران ، وهو يمتد شمالا الى داغستان، وشرقا الى اذربيجان وبحر الخزر . وأما من جهة الجنوب

فكانوا يدخلون فيها قسما من كردستان وهو عمالة بتليس وربما جعلوها من ارمينية الرابعة التي يجعلون نهاية حدها الجنوبي الجزيرة . ولهذا لم يذكر مؤرخو العرب فتح القوقاز على حدة ، بل جعلوه مضموما الى فتح أرمينيا

قال : وقبل ان أبسط الكلام في جغرافية القوقاز أذكر هنا بعض الامكنة الشهيرة في أرمينيا زيادة في الايضاح

فمن مدن أرمينيا الشهيرة : خلاط . وقاليقلا - (التي هي ارزروم أو ارزن الروم كما يقول أبو الفداء) والى جهة الغرب منها ارزنجان . ثم ارجيش على بحيرة وان . ووان - وهي في الطرف الشرقي من البحيرة المسماة باسمها . وفي الجهة الشرقية من سلسلة جبال أرمينيا جبل الجودى - أو اراراط الذي استوت عليه سفينة نوح . ومن أنهرها الفرات واراس المعروف عند العرب بنهر الرس وينحدر من الجبال قرب ارزروم ويمر في مقاطعتي القارس وارزروم ويقطع كرجستان حتى يلتقي مع نهر كور الآتي من أعالي القارص وتفليس ويصبان في بحر الخزر

أما بلاد القوقاز - حالا - فتحد شمالا ببلاد الروسيا (ونحن الآن لا ندري أي حكومة من الحكومات الروسية تجاورها من الشمال بعد ان انقسمت روسيا الى حكومات عديدة ، والحدود لم تحدد الى الآن ولم ترسم خريطة الممالك ، وقد دخل في تركيا بعض هذه البلاد فقد استولت على باطوم والقارص واردهان ، ودخل في حكمها مدينة باكو على بحر الخزر ، والى الآن في يوم ١٢ مارس سنة ١٩١٨ لم تجل الحال تماما) وجنوبا العجم وتركية آسيا (وعلى ما قدمنا تكون ارمينيا القوقازية التابعة لتركيا) وشرقا بحر الخزر الذي يفصلها عن بقية آسيا الروسية وغربا البحر الاسود . ويسمى العرب هذه البلاد جبال كوه قاف وبلاد القبق وربما دعوها باسم بلاد الران (ارّان) من تسمية الكل باسم الجزء

فمن أقسام البلاد الجنوبية أيبريا او كرجستان وعاصمتها تفليس على نهر كور

وهي جزء من بلاد شروان الممتدة شمالا الى داغستان [١] ويظهر من سياق خبر الفتح في تاريخ البلاذري ان العرب كانوا يسمون هذا الجزء كورة جرزان وانه ممتد غربا الى آسيا الصغرى — ومن مدن الران الشهيرة الروان، وفيها كنيسة كبرى للارمن ومن مدنه المشهورة عند العرب منجليس وجرزان و بردعة والباب . أو باب الابواب (دربند) والبيلقان . قال الاصطخري : ليس في ارّان مدينة أكبر من بردعة والباب و تفليس . ومن أقسامه الشمالية — بلاد الجركس . ويجري فيها نهر قوبان الذي يصب في البحر الاسود ونهر كوما — وترك (ته رك) اللذان يصبان في بحر الخزر . ومن أقسامه داغستان على بحر الخزر، وفيها يجري نهر سمور في السهول الواقعة شمال داغستان . ومن مدنها الشهيرة باكو التي فيها منابع النفط (ولعلها التي يسميها القرماني في جغرافيته . باكوية .) — ودربند على شاطىء بحر الخزر وهي ذات المضيق المعروف بمضيق دربند الذي اجتازه عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي بجيشه الى السهول الشمالية حيث قتل على نهر . ترك . الذي يسميه العرب نهر بلنجر

لاخلاف بين المؤرخين في أن العرب دوخوا أرمينيا مرتين أولاهما على عهد عمر بن الخطاب والثانية على عهد عثمان بن عفان . وقد أيد هذا الكلام تواريخ الارمن وأشار اليه القس جبرائيل الخانجي في مختصر تاريخ الارمن وان لم يذكر أسماء الفاتحين في المرتين ولم يعين السنين بالضبط . أما ديفرجي فقد عين مدة الخليفة فأخطأ : والثابت عند مؤرخي العرب أن فتح تلك البلاد في عهد عمر كان سنة ١٨ﻫ ٦٣٩ م وأما فتحها في عهد عثمان فكان في سنة ٢٦ ﻫ ٦٤٦ م — كما يعلم من مقارنة التواريخ و جعل الطبري ذلك سنة ٣١

كان بكير بن عبد الله وعتبة بن فرقد قد فتحا في خلافة عمر بلاد أذربيجان الواقعة شرقي بلاد أرمينيا — فكتب بكير بالفتح الى عمر . فكتب عمر الى سراقة

(١) تكتب في التركية بالطاء وتنطق دالا مفخمة

ابن عمرو بغزو الباب وعلى مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الباهلي وعلى مجنبتيه ابن أسيد الغفاري وبكير بن عبد الله المتقدم ، وعلى المقاسم سلمان بن ربيعة - وكتب الى حبيب بن سلمة الفهرى أن يمد سراقة وهو يومئذ بالجزيرة . فلما نهض سراقة من البصرة لوجهه ، تقدم عبد الرحمن الى أرمينيا الشرقية وفتحها حتى وصل الى الباب « دربند » على شط بحر الخزر وعليها شديار فكاتبه واستأمنه « كما قصصنا ذلك من قبل » - ولما فرغ سراقة من الباب بعث الامراء والقواد الى ما يليه من بلاد أرمينية . فأرسل بكير بن عبد الله الى موقان وحبيب بن سلمة الى تفليس عاصمة كرجستان . وحذيفة بن اليمان الى بلاد جبال اللان « القوقاز » . فاشتبكت جنوده في أرمينيا وأطرافها مع الامير أوهان بن كاساركن - وأخيه ديران - فقتلا وتشتت جندهما بخيانة أحد قواد الارمن المسمى ساحور ، فانه خان أوهان ، وانضم بجيشه الى العرب ، كما يقول ديفرجي وصاحب تاريخ الارمن

أما حبيب بن سلمة الفهري الذي قصد كرجستان وعاصمتها تفليس فنهض له ثيودور أحد أمراء البلاد ، وكانت البلاد منقسمة على بعضها ، وبذلك سعي في جمع كلمة الامراء في أرمينيا ودخولهم تحت لوائه لصد المسلمين ففشل فيما حاول وكان البطريرك استراس يؤازره ويعضده - فلما رأى أن الامر على غير مايشتهي أصابه الغم الشديد ومات غماً وكمدا

بينما الارمن مهتمون في اقامة بطريرك - غير استراس - اذ فاجأهم المسلمون بقيادة حبيب بن سلمة وحاصروا مدينة « دوفان » أو - تفين - وفيها كرسي البطريرك ويقول ديفرجي : ان حصارها بدأ في نوفمبر سنة ٦٣٩ ذي القعدة سنة ١٨ هـ واستمر الى اليوم السادس من يناير سنة ٦٤٠ م ٥ المحرم سنة ١٩ هـ ففتحها حبيب ثم أخذ في اتمام فتح أرمينيا وكردستان ، ففتح وان ، وبخشوان ، وسيس على الضفة الثانية من نهر الرس ويسميه الجغرافيون « أراس وأراكس » - ثم سار الى أرمينيا الغربية ثم عطف على ايبريا التى هي جزء من كرجستان الحالية وأخذ

عاصمتها تفليس وسائر مدنها الكبرى ـ وفي أثناء ذلك مات سراقة واستخلف عبد الرحمن بن ربيعة فأقره عمر على ثغر الباب وأمره يغزو الترك ، فسار شمالا مجتازاً مدينة الباب وبلادها بعد أن استخضع أكثر بلاد الجبل الممتدة على شاطيء بحر الخزر وكان سكانها على جانب عظيم من التوحش والجهالة . وبعد أن احتاز الباب أوغلت خيله في السهول الشمالية الى مائتي فرسخ من بلنجر (تهرك) ثم عاد ولم يقم له أحد من أهل تلك الناحية . وقد حكى الطبري أن أهل تلك الناحية كانوا يعتقدون ان هؤلاء العرب لايموتون ولا يقطع فيهم السلاح . فكانوا يهربون منهم في الآجام والغياض ، ثم عاد عبد الرحمن الى الباب . وجعل يردد غزواته فى تلك الناحية الى أن جرَّبَ أحد أهل تلك البلاد قتل المسلمين بأن كمن في احدى الغابات ورمى رجلا منهم فقتله . فأخبر قومه بأن هؤلاء المسلمين كالناس يُقْتَلون ويموتون . فطمعوا في المسلمين واجتمعوا لقتالهم . وقد قتل عبد الرحمن بن ربيعة في احدى الوقائع في بلادهم زمن عثمان . وقد قال الطبري انهم احتفظوا بجسم عبد الرحمن يتبركون به ويستسقون ويستنصرون به الى الزمن الذي أدركه الطبري وكان على نهر (ته رك) وأخذ الراية أخوه سلمان وخرج بالناس فسلك طريق جيلان إلى جرجان بأن دار على شواطيء بحر قزوين ـ وبعضهم سلك طريق الباب الى أرمينيا

فكان فتح عبد الرحمن قد بلغ الى شمالي بلاد القوقاز في شرق أرمينيا مما يلي بحر الخزر . وأما حبيب فقد بلغ فى فتوحه شمال القوقاز أيضاً مما يلى البحر الاسود كل ذلك في خلافة عمر فيما بين سنتي ١٨ و ٢٠ ﻫ الا أن ذلك الفتح لم يكن الا فتحاً هيناً غير موطد الدعائم . بل كان فتحاً على الجزية ـ ولم يكن عند المسلمين من الجند العدد الكافي لسد هذه الثغور وتوطيد الامن فيها وتثبيت كلمة المسلمين في انواحيها المتنائية وأطرافها المترامية . وقد كان عمر يظن ذلك كما روى ذلك

العلامة ابن خلدون . وقد صدق ظنه ـ فقد قال ديفرجي : ان المسلمين قد اضطروا عقب ظهور الخزر على نهر ترك ـ الى الجلاء عن كل أرمينيا ثم عادوا اليها بقوة أعظم سنة ٦٤٦ ـ سنة ٢٦ هـ وهي السنة التي وجه فيها عثمان حبيباً وسلمان الى استرداد البلاد وفتح أرمينيا والقوقاز ففتحاها وكان الفتح الأول تمهيداً للفتح الثاني الذي صارت به البلاد تابعة للدول الاسلامية ولم تنتقض الا في فترات قليلة ثم استتب فيها الأمر للمسلمين

وقد أشار صاحب مختصر تاريخ الارمن الى تسليم الارمن بعد الحرب الثانية للعرب على عهد سنباط بن فارازدَيرُوس الذى كان والياً من قبل قيصر القسطنطينية إذ كان الارمن طلبوا والياً من قبله على بلادهم بعد اختلال أمر دولة الفرس التي كانت متسلطة عليهم ، وزال سلطانها بعد أن بدأت حروبها مع المسلمين فولى الامبراطور عليهم فارازديروس والد سنباط وتولى مدة سنة ومات وخلفه ابنه سنباط

في خلافة عثمان انتقضت أرمينيا ، والظاهر أن ذلك كان لضعف حاميتها وقلة عددهم وكثرة أهل البلاد ورغبة كبرائهم في التخلص من أيدي المسلمين ، وساعد على ذلك بعد البلاد عن مركز قوة المسلمين وابطاء النجدة عنهم ، وكان عثمان قد جمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها ، وأمره أن يغزو شمشاط وهي أرمينيا الرابعة أو يغزيها ، وقد كان حبيب بن مسلمة الفهري قد فتحها مع عياض بن غنم في خلافة عمر فوجهه معاوية في ستة آلاف مقاتل لفتح أرمينيا فنهض اليها حتى أناخ على قاليقلا سنة ٢٦ هـ وأقام عليها حتى خرج اليه أهلها طالبين الصلح على الامان والجزية فأجابهم الى ذلك وجلا من جلا وأقام من أقام

أقام حبيب بقاليقلا بعد افتتاحها ، وبلغه أن الموريان بطريق أرمينياقس قد جمع جموعاً عظيمة وانضمت اليه امداد أهل اللان وافخاز وسمندر من الخزر ـ فكتب الى عثمان يسأله المدد ـ فكتب عثمان الى معاوية أن يمده بقوم من أهل

الشام والجزيرة ممن يرغب في الجهاد فأمده بألفى رجل أسكنهم قاليقلا وأقطعهم القطائع وجعلهم مرابطة بها - وكتب عثمان أيضاً الى سعيد بن العاص أمير الكوفة أن يمد حبيب بن مسلمة بجيش عليه سلمان بن ربيعة الباهلي وكان غزّاء صاحب اقدام ومكيدة في الحرب - فسار اليه سلمان بستة آلاف من جند الكوفة وأقبلت الروم ومن معها فنزلوا على الفرات . وقد ابطأ على حبيب المدد ، ورأى حبيب أن يبيت أعداءه على ما بجنده من قلة علّه أن يصيب منهم غرة قبل أن يقووا عليه ، فبيتهم واجتاحهم وقتل قائدهم

ومما يؤثر من شجاعة النساء وقوة جأش بعضهن ، أن أم عبد الله الكلبية زوج حبيب قالت له ليلة أنْ قامَ لتبييت جند الروم : اين موعدك ؟ قال : سرادق الطاغية (يعنى الموران) أو الجنة . فلما انتهى الى السرادق وجدها عنده . ولما ورد سلمان بجنوده وقد فرغ حبيب من أمر عدوه أراد سلمان أن يتأمر على حبيب ومن معه من الجند كما جرت به العادة من أن هذه الناحية كان غزوها لاهل الكوفة والامير منهم من قبل ، فأبى عليه حبيب ذلك حتى قال أهل الشام . لقد هممنا بضرب سلمان ، فقال أوس بن مغراء وهو من جند سلمان :

فان تضربوا سلمان نضرب حبيبكم   وان ترحلوا نحو ابن عفان نرحل
وان تقسطوا فالثغر ثغر أميرنا   وهذا أمير في الكتائب مقبل
ونحن ولاة الثغر كنا حماته   ليالي نرمى كل ثغر وننكل

ومن ثم افترق القائدان ، فأخذ حبيب في افتتاح أرمينيا الغربية ، وسلمان في افتتاح أرمينيا الشرقية

فسار سلمان الى ارّان ففتح مدينة البيلقان (فيتقران) صلحاً واشترط على أهلها الجزية والخراج ، ثم أتى بردعة وعسكر على نهر الثرثر ، على فرسخ منها ، فامتنعت عليه وعاناها أياماً فصالحه أهلها على صلح أهل البيلقان . وفتحوا له أبوابها

فدخلها وأقام بها ووجه خيله ففتحت غيرها من البلاد والرساتيق في اران – ودعا أكراد البوسنجان (أو البلاسجان) الى الاسلام فقاتلوه فظفر بهم فأقر بعضهم على الجزية وأدى البعض الصدقة ممن دخلوا في الاسلام ، ثم سار الى مجمع نهر السكر (كور بالكاف الثقيلة) والرس (اراس) فعبر الكر ففتح « قبالة » وكل البلاد التي على الضفة الشمالية من نهر الكر – ويسميها ديفرجي بلاد سشاكي – ثم دخل بلاد سشيوان ، وصالحه صاحب شكن وشيروان والباب . ومن هنا اختلف المؤرخون فبعضهم يقول : ان سلمان انتهى الى مدينة الباب ولم يتجاوزها ، ومن هذا الفريق ابن خلدون وهو الظاهر . لان ما وراء الباب أمم كثيرة قوية وانما كان خوفهم من المسلمين واعتقادهم انهم لايموتون لان الملائكة تؤيدهم وتعينهم هو الذي كان يدفع بهم الى الهرب من امامهم . فلما أنسوا بهم وعرفوا انهم يموتون اجتمعوا واعتزموا على قتالهم ولم يكن مع سلمان سوى ستة آلاف وهو عدد قليل اذا أوهنه بالغزو فيما وراء الباب لم يؤمن أن يعود القوم الى حالهم من الانتقاض

أما حبيب بن سلمة فسار من قاليقلا بعد وصول المدد اليه ونزل (مربالا) فأتاه بطريق خلاط بكتاب عياض بن غنم الذي أمنه به على نفسه وماله وبلاده وقاطعه على اتاوة فانفذه حبيب له ، ثم نزل منزلا بين الهرك ودشت الورك ، فأتاه بطريق خلاط بالمال وهدية فلم يقبلها . ونزل خلاط ، ثم سار الى الصيانة فلقيه صاحب مكس وهي ناحية من نواحي البسفرجان . فقاطعه على بلاده وكتب له كتاب صلح وأمان . ووجه الى قرى ارجيش وباذغيس من غلب عليها ثم اجتاز نهر الرس وأتى مرج دبيل وغلب على جميع تلك النواحي . حتى بلغ سراج طير وبغروند فأتاه بطريق دبيل فصالحه عنها على اتاوة يؤديها وعلى مناصحة المسلمين وقراهم ومعاونتهم على أعدائهم وكتب لهم

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من حبيب بن مسلمة الفهري لنصارى

أهل دبيل ومجوسها ويهودها شاهدهم وغائبهم اني آمنتكم على أنفسكم وأموالكم وكنائسكم وبيعكم وسور مدينتكم فأنتم آمنون وعلينا الوفاء لكم بالعهد ما وفيتم وأديتم الجزية والخراج. شهد الله وكفى به شهيداً » وختم حبيب بن مسلمة

وأتاه بطريق البسفرجان فصالحه على جميع بلاده وقصد السيسجان فخار به أهلها فهزمهم وغلب عليهم ثم سار الى جرزان فأتاه رسول بطريقها وقدم له هدية وسأله كتاب صلح وأمان . فكتب :

« أما بعد : فان نقلى « نقولا » رسولكم قدم عليّ وعلى الذين معي من المؤمنين فذكر عنكم اننا أمة أكرمنا الله وفضلنا . وكذلك فعل الله . وله الحمد كثيراً وصلى الله على محمد نبيه خيرته من خلقه وعليه السلام - وذكرتم انكم أحببتم سلمنا . وقد قومت هديتكم وحسبتها من جزيتكم وكتبت لكم أماناً واشترطت فيه شروطاً فان قبلتم ووفيتم به والا فأذنوا بحرب من الله ورسوله والسلام على من اتبع الهدى »

وقد كان أمراء الاسلام لايقبلون الهدايا وانما يحسبونها لاهل الذمة من جزيتهم ولم يقبلها من أهل الذمة الا عبد الله بن عامر وهو أمير على الكوفة ، فقالوا فيه : ضمها القرشي وكان مضما

ثم ان حبيباً سار الى تفليس عاصمة كرجستان فصالحه أهلها وكتب لهم :

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هذا كتاب من حبيب بن مسلمة لاهل تفليس من منجليس من جرزان القرمز بالامان على أنفسهم وبيعهم وصوامعهم وصلواتهم ودينهم على اقرار بالصغار والجزية على أهل كل بيت دينار وليس لكم أن تجمعوا بين أهل البيوت تخفيفاً للجزية ، ولا لنا أن نفرقهم استكثاراً منها ولنا نصيحتكم وضلعكم على أعداء الله ورسوله ﷺ وقرى المسلم المحتاج ليلة بالمعروف من حلال طعام أهل الكتاب لنا . وان انقطع برَجُلٍ من المسلمين عندكم فعليكم اداؤه الى أدنى فئة من المسلمين الا أن يحال دونهم ، وان أنبتم وأقمتم الصلاة فاخواننا في

الدين والا فالجزية عليكم ، وان عرض للمسلمين شغل عنكم فقهركم عدوكم فغير مأخوذين بذلك ولا هو ناقض عهدكم : هذا لكم ، وهذا عليكم . شهد الله وكفى به شهيدا »

ثم ان حبيباً صار يفتح في بلاد أرمينيا الغربية مما يلي البحر الاسود حتى انتهى الى بلاد القوقاز في شمال أرمينيا كما انتهى الى مثل ذلك سلمان في شرقيها مما يلي بحر الخزر

تتمة فتح بلاد فارس

ان بلاد الفرس أو المملكة الفارسية كانت في أيام العرب تشتمل على بلاد وأرض أوسع مما نسميه اليوم بلاد الفرس ، فقد كان يدخل فيها بلاد البلوجستان ، وبلاد الافغان وأقليم أذربيجان وكردستان وبعض أرمينيا وهو الجزء الشرقي منها مما يلي بحر قزوين . وفي مدة عمر بن الخطاب قد فتح المسلمون أكثر ذلك كله . غير أن بعض هذه البلاد قد توطد فيه ملك المسلمين وهو ما يلي ناحيتهم ، وبعضه لم يتوطد فيه الملك وهو ما بعد عنهم كجهات المروين وطخارستان وبلخ وسجستان وبعضها لم يكن فتح من قبل

وقد كان العرب يقسمون المملكة الفارسية الى أقسام كثيرة يسمونها كورا « فالقسم الشمالي منها » مما يلي أرمينيا غرباً والقوقاز شمالا يعرف بكورة أذربيجان ومن مدنه الشهيرة تبريز ، وزنجان ، والببر ، والموقان ، والطيلسان . والى الشرق منها قزوين الواقعة شمال بلاد الجبل ، وكانت تسمى بلاد الديلم . ثم الى شرقي هذا القسم في الجهة الجنوبية من بحر قزوين ، طبرستان وجرجان . ومن مدنها الشهيرة دماوند - أو دنباوند - واستراباذ والدامغان ، وقُومس في جهة

الجنوب ابيورد ، ونسا ، وسَرَخْس ، ومرو الشاهجان في جهة الشمال والشرق من هذا القسم . والجزء الغربي منه يعرف الآن بمازندران

« والقسم الغربي منها » يعرف بالعراق العجمي وخوزستان ، وبلاد الجبل - ومن مدن العراق العجمي الشهيرة : المدائن ، والنهروان على نهر دجله ، ومناذر ، وقصر شيرين ثم نهاوند . وقاشان ، واصفهان من بلاد الجبل ، والاهواز ، ورامهرمز والسوس وجند يسابورمن خوزستان

« والقسم الجنوبي منها » يعرف بفارس وكرمان ومكران أو كورة السند « تعرف الآن ببلوجستان » وسجستان وهي بين مُكران وخراسان - ومن مدن فارس الشهيرة : اصطخر ، ويسا ، ودار ابجرد ، وكازرون ، وجور ثم جيرفت ، وهميد ، والسيرجان من مدن كرمان ، ثم مُكران ، وقندابيل ، وفنزبور ، وارمائيل وبيرون ، والدبيل « ثغر على المحيط الهندي من كرمان أو السند » ثم زالق على طرف المفازة المعروفة بمفازة كرمان « لعلها صحراء لوط » وزرنج التي يؤخذ منها الى وادي سناروز ، والسكش من ناحية الهند ورشت ، وناشرورز من سجستان

« والقسم الشمالي الشرقي » يعرف بخراسان وطخارستان وزابلستان ، وهذا القسم أكثره واقع في أفغانستان الآن ، وكان العرب يقسمونه الى أقسام كثيرة أو كور فمنها كورة مرو ، وهراة ، وطوس ، ونيسابور من ولاية خراسان ، وغزنة وكابل من زابلستان . وبلخ من طخارستان ، وأشهر مدن خراسان : نيسابور الواقعة في الجهة الشمالية الغربية ، ومن خراسان وطوس الى الشمال منها أيضاً . ومن مدن نيسابور وزام ، وبشت ، وباخرز ، وجوين ، وأبَرْشهر ، وبيهق ، واسفرائن ، وارغينان وغيرها . ثم هراة ، ومرو الروذ في الجهة الشرقية من خراسان ، ومدن هذه الجهة بوشنج وباذغيس وطاغون ، وسنج ، وغيرها . أما طخارستان الواقعة شرقي خراسان وشمال زابلستان وجنوب الصاغانيان فان من مدنها الشهيرة : بلخ

وهي عاصمتها وتعد الآن من بلاد التاتار الجنوبية الواقعة جنوبي نهر جيحون . والجوزجان . والفارياب والطالقان . وغيرها . وأما زابلستان : فمن مدنها . كابل وغزنة

وقد تقدم الكلام في فتح الجزء الأكبر من هذه الجهات في خلافة عمر ابن الخطاب

في السنة الثالثة من خلافة عثمان بن عفان انتقضت آمد وبلاد الاكراد . فعزم أبو موسى الاشعري والي البصرة يومئذ على الخروج لرد القوم الى الطاعة فحمل ثقله على أربعين بغلا بعد أن كان يحض الناس على الجهاد والنهوض اليه مشياً . فتألب عليه أهل البصرة . وذهب منهم وفد الى عثمان فاستعفوه من أبي موسى . وتولى كبر ذلك غيلان بن خرشة الضبي . فقال عثمان : من تحبون ؟ فقال غيلان : في كل أحد عوض عن هذا العبد الذي أكل أرضنا وأحيا أمر الجاهلية فينا ؟ وقال اذا أمرت علينا صغيراً كان فيه عوض منه أو مهتراً كان فيه عوض منه ومن بين ذلك من جميع الناس خير منه . وقال : أما منكم خسيس فترفعوه . أما منكم فقير فتجبروه يامعشر قريش ؟ فعزله عثمان ، وولى عبد الله بن عامر بن كريز بن ربيعة القرشي . وهو ابن خال عثمان وكان ابن خمس وعشرين سنة وجمع له جند أبي موسى وجند عثمان بن أبي العاص من عمان والبحرين . فصرف عبيد الله بن معمر عن خراسان وبعثه الى فارس . وولى على خراسان مكانه عمير بن عثمان بن سعد فاثخن فيها حتى بلغ فرغانة . ولم يدع كورة الا أصلحها . ثم ولى عليها في السنة التالية أمين بن أحمر اليشكري وعلى كرمان عبد الرحمن بن عبيس . واستعمل على سجستان عبد الله بن عمير الليثي فاثخن فيها الى كابل . ثم عمران بن الفضيل البرجمي وعلى مكران عبيد الله بن معمر فاثخن فيها حتى بلغ النهر

ثم ان أهل فارس ثاروا وانتقضوا على عبيد الله بن معمر فسار اليهم والتقى

معهم على اصطخر فقتل عبيد الله . وبلغ الخبر ابن عامر فاستنفر أهل البصرة، وسار بالناس الى فارس وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاصي وعلى مجنبتيه أبو بَرْزَةَ الاسلمي ومعقل بن يسار • وعلى الخيل عمران بن حصين • وكلهم له صحبة • فلقيته جموع الفرس باصطخر فهزمهم وأوقع بهم وقعة عظيمة وأخذ المدينة عنوة . ثم قصد الى دار ابجرد ثم الى مدينة جور وكان هرِم بن حيان على حصارها • فلما جاء ابن عامر فتحها ورجع الى اصطخر وقد انتقضت ثانية فحاصرها حصاراً طالت مدته ورماها بالمجانيق وافتتحها عنوة وأوقع بأهلها وقعة شديدة وهلك فيها أكثر أهل البيوت والاساورة لانهم كانوا قد لجأوا اليها ووطيء عبد الله بن عامر أهل فارس وطأة صاروا منها في ذل • وكتب الى عثمان بالفتح فكتب اليه أن يستعمل على بلاد فارس هَرِم بن حسان اليشكري وهرم بن حيان العبدي والخريت بن راشد والمنجاب بن راشد والترجمان الهجيمي • وأمره أن يفرق كور خراسان على جماعة فيجعل الأحنف بن قيس على المروين • وحبيب بن قرة اليربوعي على بلخ وخالد ابن عبد الله بن زهير على هراة وأُمين بن أحمر على طوس • وقيس بن هبيرة السلمي على نيسابور . ثم ان عثمان رضي الله عنه قبل موته جمع هذه الولاية لقيس ابن هبيرة ، واستعمل أُمَـيْنَ بن أحمر على سجستان

ولما رجع ابن عامر الى البصرة بلغه نقض أهل خراسان الذمة ونكثهم للعهد • فجاءه الاحنف بن قيس وقال له : أيها الامير ان عدوك منك هارب ولك هائب والبلاد واسعة فسر فان الله ناصرك ومعز دينه • فتجهز وسار واستخلف على البصرة زياداً واستعمل على حرب سجستان الربيع بن زياد الحارثي وعلى كرمان مجاشع بن مسعود السلمي وتقدم هو الى نيسابور وجعل على مقدمته الاحنف بن قيس فأتى الطبسين وهما حصنان وهما باباخراسان ففتحها عنوة ثم سير أمراءه الى أعمال نيسابور ففتحوا زام وقهستان وبيهق وبشت ـ ثم تقدم وقد سير عبد الله بن

عامر وافتتح نيسابور وكل أعمالها وطوس كذلك وهراة كذلك وأعمالها

وقد سير عبد الله بن عامر الاحنف بن قيس الى طخارستان فأتى سوا نجرد فصالحه أهلها على ثلثمائة الف درهم ثم مضى الى مرو الروذ فقاتله أهلها ثم صالحوه وسير سرية فاستولت على رستاق « بغ » فعظم الامر على أهل طخارستان فاجتمع لقتاله أهل الجوزجان والطالقان والفارياب ومعهم ملك الصاغانيان من (تركستان الشرقية) فقاتلهم الاحنف قتالا شديداً حتى هزمهم وفل جموعهم وفتح تلك الناحية - ثم سار الى بلخ وهي عاصمة طخارستان فافتتحها - ثم قصد خوارزم على نهر جيحون (في تركستان الغربية) فاستعصت عليه فعاد الى بلخ

أما مجاشع بن مسعود السلمي فتوجه الى كرمان فأتى في طريقه هيد فافتتحها ثم قصد السيرجان وهي مدينة كرمان فحاصرها أياماً ثم فتحها وفتح جيرفت عنوة ثم سار في نواحي كرمان ومدنها وقراها فدوخ أهلها وافتتح تلك المدن وأخضع أهل تلك النواحي وقد هرب كثير من أهل كرمان الى مكران وسجستان فاقطعت العرب أرضهم فعمروها واحتفروا لها القنى وأدوا العشر عنها

وأما الربيع بن زياد الحارثي الذي سار الى فتح سجستان ، فانه قطع المفازة (لعلها مفازة كوهستان وهي غير قوهستان) فأتى حصن زالق وأغار علي أهله فاسر دهقانها فافتدى منه بأن غرز عنزة (أطول من العصا وأقصر من الرمح) وغمرها ذهباً وفضه وصالحه على صلح أهل فارس - ثم فتح كركويه - ثم أتي روشت بقرب زرنج فقاتله أهلها وأصيب رجال من المسلمين ثم انهزم أهلها - ثم أتى ناشرواذ ثم زرنج فنازله أهلها وقاتلوه فهزمهم وصالحه مرزبانها على مال كثير . ودخل المسلمون المدينة ثم ذهب الى وادي سناروذ ثم رجع وأقام في زرنج سنة وعاد الى ابن عامر بعد ان استخلف عليها عاملا . فاخرج أهل زرنج العامل وامتنعوا - فولى ابن عامر عبد الرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس على سجستان فخرج اليها وحاصر زرنج فصالحه مرزبانها على الفي الف درهم وغلب عبد الرحمن على مابين زرنج والكش

من ناحية الهند، وغلب من ناحية الرخج على ما بينه وبين الدوان. ولما انتهى الى الدوان حصرهم في جبل الزوز ثم صالحهم ودخل على الزوز وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان. فقطع يده وأخذ الياقوتتين ثم قال للمرزبان دونك الذهب والجوهر. وانما أردت ان اعلمك أنه لا يضر ولا ينفع - وفتح عبدالرحمن كابل وزابلستان وهي ولاية غزنة، ثم عاد الى زرنج فاقام بها حتى اضطرب أمر عثمان فاستخلف عليها أُمَيْنَ بن احمر وانصرف فعاد القوم الى العصيان

ولما تم لابن عامر هذا الفتح العظيم قيل له: لم يفتح لاحد مافتح عليك. قال لاجرم، لاجعلن شكري لله على أن أخرج محرما من موقفي هذا. فاحرم بعمرة من نيسابور وقدم على عثمان. واستخلف على خراسان قيس بن الهيثم وخرج ابن عامر منها في سنة ٣٢ فجمع قارن وكان من كبار قواد الفرس جمعاً كثيراً من ناحية الطبسين وأهل باذغيس وهراة وقهستان وأقبل في أربعين الفاً - فقال قيس لعبدالله ابن خازم: ماترى؟ قال أرى أن تخرج من البلاد وتخليها فاني أميرها اذا كانت حرب واخرج كتابا من عبد الله بن عامر قد افتعله فكره قيس مشاغبته وخلاه والبلاد وذهب الى ابن عامر فلامه واعتذر قيس مما كان من أمر الكتاب

أما عبد الله بن خازم فسار الى قارن في أربعة آلاف وأمر الجند ان يحملوا الودك. فلما قرب من عسكر قارن قال ليدرج كل منكم على زج رمحه ما كان معه من قطن أو خرقة أو صوف ثم أوسعوه من الودك من دهن أو زيت أو اهالة أو سمن وسار حتى اذا امسى قدم مقدمته ستمائة ثم اتبعهم وأمر الناس فاشعلوا النيران في أطراف الرماح وجعل يقتبس بعضهم من بعض. فاتوا عسكر قارن نصف الليل فناوشوهم وهم آمنون من البيات فرأوا النيران يمنه ويسره ترتفع وتنخفض وتميل في كل ناحية فناموا على دهش فهاجوا وهالهم الامر وتقدمت المقدمة تناوشهم ثم غشيهم ابن خازم في جنده فقتل قارن وانهزم جنده فتبعوهم يقتلونهم كيف شاءوا وغنموا عسكرهم وسبوا سبياً كثيرا وكتب بالفتح الى ابن عامر فرضي وأقره وما زال بها الى أن انتهت وقعة الجمل

كانت هذه النواحي مغازى أهل البصرة

وأما أهل الكوفة فكانت مغازيهم بناحية أذربيجان وأرمينيا كما قدمنا . وفي ناحية طبرستان - فان سعيد بن العاص أمير الكوفة من قبل عثمان سنة ٣٠ سار يريد خراسان بجيش فيه جماعة من أبناء أصحاب رسول الله منهم حذيفة بن اليمان والحسن والحسين وعبدالله بن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وعبد الله بن الزبير وغيرهم وكان ابن عامر قد خرج من البصرة يريد خراسان ايضاً فلما وصل سعيد اليه وجده قد نزل ابرَ شهر . فنزل قومس وهي صلح صالحهم عليها حذيفة بن اليمان بعد وقعة نهاوند ولم تنتقض . وأتى جرجان فصالحوه على مائتى الف درهم - ثم الى طيمية وهي كلها من طبرستان متاخمة جرجان وهي على ساحل بحر الخزر فقاتله أهلها قتالا شديداً حتى صلى صلاة الخوف وضرب يومئذ سعيد أحد المشركين على حبل عاتقه بالسيف فخرج من تحت مرفقه . وحاصرهم فسألوا الامان فاعطاهم وافتتح سهل طبرستان والرويان ودنباوند وأعطاه أهل الجبال مالا - ثم كان المسلمون بعد ذلك يغزون طبرستان ونواحيها . فربما أعطوا الاتاوة عفوا وربما منعوا فلم يعطوا إلا بعد قتال ٠ وظل أهل بلاد جرجان وطبرستان على شيء من الاستقلال والنزوع الى الشغب والاباء عن الخضوع لدولة الخلافة مدة الخلفاء الراشدين وصدرا من الدولة الأموية حتى أخضعها يزيد بن المهلب في خلافة سليمان بن عبد الملك ابن مروان

والذي يظهر للمطلع على التاريخ أن جيوش المسلمين فيما يلي فارس أو المملكة الفارسية كانت قد ضخمت وكثرت كثرة غير متناسبة مع عددهم عند ابتداء الفتح أيام القادسية . يدل على ذلك ما أورده الطبري من أبيات لابن جميل مدح بها سعيد ابن العاص أمير الكوفة لما عاد من غزوه في جهات جرجان وطبرستان يقول فيها :

فنعم الفتى اذ جال جيلان دونه وإذ هبطوا من دستبي ثم ابهرا

تعلم سعيد الخير ان مطيتي اذا هبطت اشفقت من ان تعقرا
كأنك يوم الشعب ليث خفية تجرد من ليث العرين واصحرا
تسوس الذي ماساس قبلك واحد ثمانين الفا دارعين وحسرا

الفتح في مملكة الروم زمن عثمان

كانت دولة الرومان على أشد الحذر من جيوش المسلمين ناظرة اليهم في كل حين من عهد اقتطاعهم سورية ومصر من جسم سلطنتهم. وقد عرف قواد المسلمين ذلك الحذر منها فاتجه تيار فتوحهم الى جهات فارس وارمينيا فترة من الزمن. الى أن جاءت سنة ٢٥ و ٢٦ ـ فعقد معاوية بن أبي سفيان عزيمته على منازلة دولة الروم في اقليمي قبادوكيا في الجهة الشرقية من آسيا الصغرى مما يلي أرمينيا ـ وفريجيا من المقاطعات الوسطى من آسيا الصغرى فاخذ «عمورية» من مدن فروبجيا الكبرى على حدود غلاطية ولم يوغل فيما وراء ذلك. ولعل السبب في عدم ايغاله في تلك الاصقاع علمه بشدة حذر الروم واستعدادهم للدفاع عن بلادهم بالقوى الكبيرة مع قرب تلك النواحي من عاصمة ملكهم وسهولة حشد الجيوش عليهم. فهو اذا أقدم في ذلك الزمن كان ثمن الفتح غاليا ـ وقد قدمنا ما كان من ارساله حبيب بن مسلمة الى ارمينيا

كان معاوية ذا شغف زائد بالاجهاز على الدولة البيزنطية وفتح مدينة القسطنطينية وهو يعلم شدة حذر الروم ويقظتهم ويعلم ما عليه بلاد الاناضول من كثرة الجبال ووعورة الطرق. فبلوغ غرضه من طريق البر دونه اهوال ومصاعب لا قبل لجيوش الشام في ذلك الحين بتذليلها، فاتجه تيار تدبيره الى البحر يريد أن يلمغ حاجته فيه بحمل المسلمين على إثباجه والاستيلاء على المراكز المهمة والنقط النافعة في الغزو البحري تمهيداً للقيام بعمله الهائل

كانت هذه الفكرة تهجس في خاطر معاوية من أيام عمر بن الخطاب فكتب اليه يرغبه في ان يأذن له في فتح قبرص ويذكر له قربها من الساحل وسهولة ذلك عليه وقال : ان قرية من قرى حمص ليسمع أهلها نباح كلابهم (أهل قبرص) وصياح دجاجهم[1] فكاد ذلك يأخذ بقلب عمر ولكنه اتهمه وكتب الى عمرو بن العاص - ان صف لي البحر وراكبه فان نفسي تنازعني اليه - فكتب اليه عمرو : « اني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير ان ركن خرّق القلوب وان تحرك أزاغ العقول يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود . ان مال غرق وان نجا برق » فلما قرأه عمر كتب الى معاوية « انا سمعنا ان بحر الشام يشرف على أطول شيء على الارض يستأذن الله في كل يوم وليلة في ان يفيض على الارض فيغرقها . فكيف أحمل الجنود في هذا الكافر المستصعب . وتالله لمسلم أحب الي مما حوت الروم . فإياك ان تعرّض لي وقد تقدمتُ اليك . وقد علمتَ ما لقي العلاء مني ولم أتقدم اليه في مثل ذلك »

سكت معاوية بعد كتاب عمر على مضض في النفس . الى ان كان زمن عثمان فاستأذنه . وبعد لأي ما اذن له في غزو الروم فى البحر وذلك سنة ٥٢٧ وشرط عليه عثمان ان ينتدب الناس للغزو . وان لا ينتخبهم ولا يقرع بينهم . فمن انتدب جهزه وأعانه فأعد معاوية لذلك أسطولا في سواحل الشام وأرسل الى عبد الله بن أبي سرح عامل مصر يومئذ ان يجهز أسطولا آخر ففعل واجتمع الاسطولان على قتال أهل قبرص . وبعد أن دافع أهلها دفاعا شديدا وقاتلوا المسلمين أشد قتال صالحوا على سبعة آلاف دينار في كل سنة يؤدون الى الروم مثلها لا يمنعهم المسلمون عن ذلك ، وليس على المسلمين منعهم ممن أرادهم . وعليهم أن يؤذنوا المسلمين بمسير عدوهم اليهم . ويكون طريق المسلمين الى العدو عليهم . وليس لذلك معنى سوى ان قبرص صارت بذلك محطة حربية ومستودعا للمسلمين فى البحر الابيض المتوسط ونقطة اتصال بين أهل الشام وبين أساطيلهم التى ابتدأت تمخر في ذلك البحر وتلجأ الى تلك الجزيرة عند

(١) الجزيرة التي يسمع ذلك منها انما هي جزيرة ارواد

الحاجة . وكان الفتح سنة ٢٨ وحضره من أصحاب رسول الله جماعة منهم عبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت سلمان . ومن هـذا التاريخ صارت دولة الاسلام دولة بحرية كما هي دولة برية وذلك أمر طبيعي لمملكة أحرزت من الشواطيء الواسعة ما أحرزت دولة الخلافة . فانه قد صار لها شواطيء سورية ومصر وبرقة الى افريقية (تونس) في هذا الزمن القليل . وهذه الشواطيء تحتاج الى الحماية من غارات الاعداء من الروم وهم أمة عريقة في البحرية وقيادة الاساطيل

وقد كان أمير البحر الذي قاد الاساطيل لمعاوية عبد الله بن قيس الحارثي حليف بني فزارة فغزا خمسين غزاة من بين شاتية وصائفة في البحر . ولم يغرق فيه احد ولم ينكب . وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده وان لا يبتليه بمصاب أحد منهم وقد أجاب الله تعالى دعوته في جنده دونه

وقد طار لعبد الله بن قيس ذكر فى سواحل الروم وشواطيء البحر الابيض المتوسط واشتهر شهرة عظيمة جدا ـ حتى اذا أراد الله أن يصيبه وحده خرج في في قارب طليعة فانتهى الى المرقى من أرض الروم وعليه سُؤّل يعتَرّون بذلك المكان فتصدق عليهم . وكان معطاءاً كريماً فنم عليه جود كفه ـ فان امرأة من السؤّال رجعت الى بيتها فقالت للرجال : هل لكم في عبد الله بن قيس . قالوا : وأين هو ؟ قالت : في المرقى . قالوا : أي عدوة الله ومن أين تعرفين عبد الله بن قيس فوبختهم وأعلمتهم انها سألته فأعطاها عطاء ملك ولم يكن عطاء تاجر . فثاروا اليه فهجموا عليه فقاتلوه وقاتلهم فأصيب وحده وأفلت الملاح حتى أتى أصحابه ، فجاؤا حتى أرقوا والخليفة منهم عن قيس سفيان بن عوف الازدي . فخرج فقاتلهم فضجر وجعل يبعث بأصحابه ويشتمهم ، فقالت جارية عبد الله : واعبد الله ، ماهكذا كان يقول حين يقاتل . فقال سفيان وكيف كان يقول ؟ قالت : الغمرات ثم ينجلينا ، فترك ما كان يقول الى ما قالت ، وأصيب في المسلمين ناس يومئذ

وقد ذكر سديو في تاريخه أن معاوية فتح سنة ٢٩ ﻫ جزيرة اقريطش (كريد) وجزيرة كوس وجزيرة رودس ، ولم يقل بذلك مؤرخو العرب والظاهر أن هذه الجزر فتحها معاوية في خلافته أيام هجماته المتتابعة على سواحل الروم وتدميره لاسطولهم العظيم ثم محاصرته للقسطنطينية كما سيأتي خبر ذلك كله في سيرة معاوية اه ، من أشهر مشاهير الاسلام

مقتل يزدجرد

من الاحداث في عهد عثمان مقتل يزدجرد وانتهاء الملك في فارس

اضطربت كلمة المؤرخين في مقتل يزدجرد ملك الفرس ورويت في ذلك روايات عديدة رواها الطبري وتابعه عليها ابن الاثير . اقربها ان يزدجرد عزم على قصد خراسان ليجمع الجموع ويسير بهم الى العرب فسار الى مرو ومعه الرهن من اولاد الدهاقين ومعه فرخزاد اخو رستم . فلما اعتزم القدوم الى مروكاتب ملك الصين وملك فرغانة وملك كابل وملك الخزر يستمدهم

وكان الدهقان بمرو ماهويه ابو براز وقد جعل ماهويه ابنه محافظا للمدينة وقد اراد يزدجرد صرف الدهقنة عن ماهويه الى ابن اخيه سنجان وشعر بذلك ماهويه فاسرّ الى ابنه بمنع يزدجرد عن دخول مرو وأخذ ماهويه في العمل على أهلاك يزدجرد فكتب الى نيزك طرخان من ملوك الترك يدعوه الى الاتفاق على قتل يزدجرد ومصالحة العرب عليه ويضمن له الف درهم في كل يوم ان اعانه على ماطلب . فاجاب نيزك الى ذلك وكاتب يزدجرد يبذل له المعونة والنصرة اذا نحى عنه فرخزاد وجنده . واستشار يزدجرد اصحابه فكل اشار برأي . فنحى عنه فرخزاد وجنده وجاء نيزك في جند واستقبل الملك ماشيا فامر له بفرس

ودخل عسكر نيزك في موكب حافل تعزف فيه الموسيقى . فلما توسط الملك عسكر نيزك قال له فيما يحدثه : زوجني احدى بناتك حتى اناصحك في قتال عدوك . فغضب منه يزدجرد وسبه . فعلاه نيزك بمقرعة ففر منه وقتل أصحاب نيزك أصحاب يزدجرد وانتهى الفرار بالملك الى بيت طحان أو صانع ارحاء على نهر المرغاب (نهر الطير) فمكث عنده ثلاثة أيام لا يأكل والطحان أو صانع الارحاء لا يعلم من أمره شيئاً . فقال له : اخرج أيها الشقي فكل طعاماً فقد جعت . فقال : اني لا أصل الى ذلك الا بزمزمة وهي أدعية وصلوات يقوم رجال الدين من المجوس يتلاوتها على الطعام قبل الاكل فاحضر له رجلا فزمزم له ، وأكل . فلما رجع المزمزم سمع الناس يتحدثون بهرب يزدجرد واختفائه فسأل عن حليته فوصف له فاخبر الناس بمكانه وانتهى الخبر الى ماهويه أبو براز فأرسل أحد الاساورة ليقتله . فأنكر الطحان أن يكون عنده وقال رجل اني أشم ها هنا ريح المسك ودخلوا بيت الطحان فاذا يزدجرد قد نزل في النهر فجروا طرف ثوبه فأخرجوه . فأراد أن يفتدي من قاتله بخاتمه ومنطقته وفيهما غنى الدهر لمن أخذهما فلم يقبل وطلب منه أربعة دراهم على أن يتركه فلم يجدها . فطلب أن يذهب به الى الدهقان أو الى العرب فانهم يستبقونه فلم يقبل منه وقتله وألقاه في المرغاب

ويقول سيد يو في تاريخه : ان ملك الصين المسمى تانى تسنغ أمد يزدجرد بالجنود وانه هو الذي سلط عليه من قتله على شاطيء المرغاب . وانقضت بقتله الدولة الساسانية التي استمرت زاهية وأعلامها خافقة على تلك الممالك نحو تسع وعشرين وثلاثمائة سنة . وقال ابن الاثير : وسمع بقتله مطران كان بمرو فجمع النصارى وبنوا له ناووساً وأخرجوه من الماء وكفنوه ودفنوه . وكان ملكه عشرين سنة : منها أربع سنين في دعة وست عشرة سنة في تعب من محاربة العرب اياه وغلظهم عليه ، وكان آخر

من ملك من آل اردشير بن بابك ، وصفا الملك بعده للعرب وذلك سنة احدى وثلاثين ه

اجتماع أعمال سورية كلها لمعاوية

كان معاوية بن ابي سفيان عاملا على الاردن في عهد عمر بن الخطاب وكان اخوه يزيد بن ابي سفيان اميرا على دمشق . فلما مات نعاه عمر الى ابي سفيان فقال : من جعلت على عمله يا أمير المؤمنين ؟ قال : معاوية . فقال : وصلتك رحم . ومات عمر ومعاوية على دمشق والاردن

وقد كان عياض بن غنم خال أبي عبيدة بن الجراح ومن أبناء عمومته وكان في عهد عمر بن الخطاب قد ولي عملا بالجزيرة وكان شجاعا وقائداً بارعاً . فبلغ عمر عنه اتلاف المال فأحضره عمر والبسه جبة صوف وأعطاه عصى وجاءه بصرمة من الغنم وقال له ارع فان أباك كان راعياً . وبعد مدة صرفه الى الشام فلحق بأبي عبيدة وكان معه وكان جواداً كريماً مشهوراً لا يليق شيئاً ولا يمنع أحداً سأله معروفاً . فلما حضر أبو عبيدة استخلف عياضاً على عمله فأقره عمر . وكلم عمر في ذلك وقيل له عزلت خالدا أوعبت عليه العطاء . وعياض أجود العرب وأعطاهم لا يمنع شيئاً يسأله . فقال عمر عياض في ماله حتى يخلص الى مالنا واني مع ذلك لم أكن مغيرا أمرا قضاه أبو عبيدة . ومات عياض بعد ذلك . فولى عمر مكانه على حمص سعيد بن حِذْيَم الجمحي ثم مات فولى مكانه عمير بن سعد الانصاري وتوفي عمر وهو على حمص ثم ان عمير بن سعد مرض مرضاً شديدا واضنى فاستعفى عثمان واستأذنه في الرجوع الى أهله فأذن له ، وضم عمله الى معاوية فكان له بذلك حمص ويتبعها قِنَّسرين ودمشق والاردن

وكان عبد الرحمن بن علقمة بن مجزز الكناني على فلسطين . فلما مات في أيام عثمان ضمت فلسطين الى معاوية وبذلك اجتمعت له كل ولايات سورية وكان معها جزء من الجزيرة

الفرقة العربية واسبابها ونتائجها

لا بد لمن يريد أن يتكلم على الامور التى كانت سبباً لتفريق وحدة المسلمين وتشعب آرائهم في السياسة ، ولم تقتصر على ذلك حتى أنبتت لهم شعباً في الدين ومزقتهم كل ممزق . أقول لا بد لمن يريد ذلك من السير بالامور من مبدئها والاتيان عليها واحدة واحدة . وأن يبدأ ذلك بأحوال المسلمين في أمصارهم ومنشأ ما كان بينهم وبين ولاتهم وما لهجوا به في حقهم وما عابوه عليهم ليكون ملما بالاحوال بدأ ونهاية — هذا وقد أسهب المؤرخون وأصحاب السير والاخبار في أسباب الفتن والفرقة اسهاباً كثيراً . وقد جاء الطبري بالكثير من ذلك في اخبار مفرقة . ونسق العلامة ابن خلدون أحوال الامصار وأسباب الفتنة ومبادئها نسقاً بديعا في تاريخه وألم بشيء من ذلك في الجزء الاول . وقد حذا حذوه الاستاذ الخضري وجاء في محاضراته من ذلك بالكثير الطيب . وكذلك صاحب أشهر مشاهير الاسلام فقد جمع في هذا الباب شيئاً كثيراً وأبدى آراء سديدة . وقد جاء ابن الاثير في هذا الباب أيضاً بشيء كثير . وهذه الكتب التى اخترتها مادة لما أورده في هذا الباب وعمدة أرجع اليها وأنقل عنها مع ما يبدو لى من التعديل أو التحوير أو الزيادة أو نحو ذلك والله المستعان

﴿ هل كان عثمان مسيئاً الى الناس أو نقص عنهم الرزق في عهده ؟ ﴾

روى الطبري عن الحسن البصري قال : كان عمر بن الخطاب قد حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج في البلدان الا باذن وأجل . فشكوه . فبلغه .

فقال: « ألا اني قد سَنَنْتُ الاسلام سنّ البعير يبدأ فيكون جذَعاً ثم ثنياً ثم رُباعياً ثم سَديساً ثم بازِلاً . الا فهل يُنْتَظر بالبازل الا النقصان . ألا وان الاسلام قد بَزَلَ . ألا وان قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده . الا فاما وابن الخطاب حي فلا. اني قائم دون شعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا الى النار » فلما ولي عثمان لم يأخذهم بالذي كان يأخذهم به عمر . فانساحوا في البلاد . فلما رأوها ورأوا الدنيا ، انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الاسلام فكان مغموماً في الناس وصاروا اوزاعا اليهم وأملوهم و تقدموا في ذلك . فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم ، وتقدمنا في التقرب والانقطاع اليهم . فكان ذلك أول وهن دخل على الاسلام وأول فتنة كانت في العامة

وقال الشعبي لم يمت عمر حتى ملته قريش وقد كان حصرهم في المدينة فامتنع عليهم وقال: ان أخوف ما أخافه على هذه الأمة انتشاركم في البلاد . فان الرجل ليستأذنه في الغزو ـ وهو ممن حبس بالمدينة من المهاجرين ولم يكن فعل ذلك بغيرهم من أهل مكة ـ فيقول قد كان لك في غزوك مع رسول الله ﷺ ما يبلغك . وخير لك من الغزو اليوم ألاّ ترى الدنيا ولا تراك . فلما كان عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع اليهم الناس فكان أحب اليهم من عمر ـ وروى الطبري بسنده قال : لم تمض سنة من امارة عثمان حتى اتخذ رجال من قريش أموالا في الامصار وانقطع اليهم الناس

والمطلع على ما تقدم يرى أن رأي عمر في الحجر على قريش أوثق من رأي عثمان في ارخاء الحبل لهم . ذلك أن قريشاً (كما قال الاستاذ الخضرى) كانت بحسب القاعدة التي كانت متبعة كأعضاء الاسرة التي لها الأمر . كبارها مرشحون لان يلوا الخلافة يوماً ما وليس هناك نظام يعين سابقهم ولاحقهم وهم مع ذلك متباعدو العشائر . وحيط المدينة ضيق عن تدبير ما يمكن أن يختلج في النفوس من الشغب

على الخليفة . أو ما يمكن أن يأتيه آت لافساد ذات البين

وقال صاحب أشهر مشاهير الاسلام : أجمع الرواة وأهل الاخبار على أن عثمان قضى الشطر الا كبر من خلافته وهو أحب الى الناس من عمر لشدته ورأفة عثمان ولينه . واقبال الدنيا على الناس على عهده وتبسطهم في المعيشة وامتلاء أيديهم من المغانم . لكن غلب عليه بنو أمية في أواخر مدته . فآثرهم على غيرهم من قريش ووصلهم بالاموال الكثيرة فانحرفت عنه من أجل ذلك القلوب ونظرت اليه قريش بغير عين الرضا ونهض لمناقشته الحساب أهل الامصار وتخلل ذلك أمور خفية وجلية أدخلت الناس في غمار فتنة عمياء كانت نتيجتها ضعف السلطة الشرعية وغلبة القوة والاثرة على الملك الى اليوم

أخرج ابن عساكر عن الحسن أنه قال : أدركت عثمان - على ما نقموا عليه - قلّ ما يأتي على الناس يوم الا ويقسمون فيه خيراً ، فيقال لهم يا معشر المسلمين اغدوا على أعطياتكم ، فيأخذونها وافرة ، ثم يقال أغدوا على أرزاقكم ، فيأخذونها وافرة . ثم يقال اغدوا على السمن والعسل . الا عطيات جارية والارزاق دارّة والعدو منفى وذات البين حسن والخير كثير . وما مؤمن يخاف مؤمناً من لقيه فهو أخوه من كان : الفته ونصيحته ومودته . قد عهد اليهم أنها ستكون أثرة فاذا كانت أن تصبروا . قال رسول الله لأسيد بن حضير « ستلقون بعدي أثرة ، قال فما تأمرنا ؟ قال ان تصبروا حتى تلقوا الله ورسوله » قال الحسن : لو أنهم صبروا حين رأوها وأخذوا بامر الله ورسوله لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق والخير الكثير . قالوا لا والله ما نصابرها فوالله ما ردوا ولا سلموا . والاخرى كان السيف مغمداً عن أهل الاسلام ، ما على الارض مؤمن يخاف أن يسل مؤمن عليه سيفاً حتى سلوه على أنفسهم ، فوالله ما زال مسلولاً الى يوم القيامة اهـ

لم يكن عثمان بالذي ينتهي عند حد الاذن لقريش بالانسياح في البلاد بعد

الحجر الذي ضرب به عليهم عمر ، بل ساعدهم على ذلك حاسباً أنه يقمع بهم الفتنـة ويخمد بهم نار الفرقة اذا شبت ويثبت بهم أركان الدولة فكان أول جان عليـه اجتهاده ، ذلك أنه في سنة ثلاثين أنبأه سعيد بن العاص بأحوال الكوفة وما يشيمه في أهلها من بوارق الفتن واستعدادهم للشر ، فكان فيما قاله عثمان لاهل المدينـة ان الناس يتمخضون بالفتنة واني والله لا تخاصن لكم الذي لكم حتى أنقله اليكم ان رأيتم ذلك ، فهل ترونه ؟ حتى يأتي من شهد مع أهل العراق الفتوح فيقيم معه في بلاده . فقام اولئك وقالوا : كيف تنقل لنا ما أفاء الله علينا من الارضين يا أمير المؤمنين؟ فقال: نبيعها ممن شاء بما كان له بالحجاز . ففرحوا وفتح الله عليهم به أمراً لم يكن في حسابهم. فاغتنم بعض قريش ذلك وتأثلوا العقار والمزدرعات وبادلوا من لم يهاجر على سهامهم بالعراق بما لهم بالحجاز

ومن ذلك أن طلحة بن عبيد الله جمع ما له من سهمان خيبر وغير ذلك مما له بالحجاز واشترى به من نصيب من شهد القادسية والمدائن ولم يهاجر الى العراق النشاستج . واشتري مروان بما كان أعطاه عثمان نهر مروان وهو يومئذ اجمة ، واشترى رجال من القبائل بالعراق بأموالهم التي لهم بجزيرة العرب من أهل المدينة ومكة والطائف ، فهذا سبب أيضاً من الاسباب التي وجد بها رجال قريش سبيلا للوجود في الامصار . روى الطبري بسنده قال : اشترى هذا الضرب رجال من كل قبيلة ممن كان له هناك شيء فاراد أن يستبدل به فيما يليه ، فاخذوا وجاز لهم عن تراض منهم ومن الناس واقرار بالحقوق

الا ان الذين لا سابقة لهم ولا قُدْمَة لا يبلغون مبلغ أهل السابقة والقُدْمَة في المجالس والرياسة والحظوة ثم كانوا يعيبون التفضيل ويجعلونه جفوة وهم في ذلك يختفون به ولا يكادون يظهرونه لانه لا حجة لهم والناس عليهم فاذا لحق بهم لاحق من ناشىء أو اعرابي أو محرر استحلى كلامهم ، فكانوا في زيادة وكان الناس في نقصان حتى بلغ الشر

كان المسلمون في أيام عمر لا يعرفون للشقاق معنى ، ولا يختلفون فيما بينهم على شيء لفقدان الدواعي الى ذلك ، وأكبر دواعي نزوع العرب الى الشر اختلاف رؤسائهم وتنازع كبرائهم. ثم لا توجد يد قوية شديدة البطش تقف بالمتنازعين عند الحد الذي لا ينبغي أن يتجاوزوه . وقد كان عمر ذلك الخليفة الحازم ، لا تفزعه الاهوال ، ولا تتكاءده الكوارث ، ولا يهاب عظيما لعظمته . ولا يحجم عن اجتثاث الفتنة من أصولها ويضرب على يد النازع اليها ولو كان آثر الناس لديه وأكرمهم عليه . فكانت روحه تخيف الرؤساء وذوى المطامع . فلا يجد أحد منهم سبيلا الى نزاع أو شر — هذا الى ما وقر في أنفس القوم من الالفة التى عقدها الاسلام بينهم وانشغال أكثر الناس بالجهاد والفتح الذي تتوالى أخباره . ومعلوم ان مسائل الحرب تصرف أفكار الناس الى التحدث بها والنظر في نتائجها وعواقبها، الى ما يتبع ذلك من بسالة الجند وبراعة القواد . وبخاصة اذا كان الجيش منتصراً ظافرا . فان تلك الاحوال تميت الشقاق ولا تحييه . ولو كان عثمان من ذوى السياسة العالية لرمى بالجنود وكثيرى الكلام في حرب ضروس يوجه بهم اليها ، ويشغلهم بأنفسهم عنه

وقد قال العلامة ابن خلدون : لما استكمل الفتح واستكمل للملة الملك ونزل العرب بالامصار في حدود مابينهم وبين الامم من البصرة والكوفة والشام ومصر، وكان المختصون بصحابة الرسول ﷺ والاقتداء بهديه وآدابه المهاجرين والانصار من قريش وأهل الحجاز ومن ظفر بمثل ذلك من غيرهم . وأما سائر العرب من بني بكر بن وائل وعبد القيس وسائر ربيعة والازد وكندة وتميم وقضاعة وغيرهم فلم يكونوا من تلك الصحبة بمكان الا قليلا منهم . وكانت لهم في الفتوحات قدم فكانوا يرون ذلك لانفسهم مع مايدين به فضلاؤهم من تفضيل أهل السابقة ومعرفة حقهم وما كانوا فيه من الذهول والدهش لامر النبوة وتردد الوحي وتنزل الملائكة . فلما

انحسر ذلك العباب وتنوسي الحال بعض الشيء وذل العدو واستفحل الملك كانت عروق الجاهلية تنبض ووجدوا الرياسة عليهم للمهاجرين والانصار وقريش وسواهم. فأنفت نفوسهم منه . ووافق ذلك أيام عثمان ، فكانوا يظهرون الطعن في ولاته بالامصار والمؤاخذة لهم بالمحظات والخطرات والاستبطاء عليهم في الطاعات والتجني بسؤال الاستبدال منهم والعزل ويفيضون في النكير على عثمان وفشت المقالة في ذلك في أتباعهم وتنادوا بالظلم من الامراء في جهاتهم وانتهت الاخبار بذلك الى الصحابة بالمدينة فارتابوا لها وأفاضوا في عزل عثمان وحمله على عزل أمرائه وبعث الى الامصار من يأتيه بالخبر فلم يجدوا أثرا الظلم ولا ظلا لعسف أو جور

قد آن لنا أن نلم بأحوال المسلمين في الامصار وما كان يعمل فيهم من العوامل التى أدت الى اشتعال نار الفتنة وتأريث جاحمها حتى تأججت وأكلت كل أخضر ويابس وأعيا اطفاؤها ونتج عنها أشأم ثورة ثارت في الاسلام والمسلمون يجنون منها اليوم شر ما يجنى ويقاسون أشد ألم من جرائها

الكوفة

ان الكوفة أول مصر نزغ الشيطان بين أهله في الاسلام . وكان بدء ذلك أن سعد بن أبي وقاص كان أمير الكوفة في خلافة عثمان بوصية من عمر وكان عبد الله ابن مسعود أمين بيت المال فاستقرض سعد من عبد الله بن مسعود من بيت المال مالا . فلما جاء الاجل أتى ابن مسعود الى سعد وقال له أد المال الذي قبلك . فقال له سعد ما أراك إلا ستلقى شرا هل أنت إلا ابن مسعود عبد من هذيل ؟ فقال : أجل ، والله اني لابن مسعود وانك لابن حُمينة . فقال هاشم بن عتبة بن أبي وقاص : أجل ، والله انكما لصاحبا رسول الله ﷺ يُنظرُ اليكما . فطرح سعد

عودا كان في يده - وكان رجلا فيه حده - ورفع يده وقال : اللهم رب السموات والارض . فقال عبد الله ويلك قل خيرا ولا تلعن . فقال سعد : أما والله لولا اتقاء الله لدعوت عليك دعوة لا تخطئك . فولى عبد الله سريعاً حتى خرج . ولم يتيسر لسعد الاسراع بأداء المال فاستعان عبد الله بأناس على استخراج المال من سعد واستعان سعد بأناس على استنظاره . وافترقوا وبعضهم يلوم سعدا وبعضهم يلوم عبد الله . ووصل الخبر بذلك الى عثمان فغضب عليهما وهم بهما ثم ترك ذلك . وعزل سعداً وأخذ ماعليه وأقر عبد الله بن مسعود وتقدم اليه في ذلك

ولما عزل عثمان سعدا ولى الوليد بن عقبة الكوفه - وكان قبل ذلك عاملا على الجزيرة من عهد عمر - فلما قدم الوليد كان احب الناس في الناس وارفقهم بهم . فكان كذلك خمس سنين وليس علي داره باب

حدث في اثناء ولاية الوليد ان شبابا من شباب الكوفة نقبوا على ابن الحيسمان الخزاعي داره وكاثروه ونذربهم فخرج اليهم بسيفه فلما رأى كثرتهم استصرخ وكان ابو شريح الخزاعى جاراً له وهو من اصحاب رسول الله ﷺ نقل اهله من المدينة الى الكوفة ليكون قريبا من الغزو . فلما سمع استصراخ ابن الحيسمان أطل هو وابنه فاذا هو باولئك الشباب يقولون لجاره لاتصح فانما هي ضربة حتى نريحك وضربوه فقتلوه وابوشريح يصيح بهم واحاط الناس بهم فاخذوهم وفيهم زهير بن جُندب الازدي ومورع ابن ابي مورع الاسدي وشبيل بن ابي الازدي في عدة فشهد عليهم ابو شريح وابنه انهم دخلوا عليه فقتله بعضهم . فكتب الوليد الى عثمان فيهم وارتحل اليه ابو شريح ونقل اهله الى المدينة ولهذا الحديث لماكثر أحدثت القسامة واخذ يقول ولى المقتول ليفطم الناس عن القتل عن ملأ من الناس يومئذ وقال عثمان القسامة على المدعى عليه وعلى أوليائه يقسم منهم خمسون رجلا اذا لم تكن بينة فان نقصت قسامتهم أو ان نكل منهم رجل واحد ردت قسامتهم ووليها المدعون

فان حلف منهم خمسون استحقوا وقد ثبت القتل على هؤلاء النفر . فكتب فيهم الوليد الى عثمان فكتب اليه في قتلهم فقتلوا على باب القصر في الرحبة ـ وقد قال في ذلك عمرو بن عاصم التميمي :

لا تأكلوا ابدا جيرانكم سرفا اهل الدعارة في ملك ابن عفان

وقال : ان ابن عفان الذي جربتموا فطم اللصوص بمحكم الفرقان

مازال يعمل بالكتاب مهيمنا في كل عنق منهم وبنان

ولما قتل هؤلاء الرهط قصاصا بمن قتلوا اضطغن آباؤهم على الوليد لذلك وصاروا يتحينون الفرص للايقاع به ـ وكان للوليد سمار يسمرون عنده ومنهم ابو زُبيد الطائي كان رجلا نصرانيا معروفا بشرب الخمر . قد عرفه الوليد ايام نصرانيته وكان مقامه في تغلب اخواله ايام كان الوليد اميراً عليهم بالجزيرة وكان يغشى الوليد بالجزيرة ايام كان فيها وبالمدينة اذ كان بها . فلما جاء الوليد الكوفة قدم عليه ابو زبيد وكان للوليد عنده يد حين اسلم اذ اضطهده اخواله كراهة لدخوله في الاسلام فاخذ له الوليد بحقه فشكرها له ابو زبيد وانقطع اليه وجاء اليه الكوفة مسلما معظما على مثل ماكان ياتيه بالجزيرة والمدينة وقد حسن اسلامه فاستدخله الوليد وكان عربيا شاعرا . فاتى آت ابا زينب وابا مورع وجندبا وهم يحقدون عليه مذ قتل ابناءهم ويضعون له العيون . فقال هل لكم في الوليد يشارب ابا زبيد ؟ فثاروا في ذلك وقالو لاناس من اهل الكوفة هذا اميركم وابو زبيد خيرته وهما عاكفان على الخمر فقاموا معهم الى منزل الوليد وليس عليه باب واقتحموا عليه فلم يفجا الا بهم فنحى شيئا فادخله تحت السرير فادخل بعضهم يده فاخرجه لا يؤامره فاذا طبق عليه تفاريق عنب وانما نحاه استحياء من ان يرى طبقة وليس عليه الا تفاريق عنب فاقبل الناس على المرجفين يسبونهم ويلعنونهم : وأقبل آخرون يقولون فيه . فدعاهم ذلك الى التجسس والبحث ستر عليهم الوليد وطوى ذلك عن عثمان ولم يشأ أن يدخل بين الناس في ذلك بشيء

فسكت وصبر . وجاء جندب ورهط معه الى ابن مسعود فقالوا الوليد يعتكف على شرب الخمر . فقال ابن مسعود : من استترعنا بشيء لم نتتبع عورته ولم نهتك ستره ونمى كلامه الى الوليد فعاتبه : وقال : ايرضى من مثلك بان يجيب قوما موتورين بما اجبت على ؟ اى شيء أستتر به ؟ انما يقال هذا للمريب . فتلاحيا وافترقا على تغاضب . واذاع المرجفون بعكوفه على الخمروطرحوه على السنة الناس

وقد أُتى الوليد بساحر وهو على الكوفة . فارسل الى ابن مسعود يسأله عن حده فقال : وما يدريكم أنه ساحر ؟ قالوا يزعم ذاك . قال أساحر انت ؟ قال : نعم قال وتدري ما السحر ؟ قال نعم وثار الى حمار فجعل يركبه من قبل ذنبه ويريهم أنه يدخل من فمه ويخرج من أسته ويدخل من أسته ويخرج من فمه . فقال ابن مسعود فاقتله . فانطلق الوليد ، فنادوا في المسجد أن رجلا يلعب السحر عند الوليد

جاءجندب ـ واغتنمها ـ يقول أين هو حتى اريه فضربه فقتله . فاجتمع عبد الله والوليد على حبسه وكان جندب يعتذر بانه ما كان يعلم ان الوليد سيقيم الحد على ذلك الساحر وانه ظن أنه عطل حده فاراد أن يستوفيه . وكتب الوليد الى عثمان فاجاب : ان استحلفوه بالله ما علم برأيكم فيه وانه لصادق فيما ظن من تعطيل حده وعزروه وخلوا سبيله . وتقدم الى الناس في أن لا يعملوا بالظنون وأن لا يقيموا الحدود دون السلطان فانا نقيد المخطىء ونؤدب المصيب

فعل به الوليد ما أمر به عثمان ، وغضب لجندب أصحابه ، واتفقوا فيما بينهم على الكيد للوليد بالذهاب الى المدينة وشكوى الوليد الى الخليفة واستعفائه منه . فجاءوا عثمان فقال لهم تعملون بالظنون وتخطئون في الاسلام وتخرجون بغير اذن، ارجعوا . فلما رجعوا الى الكوفة لم يبق موتور في نفسه الا أتاهم ، فاجتمعوا على رأي فأصدروه ثم تغفلوا الوليد وكان ليس عليه حجاب فدخل عليه أبو زينب الازدي وأبو مورع الاسدي وبقيا معه الى أن نام فسلا خاتمه من أصبعه وهو نائم . فلما لم يجد خاتمه بعد أن

استيقظ سأل جاريتين له فقالتا جاءك رجلان وأحدهما كانت يده على يدك ثم حلتاها له فعرف أنهما أبو زينب وأبومورع وقال: قد أرادا داهية فليت شعري ماذا يريدان وطلبهما فلم يجدهما. وكان وجههما المدينة فقدما على عثمان ومعهما نفر يعرفهم عثمان ممن قد عزل الوليد عن الاعمال فقال من يشهد قالوا أبو زينب وأبو مورع. وكاع الآخران فقال كيف رأيتماه؟ قالا كنا من غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر. وفي رواية اعتصرناها من لحيته وهو يقيئها. فقال: ما يقيء الخمر الا شاربها. فبعث اليه فلما قدم الوليد رآهما عند عثمان فقال:

ماان خشيت على أمر خلوت به فلم أخفك على أمثالها حارِ

وحلف الوليد وأخبره خبرهم. فقال عثمان نقيم الحدود ويبوء شاهد الزور بالنار فاصبر يا أخي. وأمر سعيد بن العاص فجلده أربعين فاورث ذلك عداوة بين ولديهما والصحيح أن الذي جلده عبد الله بن جعفر اذ أبى الحسن أن يتولى ذلك. وعزله عثمان عن الكوفة - وقد كان الوليد مظفراً في الغزو ما قصر فيه ولا انتقض عليه أحد حتى عزل. وكان مما زاده عثمان بن عفان على يده أيام ولايته على الكوفة ان رد على كل مملوك بها مبلغاً يستعينون به من غير أن ينقص مواليهم من أرزاقهم. وأورد الطبري أن الوليد أدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم للولائد والعبيد ولقد تفجع عليه الاحرار والمماليك كانت تسمع الولائد وعليهن الحداد يقلن:

يا ويلتنا قد عزل الوليد وجاءنا مجوعا سعيد
ينقص في الصاع ولا يزيد فجوع الاماء والعبيد

وقال بعض شعراء الكوفة:

فررت من الوليد الى سعيد كأهل الحجر اذ جزعوا فباروا
بلينا من قريش كل يوم أمير محدث أو مستشار
لنا نار نخوفها فنخشى وليس لهم فلا يخشون نار

ولى عثمان بعد الوليد سعيد بن العاص وكان بقية العاص بن امية وكان أهله

كثيراً تتابعوا وكان يتيما نشأ في حجر عثمان فلما فتحت الشام قدمها على معاوية فسأل عنه عمر فيما يتفقد من أمور الناس. فقالوا يا أمير المؤمنين هو بدمشق عهد العاهد به وهو مأموم بالموت. فارسل الى معاوية أن ابعث الى سعيد بن العاص في منقل فبعث به اليه وهو دنف فما بلغ المدينة حتى عوفي من مرضه. فقال له عمر يا ابن أخي قد بلغني عنك بلاء وصلاح فازدد يزدك الله خيراً. ثم قال له هل لك زوجة؟ قال لا. فقال لعثمان يا أبا عمرو ما منعك من هذا الغلام أن تزوجه؟ قال: قد عرضت عليه فأبى. وبعد ذلك خرج عمر يسير في البر فانتهى الى ماء فلقي عليه أربع نسوة. فقمن له فقال: ما لكن ومن أنتن؟ فقلن بنات سفيان بن عويف. وقالت أمهن: هلك رجالنا واذا هلك الرجال ضاع النساء فضعهن في أكفائهن. فزوج سعيد بن العاص احداهن وعبد الرحمن بن عوف الاخرى والوليد بن عقبة الثالثة. ثم أتاه بنات مسعود بن نعيم النهشلي فقلن هلك رجالنا وبقي الصبيان فضعنا في أكفائنا فزوج سعيد بن العاص احداهن وجبير بن مطعم الاخرى وقد كان عمومته ذوي بلاء في الاسلام وسابقة حسنة وقُدْمَةٍ مع رسول الله ﷺ فلم يمت عمر حتى كان سعيد من رجال الناس

قدم سعيد أميراً على الكوفة. ومعه أولئك النفر الذين كادوا للوليد. ومنهم مالك المعروف بالاشتر النخعي. وابو خُشّة الغِفاري وجُندب بن عبد الله وأبو مصعب بن جثّامة. فصعد سعيد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال: والله لقد بعثت اليكم وأني لكاره ولكني لم أجد بداً اذا أُمِرْتُ أن آتمر. ألاَ ان الفتنة قد أطْلعَتْ خطمها وعينيها ووالله لأضربن وجهها أو تعييني، واني لرائد لنفسي اليوم ـ ونزل. وسأل عن أهل الكوفة، فاقيم على حالها وما عليه أهلها. فكتب الى عثمان بالذي انتهى اليه: ان أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم وغُلِب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقُدْمَةِ ـ والغالب على تلك البلاد روادف ردفت واعراب لحقت حتى ما ينظر الى ذي شرف وبلاء من نازلتها ولا

نابتتها . فكتب اليه عثمان : أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم الا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء . واحفظ لكل منزلته واعطهم جميعاً بقسطهم من الحق فان المعرفة بالناس بها يصاب العدل . فأرسل سعيد الى وجوه الناس من أهل أيام القادسية فقال أنتم وجوه من وراءكم والوجه ينبيء عن الجسد . فابلغونا حاجة ذي الحاجة وخَلّة ذي الخلّة . وادخل معهم من يحتمل من اللواحق والروادف وخاص بالقراء والمتسمتين في سمره . فكأنما كانت الكوفة يبسا شملته نار . فانقطع الى ذلك الضرب حزبهم وفشت القالة والاذاعة . وذلك أمر طبعي . لان أولئك الشاغبين الذين أزالوا سلطان الوليد كانوا يرون أقل جزاء لهم من سعيد أن يشركهم في سلطانه ولا يصدر الا باذنهم ولا يورد الا عن رأيهم . فلما فاتهم ما أملوا في سلطانه عادوا سيرتهم الأولى

كتب سعيد الى عثمان بأمرهم . فلما وصل اليه كتابه نادى مناديه الصلاة جامعه . فاجتمعوا فأخبرهم بالذي بلغه سعيد من أول ولايته وبما كتب به اليه وبما جاءه من القالة والاذاعة . فقالوا أصبت فلا تسعفهم في ذلك ولا تطمعهم فيما ليسوا له بأهل . فانه اذا نهض في الأمور من ليس لها بأهل لم يحتملها وأفسدها . وقد أشار عثمان على من بالمدينة أن يستبدلوا باموالهم في الحجاز وجزيرة العرب أموالا بنواحي الكوفة وفارس على النحو الذي أوردنا . وقصده من ذلك أن يوجد في هذه الامصار قوماً من أهل السابقة والفضل ليكونوا سادتهم وقادتهم وتنقطع أطماع غيرهم في السياسة والرياسة . فلم يجد ذلك نفعاً . بل زاد الأمر وغما غرس الفساد

كان سعيد بن العاص لا يغشاه الا نازلة أهل الكوفة ووجوه أهل الأيام وأهل القادسية والقراء والمتسمتون . وكان هؤلاء دِخلَته اذا خلا . فاذا جلس مجلسا عاما دخل عليه كل أحد . فجلس للناس يوماً ، فبينما هم جلوس يتحدثون قال حبيش الاسدى : ما أجود طلحة بن عبيد الله . فقال سعيد : ان من له مثل النشاسنج

لحقيق أن يكون جوادا ، والله لو ان لي مثله لأعاشكم الله عيشاً رغداً ، فقال عبد الرحمن بن حبيش وهو حدث : والله لوددت ان هذا الملطاط لك - يعني ما كان لآل كسرى على الفرات الذي يلي الكوفة - قالوا : فض الله فاك والله لقد هممنا بك ، فقال أبوه حبيش : غلام فلا تجاوزوه . فقالوا يتمنى له من سوادنا ؟ فقال : ويتمنى لكم أضعافه . فقالوا : لا يتمنى لنا ولا له ، فقال ماهذا بكم ! فقالوا : أنت والله أمرته بها وثار اليه الاشتر وابن ذي الحبكة وجندب وصعصعة وابن الكواء وكميل وعمير بن ضابيء فأخذوه وهب أبوه ليمنعه منهم فضربوهما حتى غشي عليهما وجعل سعيد يناشدهم وهم لا يلتفتون اليه حتى اشتفوا منهما . وسمعت بذلك بنو أسد فجاءوا وفيهم طليحة فأحاطوا بالقصر وكثرت القبائل . ففزع الضاربون الى سعيد وقالوا : أفلتنا وتخلصنا ، فخرج سعيد الى الناس ، فقال : أيها الناس قوم تنازعوا وتهاووا وقد رزق الله العافية ثم قعدوا وعادوا في حديثهم وتراجعوا وسألهم وردهم ولما أفاق الرجلان قال لهما : أبكما حياة ؟ قالا : قتلتنا غاشيتك ، قال : لا يغشوني والله أبدا فاحفظا علي السنتكما ولا تجرئا على الناس . ففعلا . وحفظ عن سعيد أنه قال انما هذا السواد بستان قريش ، وكان حاضرا مالك بن كعب الارحبي والاسود ابن يزيد وعلقمة بن قيس النخميان ومالك الاشتر وغيرهم فزادوا عليه وأساءوا الى صاحب شرطته فمنعهم سعيد أن يسمروا عنده

ولما انقطع رجاء أولئك النفر من غشيان مجلسه وقعدوا في بيوتهم أقبلوا على الاذاعة وشتم عثمان وسعيد حتى لامه أهل الكوفة في ارخاء الحبل لهم والسكوت عنهم على ما بهم من شر وكتب سعيد وأشرافهم الى عثمان في اخراجهم من الكوفة فكتب اليهم : اذا اجتمع ملأكم على ذلك فألحقوهم بمعاوية . فأخرجوهم اليه فذلوا وانقادوا وخرجوا حتى أتوه . وقد كتب عثمان الى معاوية : أن أهل الكوفة قد أخرجوا اليك نفراً خلقوا للفتنة فرعهم وقم عليهم فان آنست منهم رشداً فاقبل منهم وان أعيوك فارددهم عليهم . فلما قدموا على معاوية رحب بهم وأنزلهم كنيسة تسمى

مريم وأجرى عليهم بأمر عثمان ما كان يجرى عليهم بالعراق وجعل يتغدى معهم ويتعشى كذلك وطمع في أن يكون اكرامه لهم قد أصلح من شأنهم • فقال لهم يوما : انكم قوم من العرب لكم أسنان وألسنة وقد أدركتم بالاسلام شرفا وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم • وقد بلغني أنكم نقمتم قريشا وان قريشا لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم • ان أئمتكم لكم الى اليوم جُنة فلا تفترقوا عن جنتكم • وان أئمتكم اليوم يصبرون لكم على الجور ويحتملون منكم المؤونة • والله لتنتهن أو ليبتلينكم الله بمن يسومكم ثم لا يحمدكم على الصبر ثم تكونون شركاءهم فيما جررتم على الرعية في حياتكم وبعد موتكم • فقال رجل من القوم وهو صعصعة: أما ماذكرت من قريش فانها لم تكن أكثر العرب ولا أمنعها في الجاهلية فتخوفنا • وأما ما ذكرت من الجُنة فان الجنة اذا اخترقت خلص الينا • فقال معاوية عرفتكم • الآن علمت ان الذي أغراكم على هذا قلة العقول • وأنت خطيب القوم ولا أرى لك عقلا • أعظِّم عليك أمر الاسلام وأذكرك به وتذكرني الجاهلية وقد وعظتك وتزعم لما يجنك أنه يخترق ولا ينسب ما يخترق الى الجُنة • أخزى الله أقواما أعظموا أمركم ورفعوا الى خليفتكم • افقهوا ولا أظنكم تفقهون ان قريشا لم تعز في جاهلية ولا اسلام إلا بالله عز وجل ولم تكن بأكثر العرب ولا أشدهم ولكنهم كانوا أكرمهم احسابا وأمحضهم أنسابا وأعظمهم أخطارا وأكملهم مروءة ولم يمتنعوا في الجاهلية والناس يأكل بعضهم بعضا الا بالله الذي لا يُستذلّ من أعز ولا يوضع من رفع فبوأهم حرما آمنا يتخطف الناس من حولهم . هل تعرفون عرباً أو عجما سودا أو حمرا الا قد أصابه الدهر في بلده وحرمته بدولة الا ما كان من قريش فانه لم يردهم أحد من الناس بكيد الاجعل الله خده الاسفل حتى أراد الله ان ينتقذ من اكرم واتبع دينه من هوان الدنيا وسوء مرد الآخرة فارتضى لذلك خير خلقه ثم ارتضى له أصحابا فكان خيارهم قريشا ثم بنى هذا الملك عليهم وجعل هذه الخلافة فيهم فلا يصلح ذلك الا عليهم

فكان الله يحوطهم في الجاهلية وهم على كفرهم بالله فتراه لا يحوطهم وهم على دينه وقد حاطهم في الجاهلية من الملوك الذين كانوا يدينونكم ؟ أف لك ولأصحابك . ولو أن متكلما غيرك تكلم ، ولكنك ابتدأت .

وأما أنت يا صعصعة فان قريتك شر قرى عربية أنتنها نبتاً وأعمقها وادياً وأعرفها بالشر وألأمها جيراناً . لم يسكنها شريف قط ولا وضيع الاسب بها وكانت عليه هجنة ثم كانوا أقبح العرب ألقابا وألأمه اصهارا نزاع الامم وأنتم جيران الخط وفعلة فارس . حتى أصابتكم دعوة النبي ﷺ ونكبتك دعوته وأنت نزيع شطير في عمان لم تسكن البحرين فتشركهم في دعوة النبي ﷺ فانت شر قومك . حتى اذا أبرزك الاسلام وخلطك بالناس وحملك على الامم التي كانت عليك أقبلت تبغي دين الله عوجا وتنزع الى اللآمة والذلة ولا يضع ذلك قريشاً ولن يضرهم ولا يمنعهم من تأدية ما عليهم . ان الشيطان عنكم غير غافل قد عرفكم بالشر من بين أمتكم فاغرى بكم الناس وهو صارعكم . لقد علم أنه لا يستطيع أن يردبكم قضاء قضاه الله ولا أمراً أراده الله ولا تدركون بالشر أمراً أبداً الا فتح الله عليكم شراً منه وأخزى . ثم قام وتركهم

سمع القوم قوله فتذمروا وتقاصرت اليهم نفوسهم . ثم جاءهم معاوية فقال لا والله لا ينفع الله بكم أحداً ولا يضره ولا أنتم برجال منفعة ولا مضرة ولكنكم رجال نكير . وبعد فان أردتم النجاة فالزموا جماعتكم وليسعكم ما وسع الدهماء ولا يبطرنكم الانعام فان البطر لا يعتري الخيار اذهبوا حيث شئتم فاني كاتب الى أمير المؤمنين فيكم

ولما أرادوا الخروج دعاهم وقال لهم : اني معيد عليكم ان رسول الله ﷺ كان معصوما فولاني وأدخلني في أمره ثم استخلف أبو بكر فولاني ثم استخلف عمر فولاني ثم استخلف عثمان فولاني . فلم أل لاحد منهم ولم يولني الا وهو راض عني

وانما طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم للاعمال أهل الجزاء عن المسلمين والغناء ولم يطلب لها أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها . وان الله ذو سطوات ونقمات بمكر بمن مكر به فلا تعرضوا لامور وأنتم تعلمون من أنفسكم غير ما تظهرون فان الله غير تارككم حتى يختبركم ويبدي للناس سرائركم وقد قال عز وجل « ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون »

ثم كتب معاوية الى عثمان يقول : انه قدم على قوم ليست لهم عقول ولا أديان أثقلهم الاسلام وأضجرهم العدل . لا يريدون الله بشيء ولا يتكلمون بحجة انما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم ومخزيهم وليسوا بالذين ينكون أحداً الا مع غيرهم فانْهَ سعيدا ومن قِبَلَه عنهم فانهم ليسوا لا كثر من شغب أو نكير

خرج بعد ذلك القوم من دمشق فقالوا لا ترجعوا الى الكوفة فانهم يشمتون بكم وميلوا بنا الى الجزيرة ودعوا العراق والشام فأووا الى الجزيرة وسمع بهم عبد الرحمن بن خالد بن الوليد . وكان على حمص فدعا بهم وقال يا آلة الشيطان لا مرحبا بكم ولا أهلا . قد رجع الشيطان محسوراً وأنتم بعدُ نِشاط . خسّر الله عبد الرحمن ان لم يؤدبكم حتى يحسركم . يا معشر من لا أدري أعرب أم عجم لا تقولوا لي ما يبلغني أنكم تقولون لمعاوية . أنا ابن خالد بن الوليد أنا ابن من عجمته العاجمات . أنا ابن فقيء الردة . والله لئن بلغني يا صعصعة بن ذل أن أحداً ممن معي دق انفك ثم امصك لاطيرن بك طَيْرَةً بعيدة المهوى . فاقامهم شهراً كلما ركب أمشام . فاذا مر به قال يا ابن الحطيئة أعلمت أن من لم يصلحه الخير أصلحه الشر ؟ مالك لا تقول ما كان يبلغني انك تقول لسعيد ومعاوية ؟ فيقول ويقولون . نتوب الى الله . اقلنا أقالك الله . فما زالوا به حتى قال تاب الله عليكم . وسرح الاشتر الى عثمان بالتوبة والندم والنزوع عنه وعن أصحابه وقال لهم ما شئتم فاخرجوا

وجاء الامر من عثمان باعادتهم الى الكوفة ولكنهم أشفقوا من ذلك فبقوا في الجزيرة

وفي تلك الاثناء فرق سعيد العمال والامراء فيما يليه من فارس فخلت الكوفة من الرؤساء والاشراف وأهل السابقة . وكان سعيد قد خرج الى عثمان فلم يفجأ الناس الا بهم قد عادوا الى بغيهم وفسادهم . فلما أراد سعيد العودة الى الكوفة تلقوه من الجرعة وردوه لايريدون دخوله عليهم أميرا . فعاد الى عثمان . فلم يغير من ارادة القوم وأرادوه على ان يولي عليهم أبا موسى الاشعري فنزل عند مايريدون وولى عليهم أبا موسى وصرف سعيداً عنهم

هكذا كانت الحال في الكوفة : غلب فيها الغوغا أهل الحلم ، وضعف سلطان الامراء ، وقلت الطاعة ولم يبق لها في قلوب القوم من أثر

البصرة

البصرة هي الحاضرة الثانية للعراق ولم تكن الحال فيها بأحسن من الحال في الكوفة ، فقد أوردنا فيما سبق تجنيهم على أبي موسى وعيبهم له حتى عزل واستبدل به عبد الله بن عامر . فكان له في أعمال الفتوح بالكوفة أثر جيد وكانت امارته تشمل أعمال البصرة وأعمال البحرين لثلاث سنين من امارته وقد بلغه ان في عبد القيس رجلا نازلا على حُكَيم بن جبلة . وكان حكيم رجلا لصا اذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى في أرض فارس فساداً ، فيغير على أهل الذمة ويتنكر لهم ويعبث في الارض ويصيب ما شاء ثم يرجع . فشكاه أهل الذمة وأهل القبلة الى عثمان فكتب الى عبد الله بن عامر يأمره بحبس حكيم ومن كان مثله بالبصرة فلا يخرجنّ منها حتى تأنسوا منه رشدا . فكان لا يستطيع أن يخرج عنها . فلما قدم ذلك الرجل المسمى عبد الله بن سبأ ويكنى بابن السوداء نزل عليه وكان يطرح للناس ولا يصرح

ويلقي اليهم تعاليم خبيثة . وأصل هـذا الرجل يهودي أظهر الاسلام ليضل الناس فصار يقول لهم : عجيب ممن يقول برجعة المسيح ولا يقول برجعة محمد . فيقبل منه الناس ذلك لانهم من الجهلة الذين لم يتحققوا بالدين ولم ينلهم تهذيب الصحبة ولم يروضوا أنفسهم على الاقتداء . ثم يقول لهم عجباً لكم أيهـا المسلمون ! يكون فيكم أهل بيت نبيكم ثم يقصون عن أمركم ؟ الى ما يماثل هذا الكلام الذي يسهل قبوله لانه جاءهم من قبل تعظيم نبيهم ورفعة مقامـه على سائر الانبياء ثم ما هو قريب من ذلك من استهجان ترك آله واقصائهم عن أمر خلافتـه . فنمى الى ابن عامر شيء من خـبره . فأحضره وسأله من أنت ؟ فقال : رجل من أهل الكتاب رغب في الاسلام ورغب في جوارك . فقال ما يبلغني ذلك فاخرج عني . فخرج حتى أتى الكوفة فأخرج منها فسار الى الشام ثم الى مصر . وهناك وجد مهداً وطيئاً وجواً صالحاً وثرى ثرِيا يجود فيه نبات بذره . بعد ان نفث ما نفث بالعراق فنما زرعه وأينع

كان حمران بن أبان تزوج امرأة في عدتها فنكل به عثمان وفرق بينهما وسيره الى البصرة فلزم عبد الله بن عامر فتذا كروا يوماً الركوب والمرور بعامر ابن عبد قيس وكان رجلا عابداً منقبضاً عن الناس على جانب من الصلاح والخير . فقال حمران : ألا اسبقكم فأخبره ؟ فخرج فدخل عليه وهو يقرأ في المصحف ، فقال : الأمير أراد أن يمر بك فأحببت أن أخبرك ، فلم يقطع قراءته ولم يقبل عليه . فقام من عنده خارجا . فلما انتهى الى الباب لقيه ابن عامر . فقال : جئتك من عند امريء لا يرى لآل ابراهيم عليه فضلا . واستأذن ابن عامر فدخل عليه وجلس اليه فأطبق عامر المصحف وحدثه ساعة . فقال له ابن عامر : ألا تغشانا ؟ فقال : سعدُ بنُ أبي العوجاء يحبُّ الشرف . فقال : ألا نستعملك ؟ فقال : حصين ابن أبي الحر يحب العمل . فقال : ألا نزوجك ؟ فقال : ربيعة بن عِسْل يعجبه

النساء . فقال ابن عامر : ان هذا يزعم أنك لا ترى لآل ابراهيم عليك فضلا ؟ فصفح المصحف ، فكان أول ما وقع عليه وافتتح منه « ان الله اصطفى آدم ونوحا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين »

فلما رُدَّ حمران الى المدينة تتبع ذلك منه فسمى به وشهد له أقوام . فسيره عثمان الى الشام ، وكان ما سعوا به عند عثمان أنه لا يرى التزويج ولا يأكل اللحم ولا يشهد الجمعة وكان مع عامر انقباض وكان عمله كله خفية . فلما قدم على معاوية وافقه وعنده ثريدة فأكل أكلا عربياً ، فعرف أن الرجل مكذوب عليه . فقال معاوية : يا هذا هل تدرى فيم أخرجت ؟ قال : لا . قال : أُبلغ الخليفة أنك لا تأكل اللحم ورأيتك وعرفت أن قد كذب عليك ، وانك لا ترى التزويج ، ولا تشهد الجمعة . قال : أما الجمعة فاني أشهدها في مؤخر المسجد ثم أرجع في اوائل الناس ، وأما التزويج فاني خرجت وانا يخطب علي . وأما اللحم فقد رأيتَ ولكنني كنت امرءاً لا آكل ذبائح القصابين منذ رأيت قصابا يجر شاة الى مذبحها ثم وضع السكين على مذبحها فما زال يقول النَّفاق حتى وجبت . فقال : فارجع . فقل : لا أرجع الى بلد استحل أهله مني ما استحلوا ، ولكنى أقيم بهذا البلد الذي اختاره الله لي

مصر

أما الامر في مصر فكان اشد منه في العراق . فان عبد الله بن سبأ لما جاء اليها ألقى بذور فتنته وأذاع بين الناس تعاليمه ، بعد أن استفسد كثيراً من أهل البصرة والكوفة ، وخاب أمله من أهل الشام ، فكان يقول لهم فيما يقول : لعجب ممن يزعم أن عيسى يرجع ويكذب بأن محمداً يرجع والله تعالى يقول « ان الذي فرض عليك القرآن لرادك الى معاد » فمحمد أحق بالرجوع من عيسى . فقبل ذلك عنه

وبذلك وضع لهم الرجعة فتكلموا فيها بالأخذ والرد طبعاً . ثم قال لهم بعد ذلك انه كان الف نبي ولكل نبي وصي وكان علي وصيَّ محمد . ثم قال : محمد خاتم الانبياء وعلي خاتم الاوصياء ، ثم قال بعد ذلك : من أظلم ممن لم يجز وصية رسول الله ﷺ ووثب على وصي رسول الله ﷺ وتناول أمر الامة . ثم قال لهم بعد ذلك : ان عثمان أخذ الخلافة بغير حق ، وهذا وصي رسول الله ، فانهضوا في هذا الامر فحركوه وابدءوا بالطعن على أمرائكم واظهروا الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم الى هذا الامر . فبث دعاته وكاتب من كان استفسد في الامصار وكاتبوه . ودعوا في السر الى ما عليه رأيهم . وجعلوا يكتبون الى الامصار بكتب يضعونها في عيب ولاتهم ويكاتبهم اخوانهم بمثل ذلك ويكتب أهل كل مصر منهم الى مصر آخر بما يصنعون فيقرؤه أولئك في أمصارهم وهؤلاء في أمصارهم حتى تناولوا بذلك المدينة وأوسعوا الأرض اذاعة وهم يريدون غير ما يظهرون ويسرون غير ما يبدون. فيقول أهل كل مصر : إنا لفي عافية مما ابتلى به هؤلاء . إلا أهل المدينة فانهم جاءهم ذلك عن جميع الامصار فقالوا إنا لفي عافية مما فيه الناس

المدينة مجتمع المهاجرين والانصار ومركز الخلافة ، ووجوه أهل الامصار انما تتجه بالشكاية في المهمات اليها ويعولون على أهلها في ازاحة ما بهم من غمة وتفريج ما لحقهم من كرب ، وأهل المدينة يحسون بذلك من أنفسهم ومن أهل الامصار . فلا غرو ان حرك ذلك من نفوسهم ودفعهم ذلك الى مخاطبة أمير المؤمنين عثمان بما دخل على الناس من عماله مما شرحته الشكوى من كل ناحية وصوب ـ فقالوا يا أمير المؤمنين أيأتيك عن الناس ما يأتينا ؟ قال : لا، والله ما جاءني إلا السلامة . فقالوا : انا قد جاءنا كيت . وكيت وأخبروه بالذي أسقطوا اليهم . فقال : أنتم شركائي وشهود المؤمنين فأشيروا علي . فقالوا نشير عليك ان تبعث رجالا ممن تثق بهم الى الامصار حتى يرجعوا اليك باخبارهم

رأى عثمان صواب ما أشاروا به . فدعا محمد بن مَسلمة فأرسله الى الكوفة وأرسل أسامة بن زيد الى البصرة وأرسل عمار بن ياسر الى مصر وعبد الله ابن عمر الى الشام وفرق رجالا سواهم في جهات أخرى ، فذهب كل رجل لطيته ثم رجعوا جميعا قبل عمار وقالوا : أيها الناس ما أنكرنا شيئا ولا أنكره اعلام المسلمين ولا عوامهم . وقالوا جميعا الأمر أمر المسلمين . الا ان أمراءهم يقسطون بينهم ويقومون عليهم . واستبطأ الناس عمارا حتى ظنوا أنه اغتيل . فلم يفجأهم الا كتاب من عبد الله بن أبي سرح يخبرهم ان عمارا قد استماله قوم بمصر وقد انقطعوا اليه . منهم عبد الله بن السوداء وخالد بن ملجم وسُودان بن حمران وكنانة بن بشر . وكان كنانة من المؤلبين على عثمان

أقول : أما أشد المؤلبين على عثمان بمصر . فهما رجلان : أحدهما محمد بن أبي حذيفة ، وكان الذي أغراه بذلك أنه كان يتيما في حجر عثمان فكان عثمان والي أهل بيته ومحتمل كلهم . فسأل محمد عثمان العمل حين ولي ، فقال : يابني لو كنتَ رضا ثم سألتني العمل لاستعملتك ولكن لست هناك . قال فاذن لي فلأخرج فلأطلب ما يقوتني . قال اذهب حيث شئت . وجهزه من عنده وحمله وأعطاه . فلما وقع الى مصر كان فيمن تغير على عثمان ان منعه الولاية . ولا يبعد ان يكون لتولية عبد الله بن عامر أثر في زيادة حقده على عثمان وايغاله في بغضه والكيد له

ثانيهما محمد بن أبي بكر ـ ومحمد بن أبي بكر من الاسلام بالمكان العظيم غير أنه قد غره أقوام فطمع وكانت له دالة بمكان أبيه من رسول الله وسابقته وخلافته واخوة عائشة أم المؤمنين . فلزمه حق فأخذه عثمان من ظهره ولم يدهن فاجتمع محمد بن أبي حذيفة الى محمد بن أبي بكر وقد ألف بينهما بغض عثمان ومكن بينهما الصداقة

وأول ماظهر ذلك منهما حين ركب الناس البحر سنة ٣١ في غزوة

ذات الصواري وسيأتي خبرها . اذ صلى عبد الله بن أبي سرح بالناس العصر ، فكبر محمد بن أبي حذيفة تكبيراً رفع صوته به حتى فرغ عبد الله بن سعد من صلاته فقال له : ماهذه البدعة والحدث ؟ فقال محمد بن أبي حذيفة : ماهذه بدعة ولا حدث وما بالتكبير بأس . فقال : لا تعودن . فلما صلى المغرب عاد فكبر بصوت ارفع . فارسل اليه: انك لغلام احمق ، اما والله لولا اني لا ادرى مايوافق امير المؤمنين لقاربت بين خطوك(يريد تقييده) . فقال محمد بن ابي حذيفة :والله مالك الى ذلك سبيل ولو هممت به ماقدرت عليه . قال فكف خير لك . وركب محمد في مركب ليس فيه معه مسلم وانما فيه القبط وركب معه فيه محمد بن ابي بكر

فلما اذن الله بهزيمة الروم ورجع المسلمون جعل محمد بن ابي حذيفة يقول للرجل أما والله لقد تركنا خلفنا جهادا . فيقول الرجل وأي جهاد ؟ فيقول : عثمان ابن عفان فعل كذا وكذا . وأظهر هو ومحمد بن ابي بكر عيب عثمان وما غير وما خالف به ابا بكر وعمر وان دم عثمان حلال . ويقولان : استعمل عبد الله بن سعد رجلا كان رسول الله ﷺ اباح دمه ونزل القرآن بكفره وأخرج رسول الله ﷺ قوما وأدخلهم .أو نزع اصحاب رسول الله واستعمل سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر - وكانا حين التقى الجمعان انكل المسلمين في القتال . فقيل لهما في ذلك . فقالا كيف نقاتل مع رجل لاينبغي لنا أن نحكمه ؟ عبد الله بن ابي سرح استعمله عثمان وعثمان فعل وفعل . فافسدا أهل الغزاة . وعلم بذلك عبد الله بن سعد فارسل ينها هما اشد النهي

اما سبب ميل عمار بن ياسر الى المؤلبين على عثمان والطاعنين فيه فانه كانت عنده موجدة على عثمان . سببها انه كان بينه وبين عباس بن عتبة بن ابي لهب كلام أدى الى تقاذفهما . فضربهما عثمان على ذلك . وقليل من كان في قلبه موجدة على انسان ثم لايصيخ الى القول فيه والعيب له

الشام

اما الحال في الشام فقد كانت احسن منها في هذه الامصار التي ذكرنا ـ ذلك ان معاوية من الحزم والضبط بالمكان الذي لايجهل. ومثل بضاعة ابن السوداء لاتجد نفاقا تحت رعايته واذا وجدت فانه يعاجل الداء بحسمه

كان بالشام حادثة استغلها الثوار المؤلبون فى التشنيع على عثمان والتاريث له ولعماله. غير ان معاوية استأصل الداء من ناحيته ونحى عنه ما ابتلى به غيره من العمال. ولذلك بقي أهل ولاياته الوسعة على طاعته والولاء له ملقين اليه بالمقاليد يصرفهم كما يهوى وهم لايخالفون عن امره ولا يرغبون بانفسهم عن نفسه ولم تخبث نفوسهم بما خبثت نفوس الناس في الامصار

ذلك أن ابن السوداء لما جاء الى الشام ، وهو من الخُبث والدهاء بحيث يعرف مأتي الامور ويأتي الى كل شيء من بابه ويفضى الى كل رجل بما يغلب على ظنه انه يوافقه. فهو انما يجيء الى الناس بدسائسه من الجانب الضعيف الذي يأنسه فيهم ـ ومعلوم أن اباذر رضى الله عنه كان رجلا صالحا تقيا متقشفا لايحب الامساك ولا يميل الى الادخار ذا شفقة على الفقير والمسكين. فجاء اليه ابن السوداء وقال له: يا اباذر ، الا تعجب من معاوية يقول المال مال الله ـ الا ان كل شيء لله. كانه يريد ان يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين. فجاء ابو ذر الى معاوية فقال مايدعوك الى ان تسمى مال المسلمين مال الله ؟ قال يرحمك الله يا ابا ذر ألسنا عباد الله ؟ والمال ماله والخلق خلقه والامر امره ؟ قال فلا تقله. قال فاني لا اقول انه ليس لله ولكن سأقول مال المسلمين. وأتى ابن السوداء ابا الدرداء ـ فقال له: من انت. اظنك

والله يهوديا - فاتى عبادة بن الصامت • فتعلق به وأتى به معاوية . فقال هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر . وقام أبو ذر بالشام وجعل يقول : يا معشر الاغنياء واسوا الفقراء . بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكاو من نار تكوي بها جباههم وجنوبهم وظهورهم فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأجبوه على الاغنياء . وحتى شكا الاغنياء ما يلقون من الناس

فكتب معاوية الى عثمان أن أبا ذر قد أعضل بي وقد كان من أمره كيت وكيت . فكتب اليه عثمان : ان الفتنة قد اخرجت خطمها وعينيها فلم يبق الا أن تثب فلا تنكأ القرح . وجهز أباذر الي وابعث معه دليلا وزوده وارفق به وكفكف الناس ونفسك مااستطعت . فانما تمسك الامر ما استمسكت فبعث بابي ذر ومعه دليل . فلما قدم المدينة ورأى المجالس في أصل سلع • قال بشر أهل المدينة بغارة شعواء وحرب مذكار . ولما دخل على عثمان قال له يا أبا ذر . ما لاهل الشام يشكون ذَرَبَك • فاخبره أنه لا ينبغي أن يقال مال الله • ولا ينبغي للاغنياء أن يقتنوا مالا : فقال : يا أبا ذر ، عليّ أن أقضي ما علي • وآخذ ما على الرعية ولا أجبرهم على الزهد ، وأن ادعوهم الى الاجتهاد والاقتصاد • قال أفتأذن لى في الخروج . فان المدينة ليست لى بدار قال أوتستبدل الاشرا منها ؟ قال أمرني رسول الله ﷺ أن أخرج منها اذا بلغ البناء سلعا . قال فانفذ ما أمرك به . فخرج أبو ذر حتى نزل الربذة فخط بها مسجداً وأقطعه عثمان صرمة من الابل . وأعطاه مملوكين وأجرى عليه كل يوم عطاء وأرسل اليه أن تعاهد المدينة حتى لا ترتد اعرابيا - وذلك أنه كان الامر في المسلمين على ان من سكن المدينة حرم عليه التبدي لما في ذلك من تقليل سواد المسلمين وهجر العلم بالدين والانغماس مع الاعراب الجفاة الغلاظ الا كباد مع بعدهم عن الدين ومذاهبه وجهلهم بحلاله وحرامه وقد مكث ذلك الامر فيهم دهراً طويلا يرون ذلك . ولولا ما رواه أبو ذر من حديث رسول الله لم يرخص له عثمان في ذلك

وقد روى الطبري سوى ما قدمنا أن أبا ذر كان يختلف الى المدينة من الربذة مخافة الاعرابية وكان أبو ذر يحب الوحدة والخلوة . فدخل على عثمان وعنده كعب الاحبار . فقال لا ترضوا من الناس بكف الاذى حتى يبذلوا المعروف وقد ينبغي للمؤدي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتى يحسن الى الجيران والاخوان ويصل القرابات . فقال كعب الاحبار : من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه . فقال له أبو ذر : يا ابن اليهودية ما أنت وما ها هنا ؟ والله لتسمعن مني أو لادخلن عليك . ورفع محجنه فضربه فشجه . فاستوهبه عثمان فوهبه له . وقال يا أبا ذر اتق الله واكفف يدك ولسانك

ان الناظر الى أبي ذر . وهو أول قائل بالاشتراكية في الاسلام يراه قد اوغل فيها شوطا بعيداً وانتظم ما بين بابها ومحرابها في خطوة واحدة . قال صاحب أشهر مشاهير الاسلام: على ان التوسط في هذا المذهب هو المطلوب وليس هو فوق طاقة النفوس كما يتخيله بعض الشرهين في المال المغالين في حب الذات فلو استمسك المسلمون بعروته وحملهم الخلفاء على طريقته لكانوا اعز الامم جانبا واسعدها حالا . اذ خلق التعاون على البر اذا نشأ بنشوء الامة وتمكن من نفوسها يصير مع الزمن ملكة راسخة في الصدر تنمو بنمو الحياة القومية اه

والذي أراه ان أبا ذر عمد الى طريقته الاشتراكية غير مبين حدودها ولا معالمها ـ وطريقة كهذه ربما كان اثمها أكبر من نفعها . لان اصحاب الجد والعمل يسعون ويكدون ويتعبون اجسامهم وعقولهم ثم لا ينالهم من عملهم الا كما يناله الكسول المريح . لا يمكن ان يقبل هذا عاقل ولا ترتاح له نفس عمراني

وقد جاء في شخوص أبي ذر من الشام الى المدينة ثم الى الربذة روايات أضرب الطبري وابن الاثير عن روايتها وسار على ذلك محققو المؤرخين علما منهم بضعف تلك الروايات ـ وقد توفي أبو ذر رضي الله عنه بالربذة سنة ٣٢ هـ وكان

قد أقام بها ثلاث سنين وقد حضر دفنه جماعة من أصحاب رسول الله فيهم ابن مسعود

أما الحال في المدينة فقد كانت أشد . فان تلك الكتب التى كان رسلها السبئيون كانت سبباً لكثرة الحديث في شأن عمال عثمان وفشو القالة حتى تأثرت بذلك نفوس الكثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وفيهم الحاقد على عثمان لاسباب تخصه والكاره لمكانه . حتى كأن هذه الكتب كانت النار وافقت الحلفاء. وقد بلغ الامر ببعضهم ان واجه عثمان بما يسوءه فكان يتجاوز لهم عن ذلك ويصبر وسيمر بنا شيء من ذلك

ابتداء العمل فى الفتنة

كان ما تقدم اذاعة باللسان واشاعة للسوء بالمكاتبات بين الموتورين والساخطين والموضعين في الفتنة . فلما اختمرت فكرة الشغب في النفوس بدأت تظهر بالعمل . وكان بدء ذلك ان سعيد بن العاص ذهب من الكوفة الى المدينة وقد تفرق رؤساء الناس وأشرافهم في بلاد فارس الى أعمالهم وخلت الكوفة منهم . فانتهز يزيد بن قيس ذلك وجاء المسجد وهو يريد خلع عثمان فانقض عليه القعقاع ابن عمرو فأخذه ويزيد يقول انما نستعفى من سعيد ، فقال هذا ما يعرض لكم فيه لا تجلس لهذا ولا يجتمعن' اليك واطلب حاجتك فلعمري لتعطينها . فجلس في بيته واستأجر رجلا وأعطاه بغلا وكتب الى القوم الذين بالجزيرة — لا تضعوا كتابي من أيديكم حتى تجيئوا . فأبوا فى أول الامر حتى خرج مالك بن الحارث الاشتر عاصياً الى الكوفة . فلما رأوا ذلك منه لحقوا به يريدون الكوفة فقدمها قبلهم ولم يشعر الناس إلا وهو على باب المسجد في يوم جمعة يقول : أيها الناس اني قد جئتكم من عند أمير المؤمنين عثمان وتركت سعيداً يريده على نقصان نسائكم الى مائة درهم ورد أهل البلاء منكم الى الفين . ويقول ما بال أشراف النساء وهذه

الملاوة بين هذين العدلين ؟ ويزعم أن فيأكم بستان قريش ٠ وقد سايرته مرحلة فما زال يرجز بذلك حتى فارقته يقول :

ويل لاشراف النساء مني صمحمح كأنني من جن

فاستخف الناس بذلك وجمل أهل الحجى والرأي ينهونهم فلا يسمع منهم وأمر يزيد بن قيس مناديا ينادي من شاء أن يلحق بسعيد بن قيس لرد سعيد وطلب أمير غيره فليفعل

وقام عمر بن حريث خليفة سعيد يعظ الناس ويسكنهم فلم يسمعوا لقوله وقال له القعقاع ابن عمرو : أترد السيل عن عبابه . فاردد الفرات عن ادراجه . هيهات ، لا والله لا تُسَكّن الغوغاء الا المشرفية ويوشك أن تنتضي ثم يعجون عجيج العتدانِ ويتمنون ما هم فيه فلا يرده الله عليهم أبداً

خرج القوم الى الجرعة كما قدمنا ثم قدم سعيد ومعه مولى له فوجد القوم يناهزون الالف . فقالوا له : لا نريد أن تدخل علينا واليا . فقال لهم هل يخرج الالف لهم عقول الى رجل واحد ؟ انما كان يكفي أن ترسلوا لي رجلا والى أمير المؤمنين رجلا واحداً ثم رجع وقد قتلوا مولاه . وأخبر عثمان بالذي كان منهم فقال : فمن يريدون ؟ قال : أبا موسى . فقال : قد أثبتنا أبا موسى عليهم ووالله لا نجعل لاحد عذرا ولا نترك لهم حجة ولنصبرن كما أمرنا حتى نبلغ ما يريدون

وفي رواية للطبرى : أنه اجتمع ناس من المسلمين فتذاكروا أعمال عثمان وما صنع فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا اليه رجلا يكلمه ويخبره باحداثه . فأرسلوا اليه عامر بن عبد الله التميمي الذى يعرف بعامر بن عبد قيس فأتاه فدخل عليه وقال : ان ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا في أعمالك فوجدوك قد ركبت أمورا عظاماً فاتق الله عز وجل وتب اليه وانزع عنها . فقال عثمان : انظروا الى هذا فان الناس يزعمون أنه قارىء ثم يجيء فيكلمني في المحقرات فوالله ما يدري أين الله . فقال عامر : أنا لا أدرى أين الله ؟ قال : نعم والله ما تدري أين الله . قال عامر :

بلى والله انى لادرى أن الله بالمرصاد لك

بعد ذلك ارسل عثمان الى عماله وبعض من معه من غيرهم ليؤامرهم في هذه الاذاعات التى ازعجته وصيرت اهل المدينة بين المقيم المقعد ـ فاستقدم معاوية ابن ابي سفيان وعبد الله بن سعد بن ابي سرح وسعيد بن العاص (كان بالمدينة) وعبد الله بن عامر . وعمرو بن العاص (وكان بالمدينة) فجمعهم ليشاورهم في امره وما طلب اليه . وما بلغه عن عماله منهم ـ وقال لهم ان لكل امرىء وزراء ونصحاء وانكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى . وقد صنع الناس ماقد رأيتم وطلبوا الى ان اعزل عمالى وان أرجع عن جميع مايكرهون الى مايحبون فاجتهدوا رايكم . فقال عبد الله بن عامر : رأيي لك يا أمير المؤمنين ان تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك وأن تجمرهم في المغازي حتى يذلوا لك فلا يكون همة أحدهم الا نفسه وما هو فيه من دبر دابته وقمل فروته (ونعم الرأي رأيه) . ثم أقبل عثمان على سعيد بن العاص فقال له : ما رأيك ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ان كنت تريد رأينا فاحسم عنك الداء واقطع عنك الذي تخاف واعمل برأيي تصب . قال وما هو ـ قال ان لكل قوم قادة متى تهلك يتفرقوا ولا يجتمع لهم أمر (يريد ان ينكل برؤوس أهل الفتن) فقال عثمان : هذا هو الرأى لولا ما فيه . ثم قال لمعاوية مارأيك ؟ قال ياأمير المؤمنين ماأرى ان ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم وأنا ضامن لك قبلى . ثم قال لعبد الله بن سعد ما رأيك ؟ فقال : أرى ياأمير المؤمنين أن الناس أهل طمع فاعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم (وهو حق لو اتسع له بيت المال) ثم قال لعمرو بن العاص ما رأيك ؟ قال أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون . فاعتزم ان تعتدل فان أبيت فاعتزم ان تعتزل . فان أبيت فاعتزم عزما وامض قدماً ـ فقال عثمان مالك قمِلَ فروُك ، أهذا الجد منك ؟ فسكت عمرو عنه حتى اذا تفرق القوم . قال له لا والله ياأمير المؤمنين لأنت أعز على من ذلك ولكني علمت ان سيبلغ

الناس قول كل رجل منا . فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى . فأقود اليك خيراً أو أدفع عنك شراً

والذي أعتقده أن مبدأ احساس القوم بضعف عثمان الكتاب الذي كتبه الى أهل الكوفة حين استعفوه من سعيد بن العاص وردوه من الجرعة وقتلوا مولاه وطلبوا أبا موسى واليا عليهم فكتب اليهم عثمان « بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فقد أمَّرْتُ عليكم من اخترتم وأعفيتكم من سعيد . والله لأفرشنكم عرضي ولأبذلن لكم صبري ولأستصلحنكم بجهدي فلا تدعوا شيئا أحببتموه لا يعصى الله فيه إلا سألتموه ولا شيئا كرهتموه لا يعصى الله فيه الا استعفيتم منه أنزل فيه عند ما أحببتم حتى لا يكون لكم على حجة » وكتب بمثل ذلك الى الامصار وهي نغمة جديدة لم يسمع الناس مثلها من عمر بن الخطاب جاءت على أثر شكوى وتذمر . قد تؤثر في الكريم ولكن اللئيم يعتدها ضعفا يزيده ضراوة على الفتنة وولوعا بإشاعة السوء واذاعته . فهو زلة من عثمان يغفر الله له - وكتاب مفتوح يعلن فيه ضعفه ووهن قوته فلا غرو ان اجترأوا عليه بعده بما اجترأوا

قبل سرد ما حصل في شأن الفتنة بما سأسرده أحب أن أدلى بكلمة تنير الموضوع وتلقى عليه شعاعا من الجلاء والوضوح :

مما جرت به سنة الوجود أن أي بلد من البلاد أو مصر من الامصار لا يخلو من أناس محدودين مغموسين في الناس لم يتهيأ لهم الظهور ولم يوفقوا لأن يكونوا من أرباب الثراء وهم يزنون أنفسهم بغير ميزانهم ويقدرون لأنفسهم ثمنا لا يسومهم الناس بعشر معشاره . فهم راضون عن أنفسهم كل الرضا ساخطون على من عداهم يَتَبَرَّمُونَ بالفَلَك ويتسخطون على القدر . ولا ينسبون تأخرهم لعيب فيهم أو نقص في استعدادهم لتسنم المعالى . ولكنهم يَعْمِدُون الى الدولة والقائمين بها يستذنبونهم في تأخرهم ويلزمونهم جناية فقرهم وعدمهم واناة الجد لهم . فهم يتمنون

تغيير الدولة ويستبطئون أحداث الاستبدال من أهلها ويتكهنون حؤول الاحوال ويوقتون لذلك المواقيت ويتربصون نزول الدوائر لانهم يستروحون ريح الفرج من ناحية التقليب ويرون أن حظهم لا يطلق من وَثاقه الا اذا سقط الامير القائم وقام غيره ممن يمتون اليه بالوسائل قبل الولاية

اذا لم يكن للمرء في دولة امرئ   نصيب ولاحظ تمنى زوالها
وما ذاك من بغض له غير انه   يرجى سواها فهو يهوى انتقالها

ومن كانوا كذلك يكون لهم ولوع باشاعة الاشاعات الرديئة واذاعة أنباء السوء وتثبيت الظنون وتوهين اليقين واستفزاز من يمكن استفزازه الى احداث الفتن وتعجيل التغيير والتقرب الى من يظن فيه القدرة على ذلك

ولا يخلو الحال من ان يكون بالمدينة قوم على هذه الشريطة ينفخون في كل نار، كلما خبت زادوها سعيرا . ويزيد نيران حقدهم اشتعالا ما يرونه من اختصاص ذوى السلطان غيرهم من أهل البلاء والغناء في نظرهم بالتأمير على الامصار وتقليدهم العمالات وهم قابعون في انكسار بيوتهم . وقد كان لهم في بعض ما يؤخذ على عثمان حجة يستترون وراءها

اذا تمهد هذا فليس من البعيد ان تكون اذاعات هذا الضرب من الناس واشاعاتهم قد بلغت من الكثرة في المدينة حدا غير قلوب اصحاب رسول الله على عثمان حتى تكاتبوا مع الخارجين عن المدينة يقولون لهم : ان اقدموا علينا فان كنتم تريدون الجهاد فعندنا الجهاد ، وكثر الناس على عثمان ونالوا منه اقبح مانيل من احد ، واصحاب رسول الله يرون ويسمعون وليس فيهم احد ينهى ولا يذب الانفرا : زيد بن ثابت، وأبو اسيد الساعدي، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت . فاجتمع الناس وكلموا على بن أبي طالب . فدخل على عثمان فقال : الناس ورائى وقد كلمونى فيك . والله ما أدري ما أقول لك وما أعرف شيئاً تجهله ولا

ادلك على أمر لا تعرفه. انك لتعلم مانعلم. ماسبقناك الى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بشيء فنبلغكه وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيتَ وسمعت وصحبت رسول الله ﷺ ونلت صهره وما ابن أبي قحافة بأولى بعمل الحق منك ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من الخير منك وأنت أقرب الى رسول الله ﷺ رحماً. ولقد نلت من صهر رسول الله مالم ينالا ولا سبقاك الى شيء. فالله الله في نفسك فانك والله ما تُبَصَّرُ من عمى ولا تعلَّم من جهل وان الطريق لواضح بيّن وان أعلام الدين لقائمة. تَعَلَّمْ ياعثمان أن أفضل عباد الله عند الله امامٌ عادل هُدِيَ وَهَدى فأقام سنة معلومة وامات بدعة متروكة فوالله ان كُلاً لبيِّن وان السنن لقائمة لها اعلام وأن البدع لقائمة لها أعلام وان شر الناس عند الله امامٌ جائرٌ ضل وضُلَّ به فامات سنة معلومة واحيا بدعة متروكة. واني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يؤتى يوم القيامة بالامام الجائر وليس له نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم فيدور كما تدور الرحى ثم يرتطم في غمرة جهنم ». واني أحذرك الله واحذرك سطوته ونقماته فان عذابه شديد اليم، واحذرك ان تكون امام هذه الامة المقتول: فأنه يقال يقتل في هذه الامة امام فيفتح عليها القتل والقتال الى يوم القيامة وتُلبَّس أمورها عليها ويتركهم شيعا فلا يبصرون الحق لعلو الباطل يموجون فيها موجا ويمرجون فيها مرجا

سمع عثمان ذلك الكلام فقال: قد والله علمت ليقولُنَّ الذي قلت. اما والله لو كنت مكاني ماعنفتك ولا اسلمتك ولا عبت عليك ولا جئت منكرا أن وصلت رَحما وسددت خَلَّة وآويت ضائعا ووليت شبيها بمن كان عمر يولى. أنشدك الله ياعلى هل تعلم أن المغيرة بن شعبة ليس هناك؟ قال نعم. قال فتعلم ان عمر ولاه؟ قال نعم: قال فلم تلومنى ان وليت ابن عامر في رحمه وقرابته؟ قال على سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فانما يطأ على صِمَاخِه. ان بلغه

حرف جلبه ثم بلغ به اقصى الغاية . وأنت لا تفعل - ضعفت ورفقت على أقربائك - قال عثمان : هل تعلم ان عمر ولى معاوية خلافته كلها . فقد وليته . فقال علي . أنشدك الله : هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من يرفأ غلام عمر منه ؟ قال نعم . قال علي: فان معاوية يقتطع الامور دونك وأنت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية • ثم خرج علي من عنده

اذا كان مافي رواية هذا الحديث صحيحاً (وهي رواية الواقدي نقلها الطبري وتابعه عليها ابن الاثير) فان عثمان لاحجة له فيما يقول - ذلك أن الولاية انما يقصد بها مصلحة المسلمين وكفاية المهم من امورهم في الناحية التى يكون بها الوالى • اما كون الولاية يقصد بها صلة الرحم وسد خلة ذي الخلة وايواء الضائع من اقارب الخليفة وذوي رحمه • فلا يمكن أن يوافق عليها أحد • ولقد كان فى بنى عدي ومن هم من ذوى انساب عمر دنيا ضائعون وذو وخلة لهم رحم ماسة وعرق واشجة ، فلم يشأ عمر ايثارهم لقرابتهم او رحمهم ولا لأي اعتبار آخر • وهؤلاء عمال رسول الله ما كان يختارهم من ذوي قرابته ولا يؤثرهم ابتغاء صلة الرحم في الاعمال - التى يشترط فيها قبل كل شيء الكفاءة - ولست بهذا أقصد عيب العمال في أعمالهم أو أنتقص من كفاءتهم . وانما أحاكم جواب عثمان لعلى فيما أجاب به فأنه جواب أراه غير سديد

ولا يفوتنى قبل أن أترك هذا المقام أن اذكر مايخالج نفسي امام هذه العوامل التى كانت تأخذ عثمان من كل ناحية - ذلك أن عثمان كان رجلا سليم القلب طاهر الضمير بعيدا عن الخب والنفاق وسوء الظن بالناس • فكان حسن الظن بأقاربه وذوي رحمه ثم انضاف الى هذا رقة قلبه وشدة حنانه عليهم وحبه لنفعهم واستيقانه بانهم يعاونونه على أمره ويوازرونه على سياسة الرعية وأنهم خير من يقوم له بذلك لحبهم له وعطفهم عليه - كان منه ذلك في الوقت الذي خمدت فيه جَمْرَةُ الشباب وانطفأت وقدة الحداثة وقد رهقه ضعف الشيخوخة واستولى

عليه تهاون أهل الحرم وتسامحهم واستصغارهم للامور وان جلت . فأورث ذلك في انفس الناس شيئا كثيرا

فان الصحابة كانوا يرونه يتخطى رقابهم بالاعمال ويوليها ذوي قرابته وفيهم الاحداث ومن لم تقدمهم السن . وفي أبناء الصحابة وأهل السابقة من يرى لنفسه ويرى له أبوه وغير أبيه الاولوية على من يقدم من أقاربه : فأحفظ ذلك عليه القلوب وسهل على الناس سماع الاذاعات وتصديق الاشاعات . فكانت عصارة ذلك ازدياد الجرأة عليه وعيبهم له جهارا بعد أن كان ذلك خفية . ولم يكن لعثمان جواب مسكت فيما يرد به عن نفسه . فكان احتجاجه لعمله ودفاعه عنه داعية زيادة الاضطغان عليه لانه غير كاف ولا شاف

خرج عثمان على أثر خروج علي بعد انتهاء الحديث الذي قدمنا فجلس على المنبر ، فقال : اما بعد فان لكل شيء آفة ، ولكل أمر عاهة ؛ وان آفة هذه الامة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يرونكم ماتحبون ويسرون ماتكرهون يقولون لكم وتقولون ، أمثال الغنم يتبعون أول ناعق أحب مواردها اليها البعيد . لايشربون الا نغصا ولا يردون الا عكرًا لا يقوم لهم رائد . وقد اعيتهم الامور وتعذرت عليهم المكاسب . الا فقد والله عبتم علي بما اقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدنتم له على ما احببتم أو كرهتم - ولنتُ لكم وأوطأت لكم كنفي وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم علي . أما والله لانا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا واقمن ان قلت هلم اني الي . ولقد اعددت لكم اقرانكم وأفضلت عليكم فضولا وكشرت لكم عن نابي وأخرجتم مني خلقا لم اكن احسنه ومنطقا لم انطق به . فكفوا عليكم السنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم فاني قد كففت عنكم من لو كان هو الذي يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقي هذا . الا فما تفقدون من حقكم ؟ والله ماقصرت في بلوغ ما كان يبلغ من كان قبلي ومن لم تكونوا تختلفون

عليه . فضلَ فَضلْ من مال . فمالي لا اصنع في الفضل ما اريد ؟ فلم كنت أماما ؟ فقام مروان فقال : ان شئتم حكمنا والله بيننا و بينكم السيف نحن والله وأنتم كما قال الشاعر :

فرشنا لكم اعراضنا فنبت بكم معارسكم تبنون في دمن الثرى

فقال عثمان اسكت لا سُكِّتَ. دعني واصحابي ما منطقك في هذا ؟ الم اتقدم اليك ان لاتنطق . فسكت مروان

وقد اورد الطبري من رواية سيف عن شيوخه ان معاوية قال لعثمان غداة ودّعهُ وخرج : يا امير المؤمنين انطلق معي الى الشام قبل أن يهجم عليك من لاقبل لك به فان أهل الشام على الامر لم يزالوا . فقال : انا لاأبيع جوار رسول الله ﷺ بشيء وان كان فيه قطع خيط عنقي . قال فأبعث اليك جندا منهم يقيم بين ظهراني أهل المدينة لنائبة ان نابت المدينة اوأياك . قال انا اقتر على جيران رسول الله ﷺ الارزاق بجند يساكنهم واضيق على أهل دار الهجرة والنصرة ؟ قال والله ياامير المؤمنين لتغتالن أو لتغزين . قال حسبي الله ونعم الوكيل

فلما خرج معاوية يريد السفر ، فاذا هو بنفر من المهاجرين فيهم طلحة والزبير وعلي . فقام عليهم : متوكئاً على قوسه وبعد أن سلم قال : انكم قد علمتم أن هذا الامر كان اذ الناس يتغالبون الى رجال فلم يكن منكم احد الاوفي فصيلته من يرأسه ويستبد عليه ويقطع الامر دونه ولا يشهده ولايؤامره حتى بعث الله عز وجل نبيه ﷺ وأكرم به من اتبعه فكانوا يرأسون من جاء من بعده وامرهم شورى بينهم يتفاضلون بالسابقة والقُدْمَة والاجتهاد فان أخذوا بذلك واقاموا عليه كان الامر امرهم والناس تبع لهم وان اصغوا الى الدنيا وطلبوها بالتغالب سلبوا ذلك ورده الله الى من كان يرأسهم . والا فليحذروا الغير فان الله على البدل قادر وله المشيئة في ملكه وامره : أني قد خلفت فيكم شيخا فاستوصوا به خيرا وكانفوه تكونوا أسعد منه بذلك . ثم ودعهم ومضى . فقال علي ما كنت ارى أن في هذا خيرا . فقال الزبير والله ماكان اعظم في صدرك وصدورنا منه الغداة

دور الشدة فى الفتنة

كان تصميم السبئية من أول الأمر ان يثوروا بالامصار على أثر خروج العال الى الموسم ، فلم يتهيأ لهم ذلك ولم ينهض في هذا الأمر سوى أهل الكوفة فانهم خرجوا بحجة الاستعفاء من سعيد كما قدمنا . وقد ردوه من الجرعة وهي مكان في طريق الذاهب من المدينة الى الكوفة

فلما رجع الامراء الى أمصارهم لم يكن للسبئية سبيل الى الخروج . فكاتبوا أشياعهم من أهل الأمصار وتواعدوا على ان يتوافوا بالمدينة لينظروا فيما يريدون وأظهروا أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ويسألون عثمان عن أشياء لتسير في الناس ولتحقق عليه . فخرجت وفود من الامصار الثلاث : الكوفة والبصرة ومصر حتى قاربت المدينة . فلما علم عثمان بمجيئهم أرسل اليهم رجلين من بنى مخزوم ليعلما علم القوم . وكان الرجلان ممن نالهم أدب من عثمان فاصطبرا ولم يضطغنا . فلما رآهما أولئك القادمون استرسلوا اليهما وباحوا لهما بذات نفوسهم . فقالوا اننا نريد ان نسأله عن أشياء زرعناها في قلوب الناس ثم نرجع اليهم فنزعم لهم انا قررناه بها فلم يخرج منها ولم يتب . ثم نخرج كأنا حجاج ثم نقدم فنحيط به فنخلعه فان أبى قتلناه . وكانت اياها . فرجعا الى عثمان بالخبر فضحك وقال اللهم سلم هؤلاء فانك ان لم تسلمهم شقوا . وقد أخبر أهل الامصار أن ثلاثة من أهل المدينة معهم على رأيهم وهم : عمار ومحمد بن أبي بكر وابن سهلة (لعله محمد بن أبي حذيفة) ـ فكان من قول عثمان : أما عمار فحمل على عباس بن عتبة بن أبى لهب وعركه فأدبته ، وأما محمد بن أبى بكر فانه أعجب حتى رأى أن الحقوق لا تلزمه ، وأما ابن سهلة فانه يتعرض للبلاء . ثم أرسل عثمان الى الكوفيين والبصريين ونادى الصلاة جامعة

وهم عنده في أصل المنبر . فأقبل أصحاب رسول الله حتى أحاطوا بهم . فحمد الله وأثنى عليه وأخبرهم خبر القوم . وقام الرجلان وأخبرا بما سمعا منهم . فقالوا جميعا أقتلهم فان رسول الله ﷺ قال من دعا الى نفسه أو الى أحد وعلى الناس امام فعليه لعنة الله فاقتلوه . وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا أحل لكم إلا ما قتلتموه وأنا شريككم . فقال عثمان : بل نعفو ونقبل ونبصرهم بجهدنا ولانحاد أحدا حتى يركب حداً أو يبدي كفراً . ثم أخذ يذكر الامور التى نقموها عليه وأذاعوها ويجيب عن كل مسألة . فقال : ان هؤلاء ذكروا أموراً قد علموا منها مثل الذي علمتم إلا أنهم زعموا أنهم يذكرونها ليوجبوها على عند من لايعلم :

(١) قالوا أتم الصلاة في السفر (في المزدلفة) وكانت لاتتم . ألا واني قدمت بلدا فيه أهلي فأتممت لهذين الامرين . أو كذلك هو ؟ قالوا : نعم . ــ وذلك أنه أتم الصلاة في المزدلفة وهي تقصر في ذلك الموطن ولو كان مؤديها مقيما هكذا كان يرى غير عثمان من فقهاء الصحابة

(٢) وقالوا حميت حمى . واني والله ماحميت حمى . قبلى والله ماحموا شيئا لاحد ماحموا لا ماغلب عليه أهل المدينة ثم لم يمنعوا رعيه أحدا . واقتصروا لصدقات المسلمين يحمونها لئلا يكون بين من يليها و بين أحد تنازع ثم مامنعوا ولا نحوا منها أحدا الا من ساق درهما ومالى من بعير غير راحلتين ومالى من ثاغية ولا راغية . واني قد وليت واني أكثر العرب بعيرا وشاة فمالى اليوم شاة ولا بعير غير بعيرين لحجي . أكذلك هو ؟ قالوا : اللهم نعم

(٣) وقالوا كان القرآن كتبا فتركتها الا واحدا ــ الا وان القرآن واحد جاء من عند واحد وانما أنا في ذلك تابع لهؤلاء . أكذلك هو ؟ قالوا : نعم

(٤) وقالوا قد رددت الحكم . وقد سيره رسول الله ﷺ . والحكم مكى سيره رسول الله ﷺ من مكة الى الطائف ثم رده رسول الله ﷺ . فرسول الله سيره . ورسول الله رده . أكذلك هو ؟ قالوا : نعم

(٥) وقالوا استعملت الاحداث . ولم أستعمل الا مجتمعا محتملا مرضيا، وهؤلاء أهل عملهم فسلوهم عنه . وهؤلاء أهل بلده . ولقد ولى من قبلي أحدث منهم وقيل في ذلك لرسول الله ﷺ أشد مما قيل لى في استعماله أسامة . أ كذلك هو ؟ قالوا : نعم

(٦) وقالوا انى أعطيت ابن أبى سرح ما أفاء الله عليه . وانى انما نفلته خمس ما أفاء الله عليهم من الخمس وكان مائة ألف وقد نفل مثل ذلك أبو بكر وعمر فزعم الجند أنهم يكرهون ذلك فرددته عليهم وليس ذلك لهم . أ كذلك هو ؟ قالوا : نعم

(٧) وقالوا اني احب أهل بيتى ، واعطيهم . اما حبي فانهم لم يمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم . وأما اعطاؤهم : فاني انما اعطيهم من مالى ولا استحل أموال المسلمين لنفسي ولا لأحد من الناس . ولقد كنت اعطي العطية الكبيرة الرغيبة من صلب مالى ازمان رسول الله ﷺ وابي بكر وعمر وأنا يومئذ حريص شحيح ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى وفنى عمري وودعت الذي لى في أهلي قال الملحدون ما قالوا ؟ واني والله ماحملت على مصر من الامصار فضلا فيجوز ذلك لمن قاله ، ولقد رددته عليهم وما قدم على الا الاخماس ، ولا يحل لى منها شيء فولى المسلمون وضعها في أهلها دوني ولا نفلت من مال الله بفلس منها فما فوقه وما اتبلغ منه ما آكل الا من مالى

(٨) وقالوا اعطيت الارض رجالا وان هذه الارضين شاركهم فيها المهاجرون والانصار أيام افتتحت فمن أقام بمكان من هذه الفتوح فهو اسوة أهله ومن رجع الى أهله لم يذهب ذلك ما حوى الله له ، فنظرت في الذي يصيبهم مما افاء الله عليهم فبعته لهم بأمرهم من رجال أهل عقار ببلاد العرب فنقلت اليهم نصيبهم فهو في أيديهم دونى . وكان عثمان قد قسم ماله وأرضه في بني امية وجعل ولده كبعض من يعطى فيه . فبدأ ببني أبي العاص فاعطى آل الحكم رجالهم عشرة آلاف

عشرة آلاف فأخذوا مائة الف وأعطى بني عثمان مثل ذلك وقسم في بني العاص وفي بني العيص وفي بني حرب

ولانت حاشية عثمان لاولئك الطوائف الذين خرجوا للكيد له وأبى المسلمون الا قتلهم وابى هو الا العفو والصفح عنهم فرجعوا الى بلادهم على الامر الذي خرجوا به

ظن عثمان أن ما أدلى به من الحجج قد أصاب من نفوسهم، وأن عفوه عنهم يطفىء جمرة اضطغانهم عليه فاكتفى بما قال. ولكن القوم تواعدوا على الشخوص الى المدينة في شوال سنة ٣٥ لانفاذ ما اعتزموا عليه من محاصرة عثمان وخلعه أو قتله ان أبى. فخرج أهل مصر في أربع رفاق عليهم أربعة امراء – المقل يقول ستمائة والمكثر يقول الف. وقادتهم هم عبد الرحمن بن عديس البلوي وكنانة بن بشر الليثي وسودان بن حمران السكوني وقتيرة السكوني. وعلى القوم جميعاً الغافقي ابن حرب العكي. وأشفقوا أن يعلموا الناس بخروجهم للشغب والحرب. وانما خرجوا كالحجاج ومعهم ابن السوداء. ولو اتيح للقوم رجل يقرأ ما في الضمير لقرأ لهم آيات الفرح والسرور الذي لا يعادله سرور أحد في العالم واضحة على صفحات قلب ابن السوداء الذي استطاع أن يسخر هؤلاء القوم لتنفيذ مأربه في أئمة الاسلام والكيد لدينهم. وقد تسنى له أن يشغل القلوب في الامصار المترامية وفي مدينة الرسول وهو جالس في مصر

يدبر الشر من مصر الى يمن الى العراق فأرض الروم فالنوب

والذى أعتقده أنه قد كان داعية جمعية تمده وتوازره وتعينه قد اختارته لتنفيذ مآربها في الاسلام لتفسد ما تقدر عليه كما أفسد بولس دين المسيح

وخرج أهل الكوفة في أربع فرق وقادتهم: زيد بن صوحان العبدي. والاشتر النخعي. وزياد بن النضر الحارثي. وعبد الله بن الاصم العامري من عامر بن صعصعة وعددهم كعدد أهل مصر وعليهم جميعاً عامر بن الاصم

وخرج أهل البصرة في أربع فرق . وقادتهم : حُكيم بن جبلة العبدي وذريح ابن عباد العبدى وبشر بن شريح القيسي وابن المحرش الحنفي . وعددهم كعدد أهل مصر وأميرهم جميعاً حرقوص بن زهير السعدي

وكانت اهواء أهل الامصار الثلاث مختلفة غير متفقة . فاما أهل مصر فانهم كانوا يشتهون علياً لما بثه فيهم ابن السوداء ومحمد بن أبي بكر فانه كان ربيباً لعلي تزوج امه بعد أبي بكر وحدب عليه ، وقد وافقه على ذلك محمد بن أبي حذيفة . وأما أهل البصرة فانهم كانوا يشتهون أن يكون الخليفة طلحة بن عبيد الله . وأهل الكوفة كان هواهم في الزبير بن العوام فخرجوا وهم على الخروج جميع وفي الاهواء شتى وكل فرقة لا يشك أحد منها في أن الفلج في جانبها وان أمرها سيتم دون الآخرين . وسار كل فريق حتى اذا كانوا من المدينة على ثلاث تقدم ناس من أهل البصرة فنزلوا ذا خشب . وتقدم ناس من أهل الكوفة فنزلوا الاعوص وجاءهم ناس من أهل مصر وتركوا عامتهم بذي المروة . ومشى فيما بين أهل مصر وأهل البصرة زياد بن النضر وعبد الله بن الاصم ، وقالا : لا تعجلوا ولا تعجلونا حتى ندخل لكم المدينة ونرتاد ، فانه قد بلغنا انهم قد عسكروا لنا . فوالله ان كان أهل المدينة قد خافونا واستحلوا قتالنا ولم يعلموا علمنا فهم اذا علموا علمنا أشد وان امرنا هذا لباطل . وان لم يستعدوا لنا ولم يستحلوا قتالنا ووجدنا ما بلغنا باطلا لنرجعن اليكم بالخبر

فدخل الرجلان فلقيا ازواج النبي ﷺ وعلياً وطلحة والزبير وقالا انما نأتم هذا البيت ونستعفى هذا الوالى من بعض عمالنا ما جئنا الا لذلك واستأذناهم للناس في الدخول فكلهم أبى وقال بيض ما يفرخن . وهذا ما آخذه أمارة على وهن عثمان واقتطاع الناس الامر دونه اذ يطلب الاذن من غيره بدخول المدينة ولو كان عمر ما قدر أحد منه على مثل ذلك

رجع الرجلان الى القوم فأتى من مصر نفر فأتوا علياً ومن أهل البصرة نفر

فأتوا طلحة ومن أهل الكوفة نفر فأتوا الزبير وقال كل فريق منهم إن بايعوا صاحبنا والا كدناهم ومزقنا جماعتهم ثم كررنا حتى نبغتهم فجاء المصريون الى علي وعرضوا له بالامر فانتهرهم وطردهم وكذلك فعل الزبير مع أهل الكوفة وطلحة مع أهل البصرة واغلظوا لهم في القول . وكان كل من علي والزبير قد سرح ابنه الى عثمان وطلحة قد سرح ابنيه كذلك

خرج القوم بعد سوء الرد من علي وطلحة والزبير وأروهم انهم راجعون حتى انتهوا الى عساكرهم على ثلاث مراحل من المدينة كي يفترق أهل المدينة ثم يكروا راجعين . فلما افترق أهل المدينة لرجوعهم وظنوا أن الامر قد انتهى . لم يفجأ أهل المدينة الا بالقوم يكبرون في نواحيها قد كروا عليهم فبغتوهم فنزلوا مواضع عساكرهم وأحاطوا بعثمان وقالوا من كف يده فهو آمن . فلزم الناس بيوتهم

جاء علي الى أهل مصر فقال : ما ردّكم الينا ؟ فقالوا اخذنا مع بريد كتاباً بقتلنا وقال أهل البصرة لطلحة مثل ذلك اي ان اهل مصر قد أخذوا بريداً بقتلهم وكذلك أهل الكوفة للزبير وقال أهل الكوفة وأهل البصرة جئنا ننصر اخواننا ونمنعهم جميعاً فقال علي كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل ، ثم طويتم نحونا ؟ هذا والله أمر ابرم بالمدينة . فقالوا ضعوه كيف شئتم لا حاجة لنا في هذا الرجل ليعتزلنا . وكان عثمان في ذلك الوقت يخرج اليهم ويصلي بهم ويصلون خلفه ولا يمنعون أحداً من الاجتماع به ولا يمنعون أحداً من الكلام ولكنهم كانوا يسيرون زمرا أشبه بالدوريات في طرق المدينة يمنعون الناس من الاجتماع

وكتب عثمان الى الامصار يستمدهم (بسم الله الرحمن الرحيم * أما بعد فان الله عز وجل بعث محمدا بالحق بشيراً ونذيراً فبلغ عن الله ما أمر به ثم مضى وقد

قضى الذي عليه وخلف فينا كتابه فيه حلاله وحرامه وبيان الامور التي قدر وأمضاها على ما أحب العباد وكرهوا فكان الخليفة أبو بكر رضي الله عنه وعمر رضي الله عنه . ثم أدخلت في الشورى عن غير علم ولا مسألة عن ملأ من الامة . ثم أجمع أهل الشورى عن ملأ منهم ومن الناس على غير طلب مني ولا محبة فعملت فيهم بما يعرفون ولا ينكرون تابعاً غير مستتبع متبعاً غير مبتدع مقتدياً غير متكلف . فلما انتهت الامور وانتكث الشر بأهله بدت ضغائن وأهواء على غير اجرام ولا ترة فيما مضى الا امضاء الكتاب . فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره بغير حجة ولا عذر . فعابوا على أشياء مما كانوا يرضون وأشياء عن ملأ من أهل المدينة لا يصلح غيرها . فصبرت لهم نفسي وكففتها عنهم منذ سنين وأنا أرى وأسمع . فازدادوا على الله عز وجل جرأة حتى أغاروا علينا في جوار رسول الله ﷺ وحرمه وأرض الهجرة وثابت اليهم الاعراب فهم كالاحزاب أيام الاحزاب أو من غزانا بأحد الا ما يظهرون فمن قدر على اللحاق بنا فليلحق)

أتى الكتاب أهل الامصار فخرجوا على الصعبة والذلول . فأرسل معاوية بن أبي سفيان حبيب بن سلمة الفهري بعد تريث . وبعث عبد الله بن أبي سرح من مصر معاوية بن حُديج السكوني وخرج من أهل الكوفة القعقاع بن عمرو وقام في كل بلد محضضون يحضون الناس على اغاثة أهل المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ والتابعين لهم باحسان غير ان هؤلاء المغيثين لم يدركوا لان الغزاة أنفذوا أمرهم قبل الغوث

جاء القوم الى علي وقالوا له ان الله قد أحل لنا دم هذا الرجل . قم معنا اليه . فقال والله لا أقوم معكم . قالوا فلم كتبت الينا . فقال علي والله ما كتبت اليكم كتاباً قط فنظر بعضهم الى بعض

والذي يظهر من ذلك . ان من كان بالمدينة ردءاً لاهل الفتنة كانوا يكتبون الى أهل مصر بان علياً معهم في الرأي وان التدبير باذنه وعلمه فكان المفسدون يتذرعون

باسمه لتهييج الناس واشعال قلوبهم بالحماسة فيما هم بصدده ، ولا يبعد ان تكون الكتب ترسل باسمه الى مصر ولا يعلم

وقد كان عمرو بن العاص بالمدينة يؤلب على عثمان ، وقد جاءت رواية عنه انه كان يؤلب عليه حتى الراعي في غنمه في رأس الجبل . فلما كان أول الحصار خرج من المدينة الى فلسطين في ناحية السبع حتى جاءه خبر قتل عثمان

دخل المصريون على عثمان ومعهم الكتاب الذي زعموا ان فيه قتلهم . فقالوا كتبت فينا بكذا وكذا . فقال انما هما اثنتان أن تقيموا علي رجلين من المسلمين أو يميني بالله الذي لا اله الا هو ما كتبت ولا أمللت ولا علمت . وقد تعلمون ان الكتاب يكتب على لسان الرجل وقد ينقش الخاتم على الخاتم . فقالوا قد والله أحل الله لنا دمك ونقضت العهد والميثاق

﴿ عمل علي وعمل مروان مع الخليفة عثمان ﴾

كان لما جاء القوم لاول مرة وخشي عثمان شرهم شاع انهم يريدون قتل عثمان ان لم ينزع . فجاء الى علي بن أبي طالب فقال : يا ابن عم ، انه ليس لي مُترك وان قرابتي قريبة ولي حق عظيم عليك وقد جاء ما ترى من هؤلاء القوم وهم مصبحي وأنا أعلم ان لك عند الناس قدرا وانهم يسمعون منك فأنا أحب أن تركب اليهم وتردهم عني فاني لا أحب ان يدخلوا علي فان ذلك جرأة منهم علي ويسمع بذلك غيرهم . فقال علي علام أردهم ؟ فقال : على ان أصير الى ما أشرت به علي ورأيته لي ولست أخرج من يديك . فقال علي اني كلمتك مرة بعد مرة ونقول وتقول وكل ذلك فعل مروان وسعيد وابن عامر ومعاوية أطعتهم وعصيتني . قال فاني أعصيهم وأطيعك . فركب علي وركب معه المهاجرون والانصار وما زالوا بالقوم حتى رجعوا كما قدمنا وأبى عمار أن يخرج مع من خرج . فلما رجع القوم عاد علي الى عثمان وكلمه

كلاماً في نفسه وقال له تكلم كلاماً يقره الناس منك و يشهدون عليه ويشهد الله على ما في قلبك من النزوع والانابة فان البلاد قد تمخضت عليك فلا آمن ركباً آخرين يقدمون من الكوفة فتقول يا علي اركب اليهم ولا أقدر ان أركب اليهم ولا أسمع عذرا ، ويقدم آخرون من البصرة الخ ، فان لم أفعل رأيتني قد قطعت رحمك واستخففت بحقك

فخرج عثمان فخطب خطبة نزع فيها وأعطى الناس من نفسه التوبة فقال : أما بعد أيها الناس فوالله ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله وما جئت شيئاً الا وأنا أعرفه ولكن منتني نفسي وكذبتني وضل عني رشدي . ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول من زل فليتب ومن اخطأ فليتب ولا يتمادى في الهلكة . ان من تمادى في الجور كان أبعد من الطريق . فانا أول من أتعظ . استغفر الله مما فعلت وأتوب اليه . فمثلي نزع وتاب فاذا نزلت فليأتني أشرافكم فليروني رأيهم فوالله لئن ردني الحق عبداً لأستنن بسنة العبد ولأذلن ذل العبد ولا كونن كالمرقوق ان ملك صبر وان اعتق شكر وما عن الله مذهب الا اليه . فلا يعجزن عنكم خياركم أن يدنوا الى لئن أبت يميني لتتابعن شمالي – فرق الناس له وبكوا – فلما نزل وجد في منزله مروان وسعيدا ونفرا من بني أمية ولم يكونوا شهدوا الخطبة . فقال مروان يا أمير المؤمنين أتكلم أو أسكت ؟ فقالت نائلة زوج عثمان بل اسكت فانهم والله قاتلوه ومؤثموه انه قد قال مقالة لا ينبغي أن ينزع عنها . فقال عثمان تكلم . فقال مروان بابي أنت وأمي لوددت ان مقالتك هذه كانت وأنت ممتنع منيع فكنت أول من رضي بها وأعان عليها ولكنك قلت ما قلت حين بلغ الحزام الطبيين وخلف السيل الزبى وحين أعطي الخطة الذليلة الذليل . والله لاقامة على معصية تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها وانك ان شئت تقربت بالتوبة ولم تقرر بالخطيئة وقد اجتمع اليك على الباب أمثال الجبال من الناس . فقال عثمان أخرج اليهم فكلمهم

فاني استحي أن أكلمهم

عند ذلك خرج مروان الى الباب فقال ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم قد جئتم لنهب ؟ شاهت الوجوه . كل انسان أخذ بأذن صاحبه الا من أريد . جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ؟ اخرجوا عنا . أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدون غب رأيكم . ارجعوا الى منازلكم فانا والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا

سمع الناس ذلك فرجعوا وذهب بعضهم الى علي وأخبره الخبر فجاء مغضباً حتى دخل على عثمان فقال : أما رضيت من مروان ولا رَضِيَ منك الا بتحرّفك عن دينك وعن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به . والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا في نفسه . وأيمُ الله لأراه سيوردك ثم لا يُصْدِرُك وما أنا بعائد بعد مقامي هذا لمعاتبتك . اذهبت شرفك وغلبْت على أمرك – فلما خرج علي دخلت على عثمان نائلة زوجه فقالت أتتكلم أو أسكت . قال بل تكلمي . فقالت قد سمعت قول علي لك وأنه ليس بمعاودك وقد أطعت مروان يقودك حيث يشاء . قال فما أصنع ؟ قالت تتقي الله وحده لا شريك له وتتبع سنن صاحبيك من قبلك . فانك متى أطعت مروان قتلك ومروان ليس له عند الناس قدر ولا هيبة ولا محبة وانما تركك الناس لمكان مروان فارسل الى علي فاستصلحه فان له قرابة منك وهو لا يُعْصَى – فارسل عثمان الى علي فابى أن يأتيه وقل قد أعلمته اني لست بعائد – وبلغ مروان مقالة نائلة فيه ، فجاء الى عثمان وقال – بعدأن أذن له – ان بنت الفرافصة فقال عثمان لا تذكرنها بحرف فاسوء لك وجهك فهي والله أنصح منك – وخرج عثمان بعد ذلك حتى أتى علياً وسأله أن يؤازره ولا يخذله لما له من حق القرابة والنصرة فأبى عليه على ذلك وذكره بما كان منه من عصيانه والاصغاء الى مشورة مروان فقام عنه عثمان منكراً يقول : خذلتني وقطعت رحمي

وقد قدمنا أن العايدين من أهل الشغب من الامصار الثلاث لما عادوا دخل المصريون المدينة وغلبوا أهلها على أمرهم وكان عثمان يخرج من بيته فيصلي بهم لا يمنعونه ذلك - فلما جاءت الجمعة بعد دخولهم المدينة ودخول المصريين بها خرج عثمان فصلى بالناس وكأني به في ذلك الوقت قد أراد أن يظهر من الضعف قوة ومن الوهن جلداً ليقذف الرعب في قلوب المشاغبين فقام على المنبر وقال - ياهؤلاء العدى . الله الله . فوالله ان أهل المدينة ليعلمون أنكم ملعونون على لسان محمد ﷺ فامحوا الخطايا بالصواب فان الله عز وجل لا يمحو السيء الا بالحسن . فقام محمد بن مسلمة فقال أنا أشهد بذلك - فاخذه حُكَيْم بن جبلة فاقعده . فقام زيد ابن ثابت فقال ابغني الكتاب . فثار اليه من ناحية أخرى محمد بن أبي قتيرة فاقعده وقال فافظع . وثار القوم باجمعهم فحصبوا الناس وحصبوا عثمان حتى صرعوه عن المنبر مغشياً عليه فاحتمل حتى أدخل داره . وكان المصريون لا يطمعون في أحد من أهل المدينة أن يساعدهم الا في ثلاثة نفر وهم محمد بن أبي بكر ومحمد بن أبي حذيفة وعمار بن ياسر . وشمر ناس من المسلمين فاستقتلوا منهم سعد بن مالك وأبو هريرة وزيد بن ثابت والحسن بن على فارسل اليهم عثمان بعزمة لما انصرفوا فانصرفوا وأقبل علي حتى دخل على عثمان يعوده من صرعته وفعل مثل ذلك طلحة والزبير

ومكث عثمان يصلي بهم الى عشرين يوماً من نزوله عن المنبر في رواية الحسن ، والى ثلاثين يوماً على رواية سيف عن مشايخه ثم انهم منعوه الصلاة فصلى بالناس أميرهم الغافقي . دان له المصريون والكوفيون والبصريون وتفرق أهل المدينة في حيطانهم ولزموا بيوتهم لا يخرج أحد الا وعليه سيفه يمتنع به من رهق القوم وكان الحصار أربعين يوماً . وفيهن كان القتل ومن تعرض لهم وضعوا فيه السلاح وكانوا قبل ذلك ثلاثين يوماً يكفون

من ذلك كله نجد ان عثمان كان في أخريات أيامــه كالميت في يد الغاسل بين يدي مروان وبطانته من بني أميــة . فكان اذا أعطى الناس من نفسه ووعدهم بالاقلاع عما نقموا منه والنزول عند ما أحبوا وعاد الى بيته ، فتله مروان في الذروة والغارب حتى يرده عما بسط آمالهم فيه وقبض يده عما بذل لهم من المعدلة وازاحة العلل . وكان بنو أمية ومنهم مروان يثقون بالمغيثة من الامصار . ويريدونه على مطاولة القوم حتى يأتي المغيثون ويستأصلوا أهل الفتنة ويلتمسون الوسائل لمطاولة جهد استطاعتهم . وكان استبطانه لهؤلاء الرهط من بني أمية يثير عليه النفوس ويزيد في الاضطغان عليه . فكان على الحقيقة موجوداً بين عدوين : عدو داخلي يدفعه الى المكاره وركوب المركب الخشن بغير رفق ولا شفقة وعدو خارجي لا يرضى منه بالمعاذير ولا يقنعه الا نفض يده من الخلافة وتركها شورى بين المسلمين ليختاروا لامرهم من أحبوا - أو ان يسلم اليهم بعض بطانته وخلصائه من ذوي قرابته ليشتفوا منه بالجزاء الذي يستحقونه على جناية يزعمون انها وقعت من ذلك البعض - وهو مروان بن الحكم - يزعمون انه افتعل كتاباً من عثمان الى عبد الله بن أبي سرح يأمره بضرب بعض رؤساء المصريين أو جلدهم والتمثيل بهم وفي ذلك هلاك مروان اذا استمكنوا منه . والثالثة دمه يريقونه

وكان بنو أمية يرون الشر مقبلا عليهم ونازلا بهم والموت يرقب شيخهم مصبحه وممساه وأهل الفتنة غير تاركيه وأهل المدينة بين مؤلب وساكت وخاذل وهم مع ذلك لا تأخذهم الرأفة بهذا الشيخ الفاني ولا يريدونه على استبقاء حياته والعمل لما فيه حقن دمه ، مع توفر الذرائع وامكان الوسائل لو أرادوها . ولعل ذلك كان ضعفا في الرأي واغتراراً باسم الخلافة وما كان له من الروعة والحرمة في سالف الزمن ، غافلين عن أن اسم الخلافة في أخريات أيام عثمان صار حامله من المهانة والذلة بحيث لا يدفع عن نفسه ولا يقوم بالذب عنه أحد . ومن الخذلان الاغترار بذلك بعد ان يصرع الخليفة عن منبر رسول الله بأيدي الغوغاء والمفتونين ولا يغير ذلك المهاجرون والانصار

الحصار وما كان في أيامه

لا شبهة في أن الحاصرين ما كانوا يريدون في بدء أمرهم من عثمان سوى ان ينزع من الخلافة يده لتفضي بعد ذلك الى من يريدون ، ولو أن عثمان طابت نفسه ببغيتهم لانصرفوا الى أمصارهم مغتبطين بما أدركوا - ولعلهم كانوا لايتوقعون من عثمان الاستمساك بالامر الى الحد الذي انتهى اليه - ولعلهم كانوا يظنون أيضا ان أعلام أصحاب رسول الله بالمدينة كانوا يبادرون الى حسم مادة الفتنة بحمل عثمان على الخروج من الأمر تلافيا للفرقة وتحاشيا من سفك الدماء . فكان الأمر على غير ما قدروا وطالت مدة الحصار

ان أمور الفتن اذا دُبرت لايجهر مدبروها بأسرارهم ولا يذيعونها على الجمهور وهم في الغالب يسترون ما أجنُّوا ويغشون الدعوة بغشاء جميل . والمصريون الذين دبروا هذا الشغب ، وكذلك بقية أهل الامصار ، قد ألبسوا دعوتهم لباس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهو أمر يلذ سماعه لاهل التقوى وتُستفَز به قلوب أهل الصلاح وهم في الغالب أهل طهارة أخلاق و سلامة ضمير فيندفع كثير منهم في غمار الناس ولا قصد لهم إلا التعاون على البر والتقوى . ومن هذا القبيل كان بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمع المصريين مثل عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما نزل القوم ذا خشب في قدمتهم الاولى كان فيما كتبوا به الى عثمان :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد ، فاعلم أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، فالله الله ثم الله الله . فانك على دنيا فاستتم اليها معها آخرة ولا تَلْبِسْ نصيبك من الآخرة فلا تسوغ لك الدنيا. واعلم والله انا لله نغضب وفي الله نرضى وانا لن نضع سيوفنا عن عواتقنا حتى تأتينا منك توبة مصرحة أو ضلالة مُجَلحة

مبلحة . فهذه مقالتنا لك وقصيتنا اليك ، والله عذيرنا منك . والسلام »

وقد علمنا أن القوم حين ردوا الى أمصارهم عادوا الى المدينة على حين غفلة من أهلها . وقد ذكر صاحب أشهر مشاهير الاسلام وغيره أن المصريين زعموا أن عبد الله بن سعد كان قد ضرب رجلا ممن كانوا شكوه الى عثمان حتى قتله . فلما جاءوا في قدمتهم الاولى شكوا ذلك الى عثمان والى أعلام أصحاب رسول الله ﷺ وأزواجه امهات المؤمنين وقد ألحوا على عثمان بانصافهم فقال : اختاروا رجلا أوله مصر عوضاً عن عبد الله بن سعد فاختاروا محمد بن أبي بكر فولاه عثمان مصر كما طلبوا . فلما خرج علي بن أبي طالب ومحمد بن مسلمة وغيرهم من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار لرد أهل الامصار الى أمصارهم بالوعد من الخليفة أن يفعل ما يحبون ويرجع عما يكرهون سار جمهم ثلاثاً ثم كروا راجعين الى المدينة محتجين بأنهم (المصريين) أخذوا بريدا الى عبد الله بن أبي سرح بقتلهم أو جلدهم الى آخر ما ذكروا ، وان البريد غلام عثمان على جمله وان الخط خط كاتبه وان الختم ختمه وانه بذلك قد أحل لهم دمه وان أهل الكوفة وأهل البصرة قد رجعوا لنصرة اخوانهم المصريين ومنعهم وشد أزرهم

واذا صحت هذه الرواية وانهم وجدوا البريد على الصفة التى قالوا ، فاني لا أستبعد أن يكون مدبرو الفتنة من المصريين قد وجدوا في أثناء مقامهم بالمدينة من يستدخلونه على بطانة عثمان بن عفان ويتدسس لهم حتى كتبوا هذا الخطاب وأبردوا به البريد ، وعلم كل هذه الحركات والسكنات كان عندهم وسر ذلك عند اخوانهم من أهل المصرين فلما تلقفوا الكتاب الذي دبروه عادوا وفي أيديهم حجة قوية تبرر ما يطلبون ويتقون بها لوم اللائمين

قال الطبري في رواية : وكتب أهل المدينة الى عثمان يدعونه الى التوبة ويحتجون ويقسمون له بالله لا يمسكون عنه أبدا حتى يقتلوه أو يعطيهم ما لزمه من

حق الله . فلما خاف القتل شاور نصحاءه وأهل بيته . فقال لهم : قد صنع القوم ما قد رأيتم ، فما المخرج ؟ فأشاروا عليه أن يرسل الى علي بن أبي طالب فيطلب اليه أن يردهم عنه ويعطيهم ما يرضيهم ليرضيهم حتى تأتيه امداده . فقال : ان القوم لن يقبلوا التمليل - وهي محملي - وقد كان مني في قدمتهم الاولى ما كان فمتى أعطهم ذلك يسألوني الوفاء به . فقال مروان : يا أمير المؤمنين مقاربتهم حتى تقوى أمثل من مكاثرتهم على القرب . فأعطهم ما سألوك وطاولهم ما طاولوك فانما هم بغوا عليك فلا عهد لهم

أرسل عثمان بعد ذلك الى علي . فلما جاء قال : يا أبا الحسن ، انه قد كان من الناس ما قد رأيت وكان مني ما قد علمت ولست آمنهم على قتلي فارددهم عني فان لهم الله عز وجل أن اعتبهم من كل ما يكرهون وأن أعطيهم الحق من نفسي ومن غيري وان كان في ذلك سفك دمي . فقال له علي : الناس الى عدلك أحوج منهم الى قتلك واني لأرى قوماً لا يرضون إلا بالرضى . وقد كنتُ أعطيتهم في قدمتهم الاولى لترجعن عن جميع ما نقموا فرددتهم عنك ثم لم تف لهم بشيء من ذلك . فلا تغرني هـذه المرة من شيء فاني معطيهم عليك الحق . قال : نعم ، فأعطهم فوالله لأفين لهم . فخرج علي الى الناس فقال : أيها الناس ، انكم انما طلبتم الحق فقد اعطيتموه . ان عثمان قد زعم أنه منصفكم من نفسه ومن غيره وراجع عن جميع ما تكرهون . فاقبلوا منه ووكدوا عليه . فقال الناس قد قبلنا فاستوثق منه لنا فانا والله لا نرضى بقول دون فعل . فقال : ذلك لكم . ثم دخل عليه فأخبره . فقال : اضرب بيني وبينهم اجلا يكون لي فيه مهلة ، فاني لا أقدر على رد ما كرهوا في يوم واحد . فقال علي : ماحضر بالمدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك . قال : نعم ولكن أجلني فيما بالمدينة ثلاثة أيام . قال علي : نعم . وخرج الى الناس فأخبرهم بذلك . وكتب بينهم وبين عثمان كتاباً أجله فيه ثلاثاً على أن يرد كل مظلمة ويعزل

كل عامل كرهوه ثم أخذ عليه في الكتاب أعظم ما أخذ الله على أحد من خلقه من عهد وميثاق وأشهد عليه ناساً من وجوه المهاجرين والانصار

فكف القوم عنه ورجعوا الى أن يفي لهم بما أعطاهم من نفسه . وجعل يتأهب للقتال ويستعد بالسلاح وكان قد اتخذ جنداً من رقيق الخمس . وخرج عمرو ابن حزم الانصاري حتى أتى المصريين وهم بذي خُشُب حتى قدموا المدينة . فارسلوا الى عثمان : ألم نفارقك على انك زعمت أنك تائب من أحداثك وراجع عما كرهنا منك وأعطيتنا على ذلك عهد الله وميثاقه ؟ قال : بلى ، أنا على ذلك . قالوا : فما هذا الكتاب الذي وجدنا مع رسولك وكتبت به الى عاملك ؟ قال : ما فعلت ولا علم لي بما تقولون . قالوا : بريدك على جملك وكتاب كاتبك عليه خاتمك . فقال : أما الجمل فمسروق وقد يشبه الخط الخط والخاتم ينقش على الخاتم . قالوا فانا لا نعجل عليك وان كنا قد اتهمناك . فاعزل عنا عمالك الفساق واستعمل علينا من لا يتهم على دمائنا وأموالنا واردد علينا مظالمنا . فقال عثمان : ما أراني اذاً في شيء ان كنت استعمل من هويتم وأعزل من كرهتم ، الأمر إذاً أمركم . قالوا : والله لتفعلن أو لتعزلن أو لتقتلن ، فانظر لنفسك أو دع . فقال : لم أكن لأخلع سربالا سربلنيه الله . اه

والظاهر أن اختلاف القوم اليه وعرضهم المطالب عليه في مدة الحصار كان كثيراً ، وكذلك اختلاف الصحابة واعلامهم اليه وعرضهم مطالب القوم عليه والأخذ والرد في ذلك كان كثيرا متكررا . دعا عثمان في تلك المدة بالاشتر فقال: يا أشتر ما يريد الناس مني ؟ قال : ثلاثا ليس من احداهن بد . قال ماهن ؟ قال يخيرونك بين ان تخلع لهم أمرهم فتقول هذا أمركم فاختاروا له من شئتم ، وبين ان تقص من نفسك ، فان أبيت فان القوم قاتلوك . فقال : أما من احداهن بد ؟ قال : مامن احداهن بد . فقال : والله لان أقدم فتضرب عنقي أحب الي من ان أخلع قميصا قمصنيه

الله وأترك أمة محمد يعدو بعضها على بعض . وأما ان أقص من نفسي ، فوالله لقد علمت ان صاحبيّ بين يدي كانا يعاقبان ، وما يقوم بدني بالقصاص . واما ان تقتلوني . فوالله لئن قتلتموني لا تحابُّون بعدي أبد، ولا تُصلون جميعا أبدا ، ولا تقاتلون بعدي عدوا جميعا أبدا

كان عليٌّ حين رجع الشاغبون الى المدينة وقد قال لعثمان وقال له ، تبرم عثمان بمكانه، فخرج علي من المدينة الى خيبر فأقام بها . فلما رأى عثمان شدة القوم عليه وعجز بني أمية عن مدافعتهم عنه وان أهل المدينة خاذلوه عول على استقدام علي فكتب اليه بما رواه أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ، وهو « أما بعد فقد بلغ السيل الزبى وجاوز الحزام الطُّبْيَيْن وبلغ الامر بي أشده » ثم تمثل بهذا البيت:

فان كنت ما كولا فكن خير آكل والا فأدركني ولما أمزق

وقد رأيت لخطابه صورة أخرى وهي : « أما بعد فقد بلغ السيل الزبى، وجاوز الحزام الطُّبيين وارتفع أمر الناس في شأني فوق قدره وزعموا انهم لا يرضون دون دمي وطمع فيَّ من لا يدفع عن نفسه

وانك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب

وقد كان يقال : أكل السبع خير من افتراس الثعلب فأقبل عليَّ أولي – وفي رواية فأقبل الى صديقا كنت أو عدوا –

فان كنتُ ما كولا فكن خيرَ آكل والا فأدركني ولما أمزقِ

وكان طلحة قد تألف الناس في غيبة علي ، وهم يصدرون عن أمره سرا . فلما جاء علي وطلب اليه صرف الناس عنه . ذهب الى طلحة في خلوة من الناس ، وقال له: يا طلحة ما هذا الامر الذي وقعت فيه ؟ فقال يا أبا الحسن بعد ما مس الحزام الطُّبيين . فانصرف على الى بيت المال وأعطى الناس . فانصرفوا عن طلحة وانفضوا من حوله وسر عثمان بذلك ، وجاء طلحة الى عثمان تائبا فقال: والله ما جئتَ تائبا ولكن جئت مغلوبا ، فالله حسبك يا طلحة

اشتد الحصار على عثمان حتى منعوه الماء ولما أجهده العطش أرسل الى علي وأزواج رسول الله و الى غيرهم فحاولت أم حبيبة زوج رسول الله ان تخلص اليه بماء فلم تقدر على ذلك . ولما سألوها عن دخولها على عثمان ، قالت : ان وصايا بنى أمية الى هذا الرجل ، فأحببت ان ألقاه فاسأله عن ذلك كيلا تهلك أموال أيتام وأرامل . فقالوا : كاذبة ! وأهووا لها وقطعوا حبل البغلة بالسيف فندت بأم حبيبة ، فتلقاها الناس وقد مالت رحالتها فتعلقوا بها وأخذوها وقد كادت تقتل ، فذهبوا بها الى بيتها . وتجهزت عائشة للحج هاربة واستتبعت أخاها فأبى . فقالت أما والله لئن استطعتُ ان يحرمهم الله مايحاولون لأفعلن . ولامَ حنظلة الكاتب محمد بن أبي بكر في ان تدعوه عائشة أخته الى الحج فيأبى ويجيب ذؤبانَ العرب ويتبعهم الى ما لا يحل فقال ما أنت وذاك يابن التميمية . فقال : يابن الخثعمية ان هذا الامر ان صار الى التغالُب غلبتك عليه بنو عبد مناف ، وانصرف وهو يقول :

عجبت لما يخوض الناس فيه يرومون الخلافة ان تزولا
ولو زالت لزال الخير عنهم ولاقوا بعدها ذلا ذليلا
وكانوا كاليهود أو النصارى سواء كلهم ضلوا السبيلا

ولحق الرجل بالكوفة . وقد كانت عائشة ممتلئة غيظا على أهل مصر(١) . وهي وان كانت ممن يقول في عثمان وكانت تغضب لما يلقيه الشاغبون وتأتي به الاشاعات الا انها لم تكن تظن ان الامر يبلغ الى هذا الحد . وجاءها مروان بن الحكم فقال: يا أم المؤمنين لو أقمت كان أجدر ان يراقبوا هذا الرجل . فقالت أتريد ان يصنع بي كما صنع بأم حبيبة ثم لا أجد من يمنعني ؟ لا والله ، ولا أعيَّر ولا أدري الى ما يُسلِمُ أمر هؤلاء

أما علي فلما رأي عثمان قد منع من الماء فجاء الى القوم في الغلس وقال : ياأيها الناس، ان الذي تصنعون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين . لاتقطعوا عن

(١) والذى اظنه انها احست ميل بعض اهل الشغب الى على ، فتبرمت بمكانهم كراهة لعلي

هذا الرجل المادة فان الروم وفارس لتأسر فتطعم وتسقى، وما تعرض لكم هذا الرجل فيم تستحلون حصره وقتله ؟ قالوا لا والله ولا نعمة عين لا نتركه يأكل ولا يشرب فرمى علي بعمامته في الدار ليعلم عثمان انه قد نهض فيما أنهضه . وقد علم طلحة والزبير بما لقي علي وأم حبيبة فلزما بيتيهما ولم يحاولا ايصال شيء من الماء اليه

وفي أثناء الحصار أرسل عثمان عبـد الله بن عباس ليحج بالناس . ثم أرسل اليه بكتاب يقرأ على الناس يوم الحج الاكبر يعلمهم بما هو فيه من الحصار الشديد وان الناس يطلبون دمه ولا يرضون بدونه ويستنهض من يريد نصرته على اللحاق بالمدينة لتفريج كربه ، ففعل . وجعل عثمان لا يجد الا قليلا من الماء يؤتى به اليه من دار آل حزم في غفلات ، لان القوم كانوا يرقبون دار آل حزم

أشرف بعد ذلك عثمان على الناس لما منعوه الماء وسلم على الناس فلم يردّ أحد عليه سلامه . فقال أنشدكم بالله هل تعلمون انى اشتريت بئر رومة من مالى يُسْتَعْذَب بها فجعلت رشائى منها كَرشاء رجل من المسلمين ؟ قالوا نعم . قال فما يمنعنى ان أشرب منها ؟ ثم قال: أنشدكم بالله هل علمتم أني اشتريت كذا وكذا من الارض فزدته في المسجد؟ قيل نعم . قال : فهل علمتم أحداً من الناس منع الصلاة فيه قبلي ؟ ثم ذكر لهم أموراً أخرى كانت من رسول الله له فجعل الناس يقولون مهلا عن أمير المؤمنين . وكانوا اذا سمعوا الموعظة لأول مرة رقت قلوبهم فاذا تكررت لم تكن لتؤثر فيهم

استمر الحصار مشتداً الى ان علم القوم ان الحاج كادوا يعودون ووصل اليهم فصول من فصل من أهل الامصار لنصرة عثمان وكان أهل الشام قد اثاقلوا قليلا فاشفق أهل الفتنة ان يفجأوا بالمغيثة قبل ان يخلصوا الى أمر وأيقنوا أنهم ان انصرفوا عنه دون ان يفوزوا بطلبتهم فقد استهدفوا للبلاء، وتعرضوا للحتوف فجدوا في أمرهم وأرادوا قتل عثمان فدافعهم من كانوا في الدار : الحسن بن علي ، وعبد الله بن الزبير

وابنا طلحة وغيرهم ممن وطنوا أنفسهم على نصرة عثمان. فأحرقوا باب الدار وكف عثمان من معه عن القتال وعزم على كثير منهم في الانصراف الى بيوتهم فانصرف أكثرهم وكانت مناوشات بين بعض من في الدار وبين المشاغبين كمروان وعبد الله بن الزبير وغيرهم . وأراد القوم المعاجلة فدخلوا على عثمان من دار جيرانه آل حزم وكانوا جماعة فيهم محمد بن أبي بكر الذي تقدم اليه مريدا قتله فأمسك بلحيته يؤنبه ويحركها في يده ، فذكره عثمان بأبيه وانه ما كان أبو بكر ليجلس هذا المجلس من عثمان . فلم يصنع شيئا . وتقدم الغافقي فضربه بحديدة كانت معه، وجاء سودان بن حمران ليضربه فأكبت عليه زوجه نائلة بنت الفرافصة واتقت السيف بيدها . فتعمدها ونفح أصابعها فاطن أصابع يدها . ثم أهوى له بعضهم فضرب عنقه ـ ثم قالوا ما كان دمه ليحل لنا دون ماله فانتهبوه وأذاعوا خبر قتله بالمدينة وكانت مدة حصاره اثنين وعشرين يوما وكان قتله لثمان عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ٣٥ (٢٠ مايو سنة ٦٥٦) وذلك افتتاح التاريخ المشئوم

هذا وقد قدمنا أن مدة الحصار كانت أكثر من هذا ، ولعل ما هناك عدد للحصار على عمومه ، وأما عده اثنين وعشرين يوما فهو شدة الحصار

ما قعد بأهل المدينة عن نصر عثمان

أليس عجيبا ان يأتي جماعة من أمصار مختلفة الى عاصمة الخلافة ودار الهجرة وجوار رسول الله يتألبون على الخليفة ثم يحصرونه وينتهي الامر بقتله ولا ينتطح في هذا الامر عنزان ! مع طول مدة الحصار وانفساح أجله وامتداد الزمن واتساعه لعمل كل ما يمكن ؟ فما الذي قعد بالمهاجرين والانصار عن نصرته ، والعمل على كف الايدي عنه ؟

والذي أقوله ان عثمان قد جرأ القوم على نفسه وأطمعهم في جانبه بما كان عنده من الرقة واللين وما رهقه من ضعف الشيخوخة وبما كان منه من الامور التى خالف بها الخليفتين قبله . ولا يجد عنها جوابا مرضيا ولا مقنعا ـ وقد كان في مقدور المهاجرين والانصار لو كانوا راضين عنه ان يمنعوه ممن أراده بسوء ويبددوا جموع المصريين الذين تولوا كبر هذا الحادث المشؤوم ، وما كان المصريون ـ وهم لا يزيدون عن ألف ـ ليعجزوا أهل المدينة ومن معهم من المهاجرين والانصار لو كانت قلوبهم مع عثمان

لا يعزب عنكم ما قدمته من انه كان في المدينة قوم يريدون الظهور على حساب الفتن والتقلبات ، وآخرون من دونهم يرون الخليفة حائلا بينهم وبين الاعمال والامارة ، ويرونه يتخطاهم بها الى ذوي رحمه وقرابته ممن لم تقدمهم سن ولم تكن لهم سابقة ولا قدمة

أضف الى ذلك أمورا : منها ان عثمان لم يستن بسنة عمر في الاستشارة وأخذ رأى أعلام المهاجرين والانصار في كل جليل ودقيق من أمور المسلمين العامة ، بل كان عثمان يفضي بنصيحته واستشارته الى بني أمية وهم مسبوقون غير سابقين ويقتدى بآرائهم وينتهي الى مشورتهم . فلما رأى أعلام الصحابة وأهل الرأى انه أخرهم وفيهم أضرابه ومن لا يرون له عليهم فضلا ، وانهم صاروا عنده كقدح الراكب ؛ اشفقوا أن يكون الامر اثرة واحتكارا وأن يجعل أمر المسلمين الى بني عمومته من بعده فاضطغنت لذلك القلوب عليه وارتخت الايدى عن نصرته

كان أعلام الصحابة يرون انه يفيض الولاية على أهله دونهم ودون أبنائهم وان تفضيل قرابته انما كان لقرابتهم منه ، ويرونه يصل رحمه على حساب المسلمين ويجعل الامر دولة في بني أبيه . ويرون انه يختصهم بالنفل من الاخماس ولا يفعل ذلك مع غيرهم . ويعطى مروان الآلاف من مال المسلمين ولا يفعل ذلك مع أحد

سوى قرابته . وهو في كل ذلك لايرد الأمر الى أصحاب رسول الله ﷺ وجماعة المسلمين كما كان يفعل عمر

لهذا كله كان أهل المدينة ـ الا نفرا منهم ـ يصيخون بآذانهم الى شكاية الشاكين وصخب الصاخبين ويميلون الى موازرتهم على مايشكون منه ولاينكرون عليهم شكواهم . وكثير منهم كانوا يقمون في عثمان وفي بنى أبيه من بنى أمية ويجهرون له بذلك ويتوعدونه بالنكال . وكانوا يلمزونه بالالقاب تحقيرا له . فكانوا يسمونه نَعْثَل ، وهو اسم رجل قبطى طويل اللحية كان بالمدينة . فكانوا يشبهون عثمان به في طول لحيته تحقيرا له

مر عثمان على جبلة بن عمرو الساعدى وهو في نديّ قومه وفي يد جبلة جامعة ، فسلم فرد القوم الا جبلة ، فقال جبلة : لم تردون على رجل فعل كذا وكذا . ثم قال يانعثل والله لاقتلنك ولأحملنك على قلوص جرباء ولاطرحن هذه الجامعة في عنقك أو لتتركن بطانتك هذه . فقال عثمان : أى بطانة ؟ فوالله انى لاتخير الناس . فقال: مروانَ تخيرته ومعاويةَ تخيرته وعبد الله بن عامر تخيرته وعبد الله بن سعد تخيرته ، منهم من نزل القرآن بذمه وأباح رسول الله ﷺ دمه ، فانصرف عثمان وقد اجترأ عليه الناس بعد ذلك . قال الطبري : ثم جاءه مرة أخرى وعثمان على المنبر فأنزله

وقد خطب عثمان في بعض أيام الفتنة : فقال عمرو بن العاص : ياأمير المؤمنين انك قد ركبت نهابير وركبنا معك فتب نتب . ثم لما كان بعد ذلك خطب الناس فقام اليه جهجاه الغفارى فصاح: ياعثمان الا ان هذه شارف قد جئنا بها، عليها عباءة وجامعة فانزل فلندرعك العباءة ولنطرحك في الجامعة ولنحملك على الشارف ولنطرحك في جبل الدخان . فقال عثمان : قبحك الله وقبح ماجئت به . وكان ذلك عن ملأ من الناس

وكان الشاغبون يحتجون على عثمان بأمور ذكرنا بعضها ضمن رد عثمان ونورد هنا أشهرها مجتمعا ليكون القارىء على ذكر منها

(١) اتمامه الصلاة في منى وعرفة مع ان رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبيه كانوا يصلونها على القصر (٢) زيادة النداء الثالث على الزوراء يوم الجمعة (٣) اخراج أبي ذر من الشام والمدينة الى الربذة (٤) سقوط خاتم رسول الله من يده في بئر اريس (٥) افشاؤه العمل والولايات في أهله وبنى عمه من بنى امية وما كان من الوليد بن عقبة من شرب الخمر (٦) صلته لأهله وبنى عمه بالاموال واقطاعهم القطائع وحملهم على رقاب الناس (٧) استئثاره برأيه ورأيهم وترك المهاجرين والانصار لايستشيرهم ولا يستعملهم (٨) انه أعطى مروان خمس غزوة افريقية (٩) انه وصل عبد الله ابن خالد بن أسيد بأربعمائة الف درهم (١٠) انه أقطع الحارث بن الحكم موضع سوق بالمدينة كان تصدق به رسول الله صلى الله عليه وسلم على المسلمين (١١) انه أعطى أبا سفيان بن حرب مائتى الف درهم (١٢) انه زوج الحارث بن الحكم بنته عائشة فأعطاه مائة الف من بيت المال (١٣) انه حمى الحمى حول المدينة الا عن بنى أمية (١٤) انه رد الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة وأعطاه مائة الف درهم (١٥) مجاوزته الخيزران الى السوط وهو أول من استعمل السوط وضرب به ظهور الناس (١٦) تطاوله في البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة: لنائلة زوجه دار ولعائشة بنته دار، ولغيرها من أهله وبناته كل دار (١٧) ضربه عبد الله بن مسعود حتى كسر ضلعا من أضلاعه

ولا شك في أن هذه الأمور بعضها كان يحقده عليه المهاجرون والانصار وأهل المدينة وقد ولع به الشاغبون وأتوا الناس من الناحية التى يحبون سماع القول منها وكان ذلك سببا لخذلان أهل المدينة اياه

ان عثمان كان له عذر في كل شيء أخذوه عليه غير أن من الاعذار مايكون

وجهه واضحا بينا ، ومنها مالاتقبله النفوس الا على مضض وهم انما كانوا يريدون منه في كل مانقموا عليه أن يسير فيهم بسيرة عمر بن الخطاب وأبى بكر . حتى لقد نصحته أم سلمة زوج رسول الله بكلام طويل فقال لها «يا أمنا قد قلتِ فوعيتُ ونصحتِ فاستوصيتُ . ان هؤلاء النفر رعاع غثرة تطأطأت لهم تطأطؤ المائح الدلاء وتلددت لهم تلدد المضطر فأرانيهم الحق اخوانا وأراهموني الباطل شيطانا . أجررت المرسون منهم رسنه وأبلغت الرائع مَسْقاه فانفرقوا على فرقا ثلاثا فصامت صمته انفذ من صول غيره، وساع أعطانى شاهده ومنعني غائبه، ومرخص له في مده رينت على قلبه . فانا منهم بين ألسن لِداد وقلوب شداد وسيوف حداد . عذيرى الله ، ألا ينهى منهم حليم سفيها ولا عالم جاهلا والله حسبي وحسبهم يوم لاينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون

وعلى الجملة فان قلوب أهل المدينة كانت عامرة ببغضه ولولا ذلك لوجد من يجيد الطعان ويغضب لامير المؤمنين أن يعتريه بالاذى هؤلاء الفجار الاشرار

غير ان نفسى غير مطمئنة الى أن يبلغ الغيظ بأصحاب رسول الله من عثمان عليه أن يخلوا بينه وبين الشاغبين يريقون دمه ويتذامرون عليه بالاثم والعدوان تذامر الايسار على الجزور . وان الامر لكما قال عثمان لعلى « لو ان الامر أمر الجاهلية فقط ولم يكن الاسلام والاخوة لكان حقا عليك أن تنصرنى ولا تخذلني »

فعثمان وقع بين عوامل كثيرة (١) الشاغبون وهم لايتركون مافي رؤسهم دون انفاذه لان فشلهم خطر عليهم (٢) أهل المدينة وهم بين خاذل وساكت راض وقليل منهم يؤلبون ويعاونون عليه (٣) بنو أمية وهم يريدونه على المطاولة الى أن يصل المغيثون ويحملونه على نقض ما أبرم ، وكلما رأى طريقا للتفريج لايحبونها حملوه على سدها (٤) عثمان بمطاوعة بطانته واحجامه عن اعطاء القوم ما أرادوا وَإبائه عن النزول عن الخلافة والقاء الامر الى الامة يدبرونه كما يشاءون وكان في ذلك صيانة

دمه ـ ولقد كان له فيما أشار به عليه المغيرة بن شعبة مناص مما لقي لو قدر الله له ذلك ، فان المغيرة بن شعبة لقي عثمان وهو محصور ، وقال له : يا أمير المؤمنين انك امام العامة وقد نزل بك ماترى . وانى أعرض عليك خصالا ثلاثا اختر احداهن: اما أن تخرج فتقاتلهم فان معك عدداً وقوة وأنت على الحق وهم على الباطل . واما أن تخرق لك بابا سوى الباب الذي هم عليه ، فتقعد على رواحلك فتلحق بمكة فانهم لن يستحلوك وأنت بها . وإما أن تلحق بالشام فانهم أهل الشام وفيهم معاوية . فقال عثمان : أما أن أخرج فأقاتل ، فلن أكون أول من خلف رسول الله ﷺ في أمته بسفك الدماء . وأما أن أخرج الى مكة فانهم لن يستحلونى بها فانى سمعت رسول الله ﷺ يقول « يلحد رجل من قريش بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم » فلن أكون أنا. وأما أن ألحق بالشام فانهم أهل الشام وفيهم معاوية. فلن افارق دار هجرتي ومجاورة رسول الله ﷺ

اجمال الاسباب التى ادت الى قتل عثمان

بعد ذلك التمهيد الذي قدمناه بين يدي قتل الخليفة عثمان بن عفان وشرحنا به احوال الامصار الاسلامية التى كانت سبيل تلك الفتنة أو كان السبئيةُ يستندون الى شيء كان فيها ، ارى ان أجمل اسباب قتل عثمان التى يمكن ان تستنتج من الحوادث والوقائع والاحوال التى قدمنا ليكون القارىء على ذُكر منها

السبب الاول من الاسباب التى افضت الى قتل عثمان اختلاف رؤساء المسلمين فيما بينهم وتطلع الباقين من أهل الشورى كل ليجذب الامر الى نفسه ، واختياره عمن عداه بسبب ماوجده كل واحد منهم من شيعة تؤيده وتحطب في حبله وتريده عليها فلم يدافعوا عنه دفاعا صحيحا ولم يخذلوا عنه ، بل كان الساكت منهم يقرأ

القارىء في طي هـذا السكوت منه كتبا مطولة ـ ولم يكونوا على اتفاق فيما بينهم وبين عثمان ولا على اتفاق فيما بينهم وبين بعضهم . ومعلوم أن الامم والجماعات انما تدار امورهم العامة برؤوس قليلة وبقية الناس لهم تبع ـ فاذا لم تكن هذه الرءوس متحدة في المبدأ والغاية صدرت الاعمال متناقضة متعاكسة بعيدة عن النفع والفلاح

وان اختلاف رؤساء المسلمين وعدم الاخلاص فيما بينهم هو الذي افسح مجال الدسائس والسعايات ، فان اخلاص الرؤساء بعضهم لبعض وتعاونهم فيما بينهم على قضاء المصالح العامة يقطع على مريد السوء والفساد طريق الفتن والثورات فاما اذا انصدع الشمل وتحولت القلوب وحلت الكراهة محل المحبة والتحاسد محل التناصر ، انفسح المجال لرواد الفتن ومحبي الاضطراب . وعلى هذا كانت الحال في المدينة وهي حاضرة الخلافة ومجتمع رؤساء المسلمين والمرشحين منهم لولاية الامر فان من وقف على احوالهم وما كان يبدو على ألسنتهم من الكلمات الشديدة المؤنة في حق عثمان سواء في وجهه أو في غيبته يحكم صادقا أن النفوس كانت منطوية على الضغن له . لذلك افسحوا للاقوال في عثمان المجال ولم ينه بعضهم بعضاً عن ذلك وكان بعضهم يكاتب السبئية وأهل الشغب ويستقدمهم الى المدينة . وما كان يليق بامثالهم أن يجعلوا معوّلهم على أهل الشقاق دون الاعلام من اصحاب رسول الله الذين في الامصار. ولـكن الذين كتبوا يستقدمون أهل الشقاق انما آثروهم لانهم يعلمون أن اعلام اصحاب الرسول في الامصار يكونون أكثر تثبتا وأقل اقداما على ما لا يحل . وهم وان كانوا يكتبون في الـكتب الاستغاثة باصحاب رسول الله غير ان كتبهم انما كانت ترد على فئة خاصة مشاقة قلما يكون فيها واحد أو اثنان من اصحاب رسول الله

ذكر صاحب الامامة والسياسة ان حويطب بن عبد العزى قال : ارسل اليّ عثمان حين اشتد حصاره فقال : قد بدا لي ان اتهم نفسي لهؤلاء فأت عليا وطلحة والزبير فقل لهم هذا أمركم تولوه واصنعوا فيه ما شئتم . فخرجت حتى

جئت عليا فوجدت على بابه مثل الجبال من الناس والباب مغلق لايدخل عليه احد . ثم انصرفت فاتيت الزبير فوجدته في منزله ليس ببابه أحد فاخبرته بما ارسلني به عثمان . فقال قد والله قضى ماعليه أمير المؤمنين هل جئت عليا؟ قلت نعم فلم أخلص اليه . فقمنا جميعا فاتينا طلحة بن عبيد الله فوجدناه في داره وعنده ابنه محمد فقصصنا عليه ماقال عثمان . فقال قد والله قضى ما عليه امير المؤمنين . هل جئتم عليا؟ قلنا نعم فلم نخلص اليه . فارسل طلحة الى الاشتر فاتاه فقال اخبره فاخبرته بما قال عثمان . فقال طلحة وقد دمعت عيناه قد والله قضى ما عليه أمير المؤمنين . فقام الاشتر فقال : تبعثون الينا وجاءنا رسولكم بكتابكم وهاهو ذا . فاخرج كتابا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم . من المهاجرين الاولين وبقية الشورى الى من بمصر من الصحابة والتابعين . أما بعد ان تعالوا الينا وتداركوا خلافة رسول الله قبل أن يسلبها أهلها . فان كتاب الله قد بدل وسنة رسوله قد غيرت وأحكام الخليفتين قد بدلت فننشد الله من قرأ كتابنا من بقية اصحاب رسول الله والتابعين باحسان الا اقبل الينا وأخذ الحق لنا واعطاناه فاقبلوا الينا ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الاخر، واقيمو الحق على المنهاج الواضح الذى فارقتم عليه نبيكم وفارقكم عليه الخلفاء. غلبنا على حقنا واستولى على فيئنا وحيل بيننا وبين امرنا وكانت الخلافة بعد نبينا خلافة نبوة ورحمة وهي اليوم ملك عضوض من غلب على شيء أكله » أليس هذا كتابكم الينا؟ وقال الطبرى إن عثمان رمى بوصيته الى الزبير فاخذها وانصرف - وفي الزبير خلاف هل ادركه مقتل عثمان أو خرج قبله - وقال عثمان : ياقوم لايجرمنكم شقاقي ان يصيبكم مثل ما اصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح وما قوم لوط منكم ببعيد وياقوم استغفروا ربكم ثم توبوا اليه ان ربي رحيم ودود - اللهم حل بين الاحزاب وبين مايأملون كما فعل باشياعهم من قبل . وبعث ليلى

بنت عميس الى محمد بن ابي بكر ومحمد بن جعفر فقالت: ان المصباح ياكل نفسه ويضيء للناس. فلا تأثما في امر تسوقانه الى من لا يأثم فيكما. فان هذا الامر الذي تحاولون اليوم لغيركم غدا. فاتقوا الله ان يكون عملكم اليوم حسرة عليكم. فلجا وخرجا مغضبين يقولان لا ننسى ماصنع بنا عثمان – وتقول ماصنع بكما الا ما الزمكما الله. فلقيهما سعيد بن العاص وكان بينه وبين محمد بن ابى بكر شيء فأنكره حين لقيه خارجا من عند ليلى فتمثل له في تلك الحال بيتاً:

استبق ودك للصديق ولا تكن فيئاً يعض بخاذل ملجاجا

فأجابه سعيد متمثلا:

ترون اذاً ضربا صميما من الذي له جانب ناء عن الجرم معور

ولما قدم السابق من الحاج بسلامة الناس. أخبر أن الناس جميعاً يريدون المصريين وأشياعهم وانهم يريدون أن يجمعوا ذلك الى حجهم. فلما اتاهم ذلك مع ما بلغهم من نفور أهل الامصار أعلقهم الشيطان. وقالوا لا يخرجنا مما وقعنا فيه إلا قتل هذا الرجل فيشتغل بذلك الناس عنا ولم يبق خصلة يرجون بها النجاة الا قتله فراموا الباب فمنعهم من ذلك الحسن وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص ومن كان من أبناء الصحابة أقام معهم واجتلدوا فناداهم عثمان: الله الله أنتم في حل من نصرتي فأبوا ففتح الباب وخرج ومعه السيف والترس لينهنهم، فتراجعوا وعظم على الفريقين وأقسم على الصحابة ليدخلن. فأبوا أن ينصرفوا فدخلوا فأغلق الباب دون المصريين. وقد كان المغيرة بن الاخنس بن شريق فيمن حج ثم تعجل في نفر حجوا معه فأدرك عثمان قبل أن يقتل وشهد المناوشة ودخل في الدار فيمن دخل وجلس على الباب من داخل وقال: ما عذرنا عند الله ان تركناك ونحن نستطيع أن لا ندعهم حتى نموت. فاتخذ عثمان القرآن تلك الأيام نجيا يصلى وعنده المصحف. فاذا أعيا جلس فقرأ فيه، وكانوا يرون

القراءة في المصحف من العبادة .

وقد أثرت كلمات في حق عثمان عن كثير من كبراء المدينة ، كما قدمنا . كل ذلك يقال ويفعل من غير بيان للاسباب التى أدت بهم الى مثل ذلك بيانا شافيا ومن غير نظر الى ما تحدثه كلماتهم بين العامة وبخاصة اذا صادفت آذانا مصغية من مهيجين مثيرين

السبب الثانى — يقول زهير بن أبي سُلمى :

ومن لم يذُد عن حوضه بسلاحه يهدّم ومن لا يظلم الناس يظلمِ

وقد كان عثمان رجلا قد استولى عليه من الاخلاق الحياء واللين : أما حياؤه فكان مشهورا به في الجاهلية والاسلام ، وقد قال في حقه رسول الله ﷺ « الا أستحي من رجل تستحي منه الملائكة » ومعلوم أن خلق الحياء يحمل صاحبه على الاغضاء عن كثير مما يكره . وأما اللين فدعاه اليه أنه يحب السلامة والعافية ويكره الفتن ويخاف أن يكون فاتح بابها على الامة ويتشاءم من كل أمر يظنه مؤدياً اليها . وهو في كل كتبه وخطبه يحذر الناس الفتنة ويأمرهم بتوقي أسبابها وينهاهم عن التورط في حبائلها . حتى ان خطبته التى قالها على المنبر لاول مرة لم تخل من ذكر الفتن ومغباتها وما تستعقب من وبال والتحذير من ذلك

أما الخلق الاول وهو الحياء فدعاه الى التسامح مع من يناله بالاذى أو يقصده بالسوء فلا يوجه الى أحد من المعتدين كلمة تسوءه . لان صاحب هذا الخلق يخجل أن ينسب اليه قبيح ولو كان دفاعاً ويحب أن يؤثر عنه الجميل من القول والعمل وكم من مرة قد جهد عثمان أن يخرج نفسه عن سيرته الاولى ليكف الناس عنه ويهابوا جانبه ولكن تأبى الطباع على الناقل . وهذا الخلق الكريم لا يحسن إلا بالمتسمتين وفلاسفة الاخلاق ومن نصبوا أنفسهم ليكونوا قدوة للناس في العفو والصفح . وأما أهل الحكم والسلطان والقول النافذ في الرعيـة فانهم يحتاجون الى هيبة تملأ القلوب

وتقف بالناس عند حد الاجلال لهم والاعظام لشأنهم والاكبار لمقامهم

ولا خير في حلم اذا لم تكن له بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

هذا عمر بن الخطاب - قد جاءه سعد بن مالك وهو يقسم العطاء ينحي الناس ويفرقهم حتى خلص اليه مدلا بما له من سابقة وحسن بلاء فلم يحجز ذلك عمر ان خفقه بالدرة وقال له : جئت لا تهاب سلطان الله فأحببت أن أعلمك أن سلطان الله لايهابك . فالسلطان أحوج الناس الى قوة تنحي عنه الضعف وتنكب به عن الذلة . وعثمان لم يكن له حظ من القوة اللائقة بسلطان الخلافة

أما خلق اللين فقد قبض يده عن زعماء المفسدين وقادة المشاقين الذين رُفعوا اليه وثبت عليهم أنهم انما قدموا للمشاقة والفتنة فلم يتناولهم بعقاب يبين آثار ذنوبهم على صفحات جنوبهم . وقد كان في مقدوره أن يقطع أعناق الفتنة بنكالهم وقد أمكنه الله من نواصيهم . ولما أراد مشاورة ولاته في تلافي الخطر - أشاروا عليه بما في بعضه مقنع وحسم لمادة الداء لو أخذ الامر بالحزم ولم يمل الى جانب العجز . فلم يعبأ بالقول . ولم يقرّ ما خلقوا من خطة الجد . بل اختار جانب اللين خشية أن يكون فاتحاً باب الفتنة التي كان شبحها يخيفه في كل حركاته وسكناته - واجتزأ من نكال محركي الفتنة ومثيري عجاجها بأن احتج لنفسه وأبدى عذره في كل أمر جاءوا لاثباته عليه في حين أنهم جماعة قد بيتوا الامر واختمر في نفوسهم زمناً . والجماعة لا يمكن أن تؤثر في نفوسهم الاقوال المعقولة والبراهين القاطعة اذ الجماعات في العين شخص أصم عن الموعظة مصغ الى التهييج متلبب لفعل الشر . والجماعات انما تهاب القوة وتخضع للقسر والقهر فهي معبودها الاول ودينها الذي تدين له . فما زاد عثمان الامر باعتذاره إلا فساداً وقوى فيهم الجرأة عليه والاقدام على مساخطه . والقوم ليسوا بطلاب حق تنفعهم الذكرى وتقيمهم الحجةُ على المحجة وانما هم طلاب شر يتطلبون الطريق اليه كلما أعجزهم باب التمسوا غيره . فضعفه هو الذي جرأهم عليه

السبب الثالث : – ماخالف به عثمان صاحبه عمر في أعلام قريش . فإن عمر كان يحجر عليهم في المدينة فلا يسمح لهم أن يفارقوها إلا باذن وأجل فلما جاء عثمان سمح لهم بذلك . وكان هذا مما حببه اليهم أكثر من عمر – ولكن هذا السماح قد جنى على عثمان ورتب عليه ما كان يحذره عمر . فانه قد اجتمع الى أعلام قريش أناس ممن لا سابقة لهم في الاسلام والتصقوا بهم وتقربوا اليهم مقدرين أنه اذا أفضى الامر اليهم في يوم من الايام كانوا أقرب الناس اليهم فنبه بذلك ذكرهم وطار لهم صيت وجرت أسماؤهم على الالسنة

يشهد لذلك أن أهل البصرة كانوا يحطبون في حبل طلحة ويجهدون في أن يلي الخلافة بعد عثمان ، وكان أهل الكوفة يريدون الزبير بن العوام . ولولا اضطراب هؤلاء الرهط في الامصار أيام عثمان ما كان لواحد منهم شيعة في بلد من البلدان

لا شك في أن علياً لم يهبط الى مصر ولا الى غيرها من البلاد . غير أنه كان له دعاة متطوعون له بالدعوة يشيدون بذكره ويروجون أمره فيها وهم عبد الله بن سبأ الذي استفسد الناس باسمه وأدخل على الأمة ضرباً من الالحاد على حسابه . ومحمد بن أبي بكر ربيبه فان أسماء بنت عميس زوج أبي بكر تزوجت بعده بعلي بن أبي طالب وابنها محمد بن أبي بكر صغير فربى فى حجرها ورباه علي فكان له كالوالد . فلما سقط الى مصر آوى الى محمد بن أبي حذيفة وعنده من الحنق على عثمان ما أكل صدره ومحمد بن أبي بكر موتور من عثمان لما قدمنا واتحادهما في عداوة عثمان يوحد وجهتهما فكانا على الحط على عثمان وتمهيد أمر علي ولا يبعد أن يكونا أو أحدهما قد استعمل اسم علي في التأليب على عثمان واثارة الثائرين عليه وعلي لا يعلم ذلك ، فقد حلف أنه ما كتب للمصريين كتابا ولا دعاهم . ولما قدمنا كان هوى أهل مصر في علي بن أبي طالب فلم تكن مطالب أهل الامصار إلا نتيجة لازمة لما سامح به عثمان وانقطاع العامة الى أولئك الاعلام أو الى من هو سبيل منهم رجاء أن يكون لهم شأن نابه وصيت طائر اذا انتقلت الخلافة من عثمان الى صاحبهم

لهذا لما تم الامر لعلي بن أبي طالب صاحب المصريين ولم يتم للآخرين اجتمعا عليه وحارباه وجهدا في نقض بيعته والتأليب عليه . وقد قل الاستاذ الخضري : لا يمكن من قرأ تفصيل الحوادث التي سبقت قتل عثمان أن ينفي عن أعلام قريش تطلعهم الى ولاية الامر – ولكن من الصعب أن يثبت على أحدهم اشتراك حقيقي مع المتآمرين – والذي يؤخذ عليهم هو هوادتهم في القيام بنصرة عثمان خليفة المسلمين واسترسال بعضهم في الاقوال التي تحط من قدره حتى وقت اشتداد الازمة وعلى مسمع من رؤساء الثائرين الذين يشتد هياجهم بمثل هذه الكلمات

السبب الرابع – هذا السبب أسوقه عن محاضرات الاستاذ الخضري مع ما يمكن أن يعرض من استدراك أو تفصيل أو توضيح مما أراه :

سهولة التأثير في الجماعات متى أتوا من قبل ما يهوون وما يحبون . وهم في هذا الحال لا يصطبرون حتى يتثبتوا مما يلقى عليهم . بل سُرعان ما يصدقونه و يألمون له ان كان مؤلما ويسرون ان كان ساراً . وقد كان الناس مسلمين يحبون نبيهم أكثر مما يحبون أنفسهم ، عرباً يحبون العدل والمساواة ويطربون لذكرها . وقد ذوقهم عمر حلاوة ما يعشقون من الحرية والعدل والمساواة وقوي ذلك في نفوسهم . فجاء ذلك الشيطان عبد الله بن سبأ الى القوم من الجهة التي يألفونها وهي نقطة ضعفهم وصار يضع لهم الكلام في تعظيم الرسول وأهل بيته ويعسو بهم علي بن أبي طالب ووسمه بأنه وصي رسول الله ﷺ كما كان لكل نبي وصي . وأنه من الحق الواجب أن يعطى الامر لصاحب الحق لان من اجترأ عليه فأخذه منه ظالم غاشم . ثم أخذ يذيع ما يدسه مدحاً لعلي بن أبي طالب حتى سما به الى درجة لم يطلبها علي لنفسه وتخطى به طوره الى أن وضعه موضع الالوهية . وغير هذا الامر الاخير من الكلام يسهل ادخاله في القلوب وبخاصة اذا كان قد سبقه شيء من الضغينة على من بيده أمر الخلافة — ولذلك نرى هذا الرجل كان يتتبع من أصابه من ولاة عثمان أذى في

نفسه أو ماله ، ويفضي اليه بما رتبه من القول وهيأه من الاذاعة . ثم جاءهم من قبيل العدل والمساواة وهي كلمات طنانة يؤلهها الجمهور ويصغى اليها الناس . حتى اذا ما أيقن أنه استهوى القوم بما نفث من الرقىٰ ، أخذ يطعن في أمراء عثمان مرة بأنهم شبان ، ومرة بأنهم من ذوى قرباه ، وأخرى بأنهم ظلمة يسومون الناس خسفاً . والموتورون — الذين كانوا يوازرونه ويؤيدونه لاغراض في أنفسهم — تلقفوا الامر بحذق ، واشتغلوا به بمهارة . فصارت شيعتهم في كل مصر تكتب الى المصر الآخر بما عندهم من المحزنات التي يتزيدون فيها ما شاءت لهم ضغائنهم وأهواؤهم . فيقرأ كتابهم على العامة علناً فيستغيثون بالله مما حل باخوانهم ، ويقولون: نحن في عافية مما ابتلي به هؤلاء الناس . وهم لا يعلمون أن اخوانهم بالمصر الآخر يتوجعون لهم ويحمدون الله على العافية مما أصيبوا به . بذلك كله تهيأ لهم أن يوغروا صدر العامة ممن يجتمع عليهم ، وليس لشيء مما يكتبون صحة . فقد كانوا يعيبون معاوية . وهذا لم يوجده عثمان بل ولاه رسول الله ﷺ وولاه أبو بكر وولاه عمر . ولم نر من العمال من استمر موثوقاً به من عمر حياته كلها إلا أفراداً قليلين منهم معاوية ابن أبي سفيان . فقد كان والياً من أول حياة عمر الى آخرها . وكانت الشام أعدل ولايات المسلمين وأهدأها . واني لم أقف لهم في معاوية على عيب أو عمل منتقد إلا ما قالوه في مسألة أبي ذر . والمنصف يرى أن عمل أبي ذر وقوله فيما دعا اليه لم يكن فيه مصيباً . بل هو يدعو الى الشقاق والخلاف والتكالب على الدنيا والاسهام في المال لمن لا يستحق . وكانوا يعيبون عبدالله بن أبي سرح لا لأنه ظالم أو جائر ولكن لامر آخر وهو أن النبي ﷺ كان قد أهدر دمه يوم الفتح لما كان من ردته ثم استوهبه منه عثمان وأتى به تائباً مسلماً فعفا عنه . ومعلوم أن رسول الله ﷺ كان اذا عفا فانما أسبل على الذنب ستراً لا يكشف وليس عبد الله بن سعد فيما أتى بأكثر من العدد الجم من الشاغبين اذ ارتدوا مع قبائلهم عقب وفاة رسول الله ﷺ . فهم يعيبون عليه

شيئاً أكثرهم أحدث عهداً به منه . وكانوا يعيبونه بتولية الوليد بن عقبة ، وعثمان لم يبتدىء بتوليته ولكنه كان والياً لعمر من قبله على الجزيرة وانما نقله عثمان منها الى الكوفة . فلما جاءها كان أحسن وال سيرة الى أن شغبوا عليه وشهدوا عليه بشرب الخمر شهادة لا يعلم إلا الله ان كانوا قد بروا بها أو فجروا فحده وعزله عنهم . وقد استضعف على رأي من عد ذلك على عثمان . وقال ما معناه لا تكن كمن يطعن نفسه ليصل بالطعنة الى رديفه ليقتله ! ما لعثمان وللوليد ؟ وما ذنبه ان عثمان قد ولى الوليد ؟ فلما استوجب الحد حده وعزله فما ذنبه فيما كان من ملأ منا ؟ وكانوا يعيبون سعيد بن العاص وكان باعتراف أهل الكوفة من أجود العمال في عمله وأشدهم تحرياً للعدل والقسط فلم تكن هذه المذام والامور التي يتجنون بها على العمال موجهة بحق لرفع جور أو ازاحة حيف ، وانما كان يقصد بها التأثير في قلوب الناس وهم يتأثرون بسرعة من مثل هذه الاقوال دون احتياج الى دليل أو برهان لان الادلة والبراهين والحجج العقلية والنتائج المنطقية لا تؤثر في عقول الجماعات ولا تتفق معها

وقد ساعد على استفحال الشر أولياء الامر وأصحاب الرأي في الامصار اذ لم يبادروا الشر قبل استفحاله و يأخذوا الحيطة من تفاقم الفتنة ـ لان أمراء الخليفة لم يكن لهم مثل هذا السلطان . والخليفة آخذ على أيديهم مشفق أن يبسطها فيفتح عليه باب الفتنة الذي يسعى الى سده جهده حذراً من أن يأمر بذلك ، فضاعت مصلحة الامة . واذا أردنا أن نحمل الناس في ذلك الوقت تبعة أعمالهم وجدنا عثمان أقلهم تبعة في ذلك لان الحلم واللين لم يكونا في زمن من الازمان مما يتجنى به على أولى الامر والتبعة يحملها من مهدوا السبيل لذلك التجنى

هذا رأي الاستاذ الخضري ومن رأيي ان عثمان يحمل قسطاً ليس بالقليل في شأن تلك الجناية لانه اذا كان قد عرف من نفسه الرقة واللين فكان الاجدر به أن يترك الامر لغيره ولا ينكب الامة بقتله ولا يفجعها هذه الفجيعة الحارة المرة

وقال صاحب أشهر مشاهير الاسلام : « وأما افضاؤه الى بني أميـة باموره دون غيرهم من أهل الشورى والسابقين واستئثارهم بالسلطة واقتطاعهم الامور دونه فهو الامر الذي اهتزت له أعصاب المهاجرين وحذر عاقبته عقلاء المسلمين خوف اصطباغ الدولة بالصبغة الأموية . . . ومع تأكد عثمان من عدم رضا المسلمين عن استسلامه لأولئك النفر من أهله وعشيرته وان أكثر ما هاج المسلمين عليه تسلط هؤلاء عليه واستئثارهم بالامر الذي لم يكن لهم خاصة بل هو لكل المسلمين لا سيما أولي السابقة منهم والمهاجرين . فقد كان حريصاً على أن لا يتخلى عنهم ولا يجيب ملتمس الامة (من الظلم أن نقول الامة ولكن الاولى أن يقال أهل الفتنة) فيهم . وليس لهذا الاصرار على ما يظهر لنا من سبب الا أحد أمرين : اما لان قومه استلانوا جانبه واستضعفوه فغلبوا على رأيه فيهم ، واما لانه أحسَّ منذ عهدَ عمرُ للستةِ ووقوع الاختيار عليه بظهور تحزب بين الشعب وتشيع يجر الى الاختلاف عليه والكيد له . نخشي إنْ هو انفرد عن قومه وقاطع أهله وعشيرته أن يتوثب عليه عمال الامصار فلا يجد دون أهله عاصما مما يأتيه من قبل المتوثبين عليه فاستمسك بذوي قرابته وولاهم على الامصار ، فلما كثر الارجاف بهم والطعن عليهم ورغب اليه الناس في عزلهم زاد به القلق من جهة ما كان يخامره من الشك في الشيع فولى شكايتهم ظهره وأصر على بقاء الولايات في ذوي قرابته وركن اليهم واعتمد في الامور عليهم فكانت له ولهم اثرة أنكرها عليه الصحابة وعلى ولاته أشد الانكار وتذرع الثائرون عليه بتلك الاحداث الى خلعه تخلصاً من سلطان أهله وكانت الاثرة هي السبب الاول في استفحال أمر الفتنة التي لما اشتدت نارها واشتعل أوارها أصبح اطفاؤها خارجاً عن طوق كبار الصحابة وقادة الناس . وربما ندموا حينذاك على ما تقدم ولات ساعة مندم . أخرج ابن عساكر عن الاوزاعي أنه قال : قيل لعلي بن أبي طالب :

أفقتل عثمان منافقاً ؟ قال لا ولكنه ولي فاستأثر وجزعنا فأسأنا وكلٌ سيرجع الى حَكم عدل . فان تكن الفتنة أصابتنا أو خبطتنا فما شاء الله » اهـ

ومن الغريب بعد ذلك أن تبقى هذه الحادثة سبباً دائماً لتفريق كلمة المسلمين. ففي بعض الاحيان فرقة عملية تتوسط فيها السيوف والاسنة ، وفي بعض الاحيان فرقة كلامية تنتهي دائما بعداء ونفور . وليس ذلك الا لان المسألة ألبست ثوب الدين وكل حاول الوصول بما يثبته وما يختلقه الى غرض من الاغراض . ولو نظرنا الى المسألة بنظر صحيح لقلنا : خليفة من خلفاء المسلمين غضب عليه بعض رعيته بعضهم سيء القصد والبعض الآخر تابع لهم ثم قاموا عليه وحصروه وقتلوه بشكل وحشي لا يتفق مع أصول الاسلام . ثم نحكم بانهم أخطأوا خطأ عظيما ثم ذهبوا الى من له الحق أن يدينهم ولم يبق منهم يمكننا الانتقام منه لسوء قصده أو نبين الصواب له لخطئه . وغاية الأمر ان الباقى لنا من كل ذلك هو الاستفادة مما كان . فالعاقل همه أن يتعلم ويفهم لا أن يحقد على قوم لم تبق منهم باقية

لا يمكن حماية الامة من أصحاب المقاصد السيئة الذين يريدون فتنتها وتهييجها لغير مصلحتها الا ان كان فيها من العقلاء من يحترم رأيهم وتسمع كلمتهم فانهم يبصرون قومهم بما يعود عليهم بالخير والفلاح . وكل أمة فقدت هؤلاء السراة العقلاء سهل على مثل ابن سبأ ومن لف لفه أن يفتنوها ويلفتوها عما يصلحها ويجعلوا بأسها بينها شديداً . وهم في كل زمن كثيرون فما ظنك بالامة اذا كان سراتها ممن يساعد على فتح باب الشر باغضائه وتهاونه . ان الشر حينئذ يكون مستطيراً والبلاء عظيما وسيمر بنا في التاريخ من ذلك شيء كثير

قبل الحصار

ألخص هنا رواية الطبري الى محمد بن مسلمة — قال : خرجت في نفر من قومي الى المصريين . وكان رؤساؤهم أربعة : عبد الرحمن بن عديس البلوي ، وسودان بن حمران المرادي ، وعمرو بن الحمق الخزاعي — وقد كان هذا الاسم غلب حتى كان يقال جيش ابن الحمق — وابن النباع . فدخلت عليهم وهم في خباء لهم أربعتهم . ورأيت الناس لهم تبعاً . فعظمت حق عثمان وما في رقابهم من البيعة . وخوفتهم الفتنة . واعلمتهم ان في قتله اختلافاً وأمراً عظيما . فلا تكونوا أول من فتحه . وأنه ينزع عن هذه الخصال التي نقمتم عليه فيها ، وأنا ضامن لذلك . قال القوم : فان لم ينزع ؟ قلت : فامركم اليكم . فانصرفت عن القوم وهم راضون

رجعتُ الى عثمان فقلت : اخلني . فاخلاني . فقلت : يا عثمان ، اتق الله في نفسك . فان هؤلاء القوم انما قدموا يريدون دمك . وأنت ترى خذلان أصحابك لك . لا ، بل هم يقوون عدوك عليك . فاعطاني الرضا . وجزاني خيراً

أقمت ما شاء الله أن أقيم . وقد تكلم عثمان برجوع المصريين . وذكر أنهم جاءوا لامر فبلغهم غيره فانصرفوا . فأردت أن آتيه لأعنفه ثم أمسكت . فاذا قائل يقول : ان المصريين قدموا وهم بالسويداء . فأرسل اليَّ عثمان فقال : يا أبا عبد الرحمن هؤلاء القوم قد رجعوا فما الرأي فيهم ؟ قلت لا أدري الا أني أظن أنهم لم يرجعوا لخير . قال : فارجع اليهم فارددهم . قلت : لا والله ما أنا بفاعل . قال : ولم ؟ قلت لأني ضمنت لهم أموراً تنزع عنها فلم تنزع عن حرف منها . فقال : الله المستعان

جاءني ابن عديس ومعه سودان بن حمران وصاحباه ، فقالوا : يا أبا عبد

الرحمن ألم تعلم أنك كلمتنا ، ورددتنا ، وزعمت أن صاحبنا نازع عما نكره ؟ قلت بلى . فاذا هم يخرجون الي صحيفة صغيرة في قصبة من رصاص يقولون وجدنا جملا من ابل الصدقة عليه غلام عثمان ، فأخذنا متاعه ففتشناه ، فوجدنا فيه هذا الكتاب . فاذا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم * أما بعد ، فاذا قدم عليك عبد الرحمن بن عديس فاجلده مائة ، واحلق رأسه ولحيته ، وأطل حبسه ،حتى يأتيك أمري . وعمر بن الحمق فافعل به مثل ذلك . وسودان بن حمران مثل ذلك . وعروة بن النياع مثل ذلك . قلت : وما يدريكم أن عثمان كتب هذا ؟ قالوا : فيفتات مروان على عثمان بهذا ؟ فهذا شر . فيخرج من هذا الأمر . ثم قالوا : انطلق معنا اليه ، فقد كلمنا علياً ووعدنا أن يكلمه اذا صلى الظهر . وذكروا أنهم كلموا ناساً من أصحاب رسول الله فأبوا أن يكلموا عثمان

قال محمد بن مسلمة : ثم دخلت عليه أنا وعلي ، فقلنا : ان هؤلاء المصريين بالباب ، فاذن لهم . ومروان عنده جالس . فقال : دعني جعلت فداك اكلمهم . فقال عثمان : فض الله فك . وما كلامك في هذا الأمر ؟ فخرج مروان . وجعل عليٌّ يخبره ما وجدوا في كتابهم . فجعل عثمان يقسم بالله ما كتب ولا علم ولا شوّر فيه وصدقه محمد بن مسلمة . فقال علي : فادخلهم ليسمعوا عذرك . ثم أقبل عثمان على علي يقول له : ان لى قرابة ورحماً ، والله لو كنت في هذه الحلقة لجللتها عنك ، فاخرج اليهم فكلمهم فانهم يسمعون منك . فابى علي . ودخلوا فقالوا : سلام عليكم ولم يسلموا عليه بالخلافة . ثم قدموا في كلامهم ابن عديس : فذكر ما صنع ابن سعد بمصر . وذكر تحاملا على المسلمين وأهل الذمة . وذكر استئثاراً منه في غنائم المسلمين . فاذا قيل له ذلك قال هذا كتاب أمير المؤمنين اليّ

ذكروا مع ذلك أشياء مما احدث بالمدينة وما خالف به صاحبيه ، وانهم رحلوا

من مصر لا يريدون الا دمه او ينزع ، وان محمد بن مسلمة ردهم وضمن لهم النزوع عن كل ما تكلموا فيه . (وصدقهم محمد بن مسلمة) . قالوا : ثم رجعنا الى بلادنا نستظهر بالله عز وجل عليك ويكون حجة لنا بعد حجة ، حتى اذا كنا بالبويب . أخذنا غلامك : فأخذنا كتابك وخاتمك الى عبد الله بن سعد تأمره فيه بجلد ظهورنا والمثل بنا في أشعارنا وطول الحبس لنا ، وهذا كتابك . قال عثمان : والله ما كتبت ولا أمرت ولا شورت ولا علمت . قال محمد بن مسلمة : فقلت وعليٌّ جميعا : قد صدق . فاستراح لها عثمان . قال المصريون : فمن كتبه ؟ قال : لا ادري . قالوا : أفيجترأ عليك ، فيبعث غلامك ، وجمل من صدقات المسلمين ، وينقش على خاتمك ، ويكتب الى عاملك بهذه الامور العظام وأنت لا تعلم ؟ قال نعم . قالوا فليس مثلك يلي . اخلع نفسك من هذا الامر كما خلعك الله منه . قال : لا أنزع قميصاً ألبسنيه الله عز وجل . وكثرت الاصوات واللغط . فما كنت أظن أنهم يخرجون حتى يواثبوه . وقام علي فخرج وخرجت معه وقال للمصريين : اخرجوا . فخرجوا . ورجعت الى منزلي ورجع علي الى منزله . فما برحوا محاصريه حتى قتلوه

اذا سلمنا رواية محمد بن مسلمة هذه جاءتنا امور وهي محل العجب وموضع الغرابة

هذا غلام عثمان حاضر بالمدينة ، وجمل الصدقة الذى وجده المصريون والغلام عليه موجود . فما بال عثمان لا يسأل الغلام عن الشخص الذي سلم اليه الكتاب أو الظرف وهو فيه ؟ وما باله لا يسأله عن أمره بالمسير الى مصر . وعن الذى أعطاه جمل الصدقة . وما باله لا يسأل القيم على ابل الصدقة عمن أخذ ذلك الجمل . ولم أخرجه منها بدون اذن أمير المؤمنين ؟ في هذه الحال كان يتبين

الذي افتعل الكتاب . والذي وجه بالغلام الى مصر . وحينئذ يعرف المصريون أين ثأرهم وحينئذ يقع عليه الجزاء العادل . ويعاقب بنفس العقاب الذي تضمنه الكتاب

غير ان عثمان لم يفعل . وحينئذ يكون معذوراً من يتهمه بالتهاون

كيف قتل عثمان؟

رأى الشاغبون انه لا مفر لهم من احد امرين ليأمنوا على أنفسهم . أحدهما أن يخلع عثمان نفسه من الخلافة فيكون ذلك سبباً لعزل عماله من الخليفة الجديد حتى لا يصطلمهم العمال اذا رجعوا الى بلادهم . ثانيهما : قتله وذلك يستتبع تغيير عماله قطعاً فينجو كل واحد من العقاب . فلما طالت مدة الحصار ولم يُجدِهم الاحتجاج على عثمان والتردد عليه مرة بعد اخرى وأحسوا عودة الحاج وفصول من فصل من الامصار لاغاثته وان ذلك متى تم خرج الامر من أيديهم ، وفي ذلك نكالهم ، هموا بالدخول عليه واقتحام داره من بابها ، فاحرقوا الباب وقاتلهم من كانوا بالدار لحماية عثمان غير مصغين لنهيه اياهم عن القتال ، وكان منهم المغيرة بن الاخنس بن شريق والحسن بن علي ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير ومروان وأبو هريرة وغيرهم وكان بين الفريقين قتلى وجرحى على باب الدار

رأى اولئك المحاصرون أن اقتحام الدار من بابها يكلفهم ثمناً غالياً فاقتحموا دار عثمان من غير بابها . بل تسوروا عليه من دار ملاصقة لداره وهي دار عمرو بن حزم حتى ملأوا الدار ولا يدري من بالباب . فدخل عليه رجل فقال اخلعها وندعك فقال ويحك والله ما كشفت امرأة في جاهلية ولا اسلام ولا تغنيت ولا

غنيت ولا وضعت يميني على عورتي منذ بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولست خالعاً قميصاً كسانيه الله تعالى حتى يكرم الله أهل السعادة ويهين أهل الشقاء. فخرج عنه. ومعنى عبارة عثمان انه لم يفعل ما يوجب اراقة دمه ولا ما يكون بسبيل ذلك. ثم دخل عليه ناس رجعوا ولم يمسوه بأذى آخرهم محمد بن أبي بكر. فقال له عثمان: ويلك أعلى الله تغضب؟ هل لي اليك جرم الاحقه اخذته منك. فأخذ محمد لحيته وقال قد أخزاك الله يا نعثل (اسم رجل قبطي كانوا يشبهون عثمان به لعظم لحيته) فقال لست بنعثل، ولكني عثمان وأمير المؤمنين. فقال ما أغنى عنك معاوية وفلان وفلان؟ وقبض على لحيته فقال يابن أخي ما كان أبوك ليقبض عليها. فقال لو رآك أبي تعمل هذه الاعمال لانكرها عليك. والذي اريد بك أشد من قبضي عليها. فقال عثمان استنصر الله عليك واستعين به. فتركه وخرج

هذا هو الصحيح من أمر محمد معه

ثار بعد ذلك قُتيرة وسودان بن حمران والغافقي فضربه الغافقي بحديدة كانت معه وضرب المصحف الذي كان عثمان يقرأ فيه برجله فاستدار المصحف واستقر بين يديه وسالت عليه الدماء وجاء سودان ليضربه فاكبت عليه نائلة لتقيه، فنفحها بالسيف فاطن أصابع يدها وولت. وهنا اختلف فيمن ضربه الضربة التي كان بها قتله ففي رواية انه سودان بن حمران وفي رواية انه كنانة ابن بشر التجيبي. وفي ذلك الوقت دخل غلمة من غلمان عثمان مع القوم لينصروه فلما ضربه سودان ضرب بعض اولئك الغلمان سودان على رقبته فقتله ووثب قُتيرة على الغلام فقتله وانتهبوا ما في البيت وخرجوا ثم أغلقوه على ثلاثة قتلى: عثمان، وسودان، وغلام عثمان

لما خرج القوم من الحجرة التي ترك فيها عثمان قتيلاً، وثب غلام لعثمان على قتيرة

فقتله وثار القوم فأخذوا ما وجدوه في الدار حتى ما على النساء . وأخذ كلثوم التجيبي ملاءة من نائلة فقتله غلام لعثمان . ودخل عمرو بن الحمق على عثمان وبه رمق فوثب على صدره وطعنه تسع طعنات ؛ وأرادوا قطع رأسه فصاح بهم النساء فقال ابن عديس اتركوه . وأقبل عمير بن ضابىء فوثب عليه فكسر ضلعاً من أضلاعه وقال : سجنتَ أبي حتى مات في السجن . وماج الناس وتنادوا ادركوا بيت المال ولا تُسبقوا ! اليه فهرب حارساه ، وانتهب الناس غرارتين مملوءتين فضة كانتا فيه . وكان قتله لثماني عشرة ليلة خلت من شهر ذي الحجة سنة خمس وثلاثين يوم الجمعة .

أما مدة خلافته فهي اثنتا عشرة سنة الا اثني عشر يوماً . واختلف في سنه فالمقل يقول خمساً وسبعين سنة والمكثر يقول تسعين سنة

وسبب اضطغان عمير بن ضابىء على عثمان حتى كسر ضلعه بعد قتله ان أباه ضابئاً استعار أيام ولاية الوليد بن عقبة الكوفة من قوم من الانصار كلباً يدعى قرحان يصيد الظباء ، فحبسه عنهم ، وانتزعوه منه قهراً فهجاهم بقوله :

تجشم دوني وفد قرحان خطة ... تضل لها الوجناء وهي حسير
فباتوا شباعا طاعمين ، كأنما ... حباهم ببيت المرزبان أمير
فأمكم لا تتركوها وكلبكم ... فان عقوق الامهات كبير

فاستعدوا عليه عثمان ، فحبسه ومات في سجنه ، وقال وهو في السجن :

هممت ولم أفعل وكدت وليتني ... تركت على عثمان تبكي حلائله
وقائلة قد مات في السجن ضابىء ... الا من لخصم لم يجد من يحاوله

لهذا صار ابنه عمير سبئياً

وقد اتفق رأي كُمَيل بن زياد وعمير بن ضابىء على الفتك بعثمان في حياته فقدما المدينة . فاما عمير فنكل وتقدم اليه كميل فناوره فوجأ عثمان وجهه فوقع على استه .

فقال : أوجعتني يا أمير المؤمنين . فقال : أولستَ بعاتك ؟ قل لا والله . فقال استقد مني . فعفا عنه . وبقي الرجلان الى أيام الحجاج فقتلهما وسيجيء ذلك

دفن عثمان

رويت في دفن عثمان روايات أدناها الى الانسانية رواية جاء بها ابن الاثير انه شهد جنازته علي وطلحة وزيد بن ثابت وكعب بن مالك وعامة من ثم من أصحابه

وهناك رواية تقول : ان عثمان بقي ثلاثة أيام لا يدفن ثم ان حكيم بن حزام القرشي وجبير بن مطعم كلما علياً في أن يأذن بدفنه ففعل . فلما سمع بذلك أولئك الثوار قعدوا له في الطريق بالحجارة ليرجموه اذا مر . وسمع علي بذلك فأرسل يمنعهم وخرج به ناس يسير عددهم من أهله وغيرهم فيهم الزبير والحسن وأبو الجهم بن حذيفة ومروان بين المغرب والعشاء فأتوا به حائطاً من حيطان المدينة خارج البقيع يقال له حش كوكب فصلى عليه أحد الحاضرين وجاء أناس من الانصار ليمنعوا من الصلاة عليه ثم تركوا ذلك خوف الفتنة ثم دفن في ذلك الحائط . فلما كانت أيام خلافة معاوية وصل ذلك الحائط بالبقيع وأمر الناس بالدفن حول قبر عثمان . وهناك روايات أخرى أفظع . فاذا لم تصح الرواية الاولى فان القوم يكونون قد استعملوا مع عثمان من الوحشية ما يقبح استعماله مع الكفار وعبدة الاوثان ولا يليق صدوره من انسان فضلا عن مسلم

علي بن أبي طالب

كيف انتخب ؟ ان الاحوال التي احتفت ببيعة علي بن أبي طالب والمناسبات التي حصل فيها انتخابه لم يكن لها نظير في انتخاب الخلفاء الذين تقدموه ولا بيعتهم فان بيعة أبي بكر كانت عقب وفاة رسول الله ﷺ والشملُ مجتمع وأصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والانصار شهود يرون ويسمعون . لهم أن يبرموا ما اجتمعت عليه الكلمة وأن ينقضوا ما لم يرضوا به . فلم يكن ثمة غير يسير اختلاف ثم ثابت الاحلام وفاءت السكينة وتم الامر لابي بكر . ولم يتخلف عن البيعة سوى علي بن أبي طالب أياماً أو نحو سبعين ليلة على خلاف في ذلك ، وسعد بن عبادة من الانصار وقليل من بني هاشم تأخروا ثم بايعوا . ومن عدا هؤلاء فقد أعطى يده بالطاعة عن رضى

وأما عقب وفاة أبي بكر فلم يكن ثم مجال للخلاف . لان أبا بكر كان قد عهد الى عمر فرأى المسلمون وجوب طاعته والانتهاء الى ما صنع . وكان أعلام الصحابة كذلك شهوداً ـ وعند وفاة عمر كان أعلام قريش والسابقين الاولين من المهاجرين والانصار شهوداً . وعمر لم يترك الامر بين القوم فوضى بل كان قد سن لهم قانون الشورى على علاته ، فأصاب الانتخاب عثمان بن عفان وهو أحد الستة الذين اختارهم عمر ليعينوا واحداً منهم للخلافة ، وقد بين لهم جزاء المخالف منهم وهو القتل

أما عند موت عثمان بن عفان ، فقد كان كثير من أصحاب رسول الله ﷺ غير شاهدين للامر وكثير منهم أبى عن بيعته ولم يرضوا بالدخول في طاعته ولم يكن الامر على حال هدوء وسكون بل كانت الكلمة العليا للثوار على عثمان والامر النافذ لهم ومن كان مقيماً من أعلام الصحابة فقد نفضوا أيديهم من الامر بغضة لعثمان

وسرهم أن يكفيهم أمره أولئك الثائرون وهم شذاذ من الآفاق وأوزاع متفرقون من أمصار مختلفة وقبائل متباينة لا سابقة لهم ولا قدمة ولا أثر خير في الدين — وهم وان كثروا بالنسبة الى أهل المدينة خاصة فليسوا بالشيء الذي يؤبه له بالقياس الى أهل الامصار ومن يتبعهم من مرابطة الثغور وأجناد الاقطار — أضف الى ذلك أنهم أهل شغب وفتنة قد عرف رؤوسهم بذلك وشهروا بالشر بين قبائلهم وأمصارهم

لم يكن في نظر جمهور السبئية أليق للخلافة من علي . خصوصاً والذي تولى كبر هذه الثورة هم المصريون وهم شيعة علي وهواهم معه فكانت كلمتهم غالبة على سائرهم وكأن أهل المدينة كانت أحلام أكثرهم شاردة عنهم فثابت ، وقد ظلل عثمان جلال الموت . فاجتمع الناس في المسجد وكثر الندم والتأسف على عثمان وسقط في أيديهم وأكثر الناس على طلحة والزبير واتهموهما بقتله وقال الناس لهما أيها الرجلان قد وقعتما في أمر عثمان تخليا عن أنفسكما . فقام طلحة فقال : أيها الناس انا والله ما نقول اليوم إلا ما قلناه أمس ، ان عثمان خلط الذنب بالتوبة حتى كرهنا ولايته وكرهنا أن نقتله وسرنا أن نكفاه وقد كثر فيه اللجاج وامره الى الله . ثم قام الزبير فقال : أيها الناس ان الله قد رضي لكم الشورى فأذهب بها الهوى وقد تشاورنا فرضينا علياً فبايعوه . وأما قتل عثمان فانا نقول فيه ان أمره الى الله ، وقد أحدث أحداثاً والله وليه فيما كان . وكأن ذلك كان من الزبير ليدفع عن نفسه لوم اللائمين كيلا يقال انه كان يسعى في هذا الامر لنفسه ولكي يكافئه علي بدفعها عن نفسه كما دفعها هو . فقام الناس وأتوا علياً وقالوا له نبايعك فأنت أحق بها . فقال ليس ذلك اليكم ، انما هو لاهل الشورى وأهل بدر فمن اختاروه فهو الخليفة فنجتمع وننظر في هذا الامر فانصرفوا عنه ثم خلصوا نجيا وقال بعضهم لبعض : يمضي قتل عثمان في الآفاق والبلاد فيسمعون بقتله ولا يسمعون أنه بويع لاحد بعده فيثور كل رجل منهم في ناحيته فارجعوا الى علي فلا تتركوه حتى يبايع فيسير مع قتل عثمان بيعة علي فيطمئن الناس

ويسكنون فرجعوا الى علي وجاء الاشتر فقال لعلي أبسط يدك نبايعك . فقال له كما قال لهم أولا فقال والله لتمدن يدك نبايعك أو لتعصرن عينك عليها ثالثة ولم يزل به يكلمه ويخوفه الفتنة ويذكر له أنه ليس أحد يشبهه فمد يده فبايعه الاشتر ومن معه وسبقهم طلحة وكانوا قد أتوا به فبايعه ، وقد كان من المهم عند علي أن يبايعه طلحة والزبير لانهما زميلاه - واذا كان أحد من أصحاب الشورى يطمح بنظره الى الخلافة فهما . وقد كانا يوضعان في الامر ولكل منهما شيعة من الثائرين تؤيده وتوازره ، غير أن شيعة علي كانت أعلى صوتا وأقوى يداً . فجاء القوم الى طلحة فأرادوه على البيعة لعلي فأبى . إلا اجتماع بقية الشورى فأتوا به يلببونه حتى بايع . روى الطبري عن الزهري انه دعاهما الى البيعة (طلحة والزبير) فتلكأ طلحة . فقال مالك الاشتر - وسل سيفه - والله لتبايعن أو لأضربن به ما بين عينيك فبايعه وبايعه الزبير . وروي أن عليا قال لهما ان أحببتما بايعتكما فقالا بل نبايعك . وقالا بعد ذلك انما صنعنا ذلك خشية على أنفسنا وقد عرفنا أنه لم يكن ليبايعنا بمعنى أنه عرض البيعة عليهما عرضا سابريا من باب المجاملة لا على سبيل الجد . وجيء بسعد ابن أبي وقاص فقال : لا أبايع حتى يبايع الناس ، والله ما عليك مني بأس . فقال خلوا سبيله . وجيء بعبد الله بن عمر ليبايع . فقال لا أبايع حتى يبايع الناس . قال ائتني بحميل . قال لا أرى حميلا . فقال الاشتر خل عني أضرب عنقه . فقال علي دعوه أنا حميله انك والله لسيء الخلُق صغيراً وكبيراً . وتخلف عن بيعة علي جمع من الانصار منهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري ومحمد بن مسلمة والنعمان بن بشير وزيد بن ثابت ورافع بن خديج وفضالة بن عبيد وكعب بن عجرة وكان هؤلاء عثمانية يميلون الى عثمان . وهرب قوم الى الشام ولم يبايعوا علياً ، وهم عامة بني أمية ومن معهم . ولم يبايعه عبدالله بن سلام وصهيب ابن سنان وسلمة بن سلامة بن وقش وأسامة بن زيد وقدامة بن مظعون والمغيرة بن

شعبة وقد بايعه المغيرة من قريب

﴿ ترجمة علي ﴾ هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وهو ابن عم رسول الله ﷺ شقيق والده . وأمه فاطمة بنت أسد . ولد قبل الهجرة باحدى وعشرين سنة أو أكثر . ولما أرسل رسول الله ﷺ كان علي مراهقاً وكان مقيماً مع الرسول في بيته تخفيفاً على أبيه أبي طالب . فكان من أول من أجاب الى الاسلام وقد أدرك الشرف العظيم ببذله نفسه فداء لرسول الله ﷺ بمبيانه على فراشه ليلة خروجه من مكة مهاجراً الى المدينة حتى لا يرتاب الراصدون في وجوده في بيته وذلك ليلة هموا بقتله وأتمعدوا لذلك لبياتهم ثم هاجر الى المدينة بعد أن أدى الودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ الى أهلها . وبعد أن هاجر زوجه النبي ﷺ من ابنته فاطمة . وقد شهد المشاهد كلها مع رسول الله سوى غزوة تبوك فقد خلفه في أهله بالمدينة . وقال المنافقون انما خلفه استثقالا له وزهادة فيه فخف الى رسول الله باكياً فطيب خاطره ورده وقال أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى فرضي بذلك . وقد كان في كل غزواته ومشاهده مظفراً منصوراً ذا بلاء وغناء له الاثر المحمود والمقام الذي لا يجهل ، شجاعا مقداما على الغمرات لا تكرثه شدة ولا يبالي بمصارعة الموت . وكان يكتب لرسول الله ﷺ . ولما لحق الرسول بربه كان علي يرى نفسه أحق بالخلافة وأولى ممن عداه بأن يلي أمر المسلمين وكان يظن أن الامر يأتيه عفواً صفواً وأن المسلمين لا يعدلون به غيره لما له من شرف القربى والسابقة والصهر . فتابث عن طلب البيعة حتى يقوم بدفن رسول الله ﷺ ثم يتفرغ للأمور فلم يفجأ إلا بالمسلمين قد بايعوا أبا بكر وأبى علي عن بيعته وقال : أنا أحق بهذا الامر منكم لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لي ، أخذتم هـذا الامر من الانصار واحتججتم بالقرابة من النبي ﷺ وتأخذونه منا أهل البيت غصبا ؟ ألستم زعمتم للانصار أنكم أولى بهذا الامر منهم لما كان محمد منكم فأعطوكم المقادة وسلموا اليكم

الامارة؟ فأنا أحتج عليكم بمثل ما احتججتم على الانصار، نحن أولى برسول الله حياً وميتاً فأنصفونا ان كنتم تؤمنون الى آخر ماقال في ذلك. ومكث مدة لم يبايع ثم بايع. ولما مات أبو بكر بايع عمر لاستخلاف أبي بكر له وفي نفسه شيء من ذلك. ولما طعن عمر أراد أن يستخلفه وكان يود تقديمه على غيره ويرى أنه جدير بأن يحمل الناس على الطريقة المثلى، غير أنه لم يرد أن يحمل تبعة الامر فجعله شورى بين ستة هو واحد منهم وكان أكبر ظن عمر في علي أن يكون الامر اليه غير أنها صرفت عنه الى عثمان فبايع ولم يخالف. وكان في مدة أبي بكر بعد البيعة موضع ثقة الخليفة وكان في عهد عمر كالمستشار له يستشيره عمر ويستفتيه في الاحكام الشرعية ويستدخله في مهام الامور، فكان من خاصته وبطانته الذين يستنصحهم ويستنزل رأيهم وينتهي الى مشورتهم - وقد كان كذلك لعثمان رضي الله عنه صدراً من خلافته ثم تغير له في أواخر حياته ولم تكن علاقتهما حسنة في الظاهر وبخاصة في أيام الفتنة فان استبطان عثمان لبني أمية كان يفسد على عليّ كثيرا مما كان علي يراه نافعاً له. وكانوا يزهدونه في علي ويخوفونه جانبه

أورد صاحب الامامة والسياسة أن عثمان خرج الى المسجد فاذا هو بعلي وهو شاك معصوب الرأس. فقال عثمان: والله يا أبا الحسن ما أدري أشتهي موتك أم أشتهي حياتك، فوالله لئن مت ما أحب أن أبقى بعدك لغيرك لاني لا أجد منك خلفا ولئن بقيت لا أعدم طاغياً يتخذك سلّماً وعضدا يعدك كهفاً وملجأ لا يمنعني منه إلا مكانه منك ومكانك منه (ولعله يريد محمد بن أبي بكر) فأنت مني كالابن العاق من أبيه: ان مات فجعه وان عاش عقه. فاما سلم فنسالم واما حرب فنحارب. فلا تجعلني بين السماء والارض فانك والله ان قتلتني لا تجد مني خلفاً ولئن قتلتك لا أجد منك خلفاً ولن يلي هذا الامر باديء فتنة. فقال علي: ان فيما تكلمت به لجواباً ولكني مشغول بوجعي فأنا أقول كما قال العبد الصالح: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون. فقال مروان: انا والله اذاً لنكسرن رماحنا ولنقطعن

سيوفنا ولا يكون في هذا الامر خير لمن بعدنا . فقال عثمان : اسكت ما أنت وهذا؟
وقد استعمل المؤلبون اسم على للتغرير بالناس حتى يهيجوا على خليفتهم . وأدى ذلك الى ان خاطبه أهل مصر قائلين : ان لم تقم معنا فلم كتبت الينا ؟ فتبرأ من الكتابة اليهم وحلف على ذلك . ولما انتهى أمر عثمان على النحو الذي بينا بويع له بالخلافة بالصورة التى وصفنا ، وانتهي الامر على ذلك بعد خمس ليال قضاها الناس في أخذ ورد وتردد في الامر الى أن انتهى

خطته السياسية

أول خطبة لعلي ـ صعد على المنبر فحمد الله واثنى عليه ثم قال : ـ ان الله عز وجل أنزل كتابا هاديا بين فيه الخير والشر فخذوا بالخير ودعوا الشر. الفرائض ادوها الى الله سبحانه وتعالى يؤدكم الى الجنة . ان الله حرم حُرَماً غير مجهولة وفضَّلَ حرمة المسلم على الحرم كلها وشد بالاخلاص والتوحيد المسلمين . والمسلم من سلم الناس من لسانه ويده الا بالحق . ولا يحل اذى المسلم الا بما يجب . بادروا أمر العامة . وخاصة احدكم الموتَ فان الناس امامكم وانما من خلفكم الساعة تحدوكم تخففوا تلحقوا فانما ينتظر الناس اخراهم اتقوا الله عباد الله في عباده وبلاده انكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم وأطيعوا الله عز وجل ولا تعصوه واذا رأيتم الخير فخذوا به واذا رأيتم الشر فدعوه واذكروا اذ انتم قليل مستضعفون في الارض

والذي تشفُّ عنـه خطبته أنه يريد أن ينصرف الناس الى ما هو مهم لهم ويكفوا عن الخوض في الشأن الذي كان . وأن يستقبلوا نمطاً من الحكم جديداً . كله اقبال على الآخرة وزهد في الدنيا وقيام بحدود الله وطاعته فيما أمر به والانتهاء عما نهي عنه . ولو شئنا أن نلخص خطته التي يريد أن يرسمها لهم ، لقلنا : يريد أن يقول لهم ارجعوا الى العهد الذي كنتم عليـه أيام رسول الله ، وأقبلوا على الآخرة بكليتكم وأعرضوا عن الدنيا وولوها ظهوركم

وكان على قد دخل على نائلة زوج عثمان بعد أن لطم ابنيه الحسن والحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله الزبير لظنه الاهمال منهم والتقصير في الذب عن عثمان . وسأل نائلة من قتل عثمان ، قالت : لا ادرى ، دخل عليه رجال لا اعرفهم الا أن ارى وجوههم وكان معهم محمد بن ابى بكر . فدعا عليٌّ محمد بن أبي بكر وسأله عما ذكرت نائلة فقال : صدقت ، قد والله دخلت عليه فذكرلى أبي فقمت عنه وانا تائب الى الله تعالى . والله ماقتلته ولا امسكته . فقالت : اصدق ولكن هو أدخلهم

وكتبت نائلة زوج عثمان الى معاوية تصف دخول القوم على عثمان واخذه المصحف ليتحرم به وما كان من صنع محمد بن ابى بكر وأرسلت بقميص عثمان مضرجا بالدم ممزقا وبالخصلة التي نتفها محمد بن ابى بكر من لحيته فعقدت الشعر في زر القميص وأصابعها ثم دعت بالنعمان بن بشير الانصارى فبعثته الى معاوية . فلقى يزيد بن أسيد ارسله معاوية ممداً لعثمان في اربعة آلاف فاخبرهم بقتل عثمان فانصرفوا الى الشام

طلب الصحابة القود من قتلة عثمان

ولما تمت البيعة لعلى جاءه جماعة من الصحابة وقالوا له انا قد اشترطنا اقامة الحدود وان هؤلاء القوم قد اشتركوا في دم هذا الرجل واحلوا بانفسهم . فقال لهم : انى لست اجهل ماتعلمون ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم . هاهم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت اليهم اعرابكم وهم خلالكم يسومونكم ماشاءوا فهل ترون موضعا لقدرة على شيء مما تريدون ؟ قالوا لا . قال فلا والله لا ارى الا رايا ترونه ان شاء الله . ان هذا الامر امر جاهلية وان لهؤلاء القوم مادة . وذلك ان الشيطان لم يشرع شريعة قط فيبرح الارض من اخذ بها . ان الناس من هذا الامر ـ ان حرك ـ على امور ، فرقة ترى ماترون : وفرقة ترى مالا ترون ، وفرقة لاترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها وتؤخذ الحقوق . فاهدأوا عني وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا

ثم ان عليا اشتد على قريش وحال بينهم وبين الخروج من المدينة وانما هيجه على ذلك هرب بنى امية. وتفرق القوم وبعضهم يقول والله لئن زاد الامر لاقدرنا على انتصار من هؤلاء الاشرار. لنترك هذا الى ماقال عليٌّ امثل. وبعضهم يقول: نقضى الذى علينا ولا نؤخره. والله ان عليا لمستغن برأيه وأمره عنا. لانراه الا سيكون على قريش أشد من غيره

ولما بلغ علياً مقالة القوم قام فحمد الله وأثنى وذكر فضلهم وحاجته اليهم وقال لهم خيراً وأثنى عليهم وتألفهم جهده ثم قال: لا يستغني الرجل وان كان ذا مال وولد عن عشيرته ودفاعهم بايديهم وألسنتهم. هم أعظم الناس حيطة من ورائه واليهم سعيه وعطفهم عليه ان أصابته مصيبة أو نزل به بعض مكاره الامور. ومن يقبض يده عن عشيرته فانه يقبض يداً واحدة وتقبض عنه أيد كثيرة. ومن بسط يده بالمعروف ابتغاء وجه الله تعالى يخلف الله له ما أنفق في دنياه ويضاعف له في آخرته. واعلموا ان لسان صدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال. فلا يزدادن أحدكم كبرياء ولا عظمة في نفسه ولا يغفل أحدكم عن القرابة أن يصلها بالذي لا يزيده ان أمسكه ولا ينقصه ان أهلكه. واعلموا ان الدنيا قد أدبرت والآخرة قد أقبلت. ألا وان المضمار اليوم والسبق غداً، ألا وان السبقة الجنة والغاية النار. ألا ان الامل يُشَهِّي القلب ويكذب الوعد ويأتي بغفلة ويورث حسرة فهو غرور وصاحبه في عناء، فافزعوا الى قوام دينكم وإتمام صلاتكم وأداء زكاتكم والنصيحة لامامكم وتعلموا كتاب الله واصدقوا الحديث عن رسول الله ﷺ وأوفوا بالعهد اذا عاهدتم وأدوا الامانات اذا ائتمنتم، وارغبوا في ثواب الله وارهبوا عذابه واعملوا الخير تجزوا بالخير. يوم يفوز بالخير من قدم الخير. ثم نادى: برئت الذمة من عبد لم يرجع الى مواليه

ائتمرت السبأية والاعراب وقالوا: لنا غداً مثلها ولا نستطيع أن نحتج فيهم بشيء. ثم خرج علي في اليوم الثالث. فقال: يا معشر الاعراب الحقوا بمياهكم.

فأبت السبأية وأطاعهم الاعراب ودخل علي بيته وجاء طلحة والزبير وجماعة من أصحاب رسول الله ﷺ. فقال لهم علي: دونكم ثاركم فاقتلوه. فقالوا: عشوا عن ذلك. فقال: هم والله بعد اليوم اعتى وآبى. ثم قال:

ولو ان قومي طاوعتنى سراتهم   أمرتهم أمراً يديخ الاعاديا

وقال طلحة: دعني فلآت البصرة. فلا يفجأك الا وأنا في خيل. وقال الزبير: دعني فلآت الكوفة فلا يفجأك الا وأنا في خيل. فقال: حتى انظر

أما علي، فقد صرفهما على زعم أن ينظر، واحسبه كان يتخوف جانب الرجلين ويخشى أن يعيداها عليه جذعة ويستنا به سنة أهل مصر بعثمان ويكون له معهما يوم كيوم الدار

نتيجة الفتنة وقتل عثمان فى زمن على

كان المسلمون قبل انبثاق هذا البثق واشتعال جاحم الفتنة أمرهم مجتمعاً وحالهم حسنة يغبطون عليها من كل الامم: جيوش منتصرة في جميع الارجاء وبلاد تفتح وعدل شامل وشمل جامع وبسطة في الغنى والثروة وسطوة مرهوبة، فلما ربى هذا الامر حتى صار أمراً ووقع هذا الحادث الجلل الذى اصطلم به خليفة المسلمين ظلماً وعدواناً. كان أول وهن دخل على المسلمين وأول أمر فرق كلمتهم وأوقع بينهم الشحناء وأورثهم البغضاء وصيرهم فرقاً متنافرة وفئات متدابرة يضرب بعضهم وجوه بعض هو قتل عثمان بن عفان

يدل على هذا الافتراق ان الامة قبل قتل عثمان كانت على قلب رجل واحد ووجهتهم واحدة لا يفترقون في شيء. فلما قتل ظهرت الشيعة وصاروا أشبه بهيئة معترف بها من الامة غير خفية، قام في مقابلتها الناصبة أو العثمانية في الشام

وأقليات في الامصار ، وهم الذين ينزعون الى تاثيم علي في شأن عثمان ويحملونه تبعة قتله . وأقلهم طعناً عليه من يقول انه تهاون في شأن قتلته فلم يتناولهم بالقصاص الواجب شرعاً

لم يلبث الامر طويلا حتى قام الخوارج ، وهم الذين ينقمون في باطن أمرهم ولاية قريش ويظهرون الغيرة على الدين والحمية للشريعة ، وهم حرب لعلي ومعاوية معاً . ثم افترق هؤلاء الخوارج فرقاً فكان منهم : (١) الازارقة (٢) والنجدات (٣) والعطوية (٤) والاباضية وغيرهم وغيرهم الى ما يربو على سبعين فرقة . ولم يلبثوا أن صاروا أصحاب مذاهب في العقيدة ويكفرون المسلمين من أهل السنة والجماعة ، مما قصه وشرحه ابن حزم في كتابه الفصل والشهرستاني في الملل والنحل والمقريزي في خططه ومحمد بن يزيد في كامله . ثم كان انقسام الشيعة الى طوائف وأصناف كالزيدية والكيسانية والامامية . ثم انقسام الامامية الى رافضة وغالية والى اسماعيلية وهكذا

ولا ريب عندي في أن هذه الفتنة وما تلاها مما كان بين علي وبين عائشة وطلحة والزبير من الحرب ثم بينه وبين معاوية ثم بين الخلفاء والخوارج وغيرهم من الطوائف التي نبتت وشبوب الثورات بعد الثورات كل ذلك كان بمثابة مرض عضال طرأ على الأمة وهي في عنفوان شبابها وميعة فتوتها فوقف فيضها الحيوي وعاقها عن أن تقوم بما يجب لمثلها من النمو وصدها عن استكمال شبابها على الحال اللائقة بها . وعلى الجملة فان هذه الفتنة كانت شللا في حياة الامة الاسلامية ومصدراً لانحراف مزاجها وثلمة تعرض منها جسم تلك الأمة لمختلف الأمراض والعلل . ولولا تلك الفتنة وما نتج عنها لتغير وجه التاريخ ولكان الاسلام قد سال سيله على الأمم في جميع الاقطار والاصقاع ، ولرأينا الأمم التي هي من أعدى أعداء الاسلام اليوم وأشدهن نكاية به أعظم من يطريه ويتعصب له ويغلو الغلو كله في اعلاء قدره والاشادة بذكره

أول اعمال على

ان الايدي التى بايعت علياً بالامس كانت ملونة بدم الخليفة المقتول وكان أكبر ما يزعمونه من الحجج على قيامهم هذا واجتراح ما اجترحوا من الاثم عماله الذين ملأوا الدنيا عجيجاً بالشكوى منهم وأذاعوا قالة السوء عن كل أمير منهم في مصره . فاذا أقر علي أولئك العمال على أعمالهم الى أن يستوثق له الأمر في الخلافة وتتسق له الأحوال كان ذلك منه اقراراً للظلم الذي استفزهم الألم منه وأحنقهم الاقرار عليه . وكان بذلك قد سجل على السبأبية انهم قاموا لسلب الخلافة من صاحبها الشرعي لا لسبب سوى الافضاء بها الى علي

بهذا يمكننا أن نفهم السرعة الغريبة التى كانت منه في مبادرة جميع عمال عثمان بالعزل حتى كان ذلك أول أعماله ، ولم يتربص بالامر وصول البيعة اليه من أهل الامصار ولم يصخ الى تحذير المحذرين ولا نصح الناصحين . بل أبى من الابقاء عليهم أو أحداً منهم اباء تاماً كأنه قد وقر في نفسه ان هؤلاء العمال لا يصلحون لأن يلوا شيئاً من أمر المسلمين وان الابقاء على واحد منهم يوماً كاملا نقص في دينه . ولو أنه اتأد في الامر وعالجه برفق وأناة واصطبر حتى استتب له الامر وبايعه أهل الامصار لما كان في عزل الولاة شيء لان الخليفة هو الذي يعطي الولاة سلطانهم فهو حر في اختيار عماله

يعجب بعض ذوي البصائر من أهل النقد والرأي الراجح من مبادرته الى عزل عمال عثمان مع رضاه بتأخير اقامة الحد على قتلته . أما تعليل ذلك التعجيل في أمر الامراء فقد بينته آنفاً . وأما تأخير الحد على القتلة فقد بينه على بنفسه . اذ وضح لطلحة والزبير وأصحاب رسول الله حين طالبوه باقامة الحد على من شرك

في دم عثمان فبين لهم ان القوم الذين في أيديهم دم عثمان يملكون أهل المدينة وأهل المدينة لا يملكونهم وقد ثارت اليهم العبدان وفاءت اليهم الاعراب وبايديهم الحول والطول بالمدينة . وأهلها لا يقدرون منهم على شيء . وطلب اليهم إنظاره حتى تهدأ الحال ويتمكن من أخذ المجرمين بذنوبهم

دخل المغيرة بن شعبة على عليّ وكان داهية أريباً فقال : ان لك عليَّ حق الطاعة والنصيحة وان الرأي اليوم تحرز به ما في غد وان الضياع اليوم تضيع به ما في غد . اقرر معاوية على عمله واقرر ابن عامر على عمله واقرر العمال على أعمالهم حتى اذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلتَ أو تركت . قال : حتى أنظر . وعاد اليه من الغد فقال : اني أشرت عليك بالامس برأي ، وان الرأي أن تعاجلهم بالنزوع فيعرف السامع من غيره وتستقبل أمرك . ثم خرج . وتلقاه ابن عباس – وكان قد قدم من الحج بعد مقتل عثمان – فقال : رأيت المغيرة خرج من عندك ففيم جاءك؟ قال : جاءني أمس بِذَبَّةٍ وذَبَّةٍ وجاءني اليوم بذبة وذبة . فقال : أما أمس فقد نصحك وأما اليوم فقد غشك . فقال له علي : ولم نصحني ؟ فقال : لانك تعلم ان معاوية وأصحابه أهل دنيا فتى تثبتهم لا يبالون بمن ولى هذا الامر ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الامر بغير شورى وهو قتل صاحبنا ويؤلبون عليك فينتقض عليك أهل الشام وأهل العراق مع اني لا آمن طلحة والزبير أن يكرا عليك . فقال علي أما ما ذكرت من اقرارهم فوالله ما أشك ان ذلك خير في عاجل الدنيا ولاصلاحها وأما الذي يلزمني من الحق والمعرفة بعمال عثمان فوالله لا أولي أحداً منهم ابداً فان اقبلوا فذلك خير لهم وان أدبروا بذلت لهم السيف . قال ابن عباس : فاطعني وادخل دارك أو الحق بمالك بينبع فان العرب تجول وتضطرب عليك فانك والله لئن نهضت مع هؤلاء اليوم ليحملنك الناس دم عثمان غداً . فأبى علي وقال لابن عباس : سر الى الشام فقد وليتكها . فقال ابن

عباس : ما هذا برأي ، معاوية رجل من بني أمية وهو ابن عم عثمان وعامله على الشام ولست آمن أن يضرب عنقي بعثمان وان أدنى ما هو صانع أن يحبسني ويتحكم علي . فقال علي : ولم ؟ قال لقرابة ما بيني وبينك وان كل ما حمل عليك حمل علي . ولكن اكتب الى معاوية فمنه وعده . فأبى علي

فرق علي عماله على الامصار : فارسل عثمان بن حنيف الى البصرة ، وعمارة ابن شهاب الى الكوفة ، وعبيد الله بن عباس الى اليمن ، وقيس بن سعد بن عبادة الى مصر ، وسهل بن حنيف الى الشام

فاما سهل بن حنيف فسار حتى اتى تبوك فلقيته خيل فسألوه من أنت ؟ فقال :أمير على الشام . فقالوا : ان كان عثمان بعثك فحيلا بك وان كان غيره بعثك فارجع . قال : أوماسمعتم بالذي كان ؟ قالوا : بلى . فارجع الى علي فرجع

واما قيس بن سعد ، فانه سار حتى اتى ايلة فلقيته خيل فقالوا : من أنت فعمد الى الحيلة وقال : انا من فاله عثمان فانا اطلب من آوى اليه وانتصر به . قالوا : من أنت ؟ قال قيس بن سعد . فقالوا امض . فمضى حتى اتى مصر وأظهر أمره فيها فافترق أهل مصر فرقا : فرقة دخلت في الجماعة وكانوا معه ، وفرقة وقفت واعتزلت الى خربتا وقالوا : ان قتل قتلة عثمان فنحن معكم والا فنحن على جديلتنا حتى نحرك أو نصيب حاجتنا . وفرقة قالوا : نحن مع علي مالم يقد اخواننا وهم في ذلك مع الجماعة . وكتب قيس الى عليّ بذلك

واما عثمان بن حنيف فسار الى البصره فلم يردّه احد عن دخولها ولم يوجد في ذلك لابن عامر رأي ولا حزم ولا استقلال بحرب . وافترق الناس بها فاتبعت فرقة القوم ودخلت فرقة في الجماعة وفرقة قالت : ننظر مايصنع أهل المدينة فنصنع كما صنعوا

وأما عمارة بن شهاب فاقبل حتى اذا كان بزُبالة لقي طليحة الاسدي وقد خرج

يدعو الى الطلب بدم عثمان . فقال لعمارة : ارجع فان الناس لايريدون باميرهم بدلا وان ابيت ضربت عنقك فرجع وهو يقول : احذر الخطر ماىماسك . الشر خيرٌ من شر منه

وانطلق عبيد الله بن عباس الى اليمن فجمع يعلى بن أمية كل شيء من الجباية وتركه وخرج بذلك وهو سائر على حاميته الى مكة فقدمها بالمال

اضطراب الحبل

اضطرب الحبل على علي وأتاه مالم يكن يحتسب فارسل يثبت ابا موسى على الكوفة فجاءه ببيعة أهلها وبين له من ابي البيعة وسخط لما كان ، حتى كأنّ عليا ناظر الى أهل الكوفة وقد افترقوا على مثل ما افترق عليه أهل البصرة

ودعا علي طلحة والزبير فقال : ان الذي كنت احذركم قد وقع ياقوم وان الامر الذي وقع لايدرك الا باماتته ، وانها فتنة كالنار كلما سُعّرت ازدادت واستنارت . فقالا له فاذن لنا أن نخرج من المدينه فاما ان نكابر وأما ان تدعنا فقال : سأمسك الامر ما استمسك فاذا لم اجدبدا فآخر الدواء الكي . والذي يظهر ان اعتياص الامور على على كان مما يسرهما . وان الامر اذا اضطرب عليه وأعيت مذاهبه ونفض يده من الامارة طوعا او كرها افضى الامر الى واحد منها . واذا اشترك اثنان اوجماعة في بغض سلطان ذي سلطان فانهم لايحسون بما بينهم في اشخاصهم من الكراهة والبُغض . وان اشتراكهما في كراهته يؤلف بينهما ويكون كَلُحمَةَ النسب ولايلتفت واحد منهم الى ما بينه وبين الآخرين الا اذا فرغوا من العدو والمشترك . وكاني بعلي كان يقرأ مايجول في ضمير كل من طلحة والزبير ولكنه لايريد أن يفتح باب فتنة جديدة تكون اقرب اليه من سواها

أرسل علي بعد ارسال سهل بن حنيف الى معاوية سبرة الجهني يطلب اليه ان يبايع فقدم عليه ، فلم يَردُّ معاوية جوابا ولم يجبه وجعل كلما تنجز جوابه لم يزد على قوله :

ادم ادامه حصن اوحد بيدي حرباً ضروسا تشب الجزل والضرما
في جاركم وابنكم اذا كان مقتلة شنعاء شيَّبت الاصداغ واللمما
أعيا المسود بها والسيدون فلم يوجد لها غيرنا مولى ولا حكما

حتى اذا كان الشهر الثالث من مقتل عثمان في صفر دعا معاوية برجـل من بني عبس يدعى قبيصة فدفع اليه طوماراً مختوماً عنوانه (من معاوية الى علي) وقال له اذا دخلت المدينة فاقبض على أسفل الطومار ثم أوصاه بما يقول وسرح رسول علي وخرجا فقدما المدينة في ربيع الاول لغرته . فلما دخلا المدينة رفع العبسي الطومار كما أمره وخرج الناس ينظرون اليه . فتفرقوا الى منازلهم وقد علموا أن معاوية معترض ومضى الرجل حتى دخل على علي فدفع اليه الطومار ففض خاتمه فلم ير في جوفه كتابة فقال للرسول ما وراءك . قال آمن أنا ؟ قال نعم فان الرسل آمنة لا تقتل . قال ورائي أني تركت ستين ألف شيخ يبكي تحت قميص عثمان وهو منصوب لهم قد ألبسوه منبر دمشق . فقال مني يطلبون دم عثمان ؟ ألست موتوراً كترة عثمان ؟ اللهم اني أبرأ اليك من دم عثمان . نجا والله قتلة عثمان إلا أن يشاء الله . فانه اذا أراد أمراً أصابه . أخرج. قال وأنا آمن ؟ قال وأنت آمن . فخرج العبسي . وصاحت السبأييه وقالوا هذا الكلب وافد الكلاب اقتلوه . فنادى يال مضر يال قيس . الخيل والنبل اني أحلف بالله جل اسمه ليردنها عليكم أربعة آلاف خصي فانظروا كم الفحولة والركاب . وتعاووا عليه ومنعته مضر ويقولون له اسكت . فيقول : لا والله لا يفلح هؤلاء أبدا فلقد أتاهم ما يوعدون . فيقولون اسكت . فيقول لقد حل بهم مايحذرون انتهت والله أعمالهم وذهبت ريحهم . يقول فوالله ما أمسوا حتى عرف الذل فيهم

(استئذان طلحة والزبير)

جاء طلحة والزبير واستأذنا علياً في العمرة فأذن لهما وهو يعلم أنهما لا يريدان ذلك وأنهما خرجا كراهة لامره

ان الرجلين قد بايعا مكرهين وكان لكل منهما شيعة تريده على الخلافة . وقد أراد كل منهما أن يظهر الزهادة في الولاية حتى لا يتهم بالشركة في دم الخليفة المقتول وحتى لا يؤخذ عليه أمر أو يقول له قائل انه كان يريدها . ولكن السبأيية قد غلبوا على الامر وكانت الانظار متجهة الى علي أكثر منهما . فلما فاتهما أمر الولاية العظمى طمعا في أن يوليهما ويكونا على انتظار ما يأتي به القدر بعد ذلك

قال ابن قتيبة : انهما قالا لعلي : هل تدري يا علي علام بايعناك ؟ قال نعم على السمع والطاعة وعلى ما بايعتما عليه أبا بكر وعمر وعثمان . فقالا لا ولكن بايعناك على انا شريكاك في الامر . قال علي لا ولكنكما شريكان في القول والاستقامة والعون على العجز والاود قال : وكان الزبير لا يشك في ولاية العراق وطلحة في اليمن . فلما استبان لهما أن علياً غير موليهما شيئاً أظهرا الشكاة فتكلم الزبير في ملأ من قريش فقال : هذا جزاؤنا من علي قمنا له في أمر عثمان حتى أثبتنا عليه الذنب وسببنا له القتل وهو جالس في بيته وكفي الامر فلما نال بنا ما أراد جعل دوننا غيرنا . فقال طلحة : ما اللوم الا انا كنا ثلاثة من أهل الشورى كرهه أحدنا وبايعناه وأعطيناه ما في أيدينا ومنعنا ما في يده فأصبحنا قد أخطأنا مارجونا . وأنهي قولهما الى علي فدعا عبد الله بن عباس وكان استبطنه فقال : قد بلغك قول هذين الرجلين قال نعم بلغني قولهما قال فما ترى ؟ قال : أرى أنهما قد أحبا الولاية . فول البصرة الزبير وول طلحة الكوفة . فانهما ليسا بأقرب اليك من الوليد وابن عامر من عثمان . فضحك علي ثم قال : ويحك ان العراقين بهما الرجال والاموال ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء ويقويان على القوي بالسلطان ولو

كنت مستعملا أحدا لضره أو نفعه لا ستعملت معاوية على الشام . ولولا ما ظهر لي من حرصهما على الولاية لكان لي فيهما رأي . قال : ثم أتى طلحة والزبير الى علي فقالا يا أمير المؤمنين ائذن لنا الى العمرة فان تقم الى انقضائها رجعنا اليك وان تسر نتبعك . فنظر اليهما وقال : نعم ، والله ما العمرة تريدان ، امضيا الى شأنكما . فمضيا .

أحب أهل المدينة بعد ذلك أن يعلموا رأي علي في معاوية وانتقاضه ليعرفوا بذلك رأيه في قتال أهل القبلة ، أيجسر عليه أو ينكل عنه . وقد بلغهم ان الحسن ابن علي دخل عليه ودعاه الى القعود وترك الناس . فدسوا عليه زياد بن حنظلة التميمي وكان منقطعاً اليه ، فدخل عليه ثم قال له علي : يا زياد . تيسر . فقال : لأي شيء ؟ فقال : تغزو الشام . فقال زياد : الاناة والرفق أمثل . وقال :

ومن لا يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل علي وكأنه لا يريده :

متى تجمع القلب الذكي وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المظالم

فخرج زياد على الناس وهم ينتظرونه . فقالوا له : ما وراءك ؟ فقال : السيف يا قوم فعرفوا ما هو فاعل . ودعا علي ابنه محمد بن الحنفية فدفع اليه اللواء وولى عبد الله بن عباس ميمنته وعمر بن سفيان ميسرته وأبا ليلى عمر بن الجراح مقدمته واستخلف على المدينة قثم بن العباس . وخطب أهل المدينة فدعاهم الى النهوض في قتال أهل الفرقة وقال : ان الله عز وجل بعث رسولا مهدياً بكتاب ناطق وأمر قائم واضح ، لا يهلك عنه الا هالك . وان المبتدعات والشبهات هن المهلكات الا من حفظ الله وان في سلطان الله عصمة أمركم فاعطوه طاعتكم غير ملوية ولا مستكره بها . والله لتفعلن أو لينقلن الله عنكم سلطان الاسلام ، ثم لا ينقله اليكم أبداً حتى يأرز الامر اليها . انهضوا الى القوم الذين يريدون يفرقون جماعتكم لعل الله يصلح بكم ما أفسد أهل الآفاق

بينما هم كذلك اذ جاء الخبر عن أهل مكة بنحو آخر وتمام على خلاف ، وان القائم في ذلك طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين . فقام في الناس وأعلمهم بما حدث من الفرقة في مكة وأنبأهم بانه سيمسك عنهم وبصبر ما لم يخف على جماعة المدينة وانه يكف ان كفوا واقتصروا على ما بلغه عنهم . وبلغه أنهم يريدون البصرة لمشاهدة الناس والاصلاح ، فتعبى للخروج اليهم وقال : ان فعلوا هذا فقد انقطع نظام المسلمين ، وما كان عليهم في المقام فينا مؤونة ولا اكراه . فاشتد الأمر على أهل المدينة وتاثاقلوا

وكان علي أراد أن ينهض معه عبد الله بن عمر ليكون للناس به أسوة فقال : أنا رجل من أهل المدينة فان يخرجوا أخرج وان يقعدوا أقعد . قال : فاعطني بذلك زعيما فأبى . ورجع الى المدينة والناس يقولون : لا والله ماندري كيف نصنع فان الامر لمشتبه علينا ، ونحن مقيمون حتى يضيء لنا ويسفر

وقد قام علي في أهل المدينة ووجوهها واستنهضهم في القيام معه فنهض معه من أهل بدر ستة نفر

فانتم ترون أن الامور تتعسر عليه من أول يوم ، وأصحابه لم يكونوا على بينة من أمرهم . أما معاوية فلم يتعسر عليه شيء من ذلك ، بل تأتى لاموره بالحزم والصبر والتأني واستدخال أولي الرأي ، حتى استقام أمره ولم يحدث له ماحصل لعلي

امر عائشة

لما قتل عثمان هرب بنو أمية فلحقوا بمكة قبل أن بايع الناس علياً ، وكان تساقط الهراب اليها وعائشة مقيمة بها ، فاستخبرتهم ، فأجابوها بانْ قتل عثمان ولم يجبهم الى التامير أحد فقالت عائشة : ولكن اكياس . هذا غبٌّ ما كان يدور بينكم

من عتاب الاستصلاح . فلما قضت عمرتها وخرجت وانتهت الى سَرِف لقيها رجل من أخوالها بني ليث وكانت واصلة لهم رفيقة عليهم يقال له عبيد الله بن أبي سلمة ويعرف بامه أم كلاب فقالت : مهيم ؟ فاصم ودمدم . فقالت : ويحك علينا أو لنا ؟ فقال : لا ندرى قتل عثمان فبقوا ثمانيا . قالت : ثم صنعوا ماذا ؟ فقال : أخذوا أهل المدينة بالاجتماع على علي والقومُ الغالبون على المدينة . فرجعت الى مكة وهي لاتقول شيئاً حتى نزلت على باب المسجد وقصدت للحجر فسترت به . واجتمع الناس اليها فقالت : أيها الناس ان الغوغاء من أهل الامصار وأهل المياه وعبيد أهل المدينة اجتمعوا ، ان عاب الغوغاء على هذا المقتول بالامس الاربْ واستعمال من حدثت سنه وقد استعمل أسنانهم قبله ومواضع من مواضع الحمى حماها لهم وهي أمور قد سُبق بها لا يصلح غيرها فتابعهم ونزع لهم عنها استصلاحاً لهم فلم يجدوا حجة ولا عذراً فلجوا وبادروا بالعدوان ونبا فعلهم عن قولهم فسفكوا الدم الحرام واستحلوا البلد الحرام وأخذوا المال الحرام واستحلوا الشهر الحرام والله لأصبع عثمان خير من طباق الارض أمثالهم فنجاه من اجتماعكم عليهم حتى ينكل بهم غيرهم ويشرد من بعدهم . والله لو أن للذي اعتدوا عليه ذنباً لخلص منه كما يخلص الذهب من خبثه أو الثوب من درنه اذ ماصوه كما يماص الثوب بالماء . فقال عبد الله بن عامر : ها أنا ذا لها أول طالب . وكان أول مجيب ومنتدب

لو ان عائشة كانت تقول مثل هذه الخطبة بالمدينة قبل أن تخرج للحج لكان الامر أرجى للقبول منها . ولكنها انما ترهب من هذا الامر كله خلافة علي . ولو أن الخليفة كان طلحة أو الزبير لكان في ذلك رضى لها لان طلحة تيمي من قومها والزبير زوج أختها

والذي احفظها على علي وجعلها تكره امرته أنه كان بينها وبينه في مدة رسول الله ﷺ جفاء من يوم حديث الافك اذ تحدث الناس وكثر الكلام واغتم رسول الله لذلك . فقال له علي : لن يضيق الله عليك والنساء غيرها كثير ، ولو

سألت بريرة لصدقتك عنها . فكان قول علي هذا مما غير قلب عائشة عليه وجعلها لا تذكر اسمه . حتى انها لما ذكرت ان رسول الله خرج وهو مريض الى المسجد قالت خرج يتهادى بين العباس ورجل آخر تعني علياً . وروى أنها لما بلغها مقتل علي قالت :

فألقتْ عصاها واستقرَّ بها النوى كما قر عيناً بالاياب المسافر

وكانت اجابة عبد الله بن عامر أول ما تكلم به الناس بالحجاز ، فرفع بنو أمية رؤوسهم . وقام معهم الوليد بن عقبة وسائر بني أمية وعبد الله بن عامر أمير البصرة ويعلى بن أمية قدم من اليمن وطلحة والزبير من المدينة واجتمع ملؤهم بعد مراجعة طويلة على البصرة . وقالت عائشة : أيها الناس ان هذا حدث عظيم وأمر منكر فانهضوا فيه الى اخوانكم من أهل البصرة فانكروه فقد كفاكم أهل الشام ما عندهم لعل الله عز وجل يدرك لعثمان والمسلمين بثأرهم

وروى الطبري أن أول من أجاب الى أمر عائشة عبد الله بن عامر وبنو أمية وكانوا قد سقطوا اليها بعد مقتل عثمان وقد قدم ابن عامر أولا ثم قدم يعلى بن أمية فتوافقا بمكة ومع يعلى ستمائة بعير وستمائة الف فأناخ بالابطح معسكراً وقدم معهما طلحة والزبير فلقيا عائشة فقالت : ما وراءكما ؟ فقالا وراءنا أنا تحملنا بكليتنا هراباً من المدينة من غوغاء وأعراب وفارقنا قوماً حيارى لا يعرفون حقاً ولا ينكرون باطلا ولا يمنعون أنفسهم . قالت : فائتمروا أمراً ، ثم انهضوا الى هذه الغوغاء . ثم تمثلت :

ولو أن قومي طاوعتني سَراتهم لانقذتهم من الحبال أو الخبل

وقال القوم فيما ائتمروا به : الشام . فقال عبد الله بن عامر قد كفاكم الشام من يستمر في حوزته . فقال طلحة والزبير : فأين ؟ قال البصرة فان لي بها صنائع ولهم في طلحة هوى . قالوا قبحك الله فوالله ما كنت بالمسالم ولا بالمحارب ، فهلا أقمت كما أقام معاوية فنكتفي بك ونأتي الكوفة فنسد على هؤلاء القوم المذاهب ؟ فلم يجدوا عنده جواباً مقبولا . حتى اذا استقام لهم الرأي على البصرة قالوا : يا أم المؤمنين ، دعي

المدينة فان من معنا لا يقرنون لتلك الغوغاء التي بها . واشخصي معنا الى البصرة فانا نأتي بلداً مضيعا وسيحتجون علينا في بيعة علي بن أبي طالب فتنهضيهم كما أنهضت أهل مكة ثم تقعدين فان أصلح الله الامر كان الذي تريدين وإلا احتسبنا ودفعنا عن هذا الامر بجهدنا حتى يقضي الله ما أراد . فلما قالوا ذلك لها ولم يكن ذلك مستقيماً إلا بها قالت نعم . وقد كان أزواج النبي ﷺ على قصد المدينة . فلما تحول رأيها الى البصرة تركن ذلك . وانطلق القوم الى حفصة فقالت : رأيي تبع لرأي عائشة حتى اذا لم يبق إلا الخروج قال لهم يعلى بن أمية : معي ستمائة ألف وستمائة بعير فاركبوها . وقال ابن عامر معي كذا وكذا فتجهزوا به. فنادى المنادي أن أم المؤمنين وطلحة والزبير شاخصون الى البصرة فمن كان يريد اعزاز الاسلام وقتال المحلين والطلب بثأر عثمان ولم يكن عنده مركب ولم يكن له جهاز فهذا جهاز وهذه نفقة . فحملوا ستمائة رجل على ستمائة من الابل سوى من كان له مركب وكانوا جميعاً ألفا . وتجهزوا بالمال ونادوا بالرحيل واستقلوا ذاهبين. وأرادت حفصة الخروج فأتاها عبد الله ابن عمر ـ وكان شخص الى مكة باذن علي معتمراً ـ فطلب اليها أن تقعد فقعدت وبعثت تقول لعائشة : عبد الله حال بيني وبين الخروج . فقالت يغفر الله لعبد الله. وبعثت أم الفضل بنت الحارث رجلا من جهينة يدعى ظفرا ، فاستأجرته على أن يطوي ويأتي علياً بكتاب كتبت به اليه

وسار معهم مروان وسائر بني أمية إلا من خشع منهم ولم يزالوا سائرين حتى قاربوا البصرة . كان الزبير وطلحة قد كاتبا ناساً من أهل البصرة ليدخلوهم فيما اعتزما عليه وما جاءا مع عائشة له ، فكتبا الى كعب بن سور « أما بعد فانك قاضي عمر بن الخطاب وشيخ أهل البصرة وسيد أهل اليمن وقد كنت غضبتَ لعثمان من الاذى فاغضب له من القتل والسلام » فأجابهما « أما بعد : فانا غضبنا لعثمان من الاذى والغير باللسان فجاء أمر الغير فيه بالسيف . فان يك عثمان قُتِل ظالماً فما لكما

وله ، وان كان قتل مظلوماً فغيركما أولى به ، وان كان أمره أشكل على من شهده فهو على من غاب عنه أشكل » وكتاباً الى الاحنف بن قيس « أما بعد فانك وافد عمر وسيد مضر وحليم أهل العراق وقد بلغك مصاب عثمان ونحن قادمون عليك والعيان أشفى لك من الخبر والسلام » فأجابهما : أما بعد فانه لم يأتنا من قبلكم أمر لا نشك فيه إلا قتل عثمان . وأنتم قادمون علينا فان يك في العيان فضل نظرنا فيه ونظرتم وان لا يكن فيه فضل فليس في أيدينا ولا في أيديكم ثقة والسلام » وكتبا الى المنذر بن الجارود « أما بعد فان أباك كان رئيساً في الجاهلية وسيداً في الاسلام. وانك من أبيك بمنزلة المصلى من السابق يقال كاد أو لحق . وقد قتل عثمان مَن انت خير منه وغضب له من هو خير منك والسلام » فأجابهما المنذر « أما بعد فانه لم يلحقني بأهل الخير إلا أن أكون خيراً من أهل الشر . وانما أوجب حق عثمان اليوم حقه أمس . وقد كان بين أظهركم فخذلتموه . فمتى استنبطتم هذا العلم ، وبدا لكم هذا الرأي ؟

وقد ذكر صاحب الامامة والسياسة أن القوم في مسيرهم الى البصرة نزلوا بأوطاس من خيبر ، فأشرف عليهم سعيد بن العاص ومعه المغيرة بن شعبة ، وقال لعائشة أين تريدين يا أم المؤمنين ؟ قالت أريد البصرة . قال وما تصنعين بالبصرة ؟ قالت أطلب بدم عثمان . قال فهؤلاء قتلة عثمان معك . ثم أقبل على مروان فقال له : وأنت أين تريد أيضاً ؟ قال البصرة . قال وما تصنع بها ؟ قال اطلب قتلة عثمان . قال فهؤلاء قتلة عثمان معك ، ان هذين الرجلين قتلا عثمان (طلحة والزبير) وهما يريدان الامر لانفسهما . فلما غلبا عليه قالا : نغسل الدم بالدم والحوبة بالتوبة . ثم قال المغيرة بن شعبة : أيها الناس ، ان كنتم انما خرجتم مع أمكم فارجعوا بها خيراً لكم. وان كنتم غضبتم لعثمان فرؤساؤكم قتلوا عثمان . وان كنتم نقمتم على علي شيئاً فبينوا ما نقمتم عليه . أنشدكم الله . فتنتين في عام واحد ؟ فأبوا إلا أن يمضوا بالناس . فلحق سعيد بن العاص باليمن ، ولحق المغيرة بالطائف ، فلم يشهدا شيئاً من

حروب الجمل ولا صفين . أقول ان الخبر على هذا الوجه غريب وان من طبيعة الجماعات أنهم لا يطيقون الكلام على مثل هذا الوجه فانا من هذا الخبر في شك

ولما دنوا من البصرة وعلم بقدومهم عثمان بن حنيف أمير البصرة من قبل علي ندب رجلين هما عمران بن حصين وأبو الاسود الدؤلي ، ليسيرا فيعلما ماذا يريد القوم . ولما وصلا استأذنا على عائشة فأذنت لهما واستخبراها عن قدومها فقالت لهما : ان الغوغاء من أهل الامصار ونزاع أهل القبائل غزوا حرم رسول الله وأحدثوا فيه الاحداث وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله ، مع ما نالوا من قتل امام المسلمين بلا ترة ولا عذر ، فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه وانتهبوا المال الحرام وأحلوا البلد الحرام والشهر الحرام ومزقوا الاعراض والجلود وأقاموا في دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين غير نافعين ولا متقين لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون . فخرجت في المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا وما ينبغي لهم أن يأتوا في اصلاح هذا — وقرأتْ « لا خيرَ في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو اصلاح بين الناس » نُنْهِضُ في الاصلاح ممن أمر الله عز وجل ورسول الله ﷺ الصغير والكبير والذكر والأنثى . فهذا شأننا الى معروف نأمركم به ونحضكم عليه ، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره . ثم سألا طلحة ما أقدمك . فقال المطالبة بدم عثمان . قالا ألم تبايع علياً ؟ قال بلى واللج على عنقي وما أستقيل عليا ان هو لم يحل بيننا وبين قتلة عثمان . ولقيا الزبير فقال لهما مثل قول طلحة . ثم عاد الرجلان الى عثمان بن حنيف بما سمعا

عزم عثمان بن حنيف على منع القوم من البصرة . فخطب في النـاس فقال : أيها الناس انما بايعتم الله ، يد الله فوق أيديكم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما . والله لو علم عليٌّ ان أحداً أحق بهذا الامر منه ما قبله ، ولو بايع الناس غيره لبايع من بايعوا وأطاع من ولوا ، وما به الى

أحد من أصحاب رسول الله حاجة وما بأحد عنه غنى ولقد شاركهم في محاسنهم وما شاركوه في محاسنه ولقد بايعه هذان الرجلان وما يريدان الله . فاستعجلا الفطام قبل الرضاع والرضاع قبل الولادة والولادة قبل الحمل وطلبا ثواب الله من العباد . وقد زعما أنهما بايعا مستكرهين فان كانا استكرها قبل بيعتهما وكانا رجلين من عرض قريش لهما أن يقولا . ألا وان الهدى ما كانت عليه العامة والعامة على بيعة علي فما ترون؟ فقال حُكَيم بن جبلة العبدي : نرى ان دخلا علينا قاتلناهما وان وقفا تلقيناهما . والله ما أبالي أن أقاتلهما وحدي وان كنت أحب الحياة . وما أخشى في طريق الحق وحشة ولا غيرة ولا غشاً ولا سوء منقلب الى بعث . وانها لدعوة قتيلها شهيد وحيها فائز والتعجيل الى الله قبل الاجر خير من التأخير في الدنيا . وهذه ربيعة معك

لم يكن أهل البصرة على رأي واحد . فلما قدم جيش عائشة الى البصرة خرج اليهم من هم على مثل رأيهم

وكان عثمان حين أراد أن يقوم على أمره ويجدَّ في رد أصحاب الجمل أتاه هشام ابن عامر وقال له : يا عثمان ان هذا فتق لا يرتق وصدع لا يجبر، فسامحهم حتى يأتي أمر علي ولا تحادّهم . فأبى ونادى في الناس بالتهيؤ والبسوا السلاح واجتمعوا الى المسجد الجامع وأقبل عثمان على الكيد . فكاد الناس لينظر ما عندهم . ودس الى الناس رجلا كوفياً قيسياً . فقال : أيها الناس . أنا قيس بن العقدية الحميسي . ان هؤلاء القوم الذين جاءوكم . ان كانوا جاءوكم خائفين فقد جاؤا من المكان الذي يأمن فيه الطير وان جاؤا يطلبون دم عثمان فما نحن بقتلة عثمان . أطيعوني في هؤلاء القوم فردوهم من حيث جاؤا . فقام اليه الاسود بن سريع السعدي فقال : أوَ زعموا أنا قتلة عثمان رضي الله عنه؟ فانما فزعوا الينا ليستعينوا بنا على قتلة عثمان منا ومن غيرنا فان كان القوم قد أخرجوا من ديارهم كما زعمت فمن يمنعهم أن يخرجوا؟

الرجال أو البلدان ؟ فحصبه الناس . فعلم عثمان ان لهم بالبصرة ناصراً ممن يقوم معهم . فكره ذلك

أقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا الى المِرْبَد ودخلوا من أعلاه وأمسكوا ووقفوا حتى خرج عثمان ومن كان معه . وجعلوا يتوافدون حتى غص بالناس . فقام طلحة في ميمنة المربد ومعه الزبير وعثمان في ميسرته . فحمد الله وأثنى عليه وذكر عثمانَ رضي الله عنه وفضله والبلد وما استُحل منه وعظم ما أُتِيَ اليه ودعا الى الطلب بدمه وقال : ان في ذلك اعزازَ دين الله عز وجل وسلطانه وأما الطلب بدم الخليفة المظلوم فهو حدٌّ من حدود الله وانكم ان فعلتم أُصبتم وعاد أمركم اليكم وان تركتم لم يكن لكم سلطان ولم يقم لكم نظام .وتكلم الزبير بمثل ذلك فقال من بالميمنة صدقا وبرّا . وقال من بالميسرة فجرا وغدرا وقالا الباطل وأمرا به قد بايعا ثم جاءا يقولان ما يقولان وتحاثا الناس بالتراب وتحاصبوا ومرج أمرهم . فتكلمت عائشة وكانت جهورية الصوت يعلو صوتها كثرة كأنها صوت امرأة جليلة ، فحمدت الله عز وجل وأثنت عليه وقالت : كان الناس يتجنون على عثمان رضي الله عنه ويَزْرُون على عماله ويأتوننا بالمدينة فيستشيرو ننا فيما يخبروننا عنهم ويرون حسناً من كلامنا في صلاح بينهم فننظر في ذلك فنجده بريأ تقياً وفياً ونجدهم فجرة غدره كذبة يحاولون غير ما يظهرون . فلما قووا على المكابرة كاثروه فاقتحموا عليه داره واستحلوا الدم الحرام والمال الحرام والبلد الحرام بلا ترة ولا عذر . ألا ان مما ينبغي ولا ينبغي لكم غيره أخذ قتلة عثمان رضي الله عنه . واقامة كتاب الله ليحكم بينهم . فافترق أصحاب عثمان بن حنيف فرقتين : فرقة قالت : صدقتْ وبرّت وجاءت والله بالمعروف . وقال الآخرون : كذبتم والله ما نعرف ما تقولون فتحاثوا وتحاصبوا وارهجوا فلما رأت عائشة ذلك انحدرت وانحدر معها أهل الميمنة مفارقين لعثمان الى موضع في المربد وبقي أصحاب عثمان يتدافعون حتى تحاجزوا ـ ومال

بعضهم الى عائشة . وأخذ عثمان ومن معه على طريق المسجد

أقبل جارية بن قدامة السعدي فقال : يا أم المؤمنين ، والله لقتل عثمان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح . انه قد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكتِ سترك وأبحت حرمتك . انه من رأى قتالك فانه يرى قتلك. ان كنت خرجت طائعة فارجعي الى منزلك . وان كنت أتيتنا مستكرهة فاستعيني بالناس . وخرج شاب من بني سعد الى طلحة والزبير فقال : أما أنت يا زبير فحواري رسول الله ﷺ . وأما أنت يا طلحة فوقيت رسول الله ﷺ بيدك . وأرى أمكما معكما فهل جئتما بنسائكما ؟ قالا : لا . قال : فما أنا منكما في شيء . واعتزل وقال :

صنتم حلائلكم وقدتم أمكم — هذا لعمري قلة الانصاف
أمرت بجر ذيولها في بيتها — فهوت تشق البيد بالايجاف
عرضا يقاتل دونها ابناؤها — بالنبل والخطيّ والاسياف
هتكت بطلحة والزبير ستورها — هذا المخبر عنهم والكافي

وأقبل غلام من جهينة على محمد بن طلحة ـ وكان محمد رجلا عابداً ـ فقال : أخبرني عن قتلة عثمان . فقال : نعم ، دم عثمان على ثلاثة أثلاث : ثلث على صاحبة الهودج (يعني عائشة) وثلث على صاحب الجمل الاحمر (يعني أباه طلحة) وثلث على علي بن أبي طالب . فقال الغلام : لا أراني على ضلال . ولحق بعلي وقال :

سألت ابن طلحة عن هالك — بجوف المدينة لم يقبر
فقال ثلاثة رهط همُ — أماتوا ابن عفان واستعبر
فثلث على تلك في خدرها — وثلث على راكب الأحمر
وثلث على ابن أبي طالب — ونحن بدوّية قرقر
فقلت صدقت على الأولين — وأخطأت في الثالث الازهر

ولما تم أمر الفريقين على النحو الذي وصفنا . اقبل حكيم بن جبلة وهو على الخيل فأنشب القتال واشرع اصحاب عائشة رماحهم وامسكوا ليمسكوا فلم يَثْنِهِ ولم يُثْن . فقاتلهم واصحاب عائشة كافون الا ما دافعوا عن أنفسهم . وهو يذمر خيله ويقول : انها قريش ليردنها جبنها والطيش واقتتلوا واشرف اهل الدور ممن كان له في احد الفريقين هوى فكانوا يرمون مخالفيهم بالحجارة . وامرت عائشة اصحابها فتيامنوا حتى انتهوا الى مقبرة بني مازن وثار اليهم الناس حتى حجزهم الليل . ثم جاء أبو الجرباء التميمي فأشار على طلحة ومن معه بمكان أمثل من مكانهم . فساروا الى مقبرة بني حصن وباتوا يتأهبون للحرب وأصبح عثمان ومعه جبلة خارجين للحرب وجبلة يسب عائشة . ولامه رجل وامرأة فقتلها . والتقى الفريقان وقتل من أصحاب عثمان خلق كثير وفشت الجراحات في الفريقين ومنادي عائشة يناشدهم ويدعوهم الى الكف فيأبون الى أن زالت الشمس وعضتهم الحرب ومسهم الشر . نادوا أصحاب عائشة الى الصلح فأجابوهم وتواعدوا وكتبوا بينهم كتاباً على أن يبعثوا رسولا الى المدينة ليستخبر أهلها . فان كان طلحة والزبير أكرها على بيعة علي خرج عثمان عنهما وأخلى لهما البصرة وان لم يكونا أكرها خرج طلحة والزبير عنها وهذا هو الكتاب بالصلح : «بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهما من المؤمنين والمسلمين وعثمان بن حنيف ومن معه من المؤمنين والمسلمين . ان عثمان يقيم حيث أدركه الصلح على ما في يده وان طلحة والزبير يقيمان حيث أدركهما الصلح على ما في أيديهما حتى يرجع أمين الفريقين كعب بن سور من المدينة ولا يضار واحد من الفريقين الآخر في مسجد ولا سوق ولا طريق ولا فرضة . بينهم عيبة مفتوحة حتى يرجع كعب بالخبر فان رجع بأن القوم أكرهوا طلحة والزبير فالامر أمرهما ، وان شاء عثمان خرج حتى يلحق بطيته وان شاء دخل معهما . وان رجع بانهما لم يكرها فالامر أمر عثمان ، فان شاء طلحة والزبير

أقاما على طاعة علي وان شاءا خرجا حتى يلحقا بطيتهما والمؤمنون أعوان الفالج منهما » . فخرج كعب بن سور حتى قدم المدينة يوم جمعة واجتمع الناس لقدومه فقال : يا أهل المدينة اني رسول أهل البصرة اليكم أأكره هؤلاء الرجلان على بيعة علي أم أتياها طائعين ؟ فلم يجبه أحد من القوم الا ما كان من أسامة بن زيد فانه قال : اللهم انهما لم يبايعا الاوهما كارهان . فواثبه سهل بن حنيف والناس حتى خشي عليه أصحاب رسول الله القتل فقاموا ليمنعوه وفيهم صهيب بن سنان وأبو أيوب بن زيد ومحمد بن مسلمة وصدّقوا قوله ومنعوه ، قال له محمد بن مسلمة أما وسعك ما وسعنا من السكوت ؟ قال : لا والله ما كنت أرى الامر يترامى . ثم رجع كعب بما وقف عليه بالمدينة

من عام الامر بالصورة التي وصفنا نعلم ان الامر لا يزداد مبرمه الا انتكاثاً في يد علي والحال تسير على غير نظام . فان عثمان بن حنيف لم يوله على ذلك المصر ليعقد المعاهدات بينه وبين طوائف المسلمين ولم يأخذ عليه العهد بان يبذل الشروط التي تفضي الى ضياع الامصار . وقد كان الرجل على غير ما يجب في أمثاله من الارب وقوة الحجة . ولو كان على شيء من ذلك لاستطاع أن يجمع كلمة أهل البصرة ويملك ناصية أهوائهم حتى يقيمهم على طاعة علي ويحج طلحة والزبير وعائشة بان اقامة الحد انما هي للامام ولا ينبغي النهوض الا في طاعة امام . وهم قوم نزاع لا امام لهم ومن كانت في عنقه بيعة فانه خارج على امامه . وكان في وسعه أن يلزم القوم التربص حتى يؤامر علياً . ومن الخرق في الرأي ان يرخص لحكيم بن جبلة في القتال قبل أن يتقدم اليه امامه في ذلك وان الامساك كان أحسن في العاقبة وأرجى في العافية

بلغ علياً الخبر الذي كان بالمدينة على يد كعب بن سور فبادر بالكتاب الى عثمان يعجزه ويقول له : والله ما أكرها على فرقة ولقد أكرها على جماعة وفضل

فان كانا يريدان الخلع فلا عذر لها وان كانا يريدان غير ذلك نظرنا و نظرا . وجاء كتاب علي ورجع كعب بن سور قاضي البصرة بما رأى في المدينة . فأراد طلحة والزبير تنفيذ شروط الصلح . فقال عثمان : أنا لا أخرج . واحتج بكتاب علي وقال : هذا أمر آخر غير ما كنا فيه فجمع طلحة والزبير الرجال في ليلة مظلمة باردة ذات رياح و ندى ثم قصد المسجد فوافقا صلاة العشاء ، وكانوا يؤخرونها فابطأ عثمان بن حنيف فقدما عبد الرحمن بن عتاب للصلاة ، فشهر أصحاب ابن حنيف السلاح فقتلوا ودخلوا على عثمان بن حنيف فضربوه أربعين سوطاً و نتفوا شعر لحيته و رأسه وحاجبه وشعر عينيه وحبسوه ثم أمرت عائشة أن يترك يسير حيث يشاء فترك البصرة وذهب الى علي

أصبح حكيم بن جبلة فيمن تبعه يريدون الحرب وكان أتباعه ممن لهم شركة في فتنة عثمان وعلموا أنهم مقتولون اذا قعدوا . فلما أنشبوا الحرب ونادى منادي عائشة من لم يكن من قتلة عثمان فليكفف عنا فانا لا نريد إلا قتلة عثمان ولا نريد أحد

واقتتل الفريقان أشد قتال وضرب رجل حكيما فقطع رجله فحبا اليها وأخذ وضرب بها ضاربه فصرعه ثم حبا اليه حتى قتله واتكأ عليه . وجاء رجل من أصحابه فقال له من قتلك ؟ قال وسادتي . وكان يقف على رجله في ذلك اليوم ويخطب ويحتج على طلحة والزبير — الى أن انهزم حرقوص بن زهير في نفر ممن بقي فلجأوا الى قبائلهم . فنادى طلحة والزبير ألا من كان فيهم من قبائلكم أحد ممن غزا المدينة فليأتنا به فجاءوا بقيتهم يسوقونهم كما تساق الكلاب فقتلوا ولم ينج أحد ممن غزا المدينة من أهل البصرة سوى حرقوص بن زهير السعدي أجاره قومه وأعطوا أجلا فيه _ وجاء طلحة والزبير وأعطوا أهل السمع والطاعة من بيت المال وفضلوهم ومنعوا غيرهم فخرجت عبد القيس وكثير من بكر بن وائل حين زووا عنهم الفضول وبادروا بيت المال ودافعهم الناس وأصابوا منهم . وخرج القوم وأقاموا على طريق علي . وأقام طلحة والزبير ليس معهما بالبصرة ثار إلا حرقوص . وكتبوا الى أهل

الشام بما صنعوا وصاروا اليه فقالوا ـ انا خرجنا لوضع الحرب واقامة كتاب الله عز وجل بأقامة حدوده في الشريف والوضيع والكثير والقليل ـ حتى يكون الله عز وجل هو الذي يردنا عن ذلك ـ فبايعنا أهل البصرة ونجباؤهم وخالفنا شرارهم ونزاعهم فردونا بالسلاح وقالوا فيا قالوا نأخذ أم المؤمنين رهينة ان امرتهم بالحق وحثتهم عليه فاعطاهم الله عز وجل سنة المسلمين مرة بعد مرة حتى اذا لم يبق حجة ولا عذر استبسل قتلة أمير المؤمنين فخرجوا الى مضاجعهم فلم يفلت منهم مخبر الاحرقوص بن زهير والله تعالى مقيده ان شاء الله وكانوا كما وصف الله عز وجل وانا نناشدكم الله في انفسكم الا نهضتم بمثل ما نهضنا به فنلقى الله عز وجل وتلقونه وقد اعذرنا وقضينا الذي علينا . وبعثوا به مع سيار العجلي وكتبوا الى أهل الكوفة بمثله والى أهل اليمامة والى أهل المدينة . وكتبت عائشة رضى الله عنها الى أهل الكوفة مع رسولهم كتابا طولته وحثتهم على متابعتها

وكانت الموقعة لخمس ليال بقين من ربيع الآخر سنة ٣٦

العجب كل العجب من طلاب دم عثمان سواء كانوا من بني امية أو من غيرهم كطلحة والزبير فان هؤلاء القوم انما كانوا يريدون أن يقتلوا كل من ورد المدينة مع المؤلبين لا يستثنون أحدا منهم . وهم بذلك يريدون أن يقيدوا بدم عثمان من ثلاثة آلاف من أهل القبلة . واذا راعينا من ثار اليهم من أهل المدينة وعبدانهم وأهل المياه لبلغ المؤخوذون بدم عثمان الذين يجب قتلهم من خمسة آلاف الى ما يزيد على عشرة آلاف . وذلك أمر لا يرضاه الله تعالى ولا تأمر به الشريعة . والله تعالى يقول ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل . وهذا نهاية الاسراف ، ورجوع بالمسلمين الى أمر الجاهلية . ولو نفذنا رأيهم لكان بين الآخذين بثاره العدد الكثير ممن في أعناقهم دمه كطلحة والزبير وعائشة . لان كلماتهم التى كانت تصدر منهم في حق عثمان بالمدينة تعد مددا للمؤلبين وعونا لاهل الفتنة . وقد كان في حكم الانصاف ان يعمدوا إلى رؤساء أهل الفتنة

وقادتهم ويقتلوهم أو يقاتلوهم

يؤيد قولي في طلحة والزبير وعائشة ما روى الطبري عن علقمة بن وقاص الليثي قال: لما خرج طلحة والزبير وعائشة رأيت طلحة وأحب المجالس اليه اخلاها وهو ضارب بلحيته على زوره . فقلت يا أبا محمد أرى أحب المجالس اليك أخلاها وأنت ضارب بلحيتك الى زورك ان كرهت شيئا فاجلس . فقال يا علقمة ابن وقاص بينا نحن يد واحدة على من سوانا اذ صرنا جبلين من حديد يطلب بعضنا بعضا انه كان مني في عثمان شيء ليس توبتي الا ان يسفك دمي في طلب دمه . فقلت: فرد محمد بن طلحة فان لك ضيعة وعيالا فان نابك شيء يخلفك فقال ما أحب ان أرى أحدا يخف في هذا الامر فامنعه . فأتيت محمد بن طلحة . فقلت له: لو اقمت فان حدث به حدث كنت تخلفه في عياله وضيعته . فقال ما احب ان اسأل الرجال عنه

وفي الطبري ان ابن ام كلاب حين أخبر عائشة ببيعة علي قالت: ليت هذه انطبقت على هذه ان تم الامر لصاحبك ، ردوني . وانصرفت الى مكة وهي تقول قتل والله عثمان مظلوما والله لاطلبن بدمه . فقال لها ابن ام كلاب: ولم؟ فوالله ان أول من أمال حرفه لانت . ولقد كنت تقولين اقتلوا نعثلا فقد كفر . فقالت انهم استتابوه ثم قتلوه وقد قلت وقالوا وقولي اليوم خير من قولي الاول ـ فقال أبياتا منها :

وانت أمرت بقتل الامام وقلت لنا انه قد كفر

فهبنا أطعناك في قتله وقاتله عندنا من أمر

فهؤلاء الرهط لم يقوموا للطلب بدم عثمان في الواقع ولكن ـ كل إلى حيزه يجذب

واذا صح ان طلحة كان ناما على ما كان منه في حق عثمان فليس السبيل

الى تكفير خطيئته ان يقاتل عليا بل كان يصبر حتى تجتمع كلمة الامة ثم يعمد الى أصحاب رسول الله ويدعوهم الى مؤتمر يديرون الرأي فيه كما يجب ان يصار اليه في أمر القتلة ورؤوس المؤلبين

لما بلغ عليا نبأ مسير طلحة والزبير وعائشة الى البصرة عدل عن المسير الى الشام ورأى أن يرتق هذا الفتق وحاول أن يدركهم قبل أن يصلوا اليها . فلما انتهى إلى الربذة اتاه عنهم انهم قد أمعنوا . فسرى عنه وقال ان أهل الكوفة أشد الي حباً . وكتب الى أهل الكوفة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فاني اخترتكم والنزول بين أظهركم لما أعرف من مودتكم وحبكم لله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم فمن جاءني ونصرني فقد أجاب الحق وقضى الذي عليه . »

وأرسل الى الكوفة محمد بن أبي بكر ومحمد بن عوف - وفي رواية محمد بن جعفر - فمضيا وبقي علي بالربذة يتهيأ وأرسل الى المدينة فلحقه ما أراد من دابة وسلاح وأمر أمْرُه وخطب الناس وقال : ان الله أعزنا بالاسلام ورفعنا به وجعلنا به أخواناً بعد ذلة وقلة وتباغض وتباعد فجرى الناس على ذلك ما شاء الله : الاسلام دينهم ، والحق فيهم ، والكتاب امامهم . حتى أصيب هذا الرجل بأيدي هؤلاء القوم الذين نزغهم الشيطان لينزغ بين هذه الامة . الا ان هذه الامة لا بد مفترقة كما افترقت الامم قبلهم فنعوذ بالله من شر ما هو كائن . ثم عاد ثانية فقال : ألا انه لا بد مما هو كائن أن يكون ألا وان هذه الامة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة شرها فرقة تنتحلني ولا تعمل بعملي ، فقد أدركتم ورأيتم فالزموا دينكم واهدوا بهدى نبيكم صلى الله عليه وسلم واتبعوا سنته واعرضوا ما أشكل عليكم على القرآن فما عرفه القرآن فالزموه وما أنكر فردوه ، وارضوا بالله جل وعز رباً وبالاسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالقرآن حكما واماماً

ثم سار والناس من القبائل يتلاحقون به حتى نزل على ذي قار وقد وافاه

عثمان بن حنيف وبلغه ما صنع حكيم بن جبلة وما كان من شأن قتلة عثمان . فقال : الله أكبر ما ينجيني من طلحة والزبير اذ أصابا ثأرهما أو ينجيهما وقرأ « ما أصاب من مصيبة في الارض ولا في أنفسكم الا في كتاب من قبل أن نبرأها » وأقام يتلوم بذي قار حتى يأتيه أمر عن رسوليه الى الكوفة

أما رسولاه فقد وردا الكوفة وأتيا ابا موسى بكتاب على . وقاما في الناس بأمره فلم يجابا الى شيء . فلما أمسوا دخل ناس من أهل الحجى على أبي موسى يستشيرونه . فقالوا : ما ترى في الخروج ؟ فقال : كان الرأي بالامس . ليس باليوم .ان الذي تهاونتم به فيما مضى هو الذي جر عليكم ما ترون وما بقي ، انما هما أمران : القعود سبيل الآخرة والخروج سبيل الدنيا . فاختاروا . فلم ينفر أحد فغضب محمد ومحمد . وأغلظا لأبي موسى . فقال : والله ان بيعة عثمان لفي عنقي وعنق صاحبكما فاذا كان لا بد من قتال . لا نقاتل أحداً حتى نفرغ من قتلة عثمان حيث كانوا . فانطلقا الى على بذي قار وأخبراه الخبر . فأرسل ابن عباس والاشتر الى الكوفة ليجمعا الناس على أمره ، وكان يأمل أن ينال ما يرجو بالاشتر لمكانه من أهل الكوفة . فقدما على أبي موسى واستعانا عليه بناس . فقام أبو موسى فقال للكوفيين في خطبة له : أيها الناس ،ان أصحاب النبي ﷺ الذين صحبوه في المواطن أعلم بالله عز وجل وبرسوله ﷺ ممن لم يصحبه . وان لكم علينا حقاً فأنا مؤديه اليكم . كان الرأي أن لا تستخفوا بسلطان الله عز وجل ولا تجترئوا على الله عز وجل. وكان الرأي الثاني ان تأخذوا من قدم عليكم من المدينة فتردوهم اليها حتى يجتمعوا وهم أعلم بمن تصلح له الامامة منكم ولا تكلفوا الدخول في هذا . فاما اذ كان ما كان فانها فتنة صماء النائم فيها خير من اليقظان واليقظان فيها خير من القاعد والقاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الراكب فكونوا جرثومة من جراثيم العرب فأغمدوا السيوف وأنصلوا الاسنة وقطعوا الاوتار وآووا المظلوم

والمضطهد حتى يلتئم هذا الامر وتنجلي هذه الفتنة

عاد بعد ذلك ابن عباس والاشتر بالخبر الى علي فأرسل ابنه الحسن وعمار ابن ياسر الى الكوفة ، فلقيهما مسروق بن الاجدع فاقبل على عمار وقال : يا أبا اليقظان علام قتلتم عثمان ؟ فقال : على شتم أعراضنا وضرب أبشارنا . فقال : والله ما عاقبتم بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لكان خيراً للصابرين . وخرج اليهما أبو موسى فضم الحسن اليه وقال لعمار : يا أبا اليقظان أعدوت على أمير المؤمنين فيمن عدا فاحللت نفسك مع الفجار ؟ فقال : لم أفعل ولم تسؤني . وقطع عليهما الحسن الحديث وقال : يا أبا موسى . لم تُثَبِّط الناس عنا ؟ فوالله ما أردنا الا الاصلاح ولا مثل أمير المؤمنين يخاف على شيء . فقال : صدقت بأبي أنت وأمي ولكن المستشار مؤتمن ، ولكن سمعت رسول الله ﷺ يقول انها ستكون فتنة الخ . وقد جعلنا الله عز وجل اخوانا وحرم علينا أموالنا ودماءنا وقال « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » وقال جل وعز « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها » الآية . فغضب عمار وقال : يا أيها الناس ، انما قال له خاصة أنت فيها قاعداً خير منك قائما . ورد رجل على عمار رداً قبيحاً . وجاء زيد بن صوحان بكتب عائشة فقرأها على الناس وقال : انها أمرت بالقرار في بيتها وأمرنا أن نقاتل الناس حتى لا تكون فتنة وهي تنهانا عن القتال . ورد عليه شبث بن ربعي بانها انما تأمر بالخير والاصلاح . وتهاوى الناس بعضهم الى بعض وجعل أبو موسى يكفكفهم ويأمرهم بالسكون وينصح لهم بان يتجنبوا الفتنة ولا يدخلوا فيها ويرد عليه زيد بن صوحان بان ذلك لا يكون حتى يرد الفرات عن سيله ويتلو « ألم أحسب الناس أن يتركوا ان يقولوا آمنا وهم لا يفتنون » وقام القعقاع فقال : ان رأي الامير هو الرأي لو وجد اليه سبيل وان زيد بن صوحان لا يؤخذ برأيه لانه من أهل التأليب على عثمان . وان الرأي انه

لا بد من امام ينتظم به الامر وان علياً قد وليه وانما يدعو الى الاصلاح فلينفروا اليه حتى يكونوا بمرأى ومسمع من الامر . ورد عليه آخرون وافترق الناس فريقين

ثم قام الحسن بن علي فقال : يا أيها الناس ، أجيبوا دعوة أميركم وسيروا الى اخوانكم فانه سيوجد لهذا الامر من ينفر اليه . والله لأن ينفر اليه أولو النهي أمثل في العاجلة وخير في العاقبة فأجيبوا دعوتنا وأعينونا على ما ابتلينا وابتليتم به فسامح الناس . وقال الحسن : اني غاد فمن شاء منكم فليخرج على الظهر ومن شاء فليخرج في الماء . فخرج معه تسعة آلاف ستة آلاف ومئتان في البر والفان وثمانمائة في السفن وجاءت الجنود الى علي بذي قار . فقال لهم : قد دعوتكم لتشهدوا معنا اخواننا من أهل البصرة ، فان يرجعوا فذاك ما نريد ، وان يلجوا داويناهم بالرفق وباينّاهم حتى يبدؤا بظلم ، ولن ندع أمراً فيه صلاح الا آثرناه على ما فيه الفساد ان شاء الله

فلما حضر أهل الكوفة دعا علي القعقاع من ساداتهم وكان من أصحاب رسول الله ﷺ وقال له : الق هذين الرجلين يا ابن الحنظلية فادعهما الى الالفة والجماعة وعظم عليهما الفرقة . وقال له : كيف أنت صانع فيما جاءك عنهما مما ليس عندك فيه وصاة مني ؟ فقال : نلقاهم بالذي أمرت . فاذا جاء منهما أمر ليس عندك فيه رأي اجتهدنا الرأي وكلمناهم على قدر ما نسمع ونرى أنه ينبغي فقال : أنت لها . وقدم القعقاع البصرة فبدأ بعائشة وقال لها : أي أمه ما أشخصك وما أقدمك هذه البلدة ؟ قالت : أي بني ، اصلاح بين الناس . قال فابعثي الى طلحة والزبير حتى تسمعي كلامي وكلامهما . فبعثت اليهما فجاءا فقال : اني سألت أم المؤمنين ما أشخصها وأقدمها هذه البلاد فقالت اصلاح بين الناس . فما تقولان أنتما أمتابعان أم مخالفان ؟ فقالا : متابعان . فقال : فأخبراني ما وجه هذا الاصلاح فوالله ان عرفناه لنصلحن وان انكرناه لا نصلح فقالا : قتلة عثمان فان هذا ان ترك كان تركا للقرآن وان عمل كان احياء للقرآن . فقال : قد قتلنا قتلة عثمان من أهل البصرة ،

وأنتم قبل قتلهم أقرب الى الاستقامة منكم اليوم. قتلتم ستمائة رجل الا رجلا، فغضب لهم ستة آلاف واعتزلوكم وخرجوا من بين أظهركم وطلبتم الذي أفلت (حرقوص بن زهير) فمنعه ستة آلاف وهم على رجل. فان تركتموهم كنتم تاركين لما تقولون. فان قاتلتموهم والذين اعتزلوكم فأديلوا عليكم فالذي حذرتم وقربتم به هذا الامر أعظم مما أراكم تكرهون. وأنتم أحميتم مضر وربيعة من هذه البلاد فاجتمعوا على حربكم وخذلانكم نصرة لهؤلاء كما اجتمع هؤلاء لأهل هذا الحدث العظيم والذنب الكبير. فقالا وقالت عائشة: فما دواء هذا الامر؟ فقال: لا أرى دواء لهذا الامر الا التسكين واذا سكن اختلجوا فان أنتم بايعتمونا فعلامة خير وتباشير رحمة ودرك بثأر هذا الرجل وعافية وسلامة لهذه الامة وان أبيتم الا مكابرة هذا الامر واعتسافه كانت علامة شر وذهاب هذا الثأر وبعثة الله في هذه الامة هزاهز فآثروا العافية ترزقوها وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون ولا تعرضونا للبلاء ولا تعرضوا له فَيَصْرَعنَا واياكم. وايم الله اني لأقول هذا وأدعوكم اليه واني خائف أن لا يتم حتى يأخذ الله من هذه الامة التي قل متاعها ونزل بها ما نزل. فان هذا الامر الذي حدث أمر ليس يقدر وليس كالامور ولا كقتل الرجل الرجل ولا النفر الرجل ولا القبيلة الرجل». فقال له القوم: أحسنت وأصبت، فان جاء علي بمثل ماقلت صلح الامر

والناظر في هذا القول يرى أن القعقاع قد تأتى لهذا الامر بأحسن ما تأتى له رفيق مصلح حاذق درب. وان هذا القول وقع من نفس عائشة وطلحة والزبير أحسن وقع. وأنه حملهما على ايثار العافية وما فيه الاجتماع ونبذ الفرقة ورتق ما ما فتقا. وما أجمل ذلك لو تم!

رجع القعقاع الى علي وأعلمه علم القوم وما كان منه ومنهم فأعجبه ذلك وأشرف القوم على الصلح. ثم أمر علي بالرحيل بعد أن جمع الناس وخطب فيهم خطبة قال

منها : ألا واني راحل غداً فارتحلوا ألا ولا يرحلن غداً أحد أعان على عثمان رضي الله عنه بشيء في شيء من أمور الناس وليغن السفهاء عني أنفسهم . وقد جاءت وفود قبائل البصرة الى قبائل الكوفة وهم لا يريدون الحرب ولا يظنونها وأمن الناس بعضهم بعضاً

من أين جاء الشر؟

لما كان أمر الصلح لا يسوء أحداً من الامة سوى المجلبين على عثمان لان حياتهم لا تكون الا بدوام الشقاق بين علي وخصومه ، أشفقوا على أنفسهم أن يكون هذا الصلح على أعناقهم ، فاجتمع منهم رهط ممن سار الى عثمان ورضى بسير من سار وخلصوا نجيا . منهم علباء بن الهيثم وعدي بن حاتم وسالم بن ثعلبة العبسي وشريح بن أوفى والاشتر وابن السوداء وخالد بن ملجم وغيرهم . فتشاوروا فيما يصنعون وكان فيما قال بعضهم لبعض: اذا اجتمع الناس غداً واصطلحوا فليس الصلح الا علينا وأشار بعضهم (وهو الاشتر) بقتل علي وطلحة حتى تكون هذه بتلك فيغفر الناس لهم ما أحدثوا بعثمان . فسفه الآخرون رأيه وكل أبدي رأيا . فقال لهم ابن السوداء : ان عزكم في خلطة الناس فصانعوهم واذا التقى الناس غداً فانشبوا القتال ولا تفرغوهم للنظر فاذا من أنتم معه لا يجد بداً من أن يمتنع ويشغل الله علياً وطلحة والزبير عما تكرهون

لما وصل علي بعد ذلك الى البصرة وقد بيت السبيئة أمرهم وهو لا يعلم ولا بقية عسكره بما يسرون ، أرسل الى القوم « ان كنتم على ما فارقتم القعقاع عليه فكفوا وأقرونا ننزل وننظر في هذا الامر » فنزلوا والقوم لا يشكون في الصلح ومشت السفراء بين الفريقين وبات الناس ينتظرون العافية من هذا الحادث الجلل . فقام السبئية

في الغلس ووضعوا السلاح في أهل البصرة وهم غارّون . فلما كانت الهيعة سأل طلحة والزبير عن الخبر ، فقالوا طرقنا أهل الكوفة ليلا . فقالا قد علمنا أن علياً غير منتهٍ حتى يسفك الدماء ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا . وسأل علي عن الخبر . وكان السبئية قد أرصدوا رجلا قريبا منه يخبره بما يريدون . فقال له : ما فجئنا إلا وقوم منهم بيتونا . فرددناهم من حيث جاءوا فوجدنا القوم على رجل فركبونا وثار الناس . فقال علي : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة ، وأنهما لن يطاوعانا . ولم يجد الفريقان بداً من القتال ، اذ لم يكن ثمة مجال لاستجلاء الواقع ولا تراسل الرؤساء ، وتبين الحقيقة يفضي الى تدارك الامر

وكانت عائشة في هودجها قد جللته الحديد وهي بمكة وجعلت فيه موضعاً لعينيها وهي في عسكر أهل البصرة وثار العسكران لبعضهما . وكان القتال في ذلك اليوم من أشد القتال هولا وصدق كل فريق الحملة على الفريق الآخر . وأهل البصرة وشجعانهم وذووا النجدة منهم يلوذون بجمل عائشة ويدافعون عنها حتى لا تصاب بشر ، فقتل حوله بشر كثير وقطعت على زمامه أيد كثيرة ولا يدور بخلد أحد من الناس ان ينهزم وراجز أهل البصرة يقول :

نحن بني ضبة أصحابُ الجمل   ننزل بالموت اذا الموت نزل

ننعى ابن عفان بأطراف الاسل   الموت أحلى عندنا من العسل

ردوا علينا شيخنا ثم بجل

ولما رأى علي كثرة القتلى حول الجمل وأن الناس يستميتون دونه ولا يسلمونه أبداً وفيهم عين تطرف ، نادى اعقروا الجمل . فجاء الى الجمل رجل من خلفه وضرب عرقوبه فعقره وسقط الهودج وكأنه قنفذ لكثرة ما رمى به من النبل فجاء محمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وقطعا غُرْضَةَ الرَّحْلِ واحتملا الهودج فنحياه عن

القتلى وخرج بها محمد حتى أدخلها البصرة

وكان لما ظهر الضعف في الناس تركهم الزبير بن العوام وولى وجهه شطر المدينة فعلم بمسيره عمرو بن جرموز فاتبعه حتى اذا كان بوادي السباع غافله وقتله

وقد قتل في هذه الوقعة المشؤومة عشرة آلاف فيهم كثير من أعلام المسلمين وذوي الغناء والنجدة، منهم الزبير وطلحة ومحمد ابنه وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد وكثير غيرهم من قريش. فقد قالوا: قتل حول الجمل سبعون قرشيا

وكان محمد بن طلحة يحمل ويقول «حم لا ينصرون» فشد عليه جماعة فاشتركوا في قتله. وقال أحدهم:

وأشعث قوّام بآيات ربه قليل الاذى فيما ترى العين مُسلِمِ
هتكتُ له بالرمح جيبَ قميصه فخر صريعا لليدين وللفم
يذكرني حم والرمح شاجر فهلا تلا حم قبل التقدم
على غير شيء غير ان ليس تابعا عليا ومن لا يتبع الحق يندم

ولما نقل عمار ومحمد بن أبي بكر عائشة قال لها عمار: كيف رأيت ضرب بنيك يا أمه؟ قالت من أنت؟ قال ابنك البار عمار. فقالت لست لك بأم. فقال بلى وان كرهت. فقالت: فخرتم ان ظفرتم وأتيتم مثل الذي نقمتم والله ان يظفر من كان هذا دأبه. وجاءها علي بن أبي طالب فقال: أي أمه يغفر الله لنا ولكم. فقالت: غفر الله لنا ولكم

وكانت الوقعة يوم الخميس لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة ٣٦

وبعد ان انتهت الموقعة مر علي بين القتلى، فكلما مرّ بمصرع أهل البصرة وعرفهم قال: زعموا أنه انما خرج معهم السفهاء والغوغاء وهذا فلان وفلان، ثم صلى على القتلى وأمر بدفنهم جميعا. وبعد ذلك زار عائشة بالبيت الذي نزلت فيه وقعد عندها ثم أمر بأن تجهز الى المدينة فجهزت خير جهاز. ثم لما جاء يوم رحيلها ودعها

بنفسه وقالت وسط مشيعيها

« انه والله ما كان بيني وبين علي في القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها وانه عندي – على معتبتي – من الاخيار »

وقال علي « أيها الناس صدقت والله وبرت ، وانه ما كان بيني وبينها إلا ذلك ، وانها لزوجة نبيكم صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة »

وكان خروجها من البصرة يوم السبت لغرة رجب سنة ٣٦ وشيعها أميالا وسرح بنيه معها يوما

***

انتهت الموقعة بظهور علي وانهزام أعدائه هزيمة منكرة . فمن كان منهم من البصرة أقام مكانه ومن نجا من غيرهم زايل البصرة . وأخذ علي البيعة على أهل البصرة . وولى عليها عبد الله بن عباس وجعل على الخراج وبيت المال زياد ابن أبي سفيان

كانت هذه الوقعة المشؤومة أول وقعة تلاقت فيها جيوش المسلمين يضرب بعضهم رقاب بعض ويسفك بعضهم دماء بعض وكل من الجيشين تحت امرة كبير من كبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسهل بعدها ان يقف المسلم بازاء المسلم كل منهما يسفك دم الآخر ويحل قتله بعد ان كان ذلك الموقف في نظرهم عظيما مهيبا .

وقد كان الزبير في بعض خطبه سمى ما فيه الناس فتنة . فقال له بعض الناس أتسميه فتنة وأنت تقاتل فيه . فقال والله ما وضعت رجلي في شيء إلا وأنا أعلمه إلا هذا الامر فاني لا أدري أيقبل بي أم يدبر

نظرة فى وقعة الجمل

أما وقد انتهت الوقعة التي اتسع بها الفتق على المسلمين وسهلت على أهل القبلة ان ينبذ فريق منهم الى الفريق الآخر على سواء وجعلتهم يسلون السيوف كل منهم على الآخر ويسفك بعضهم دم بعض ، فلا بد للمؤرخ من ان يقف وقفة القاضي المجتهد ويلقى على هذه الوقعة ومقدماتها وما احتف بها من الاحوال نظرة المدقق ليصدر حكما عادلا يلزم به المخطئ حظه من الخطأ ويحمله تبعة ما أتى باذلا في ذلك ما يصل اليه اجتهاده . أما مآل كل من الفريقين عند الله تعالى فالله وليه وهو يتولى الصالحين ، رحمهم الله أجمعين

أما عائشة أم المؤمنين فما كان لها ان تتولى كبر هذا الامر ولا ان تطالب كما تزعم بدم عثمان فان أولياء دم عثمان كثيرون يفوت عدهم الاحصاء وقد علمت أن معاوية بالشام غير وان في أمره ولا متخاذل فيه وهو على العمل أقدر منها وأولى بعثمان وأمس به رحما وأقرب قرابة وليست رحمها الله ممن جعل الله لهم سلطان هذا الامر ولولا وجودها في هذا الجيش لماتت الفتنة في هذه الناحية ولم يكن لهم نظام ولا حمية . فكانت سبباً لاشتداد البلاء على المسلمين ومثاراً لامور أنتجت الحزن والأسى . وأما طلحة والزبير ، فهما كذلك ليسا من ولاية عثمان في شيء وقد كانا له بين قائم في الفتنة مثير حريقها وبين خاذل مشير اشارته أنفذ من صول لا يعنيه من الامر إلا ان تكون الفتنة بيد غيره ويباشرها سواه حتى تساق اليه الخلافة ويده نظيفة من الدم كيلا يكون لأحد عليه سبيل . فلما وقعت الواقعة وأخطأه ما أمل ورأى أنه كان يسعى لغيره ويحطب في حبل سواه رجا ان ينال في سلطانه بعض مايكون له عزاء ــ واذا لم تكن ابل فمعزى ــ فلما رأى الفائز قد قبض يده عنه ولم يسوغه ما أراد ندم ولات ساعة مندم وخرج كل منهما ليغسل الدم بالدم ويكفر

عن السيئة بالحش منها جرما وأسوأ منها عاقبة فسهلا على عائشة خروجها الى ما ليس من شأنها راجين بلوغ الارب بمكانها ، فكان الحتف فيما يرجوان ، وحيل بينهم وبين ما يشتهون

أما علي فهو وان كان في أمر عثمان أقل تأريبا للشر واذب عنه قبل اشتداد الامر الا أنه لم يكن عنده من الاناة وحسن التأني للامور ما يتألف به الشارد ويسلس به قياد الجامح . ولو أنه أرضى الرجلين ببعض ما في يده مما ليس فيه معصية لله ولا حيف على الرعية لكان ذلك أجمل أثراً في العاقبة وأرجى للسلامة . وقد أورد صاحب الامامة والسياسة ان علياً حين أحس بما في نفس طلحة والزبير استشار ابن عباس فاشار عليه أن يولي طلحة البصرة والزبير الكوفة فأبى اشفاقاً منه أن يؤلبا عليه الناس والبصرة والكوفة فيهما الرجال والمال . على أنه لو أرضاهما في أول الامر حتى اذا اتسق له صنع ما أراد لكان ذلك احسن في السياسة وأحقن للدماء . وقد مر بنا هذا

على أن علياً لم يكن القوى على جنده المالك لزمام عسكره الحذر لكل ما يخاف الواقف على كل ما يحدث فيما بينهم . ولقد كان عمر بن الخطاب وهو بالمدينة واقفاً على كل صغيرة وكبيرة من أمر جنده بالعراق وفارس وأرمينيا والشام ومصر وتخوم الروم لا يغيب عنه شيء من خيرهم وشرهم . ولكن علياً كان تاركا لشأنهم وهو بين ظهرانيهم يجتمعون ويديرون الامور ويبيتون الشر ويكيدون له وللمسلمين حتى لقد كان في ضمن ما ائتمروا به أن يواثبوه ويلحقوه بعثمان ليهدر دمها ويحقن دم المؤلبين السفاكين الكائدين وهم بمرأى ومسمع منه وهو لا علم له بما يديرون ولو كان من الضبط لأمره والحيطة في شؤونه بالمكان الذي يجب أن يكون به ، ما ساغ للسبئية أن ينشبوا القتال على الوصف الذي بينا . وحسن قول الاستاذ الخضري رحمه الله في محاضراته :

لا يمكننا أن نبرر عمل الفريقين المتحاربين من كل الوجوه . فان طلحة والزبير وعائشة خرجوا – كما يقولون – للمطالبة بدم عثمان الذي سفك حراماً من غير ترة ولا ذنب يوجب ذلك . ولا نرى كيف فهموا ان ذلك ممكن من غير أن يكون للمسلمين امام يرجع اليه الامر في تحقيق هذه القضية واقامة الحد على من يستحقه ؟

ان اعطاء الحق للافراد في أن يتجمعوا لاقامة حد قصر الامام في اقامته أو اتهم بالهوادة فيه مفسدة للنظام الذي أسس عليه الاسلام . واذا كانوا لا يرون لامامة علي صحة فقد كان المفهوم دعوة أهل الحل والعقد من كبار المسلمين أولا للنظر في أمر الخلافة واعطائها لمن يرضاه الناس ثم ينظرون بعد ذلك في اقامة الحد . ولكنهم قاموا بصفتهم أفراداً من كبار الامة ودعوا الناس الى أمرهم من غير أن يكون لهم امام يرجعون اليه . ولا ندري كيف غاب كل ذلك عنهم مع سابقتهم وفضلهم ، ولكنهم يقولون ان الفتن اذا أقبلت تشابهت واذا أدبرت تبينت . ولم يكن عند علي بن أبي طالب من الاناة ما يمكنه من المصابرة حتى يلتئم هذا الصدع باحسن مما كان . حقيقة ان أولئك الشياطين الذين لا يريدون بالامة خيرا أعجلوه وأنشبوا الحرب حتى اشتبه الامر على الفريقين كليهما . ولكن هذا عيب كبير في قيادة الجيوش أن يكون الرئيس بحيث يمكّن فرقة من جيشه أن تعجله عن النظر فيما هو قادم عليه . وان من الخطأ العظيم أن يستعين علي بمثل هذه الفرقة السبئية ويجعلها تأوي الى جنده في الوقت الذي يطالب الناس فيه من كل جهة بالقصاص من قتلة عثمان فانهم بالضرورة لا يحسن في نظرهم أن يتفق على ذلك الناس لأن الاتفاق انما يقع على رؤسهم فهم يبذلون كل جهدهم في تضييق المسالك على كل من يريد الاصلاح حفظا لأنفسهم . على ان مجرد وجودهم في جيشه كاف لأن تحوم الظنون حول اشتراكه في الدم المسفوك ، وان كان هو ينكر ذلك انكاراً تاماً ، وهو عندنا الصادق في قوله . والنتيجة ان تبعة هذه الحرب يتحملها كل من

الفريقين و تبين للناس أنه لا يكفي لبراءة الانسان من الفعل ان لا يكون قد فعله بل يجب أن يتمعد عن ما يحدث الريبة في براءته . وليس يكفي الرئيس لتقوية مركزه أن يكون عنده من القوة ما يغلب به من خرج عليه من قومه . بل يجب مع هذا أن يكون عنده من حسن الحيلة والاناة ما يعيد الخارج عليه الى حظيرته . والكي لا يكون الا آخر الدواء . اه .

روى الطبري بسنده الى طارق بن شهاب قال : خرجنا من الكوفة معتمرين حين أتانا قتل عثمان رضي الله عنه ، فلما انتهينا الى الربذه وذلك في وجه الصبح اذا الرفاق ، واذا بعضهم يتلو بعضا . فقلت : ما هذا ؟ فقالوا : أمير المؤمنين . فقلت : ما له ؟ قالوا : غلبه طلحة والزبير ، فخرج يعترض لهما ليردهما . فبلغه انهما فاتاه فهو يريد أن يخرج في آثارهما . فقلت : انا لله وانا اليه راجعون . آتي عليا فأقاتل معه هذين الرجلين وأم المؤمنين أو أخالفه ؟ إن هذا لشديد . فخرجت فأتيته فأقيمت الصلاة بغلس فتقدم فصلى . فلما انصرف أتاه ابنه الحسن فجلس . فقال : قد أمرتك فعصيتني فتقتل غداً بِضَيْعَة لا ناصر لك . فقال علي : انك لا تزال تَخِنُّ خنين الجارية . وما الذي أمرتنى فعصيتك ؟ قال : أمرتك يوم أحيط بعثمان رضي الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها ، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى يأتيك وفود أهل الأمصار والعرب وبيعة كل مصر ، ثم أمرتك حين فعل هذان الرجلان ما فعلا أن تجلس في بيتك حتى يصطلحوا فان كان الفساد كان على يدي غيرك . فعصيتني في ذلك كله . قال : أي بنيّ أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به . وأما قولك لا تبايع حتى تأتي بيعة الأمصار . فان الامر أمر أهل المدينة ، وكرهنا أن يضيع هذا الامر . وأما قولك حين خرج طلحة والزبير أن أجلس في بيتي حتى يصطلحوا فان ذلك كان وهنا على أهل الاسلام . والله ما زلت مقهوراً مذ وليت . منقوصاً لا أصل

الى شيء مما ينبغي . وأما قولك اجلس في بيتك فكيف لي بما قد لزمني ! أو من تريدني ؟ أتريد أن أكون مثل الضَّبُع التي يحاط بها ويقال دباب دباب ليست ههنا حتى يُحَلّ عُرقوباها ثم تخرج واذا لم أنظر فيما لزمني من هذا الأمر ويعنيني فمن ينظر فيه ؟ فكفّاً عنك أي بنيّ

وكأنى به في هذا الامر الاخير يقول بمقالة عثمان لا أخلع لباساً ألبسنيه الله عز وجل وهو اعتذار لا يقبله من يريد له وللمسلمين السلامة ، أو هو مثل اعتذار دول الاستعمار بانهم لا مناص لهم من تحمل التبعة الملقاة على عاتقهم بازاء الأمم التى يحتلون بلادها ويهيمنون عليها وعلى مرافقها ومقومات حياتها دون أهلها

ومن الجميل أن اقول وقد كانت سيرة علي في أصحاب الجمل سيرة رفق بعد الموقعة . فقد كان من ذلك أن لا يقتل مدبراً ولا يذفف على جريح ولا يكشف ستراً ولا يأخذ مالا . فقال قوم يومئذ ما يُحِلّ لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم . فقال علي : القوم أمثالكم من صفح عنا فهو منا ونحن منه ومن لج حتى يصاب فقتاله مني على الصدر والنحر وان لكم في خمسه لغنى . فيومئذ تكلمت الخوارج ولعله أول كلام ظاهر لهم

علي ومعاوية وما كان بينهما

قبل الكلام على ما بين علي ومعاوية أريد أن أسوق كلمة نعرف بها الحال النفسية لأهل العراق وأهل الشام

أهل العراق وأهل الشام : أهل العراق هم أهل المصرين البصرة والكوفة . وهم الذين فتحوا العراق ودوخوا فارس وأرمينيا وفتحوا الفتوح العظيمة ومصروا المصرين وهم من قبائل كثيرة . وقد كان أبو بكر حين وجه الجند الى جهة العراق وفارس لا يستعين باهل الردة على قتال الفرس ومن معهم . الى أن ذهب اليه

المثنى بن حارثة في آخر أيام حياته وسأله الاستعانة بمن كان قد ارتد لان الحاجة ماسة اليهم لكثرة جموع فارس وضخامة حشدهم وما أعدوا لأهل الاسلام من عدة . فلم يل أبو بكر من ذلك شيئاً ، بل عهد في ذلك الى عمر . فلما أفضى الامر الى عمر استنفر الناس الى العراق وندبهم للخروج مع المثنى . ثم تتابع الامر على تزجية الجيوش الى فارس والعراق . واستعان عمر بمن كان من أهل الردة ممن حسن اسلامه ورغب في الجهاد ، غير أنه لم يكن ليولي أحدا منهم أمر الحرب ويوصي القواد أن لا يجعلوا أحداً منهم أميراً حذر غائلتهم . فلما جاء عثمان سمح لهم بالولايات وقدم كثيراً منهم في الحروب يوليهم أمر بعضها وهم من الاسلام بمنزلة دون السابقين الأولين والمهاجرين والأنصار ومن ثبتوا على اسلامهم . فلما ضخم الامر في تلك النواحي ونبتت النابتة لهم في تلك الامصار لم يكن الدين قد أخذ على شكائمهم وهم بمرأى ومسمع من الفرس وفي أيديهم السبي ويخالطون أهل الذمة في نواحيهم فأخذوا بعض الشيء من أخذهم وسقط بالمصرين روادف ردفت ، وأعراب لحقت ، لا سابقة لهم ولا غناء فيهم ، وقد وجدوا التقدم لغيرهم فأحفظهم ذلك وجمجموا بما في نفوسهم من الكراهة لولاية قريش . وقد أكلت الحرب ذوي الفضل والسابقة والبلاء إلا قليلا فنقموا تقدم أهل التقدم ثم تدرجوا في الجهر بما في نفوسهم وصاروا يتجنون على العمال والولاة الجنايات وكلما كرهوا من أمير أمراً استعفوا منه ، وكلما جاءهم أمير أخذهم بآداب وأحوال لا تتفق مع ما أخذهم به سابقه ، فسهل عليهم عيب الولاة واظهار التأفف منهم وواجهوهم بالسوء . كل هذه العوامل أوجدت أهل العراق على أهواء مختلفة ، واغراض متباينة وادلال على الامراء وتجن على الرؤساء مطرحين واجب الحشمة ولازم الوقار ، لا يبالي أحدهم أن يشذ عن الجماعة ويفرق الكلمة ، ومرنوا على هذا الضرب من الفرقة والتخاذل . وصاروا أهل جدال ومقارعة بالحجة وقوة عارضة

أما أهل الشام فهم أهل الولايات الاربع : فلسطين والاردن ودمشق وحمص وما يتبعها من الجزيرة وجهات أرمينيا ، وهم كأهل العراق فيهم بعض المهاجرين والانصار وقبائل العرب فتحوا تلك الناحية وحموا ثغورها وقد كثر عددهم غير أن جهاتهم لم تكن كثيرة الانتقاض كنواحي فارس ولم تتغير عليهم الولاة والامراء بل كان الامير عليهم معاوية بن أبي سفيان جمعت له بعض الولايات الاربع في مدة عمر واستكملت له في مدة عثمان . عرفوه أميراً عليهم وعرفوا أنفسهم رعية سامعة مطيعة له ، لم تشتتهم الاهواء ولم يمرنوا على سخف الرأي والتجني على الامراء.

فمعاوية لم يكن طارئاً على أهل الشام بالامرة ، ولا جديداً عليهم في الولاية بل ألفوا طاعته وبخعوا اليه بنفوسهم وطال حكمه عليهم ، وكان راضياً مرضياً فيهم

أما علي بن أبي طالب فانه قد ورد العراق على امراء مخالفين له متبطين عنه منحازين الى صفوف أعدائه والطالبين لنفسه التي بين جنبيه قد تخالفوا في شأنه فرقا وتفرقوا عليه حزائق . حتى اذا سمحوا بالدخول في أمره طوعا أو كرهاً وأعطوه أيديهم بالطاعة كانوا يرون أنفسهم أصحاب منة عليه وأولياء نعمة أسدوها اليه . ويرون أنفسهم شركاءه في أمره وقسماءه في سلطانه . ينازعونه الآراء ولا يجيبون له نداء الا اذا اطلعهم على خفية أمره وأسهم لهم في رأيه

وجند هكذا يكون أمرهم لا يمكن أن يتم لهم امر أو يبلغوا من نكاية العدو مأربا اذ الطاعة العمياء في الجنود أول شرط من شروط نجاح القواد واحرازهم النصر

ان معرفتنا بكل ما تقدم تحل لنا كثيراً من الامور التي نراها أشبه بعقدة لا تحل من نجاح معاوية مع تأخره وسابقة علي وفضله وغنائه في الاسلام واخفاق علي مع ماله من الفضل

كأني بمعاوية كان عالماً جد العلم بالروح الساري في نفوس أهل العراق ، والروح المباين له الساري في أهل الشام . وان من كان على مثال أهل الشام كان جديراً

بالفوز والغلب ، اذ الاجتماع في الرأي ، والاتفاق في الكلمة ، والتسليم للرئيس بالطاعة على ما أحب المرء أو كره مدد لا يعادله مدد وعامل قوي من عوامل الفوز

أما علي رضي الله تعالى عنه فانه لم يحسب هذه الامور حسابها يوم بايع . ويظهر للمطلع أنه لم يكن على بينة من الحالة النفسية لاهل العراق وأهل الشام . ولا بالحالة النفسية لمعاوية وماله من المكانة عند القوم الذين هم في يده . وان مما سهل على معاوية القيام بما قام به وكثر الجموع لديه أنه كان والياً على جميع ولايات الشام زمناً مديداً ولو انه كان على دمشق وحدها ما تسنى له أن يقوم في الامر على الوجه الذي قام به ولكان له مع علي شأن آخر

يقول أرباب البصر بنواميس الاجتماع وطبيعة الجماعات : ان عمل قواد الجموع على الدوام خلق الاعتقاد في النفوس . لا فرق بين أن يكون دينياً أو سياسياً أو اجتماعياً ولا أن يكون محله عملا أو انسانا أو رأياً (روح الاجتماع)

وقد كان معاوية قائماً بهذا المعنى . فانه قد خلق في أهل الشام اعتقاد اجرام علي ، وانه قتل عثمان ظلماً وعدوانا وان دمه في عنقه ، وان قتاله على ذلك واجب . وقد تأتى لمعاوية في هذا الامر ما لم يكن يحلم به ، فانه نصب قميص عثمان وهو مضرج بدمه على منبر دمشق سنة كاملة وعلى أردانه أصابع نائلة زوجه يعرض ذلك على أنظار الناس ويستثير حميتهم ويذكى بذلك الاحقاد في قلوبهم على علي الغاصب — زعموا — للخلافة المحل لدم الخليفة وقد آوى قتلته . ولا شيء يهيج الاحساس ويثبت الاعتقاد كالصور التي تعرض على الانسان . فما بالك بالدم على قميص الخليفة وأصابع زوجته مدلاة في ردنه تعرض على الانظار بكرة وعشياً . ولم يكن لعلي وسيلة كهذه يؤثر بها في قلوب أصحابه ويحمسهم بها

هذه الامور وما تقدمها أوجدت لمعاوية نفوذاً شخصياً في القوم الذين معه زاده قوة ورسوخا ما له من الامرة والملكة فيهم دهراً طويلا . لهذا كان معاوية

لا يلقى معارضاً لاوامره ولا معقب لحكمه . بخلاف علي فانه لم يكن له في جنده هذا النفوذ الذي كان لمعاوية في جنده

يقول غوستاف لوبون ما معناه : ان قائد الجماعة يجب عليه أن يعرف روح الجماعة البعيدين عنه ليعرف كيف يسوسهم ويؤثر فيهم والا كان عمله ضائعاً . وان نابليون كان عالماً بروح الجماعة في فرنسا ولذلك كان تأثيره عظيما فيهم ناجحاً على الدوام . ولكنه لما ذهب الى روسيا لم يكن عالماً بأحوالهم فظن أنهم يكونون له على مثال أهل فرنسا وانه لا يلقى في اخضاعهم والقائهم اليه بالطاعة عناء فكان الامر على غير ما قدر . اه

والظاهر أن علياً سيق الى الامر وهو غير عالم بما يتنازع أهل العراق من الاهواء، وانهم ليسوا بأهل جماعة ، وأن أحوالهم قد فسدت بخلاف أهل الشام . لذلك اقمي العناء الاشد في أخذ طاعتهم له ، وكانت المكيدة فيهم أسهل والتأثير في حل رابطتهم أسرع . والله يحكم لا معقب لحكمه

بدء امر معاوية

ذكر مؤلف (الامامة والسياسة) أن النعمان بن بشير لما قدم على معاوية بكتاب زوجة عثمان تذكر فيه دخول القوم عليه وما صنع محمد بن أبي بكر من نتف لحيته في كتاب رققت فيه وأبلغت حتى اذا سمعه السامع بكى حتى يتصدع قلبه وبقميص عثمان مخضباً بالدم ممزقاً وعقدت شعر لحيته في زر القميص . فصعد معاوية المنبر بالشام وجمع الناس ونشر عليهم القميص وذكر ما صنعوه بعثمان فبكى الناس وشهقوا حتى كادت نفوسهم تزهق . ثم دعاهم الى الطلب بدمه . فقام اليه أهل الشام فقالوا هو ابن عمك وأنت وليه ونحن الطالبون معك بدمه . فبايعوه أميراً عليهم . وكتب

و بعث الرسل الى كور الشام وكتب الى شرحبيل بن السمط الكندي وهو بحمص يأمره أن يبايع له بحمص كما بايع أهل الشام . فلما قرأ شرحبيل كتاب معاوية دعا اناساً من أشراف أهل حمص فقال لهم : ليس من قتل عثمان بأعظم جرماً ممن يبايع لمعاوية أميراً وهذه سقطة ولكنا نبايع له بالخلافة ولا نطلب بدم عثمان مع غير خليفة فبايع لمعاوية بالخلافة هو وأهل حمص . وكتب الى معاوية : أما بعد فانك اخطأت خطأ عظيما حين كتبت الى أن أبايعك بالامرة وأنك تريد أن تطلب دم عثمان الخليفة المظلوم وأنت غير خليفة وقد بايعت ومن قِبلي لك بالخلافة . فلما قرأ معاوية كتابه سره ذلك ودعا الناس وصعد المنبر واخبرهم بما قال شرحبيل ودعاهم الى بيعته بالخلافة فأجابوه ولم يختلف عليه احد

﴿ شرحبيل بن السمط ﴾

مر بنا أن معاوية لما خالف على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لم يبدأ أمره الا بأن يأخذ البيعة على من قبله بالامرة عليهم للطلب بدم عثمان . فالخلافة لم تكن مطمح نظره الى أن وجه نظره اليها شرحبيل بن السمط فمن هو شرحبيل ؟ وما مبلغ أثره ؟ وما الذي حمله على ذلك ؟

أما الرجل فهو شرحبيل بن السمط من بني معاوية بن عمرو من كندة ثبت هو وابنه على اسلامهما حين ارتدت كندة وقامت الفتنة بينهم وبين لبيد بن زياد الانصاري بسبب ناقة للعداء بن حجر أخي شيطان بن حجر وضع لبيد عليها ميسم الصدقة خطأ وأبى أن يطلقها لصاحبها . فاستغاث شيطان بقومه وتمادى الخلاف فارتدوا وحاربوا فقام شرحبيل وابنه وتبرآ من قومهما الذين ارتدوا وقالا لبني معاوية : انه لقبيح بالأحرار التنقل ، ان الكرام ليلزمون الشبهة فيتكرمون

أن ينتقلوا عنها مخافة العار، فكيف الانتقال من الامر الحسن الجميل والحق الى الباطل والقبيح، اللهم انا لا نمالىء قومنا على ذلك. وانتقلا الى لبيد بن زياد ومعهما امرؤ القيس بن عابس وكانوا يشيرون على لبيد بالرأي والمكيدة في الحرب فطرق زياد بجنوده مع الليل رؤساء المشاقين فأصاب ملوكهم وهم: مشرح ومخوص وجمد وابضعة واختهم العمردة. وكان رسول الله ﷺ يدعو عليهم حين بلغه أمر ردتهم فانفضت جموعهم وهرب من أطاق الهرب وسبي النساء والذراري ولما مر السبي بالأشعث بن قيس فكهم وجمع الجموع لقتال المسلمين. وكان له مع المسلمين وقائع انتهت بحصار الاشعث ومن معه بحصن النُّجَيْر. فلما عضتهم الحرب واشتد عليهم الحصار خرج الاشعث ومعه تسعة ممن بالحصن ليستأمنوا لانفسهم ويسلموا الحصن بمن فيه فكتبوا أسماء من يشملهم الأمان ونسي الاشعث أن يكتب اسمه وأراد لبيد قتله بعد أن قتل المقاتلة من اهل الحصن وسبى غير المقاتلة. فقال أصحابه: أخره حتى يقدم على أبي بكر فهو أعلم بالامر. فسيره مع السبي. فكان قومه يلعنونه لغدره والسبي يلعنونه. فلما قدم على أبي بكر (وكان النبي ﷺ قد تُوفيَ) قال له الاشعث: احتسب فيَّ خيراً وتطلق اساري وترد علي زوجتي (أم فروة أخت أبي بكر) وتقيلني عثرتي وتفعل فيَّ ما فعلت بأمثالي تجدني خير أهل بلادي لدين الله. فحقن أبو بكر دمه عليه ورد عليه أهله وأقام بالمدينة

كان عمر بن الخطاب قد سير شرحبيل بن السمط الى سعد بن ابي وقاص بالعراق فكان معه وقدَّمه سعد وقربه، فحسده الاشعث بن قيس. ولا يبعد ان يكون وجود شرحبيل في الجيش المحارب للاشعث أيام ردته له أثر في حسده له واضطغانه عليه

كان سعد بن أبي وقاص أوفد جرير بن عبد الله على عمر فتدسس له الاشعث بن قيس وقال له: ان قدرت أن تنال من شرحبيل عند عمر فافعل.

فلما قدم سأله عمر عن الناس فأحسن الثناء على سعد . قال : وقد قال شعرا :

ألا ليتني والمرء سعد بن مالك　　وزبرا وإبن السمط في لجة البحر
فيغرق أصحابي وأخرج سالما　　على ظهر قرقور انادي أبا بكر

من هذين البيتين فهم عمر أن الناس يتبرمون بمكان زبر وشرحبيل من سعد وكان من شأن عمر الحرص على ألا يبقى لاحد من الناس علة يعتل بها فأرسل الى سعد أن يرسل اليه زبرا وشرحبيل . فلما قدما عليه أمسك زبرا بالمدينة وسير شرحبيل الى معاوية بالشام فشرف بها وتقدم وعلا شأنه عند معاوية وعند الناس

فلما قدم جرير بن عبد الله رسولا من علي الى معاويه وهو ثأر شرحبيل ، عزم شرحبيل على إحباط مسعاه ورده خائباً ؛ فكان مما قاله لمعاوية حين أفضى اليه بما جاء اليه جرير « كان أمير المؤمنين عثمان خليفتنا فان قويت على الطلب بدمه والا فاعتزلنا » وعمل على مبايعته بالخلافة . وانصرف جرير الى علي . وقد قال النجاشي :

شرحبيل ما للدين فارقت أمرنا　　ولكن لبغض المالكي جرير
وقولك ما قد قلت عن امر اشعث　　فأصبحت كالحادي بغير بعير

﴿ مسير عمرو بن العاص الى معاوية ﴾

كان عمرو بن العاص بالمدينة في بدء الفتنة . ولا نجهل ان عثمان لم يكن مجملا في شأنه لأن عمرو بن العاص هو الذى فتح مصر وثبت فيها كلمة الاسلام ودان اهلها له بالطاعة أقام والياً عليها بقية ايام عمر . فلما جاء عثمان عزل عمرا عنها وولاها عبد الله بن سعد بن ابي سرح . والفطام عن الولاية شديد . فليس من الغريب ان يكون عمرو بن العاص في نفسه معتبة على عثمان . فكان عمرو يرمى بكلمات لها وقع الاسنة على عثمان حتى قيل ان عمرا لما بلغه قتله قال : انا ابو عبد الله .

انا قتلته وانا بوادي السباع . ومعناه في ذلك انه كان يؤلب عليه ويلقي الى الناس ما يغير قلوبهم عليه حتى قلوب رعاة الشاء في الجبال وفي الاودية

خرج عمرو بن العاص من المدينة لما احيط بعثمان وقال : يا اهل المدينة لا يقيم احد فيدركه قتل هذا الرجل الا ضربه الله بذل ، من لم يستطع نصره فليهرب وسار الى فلسطين ومعه ابناه عبد الله ومحمد واقام بها . فمر به راكب واخبره بأنه ترك عثمان محصورا . ثم مر به راكب آخر فأخبره بقتل عثمان . وبعد مدة مر به آخر فأنبأه ببيعة علي وان الوليد بن عقبة سأل علياً عن قتله فقال له والله ما أمرت ولا نهيت ولا سرني ولا ساءني وانه آوى ولم يرض (أي بالقصاص منهم) وان مروان احتج عليه فقال ان لم تكن أمرت فقد توليت الامر (أمر المسلمين) واذا لم تكن قتلت فقد آويت القاتلين . فقال عمرو بن العاص : خلط والله أبو الحسن أنا أبو عبد الله يكون فيها حرب . من حك قرحة نكأها . فقال سلم بن زنباع : يامعشر العرب كان بينكم وبين العرب باب فكسر فاتخذوا بابا غيره . فقال عمرو : ذلك الذي نريده . ويقول ابن الاثير ثم ارتحل عمرو يبكي كما تبكي المرأة ويقول : واعثماناه أنعى الحياء والدين . حتى قدم دمشق

ويذكر ابن الاثير أن عمراً قال حين بلغه قتل عثمان : ان يل هذا الامر طلحة فهو فتى العرب سيبا وان يله ابن أبي طالب فهو أكره من يليه الي . فلما بلغه بيعة الناس لعلي اشتد عليه الامر وأقام ينتظر ما يفعل الناس . فبلغه مسير طلحة والزبير وعائشة فتربص حتى أتاه خبر وقعة الجمل وماتم فيها فارتج عليه أمره

أدار عمرو عينيه فاذا معاوية بالشام يعظم شأن عثمان ويدعو الى الطلب بدمه وكان معاوية أحب اليه من علي . فاستشار ولديه وقال لهما أما علي فلا خير لي عنده وهو يدل بسابقته وغير مشركي في شيء من أمره . فأشار عليه ابنه عبد الله بأن يكف يده ويجلس في بيته حتى يجتمع الناس . وأشار عليه محمد بأنه لا ينبغي ان

يجتمع الناس في هذا الامر وليس له فيه صوت. فحمد لكل منهما رأيه وعمل برأي محمد وخرج الى الشام فحسن لمعاوية ما رأى ومعاوية لايلتفت اليه . وكأني بمعاوية وقد تخوف ان يكون الرجل يبطن غير ما يظهر فلم يسترسل اليه حتى يكون على بينة من أمره

رأى ابناه اعراض معاوية عنه فأشارا عليه بمفارقته . فدخل عمرو على معاوية وكلمه في هذا الشأن بما كانت عاقبته أن استدناه وأشركه في أمره وجعله موضع سره ومرد مشورته

واني لاستبعد ما قصه ابن الاثير من أن عمرا قال لمعاوية : والله لعجب لك اني ارفدك بما أرفدك وأنت معرض عني ! ان قاتلنا معك نطلب بدم الخليفة ان في النفس ما فيها حيث نقاتل من تعلم سابقته وفضله وقرابته ولكنا انما أردنا هذه الدنيا . فصالحه معاوية وعطف عليه . فاني لأحسب أن المخاطبة على هذا الوجه لا تسمح بها نفس عمرو بل هو يتكرم عنها ولا يقبل ذلك منه معاوية . مهما قيل ان باطن أمر كل منهما كان على ذلك

﴿ خروج ابن أبي سرح الى مصر ﴾

فلما خرج عبد الله بن أبي سرح يريد المدينة وثب محمد بن أبى حذيفة على امارة مصر فأخذها وصلى بالناس . وعلم ابن أبى سرح بالخبر فلم يقدر على الرجوع الى مصر فأقام بتخومها حتى جاءه خبر قتل عثمان وبيعة علي فاسترجع . فقال له المخبر كأن ولاية علي بن أبى طالب عدلت عندك قتل عثمان . قال أجل فتأمله الرجل وقال كأنك عبد الله بن أبى سرح أمير مصر . قال أجل . قال فان كان لك في نفسك حاجة فالنجاء النجاء فان رأيَ أمير المؤمنين فيك وفي أصحابك سيء ان ظفر بكم قتلكم أو نفاكم عن بلاد المسلمين وهذا بعدي أمير يقدم عليك . قال ومن هو قال قيس بن سعد بن عبادة . فقال عبد الله أبعد الله محمد بن أبى حذيفة فانه بغى على ابن عمه وسعى عليه وقد كان كفله ورباه وأحسن اليه . فأساء جواره ووثب على عماله

وجهز الرجال اليه حتى قتل ثم ولى عليه من هو أبعد منه ومن عثمان ، لم يمتعه بسلطان بلاده حولا ولا شهراً ولم يره أهلا لذلك، فقال الرجل أنج بنفسك لا تقتل . فولى عبد الله وجهه شطر الشام ولحق بمعاوية

وكان علي بن أبي طالب لما ولى دعا بقيس بن سعد وقال له : سر الى مصر فقد وليتكها واخرج الى رحلك واجمع اليك ثقاتك ومن أحببت ان يصحبك حتى تأتيها ومعك جند فان ذلك أرعب لعدوك وأعز لوليك . فاذا أنت قدمتها ان شاء الله فأحسن الى المحسن واشتد على المريب وارفق بالعامة والخاصة فان الرفق يمن . فقال له قيس : يرحمك الله يا أمير المؤمنين ، فقد فهمت ما قلت . أما قولك أخرج اليها بجند فوالله لئن لم أدخلها إلا بجند آتيها به من المدينة لا أدخلها أبدا ، فأنا أدع ذلك الجند لك فان أنت احتجت اليهم كانوا منك قريبا وان أردت أن تبعثهم الى وجه من وجوهك كانوا عدة لك وأنا أصير اليها بنفسي وأهل بيتي . وأما ما أوصيتني به من الرفق والاحسان فان الله عز وجل هو المستعان على ذلك . فخرج قيس بن سعد في سبعة نفر من أصحابه حتى دخل مصر . فصعد المنبر فجلس عليه وأمر بكتاب معه من أمير المؤمنين فقريء على أهل مصر . وفيه :

بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي أمير المؤمنين الى من بلغه كتابي هذا من المؤمنين والمسلمين . سلام عليكم فانى أحمد اليكم الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فان الله عز وجل بحسن صنعه وتقديره وتدبيره اختار الاسلام ديناً لنفسه وملائكته ورسله وبعث به الرسل عليهم السلام الى عباده وخص به من انتخب من خلقه . فكان مما أكرم الله عز وجل به هذه الامة وخصهم به من الفضيلة ان بعث اليهم محمداً صلى الله عليه وسلم فعلمهم الكتاب والحكمة والفرائض والسنة لكيما يهتدوا وجمعهم لكي لا يتفرقوا وزكاهم لكيما يتطهروا ورفهم لكى لا يجوروا . فلما قضى من ذلك ما عليه قبضه الله عز وجل صلوات الله عليه ورحمته وبركاته ثم ان المسلمين استخلفوا به أميرين صالحين عملا

بالكتاب والسنة وأحسنا السيرة ولم يعدوا السنة ثم توفاهما الله عز وجل رضي الله عنهما ثم ولى بعدهما وال فأحدث احداثا فوجدت الامة عليه مقالا فقالوا ثم نقموا عليه فغيروا ثم جاءوني فبايعوني . فأستهدي الله عز وجل بالهدى وأستعينه على التقوى ألا وإن لكم علينا العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ والقيام عليكم بحقه والتنفيذ لسنته والنصح لكم بالغيب والله المستعان وحسبنا الله ونعم الوكيل - وقد بعثت اليكم قيس بن سعد بن عبادة أميراً فوازروه وكانفوه وأعينوه على الحق وقد أمرته بالاحسان الى محسنكم والشدة على مريبكم والرفق بعوامكم وخواصكم وهو ممن أرضى هديه وأرجو صلاحه ونصيحته أسأل الله عز وجل لنا ولكم عملا زاكيا وثوابا جزيلا ورحمة واسعة والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتبه عبيد الله بن أبي رافع في صفر سنة ٣٦ - تم

ثم ان قيس بن سعد قام خطيباً فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد ﷺ وقال الحمد لله الذي جاء بالحق وأمات الباطل وكبت الظالمين . أيها الناس إنا قد بايعنا خير من نعلم بعد محمد نبينا ﷺ فقوموا أيها الناس فبايعوا على كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ فان نحن لم نعمل لكم بذلك فلا بيعة لنا عليكم . فقام الناس فبايعوا واستقامت له مصر وبعث عليها عماله وتمت مصر على الطاعة إلا جماعة في خربتا أعظموا قتل عثمان واعتزلوا ينتظرون ماذا يتم وقالوا له ابعث عمالك فان الارض أرضك لا ننازعك وأمهلنا حتى يتبين الامر . وكذلك مسلمة بن مخلد لم يبايع وعاهد قيسا ان لا يعمل شيئاً ما بقي والياً على مصر وبقي في مصر الى ان انقضى أمر الجمل . وكان قيس كافيا ، فكان أثقل شيء على معاوية وقد خشي ان يسير الى علي وقيس خلفه بمصر - فكتب معاوية الى قيس يعظم قتل عثمان ويطوقه علياً ويحضه على البراءة من ذلك ومتابعته على أمره على ان يوليه العراقين اذا ظفر ولا يعزله ويولي من أراد من أهله الحجاز كذلك ويعطيه ما شاء من الاموال .

فنظر في الامر هو ومن معه من أهله بين موافقته ومصانعته ومطاولته أو معاجلته بالحرب فآثر الموافقة والمطاولة وكتب اليه - أما بعد فانى لم أقارف شيئاً مما ذكرته وما اطلعت لصاحبي على شيء منه . وأما متابعتك فأنظر فيها - وليس هذا مما يسرع اليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قبلي تكرهه حتى نرى وترى . وكان يريد بذلك ان يطمع معاوية في متابعته حتى يتهيأ له مناجزته . ولو أن قيسا بقي بمصر الى زمن حرب صفين لكان وجوده شاغلا لمعاوية ولكان له معه شأن آخر ولكان أحرى ان ينقض من أمر معاوية كل مبرم

كتب اليه معاوية بعد ذلك انى لم أرك تدنو فأعدك سلما ولا تتباعد فأعدك حربا ، وليس مثلي يصانع المخادع وينخدع للمكايد ومعه عدد الرجال وأعنة الخيل والسلام

علم قيس ان المدافعة لا تنفع معه . فأظهر ما في نفسه وكتب اليه بالرد القبيح والشتم والتصريح بفضل علي والوعيد . وكان فيما قاله : « وأما قولك انى مالىء عليك مصر خيلا ورجلا فوالله ان لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم اليك انك لذو جد والسلام » . فأيس منه معاوية وثقل عليه مكانه . وأخذ يكيد له من قبل علي فأشاع عنه أنه مالأه ووافقه وأنه صار شيعة له وأنه تأتيه كتبه ورسله وأنه قد مالأ المطالبين بدم عثمان بمصر يجري عليهم الأرزاق ويوافيهم بالاعطيات. فوصل ذلك الى علي من محمد بن أبي بكر ومحمد بن جعفر وعيونه بالشام . فأعظم عليٌّ ذلك ولم يشأ أن يصدق في قيس قولا وتفاوض مع ابنيه وعبد الله بن جعفر فأشار عليه الأخير بعزله

أما علي فتمهل في العزل . وجاءه بعد ذلك كتاب قيس بن سعد بشأن المعتزلين بخربتا ومن لم يبايع وأنهم كافون عن القتال حتى يتبينوا . وخشي من مع علي أن تكون ممالأة فأشاروا عليه أن يأمره بقتال الساكنين عنه . فامره بذلك .

فلم ير قيس ذلك رأياً وكتب اليه : « متى قاتلتهم ساعدوا عليك عدوك وهم الآن معتزلون والرأي تركهم » . فكان ذلك مما يقوي ريبة أصحاب علي في أمر سعد فاشاروا عليه بعزله وبَعْث محمد بن أبي بكر أميراً لمصر ففعل . وغضب قيس وخرج من مصر الى المدينة وعليها مروان بن الحكم فاخاف قيساً . فخرج عنها ولحق بعلي . وعاتب معاوية مروان فيما فعل وقال له : انك أمددت علياً بقيس . ولو أنك أمددته بمائة ألف لكانوا أهون علي من قيس . وضعَّفه فيما صنع . أما قيس فلحق بعلي وكشف له الخبر فقبل عذره ووافقه على أمره كله . وكان خروج قيس بحسن تدبير معاوية وسلامة صدر علي

أمر صفين

قال الاستاذ الخضرى : لم تكن واقعة الجمل على شدة هولها وفظاعة أمرها الا مقدمة لما هو أشد منها هولا وأفظع أمراً وهو الحرب في صفين

انصرف علي بن أبي طالب من البصرة الى الكوفة وبعث الى جرير بن عبد الله البجلي والاشعث بن قيس الكندي وكانا عاملين لعثمان بفارس أولهما بهمذان والثاني باذربيجان أن يأخذ له كل منهما البيعة على من قبله وأن يوافياه ففعلا وانصرفا اليه . فلما أراد علي توجيه الرسول الى معاوية قال جرير : ابعثني اليه فانه لي ودٌّ حتى آتيه فأدعوه الى الدخول في طاعتك فقال الاشتر لعلي : لا تبعثه فوالله لأظن هواه معه . فقال علي : دعه حتى ننظر ما يرجع به الينا . فبعثه اليه وكتب معه كتابا يعلمه فيه اجتماع المهاجرين والانصار على بيعته ونكث طلحة والزبير وما كان من حربه اياهما ويدعوه الى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار من طاعته فشخص اليه جرير فلما قدم عليه ماطله واستنظره ودعا عمراً فاستشاره فيما

كتب اليه به . فأشار عليه أن يرسل الى وجوه أهل الشام ويلزم علياً دم عثمان ويقاتله بهم ففعل ذلك معاوية وكان أهل الشام لما قدم النعمان بن بشير بقميص عثمان وأصابع زوجه نائلة اصبعان مقطوعتان بالبراجم وشيء من الكف وأصبعان مقطوعتان من أصولهما و نصف الابهام قد علقوه سنة وآلى الرجال من أهل الشام أن لا يمسهم الماء لغسل الا من الاحتلام ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم

فلما قدم جرير بن عبد الله على علي وأخبره الخبر وقع فيه الاشتر وقال : قد كنت نهيتك عن ارساله وأخبرتك بعداوته وغشه ولو كنت بعثتني لكان خيراً من هذا الذي أقام عنده ولم يدع باباً يريد فتحه الا فتحه ولا باباً يخاف منه الا أغلقه . فقال جرير : لو كنت ثم لقتلوك . لقد ذكروا أنك من قتلة عثمان . فقال الاشتر : لو أتيتهم والله يا جرير لم يعيني جوابهم . ولحملت معاوية على خطة أعجله فيها عن الفكر . ولو أطاعني فيك أمير المؤمنين لحبسك وأشباهك في محبس لا تخرجون منه حتى تستقيم هذه الامور . فخرج جرير بن عبد الله الى قرقيسياء وكتب الى معاوية فاستقدمه

ومعلوم ان الشام من مجامع أجناد المسلمين لانها ثغر عظيم يجاور الامة الرومية التي لم تزل حافظة لشيء كثير من قوتها . فكانت الجنود الاسلامية هناك على غاية الاستعداد عاشرهم معاوية طويلا وهو الرجل السياسي المحنك فامتلك قلوبهم وصاروا طوع أمره ما أمرهم ائتمروا به وما نهاهم انتهوا عنه ومثل تلك القوة العظيمة سهلت له أن يرفض بيعة علي ويتهمه بالاشتراك في دم عثمان أو على الاقل بحماية قاتليه حتى آواهم الى جيشه . ولم يعمل أي عمل في القصاص منهم . فلما جاء جرير علياً وأخبره بما عليه أهل الشام لم يجد علي مناصاً من المسير والقتال . فخرج وعسكر بالنخيلة خارج الكوفة وبلغ معاوية خروجه اليه بنفسه فاستشار عمرو ابن العاص فأشار عليه أن يخرج بنفسه كذلك وأن لا يغيب عنه برأيه ومكيدته

وسار معاوية متمهلا وكتب الى كل من كان يرى أنه يخاف عليا أو طمن عليه ومن أعظم دم عثمان واستغواهم عليه . فلما رأى ذلك الوليد بن عقبة بعث اليه :

ألا أبلغ معاوية بن حرب فانك من أخي ثقة مليمُ
قطعت الدهر كالسَّدِم المُعَنَّى تُهَدِّر في دمشق فما تريم
وانك والكتابَ الى علي كدابغة وقد حلم الاديم
يمنيك الامارة كل ركب لانقاض العراق بها رسيم
وليس أخو التِراتِ بمن توانى ولكن طالب الترة الغشوم
ولو كنت القتيل وكان حياً لجرد لا الفٌ ولا سؤوم
ولا نكل عن الاوتار حتى يبيء بها ولا بَرِمٌ جَثُوم
وقومك بالمدينة قد أبيروا فهم صرعى كأنهم الهشيم

فدعا معاوية شداد بن قيس كاتبه وقال : ابغني طومارا فأتاه به فاخذ القلم فقال : لا تعجل . اكتب :

ومستعجب مما يرى من اناتنا ولو زبنته الحرب لم يترمرم

وأرسل به اليه

أخذ علي بجنوده طريق الجزيرة وعبر الفرات من الرقة ومن هناك قدم طلائعه أمامه حتى اذا كانوا بسور الروم التقوا بطلائع معاوية فكانت بين الفريقين مناوشات قليلة ثم تحاجزوا ثم تلاحقت جنود علي ومعاوية فعسكر الطائفتان في منهل صفين وتوافقت الجنود الاسلامية بعضها أمام بعض

اختار علي ثلاثة من رجاله ليذهبوا الى معاوية يطالبون اليه الطاعة ، وهم بشير بن عمرو الانصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشبث بن ربعي التميمي فساروا حتى دخلوا على معاوية فتكلم بشير بن عمرو وقال : يامعاوية ان الدنيا عنك زائلة وانك راجع الى الآخرة وان الله محاسبك بعملك وجازيك بما قدمت يداك . واني أنشدك الله

أن تفرق جماعة هذه الامة وان تسفك دماءها . فقال له معاوية : هلا أوصيت صاحبك بذلك ؟ فقال : ان صاحبي ليس مثلك ، ان صاحبي أحق البرية كلها بهذا الامر في الفضل والدين والسابقة في الاسلام والقرابة من الرسول ﷺ . قال فيقول ماذا ؟ قال يأمرك بطاعة الله واجابة ابن عمك الى ما يدعوك اليه من الحق فانه أسلم لك في دنياك وخير لك في عاقبة أمرك . قال معاوية : ونطل دم عثمان لا والله لا أفعل ذلك أبداً فقام شبث فقال : يا معاوية انى قد فهمت ما رددت انه والله لا يخفى علينا ما تغزو وما تطلب انك لم تجد شيئاً تستغوي به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم الا قولك : قتل امامكم مظلوماً فنحن نطلب بدمه فاستجاب لك سفهاء طغام وقد علمنا أنك قد ابطأت عنه بالنصر وأحببت له القتل لهذه المنزلة التى أصبحت تطلب ، ورب متمني أمر وطالبه يحول الله عز وجل دونه بقدرته وربما أوتي المتمني أمنيته وفوق أمنيته والله مالك في واحدة منهما خير ، لئن أخطأت ما ترجو انك لشر العرب حالا في ذلك ، ولئن أصبت ما تمنى لا تصيبه حتى تستحق من ربك صلى النار ، فاتق الله يا معاوية ودع ما أنت عليه ولا تنازع الامر أهله . ولم يكن من معاوية جواب على هذه المقالة الشديدة إلا رد أشدو أمره اياهم بالانصراف . فأتوا علياً وأخبروه بالخبر

كان القوم جميعاً يهابون أن تلتقى جموع الشام بجموع العراق خوفاً من الاستئصال والهلاك ، فكانت تخرج الفرقة من جيش أهل العراق فتخرج لها مثلها من جيش أهل الشام فيقتتلون ، وعلى هذه الحال كان شأنهم في ذى الحجة سنة ٣٦ فلما أهلّ المحرم توادع الفريقان الى انقضائه طمعاً في الصلح ، واختلفت بينهما الرسل في ذلك

وعلى ذكر الرسل أقول : ان ذا الرأي الحصيف انما ينتقى الرسل ليعربوا عن ذات نفسه ويكون الواحد منهم رفيقاً محسنا للسفارة خبيراً بالتأتى للأمور

لا يرى فتقاً إلا رتقه ولا صدعا الا رأبه . وهو عنوان عقل مرسله ، فاذا لم يحسن اختيار الرسول كان بلاء استعمله وانبثت عليه الامور ، وكان ما يأتيه من البلاء على يد رسوله أشد وأنكى مما يأتيه من عدوه

ونحن أولاء نرى من رسل علي ظهوراً بمظهر العتو والتجبر يبدو الشر على وجوههم والقول الجافي من أفواههم كأنما ارسلوا لاشعال النار وايقاظ الشر ، وعلي مع ذلك لا يبذل شيئاً يكون الصلح عليه ولا يريد من معاوية الا أن يلقي بيده ويستكين استكانة الذليل مع اخشان القول له والاستعلاء عليه وقد وصى من هو خير من علي رسله بالانة القول والرفق لمن هو شر من معاوية فقد قال الله تعالى لموسى وهرون إذ أرسلهما الى فرعون « فقولا له قولا ليناً لعله يذكر أو يخشى » فليس بعجيب أن تكون عاقبة هذه الرسائل الفشل

بعث علي عدياً بن حاتم ويزيد بن قيس الارحبي وزياد بن خصفة وشبث ابن ربعي — وهو أحد الرسل في المرة الاولى وربما كان حمقه سبباً في عدم النجاح — لما دخلوا على معاوية بدأ عدي فقال : انا أتيناك ندعوك الى أمر يجمع الله به عز وجل كلمتنا وامتنا ويحقن به الدماء ويصلح به ذات البين . ان ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقة وأحسنها في الاسلام أثراً وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم الله بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك ، فانته يا معاوية لا يصيبك الله بأصحابك بيوم كيوم الجمل . فقال معاوية كانك انما جئت متهدداً ولم تأت مصلحاً هيهات يا عدي كلا والله اني لابن حرب ما يقعقع لي بالشنان وانك لمن المجلبين على ابن عفان وانك لمن قتلته واني لارجو أن تكون ممن يقتل الله عز وجل . هيهات يا عدي قد حلبت بالساعد الاشد . فقال شبث وزياد أتيناك فيما يصلحنا وإياك فأقبلت تضرب لنا الامثال دع ما لا ينتفع به من القول والفعل وأجبنا فيما يعمنا وإياك نفعه . وقال يزيد بن قيس : انا لم نأت الا لنبلغك ما بعثنا به اليك ولنؤدي

عنك ما سمعنا منك ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك وأن نذكر ما ظننا أن لنا عليك به حجة وانك راجع به الى الالفة والجماعة . ان صاحبنا من قد عرفت وعرف المسلمون فضله ولا أظنه يخفى عليك ان أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعلي ولن يميلوا بينك وبينه فاتق الله يا معاوية ولا تخالف علياً فانا والله ما رأينا رجلا قط أعمل بالتقوى ولا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه . فقال معاوية : أما بعد ، فانكم دعوتم الى الطاعة والجماعة . فأما الجماعة التي دعوتم اليها فمعنا هي . وأما الطاعة لصاحبكم فانا لا نراها . ان صاحبكم قتل خليفتنا وفرق جماعتنا وآوى ثارنا وقتلتنا وصاحبكم يزعم أنه لم يقتله فنحن لا نرد ذلك عليه . أرأيتم قتلة صاحبنا ؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم الينا فلنقتلهم به ثم نحن نجيبكم الى الطاعة والجماعة . فقال له شبث : أيسرك يا معاوية أنك أمكنت من عمار تقتله ؟ فقال وما يمنعني من ذلك ، والله لو أمكنت من ابن سمية ما قتلته بعثمان ولكن كنت قاتله بنائل مولى عثمان . فقال شبث لا تصل الى عمار حتى تندر الهام عن كواهل الاقوام وتضيق الارض الفضاء عليك برحبها فقال معاوية : انه لو قد كان ذلك كانت الارض عليك أضيق . وبذلك انتهت هذه السفارة التي لم يكن يظن أن تنتهي إلا بمثل ما انتهت اليه . لانه كان من الضروري أن تكون قاعدة الصلح والدعوة شيئاً في مصلحة كل من الطرفين . يتنزل هذا عن شيء وهذا عن شيء حتى يكون صلحاً . أما هذه السفارة فقد كانت دعوة كسوابقها مع ما في بعض الداعين من هذه الشدة التي تفسد القلوب وتباعد ما بينها

وارسل معاوية الى علي حبيب بن مسلمة الفهري وشرحبيل بن السمط ومعن ابن يزيد بن الاخنس فدخلوا عليه فتكلم حبيب فقال : اما بعد ، فان عثمان بن عفان كان خليفة مهدياً يعمل بكتاب الله عز وجل وينيب الى امر الله فاستثقلتم

حياته واستبطاتم وفاته فعدوتم عليه فقتلتموه ذدفع الينا قتلة عثمان ان زعمت أنك لم تقتله نقتلهم به ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولى الناس أمرهم من أجمع عليه رأيهم . فقال له : ما أنت لا أم لك والعزل وهذه الامة ، اسكت فانك لست هناك ولا بأهل له . فقام وقال : والله لتريني بحيث تكره . فقال علي : وما أنت وان أجلبت بخيلك ورجلك لا أبقى الله عليك ان ابقيت علي أحقرة ا وسوءة اذهب فصوب وصعد ما بدا لك . وقال شرحبيل بن السمط : ما كلامي الا مثل كلام صاحبي فهل عندك جواب غير الذي أجبت به من قبل ؟ فقال علي : نعم ، فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر بعثة الرسول ﷺ وهدايته للناس ثم قبضه الله اليه واستخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمر فأحسنا السيرة وعدلا في الامة وقد وجدنا عليهما أن توليا علينا ، ونحن آل رسول الله ، فغفرنا ذلك لهما ، وولي عثمان فعمل أشياء عابها الناس عليه . فساروا اليه فقتلوه . ثم أتاني الناس وأنا معتزل أمورهم . فقالوا لى : بايع ، فأبيت عليهم . فقالوا لى بايع فان الامة لا ترضى الا بك ، وانا نخاف ان لم تفعل أن يفترق الناس . فبايعتهم فلم يرعنى الا شقاق رجلين قد بايعانى وخلاف معاوية الذي لم يجعل الله له سابقة في الدين ولا سلف صدق في الاسلام طليق بن طليق حزب من هذه الاحزاب ، لم يزل لله ولرسوله وللمسلمين عدواً هو وأبوه حتى دخلا في الاسلام كارهين فلاغرو الاخلافكم معه وانقيادكم له وتدعون آل نبيكم الذين لا ينبغى لكم شقاقهم ولا خلافهم ولا أن تعدلوا بهم من الناس أحداً . الا اني أدعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه ، واماتة الباطل واحياء معالم الدين . فقال له شرحبيل : أشهد أن عثمان قتل مظلوماً . فقال لهما : لا أقول أنه قتل مظلوماً ، ولا أنه قتل ظالما . قالا فمن لم يزعم أن عثمان قتل مظلوماً فنحن منه براء . ثم انصرفا . فقال علي فانك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم

الدعاء اذا ولوا مدبرين . وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم ان تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون

لما انسلخ المحرم أمر على من ينادي : الا أن أمير المؤمنين يقول لكم اني قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا اليه واحتججت عليكم بكتاب الله فدعوتكم اليه فلم تناهوا عن طغيان . ولم تجيبوا الى حق . واني قد نبذت اليكم على سواء ان الله لا يحب الخائنين . ففزع أهل الشام الى أمرائهم ورؤسائهم وخرج معاوية وعمرو يكتبان الكتائب ويعبيان الجيوش وفعل علي فعلهما . وقال لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم فأنتم على حجة وتركهم حتى يقاتلوكم حجة أخرى فاذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تمثلوا بقتيل واذا وصلتم الى رحال القوم فلا تهتكوا ستراً ولا تدخلوا داراً ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم ولا تهيجوا امرأة وان شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم وصلحاءكم فانهن ضعاف القوى والانفس . وكان يقول بهذا المعنى لاصحابه في كل موطن اه

وفي غد ذلك اليوم وهو يوم الاربعاء أول صفر سنة ٣٧ ابتدأت الحرب من غير ان يقف كل الجمعين وجهاً لوجه بل كل يوم يخرج قائد من هنا وقائد من هنا حتى اذا مضت سبعة أيام قال علي لجنده ليلة الاربعاء ثامن صفر حتى متى لا نناهض هؤلاء القوم بجمعنا ؟ واتفق معهم على ذلك فباتوا يصلحون أمرهم وفي ذلك يقول كعب بن جعيل التغلبي :

أصبحت الامة في أمر عجب والملك مجموع غداً لمن غلب
فقلت قولا صادقاً غير كذب ان غداً تهلك أعلام العرب

وفي الصباح زحف علي بجنود أهل العراق ، وزحف له معاوية بجنود أهل الشام وذلك في يوم مشئوم لا يزال المسلمون يعدونه شؤماً من لدن ذلك الحادث الى الآن . تناهض الناس ذلك اليوم واقتتلوا قتالا شديداً نهارهم كله . ثم انصرفوا

عند المساء وكل غير غالب ، ثم أعادوا الكرة في غد ذلك اليوم وكانت حملتهم أشد من اليوم الاول وقد انكشفت ميمنة أهل العراق وانتهت هزيمتهم الى علي فمشى نحو الميسرة فانكشفت عنه مضر في الميسرة وثبتت ربيعة . ومر به في ذلك الوقت الاشتر النخعي ، فقال له : ائت هؤلاء القوم فقل لهم أين فراركم من الموت ؟ فذهب اليهم الاشتر وهيج الناس لخوض الغمرات فتابعوه وكروا معه ، فأخذ لا يصمد لكتيبة إلا كشفها ، ولا لجمع الا حازه ورده ، ولم يزل حتى كشف هذه الجموع المهاجمة وألحقهم بصفوف معاوية بين العصر والمغرب ولم يزل الاشتر في هجمته حتى وصل الى حرس معاوية وكان معاوية يقول : أردت في هذا الوقت أن انهزم فذكرت قول الاطنابة :

أبت لى عفتى وأبي بلائى وإقدامي على البطل المشيح
واعطائى على المكروه مالى وأخذي الحمد بالثمن الربيح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

فمنعني هذا القول من الفرار . وفي هذا اليوم قتل عمار بن ياسر

ولما أمسى المساء على الفريقين لم ينفصلا بل استمر القتال شديداً طول الليل ويسمون هذه الليلة ليلة الهرير يشبهونها بليلة القادسية حتى اذا أصبح عليهم صبح يوم الجمعة أخذ الاشتر يزحف بالميمنة ويقاتل بها ويهيج الناس بقوله وعليّ يمده بالرجال لما رأى من ظفره . وبينما هم في هذه الشدة الشديدة اذا بالمصاحف قد رفعت على رؤوس الرماح من قبل أهل الشام وقائل يقول : هذا كتاب الله عز وجل بيننا وبينكم ، من لثغور الشام بعد أهل الشام ، من لثغور العراق بعد أهل العراق ! فلما رأى أهل العراق المصاحف مرفوعة قالوا نجيب الى كتاب الله . فقال لهم علي : يا عباد الله امضوا على حقكم وصدقكم ، فان معاوية وعمرو بن العاص وابن أبي

معيط وحبيب بن مسلمة وابن أبي سرح والضحاك بن قيس ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن أنا أعرف بهم منكم قد صحبتهم أطفالا وصحبتهم رجالا فكانوا اشر أطفال واشر رجال . ويحكم انهم مارفعوها ثم لا يرفعونها ولا يعملون بما فيها، وما رفعوها لكم الا خديعة ودهاء ومكيدة . فقالوا ما يسعنا أن نُدعى الى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله . وقال مسعر بن فدكى التميمي وأشباه له من القراء أجب الى كتاب الله اذا دعيت اليه . والا ندفعك برمتك الى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان انه علينا أن نعمل بما في كتاب الله عز وجل . والله لتفعلنها أو لنفعلنها بك . ثم طلبوا منه أن يبعث الى الاشتر ليترك القتال فأرسل اليه رسولا . فقال الاشتر للرسول : ليس هذه الساعة التي ينبغي لك أن تزيلني فيها عن موقفي . اني قد رجوت أن يفتح لى فلا تعجلني . فرجع الرسول بالخبر . فما انتهى اليه حتى ارتفع الرهج وعلت الاصوات من قبل الأشتر . فقال له القوم : والله ما نراك الا أمرته أن يقاتل ثم قالوا ابعث اليه فليأتك والا والله اعتزلناك .فقال للرسول ويحك قل للاشتر أقبل فان الفتنة قد وقعت فلم يسعه الا المجيء وترك ساحة الحرب . ثم أرسل الاشعث بن قيس ليسأل معاوية عما يريده فلما ذهب اليه قال له معاوية : فرجع نحن وأنتم الى ما أمر الله في كتابه تبعثون منكم رجلا ترضونه ونبعث منا رجلا ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما في كتاب الله لا يعدوانه ثم نتبع ما اتفقا عليه فقال له الاشعث هذا الحق . ثم رجع الى علي فأخبره ، فقال الناس : رضينا وقبلنا . فقال أهل الشام : قد اخترنا عمرا . فقال الاشعث ومن تابعه : وانا قد رضينا أبا موسى الاشعري . فقال علي : قد عصيتموني في أول الامر فلا تعصوني الآن . وبين لهم تخوفه من أبي موسى الاشعري لانه كان يخذل الناس عنه فأبوا الا اياه فاضطر علي للسير على ما رأوا

روى الطبري أن الاحنف بن قيس جاء الى علي وقال : يا أمير المؤمنين انك قد رميت بحجر الارض وبمن حارب الله ورسوله أنفَ الاسلام (يريد عمراً) واني قدعجمت هذا الرجل وحلبت أشطره (يعني أبا موسى)فوجدته كليلَ الشفرة قريب القعر وانه لا يصلح لهؤلاء القوم الا رجل يدنو منهم حتى يصير في أكفهم ويبعد حتى يصير بمنزلة النجم منهم . فان أبيت أن تجعلني حكما فاجعلني ثانياً أو ثالثاً فانه لن يعقد عقدة الا حللتها ولن يحل عقدة أعقدها الا عقدت لك أخرى أحكم منها فابى الناس الا أبا موسى . فقال الاحنف : فاذا أبيتم الا أبا موسى فأدفئوا ظهره بالرجال

عقد التحكيم

لما رضي الفريقان بالتحكيم وأفضى بهما الامر الى كتابته كتبوا :

بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ما تقاضى عليه علي أمير المؤمنين . فقال عمرو ابن العاص اكتب اسمه واسم أبيه هو أميركم فأما أميرنا فلا . فاستشار علي في ذلك بني هاشم وادخل معهم الاحنف بن قيس . فقال الاحنف : لا تمح امارة المؤمنين فاني أتخوف ان محوتها لا ترجع اليك أبداً . فأبى علي ذلك ملياً من النهار ثم ان الاشعث بن قيس قال : امح هـذا الاسم برحه الله فمحى وكتب كتاب الصلح . وهو :

« بسم الله الرحمن الرحيم * هذا ما تقاضى عليه علي بن أبي طالب ومعاوية ابن أبي سفيان : قاضى عليٌ على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين وقاضى معاوية على أهل الشام ومن كان معهم من المؤمنين والمسلمين . انا ننزل عند حكم الله عزوجل وكتابه ولا يجمع بيننا غيره . وان كتاب الله عزوجل

بيننا من فاتحته الى خاتمته نحيي ما أحيا ونميت ما أمات فما وجد الحكمان في كتاب الله عز وجل وهما: أبوموسى الاشعري عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص القرشي عملا به وما لم يجدا في كتاب الله عز وجل فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة » وأخذ الحكمان من علي ومعاوية ومن الجندين من العهود والمواثيق والثقة من الناس أنهما آمنان على أنفسهما وأهلها والامة لهما أنصار على الذي يتقاضيان عليه وعلى المؤمنين والمسلمين من الطائفتين كلتيهما عهد الله وميثاقه انا على ما في هذه الصحيفة وان قد وجبت قضيتهما على المؤمنين فان الامن والاستقامة ووضع السلاح بينهم أينما ساروا على أنفسهم وأهليهم وأموالهم وشاهدهم وغائبهم وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهد الله وميثاقه أن يحكما بين هذه الامة ولا يرداها في حرب ولا فرقة حتى يعصيا وأجلا القضاء الى رمضان وان أحبا أن يؤخرا ذلك أخراه على تراض منهما وان توفي أحد الحكمين فان أمير الشيعة يختار مكانه ولا يألو من أهل المعدلة والقسط وان مكان القضية الذي يقضيان فيه مكان عدل بين أهل الكوفة وأهل الشام. وان رضيا وأحبا فلا يحضرهما فيه إلا من أرادا ويأخذ الحكمان من أرادا من الشهود ثم يكتبان شهادتهما على ما في هذه الصحيفة وهم أنصار علي من ترك هذه الصحيفة وأراد فيه إلحاداً وظلماً. اللهم انا نستنصرك على من ترك ما في هذه الصحيفة »

ويتبع ذلك أسماء الشهود من الفريقين. وكان الكتاب في ١٥ صفر سنة ٣٧ وروى الطبري أن ذلك كان في ١٣ صفر

الناظر الى عقد التحكيم الذي أوردنا لا يجد فيه حدوداً مرسومة ولا أعلاماً بينة يهتدي بها الحكَمُ أو الناظر في أفعال الحكم. ولم يبين فيه حكم ما اذا فارق الحكمان أو أحدهما ما في كتاب الله أو السنة العادلة. ولا حكم ما اذا اختلفا ولم يتفقا. ولم يبن به الشيء الذي يبحثان فيه من أمرهما. وأني لا أدري كيف يكون

هذا عقد تحكيم ؟!

قال الاستاذ الخضرى : وبهذا العقد انتهت واقعة صفين التى قتل فيها من شجعان المسلمين وأنجادهم تسعون ألفاً . وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه في جميع الوقائع الاسلامية من لدن رسول الله ﷺ الى تاريخها ولولا أن عضتهم الحرب ولفحتهم نيران السلاح لاستؤصلت البقية الباقية وضاعت الثغور . ومما يزيد الاسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول الى تقرير مبدأ ديني أو رفع حيف حل بالامة وانما كان لنصرة شخص على شخص . فشيعة علي تنصره لانه ابن عم الرسول ﷺ وأحق الناس بولاية الامر . وشيعة معاوية تنصره لانه ولي عثمان وأحق الناس بطلب دمه المسفوك ظلما ولا يرون أنه ينبغي لهم مبايعة من آوى اليه قتلته

ان تهالك كل من الرجلين على مايزعمه حقاً له كان بالغاً أقصى نهايته . فكل منهمايريد بلوغ أربه من الآخر بأى ثمن مهما غلا . ان من عنده ذرة من الشفقة ليذوب قلبه على هذه الامة رحمة وأسى فقد وجدت بين عاملين يتنازعانها ويغريان أبناءها بعضهم ببعض ويسيلان دماءها أنهاراً ولا تحدث واحداً منهما نفسه بأنه لا يصل الى ما يريد الا على جسر من الجثث يزيد على عشرات الالوف من موافقيه ومخالفيه هم عدة الاسلام وعزه وقوته بهم أعلى الله كلمته وأعز ناصره وليس من الكياسة أن يهلك مثلهم ضيعة في أمر ان وقع لا يرتفع له ميزان الدين ولا ينخفض . ولو كان الرجلان ممن لا يؤبه لهما وليس لهما فى الدين قدم وحسن بلاء لكان للقلم مجال ، ولكنهما بالمحل الرفيع والمكان المكين ، وبخاصة علي بن أبى طالب وأثره فى الدين واعزازه . فليس لنا الا أن نأسى على ما كان ونكل أمر صاحبي العمل الى الله عز وجل ونسأله لهما الصفح والغفران

وحسن عندي قول المرحوم الاستاذ الخضري : يظهر للمتتبع أخبارَ ما بين علي ومعاوية أن الرجلين كانا على تباين تام . فعلي يرى لنفسه من الفضل والسابقة والقرابة ما ليس لغيره من سائر الناس حتى أشياخ قريش وأصحاب السابقة منهم . وزاد به ذلك الفكر حتى كان يرى أن الاشياخ يعلمون ذلك ويغضون عنه . وكان يرى فى معاوية انحطاطا هائلا عنه . ولماذا ؟ لانه من الطلقاء وأولاد الطلقاء الذين عادوا رسول الله ﷺ وحاربوه . وربما ظن فيهم أنهم لم يدخلوا فى الاسلام الا كرهاً حينما لم يجدوا مناصاً من ذلك . واذا كان الرجل يرى أشياخ قريش دونه قدراً ولم يكن يسلم لهم الا مرغماً لانه لم يجد له أنصاراً ، فكيف يرى نفسه أمام رجل يظن به ذلك الظن في وقت بايعه فيه الناس بالخلافة ، وردوا اليه حقه المسلوب منه وقد وجد أنصاراً يؤيدونه

وكان اذا تكلم عن معاوية أو كاتبه يظهر من كلامه الاحتقار له والترفع عنه والازدراء برسله وخاطبهم بأشد ما يخاطب به الانسان . ولا يَنظر أن الرجل قد استحوذ على قلوب نصف الامة الاسلاميـة ، والمنصف يقول خير نصفي الامة وأنفعها وأرضاهما غناء وبلاء ، ومثله لا ينال الا بالاناة وشيء من المصانعة والسهولة والتجاوز له عن شيء من السلطان يتبحبح فيه وينال من متاع الدنيـا ما تشره اليه نفسه ، فانه رجل قد الف الشرف وأبهة السلطان الى عز قديم وشرف عريق ورياسة في الجاهلية آزرتها رياسة في الاسلام فاتصل القديم بالحديث . وهذه أشياء لم ير علي أن ينزل اليها

أما معاوية فانه كان بدون ريب يرى نفسه عظيما من عظماء قريش ، لانه ابن شيخها أبي سفيان بن حرب أكبر ولد أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ، كما أن علياً أكبر ولد هاشم بن عبد مناف فهما سيان في الرفعة النسَبية . ثم كان يرى النبي ﷺ والخلفاء الثلاثة من بعده قد وثقوا به ثقة كبرى حتى جمعت له الشام كلها وهي أعظم بلدان المسلمين بعد العراق . فصارت

له تلك الرياسة العظيمة والاثر الصالح في حماية الثغور الرومية ، وهو يعلم أن علياً لا ينظر اليه بتلك العين التى كان ينظر له بها من قبله بدليل أن أول عمل له كان عزله فرأى أن انضمامه الى علي يحطه عن تلك المنزلة السامية التى نالها ومن يدري ماذا يكون حاله بعد ذلك من المهانة .وقد وجد أمامه شبها تفسح له المجال في تلك المناوأة :

١ — انه لم يُستشر في تلك البيعة وهو من أعاظم قريش ووال من أكبر الولاة تحت امرته جند من المسلمين لا يقل عن مئتى الف

٢ — ان كثيراً من الصحابة رفضوا بيعة علي

٣ — ان أول من ندبه الى الخلافة هم الثائرون على عثمان الذين قتلوه

٤ — انه آواهم في جيشه ولم يقتص منهم فأخذ من ذلك أنه ممالىء لهم على فعلتهم

كل تلك الشبه جعلته يمتنع عن البيعة ويأخذ لنفسه الحيطة حتى لا يقع في المذلة والمهانة . شخصان ينظر كل منهما الى الآخر بهذا النظر لا يمكن اتفاقهما ولا وصولهما الى طريق رشاد يخفف عن المسلمين ما نزل على رؤسهم من تلك الفتنة الهائلة . ولم يكن مدار مراسلاتهم بالشيء الذي يصح أن يكون قاعدة صلح بين فريقين لكل منهما قوة تؤيده ، فعلي كان يطلب مبايعته ولا يزيد وبغير ذلك لا يكون صلح حتى ان رسله التى كان يرسلها من أهل العراق كانوا يكلمون معاوية بلهجة المحتقر المستخف ومعاوية يطلب أولا أن تسلم قتلة عثمان اليه ليقتص منهم ثم يكون الامر شورى ، وكلا الامرين لا يرضى بهما علي : أما قتلة عثمان فانه ان أراد انتزاعهم من جيشه لا يأمن أن يتعصب لهم قومهم فينقسم جيشه واما ثانياً فلانه لا يترك حقاً قد ثبت له بالبيعة التى رآها تمت وليس لاحد مهما عظم قدره أن يعترض عليها فكيف بمثل معاوية في نفسه . أضف الى ذلك أن فرقة السبئية التى كانت تتخلل جند علي لم يكن من مصلحتها أن يكون صلح بين الطرفين فهم لا يسكتون عن

حمل الحطب لاشعال نار الفتنة كلما قاربت الخمود ولذلك كان لهذا التحكيم الذي اتفق عليه الطرفان نتيجة من أسوأ النتائج في جيش علي

نتائج التحكيم

بعد ان كتبت شروط الصلح عاد معاوية بجنده الى دمشق . أما جند علي فان الاشعث بن قيس خرج بكتاب الصلح يقرأه على الناس ويعرضه عليهم يقرؤنه حتى مر به على طائفة من بني تميم فيهم عروة بن أدية وهو أخو أبي بلال فقرأه عليهم فقال عروة أتحكمون في أمر الله الرجال؟ لا حكم إلا لله . ثم شد بسيفه فضرب به عجز دابته ضربة خفيفة فغضب للاشعث قومه من اليمن فمشى رؤساء بني تميم فتنصلوا اليه واعتذروا! فقبل وصفح ثم عاد الجيش يريد الكوفة

روى الطبري عن عمارة بن ربيعة قال خرجوا مع علي الى صفين وهم متوادون أحباء فرجعوا متباغضين أعداء وما برحوا من عسكرهم بصفين حتى فشى فيهم التحكيم ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق ويتشاتمون ويضطربون بالسياط يقول الخوارج يا أعداء الله ادهنتم في أمر الله وحكمتم وقال الآخرون فارقتم امامنا وفرقتم جماعتنا فلما دخل علي الكوفة لم يدخلوا معه حتى أتوا حروراء فنزل بها منهم اثنا عشر ألفا ونادى مناديهم ان أمير القتال شبث بن ربعي التميمي (وهذا الذي كان رسول علي الى معاوية وكان يتوقح في خطابه ويعجب من معاوية كيف لم يبايع عليا وهو هو سيد المسلمين وابن عم سيد المرسلين الى آخر ما قال) وأمير الصلاة عبد الله ابن الكواء اليشكري والامر شورى بعد الفتح والبيعة لله عز وجل والامر بالمعروف والنهي عن المنكر فبعث اليهم علي عبد الله بن عباس وقال له لا تعجل في جوابهم وخصومتهم حتى آتيك . فخرج اليهم ابن عباس فأقبلوا عليه يكلمونه فلم يصبر عليهم

بل قال ما نقمتم من الحكمين وقد قال الله عز وجل « ان يريدا اصلاحا يوفق الله بينهما » فكيف بأمة محمد ﷺ فقالوا له أما ماجعل حكمه الى الناس وأمر بالنظر فيه والاصلاح له فهو اليهم كما أمر به ، وما حكم فأمضاه فليس للعباد أن ينظروا في هذا . قال ابن عباس فان الله عز وجل يقول « يحكم به ذوا عدل منكم » فقالوا له أو نجعل الحكم في الصيد والحدث يكون بين المرأة وزوجها كالحكم في دماء المسلمين . وقالوا ان هذه الآية بيننا ، أعدل عندك ابن العاص وهو بالامس يقاتلنا ويسفك دماءنا فان كان عـدلا فلسنا بعدول ونحن أهل حربه وقد حكمتم في أمر الله الرجال وقد أمضى الله حكمه في معاوية وحزبه ان يقتلوا أو يرجعوا وقبـل ذلك ما دعوناهم الى كتاب الله فأبوه . ثم كتبتم بينكم وبينه كتابا وجعلتم بينكم وبينه الموادعة والاستفاضة وقد قطع عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة الا من أقر بالجزية . ثم جاء علي فوجد ابن عباس يخاصمهم فقال له انته عن كلامهم ألم أنهك ؟ ثم سألهم ما أخرجكم علينا قالوا حكومتكم يوم صفين . فقال أنشدكم الله ألست قد نهيتكم عن قبول التحكيم فرددتم علي رأيي ولما أبيتم إلا ذلك اشترطتم على الحكمين أن يحييا ما أحيا القرآن وأن يميتا ما أمات القرآن فان حكما بحكم القرآن فليس لنا أن نخالف حكما يحكم بما في القرآن وان أبيا فنحن من حكمهما براء . قالوا له نخبرنا أتراه عدلا تحكيم الرجال في الدماء فقال انا لسنا حكمنا الرجال انما حكمنا القرآن وهذا القرآن انما هو خط مسطور بين دفتين لا ينطق انما يتكلم به الرجال قالوا نخبرنا عن الاجل لم جعلته فيما بينك وبينهم قال ليعلم الجاهل ويتثبت العالم ولعل الله عز وجل يصلح في هذه الهدنة هذه الامة ، ادخلوا مصركم رحمكم الله . والخوارج يدعون أنهم قالوا ان التحكيم كان منا كفرا وقد تبنا الى الله فتب كما تبنا نبايعك والا فنحن مخالفون . فبايعهم علي وقال ادخلوا فلنمكث ستة أشهر حتى يجبى المال ويسمن الكراع ثم نخرج الى عدونا . فدخلوا على ذلك

وتوضيح نظرية هؤلاء القوم ان عليا كان اماما بويع بيعة صحيحة فمن امتنع عن بيعته فهو مرتكب جريمة العصيان والبغي وهم يرون أن مرتكب الكبيرة كافر فاذا يكون معاوية بغى على الامام العدل وحارب الله ورسوله وحينئذ يكون له ولقومه حد مقرر في القرآن والحدود المقررة لامعنى للتحكيم فيها لانه تغيير المشروع ان قضى بخلافه . ولما كان معاوية ومن معه يستحقون في نظرهم هذه العقوبة نصا فالذين معهم ومهادنتهم ادهان في دين الله وتحكيم للرجال فيما لا حكم فيه الا لله وهذا في نظرهم جريمة وفاعلها ضال ، والضال لايصلح لخلافة المسلمين فلا خلافة لعلى ولا حرمة لمن اتبعه ، فلهم أن يقاتلوهم وهم فى نظرهم كجند معاوية سواء بسواء . فانظروا كيف جاءت هؤلاء الناس نتيجة بعض مقدماتها باطل ، فلا عجب أن تكون هى أيضاً باطلة . كون جريمة العصيان ومحاربة الله والرسول لها حد مقرر في كتاب الله فذلك صحيح وأما كون معاوية ومن معه بغاة فذلك شيء يحتاج الى النظر فان ادعى انه له شبها في نفس امامة الامام أهى منعقدة أم لم تنعقد فهذا يصح فيه التحكيم وليس تحكيما للرجال في دين الله وانما هو تحكيم في صحة وصف ينبنى عليه حكم فان القاضى الذى ترفع اليه قضية سرقة لايطلب منه الاجتهاد في أن السارق تقطع يده أولا تقطع وانما يطلب منه الاجتهاد في معرفة أهذا سارق أم غير سارق فاذا ثبتت له الصفة وجب عليه حتما ان يحكم بقطع اليد فان قالوا ان التحكيم من على شك فى امامته والشك لايجوز له أن يسفك الدماء للمطالبة بأمر مشكوك فى صحته كان هذا باطلا أيضا لان صاحب الحق كثيراً ما يتأكد أن الحق له فاذا رأى من خصمه انكارا أو تمسكا بشبه فانه لاطريق امامه الا أن يرفع الامر لقاض أو لحكمين يكون حكمهما قاطعا لنزاع خصمه

وعلى الجملة فان هذه الفئة الجديدة قد بنت أمرها على مقدمات لم تنضج فزادوا الطين بلة وبعد ان كنا امام فرقتين صرنا الآن امام ثلاث فرق يستحل بعضها دماء بعض وصار لعلى عدوان . والمتتبع لاحوال الخوارج ومقاماتهم في حروبهم يتأكد انهم مخدوعون بمظاهرهم

انه الصواب من الرأي حتى صار عندهم من الحقائق الثابتة التي لا ينكرها الا غاو حائد عن الدين في نظرهم ، والا فكيف يؤول فعلهم وماصاروا اليه ؟ كان القوم بالامس يعتقدون في على أنه سيد المسلمين وأعلمهم وأفقههم في الدين ، واليوم قاموا ينبذون اليه على سواء ويباينونه كل المباينة ويرون أنه ضال بسبب ما كان منه من التحكيم ، وهو لم يصر اليه الا بمشورتهم ، وعن ملأ منهم ، ويقولون انه صار لا يستحق أن يكون خليفة ويدينون بان كل من تابعه حائد عن طريق الرشاد حلال الدم

اجتماع الحكمين

لما حان أجل اجتماع الحكمين بعث على أربعمائة رجل عليهم شريح بن هانيء الحارثى ومعهم ابن عباس يصلى بهم ويلى أمورهم وأبو موسى الاشعري معهم . وبعث معاوية عمر بن العاص في أربعمائة من أهل الشام فتوافوا بدومة الجندل باذرح . وكان معاوية اذا كتب الى عمرو جاء الرسول وذهب لا يدرى بما جاء به ولا بما ذهب به أحد ولا يسأله أهل الشام عن شيء . واذا جاء رسول على جاء أهل العراق الى ابن عباس فسألوه : ما كتب اليك أمير المؤمنين ؟ فان كتمهم ظنوا به الظنون فقالوا ما نراه الا كتب بكذا وكذا . فقال لهم ابن عباس : اما تعقلون ؟ اماترون رسول معاوية يجيء لا يعلم بما جاء به احد ويرجع لا يعلم بما رجع به احد ولا يسمع لهم صياح ولا لغط وانتم عندي كل يوم تظنون الظنون ! - وشهد هذه الجماعة عبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي والمغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقاص

ولما كان القوم بدومة الجندل أحب المغيرة بن شعبة أن يعرف ماعند كل من الحكمين وهل يمكن اجتماعهما على رأى . فاتى عمرو بن العاص وقال له : يا أبا عبد

الله مارايك فينا معشر القوم الذين اعتزلوا القتال ولم يشهدوا من هذه الحرب شيئاً . فقال انكم معشر المعتزلة خلف الابرار وامام الفجار . وجاء الى ابى موسى وسأله عن شأنه ومن اعتزل الحرب حتى يتبين الحق ويجتمع الناس على امام . فقال انتم المؤمنون الصالحون حقا ، فقال : ان الرجلين لايمكن ان يجتمعا

ومما كان في اجتماع الحكمين انهما بحثا فيما جاءا لاجله وهو اصلاح مابين الناس . فتكلم عمرو فقال : الست تعلم أن عثمان قتل مظلوما ؟ قال ابو موسى اشهد . قل عمرو : الست تعلم ان معاوية وآل معاوية اولياؤه ؟ قال بلى . قال عمرو فان الله يقول ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل انه كان منصوراً . فما يمنعك من معاوية ولى عثمان ياابا موسي وبيته في قريش كما قد علمت ؟ فان تخوفت ان يقول الناس ولى معاوية وليست له سابقة ، فان لك بذلك حجة : تقول انى وجدته ولى عثمان الخليفة المظلوم والطالب بدمه الحسن السياسة الحسن التدبير . وهو اخو ام حبيبة زوج رسول الله ﷺ وكان كاتب الوحي لرسول الله وقد صحبه فهو أحد الصحابة • ثم عرض له بالسلطان بقوله ان ولَى أكرمكَ كرامة لم يكرمها خليفة . فقال أبو موسى ياعمرو اتق الله . فاما ماذكرتَ من شرف معاوية فان هذا ليس على الشرف يولى أهله . ولو كان على الشرف لكان هذا الامر لال ابرهة بن الصباح . انما هو لاهل الدين والفضل مع انى لو كنت معطيه أفضل قريش أعطيته على بن أبي طالب . وأما قولك ان معاوية ولى دم عثمان فوله هذا الامر فانى لم أكن لاوليه معاوية وادع المهاجرين الاولين . وأما تعريضك لى بالسلطان . فو الله لو خرج لى من سلطانه كله ماوليته وما كنت لارتشي في حكم الله عز وجل . ولكنك ان شئت احيينا اسم عمر بن الخطاب • فقال عمرو ان كنت تحب بيعة ابن عمر . فما يمنعك من ابنى وأنت تعرف فضله وصلاحه . فقال ان ابنك رجل ولكنك قد غمسته في هذه الفتنة • هذه رواية الطبرى

لا ينتظر من محكمين توليا الحكم بكتاب تحكيم مبهم يشبه مضمونه لغزاً من الالغاز أو أحجية من الاحاجي أن يتكلما في مثل موضوعهما المشكل الا بمثل هذا الكلام الذي لا يشفي غليلا ولا يبرئ عليلا وأن تكون المقدمات التي تبنى عليها النتائج والمطالب فجة وليس بينها وبين بعضها ارتباط

من هذه المناقشة يفهم أن الرجلين قد اتفقا على خلع المتنازعين ، ولكنهما اختلفا فيمن يخلفهما ويكون أمره جامعا لكلمة المسلمين . واني لا أفهم ، ولا أظن أحداً يفهم على أي حكم من كتاب الله تعالى يستندان فيما اتفقا عليه ولا بأية سنة استمسكا وهما انما وليا على الحكم بمقتضى كتاب الله تعالى وسنة رسوله العادلة الجامعة غير المفرقة — فكان عليهما ان يعمدا الى مثل قوله تعالى « وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » الخ

ولما صار أمر الرجلين الى هذه النقطة قال عمرو لابي موسى خبرني ما رأيك ؟ فقال : رأيي أن نخلع هذين الرجلين ونجعل الامر شورى بين المسلمين فيختار المسلمون لانفسهم من أحبوا . فقال له عمرو : فان الرأي ما رأيت

كان عمرو قد أخذ أبا موسى من حين التقيا بدومة الجندل بأن يقدمه في الكلام وفي كل شيء فيقول له انك صاحب رسول الله ﷺ وأنت أسن مني . فتكلم وأتكلم . واعتزى عمرو من ذلك أن يقدمه عند الكلام على خلع علي ثم يكون هو على رأس أمره

ولما لم يبق إلا اعلام الناس بما اجتمع عليه رأيهما واتفقت عليه كلمتهما ، خرجا وتقدم أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أيها الناس انا قد نظرنا في أمر هذه الامة فلم نر اصلح لامرها ولا ألم لشعثها من امر قد أجمع عليه رأيي ورأي عمرو وهو أن نخلع علياً ومعاوية وتستقبل هذه الامة هذا الامر فيولوا عنهم من أحبوا عليهم واني قد خلعت علياً ومعاوية فاستقبلوا امركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الامر

أهلا » ثم تنحى ، وأقبل عمرو فقام مقامه فحمد الله وأثنى عليه ، وقال « ان هذا قال ماقد سمعتم وخلع صاحبه وأنا أخلع صاحبه كما خلعه وأثبت صاحبي معاوية فانه ولي عثمان والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه » فقال أبو موسى : مالك لاوفقك الله غدرت وفجرت . انما مثلك كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث فقال عمرو انما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا . وحمل بعض رجال علي على عمرو بالسوط ، وحمل بعض رجال معاوية عليهم بالسوط ثم تحاجز الفريقان . والتمس رجال الشام أبا موسى ، فاذا هو قد ركب راحلته وذهب الى مكة

وقد روى الطبري أن أبا موسى لما خرج ليتكلم قال ان رأيي ورأي عمرو قد اتفق على امر نرجو ان يصلح الله به هذه الامة . فقال عمرو : صدق وبر ، ياأبا موسى تقدم فتكلم . فقال ابن عباس لابي موسى ان عمراً رجل غادر ولا آمن أن يكون قد أعطاك الرضا فيما بينك وبينه فاذا قمت في الناس خالفك وكان ابو موسى رجلا مغفلا فقال : انا قد اتفقنا

ويروي المسعودي أنهما لم يحصل منهما خطبة وانما كتبا صحيفة فيها خلع علي ومعاوية وان المسلمين يولون عليهم من احبوا — قال الاستاذ الخضري : وهذا القول اقرب في نظرنا الى المعقول وان لهج كثير من المؤرخين بذكر الاول . لان هذه الخطبة على فرض حصولها وان الخديعة تمت على ابي موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئا لان الذي ثبته انما هو حكمه والذي يلزم الامة بمقتضى الصحيفة انما هو ما اجتمعا عليه لا ما رضي به احد الحكمين . ولم ينقل احد ان ابا موسى رضي في خطابه ببيعة معاوية . أقول وماذكره المرحوم الشيخ محمد الخضري بك حسن لو كان الامر جاريا فيما بين علي ومعاوية على مقتضي الحكمة ناهجا منهج المنطق الصحيح ، ولكننا نرى الامر من أوله الى آخره مشوشا غير منظم ولا مرتب ولا سائر في سبيل العقل ونهج الفطنة فليس بينهما وثيقة تحكيم واضحة المعالم ظاهرة

المناهج مبين فيها أن الخلافة محل الخلاف ومحال النزاع فينظرا في اثباتها أو القائها عن أحد الفريقين أو عنهما . ونقطة النزاع الكبري وهى التي كانت مفهومة بادى الرأى وهي الاقتصاص من قتلة عثمان قد اغفلت اغفالا شائنا سواء في صحيفة التحكيم ان كانت تصلح أن تسمى صحيفة أم في حكم الحكمين فلم يتداولا في هذا الشأن ولم ينقل ناقل انهما تفاوضا فيه أو أشارا اليه باستحسان أو استهجان . ثم اذا كانت هناك صحيفة فاين ذهبت ؟ - ولم لم تكن لهما محاضر في كل جلسة يثبت فيها كل محاورته للآخر وتحدد فيها نقط النزاع وما دار بشأن كل نقطة

ومن الوقت الذى جرى فيه عقد التحكيم وعين الحكمان يشعر الانسان بان هذا العمل لايؤدى الى نتيجة مفيدة . لان أبا موسى كما يظهر من ماضيه رجل يكره الفتن ويحب للمسلمين السلامة ، ويتمنى لو وصل الى مايريد من أي طريق يسلكه سوى اراقة الدماء وقد كان من المثبطين عن على والمخذلين عن نصره ومتابعته الكارهين لمسيره . وقرينه عمر وبن العاص يميل الى معاوية ويحب تأييده وتثبيت خلافته وهو مع ذلك رجل عرف الدنيا وجالس الملوك . وهو حُوّل قلب لايعيي بالامور ولاتكرثه المعضلات شهر من أول أيامه بسمة الحيلة العقلية وحسن الارتياد للامور يرى الخداع في طريق الوصول الى مايحب مما يزيد فى أبهته ويوكد نباهة شأنه . فلا يهمه شيء سوى الوصول الى مقصوده مهما استعمل في سبيل ذلك من الخدع . ومثل هذين لايتفقان

وما عجبت من شيء فان أمر أبي موسى أعجب . ذلك أنه كان ينهى الناس عن هذه الفتنة ويأمرهم باعتزالها حتى يتضح المنهج وتستقيم السنن وان هذه الفتنة النائم فيها خير من اليقظان الى آخر الحديث . فما باله قد غس يده فيها من حيث لايحتسب ؟ وأوقف نفسه فيها على ثنية عجز وأوقف المسلمين على سنن الاختلاف . ولولا رحمة من الله لمادت الفتنة جذعة وكان القوم أقرب الى التفانى والاستئصال

بفضل غفلته وسوء تقديره لنفسه ولخصمه ـ اما كان خيراً له أن يستعفي ويترك الامر لمن هو أكفأ منه ؟ لم يكن على ليرضى بهـذا الحكم الذي اعتقده يحق مخالفاً الكتاب والسنة اللذين عهد الى الحكمين أن يحكما بهما وقد رضي به معاوية طبعاً

وسخط الظباء بما نالها   تولد منه رضى الحابل

لان أقل مافى الحكم ان ليس لعلى امامة . وصار الامر للناس يولون من شاءوا وعنده جند عظيم يختارونه ولا يفضلون عليه أحدا فقويت آماله فى أن يكون خليفة المسلمين وسلم عليه عمرو وسائر جنده بالخلافة

رجع ابن عباس وشريح الى على وأوقناه على جلية ماتم . وهذا الامر لايرضيه كما قدمنا ، فكان اذا صلى صلاة الصبح يقنت فيقول : اللهم العن معاوية وعمرا وأبا الاعور وحبيبا وعبد الرحمن بن خالد والضحاك بن قيس والوليد

وانى بازاء هذا القنوت أقول ان عليا رحمه الله قد سن لخصومه أن يقابلوه بمثل عمله ويتخذوا من لعنه نوعا من العبادة فى اعقاب الصلوات فكان معاوية اذا قنت سب عليا وابن عباس والحسن والحسين والاشتر وصار ذلك سنة في بني أمية الى زمن عمر بن عبد العزيز ياخذون الناس به في اقطار بلاد الاسلام

ليس للمؤرخ امام ما كان من الفريقين ان يخطئهما فيما صنعا ويلومها فيما أتيا . وهذا عمر بن الخطاب قد وقع رجل امامه في الفرس فاظهر له النفور من قوله ، وقال له ان الفرس حكمت فعدلت وعمرت بلاد الله فهم لايستحقون ماتقول . أو كما قال . فاذا كان هـذا شأنه مع خصومه من الفرس فما بال أهل القبلة يتلاعبون ويأتون بما لايليق بامثالهم من الوقيعة في أهل دينهم ؟ على أن عليا قد مات واستمر بعده بنو أمية يسبونه في اعقاب الخطب ستين سنة

ويذكر ابن الاثير أن سعد بن أبي وقاص كان حاضراً يوم اعـلان الحكمين أمرهما فقال لابي موسى : ما أضعفـك عن عمرو ومكائده ! فقال أبو موسى : فما

أصنع ، وافقني على أمر ثم نزع عنه . فقال ابن عباس : لا ذنب لك يا أبا موسى الذنب لمن قدمك في هذا المقام . فقال : غدر فما أصنع ؟ فقال ابن عمر : انظروا الى ماصار اليه أمر هذه الامة ، صار الى رجل لا يبالي ما صنع ، والى آخر ضعيف.وابن الاثير يصحح ان معاوية حضر الحكمين وأنه قام عشية في الناس فقال أما بعـد من كان متكلما في هـذا الامر فليطلع لنا قرنه . قال ابن عمر : فأطلقت حبوتي فأردت أن أقول يتكلم فيه رجال قاتلوك وأباك على الاسلام فخشيت أن أقول كلمة تفرق الجماعة ويسفك فيها دم ، وكان ما وعد الله فيه الجنات أحب الي من ذلك . فلما انصرفت الى المنزل جاء الي حبيب بن مسلمة فقال : ما منعك أن تتكلم حين سمعت هـذا الرجل يتكلم ؟ قلت أردت ذلك ثم خشيت . فقال حبيب : وفقت وعصمت

وأحسب أن حبيباً لم يأت الى ابن عمر من تلقاء نفسه وانما دسه عليه معاوية حين بصر به يحل حبوته أو بلغه ذلك فأحب أن يعلم ما عنـده ويقف على ما كان مزمعاً أن يواجهه به

شأن الخوارج مع علي

رأى علي أنه لابد له من معاودة الكرة الى معاوية وأصحابه .ومعالجةدائهم ولكن صدفه عن ذلك عود الخوارج في حافرتهم واجفالهم عن علي وجماعته ، ذلك أنهم كانوا يظنون أن عليا قد وافقهم على كراهة التحكيم ورؤيته ضلالة . وجاءه انسان منهم فقال له : ان الناس تحدثوا عنك انك رجعت لهم عن كفرك . فخطب الناس في صلاة الظهر فذكر أمر الخوارج وعابه ، فثارت الخوارج في ناحية المسجد يقولون : لا حكم الا لله . فقال علي : الله أكبر كلمة حق يُلتمس بها باطل، اما ان لكم عندنا ثلاثاً ما صحبتمونا . لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ولا

عنكم الفيء ما دامت أيديكم مع أيدينا، ولا نقاتلكم حتى تبدؤنا

عند ذلك اجتمعت الخوارج في منزل عبد الله بن وهب الراسبي فخطبهم خطبة حثهم بها على الخروج وقال في خطابه: «فاخرجوا بنا من هذه القرية الظالم أهلها الى بعض كور هذه الجبال أو الى بعض هذه المدائن منكرين لهذه البدع المضلة. ثم أرادوا أن يولوا أمرهم رجلا فعرضوا الولاية على المتميزين فيهم. فكلهم يأباها. ثم عرضوها على عبد الله بن وهب فقال: هاتوها، أما والله لا آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها فرقا من الموت فبايعوه لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ ثم اتفقوا على أن يخرجوا وُحدانا مستخفين حتى يجتمعوا في جسر النهروان. وكتب عبد الله ابن وهب الى من بالبصرة منهم يعلمهم بما اجتمعوا عليه ويحثهم على اللحاق بهم فأجابوه. ولما عزموا تعبدوا ليلتهم ويومهم وساروا يوم السبت فخرج شريح بن أوفى العبسي وهو يتلو «فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجني من القوم الظالمين. ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل»

ولما خرجت الخوارج جاءت الى علي شيعته ومن بقي على ولائه فبايعوه وقالوا نحن أولياء من واليت وأعداء من عاديت

وبعد ان خرج القوم وعلم علي بما كان من أبي موسى وعمرو بن العاص في شأن التحكيم خطب أهل الكوفة فقال:

الحمد لله وان أتى الدهر بالخطب الفادح والحدثان الجليل. وأشهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله. أما بعد: فان المعصية تورث الحسرة وتعقب الندم. وقد كنت أمرتكم في هذين الرجلين وفي هذه الحكومة أمري ونخلتكم رأيي لو كان لقصير أمر، ولكن أبيتم الا ما أردتم فكنت أنا وأنتم، كما قال أخو هوازن:

أمرتهمُ أمري بمنعرج اللوى فلم يستبينوا الرشدَ الا ضحى الغد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى مكانَ الهدى أو انني غير مهتد

وهل انا الا من غزيّة ان غوتْ غويتُ وان ترشد غزية ارشد

ألا أن هذين الرجلين اللذين اخترتموهما حكمين قد نبذا القرآن وراء ظهورهما وأحييا ما أمات القرآن واتبع كل منهما هواه بغير هدى من الله فحكما بغير حجة بينة ولا سنة ماضية واختلفا فى حكمهما وكلاهما لم يرشد فبرىء الله منهما ورسوله وصالح المؤمنين . استعدوا وتأهبوا للمسير الى الشام واصبحوا في معسكركم إن شاء الله

وكتب الى الخوارج بالشخوص معه لحرب أهل الشام . وانما أطمعه في ذلك منهم أنهم كانوا كارهين للتحكيم زارين على علي الرضاء به . فما كان جوابهم الا أن كتبوا اليه :

« أما بعد . فانك لم تغضب لربك وانما غضبت لنفسك . فان شهدت على نفسك بالكفر واستقبلت التوبة نظرنا فيما بيننا وبينك والا فقد نابذناك على سواء ان الله لا يحب الخائنين »

قرأ علي كتاب هؤلاء القوم فأيس من خيرهم واعتزم على القاء حبلهم على غاربهم وأن يسير الى الشام فخرج حتى عسكر بالنخيلة ومن هناك كتب الى ابن عباس أن يستنفر أهل البصرة ويوجه اليه بالجند فقام فيهم ابن عباس بأمر علي فلم يقم منهم سوى الف وخمسمائة مع الاحنف بن قيس واثاقلوا فخطبهم ابن عباس وحثهم وشدد في خروج من بقي منهم مع جارية بن قدامة فلم يخرج معه سوى الف وسبعمائة . وكان ديوان أهل البصرة يحوي ستين الف مقاتل سوى أبنائهم وعبدانهم ومواليهم . ولم يزل علي بالنخيلة حتى أتاه جيش البصرة ثلاثة آلاف ومئتا رجل رأى علي ذلك فجمع رؤساء الاسباع ووجهاء القبائل من أهل الكوفة وحثهم ورغبهم وأراهم قلة أهل البصرة وتثاقلهم وقال : فأعينوني بمناصحة جلية خالية من الغش وأمرهم أن يكتبوا المقاتلة وأبناء المقاتلة الذين أدركوا القتال والعبدان والموالي

فرفعوا اليه ذلك فكانوا أربعين الف مقاتل وسبعة عشر الفاً من الابناء وثمانية آلاف من مواليهم وعبيدهم . وكان جميع من معه ثمانية وستين الفا

بعد أن تم حشد علي من البصرة والكوفة والمدائن وغيرها على ما وصفنا سمع أن بعض الجند يقولون لو سار بنا الى هذه الحرورية فبدأنا بهم (يريدون الخوارج) فاذا فرغنا منهم توجهنا الى الشام . فقام فيهم خطيباً وبين لهم أن قتال أهل الشام أهم. فتنادى الناس يقولون : يا أمير المؤمنين سر بنا الى ما احببت

كان أمر الخوارج عجبا فانهم كانوا يظهرون بمظهر العبَّاد الزهاد الذين لا يرون نصبا في ذات الله ويتورعون عن تافه الاشياء وما يعد الورع فيه باردا ويتحرجون من ذلك أشد تحرج ثم يأتون أفظع المنكرات وأكبر الكبائر كأنهم لا يدينون بالله ولا يعرفون عدلا ولا شفقة ولا رحمة ، فهم كما يقول المثل العامي «يفتون على الابرة ويبلعون المدرة» وهم في كل عملهم لا يعجزون عن الاتيان بالآيات من الكتاب يستدلون بها على تبرير عملهم

وكم من فقيه خابط في ضلالة وحجته فيها الكتاب المنزل

دخل القوم قرية فخرج منها عبد الله بن خباب بن الارت ومعه امرأته حاملا . فقالوا له : أفزعت ؟ فقال : والله لقد أفزعتموني . فقالوا : لا روع عليك ، وسألوه من هو ؟ فقالوا : حدثنا عن أبيك عن رسول الله . فحدثهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان فتنة تكون يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه يمسى فيها مؤمنا ويصبح فيها كافرا ويصبح فيها كافرا ويمسى فيها مؤمنا » فقالوا: لهذا الحديث سألناك ، فما تقول في أبي بكر ؟ فأثنى عليه وفي عمر فأثنى عليه وفى عثمان في أول خلافته وآخرها فقال :انه كان محقا في أولها وآخرها .وسألوه عن علي قبل التحكيم وبعده فقال : هو أعلم بالله منكم وأشد توقيا لدينه وأنفذ بصيرة (وكان عبد الله بن خباب رأى أحدهم وقد سقطت رطبة من نخلة فألقاها في فيه فأنكروا عليه ان يكون قد أكلها بغير ثمن وبغير اذن صاحبها . وقتل أحدهم خنزيراً فأنكروا عليه لانه اتلاف لمال أهل

الذمة) فقالوا له : والله انك لتشهد بالهوى وتفضل الرجال على أسمائها لا على أفعالها والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها أحداً قط . فأتوا به فذبحوه وبقروا بطن امرأته عن حملها وكانت متماً وقتلوا ثلاث نسوة من طيء وأم سنان الصيداوية فبلغ ذلك علياً فأرسل رسولا ليعلم جلية الخبر عنهم فقتلوه . ولما جاء الخبر بذلك قال له أصحابه يا أمير المؤمنين علام تدع هؤلاء وراءنا يخلفوننا في أموالنا وعيالنا ؟ سر بنا الى القوم فاذا فرغنا مما بيننا وبينهم سرنا الى عدونا من أهل الشام . فلم يجد علي بداً من موافقتهم على مناجزة الخوارج أولا

سار الى الخوارج . فلما لقيهم أرسل اليهم ان ادفعوا الينا قتلة اخواننا منكم نقتلهم بهم ثم أنا تارككم وكافٌ عنكم حتى ألقى أهل الشام فلعل الله يقلب قلوبكم ويردكم الى خير مما أنتم عليه من أمركم . فبعثوا اليه : كلنا قتلهم وكلنا نستحل دماءهم ودماءكم . وقد أعذر اليهم عليٌّ جهده وأبلغ في الموعظة والتحذير في خطب رنانة خطبها فيهم فجعلوا أصابعهم في آذانهم وأصروا واستكبروا استكبارا - ثم رفع راية مع أبي أيوب الانصاري ونادى : من جاء هذه الراية منكم ممن لم يقتل ولم يستعرض فهو آمن ومن انصرف الى الكوفة أو الى المدائن وخرج من هذه الجماعة فهو آمن . انه لا حاجة لنا بعد ان نصيب قتلة اخواننا منكم في سفك دمائكم . فانصرف منهم جمع وآوى الى علي جمع وبقي ابن وهب في ٢٨٠٠ من أربعة آلاف فقامت رحى الحرب بين الفريقين وانتهت الموقعة في ذلك اليوم بقتل ابن وهب ومعظم من معه ووجدوا من جرحاهم نحواً من أربعمائة فأمر بهم علي فدفعوا الى عشائرهم : وقال احملوهم معكم فاذا برءوا فخذوهم معكم الى الكوفة . ويقول ابن الاثير : انهم قتلوا في وقت قصير كانما قيل لهم موتوا فماتوا . وكان علي يحدث أصحابه بمن يخرجون وعلامتهم رجل مخدج فالتمس فوجد فيهم

تخاذل شيعة علي

لما رأى علي أنه رتق الفتق من ناحية الخوارج وأراح الناس من شغبهم أراد ان ينهض الى الشام . فقام في أصحابه فقال :

ان الله قد أحسن بكم وأعز نصركم فتوجهوا من فوركم هذا الى عدو في جهاده القربة الى الله ودرك الوسيلة عنده . حيارى في الحق جفاة عن الكتاب نكب عن الدين يعمهون في الطغيان ويعكسون في غمر الضلال فأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل وتوكلوا على الله وكفى بالله وكيلا وكفى بالله نصيرا فقالوا :

يا أمير المؤمنين نفدت نبالنا وكلت سيوفنا ونصلت أسنة رماحنا وعاد أكثرها قصدا فارجع الى مصرنا فلنستعد بأحسن عدتنا ولعل أمير المؤمنين يزيد في عدتنا عدة من هلك منا فانه أوفى لنا على عدونا . وكان الذي تولى ذلك الكلام الاشعث ابن قيس — وهو من أكره الناس للحرب — واني لا أدري لم يخرج الكاره للحرب مع المستعدين لها ومثل هذا لا يكون له عمل سوى التثبيط والتخذيل وقد كان هذا الرجل كذلك من يوم الجمل

سمع علي هذا الكلام وأشفق ان يستكره الناس على النهوض من فورهم فرجع الى النخيلة وعسكر بها وأمر الناس ان يلزموا عسكرهم وان يوطنوا على الجهاد أنفسهم وأن يقلوا زيارة نسائهم وأبنائهم حتى يسيروا الى عدوهم . فأقاموا في معسكرهم أياما ثم تسللوا من معسكرهم فدخلوا مدينتهم الا رجالا من وجوه الناس قليلا وتُرك المعسكر خاليا . فلما رأى علي ذلك دخل الكوفة وانكسر عليه رأيه وتركهم أياما حتى اذا أيس من ان يفعلوا دعا رؤساءهم ووجوههم فسألهم عن رأيهم وما الذي ينظرهم ؟ فمنهم المعتل ومنهم المكره وأقلهم من نشط . فقام فيهم خطيبا فقال : « عباد الله مالكم اذا أمرتكم ان تنفروا اثاقلتم الى الارض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة وبالذل والهوان من العز وكلما ندبتكم الى الجهاد دارت أعينكم

كأنكم من الموت في سكرة ، وكأن قلوبكم مألوسة فأنتم لا تعقلون ، وكأن أبصاركم كمه فأنتم لا تبصرون . لله أنتم ! ما أنتم الا أسود الشرى في الدعة وثعالب رواغة حين تدعون الى البأس . ما أنتم لي بثقة سجيس الليالي ما أنتم بركب يصال بكم ولا ذوي عز يعتصم اليه لعمر الله لبئس حُشاش الحرب أنتم انكم تُكادون ولا تكيدون وتنتقص أطرافكم ولا تتحاشون ولا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون » ثم بين لهم حقوقهم عليه وحقوقه عليهم واستحثهم فكان كأنما ينفخ في غير ضرم

لم يزل علي في القوم يغاديهم بالخطب الطنانة ويراوحهم بالقول الجزل ويثير حميتهم ويستفز نخوتهم . فلم يزدهم ذلك الا اعراضاً عن الحرب ونفارا منها وما تغني الاقوال والخطب عن قوم توزعتهم الاهواء وتفرقت بهم السبل يشهدون بقلوب غائبة وأفئدة شاردة والباب طائرة ، قد تراخت أسباب طاعتهم وضعف سلطان امامهم في انفسهم قد استمرأوا مرعى الدعة وآثروا السلامة .وأصبح علي لا يدري لهم طاعة ولا يعرف لهم عصيانا فهو من أمرهم في داج من الشك ومظلم من الريب

شأن معاوية ومحمد بن أبي بكر

لما عزل علي قيس بن سعد عن مصر بكيد معاوية وخُرق رأي المشيرين على علي وولى محمد بن أبي بكر على مصر جاء اليها ولم يلبث شهراً من مَقدمه حتى كتب الى المعتزلين بخربتا يخيرهم بين الدخول في طاعته والخروج من مصر . فأجابوه : انالا نفعل دعنا حتى تنظر ما تصير اليه أمورنا ولا تعجل بحربنا فأبي عليهم فامتنعوا وحذروا أشد الحذر

كان قيس بن سعد ـ لما علم بشخوص محمد بن أبي بكر أميراً على مصر ـ تلقاه وناجاه فقال : انك جئت من عند امرىء لا رأي له وليس عزلكم اياي بمانعي أن أنصح لكم وأنا من أمركم هذا على بصيرة ، واني في ذلك على الذي كنت

أكايد به معاوية وعمراً وأهـل خربتا فكايدهم به فانك ان تكايدهم بغيره تهلك ووصف له ما يأتي وما يدع من أمره . فاستغشه محمـد بن أبي بكر وخالف كل شيء أمره به وخرج لحرب أهل خربتا فقاتلوه وهزموه ولم يحل منهم بطائل

علم معاوية بما كان بين محمد بن أبي بكر والمعتزلة بمصر فسره ذلك . وقام معاوية بن حديج السكوني الكندي يطالب بدم عثمان فأجابه ناس آخرون وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر وعلم علي بالامر في أثناء هدنة الحكومة فأهمـه ذلك وقال : ان مصر لا يصلح لها الا أحد رجلين هذا الذي عزلناه والاشتر . وكان الاشتر بالجزيرة عاملا لعلي فأرسل اليه بأن مصر قد انتقضت على محمد بن أبي بكر وهو غلام حدث ليس عنده تجربة ولا علم بالامور فاستخلف على عملك أهل الثقة ممن معك واحضر الي . فلما جاء اليـه ولاه أمر مصر وقال له : أخرج رحمك الله فاني لو لم أوصك اكتفيت برأيك واستعن بالله على ما أهمك فاخلط الشدة باللين وارفق ما كان الرفق أبلغ واعتزم بالشدة حين لا يغني عنك الا الشدة . فخرج الاشتر وتهيأ للرحلة الى مصر وأتت معاوية عيونه فأخبر بولاية الاشتر على مصر فعظم عليه ذلك . وبعث الى الجايستار - وهو رجل من أهل الخراج - فقال له ان الاشتر ولي مصر فان أنت كفيتنيه لم آخذ منك خراجاً ما بقيت . فأتى ذلك الدهقان حتى نزل القلزم فلما انتهى الاشتر اليها استقبله الرجل وقال : أنا رجل من أهل الخراج ، وهذا منزل وهذا طعام وعلف فنزل الاشتر . فلما طعم جاءه بشربة عسل فيها سم فشرب به الاشتر فمات - وكان معاوية حين علم بفصول الاشتر يقول لاهل الشام ان الاشتر قد ولي مصر فادعوا الله أن يكفيكموه فكانوا يدعون على الاشتر بكرة وعشيا . الى أن جاء الجايستار وأنباه بهلك الاشتر فقام معاوية فقال : أما بعد فان علي بن أبي طالب كانت له يمينان قُطعت احداهما يوم صفين (يعني عماراً) وقد قُطعت الاخرى اليوم (يعني الاشتر) . وقد روي عنه انه قال حين علم بموت الاشتر : « ان لله

جنوداً من عسل »

أما محمد بن أبي بكر فساءه من علي أن يعزله عن مصر ، فبلغ علياً مهلك الاشتر وموجدة محمد بن أبي بكر فكتب اليه « أما بعد فقد بلغني موجدتك من تسريحي الاشتر الى عملك . واني لم أفعل ذلك استبطاء لك في الجهاد ولا ازدياداً مني لك في الجد ولو نزعت ما تحت يدك من سلطانك لوليتك ماهو أيسر عليك في المؤنة وأعجب اليك ولاية منه . ان الرجل الذي كنت وليته مصر كان لنا نصيحاً وعلى عدونا شديداً وقد استكمل أيامه ولاقى حمامه ونحن عنه راضون فرضي الله عنه وضاعف له الثواب وأحسن له المآب . اصبر لعدوك وشمر للحرب وادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وأكثر ذكر الله والاستعانة به والخوف منه يكفك ما أهمك ويعنك على ماولاك . أعاننا الله واياك على ما لا ينال الا برحمته » فكتب اليه محمد بن أبي بكر « أما بعد فقد انتهى الي كتاب أمير المؤمنين ففهمته وعرفت ما فيه وليس أحد من الناس بأرضى مني لرأي أمير المؤمنين ولا أجهد على عدوه ولا أرأف بوليه مني . وقد خرجت فعسكرت وآمنت الناس الا من نصب لنا حرباً وأظهر لنا خلافاً وأنا متبع أمر أمير المؤمنين وحافظه وملتجىء اليه وقائم به والله المستعان على كل حال والسلام عليك »

لما انصرف أهل الشام من صفين كانوا ينتظرون ما يأتي به الحكمان فلما انتهى أمرهما ، بايع أهل الشام معاوية بالخلافة فزاده ذلك توثقاً في أمره وقوة الى قوته . واختلف أهل العراق على علي وقعدوا عن أمره فتضاعف عليه اضطراب شؤونه ووهى جانب سلطانه . ولم يكن لمعاوية هم الا مصر ، وكان لاهلها هائبا يخشى أن يتسق لعلي الامر فيها وان يستظهر علي بهم على حربه ، مع قربهم وشدتهم على من كان على رأي عثمان . وكان قد علم ان بها قوما ساءهم قتل عثمان وخالفوا عليا ، فرجا أن يشدوا ساعده حتى اذا انقادت له أمور مصر بأزمتها استظهر بأهلها

على حرب علي لعظم خراجها . فدعا معاوية من كان معه من قريش : عمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وبُسر بن أبي أرطاة والضحاك بن قيس وعبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، ومن غيرهم أبا الاعور السلمي وحمزة بن مالك الهمداني وشرحبيل ابن السمط الكندي . فقال لهم : أتدرون لم دعوتكم ؟ انى قد دعوتكم لامر مهم أحب أن يكون الله قد أعان عليه . فقال قائلهم : ان الله لم يطلع على الغيب أحداً ، وما يدرينا ما تريد ؟ فقال عمرو : أرى والله أمر هذه البلاد الكثير خراجها والكثير عَدَدها والكثير عددأهلها أهمك أمرها فدعوتنا تسألنا عن رأينا في ذلك ، فان كنتَ لذلك جمعتنا فاعزم وأقدم ونعم الرأي رأيت ففي افتتاحها عزك وعز أصحابك وكبت عدوك وذل أهل الخلاف عليك . فقال معاوية لعمرو : أهمك ما أهمك . يريد بذلك ان هذا الامر أهم عمراً لانه قد جعل له مصر طعمة طول حياته في مقابلة معاونته له ومؤازرته على أمره وما شجر بينه و بين علي . ثم قال : ان هذا قد ظن ثم حقق ظنه . فقالوا ولكننا لاندري . فقال ان أبا عبد الله قد أصاب ثم قال : أما بعد فقد رأيتم كيف صنع الله بكم في حربكم عدوكم . جاؤكم وهم لايرون الا أنهم سيقيضون بيضتكم ويخربون بلادكم ما كانوا يرون الا أنكم في أيديهم . فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيرا مما أحبوا وحاكمناهم الى الله فحكم لنا عليهم . ثم جمع لنا كلمتنا ، وأصلح ذات بيننا ، وجعلهم أعداء متفرقين يشهد بعضهم على بعض بالكفر و يسفك بعضهم دم بعض ، والله انى لارجو ان يتم لنا هذا الامر . وقد رأيت أن نحاول أهل مصر ، فكيف ترون ارتئاءنا لها ؟ فقال عمرو قد أخبرتك عما سألتنى عنه وقد أشرت عليك بما سمعت . فقال معاوية : ان عمرا قد عزم وجزم ولم يفسر فكيف لى أن أصنع ؟ فقال : اني أشير عليك كيف تصنع : أرى أن تبعث جيشا كثيفا عليهم رجل حازم صارم تأمنه وتثق به . فيأتي مصر حتى يدخلها فانه سيأتيه من كان من أهلها على رأينا فيظاهره على من بها من عدونا .

فاذا اجتمع بها جندك ومن بها من شيعتك على من بها من أهل حربك رجوت أن يمين الله بنصرك ويظهر فلجك . فقال معاوية فهل عندك سوى هذا ؟ فقال لا . فقال معاوية أرى أن نكتب الى من هم من أهل صلحنا وعلى مثل رأينا فنثبتهم ونقويهم ونمنيهم مجيئنا اليهم . والى أهل عداوتنا فندعوهم الى صلحنا ونمنيهم شكرنا ونخوفهم حربنا . فان صلح لنا قيامهم بغير قتال فذاك ما أحببنا والا كان حربهم من وراء ذلك كله . انك يا ابن العاص امرؤ بورك لك في العجلة وانا امرؤ بورك لي في التؤدة . فقال : افعل ما رأيت فاني أرى والله أن أمرك وأمرهم يصير الى الحرب العوان .

فكتب معاوية الى مسلمة بن مخلد الانصاري والى معاوية بن حديج الكندي وكانا قد خالفا علياً : « أما بعد فان الله قد بعثكما لامر عظيم أعظم به أجركما ورفع به ذكركما وزينكما به في المسلمين طلبكما بدم الخليفة المظلوم وغضبكما لله اذ ترك حكم الكتاب وجاهدتما أهل البغي والعدوان ، فأبشرا برضوان الله وعاجل نصر أولياء الله والمواساة لكما في الدنيا وسلطاننا حتى ينتهى في ذلك ما يرضيكما ونؤدي به حقكما الى ما يصير أمركما اليه فاصبرا وصابرا عدوكما وادعوا المدبر الى هداكما وحفظكما فكأن الجيش قد أطل عليكما فانقشع كل ما تكرهان وكان كل ما تهويان . والسلام عليكما »

فلما جاء الكتاب ، كتب اليه مسلمة عن نفسه وعن معاوية بن حديج « أما بعد فان هذا الامر الذي بذلنا له أنفسنا واتبعنا أمر الله فيه أمر نرجو به ثواب ربنا والنصر ممن خالفنا وتعجيل النقمة لمن سعى على امامنا وطأطأ الركض في جهادنا ونحن بهذا الحيز من الارض قد نفينا من كان به من أهل البغي وأنهضنا من كان به من أهل القسط والعدل . وقد ذكرت المواساة في سلطانك ودنياك وبالله ما ذلك الامر الذي له نهضنا ولا اياه أردنا فان يجمع الله لنا ما نطلب ويؤتنا ما تمنينا فان الدنيا والآخرة لله رب العالمين وقد يؤتيهما الله معا عالما من خلقه كما قال في كتابه

ولا خلف لموعوده « فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » عجل علينا خيلك ورجلك فان عدونا قد كان علينا حربا وكنا فيهم قليلا فقد أصبحوا لنا هائبين وأصبحنا لهم مقرنين فان يؤتنا الله بمدد من قبلك يفتح الله عليكم ، ولا حول ولا قوة الا بالله ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . والسلام عليك »

جاء هذا الكتاب الى معاوية فقال لعمرو تجهز يا أبا عبد الله وبعثه في ستة آلاف ، وأوصاه بالاعذار الى المخالفين والتأني والرفق والقبول ممن أقبل والعفو عمن أدبر وان لا يبطش بمكابر الا بعد الاعذار اليه . فلما كان عمرو بأدني أرض مصر اجتمعت اليه العثمانية وكتب عمرو الى محمد بن أبي بكر :

« اما بعد فتنحَّ عنى بدمك ياابن أبي بكر : فانى لا أحب ان يصيبك منى ظفر . ان الناس بهذه البلاد قد اجتمعوا على خلافك ورفض امرك وندموا على اتباعك . فهم مسلموك لو قد التقت حلقتا البطان فاخرج منها فانى لك من الناصحين »

وأرسل اليه معه بكتاب كان معاوية كتبه الى محمد بن أبي بكر صورته « أما بعد فان غب البغي والظلم عظيم الوبال وان سفك الدم الحرام لايسلم صاحبه من النقمة في الدنيا ، ومن التبعة الموبقة في الآخرة . وانا لانعلم احداً كان أعظم على عثمان بغياً ولا أسوأ له عيبا ولا أشد عليه خلافا منك : سعيت عليه في الساعين وسفكت دمه في السافكين ثم أنت تظن أنى عنك نائم أو ناس لك حتى تأتي فتأمر على بلاد انت فيها جاري وجل أهلها انصارى يرون رأيي ويرقبون قولى ويستصرخوني عليك . وقد بعثت اليك قوما حناقا عليك يستسقون دمك ويتقربون إلى الله بجهادك وقد اعطوا الله عهدا ليمثلن بك ولو لم يكن منهم اليك سوى قتلك ما حذرتك ولا انذرتك ولأحببت أن يقتلوك بظلمك وقطيعتك وعَدْوك على عثمان يوم يُطعن بمشاقصك بين خُششائه وأوداجه . ولكن اكره ان يمثل بقرشي ولن

يسلمك الله من القصاص أبدا اينما كنت والسلام »

فلما جاء الى محمد كتاباهما أرسلها إلى علي وكتب معهما « أما بعد فان ابن العاص قد نزل اداني مصر ، واجتمع اليه أهل البلد جلهم ممن كان يرى رأيهم ، وقد جاء في جيش لجب خراب . وقد رأيت ممن قبلي بعض الفشل ، فان كان لك في أرض مصر حاجة فامددني بالرجال والاموال . والسلام »

فكتب اليه علي يهون عليه أمر ابن العاص ، وأن خروج من خرج اليه انما هو في مصلحته . وأمره ان لا يفشل وان فشل من قبله وان يحصن القرية ويضم اليه شيعته ويقاتلهم بجهده ، ووعده امداده بالرجال سريعا . ونال من معاوية وعمرو ما شاء أن ينال . وأمره أن يجيبهما عن كتابهما ان كان لم يجبهما ، وان يندب اليه كنانة بن بشر

اما محمد بن ابي بكر فكتب الى معاوية « اما بعد فقد اتاني كتابك تذكرني من امر عثمان امرا لا اعتذر اليك منه وتأمرني التنحي عنك كانك لي ناصح وتخوفني المثلة كانك شفيق . وانا ارجو ان تكون لي الدائرة عليكم فاجتاحكم في الوقعة وان تؤتوا النصر ويكن لكم الامر في الدنيا فكم لعمري من ظالم قد نصرتم وكم من مؤمن قد قتلتم ومثلتم به والى الله مصيركم ومصيرهم والى الله مرد الامور وهو أرحم الراحمين وهو المستعان على ما تصفون » وكتب الى عمرو بن العاص : «زعمت انك تكره ان يصيبني منك ظفر واشهد انك من المبطلين . وتزعم انك لي نصيح واقسم انك عندي ظنين . وتزعم ان اهل البلد قد رفضوا رأيي وامري وندموا على اتباعي فأولئك لك وللشيطان الرجيم اولياء . . . » وقام محمد بن ابي بكر في الناس يستجيشهم ويؤلبهم ويبعث فيهم الحماسة ويهزهم بالقول . فنفر منهم الفان معه ومثلهم مع كنانه بن بشر واستقبل عمرو بن العاص ومن معه وتقدم اليه

كنانه بن بشر وكان عمرو قدسرح جيشه كتائب فصار كنانه يضرب في هذه الكتائب ويردها الى عمرو حتى قرب منه فاستدعى معاوية بن حديج السكوني فجاءه في مثل الدهم فاحاطوا بكنانة بن بشر ومن معه وعطفت عليه اهل الشام فقاتلهم ابن بشر ومن معه حتى قتل . ثم جاء عمرو الى محمد بن ابي بكر وقد تفرق عنه اكثر من معه لما بلغهم ما حل بابن بشر ومن معه واستمروا في التفرق حتى لم يبق معه احد فخرج يمشي في الطريق حتى انتهى الى خربة فدخل فيها ودل عليه بعض القبط وهم لا يعرفونه فدخل عليه معاوية بن حديج في اصحابه فاخرجوه وقد كاد يموت عطشا وقام عبد الرحمن بن ابي بكر وهو في جند عمرو وقال اتقتلون اخي فأرسل عمرو الى معاوية بن حديج أن يأتي به الى الفسطاط حيا . فقال أ كذلكم قتلتم كنانة بن بشر وابقي انا محمد بن ابي بكر ؟ ا كفاركم خير من أولئكم ؟ فطلب محمد ان يسقوه فقال لاسقاه الله شربة ماء ان سقاك قطرة ماء منعتم عثمان الماء وقتلتموه صائما محرما حتى تلقاه الله بالرحيق المختوم ، والله لأقتلنك يا ابن ابي بكر ويسقيك الله الحميم والغساق ونال كل منهما من الآخر وانتهى الامر بان قتله وادخله جيفة حمار ثم احرقه . ولما بلغ ذلك عائشة جزعت عليه وقنتت على معاوية وعمرو دبر كل صلاة وضمت عيال محمد اليها

اما علي فلم يوفق لاخراج الجنود لاغاثة محمد بن ابي بكر الا بعد شدة . وقد انتدب له الفان ولم يسيروا قليلا حتى جاء الخبر بقتل محمد بن ابي بكر ووقوع مصر في يد معاوية . فارسل الى القوم من ردهم من الطريق وحزن على محمد بن أبي بكر حزنا كثيرا . ولم يجد عليا ماصاغ من الخطب وصنف من القول في الاستنهاض . وقد سر معاوية واهل الشام بما كان سرورا عظيما

كانت مصر لمعاوية قوة كبيرة ، ولم يقنع بالاستيلاء عليها ، بل عمد الى تجهيز الجيوش الى اطراف علي ينتقصها : فارسل النعمان بن بشير الى عين التمر وبها

مالك بن كعب مسلحة لعلي ففزع الى علي يستمده لكفاح المغيرين فامر الناس بالمحاق واستنهضهم فتثاقلوا فقام علي فيهم بهذه الخطبة (يا أهل الكوفة كلما سمعتم بِمَنْسِر من مناسر أهل الشام اظلكم انجحر كل امرىء منكم في بيته وأغلق بابه انجحار الضبع في وِجَارِها . المغرور من غررتموه . ولمن فاز منكم فاز بالسهم الاخيب. لا احرار عند النداء ولا اخوان ثقة عند النجاء انا لله وانا اليه راجعون ما ذا منيت بكم . عمي لا تبصرون وبكم لا تنطقون وصم لا تسمعون انا لله وانا اليه راجعون

وقد وجه معاوية أيضاً سفيان بن عوف في ستة آلاف للاغارة على هيت والانبار والمدائن فسار حتى أتى هيت فلم يجد بها أحدا ثم أتى الانبار وبها مسلحة لعلي فقتلهم على أمرهم واحتملوا ما بها من الاموال وعادوا الى معاوية

ووجه عبد الله بن مسعدة الى تيماء وأمره أن يصدّق من مر به من أهل البوادي وأن يقتل من امتنع ثم يأتي مكة والمدينة . فوجه اليه علي جيشاً يقدمه المسيب ابن نجبة الفزاري فلقي ابن مسعدة بتيماء فاقتتلوا قتالا شديداً وانتهى الامر بان سهل لهم المسيب طريق الفرار ولم يلحقهم فاتهم بالغش

ووجه معاوية الضحاك بن قيس للاغارة على بوادي البصرة فأغار عليها

ووجه بسر بن أبي أرطاة في ثلاثة آلاف الى الحجاز واليمن فسار حتى أتى المدينة وملكها وبايع أهلها لمعاوية ثم أتى مكة فبايع أهلها كذلك ، ثم قدم حتى أتى اليمن وعليها عبيد الله بن عباس والياً لعلي ، فلما علم بمقدم بسر بن أرطاة فرَّ الى الكوفة واستخلف على صنعاء فجاء بسر واستولى على اليمن وقتل ابنين صغيرين لعبيد الله بن عباس قالوا انه ذبحهما وقد جنت امهما لمصابهما وهوله ، ورُئيت وهي بالاسواق تنشدهما وتقول :

يا من أحس بابنيّ اللذين هما كدرَّتين تشظى عنهما الصدفُ

وكان بُسر مسرفا في القتل لشيعة على ، سفاكا للدماء ، فقد قتل كثيرا من المسلمين في وجهه هذا وهدم دورا كثيرة في مكة والمدينة وقد وجه اليه عليّ جارية ابن قدامة في الفين ووهب بن مسعود في الفين فخاف منهما وهرب حتى أتى مكة وقد قتل علي في تلك الاثناء وحملهم جارية بن قدامة على بيعة الحسن وكذلك أهل المدينة

على هذا النمط كانت الاحوال : معاوية يتسق له الامر ويضخم ملكه ويزداد قوة الى قوته وتؤاتيه الاقدار ويرافقه التوفيق ، وعلي تضطرب عليه الاحوال وتتعذر السبل وتنتقص أطرافه وتقتل شيعته وأهل طاعته وتلتوي عليه الامور .حتى ان اكثر المؤرخين يذكرون ان عبد الله بن عباس قدفارق علياً الى مكة . لان عليا سمع فيه الوشايات وقبل عليه السعايات من الساعين اليه بأنه احتجن الاموال دونه وخان في مال بيت المال . وقد روى الطبري أن الساعي بذلك أبو الاسود الدؤلى وكان ابن عباس عابه فأصغى علي الى قوله ، فاحتمل ابن عباس ثَقَلَهُ وما كان معه من مال ولحق بمكة في جوار أخواله من بنى هلال . وذلك تقدير العزيز العليم

جواب سؤال

يعتلج فى نفسي سؤال كلما استعرضتُ الاحوال التي كانت في اخريات زمان عثمان وفي مدة علي وما بعدها وهو : لم اختص أهل المصرين البصرة والكوفة بقيام الخوارج دون الشام ومصر . ولم كان اهلوها بهذه الاخلاق من النزوع عن الطاعة و الخلاف لامر الامام ؟

هذا السؤال مهم جدا وجوابه أهم ويحتاج الى الافاضة والشرح في البحث والتنقيب عن غوامض كثيرة وربط الاسباب بمسبباتها . غير أنى اجتزيء بأن اقول كلمة موجزة تكون بمنزلة الاشارة ، وأعتمد على ذهن القارىء في الا كتفاء بهذا الاجمال

يقول علماء الاخلاق وأهل البصر بعلم الاجتماع ان ماضي الامة لا يموت ابدا ولكنه يكون حيا فيها وفي أعقابها ، وان الروح العامة للاحياء من الامة انما هي مؤلفة من أفكار الاموات . ومعلوم أن المسلمين قد غلبوا على الفرس واحتووا أموالهم ونساءهم وذراريهم ، واتخذوا النساء الفارسيات زوجات وأولدوهن أكثر أولادهم فى تلك النواحي . فنشأت نابتة تلك الاقطار بين آباء وامهات من جنسين متباينين في المدنية والاخلاق والآداب والعادات والمعتقدات ومن دمين مختلفين يحمل كل منها صفات متنافرة وعقائد متضاربة . ومثل هذا النسل تتفكك فيه أواصر الروح الوراثي وتوجد فيه أفكار متناقضة كل منها يجذب قواه الى ناحيته . ومعلوم أن الفرس قد اعتنقوا أديانا مختلفة واصطبغوا بصبغات متنافرة فهم قوم يجمعون بين الصابئية والمجوسية والاباحية . ولهم ولوع باختلاق الاساليب الدينية التى يمثلها خيالهم ولم يكن لهم ثبات على دين خاص أو نحلة معينة بل كانوا في جميع أدوار حياتهم متأثرين بعوامل الجذب والدفع بين النحل

والأديان . فلما نشأ هذا الجيل المولد بين العرب والفرس نشأ مختلط المزاج سريع التأثر بالعقائد . يلبس لباس الدين والتقوى التى ورثها من الآباء ولكنه يريد أن يجذب هذا اللباس ويوسع فيه حتى يحيط بكل ما انتقل اليه بطريق الوراثة من الاهواء المضلة التى يعجز عن التخلي عنها ولا يقدر على مفارقتها . وليس الدين عنده ديناً ان لم يتسع له ولما حمله بالوراثة من النزعات والنزغات وليس في وسعه أن يقاوم تلك العوامل الداخلية التي تدفعه الى العمل على هذا النحو فهو يأتى مايأتي باعتقاد قوي وفكرة لا شك فيها أنه على حق ليس وراءه الا الضلال . وعلى ذلك يكون مزاجه العقلي والاخلاقي وآدابه التى يأخذ نفسه بها مزيجاً مركباً من عناصر شتى

ولهذا يقول علماء الاجتماع : ان الشعب الصحيح لا وجود له الا عند القوم الاولين . وأما الامم المتحضرة فان كثرة اختلاط التناسل ووحدة البيئة ولدت منها شعوبا تاريخية جديدة تشبه الشعوب الصحيحة . وان صفات الشعب النفسية ثابتة ثبات صفاته الجسمانية وتنتقل بالوراثة على قاعدة واحدة وبالاستمرار . وان المولد رجل تتجاذبه مؤثرات مختلفة من الوراثة والذكاء والآداب والاخلاق

فاذا كانت أمة كلها أو جلها على هذا النحو من التناسل بين أبوين مختلفين كل الاختلاف على هذا النحو الذي ذكرنا كان قيادها صعباً وان البيئة اذا كانت بهذا الوصف أثرت بطريق العدوى في من لم يكن مولدا واندمج كثير بحكم التقليد وتغلب روح الجماعة في ذلك المزاج المختلط فتنعدم شخصيته ويكون متأثراً بالروح العام للجماعة التى هو فيها

وقد قال غوستاف لوبون « أمة أهلها كلهم مولد لا تساس » فليس عجيباً أن تعتاص على على سياسة هؤلاء القوم وأن ينزع منهم نازع في كل يوم الى الخروج وانتحال نحلة جديدة وتأويل الدين على مقتضى ما يجول بخواطرهم لانهم مدفوعون

الى هذا الضرب بعامل الوراثة الذي فيهم

أما أهل الشام فلم يكونوا كذلك لانهم لم يكونوا يستكثرون من ايلاد السبايا من جهة ، ومن جهة أخرى فان الروميات كن متدينات بالدين المسيحي وهو دين يأمر بالخير وينهى عن الشر وأهل تلك الناحية قد بعد عهدهم بالوثنية ولم يتقلبوا في الاهواء والبدع تقلب الفرس ، فكان المزاج الديني للامهات قريباً من مزاج الآباء فلم يكن التباين كثيراً من هذه الناحية فكانوا أبعد من البدع التي تختلق في العراق

مقتل علي بن أبي طالب

كان الخوارج يرون في علي بن أبي طالب عدواً لدوداً وخصما خصما . فاجتمع منهم عبد الرحمن بن ملجم المرادي والبُرَك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمي فتذاكروا أمر الناس وعابوا ولاتهم ثم ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً اخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم والذين كانوا لا يخافون في الله لومة لائم ، فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلالة فالتمسنا قتلهم فأرحنا منهم البلاد وثأرنا بهم اخواننا . فقال ابن ملجم : أنا أكفيكم علي بن أبي طالب . وكان من أهل مصر . وقال البُرَك بن عبد الله : أنا أكفيكم معاوية ابن أبي سفيان . وقال عمرو بن بكر : أنا أكفيكم عمرو بن العاص . فتعاهدوا وتواثقوا بالله لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه . فأخذوا أسيافهم فسموها واتعدوا لسبع عشر تخلو من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه الذي توجه اليه . وأقبل كل واحد منهم الى المصر الذي فيه صاحبه الذي يطلب

فأما ابن ملجم فكان عداده في كندة فخرج فلقي أصحابه بالكوفة وكاتمهم أمره كراهة أن يظهروا شيئاً من أمره . فرأى ذات يوم أصحابا من تيم الرباب

وكان علي قتل منهم يوم النهر عشرة فذكروا قتلاهم . ولقي من يومه ذلك امرأة من تيم الرباب يقال لها قطام ابنة الشجنة وقد قتل علي أباها وأخاها يوم النهر وكانت فائقة الجمال فلما رآها التبست بعقله ونسي حاجته التي جاء لها ثم خطبها . فقالت لا أتزوجك حتى تشفي لي . فقال وما يشفيك قالت : ثلاثة آلاف وعبدوقينة وقتل علي بن أبي طالب . فقال : هو مهر لك ، أما قتل علي فلا أراك ذكرته لي وأنت تريديني . قالت : بلى ، التمس غرته فان أصبت شفيت نفسك ونفسي ويهنئك العيش معي وان قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها . قال : فوالله ماجاء بي الى هذا المصر الا قتل علي ، فلك ما سألت . قالت : اني أطلب لك من يسند ظهرك ويساعدك على أمرك . فبعثت الى رجل من قومها يقال له وردان فكلمته فأجابها . وأتى ابن ملجم رجلا من أشجع يقال له شبيب بن بجرة فقال له هل لك في شرف الدنيا والآخرة ؟ قال وما ذاك ؟ قال قتل علي بن أبي طالب قال ثكلتك أمك لقد جئت شيئاً اداً ، كيف تقدر على علي ؟ قال أكمن له في المسجد فاذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه فان نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا وان قتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها . قال ويحك لو كان غير علي لكان أهون علي ، قد عرفت بلاءه في الاسلام وسابقته مع النبي ﷺ وما أجدني أنشرح لقتله . قال أما تعلم أنه قتل أهل النهر العباد الصالحين ؟ قال بلى . قال فنقتله بمن قتل من اخواننا . فأجابه فجاءوا قطام وهي في المسجد الاعظم معتكفة فقالوا لها قد أجمع رأينا على قتل علي . فقالت اذا أردتم ذلك فأتوني . ثم عاد اليها ابن ملجم في ليلة الجمعة التي قتل في صبيحتها علي فقال هذه الليلة التي واعدت فيها صاحبي أن يقتل كل واحد منا صاحبه . فدعت لهم بالحرير فعصبتهم به وأخذوا أسيافهم وجلسوا مقابل السدة التي يخرج منها علي فلما خرج ضربه شبيب بالسيف فوقع سيفه بعضادة الباب وضربه ابن ملجم في قرنه بالسيف وهرب وردان

فأما وردان فقد جاء منزله وأخبر رجلا من قومــه الخبر فقتله الرجل . وأما شبيب فدخل في غمار الناس ونجا . وأما ابن ملجم فشدوا عليه فأخذوه

وأما علي بن أبي طالب فتأخر وقال لا يفوتكم الرجل . وأدخل عليه ابن ملجم فقال له : أي عدو الله ألم أحسن اليك ؟ قال بلى . قال فما حملك على هذا ؟ قال: شحذته أربعين صباحا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه . فقال علي لا أراك الا مقتولا به ، ولا أراك الا من شر خلقه

وكان ابن ملجم حين ضرب عليًا بالسيف قال : الحكم لله يا علي، لا لك ولا لاصحابك . وقد قال علي بعد ضربه : النفس بالنفس ان أنا مت فاقتلوه كما قتلني وان بقيت رأيت فيه رأيي . وقالت أم كلثوم بنت علي وهي تبكي : أي عدو الله ، لا بأس على أبي ، والله مخزيك . قال فعلى من تبكين ؟ والله لقد اشتريته بألف وسممته بألف ولو كانت هذه الضربة على جميع أهل المصر ما بقي منهم احد

ودخل جندب بن عبد الله على علي فقال : يا امير المؤمنين ان فقدناك ولا نفقدك فنبايع الحسن ؟ قال ما آمركم ولا انهاكم انتم ابصر . فرد عليه مثلها . فدعا حسنا وحسينا فقال اوصيكما بتقوى الله والا تبغيا الدنيا وان بغتكما ، ولا تبكيا على شيء زوى عنكما ، وقولا الحق وارحما اليتيم واغيثا الملهوف واصنعا للآخرة وكونا للظالم خصما وللمظلوم ناصرا . اعملا بما في الكتاب ولا تأخذكما في الله لومة لائم . ثم نظر الى محمد بن الحنفية فقال : هل حفظت ما اوصيت به اخويك ؟ قال : نعم . فقال اني اوصيك بمثله وأوصيك بتوقير اخويك لعظيم حقهما عليك فاتبع امرهما ولا تقطع امرا دونهما . وما زال يوصيهم بمحاسن الاخلاق والتقوى ، وما زال يقول لا اله الا الله حتى قبض صبيحة يوم الاحـد ١٧ رمضان سنة ٤٠هـ . وكان قد نهاهم عن المثلة وقال : يا بني عبد المطلب ، لا الفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قتل امير المؤمنين قتل امير المؤمنين ، الا لا يقتلن الا قاتلي . انظر ياحسن ان انا مت

من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثل بالرجل فاني سمعت رسول الله ﷺ يقول: اياكم والمثلة ولو انها بالكلب العقور . فلما قبض بعث الحسن الى ابن ملجم . فقال للحسن هل لك في خصلة اني والله ما اعطيت الله عهداً الا وفيت به . اني قد كنت اعطيت الله عهدا عند الحطيم ان اقتل عليا ومعاوية او اموت دونهما . فان شئت خليت بيني وبينه ولك الله علي ان لم اقتله او قتلته ثم بقيت أن آتيك حتى اضع يدي في يدك . فقال الحسن : اما والله حتى تعاين النار فلا . ثم قدمه فقتله واخذه الناس فأدرجوه في بوارى ثم احرقوه بالنار

وأما البرك فانه قعد لمعاوية في الليلة التي ضرب فيها علي ، فلما خرج ليصلي الصبح شد عليه بسيفه فوقع في إليته ولم يقتله ، فأخذ . فقال لمعاوية : عندي خبر أسرك به فان أخبرتك به أنافعي ذلك عندك ؟ قال : نعم . قال : ان أخا لي قتل عليا في مثل هذه الليلة . قال : فلعله لم يقدر على ذلك ؟ قال : بلى ، ان عليا يخرج وليس معه حرس . فأمر به فقتل . وأرسل معاوية الى الساعدي وكان طبيباً فقال : ان ضربتك مسمومة فاما أن أحمي حديدة فأضعها موضع السيف واما أن أسقيك شربة تقطع عنك الولد وتبرأ منها . فقال : اما النار فلا صبر لي عليها ، وأما الولد فان في يزيد وعبد الله ماتقر به عيني فسقاه تلك الشربة وبرأ ولم يولد له بعدها . وأمر معاوية باتخاذ المقصورات وحرس الليل والشرط تقوم على رأسه اذا سجد

وأما عمرو بن بكر فجلس لعمرو بن العاص في تلك الليلة وكان اشتكى من مَغْس أصاب بطنه فلم يخرج وكان خارجة بن حذافة صاحب شُرْطته فأمره أن يصلي بالناس فشد عليه وهو يرى أنه عمرو فضربه فقتله . فأخذه الناس وانطلقوا به الى عمرو يسلمون عليه بالامرة . فقال : مَن هذا ؟ قالوا : عمرو . قال : فمن قتلتُ ؟ قالوا : خارجة بن حذافة . قال : أما والله يا فاسق ما ظننته غيرك . فقال عمرو : أردتني وأراد الله خارجة . وقدمه فقتله

وبلغ معاوية ما كان بمصر فكتب الى عمرو :

وقتل وأسباب المنايا كثيرة   منيه شيخ من لؤي بن غالب
فيا عمرو مهلا انما أنت عمه   وصاحبه دون الرجال الاقارب
نجوتُ وقد بل المرادى سيفه   من ابن أبي شيخ الاباطح طالب
ويضربني بالسيف آخر مثله   فكانت علينا تلك ضربة لازب

ولما انتهى الى عائشة قتل علي تمثلت :

فألقت عصاها واستقر بها النوى   كما قر عينا بالاياب المسافر

ثم قالت : من قتله ؟ فقيل : رجل من مراد ، فقالت :

فان يك نائيا فلقد نعاه   غلام ليس في فيه تراب

فقالت زينب بنت أبي سلمة : ألعلي تقولين هذا ؟ فقالت : اني أنسى فاذا نسيت فذكروني

وقد قال ابن أبي مياس المرادى في قتل علي :

ولم أر مهراً ساقه ذو سماحة   كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة   وضرب علي بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من علي وان غلا   ولا قتل الا دون قتل ابن ملجم

وقد رثاه أبو الاسود الدؤلي بقوله :

ألا بلغ معاوية بن حرب   فلا قرت عيون الشامتينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا   بخير الناس طراً أجمعينا

في أبيات غير هذه . ومعلوم أن مخاطبة معاوية بهذه الكلمة أمر في غير محله ، لانه لا ذنب له في ذلك ، وانما قتله الخوارج ، وقد استوفى معاوية حصته من المؤامرة

وقد كان علي قد بلغ من العمر ثلاثا وستين سنة وكانت خلافته خمس

سنين الا ثلاثة أشهر

وقد روي الطبرى بسنده الى خالد بن جابر قال: سمعت الحسن يقول ـ لما قتل علي عليه السلام ـ وقد قام خطيبا: « لقد قتلتم الليلة رجلا في ليلة نزل فيها القرآن وفيها رفع عيسى بن مريم عليه السلام وفيها قتل يوشع بن نون فتى موسى عليه السلام. والله ما سبقه أحد كان قبله ولا يدركه أحد يكون بعده والله ان كان رسول الله ﷺ ليبعثه في السرية وجبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره والله ما ترك صفراء ولا بيضاء الا ثمانمائة أو سبعمائة أرصدها لخادمه ». ومعلوم أن يوشع لم يقتل، وأما كون عيسى رفع في مثل تلك الليلة فلم اقف عليه

وانى هنا أتعجل بكلمة صغيرة وهي: اننا اذا نظرنا الى علي من جانب الدين وحب الحق والزهد في الدنيا والاعراض عن زخارفها وزينتها وجدناه يمشي في صف أبي بكر وعمر لا يتخلف عنهما قيد خطوة. واذا نظرنا اليه من جهة الفقه في أحكام الدين والعلم بجزئيات فروع الشريعة وجدناه يسبقهما. أما من حيث تدبير الملك وسياسة الرعية ومقاربة العامة والتنبه لدقائق السياسة والاخذ على شكائم القوم والاحاطة باحوالهم. فانه يتأخر عن الرجلين في هذا المقام. مع سعة درايته وقوة عارضته لأن الاقوال في السياسة وحسن الملكة والاعراب عن دقائق ذلك شيء، وافاضة ذلك على الرعية وبسط النفوذ على الكافة واخضاعهم للارادة شيء آخر. وقد مر بنا شيء من ذلك ومن تعليل عدم نجاحه في جمع كلمة الامة. والسر في ذلك سوء الاحوال التي تولى فيها

وعندي أن الوقت لو صفا لعلي رضي الله عنه وواتته المقادير باستتباب الراحة واجتماع الكلمة، لأذاق الامة حلاوة العدل وحملهم على الجادة وسار بهم في طريق الفتوح وبسط نفوذ الاسلام واعزاز كلمته بما لم يدع مقالا لقائل ولله في خلقه شئون

ويكفى من ينظر في أمر علي أنه لم يوجد عنده من المال سوى سبعمائة درهم كان أرصدها لشراء خادم له لم يكن عنده سواها وفي رعيته من يملك عشرات الآلاف

ومئات الآلاف . ولم يكن مترفهاً في معيشته ولا متوسعاً كما كان معاوية أو عثمان بل كان من طراز أبي بكر وعمر

بيت علي

تزوج علي بن أبي طالب :

(١) فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي أول زوجاته ولم يتزوج عليها حتى توفيت عنده . وكان له منها الحسن والحسين وزينب الكبرى وأم كلثوم الكبرى وهي زوج عمر بن الخطاب

(٢) أم البنين بنت حزام من بني عامر بن كلاب ، فولدت له العباس وجعفر وعبد الله وعثمان

(٣) ليلى بنت مسعود التميمية ، فولدت له عبيد الله وأبا بكر

(٤) أسماء بنت عميس الخثعمية ، فولدت له يحيى ومحمدا الاصغر

(٥) الصهباء بنت ربيعة من بني جشم بن بكر وهي أم ولد من سبي تغلب فولدت له عمر ورقية

(٦) امامة بنت أبي العاص بن الربيع وامها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فولدت له محمدا الاوسط

(٧) خولة بنت جعفر الحنفية ، فولدت له محمداً الشهير بابن الحنفية

(٨) أم سعيد بنت عروة بن مسعود ، فولدت له أم الحسين ورملة الكبرى

(٩) محياة بنت امريء القيس الكلبية ، ولدت له جارية ماتت صغيرة

وكان له بنات منهن : أم هانيء ، وميمونة ، وزينب الصغرى ، ورملة الصغرى وأم كلثوم الصغرى ، وفاطمة ، وامامة ، وخديجة ، وأم الكرام ، وأم سلمة ، وأم جعفر ، وجمانه ، ونفيسة . امهاتهن امهات أولاد شتى . وكان النسل من ولده الخمسة : الحسن ، والحسين ، ومحمد بن الحنفية ، والعباس ، وعمر

صفة علي وأخلاقه

هنا اترك الكلام لصديقي المرحوم الخضري بك يقول كلمة في ذلك :
يخطر ببال من فحص عن تاريخ الخلفاء الراشدين وعلم تفاصيل أحوالهم هذا السؤال : كيف دانت قريش لشيخين ، أولهما من بني تيم بن كعب ، والثاني من بني عدي وخضعت لهما الخضوع التام ، فسار القوم بقلب واحد في سبيل نصرة الاسلام وعلو شأنه حتى اذا آلت لبني عبد مناف ووليها اثنان منهم نقصت على أولهما حياته في آخر عمره ، ولم يصفُ الامر لثانيهما في جميع حياته ، بل كانت مدة اختلاف وفرقة مع ما هو معلوم من قرب بني عبد مناف للرسول ﷺ فهم عشيرته الادنون وسادة قريش في جاهليتهم كما سادوا عليهم في الاسلام ، ذلك الى ما امتاز به ثانيهما من المميزات الكبرى التي لم تجتمع في غيره ؟ لابد لذلك من أسباب . أما ما كان من أمر عثمان فقد بينا أسبابه فيما مضى ، وأما أمر علي فانا سنجيب عنه الآن ببيان ما كان من خلق علي وما كان من الاحوال التي أحاطت به

كان علي ممتازاً بخصال قلما اجتمعت لغيره ، وهي :

الشجاعة ــ الفقه ــ الفصاحة

فأما الشجاعة فقد كان محله منها لا يجهل . وقف المواقف المعهودة وخاض غمرات الموت لا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه ؟ وأول ما عرف من شجاعته بياته موضع رسول الله ﷺ ليلة الهجرة وهو يعلم أن قوماً يترصدونه حتى اذا خرج يقتلونه ، فلم يكن ذلك مما يضعف قلبه أو يؤثر في نفسه . ثم في بدر وما بعدها من المشاهد كان علما لا يخفى مكانه ، يبارز الاقران فلا يقفون له ، ويفرق الجماعات بشدة هجماته وقد آتاه الله من قوة العضل وثبات الجنان القسط الاوفر .

أغمد سيفه مدة أربع وعشرين سنة حتى اذا جاءت خلافته جرده على مخالفيه ففعل به الافاعيل ، وكان الناس يهابون موافقته ويخشون مبارزته لما يعلمون من شدة صولته وقوة ضربته

وأما الفقه فلم يكن مقامه فيه بالمجهول . صحب رسول الله ﷺ منذ صباه وأخذ عنه القرآن ، وكان يكتب له مع ما أوتيه من ذكاء بني عبد مناف ثم بني هاشم ، ولم يزل معه الى ان توفي عليه السلام . كل هذا أكسبه قوة في استنباط الاحكام الدينية فكان الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان يستشيرونه في الاحكام ويرجعون الى رأيه اذا خالفهم في بعض الاحيان ، وأكثر من عرف ذلك عنه عمر بن الخطاب

وأما الفصاحة فيعرف مقداره فيها من خطبه ومكاتباته التي جمع منها السيد الرضيّ جملة عظيمة في الكتاب الموسوم بنهج البلاغة ، وقد وصفه شارحه الاستاذ الشيخ محمد عبده بقوله :

كنت كلما انتقلت من موضع منه الى موضع أحس بتغيير المشاهد وتحول المعاهد . فتارة كنت أجدني في عالم يعمره من المعاني أرواح عالية في حلل من العبارات الزاهية تطوف على النفوس الزاكية وتدنو من القلوب الصافية توحي اليها رشادها وتقوم مرادها وتنفر بها عن مداحض المزالّ الى جوادّ الفضل والكمال

وطوراً كانت تنكشف لي الجمل عن وجوه باسرة وأنياب كاشرة وأرواح في أشباح النمور ومخالب النسور قد تحفزت للوثاب ثم انقضت للاختلاب ، فخلبت القلوب عن هواها وأخذت الخواطر دون مرماها . واغتالت فاسد الاهواء وباطل الآراء . وأحياناً كنت أشهد أن عقلا نورانيا لا يشبه خلقا جسدانيا ، فصل عن الموكب الالهي واتصل بالروح الانساني ، فخلعه عن غاشيات الطبيعة وسما به الى الملكوت الاعلى . ونما به الى مشهد النور الاجلى ، وسكن به الى عمار جانب التقديس بعد استخلاصه من شوائب التلبيس

وآنات كأني أسمع خطيب الحكمة ينادي باعلياء الكلمة واولياء امر الامة يعرفهم مواقع الصواب ويبصرهم مواضع الارتياب ويحذرهم مزالق الاضطراب ويرشدهم الى دقائق السياسة ويصعدهم شرف التدبير ويشرف بهم على حسن المصير وقد جمع الكتاب من الحكمة شيئا كثيرا

هذه الصفات العالية مع ما منحه من شرف القرابة للرسول ﷺ ومصاهرته له ، جعلته يرى لنفسه فضلا على سائر قريش صغيرها وكبيرها شيخها وفتاها . ويرى بذلك له الحق في ولاية الامر دونهم فقد قال : لقد تقمصها فلان وهو يعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولايرقى الي الطير . وقال : فوالله مازلت مدفوعا عن حقي مستأثرا علي منذ قبض الله نبيه ﷺ حتى يوم الناس هذا . وهناك طبيعة في الناس - أنهم لايميلون الى شخص يرى لنفسه التفوق ومزيد الفضل . وانما يقرب الى قلوبهم من يقول وليت عليكم ولست بخيركم

ان تلك الامور التي يراها علي لنفسه جعلته يقتنع بان الحق فيما يراه ، وافقه عليه غيره أم خالفه - ومن هذا شأنه لايلجأ الى الاستشارة فيما هو صانع - وهذا شيء شديد لا تقبله نفس الكبراء والاشياخ - روي أنه لما بويع عتب عليه طلحة والزبير من ترك مشورتهما والاستعانة في الامور بهما فقال لهما : « لقد نقمتما يسيرا وارجأتما كثيرا . الا تخبراني اي شيء لكما فيه حق دفعتكما عنه واي قسم استأثرت عليكما به . ام اي حق رفعه الي احد من المسلمين ضعفت عنه ام جهلته ام اخطأت ما به - والله ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية اربة ولكنكم دعوتموني اليها وحملتموني عليها ، فلما افضت الي نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا وامرنا بالحكم به فاتبعته وما استسن النبي ﷺ فاقتديته فلم احتج في ذلك الى رأيكما ولا رأي غيركما ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما واخواني المسلمين ولو كان ذلك لم ارغب عنكما ولا عن غيركما واما ما ذكرتما من امر الاسوة فان ذلك امر لم احكم فيه انا

برأيي ولا وليته هوى مني بل وجدتُ أنا وانتما ماجاء به رسول الله ﷺ قد فرغ منه ، فلم احتج اليكما : قد فرغ الله من قسمه وامضى حكمه ، فليس لكما والله عندي ولا لغيركما في هذا عتبى . اخذ الله بقلوبنا وقلوبكم الى الحق والهمنا واياكم الصبر . واي نفس تصبر على مثل هذا ؟ »

لما رفعت قضية عبيد الله بن عمر في قتله الهرمزان الى عثمان كان من رأي علي قتله ولكن عثمان قضى بخلاف رأيه وحكم بالدية والتزمها في ماله وهو خليفة قضاؤه محترم صوابا كان ام خطأ فلما آل الامر الى علي كان يريد قتل عبيد الله بعد ان مضى على القصة تلك المدة الطويلة فلم يكن من عبيد الله الا ان لحق بمعاوية وكان من قواده العظام بصفين

كانت لعثمان قطائع اقطعها الناس ولم يكن ذلك من رأي علي ، فقال بعد خلافته : والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الاماء لرددته ، فان في العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه اضيق

بويع وولاة الامصار من علية قريش وذوي الرأي والدهاء فيها فأشار عليه مشيروه أن لا يعجل بنزعهم من أمصارهم حتى يتم أمره ، فلم يسمع لاحد قولا بل عجل بنزعهم وأظهر سوء الرأي فيهم حتى خيل اليهم أنه لو ملك كانت مصيبة كبرى فناوءوه وكانوا عليه يداً واحدة

أراد في هذه الاحوال أن يحمل الناس على مثل حد السيف مع ما سبق لهم من مضادة الخليفه وثقتهم في أنفسهم أنه لولاهم ما بويع فلم يحتملوا ذلك له حتى قالوا ارض بالتحكيم والا فعلنا بك ما فعلنا بعثمان . ولما ولي ابن عباس على البصرة نظر بعضهم الى بعض وقالوا قثم بن العباس على الحجاز وعبيد الله بن العباس على اليمن وعبد الله بن عباس على البصرة ففيم قتلنا ابن عفان ؟ وكانت سآمته منهم وسآمتهم منه تزداد كل يوم حتى لم يكن له على أنفسهم سلطان . يدعوهم فلا يجيبون

ويستصرخهم فلا يفزعون وجيش خصمه قاده كبراء قريش وعظماؤها فارهقوهم بالطاعة وملكوا قلوبهم بالرفق فلم يكن لها بين الطائفتين توازن عند الخصومة. كان معاوية يتساهل بعض الشيء لرءوس أجناده ويفيض عليهم من العطاء ما يجعل رقابهم خاضعة له وعلي يحاسبهم على النقير والقطمير في وقت هو محتاج اليهم فيه حتى كان ذلك سبباً في تغيير قلب ابن عباس عليه وفرقته له فترك البصرة وذهب الى مكة. وليس شأن علي في ذلك شأن عمر فان عمر كان يشتد على عماله والامة كلها معه وأما علي فكان معظم الامة عليه فضلا عن أن كثيراً من التهم كانت تلصق بعماله من قوم يشون بهم كالحال في قيس بن سعد وعبد الله بن عباس

وعلى الجملة فان أكبر الاسباب في عدم استقامة الامر لعلي يرجع الى عقيدته في نفسه وثقته المتناهية بما يراه واستغنائه عن رأي الاشياخ من قريش وشدته عليهم شدة لم يعدّلها ما يهون أمرها وعدم اعطائه الظروف التى كان فيها حقها من السياسة والحال السيئة التي تولى فيها فانها كانت تقسره على غير ماعرف عنه من الكياسة وسداد السياسة. اهـ ببعض تصرف

مبايعة الحسن بن علي

لما قتل علي بايع الناس ابنه الحسن بالخلافة . وأول من بايعه قيس بن سعد فقال له : ابسط يدك ابايعك على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه وقتال المحلين ؛ فقال له الحسن رضي الله عنه : على كتاب الله وسنة نبيه ، فان ذلك يأتي من وراء كل شرط . فبايعه وسكت وبايعه الناس

وكان علي رضي الله تعالى عنه قد استطاع بعد الجهد الشديد أن يبايعه أربعون الفا على الموت وكان قد جعل قيس بن سعد على مقدمته ووجهته اذربيجان . فلم يزل سعد يداريء ذلك البعث حتى قتل علي . وكان الحسن لا يرى القتال ولكنه يريد أن ياخذ لنفسه ما استطاع من معاوية ثم يدخل في الجماعة . وعرف أن قيس ابن سعد لا يوافقه فعزله . وقيل انه لم يعزله ، ولكن الحسن قد اختلف عليه أهل عسكره وهو بالمدائن وقدنزل معاوية بجنده مسكن وسبب هذا الاختلاف على الحسن أن قائلا في عسكره قال : ان قيس بن سعدقد قتل فانفروا ، فنفروا ونهبوا سرادق الحسن حتى نازعوه بساطا كان تحته ، فخرج حتى نزل المقصورة البيضاء بالمدائن وكان سعد بن مسعود الثقفي عم المختار بن أبي عبيد عامله عليها . فقال له المختار وهو غلام شاب : هل لك في الغنى والشرف ؟ قال : وما ذاك ؟ قال : توثق الحسن وتستأمن به الى معاوية . فقال له عمه : عليك لعنة الله ، أثب على ابن بنت رسول الله ﷺ فأوثقه ، بئس الرجل أنت !

فلما رأى الحسن تفرق الامر عنه بعث الى معاوية يطلب الصلح . وقال للحسين ولعبد الله بن جعفر اني قد كتبت الى معاوية في الصلح وطلب الامان . فقال له الحسين : نشدتك الله ان تصدق أحدوثة معاوية وتكذب أحدوثة علي .

فقال له الحسن : اسكت فأنا أعلم بالامر منك . فلما انتهى كتاب الحسن الى معاوية ، أرسل اليه عبد الله بن عامر وعبد الرحمن بن سمرة فقدما المدائن وأعطيا الحسن ما أراد ـ فكتب الحسن الى قيس بن سعد وهو على مقدمته في اثنى عشر الفاً يأمره بالدخول في طاعة معاوية . فقام قيس في الناس فقال : يا أيها الناس . اختاروا الدخول في طاعة امام ضلال ، أو القتال مع غير امام . قالوا لا ـ بل نختار ان ندخل في طاعة امام ضلالة ، فبايعوا لمعاوية

ويظهر لى أن هذه الرواية واهية اذ يبعد على قوم مسلمين ان يقولوا ذلك . ولعلهم لم يقولوا ذلك الا بعد ان استوثق لهم بنفسه . وروى الطبري أن أهل العراق لما بايعوا الحسن بن علي طفق يشترط عليهم انكم سامعون مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت فارتاب أهل العراق في أمرهم حين اشترط عليهم هذا الشرط . وقالوا : ماهذا لكم بصاحب وما يريد هذا القتال . ثم لم يلبث الحسن حتى طعن طعنة أشوته [١] فازداد لهم بغضا ومنهم ذعرا . فكتب الى معاوية يطلب الصلح ، فأرسل اليه معاوية صحيفة بيضاء مختوم على أسفلها ، وكتب اليه ان اشترط في هذه الصحيفة ماشئت فهو لك . فلما جاءت الصحيفة الى الحسن أضعف الشروط التي كتب بها الى معاوية أولا وهي خمسة ملايين درهم كانت في بيت مال الكوفة وخراج دَارَابْجِرْد ، وان لا يشتم علي بسمع منه . فلما رأى معاوية أنه أضعف الشروط استمسك بما كتبه الحسن أولا ولم يعطه ما اشترطه ثانيا

سار معاوية بعد ذلك حتى نزل الكوفة . وأراد عمرو بن العاص ان يفضح الحسن بن علي ، وان يبدو عيُّه للناس . فأشار على معاوية ان يخطب في الناس ويدعو الحسن الى الخطابة . فقام معاوية كارها لذلك ، فخطب في الناس ثم أمر رجلا ان ينادي الحسن ليتكلم . فقام فتشهد في بديهة أمر لم يُرَوِّ فيه ثم قال : أيها

(١) لم تصبه

الناس . ان الله قد هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا . وان لهذا الأمر مدة والدنيا دول . وان الله تعالى قد قال لنبيه ﷺ «وان أدري لعله فتنة لكم ومتاع الى حين» فلما قالها قال له معاوية اجلس . ولم يزل ضرما على عمرو وقال له هذا من رأيك . وقد تحمل الحسن بمن معه من أهل بيته الى المدينة

وروي الطبري أيضا أنه لما تم الصلح بين الحسن ومعاوية بمسكن ، قام الحسن فقال : يا أهل العراق انه سخي بنفسي عنكم ثلاث : قتلكم أبي ، وطعنكم أياى ، وانتهابكم متاعي

وكان قيس بن سعد قد أبى من الصلح ، وكان تابعا لابن العباس . وقد كاتب ابن عباس معاوية يطلب اليه الامان وترك ما أصاب من مال على الدخول في طاعته فكتب له بذلك وأرسل اليه جندا ، فلحق ابن عباس بجند معاوية سراً وترك الجند الذى كان فيه بلا قائد سوى قيس بن سعد . فبقي قيس على الجند الذي كان مع الحسن وخاطبه معاوية في الدخول في الطاعة فأبى سعد أن يلين له . فارسل اليه معاوية ورقة مختومة من أسفلها وقال له اشترط فيها ما شئت . فكتب فيها الامان لنفسه ولشيعة علي ولم يزد . وكان هذا من حكمة معاوية لأن عمرا أراده على قتاله فأبى وقال إنا لا نخلص اليهم حتى يقتل عدادهم من أهل الشام وما خير العيش بعد ذلك . وأنا لا أقاتلهم ما وجدت الى الصلح سبيلا . وكان الصلح في شهر ربيع الآخر سنة ٤١ : وهذه الرواية أراها أثبت وهي تدل أيضاً على نفس عالية كريمة لقيس بن سعد

والذي يلاحظه المؤرخ ، أنه من ذلك الوقت ترك الطلب بدم عثمان وسكنت الضوضاء . وهذا يدل على أن الطلب بدم عثمان حجة داحضة . وان الغرض الحقيقي لمعاوية ومن معه انما هو الملك لا طلب الثار . وقد كانوا حين ثارت الفتنة يعدّون دهاة العرب خمسة : معاوية ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وقيس بن سعد

وعبد الله بن بديل

تنزل الحسن بن على

كان من رأي جند علي أن يبايعوا الحسن بن علي بالخلافة بعد قتل أبيه فبايعوه ولكن الرجل نظر الى الاحوال التي هو فيها نظرة صائبة

وجد جنداً لا يركن اليه وخصما قوي الشكيمة ، وفوق ذلك كان يكره الفتن ويحب للمسلمين الالفة ، فلم ير خيرا لنفسه ولا لأمته من أن ينزل لمعاوية وصالحه على شروط رضيها الطرفان ، وكتب الى معاوية ببيعته وسلم اليه الكوفة في أواخر ربيع الاول سنة ٤١ ، وبذلك تم ما قاله رسول الله ﷺ « ان ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين » . وهدأت الأحوال وسمى المسلمون ذلك العام وهو السنة الحادية والاربعون من الهجرة «عام الجماعة»

مدنية الاسلام في عهد الخلفاء الراشدين (١)

اصطلح المؤرخون على تسمية الدولة الأولى من دولة الاسلام بدولة الخلفاء الراشدين ، ومدتها تقرب من ثلاثين سنة . ونحن الآن ذاكرون شيئاً من المدنية الاسلامية أو العربية لعهدهم . ونريد بالمدنية مجموع النظام الذي اتبعوه في أحوالهم الاجتماعية ، سواء في ادارة أمورهم الداخلية أو في حروبهم

الخلافة

أول ما كان لهم من مظاهر المدنية تأسيس « الخلافة الاسلامية » . وكان الرئيس يسمى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فلما جاء ثاني الخلفاء اختار لقب أمير المؤمنين ثم لم يزل مستعملا لقبا لجميع من أتى بعده من الخلفاء . وهذه الخلافة رياسة دنيوية أسسها الدين ، وغايتها حمل الناس على ما فيه صلاحهم متبعا الخليفةُ في ذلك نصوصَ الكتاب وما عرف من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

فالخليفة واجب الطاعة فيما يأمر مالم يخالف النصوص أو الشريعة الاسلامية . وكان أساس التشريع في زمنهم هو القرآن والسنة المعروفة فان عرض لهم ما ليس فيهما عرفوا الاشباه والامثال وقاسوا مالا نص فيه على ما فيه نص لما بينهما من التشابه . وكان الخليفة في الاجتهاد والاستنباط كأحد المجتهدين يستفتيهم فيما نزل به من الحوادث فيجيبونه بما عندهم فان اتفقوا في الفتوى كان من المحتم عليه أن يتبع رأيهم وهذا ما يسمى في عرف المسلمين بالاجماع وان اختلفوا في الفتيا عمل الخليفة بما يرى من آرائهم ، فلم يكن له سلطان ديني أكثر من أنه منفذ لأحكام الدين . فليست الخلافة سلطانا دينيا كما يزعمون ، وانما هي سلطان أساسه الدين

(١) ألممت في هذه الكلمة بما جاء في محاضرات المرحوم الخضري بك مع زيادة بسط وفضل بيان

ولم يكن في تلك الدولة الخلافة اسرة معينة ، بل يختار الخليفة من أي اسرة من اسر قريش . والخلفاء الاربعة من ثلاث اسر : فابو بكر من بني تيم ، وعمر من بني عدي ، وعثمان وعلي من بني عبد مناف . وكان أساس الانتخاب الشورى . فالخلافة من جهة كونها لا تتعين لها اسرة ، وصاحبها يتعين بالانتخاب ، ومقيد فيما يعمل بالقانون الشرعي ، تشبه رياسة الجمهورية . وتمتاز الخلافة بانها مختصة بالبيت القرشي

وكانت الناس تبايع الخليفة على العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ . وزادوا في بيعة عثمان « وسيرة الشيخين أبي بكر وعمر » وحذفت هذه الزيادة في بيعة علي لأنه كان أباها لما عرض عليه الامر عبد الرحمن بن عوف . وكان الخلفاء يستشيرون فيما يعرض لهم من الامور ، الا أنهم لم يكونوا على درجة واحدة في ذلك . وكان أكثرهم اهتماما بالشورى عمر بن الخطاب فانه كان قلما يقدم على أمر الا بعد أن يستشير ويمحص الآراء . وكانت له (شورى خاصة) من أعلام الصحابة ومشيختهم من المهاجرين والانصار ومشيخة قريش مثل عثمان بن عفان والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وعلي بن أبي طالب ومن ماثلهم . وكان يلحق بهم عبد الله ابن عباس لما يراه من فقهه وجودة رأيه . و(شورى عامة) من كل من له رأي من المسلمين يعرض عليهم الامر في المسجد بعد أن يدعو «الصلاة جامعة» فيقول كل ما بدا له وربما استشار بعد ذلك خاصته . وكان كثيرا ما يرجع عن رأيه متى تبين له الحق وناهيك برجل كان يقول :من رأي منكم فيّ اعوجاجا فليقومه . ورجال الشورى كانوا مختارين من قبله الا أنه لم يكن أحـد يمنع من ابداء رأيه مهما كان صاحب الرأي صغير القدر لان حياتهم كانت مبنية على المساواة والديموقراطية الصحيحة ولم يكن ينقص هذا النظام البديع الا شيء واحد . وهو تعيين من لهم الصوت في انتخاب الخلفاء بوصف يبينهم وقد كان عدم هذا التعيين سببا من أسباب الفرقة بين

علي ومعاوية ، لان عليا كان يرى أن هـذا الحق لأهل المدينة وحدهم لا يشركهم في ذلك أهل الامصار الاخرى . فمتى بايع أهل المدينة لو احد تمت بيعته ، وليس لاحد منهم بعد ذلك اعتراض . ومعاوية ومن معه من أهـل الشام كانوا يرون غير ذلك وان البيعة لا تتم الا برضا أهـل الامصار مع ما كان يدعيه سوى هذا . فكانت تلك الفرقة الهـائلة وتلتها الحرب العظيمة بين المسلمين

لم يكن للخلافة في هذه الدولة شيء من شارات الملك ولا ابهته ، بل كان الخليفة يسير في طريقه وفي بيته كسائر الناس لاحاجب ولا حارس : يقف الصغير والكبير اذا طلب منه أمرا أو أراده على شأن من الشؤون . وكان عمر يكره أن يكون لعماله حجاب حتى أنه أرسل الى سعد بن أبي وقاص من حرق باب دار الامارة الذي حال بين العامة وبين رفع شكواهم اليه الا بعد الاستئذان

القضاء

كان القضـاء معتبرا من عمـل الخليفة لان معناه فصـل الخصومات والمنازعات على حسب القانون الشرعي الماخوذ من الكتاب والسنة ، فكان الخلفاء يباشرون هذا العمل بانفسهم ويستفتون في الحكم ان كانت هناك حاجة الى الاستفتاء . ولما كثرت المشاغل واتسعت الفتوح اضطر الخلفاء للاشتغال بالجيوش وتدبيرها ، ففوضوا هذا العمل الى من في مكنتهم الاستنباط ، ولكنهم لم يتسموا بالقضاة الا من عهد عمر بن الخطاب : فانه بعث قضاة الى الامصار ، ووضع لهم نموذجا يسيرون عليه واستمر الحال على ذلك الى آخر عهد الخلفاء الراشدين . ومن أعظم ما كان لاولئك القضاة من الفخر شرف نفوسهم واستقلالهم في الحكم فلم يعرف عن احد منهم في ذلك العصر ميل الى الدنيا واغترار بزخرفها يعدل بهم عن قول الحق والحكم به . وكان سواء في نظرهم الشريفُ والوضيع والخليفة

والرعية . ولم يكن لامراء الامصار سلطان عليهم في قضائهم وكان تعيينهم من قبل الخليفة رأسا ، واحيانا يكتب الخليفة الى الامير أن يولى قضاء بلده من يرى فيه الكفاية وعلى الحالين التعيين صادر من الخليفة . وكان للقضاة رزق من بيت المال لما يلزمهم من الانقطاع لهذا العمل وترك ما يرتزقون منه . ومن احسن ما رأينا في امر القضاء ما يقال انه كتبه على بن ابي طالب الى احد عماله (ثم اختر للحكم بين الناس افضل رعيتك في نفسك ممن لا تضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى في الزلة ولا يحصر من الفيء الى الحق اذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفي بأدنى فهم الى اقصاه ، أوقفهم في الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم واصبرهم على تكشف الامور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء . واولئك قليل . ثم اكثر تعاهد قضائه وأفسح له في البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته الى الناس واعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليامن بذلك اغتيال الرجال له عندك) وهذا الكتاب عندي فيه شك وأرى أنه موضوع

وكان في كل مصر جماعة اشتهروا بالفقه واستنباط الاحكام ، كان يستعين بهم القاضي ويستفتيهم اذا أشكل عليه أمر . وأهم ما كان يدعوهم الى ذلك أن سنة رسول الله ﷺ لم تكن مجموعة في كتاب ، بل كانت في صدور الناس يحفظ منها أحدهم جزءا والثاني جزءا . وقد لا يحفظ أحدهم ما يحفظه الآخر فربما عرضت للقاضي مسألة فلا يرى فيها نصا ويكون النص ـ وهو الحديث ـ عند غيره لذلك كانوا يسألون : هل عندكم شيء في هذا من سنة رسول الله ﷺ؟ ولم يجمعوا هذه الفتاوي ، ولا الاقضية في كتاب خاص يرجع اليه من بعدهم . وكان ما ذكرناه من أمر السنة سببا كبيراً من أسباب اختلافهم في الفتاوي والاقضية

ولم يكن التقاضي موكولا الى الاجتهاد الصرف كما يظن بعض الباحثين ويجعل

ذلك من عيوب القضا. وانما كان موكولا الى الاجتهاد في فهم القانون الشرعي وتطبيقه على الحوادث والواقعات . حقيقة ان ذلك القانون لم يعتن بالتفصيل التام ، بل اهتم بالقواعد الكلية . وليس هـذا عيبا في القوانين التي يراد منها البقاء ، بل هو مما يحسنها ويجعلها صالحة لكل زمان ومكان

الاجتهاد للقاضي - والحال ماذكرنا - أمر لابد منه . ولذلك عده المتقدمون من الشروط المتحتمة

ولم يكن تعيين القضاة مانعا للخلفاء من نظر أية خصومة تعرض عليهم ، وقد حصل ذلك من الخلفاء في آنات كثيرة ، فكأن القضاة كانوا نوابا للخلفاء

وليس عندنا دليل على وجود سجلات يضبط فيها ما يصدر من الاحكام ولا أن صور الاحكام كانت تعطى للمحكوم له ، لان ذلك لم يكن ما يدعو اليه مادام التنفيذ في يد القاضي ، فهو الذي يقضي وهو الذي ينفذ الحكم . ويظهر لنا مما قرأناه من أخبارهم أنهم قلما كانوا يحتاجون للتنفيذ ، لان من حكم عليه كان يبادر بتنفيذ ما قضي عليه به من الحقوق : فكان المتنازعون أقرب الى كونهم مستفتين ينفذون ما صدرت به الفتوى من تلقاء أنفسهم

ويظهر لنا أن قضاء القضاة في عهـد الخلفاء الراشدين كان قاصرا على فصل الخصومات المدنية أما القصاص والحدود فكانت ترجع الى الخلفاء وولاة الامصار لأنا رأينا قضايا حكم فيها الخلفاء والامراء بقتل قصاصا أو جلد لسكر ولم يبلغنا أن قاضيا ليس أميرا قضى بعقوبة منها أو نفذها . وكانت العقوبات التأديبية كالحبس لا يأمر بها الا الخليفة أو عامله فكانت الدائرة القضائية ضيقة ولم يبلغنا أيضا أن قضاة الامصار كانوا ينيبون عنهم قضاة في غير الحواضر الكبرى وذلك دليل على قلة القضايا والخصومات

قيادة الجيوش

كانت قيادة الجنود من أعمال الخلافة كما كان رسول الله ﷺ يقود الجنود بنفسه ، ولكن الخلفاء لما لم يمكنهم أن يقودوا جميع الجنود المرسلة الى البلدان المختلفة كانوا يختارون قائدا للجيش ممن يرون فيه النجدة والشجاعة وتكون طاعتهم واجبة كطاعة الخليفة سواء بسواء . وبعد انتهاء الفتح واستقرار الامر يكون سلطانهم قاصرا على تدبير أمر الجنود والنظر في معداتهم . ولم تكن هذه الجنود محصورة في ديوان الا من عهد عمر بن الخطاب فهو الذي دون لهم الدواوين وأحصاهم حتى صار يعرف جنود كل وجه ومن تأخر منهم عن وجهه وكان يعاقب المتأخر بان يقام في مسجد حيه ويقال ان هذا تخاف ـ وهذا التوبيخ كان في نظرهم أمض من ضربة السيف ، لما هو معروف عنهم من الشجاعة والاقدام ، ويرون الاحجام عارا لا يمحى ـ وكما حصرهم عمر رتب لهم الارزاق من بيت المال ولم يكن قبل ذلك لهم رزق معين الا أنه لم يسو بين الجنود في العطاء وقد سوى بينهم علي ابن أبي طالب . وكان لكل جند عرفاء يلون أمور الجند ويقبضون أرزاقهم ويوزعونها عليهم

أما تعبئة الجيوش فقد نالوا منها حظا عظيما فبعد ان كانت العرب تحارب في جاهليتها بطريقة الكر والفر ـ وهي أن يكر المحارب على خصمه ثم يفرّ ثم يكر وهكذا لا يتبعون نظاما ـ رأى قواد الجند من المسلمين أن هذا النظام لا يصلح معه حروب الامم المنظمة فربطوا مسير الجنود بعضهم ببعض حتى يكون الصف متضامنا وليس لاحدهم أن يتأخر عن صفه أو يتقدم عنه وكان للجيش مقدمة تكون في الامام وهي التي تبدأ المناوشات وتتعرف الطرق وترتاد المواضع وقلبٌ وهو وسط الجيش وفيه أمير الجند ومجنبتان يمنى ويسرى ـ أو جناحان ـ وساقة وهي الجزء المؤخر من

الجيش واذا كان الجيش تام الاقسام على هذا الوصف يسمى خميسا . ولكل فرقة من الفرق الخمس أمير يأتمر بأمر القائد العام . وكانوا يجعلون على الفرسان خاصة أميرا وكان للاحتفاظ بخطوط رجعتهم الشأن العظيم حتى لا يؤتوا من خلفهم وكانوا يحذرون البيات جهدهم

ومن أحسن ما اطلعت عليه من الاوامر الخاصة بتسيير الجنود ما كتبه عمر بن الخطاب الى سعد بن أبي وقاص من كتاب له في ذلك حيث يقول « وترفق بالمسلمين في سيرهم ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم حتى يبلغوا عدوهم والسفر لم ينتقص من قوتهم ، فانهم سائرون الى عدو مقيم حامي الانفس والكراع . وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة حتى تكون لهم راحة يحيون بها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وامتعتهم . ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة فلا يدخلها من اصحابك الا من تثق به ، ولا يرزأ احدا من اهلها شيئا فان لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء بها كما ابتلوا بالصبر عليها فما صبروا لكم فتولوهم خيرا . ولا تنتصروا على اهل الحرب بظلم اهل الصلح . واذا وطئت أرض عدوك فأذك العيون بينك وبينهم ولا يخف عليك من أمرهم شيء . وليكن عندك من العرب أو من أهل الارض من تطمئن الى نصحه وصدقه ، فان الكذوب لا ينفعك خبره وان صدق في بعضه والغاش عين عليك وليس عينا لك . وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم فتقطع السرايا امدادهم ومرافقهم وتتبع الطلائع عوراتهم . واختر للطلائع أهل البأس والرأي من أصحابك وتخير لهم سوابق الخيل فان لقوا عدوا كان أول ما تلقاهم القوة . وأجعل اهل السرايا من اهل الجهاد والصبر على الجلاد ولا تخص احدا بهوى فتضيع من رأيك وامرك اكثر مما حابيت به أهل خاصتك ولا تبعث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة او نكاية ، فاذا عاينت العدو فاضمم اليك اقاصيك واجمع اليك

مكيدتك وقوتك ثم لا تعاجلهم بالمناجزة مالم يستكرهك قتال حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله وتعرف الارض كلها كمعرفة اهلها بها فتصنع بعدوك كصنعه بك ثم اذك حراسك على عسكرك وتيقظ من البيات جهدك »

الخراج وجبايته

كان الخلفاء من عهد عمر بن الخطاب يعينون للجباية عمالا مستقلين عن العمال والقواد ، وقليلا ما كانوا يكلون امر الجباية الى العمال وكانوا يدفعون مما يجبون ارزاق الجند ومصاريف ما يأمر به الخليفة مما تقتضيه المصالح العامة والباقي يرسل الى دار الخلافة ليصرف في مصارفه

وكانت هناك ايرادات ثابتة او عادية ، وايرادات غير ثابتة . اما الاولى فهي الخراج والعشر والصدقات والجزية

والخراج هو ما كان يوضع على الارض التي امتلكها المسلمون عنوة وتركوها في أيدي أهلها ويؤخذ منهم كأنه اجرة للارض التي ابقيت في أيديهم . وكانوا يجعلونه أحيانا شيئا مقدرا كما عمل عمر في السواد . واحيانا يجعلونه حصة شائعة مما يخرج من الارض . أما الاراضي التي أسلم أهلها عليها وهي من ارض العرب أو العجم كالمدينة واليمن أو ملكها المسلمون عنوة وأهلها لا تقبل منهم الجزية كعبدة الاوثان من العرب ، فهذه أرض عشر ومثلها الاراضي التي امتلكها المسلمون عنوة وقسمت بين الغانمين . والعشر هو عُشر ما يَخرُج من الارض

وكان عمر لما فتح السواد والشام شاور الناس في قسمة الارضين التي فتحها المسلمون . فتكلم فيها قوم وارادوا أن يقسم لهم حقوقهم وما فتحوا . فقال عمر فكيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض قد اقتسمت وورثت عن الآباء

وحيزت ؟ ماهـذا برأي . فقال عبد الرحمن بن عوف : فما الرأي ؟ ما الارض والعلوج الا مما افاء الله عليهم . فقال عمر : ماهو الا ما تقول ، ولست ارى ذلك . والله لا يفتح بعدي بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين فاذا قسمت أرض العراق بعلوجها وارض الشام بعلوجها فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والارامل بهذا البلد و بغيره من أهل الشام والعراق ؟ فاكثروا على عمر وقالوا : تقف ما افاء الله علينا باسيافنا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ولأبناء القوم ولابناء ابنائهم ولم يحضروا . فكان عمر لايزيد على أن يقول هذا رأي . قالوا فاستشر فاستشار المهاجرين الاولين فاختلفوا فاما عبد الرحمن بن عوف فكان رأيه ان يقسم لهم حقوقهم ورأي عثمان وعلي وطلحة وابن عمر رأي عمر . فارسل الى عشرة من الانصار خمسة من الاوس وخمسة من الخزرج من كبرائهم وأشرافهم ، فلما اجتمعوا حمد الله واثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

اني لم ازعجكم الا لان تشتركوا معي فيما حملت من أموركم فاني واحد كاحدكم وأنتم اليوم تقرون بالحق خالفني من خالفني ووافقني من وافقني ولست أريد ان تتبعوا هذا الذي هواى ، معكم من الله كتاب ينطق بالحق فوالله ان كنت نطقت بامر أريده ما أريد به الا الحق

قالوا قل نسمع يا أمير المؤمنين. قال قد سمعتم كلام هؤلاء القوم الذين زعموا اني اظلمهم حقوقهم واني أعوذ بالله ان اركب ظلما لئن كنت ظلمتهم شيئا هو لهم وأعطيته غيرهم لقد شقيت ولكن رأيت أنه لم يبق شي. يفتح بعد أرض كسرى وقد غنمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم، فقسمت ما غنموا من أموال بين أهله وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه وأنا في توجيهه ، وقد رأيت أن أحبس الارضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية ولمن يأتي من بعدهم . أرأيتم هذه الثغور ؟ لابد لها من رجال يلزمونها . أرأيتم هذه المدن العظام كالشام والجزيرة

والكوفة والبصرة ومصر ؟ لابد لها من أن تشحن بالجيوش وادرار العطاء عليهم ن أين يعطى هؤلاء اذا قسمت الارضون والعلوج ؟ فقالوا جميعا : الرأي رأيك فنعما قلت وما رأيت ان لم تَشْحنِ هذه الثغور وهذه المدن بالرجال وتجر عليهم ما يتقوون به رجع أهل الكفر الى مدنهم . فقال قد بان لي الامر فمن رجل له جزالة عقل يضع الارض مواضعها ويضع على العلوج ما يحتملون ؟ فاجتمعوا له على عثمان بن حنيف وقالوا تبعثه على أهم ذلك فان له بصرا وعقلا وتجربة فارسل اليه عمر فولاه مساحة أرض السواد فأدت جباية سواد الكوفة - قبل أن يموت عمر بعام - ه الف الف درهم ، وكان وزن الدرهم يومئذ وزن المثقال

وأرادوا منه أن يقسم الشام كما قسم الرسول خيبر . وكان أشد الناس عليه في ذلك الزبير بن العوام وبلال بن أبي رباح . فقال عمر : اذا أترك من بعدكم من المسلمين لا شيء لهم . وفعل بالشام كما فعل بالعراق فترك أهله ذمة يؤدون الخراج للمسلمين

قال أبو يوسف القاضي : والذي رأى عمر من الامتناع من قسمة الارضين بين من افتتحها توفيقا من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت الخيرة لجميع المسلمين . وفيما رآه من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم . لان هذا لو لم يكن موقوفا على الناس في الاعطيات والارزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر الى مدنهم اذا خلت من المقاتلة المرتزقة

ولم يكن مقدار الخراج معروفا في عهد الخلفاء الراشدين تمام المعرفة

الجزية

والجزية هي ما يوضع على رءوس أهل الذمة على الرجال دون النساء والصبيان وكانت تؤخذ منهم جزاء عن حمايتهم ودفع العدو عنهم . ولم يكونوا يأخذونها من المسكين الذي يتصدق عليه ولا ممن لا قدرة له على العمل — روى أبو يوسف القاضي في كتابه الموسوم بالخراج (١) قال : مر عمر بن الخطاب بباب قوم وعليه سائل شيخ كبير ضرير البصر . فضرب على عضده من خلفه وقال : من أي أهل الكتاب أنت ؟ فقال يهودي . فقال فما ألجأك الى ما أرى ؟ قال الجزيةُ والحاجة والسنُّ . قال : فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله فرضخ له بشيء من المنزل . ثم أرسل الى خازن بيت المال . فقال : أنظر هذا وضرباءه فوالله ما أنصفناه أن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم . انما الصدقات للفقراء والمساكين . والفقراء هم المسلمون وهذا من المساكين من أهل الكتاب . ووضع عنه الجزية وعن ضربائه . وكانوا يقدرون الجزية على حسب أحوال الناس ويسارهم لا تزيد عن ٤٨ درهما في السنة . ولا تنقص عن ١٢ درهما . روى أن رسول الله ﷺ قال : من ظلم معاهدا أو كلفه فوق طاقته فأنا حجيجه . وكان فيما تكلم به عمر بن الخطاب عند وفاته « أوصى الخليفة من بعدي بذمة رسول الله ﷺ ، أن يوفي لهم بعهدهم وأن يقاتل من ورائهم وأن لا يكلفوهم فوق طاقتهم »

(١) ص ٧٣ بولاق وص ١٥١ طبعة المطبعة السلفية

الصدقات

كانت الصدقاتُ تؤخذ من المسلمين من جميع أموالهم. نعمهم السائمة الابل والبقر والغنم ونقودهم الدرهم والدينار وما يخرج من أرضهم. وقد بينت الشريعة لكل ذلك نصابا معينا لا تجب فيما الزكاة دونه وقدرا معينا لا يؤخذ فوقه، بين ذلك في كتاب كتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته وعمل به المسلمون بعده. وكانوا يعينون لاهل البادية مصدقين وهم الذين يأخذون الصدقات ليصرفها الامام في مصارفها الشرعية

العشور (الجمارك)

كان تجار من المسلمين يذهبون بتجارتهم الى ديار الحرب فيتقاضى منهم أهل البلاد عشر أموالهم. فكتب أبو موسى الاشعري الى عمر: ان تجارا من قبلنا من المسلمين يأتون أرض الحرب فيأخذون منهم العشر. فكتب اليه عمر خذ أنت منهم كما يأخذون من تجار المسلمين وخذ من أهل الذمة نصف العشر ومن المسلمين من كل أربعين درهما درهما وليس فيما دون المائتين شيء. فاذا كانت مائتين ففيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه

روى أبو يوسف القاضي: أن جماعة من أهل الحرب من وراء البحر كتبوا الى عمر بن الخطاب: دعنا ندخل أرضك تجارا وتُعَشِّرُنا. فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. فأشاروا عليه به. فكان أول من عشر أهل الحرب وبعث زياد ابن حدير على عشور أهل العراق والشام

ومما يستطرف من خبر زياد أن رجلا من نصارى تغلب مر عليه بفرس قومت بعشرين الفا فأخذ منه الفا ثم مر راجعا في سنته. فقال: اعطني ألفا أخرى. فقال التغلبي كلما مررت بك تأخذ مني ألفا؟ قال نعم. فسار التغلبي الى عمر فوافاه بمكة وهو في

بيته فاستأذن عليه . فقال : من أنت ؟ قال رجل من نصارى العرب وقص عليه قصته . فقال عمر : « كفيت » ولم يزد على ذلك فرجع التغلبي الى زياد بن حدير وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى . فوجد كتاب عمر قد سبقه اليه : من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا الى مثل ذلك اليوم من قابل الا أن تجد فضلا . فقال الرجل : قد والله كانت نفسي طيبة أن أعطيك ألفا واني أشهد الله اني على دين الرجل الذي بعث اليك الكتاب (١)

وقد اتبع المسلمون سنة عمر في تعشير أموال التجارة التي ترد من خارج البلاد الاسلامية الى بلاد المسلمين . قال أنس بن سيرين : أرادوا أن يستعملوني على عشور الابلة فأبيت فلقيني أنس بن مالك فقال : ما يمنعك ؟ فقلت العشور أخبث ما عمل عليه الناس . قال فقال لي : لا تفعل ، عمر صنعه فجعل على أهل الاسلام ربع العشر وعلى أهل الذمة نصف العشر وعلى المشركين ممن ليس له ذمة العشر ولم يريدوا أن يأخذوا من أموال المسلمين التجارية أكثر مما يجب عليهم من الزكاة . وضاعفوا ذلك على أهل الذمة كما فعلوا مع نصارى تغلب . وعاملوا أهل الحرب بما يعاملون به تجار المسلمين في بلدانهم وليس عندنا علم بمجموع ما كان يرد في السنة الى بيت المال وفراء ، وكان لبيت المال خازن يخرج منه بمقدار ما يأمر الخليفة

أما الغنائم فكانت تقسم أربعة أخماسها على الغانمين والخمس الباقي يرد الى بيت المال ليصرف في مصارفه

النقود

كان العرب قبل الاسلام يتعاملون بنقود كسرى وقيصر من الذهب والفضة ولم يكن لهم سكة خاصة بهم ، لانها تتبع المدنية والحضارة والامة العربية كانت في ذلك الحين تغلب عليها البداوة . ولما جاء الاسلام

(١) الخراج لابي يوسف ص١٦٢ طبع المطبعة السلفية

لم يتغير التعامل بهذه النقود بل سار على تلك الحال مدة رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر . فلما فتحت الفتوح على عهد عمر واستولى المسلمون على بلاد فارس وكثير من بلاد الروم ، رأى عمر بن الخطاب أن يعين وزن الدرهم لانه نظر فرأى الدراهم الكسروية المسكوكة مختلفة الوزن فمنها درهم على وزن المثقال عشرون قيراطا ، ومنها درهم وزنه اثنا عشر قيراطا ، ودرهم وزنه عشرة قراريط فأخذ عمر جميع هذه الاوزان الثلاثة وهي ٤٢ قيراطا وأخذ ثلثها وهو أربعة عشر قيراطا من قراريط المثقال وضرب الدرهم على ذلك فكان كل عشرة دراهم وزن سبعة مثاقيل لان كلا منها = ١٤٠ فصارت النسبة بين الدرهم والمثقال كنسبة ١٠ : ٧ . — نقل المرحوم علي مبارك باشا في خططه عن المقريزي قال : وفي سنة ١٨ من الهجرة ضرب الدرهم على نقش الكسروية وشكلها باعيانها غير أنه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله . وفي بعضها لا اله الا الله وحده . وعلى اخرى عمر . وجعل وزن كل عشرة دراهم ستة مثاقيل . فلما بويع عثمان ضرب في خلافته دراهم ونقشها : الله أكبر

والظاهر أن ولاة الامور والامراء كانوا يضربون السكة في نواحيهم ويضعون اسماءهم عليها . ذكر صاحب تاريخ التمدن الاسلامي أن من ذلك قطعة من الدنانير ضربها خالد بن الوليد في طبرية سنة ١٥ للهجرة وهي على رسم الدنانير الرومية تماما بالصليب والتاج والصولجان ونحو ذلك وعلى أحد وجهيها اسم خالد بالاحرف اليونانية (Xaled) وهذه الاحرف (Bou) قال ويظن الدكتور مولر المؤرخ الالماني أنها مقتطعة من (ابو سليمان) كنية خالد بن الوليد وصورة القطعة منقوشة في الكتاب من وجهيها

وفي الكتاب المذكور : وذكر المرحوم جودت باشا أنه رأى نقوداً ضربها الامراء والولاة في عهد الخلفاء الراشدين أقدمها ضرب سنة ٢٨ في قصبة هرتك طبرستان وعلى دائرها بالخط الكوفي (بسم الله ربي) . ورأى نقدا مضروباً سنة

٣٨ هـ على دائرته هذه العبارة أيضا . ونقداً ضرب سنة ٦١ في يزد على دائرته (عبد الله بن الزبير أمير المؤمنين) بخط پهلوي

الحج

كان من الاعمال الكبرى لامام المسلمين إقامة حجهم . وكان الحج معتبراً في نظر الخلفاء الراشدين موسما عاما يجتمع فيه أمراء الجهات ليدلوا الى الخليفة بما عندهم من الاحوال في بلادهم ولتسمع شكوى من يشكوهم من رعيتهم وكان الخلفاء يلونه بانفسهم وقلما يتخلفون . وكان أكثرهم توليا لامر الحج بنفسه عمر بن الخطاب فانه حج سنيه كلها لم يتخلف في واحدة منها ، إلا أنه حصل خلاف في السنة الاولى من حكمه فقيل انه أناب عنه عبد الرحمن بن عوف . وأبو بكر حج بنفسه مرة وأناب عنه مرة . وعثمان بن عفان حج معظم سنيه . وعلى أناب عنه كل سني خلافته لما شغل به من الاضطراب الذي كان بينه وبين معاوية

كان الاهتمام بأمر الحج قد جعل له مظهرا عظيما وفائدة كبرى في تعارف المسلمين بعضهم ببعض ، وكان الخلفاء يجيئهم به من الاخبار مالا يمكن أن يصل اليهم بواسطة الولاة

الصلاة

كانت اقامة الصلاة من أعمال الخليفة فهو يقيمها بنفسه أو بواسطة نائبه ، وكان في كل مصر مسجد جامع تؤدى فيه الجمعة ولا ينصب منبر في غيره . فلم تكن تقام الا جمعة واحدة في المصر يقيمها الخليفة ان كان أو الوالي . ولم يبلغنا أنه تعددت في البلد المساجد في عهد الخلفاء الراشدين

العلم والتعليم

كانت الكتابة قبل مجيء الاسلام نادرة في الامة العربية خصوصا في الحجاز ونجد . فلما جاء الاسلام ساعد على انتشار الكتابة بين العرب . ففي زمن رسول الله ﷺ استخدم جماعة من فقراء اسرى بدر في أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المدينة الكتابة وكان ذلك فداءه . ولما فتحت البلاد الفارسية . وكان بالحيرة كثير ممن يكتبون . جلبوا جماعة منهم يعلمون الكتابة بالمدينة . وكان أكثر النشء الذي نشأ في عهد الخلفاء الراشدين يعرف الكتابة — أما الخلفاء أنفسهم فكانوا كلهم من الكتاب قبل الهجرة وقد كتبوا لرسول الله ﷺ

ولم يكتب شيء من الكتب في ذلك العهد الا القرآن فانه جمع في صحف في عهد أبي بكر . وفي عهد عثمان كتبت منه مصاحف عدة أرسل بها الى الامصار ليكون كل مصحف اماما لأهل المصر الذي أرسل اليه . أما سنة رسول الله ﷺ فلم تجمع في كتاب . وكذلك لم يكتب شيء في العلوم . أما الدينية منها فكانوا مكتفين بما فطروا عليه من معرفة اللغة العربية وفهم أساليبها . والشريعة انما جاءتهم بهذه اللغة . فكانوا يستقلون بفهمها — وأما العلوم الصناعية فان الامة كانت لا تزال على بداوتها وان كان قد نبغ منها من أمكنهم انشاء المدن ومسح الاراضي بالمران على ذلك لا بتعلم سابق — وما قيل من أن علم النحو دونه أبو الاسود الدؤلي بأمر الامام علي ، فقد كان شيئا يسيرا ولم يكن كتابا مدونا كما هو المعروف في الكتب المدونة .

تم تاريخ الخلفاء الراشدين

والحمد لله وحده

« ويليه تاريخ دولة بني أمية »

فهرس

عمر

عثمان

علي

مدنية الاسلام

على عهد الخلفاء الراشدين